

ثمرات الأوقاف

لِتَقْيِ الدِّينِ أَبِي بَكْرٍ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ
ابْنِ حِجَّةِ الْحَمَوِيِّ

تَحْقِيقٌ وَتَعْلِيقٌ
مُحَمَّدُ أَبُو الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمُ

لِلْمَكْتَبَةِ الْعَصْرِيَّةِ
بِغَدَا - بَغْدَاد

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر

١٤٢٦ هـ - 2005 م

شركة لبناء شريف الانصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

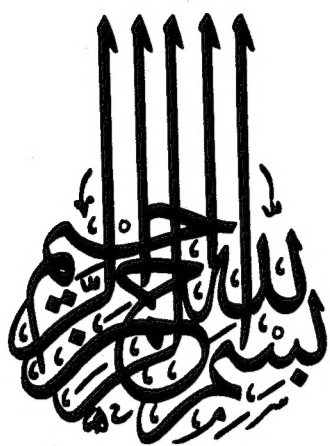
الدار النشوء الحديثة المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب. ٨٣٥٥ - ١١ - تليفاكس ٦٥٥٠١٥ ٩٦١١٠٠

صيدا - ص.ب. ٢٢١ - تليفاكس ٧٢٠٣١٧ ٩٦١٧٠٠

e-mail: alassrya@terra.net.lb

ISBN 9953-34-217-2



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

من الكتب الأدبية التي شَغِفَ بها الأدباء في مطالع هذا العصر كتابُ ثمرات الأوراق لمؤلفه الأديب البارِع ابن حَجَّة الحموي؛ لِمَا حوَاه من محاسن الآداب، ومنتخب الطُرف والثُتف والأخبار، والمصطفى من الأشعار، والطريف من الرسائل والرحلات؛ مما اختاره من كتب الأدب والتاريخ. ساق كل ذلك دون ترتيب أو تبويب أو عَقْدِ فصول أو عناوانات؛ رغبة منه في إمتاع قارئه، وإعانتته على استيعابه دون مَلَلٍ أو كلال؛ فهو يأخذ في حكاية عن التَّحويين، إلى أخرى عن الفقهاء؛ ثم إلى ترجمة لإحدى الفِرَق إلى فصل عن الملوك؛ يسوق كل ذلك في سهولة ويُسر؛ مما يهشُّ له القلب وتستروح به النفس. ويطمئن إليه الخاطر.

وكأنه حين فرغ من تصنيفه، وانتهى من اختياره؛ عمد إلى الكتب مرة ثانية؛ فاختار طائفة أخرى من الشعر والقصص والأخبار على هذا النسق، وألَّف كتاباً آخر سمَّاه الذيل على ثمرات الأوراق.

وبهذا وذاك اجتمع في هذا الكتاب عُصارة ما في كتب الأدب وخلاصة ما حَوَتْه كتب السِّير والتاريخ على مرِّ العصور.

وصاحب هذا الكتاب أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي المعروف بابن حَجَّة؛ أحد أعيان القرن التاسع في الشعر والزجل والكتابة والتأليف. وُلِدَ في حماة سنة سبع وستين وسبعمائة ونشأ بها، وحفظ القرآن من طفولته، ثم أخذ يعمل في صناعة الحرير وعمل الأزرار؛ حتى لُقِّب بالأزراري؛ ولكن كانت له فطرة تهوى الأدب وتنزع إليه، فلقي بعض الشيوخ من أدباء عصره في الشام، وأخذ عنهم؛ ولم يلبث أن أصبح بعد فترة وجيزة مستوعباً لفنون الأدب، محصلاً للكثير من المعارف؛ حافظاً للشعر، راويةً للخبر.

ثم بدأ يقول الزجل، وعمل فيه كتاباً، ثم تدرَّج إلى قول الشعر، وعمل القصائد والمدائح لملوك الإسلام بالشام. ثم رحل إلى مصر، فمدح الملك المؤيد، فأعجبه

شعره، كما أعجب بوفرة محفوظه، فقرَّبَه إليه وأدناه، وجعله منشئ ديوان الإنشاء، وصَحِبَه في رحلاته وأسفاره.

وكان هذه المنزلة المرموقة، أثارت حفيظة أقرانه، وأذكت نار عداوة بينه وبينهم؛ وعاون على ذلك أنه كان تياهاً بنفسه، كثير التحدث عن شِغْرِه ومواهبه، فكرهوه وسموه، وعملوا فيه الأهاجي، ونالوا من قدره وعلمه؛ بل إن النواجي صاحب حلية الكميت عمل فيه كتاباً أسماه «المحجة إلى سرقات ابن حجة» فتبرَّم أبو بكر بالقاهرة، وزهد الإقامة فيها ونَزَح عائداً إلى وطنه حماة؛ ومكث بها زماناً، ثم عاوده الحنين إلى مصر؛ ولكن لم يلبث أن أدركه المرض بحماة، فمات فيها سنة ٨٣٧.

وفي هذه الحياة الخصيبة التي قضاها بمصر والشام، شغل بالتأليف والتصنيف، ووضع كثيراً من الكتب والرسائل ومختارات من الشعر والنثر؛ بعضها طبع، وبعضها لا يزال مخطوطاً، وبعضها ذَكَرَهُ المؤلفون الذين ترجموا لحياته. فمما طبع منها:

١ - كتاب ثمرات الأوراق وذيله، وهو هذا الكتاب.

٢ - كتاب تأهيل الغريب، طبع بمصر مراراً، وألحق بكتاب ثمرات الأوراق.

٣ - تقديم أبي بكر، طبع في مصر باسم خزانة الأدب، وهو شرح على بديعته التي مدح بها النبي ﷺ، وقد احتوى هذا الشرح كل أصناف البديع.

٤ - كشف اللثام في التورية والاستخدام، من أبواب البديع. طبع في بيروت سنة ١٣٠٠هـ.

من الكتب المخطوطة:

١ - قهوة الإنشاء، مجموع مراسلات ومكاتبات؛ وهو صورة لصناعة الترسل في عصره. منه مخطوطة بدار الكتب وأخرى بالأسكوريال.

٢ - الثمرات الشهيية في الفواكه الحموية؛ مجموعة من أشعاره، منه نُسخٌ في دار الكتب وبرلين والأسكوريال.

٣ - ثبوت الحجة على الموصلي والحلي. نُقِدَ لبديعيتي صفي الدين الحلي وعز الدين الموصلي، منه نسخة في برلين.

٤ - مجرى السوابق؛ وهو قصائد في الخيل والسبق، بعضها له، وبعضها لابن نباتة، ومنه نسخة في مكتبة غوطا.

٥ - تغريد الصادق؛ منه نسخة في برلين.

وقد ذكر السخاوي في كتابه الضوء اللامع ١١ : ٥٤ ضمن ترجمته من مصنفاته: بلوغ

المرام من سيرة ابن هشام، وأمان الخائفين من أمة محمد سيد المرسلين، وبلوغ المراد من الحيوان والنبات والجماد، وبروق الغيث على الغيث الذي انسجم من شرح لامية العجم، وجنى الجنتين، وقطر النباتين، وتفصيل البردة، وثبوت العشرة، وديوان شعره.

وكان أول ما طبع من كتاب ثمرات الأوراق في المطبعة الوهبية بمصر سنة ٣٠٠ هـ، ثم توالى طبعاته.

وحينما شرعت في عرضه وتصحيحه، رجعت إلى هذه المطبوعة ورمزت لها بالحرف ط، ثم إلى المخطوطات الآتية:

١ - نسخة بخط إبراهيم بن الأحذب، برقم ٤٣٨ أدب تيمور مكتوبة بقلم فارسي في ٢٨٠ صفحة، ورمزت لها بالحرف أ.

٢ - نسخة برقم ٧٤٠ - أدب تيمور مكتوبة بقلم نسخ ورمزها ب.

٣ - نسخة برقم ٣٠٩ - أدب بقلم معتاد، تقع في ١٧٤ ورقة ورمزها ج.

٤ - نسخة برقم ٥٠٣، أدب، بخط عمر بن عيسى كُتِبَتْ في سنة ١٠١١ هـ، تنقص من آخرها بضع ورقات، وعدد أوراقها ١١٢ ورقة، ورمزها د.

وجميع هذه النسخ: المطبوع منها والمخطوط، غير مضبوط ويشيع فيها الخطأ. وقد استعنت في التصحيح بالكثير من كتب الأدب والتاريخ ولا سيما الكتب التي نقل عنها المؤلف.

والله ولي التوفيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

ثمرات الأوراق

لتقي الدين

أبي بكر بن علي بن محمد
ابن حجة الحموي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام، حجة العرب، وترجمان الأدب،
تقي الدين أبو بكر بن حجة الحنفي [الحموي]، منشيء
دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، تَعَمَّده الله
برحمته :

أما بعد حمد الله الذي فكَّهنا بِشمار أوراق العلماء،
والصلاة والسلام على نبيه شجرة العلم التي أضلها ثابتٌ
وفرَّعها في السماء، وعلى آله وصحبه الذين هم فروع هذه
الشجرة، وأغصانها التي دنت لهذه الأمة قُطوفها المثمرة؛
فإني ورَّيت بتسمية هذا الكتاب بِشمار الأوراق، عالماً أنَّ
قُطوفه لم تَدُنْ لغير ذوي الأذواق.

أبو عثمان المازني والوائق

فمن ذلك ما نقلته من «دُرَّة الغَوَاص»^(١) لأبي محمد القاسم بن علي الحريري، صاحب المقامات، أن أبا العباس المُبرِّد، روى أن بعضَ أهلِ الذِّمَّةِ^(٢) سأل أبا عثمان المازني في قراءة «كتابِ سيبويه» عليه، وبَدَّلَ له مائة دينار في تدريسه إيَّاه، فامتنع أبو عثمان من ذلك. فقال له المبرِّد: جُعِلْتُ فِدَاكَ! أترُدُّ الثَّقَّةَ مع فاقَتِكَ واحتياجِكَ إليها! فقال أبو عثمان: هذا الكتابُ يَشتمَلُ على ثلثمائة، وكذا وكذا آية من كتاب الله؛ وَلَسْتُ أَرى أَنْ أُمَكِّنَ منها ذِمِّيًّا، غيرَ على كتاب الله تعالى، وَحِمِيَّةً له.

قال: فَاتَّفَقَ أَنْ غَنَّتْ جَارِيَّةٌ بِحَضْرَةِ الْوَائِقِ مِنْ شِعْرِ الْعَرَجِيِّ^(٣):

أَظْلَمُومُ إِنَّ مُصَابِكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةً ظَلَمُ^(٤)

فاختلف من بالحضرة في إعراب «رجلاً»؛ فمنهم من نَصَبَه، وجعله اسمَ «إِنَّ»، ومنهم من رفعه على أنه خبرها، والجارية مُصَرَّةٌ على أَنَّ شَيْخَهَا أبا عثمان المازني لَقَّنَهَا إيَّاه بالنَّصَب. فَأَمَرَ الْوَائِقُ بِإِشْخَاصِهِ.

قال أبو عثمان: فلما مثَّلت بين يديه، قال: مِمَّنَ الرجل؟ قلت: من مازنٍ يا أمير المؤمنين. قال: أيِّ الموازين؟ قلت: من مازن ربيعة. فكلَّمَنِي بكلام قومي، وقال: بِاسْمِكَ؟ - لأنهم يَغْلِبُونَ الميمَ بَاءً، والباءُ ميمًا إذا كانت^(٥) في أوَّلِ الأسماء؛ فَكَرِهْتُ أَنْ أُجِيبَهُ على لُغَةِ قومي، لثَلَا أواجهه بالمكر، فقلت: بَكَرٍ يا أمير المؤمنين، فَفَطِنَ لما قصدته، وأعجبه مِنِّي ذلك، ثم قال: ما تقول في قول الشاعر:

أَظْلَمُومُ إِنَّ مُصَابِكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةً - ظَلَمُ

(١) درة الغواص في أوهام الخواص ٤٢، ٤٣، والخبر أيضاً في ابن خلكان ٢٥٦/١، وإنباه الرواة ٢٤٩/١.

(٢) الذمة: العهد؛ وأهل الذمة هم من دخلوا في عهد المسلمين وأمانهم.

(٣) ديوانه: ٣٤.

(٤) ب، د: «إليكُم ظلم»، ونسب صاحب الخزانة (٢١٧/١) هذا البيت إلى الحارث بن خالد المخزومي.

(٥) كذا في ط، وفي باقي الأصول: «كان».

أترفع «رَجُلًا» أم تَنْصِبُهُ؟ فقلت: الوجهُ النَّصْبُ^(١) يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذلك؟ فقلت: إنَّ «مُصَابِكُمْ» مصدرٌ بمعنى «إِصَابَتِكُمْ». فأخذ اليزيدي^(٢) في مُعَارَضَتِي، فقلت: هو بمنزلة قولك: «إِنَّ ضَرْبَكَ زِيدًا ظَلَمَ»، فـ «الرجل» مفعول «مُصَابِكُمْ» ومنصوبٌ به. والدليل عليه أنَّ الكلامَ مُعَلَّقٌ^(٣) إلى أن تقول: «ظَلَمَ» فيتم، فاستحسنه الواثق، وأمر له بِألفٍ دينار.

قال أبو العباس المبرِّد: فلما عاد أبو عثمان إلى البصرة، قال لي: كيف رأيت! رَدَدْنَا لِلَّهِ مائةَ فَعَوْضًا ألفاً.



دواء الخُمار

ونقلت من «درة الغواص»^(٤) أيضاً؛ أنَّ حامدَ بن العباس^(٥) سأل عليَّ بن عيسى^(٦) في ديوان الوزارة: ما دواء الخُمار^(٧)؟ وكان قد عَلِقَ به، فأعرض عن كلامه: وقال: ما أنا وهذه المسألة! فحَجَلَ حامدٌ منه، والتفت إلى قاضي القضاة أبي عمر^(٨)، فسأله عن ذلك، فتَنَحَّجَ لإصلاح صَوْتِهِ، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وقال النبي ﷺ: «اسْتَعِينُوا عَلَى كُلِّ صَنْعَةٍ بِصَالِحٍ مِنْ أَهْلِهَا». والأعشى هو المشهورُ بهذه الصَّنَاعَةِ في الجاهلية حيث قال:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا^(٩)

ثم تلاه أبو نواس في الإسلام، فقال:

دَغَ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ وَدَاوِنِي بِالتِّي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ^(١٠)

فأَسْقَرَ حينئذٍ وَجْهَ حامد، وقال لعلِّي بن عيسى، ما ضَرُّكَ يا باردُ أن تجيبَ ببعض ما أجاب به مولانا قاضي القضاة، وقد استظهر في جواب المسألة بقول الله

(١) ب، د: «بالنصب».

(٢) أ، ط: «اليزيدي»، وما أثبتناه من ب، د، وابن خلكان؛ وفي إنباه الرواة: «التوزي».

(٣) أ، ط: «متعلق».

(٤) درة الغواص ٧٤.

(٥) حامد بن العباس، أحد الوزراء في خلافة المقتدر العباسي. الفخري ٢٣٦.

(٦) ذكره الفخري ضمن وزراء المقتدر العباسي، وقال: «كان علي بن عيسى شيخاً من شيوخ الكتاب فاضلاً ديناً ورعاً متزهداً».

(٧) الخمار: بقية السكر.

(٨) ذكر وكيع في أخبار القضاة ٣/٣٢٦ أنه أحد قضاة بغداد، واسمه أبو عمر محمد بن عبيد.

(٩) ديوانه: ١٢١.

(١٠) ديوانه: ٢٣٤.

تعالى أولاً، ثم بقول النبي ﷺ ثانياً، وأدّى المعنى، وخرَج من العُهْدَة! فكان خَجَلُ ابن عيسى أكثر من خَجَلِ حامد لما ابتدأه بالمسألة.



إسماع عبيد الله بن الحسن القاضي

ويضارع هذه الحكاية في لِين بعض القضاة المتقشِّفين وإذعانهم - مع الزُّهد والتقشُّف - للمُسْتَقْتَنِينَ، ما نقلته من دُرَّةِ الْغَوَاصِ^(١) للحريري أيضاً، قال:

اجتمع قومٌ على شراب فتغنى مغنيهم بشعر حسان:

إِنَّ التي ناولتني فرددتها قُتِلَتْ - قُتِلَتْ فهاتها لم تُقْتَلِ^(٢)

كلتاها حَلَبُ الْعَصِيرِ فَعَاطَنِي بِزُجَاجَةٍ أَرْخَاهُمَا لِلْمِفْصَلِ^(٣)

فقال بعضهم: امرأتي طالقُ إن لم أسأل الليلةَ عبيد الله^(٤) بن الحسن القاضي عن عِلَّةِ هذا الشعر، لِمَ قال: «إِنَّ التي» فَوَحَّدَ، ثم قال: «كلتاها»، فثنى؟ فأشفقوا على صاحبهم، وتركوا ما كانوا عليه^(٥)، وَمَضَوْا يَتَخَبَّطُونَ الْقِبَائِلَ إِلَى بني شَقِيرة^(٦)، فوجدوا عبيد الله بن الحسن يصلي، فلما فَرَّغَ من صلاته قالوا له: «قد جئناك في أمر دَعَتْنَا إليه الضرورة؛ وشرحوا له الخبر، وسألوه الجواب».

فقال مع زُهدِهِ وتَقَشُّفِهِ: «إِنَّ التي ناولتني فرددتها» عَنِ بها الخمرة الممزوجة بالماء، ثم قال: «كلتاها حَلَبُ الْعَصِيرِ» يريد الخمرة المتحلَّبة من الْعِنَبِ، والماء المتحلَّب من السَّحَابِ المكنى عنه بالمُعْصِرَاتِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾^(٧) [النبا: ١٤].

قال الحريري: [هذا ما فسره القاضي عبيد الله بن الحسن، وكان ممن يرمق بالمهابة، ولا يسمح بالدُّعَابَةِ^(٨)]، وقد بَقِيَ في الشعر ما يُحْتَاجُ إلى تفسيره؛ أما قوله: «إِنَّ التي ناولتني فرددتها قُتِلَتْ قُتِلَتْ»؛ فإنه خاطب [به]^(٩) الساقى الذي ناوله كأساً

(١) درة الغواص ٨٣.

(٢) ديوانه: ٣١١ - ٣١٢.

(٣) المفصل هنا كمبضع: اللسان؛ وكمجلس: وأحد مفاصل الأعضاء.

(٤) عبيد الله بن الحسن: من أهل البصرة، وقاضيه. قال ابن حيان: «من ساداتها فقهاً وعلماء».

تهذيب التهذيب ٧/٧.

(٥) ط: «فيه».

(٦) شقرة: قبيلة من ضبة.

(٧) سورة النبا: ١٤، والزيادة من درة الغواص.

(٨) درة الغواص ٨٣.

(٩) تكملة من ط.

ممزوجة؛ لأنه يقال: قَتَلْتُ الخمرَةَ إذا مَزَجْتَهَا، فكأنه أراد أن يُعَلِّمَهُ أنه قَطِنَ لما فعله، ثم ما اقتنع بذلك منه حتى دَعَا عليه بالقتل في مقابلة المَزَج؛ ثم إنه عَقَّب الدعاء عليه بأن استعطى منه ما لم تُقْتَل، يعني الصَّرَفَ التي لم تُمَزَج. وقوله: «أرخاهما لِلْمِفْصَل»، يعني به اللسان، وسُمِّيَ «مِفْصَلًا» بالكسر؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل.

قال الحريري: وليس على ما اعتمده القاضي عبيد الله من الإسماع وخَفَضَ الجناح ما يَفْدَحُ في نزاهته، وَيَغْضُ من نُبْله ونباهته. والله أعلم.



وفود عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك

ونقلت من دُرَّة الغَوَاص أن عُرْوَةَ بن أذِينَةَ^(١) الشاعر وَقَد على هشام بن عبد الملك في جماعة من الشعراء، فلَمَّا دخلوا عليه عرف عُرْوَةَ، فقال [له]^(٢): أَلَسْتُ القائل:

لَقَدْ عَلِمْتُ وما الإشرافُ من خُلُقِي أن الذي هُوَ رَزْقِي سوف يَأْتِينِي^(٣)
أَسْعَى لَهُ فَيُعَنِّي تَطَلُّبُهُ ولو قَعَدْتُ أَتَانِي لَا يُعْنِينِي

وأراك قد جِئْتَ من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق! فقال له: يا أمير المؤمنين، زادك الله بَسْطَةً في العِلْم والجِسْم، ولا رَدَّ وإِفْدَكَ خَائِبًا! والله لقد بِالَغْتُ في الوَعظ وأذَكَّرْتَنِي ما أُنْسَانِيهِ الذَّهر.

وخرج من قُورِهِ إلى راحلَتِهِ، فركبها، وتوجَّهَ راجعاً إلى الحجاز. فلَمَّا كان في اللَّيْلِ، ذَكَرَهُ هِشَام، وهو في فراشه؛ فقال: رجل من قريش قال حكمةً، وَوَفَدَ إِلَيَّ فَعَجِبْتُهُ^(٤) وَرَدَّدْتَهُ عن حاجته! وهو مع ذلك شاعِرٌ لَا آمَنُ ما يَقُول.

فلَمَّا أَصْبَح سَأَلَ عنه، فَأُخْبِرَ بانصرافه، فقال: لَا جَرَمَ^(٥)! لِيَعْلَمَ أن الرِّزْقَ سِيَأْتِيهِ؛

(١) عروة بن أذينة - وأذينة لقب له، واسمه يحيى بن مالك بن الحارث - فقيه محدث شاعر كان غزلاً مقدماً من شعراء أهل المدينة. الأغاني ١٠٥/٢١ (ساسي).

(٢) تكلمة من ط.

(٣) أمالي المرتضى ٤٠٨/١، قال المرتضى: وقوم يخطئون فيروون قوله: «لقد علمت وما الإشراف من خلقي» بالسين غير معجمة، وذلك خطأ، وإنما أراد «الإشراف أي إني لا أستشرف وأتطلع إلى ما قاتني من أمور الدنيا ومكاسبها، ولا تتبعها نفسي، والبيت الأول أيضاً في اللسان: «شرف».

(٤) جبهه بالأمر: استقبله به.

(٥) لا جرم: كلمة هي في الأصل بمنزلة «لا بدّ، ولا محالة»، فجرت على ذلك حتى تحولت إلى معنى القسم، وصارت بمعنى «حقاً».

ثم دعا مولى له، وأعطاه ألفي دينار، وقال: الحق بهذه ابن أذينة، وأعطه إياها. قال: فلم أدرِكُهُ إِلَّا وقد دَخَلَ بيته، فقرَعْتُ الباب عليه، فخرج إليّ، فأعطيته المال. فقال: أبلغ أمير المؤمنين [عني]^(١) قولي: سعيثُ فأكذبتُ، ورجعتُ إلى بيتي فأتاني رزقي.



هَذْبَةُ بْنُ خَالِدٍ عَلَى مَائِدَةِ الْمَأْمُونِ

ويضارع هذه الحكاية ما حُكي عن هَذْبَةَ بْنِ خَالِدٍ^(٢) رحمه الله تعالى، قال: حضرتُ مائدة المأمون، فلما رُفعت المائدة جَعَلْتُ أَلْتَقِطُ ما في الأرض^(٣)، فنظر إليّ المأمونُ فقال: أَمَا شَبِعْتَ يا شيخ! قلتُ: بَلَى يا أمير المؤمنين، ولكن حدثني حمادُ بن سَلَمَةَ عن ثابتِ بن أنسٍ، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَكَلَ ما تَحْتَ مَائِدَةِ آمِنَ مِنَ الْفَقْرِ».

فنظر المأمون إلى خادم واقف بين يديه، فأشار إليه فما شَعَرْتُ أن جاءني ومعه منديل فيه ألف دينار، فناولني إياه، فقلت: يا أمير المؤمنين، وهذا من ذاك!



واو عمرو

ومن لطائف ما جئيت من ثمرات الأوراق أنَّ رجلاً من الحُدَّاق، كان يكتب كتاباً وإلى جانبه آخر، فانتهى في كتابه إلى اسم «عمرو»، فكتَّبه بغير واو، فقال: يا مَوْلانا، زِدْها واواً للفرق بينها وبين «عمر»، فقال له: والله لقد تَفَضَّلَ مَوْلانا - بزيادة الواو بمعنى «تفوضل». قلت: وبعضهم يرى أن الواو تُزاد بعد «لا» النافية في الجواب، إذا قيل [لك]^(٤): هل فعلت كذا وكذا؟ فتقول: لا، وعافاك الله.

قال أبو الفرج بن الجوزي: رُوِيَ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عنه أنه قال لرجل عَرَسَ^(٥): أَكَّانَ كَذَا^(٦) وكذا؟، فقال: لا، أطال الله بقاءك، فقال الإمام عُمر رضي الله عنه: قد عَلِمْتُمْ فلم تَتَعَلَّمُوا، هَلَّا^(٧) قلت: لا، وعافاك الله!

(١) تكملة من د.

(٢) هو هذبة بن خالد بن الأسود القيسي، الحافظ، روى عن حماد بن سلمة، وروى عنه البخاري وقال عنه: «صدوق لا بأس به»، توفي سنة ٢٣٩. تهذيب التهذيب ١١/٢٥.

(٣) ج: «ما على الأرض».

(٤) تكملة من د.

(٥) ط: «عربي».

(٦) ب، د: «هل كان».

(٧) د: «فهلا».

وَحُكِّيَ عَنِ الصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ أَنَّهُ قَالَ: هَذِهِ الْوَاوُ هُنَا أَحْسَنُ مِنْ وَاوَاتِ الْأَصْدَاغِ فِي وَجَنَاتِ الْمِلَاحِ.

قلت: وهذه الواو - أعني واو عمرو - نظم فيها الشعراء كثيراً، ومنهم أبو نواس؛ قال يهجو أشجع السلمي:

قُلْ لِمَنْ يَدْعِي سُلَيْمَى سَفَاهَاً لَسْتُ مِنْهَا وَلَا قُلَامَةً ظُفْرٍ^(١)
إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ سُلَيْمَى كَوَاوٍ أَلْحِقْتُ فِي الْهَجَاءِ ظُلْمًا بَعَمُرُو
وقال أبو سعيد الرستمي^(٢) وأجاد:
أَفِي الْحَقِّ أَنْ يُعْطَى ثَلَاثُونَ شَاعِراً وَيُخْرَمَ مَا دُونَ الرِّضَا شَاعِرٌ مِثْلِي^(٣)!
كَمَا سَامَحُوا عَمْرَأَ بَوَاوٍ مَزِيدَةً وَضَوِيقَ «بِسْمِ اللَّهِ» فِي أَلْفِ الْوَضِلِ



لطائف

ومن لطائف «المجتنى»^(٤) ما نُقِلَ عَنِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ يَوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ. قيل: إنه قال يوماً للقاضي الفاضل: لنا مُدَّةٌ لَمْ نَرِ فِيهَا الْعِمَادَ الْكَاتِبَ، فَلَعَلَّهُ ضَعِيفٌ! امْضُ إِلَيْهِ، وَتَقَفِّذْ أَحْوَالَهُ.

فلَمَّا دَخَلَ الْفَاضِلُ إِلَى دَارِ الْعِمَادِ، وَجَدَ أَشْيَاءَ أَنْكَرَهَا فِي نَفْسِهِ، مِثْلَ آثَارِ مَجَالِسِ أَتْسٍ، وَرَائِحَةِ خَمَرٍ؛ وَآلَاتِ طَرَبٍ، فَانْشَدَ:

مَا نَاصَحْتُكَ خَبَايَا الْوُدِّ مِنْ رَجُلٍ مَا لَمْ يَنْتَلِكْ بِمَكْرُوهِ مِنَ الْعَدَلِ
مَحَبَّتِي فِيكَ تَأْبَى عَنْ مُسَامَحَتِي بِأَنْ أَرَاكَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الزَّلَلِ
فلَمَّا قَامَ مِنْ عِنْدِهِ^(٥) خَرَجَ الْعِمَادُ عَنْ كُلِّ مَا كَانَ فِيهِ^(٥) وَأَقْلَعَ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ الْبَيِّنَةِ.

(١) ديوانه: ١٧٩.

(٢) أبو سعيد الرستمي، واسمه محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن رستم، ذكره الثعالبي في اليتيمة: (٢٧٢/٣ - ٢٩٠) وقال فيه: «من أبناء إصبهان وأهل بيوتاتها ومن يقول الشعر في الرتبة العليا، ومن شعراء العصر في الطبقة الكبرى».

(٣) اليتيمة: ٢٨٧/٣.

(٤) كتاب مجتنى الأدباء لابن أبي حجلة المصري المتوفى سنة ٧٧٦، ذكره في مغناطيس الدر النفيس؛ وقال: هو كتاب أدب في معنى ذخيرة ابن بسام؛ يشتمل على فرسان النثر والنظام، اشتمل على غزل ونسيب، وذكرى حبيب، ومدح وتأنيب، وفوائد ونوادر؛ وهو عند المصريين بالنسبة إلى الذخيرة، كالروضة في الجزيرة. كشف الظنون.

(٥ - ٥) كذا في الأصول المخطوطة، وفي ط: «نزع العمد عما كان فيه».

ومن اللطائف ما نُقِلَ عن الملك الظاهر، رحمه الله تعالى، قيل: إنه لما استعرض الأمير بدر الدين بيلبك الخازن دار ليشتريه، قال له التاجر^(١): يا مولانا السلطان، وهو يُحسن الكتابة؛ فأحضرت له دواة، فكتب يقول:

لولا الضرورة ما فارقتُكم أبداً ولا تنقلتُ من ناس إلى ناس
فأعجبه الاستشهاد بهذا البيت، ورغبه ذلك في مشتراه.

ويضارعه ما حُكي عن صاحب كمال الدين بن العديم، قيل: إن إنساناً رفع قصّة إلى صاحب المشار إليه، فأعجبه خطّها، فأمسكها، وقال لرافعها: أهذا خطك؟ قال: لا، ولكن حَضَرْتُ إلى باب مولانا، فوجدت بعض مماليكه، فكتبها لي، فقال: عليّ به. فلما حَضَرَ وجد مملوكه، فقال: هذا خطك؟ قال: نعم، قال: فهذه طريقي، مَنْ هو الذي أظهرك^(٢) عليها؟ فقال: يا مولانا: كنت إذا وقعت لأحد على قصة، أخذتها منه، وسألته المهلة حتى أَكْتُبَ عليها سطرين أو ثلاثة. فأمره أن يكتب بين يديه ليراه، فكتب:

وما تَنفَعُ الآدابُ والعِلْمُ والحِجَى وصاحبُها عند الكمال يموت!

فكان إعجاب صاحب بالاستشهاد أكثر من الخط؛ ورفع منزلته بعد ذلك. وأذكرني اتفاق التورية في الكمال هنا، ما حُكي عن القاضي فخر الدين لقمان والقاضي تاج الدين أحمد بن الأثير رحمهما الله؛ أنهما كانا صُحبة السلطان على تلّ العُجول^(٣)؛ ولفخر الدين مملوك اسمه «الطُنباء» فاتفق أنه طلب مملوكه المذكور، وناداه، يا طنباء؛ فقال له: نعم - ولم يأتِه - وكانت ليلة مُمطرة مُظلمة، فأخرج فخر الدين بن لقمان رأسه من الخِيمة، فقال: تقول: نعم، ولم أرك! فقال القاضي تاج الدين:

في ليلةٍ من جُمادى ذاتِ أُنديةٍ لا يُبصرُ الكلبُ في أرجائها الطُنباء^(٤)

ومن اتفاق التورية أيضاً ما كتبه الشيخ شرف الدين بن عبد العزيز الأنصاري شيخ من شيوخ حمّة مُلغزاً في باب، إلى والده:

مَا واقِفٌ في المَخْرَجِ يَذْهَبُ طَوَراً وَيَجِي؟
لَسْتُ أَخَافُ شَرَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ بِمُزْتَجٍ

(١) ط: «أنا حر».

(٢) أظهرك: أطلعك.

(٣) في ب، «تلّ المعجوز» وتلّ الفحول. موضع قرب غرة. انظر مفرج الكروب ٧٤/٣.

(٤) لمرة بن محكان، اللسان ١٨٥/٢٠، والأندية. جمع ندى.

فكتب إليه والده في الجواب: ذهاب وإياب، وخوف وشر، هذا باب خصومة؛ والسلام.

قيل: إنَّ الصَّاحِبَ جمالَ الدين بن مطروح^(١) كتب لبعض الرؤساء رُفْعَةً إلى صديق له يشفَعُ فيها عنده. فكتب ذلك الرئيس: هذا الأمرُ عَلَيَّ فيه مَشَقَّةٌ. فكتب ابنُ مطروح في جوابه: «لولا المَشَقَّةُ...». فلما وقف عليها، فهِمَّ الإشارة إلى قول المتنبي:

لولا المَشَقَّةُ سادَ الناسُ كُلُّهُمُ الجودُ يُفْقِرُ والإقدامُ قَتَّالُ^(٢)
وقَضَى الشُّغلُ على الفور.

قيل: إنَّ يوسفَ الصديق عليه السلام كتب على باب السِّجْنِ لَمَّا خَرَجَ منه: «هذا قَبْرُ الأحياءِ، وشماتة^(٣) الأعداءِ، وتجربة^(٤) الأصدقاء». وقال الشاعر:

دَعَوَى الإخاءِ على الرِّخاءِ كثيرةٌ بل في الشَّدائدِ تُعرَفُ الإخوانُ
ولله دُرٌّ يزيدُ بن المُهَلَّبِ^(٥) من ذي مُروءةٍ وسخاءٍ، وتُصدِّقُ أَمَلٌ! فإنَّه كان في
سِجْنِ الحِجَاجِ يُعَذِّبُ، فدَخَلَ عليه يزيدُ بن الحكم، وقد حَلَّ عليه نَجْمٌ^(٦) - وكانت
نجومه في كل أسبوعٍ سِتَّةَ عَشَرَ ألفَ درهم - فقال له:
أضْبَحْ في قَيْدِكَ السَّماحةَ والـ جودَ وَفَضْلَ الصَّلاحِ، والحَسَبِ^(٧)
لا بَطَرٌ^(٨) إِنْ تَتَابَعْتَ نِعَمٌ وصابِرٌ في البَلَاءِ مُخْتَسِبٌ

(١) هو أبو الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسن الملقب جمال الدين المصري، وزير الملك الصالح، توفي سنة ٦٤٩هـ، ودفن بجبل المقطم، حسن المحاضرة ١/١٧٢.

(٢) ديوانه: ٢٠٤/٢.

(٣) شمت: فرح ببلية نزلت بعدوه.

(٤) تجربة الأصدقاء: اختبارهم لمعرفة الصديق الحق والصديق الزيف.

(٥) أمير من القادة الشجعان الأجواد، وَلِيَّ خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٣هـ، ثم عزله عبد الملك بن مروان برأي الحجاج، فلما تم عزله حبسه، فهرب إلى الشام، ولما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة ولَّاه خراسان ثانية فعاد إليها، ثم نقله إلى إمارة البصرة فبقي فيها حتى عزله عمر بن عبد العزيز واستدعاه إلى الشام، وحبسه في حلب، وبعد وفاة عمر وثب غلمان يزيد وأخرجوه من السجن وسار إلى البصرة ودخلها وغلب عليها سنة ١٠١هـ، وقتل في حرب بينه وبين مسلمة بن عبد الملك. ابن خلكان ٢/٢٦٤.

(٦) النجم: ما قدر له من المال في كل أسبوع.

(٧) كذا في ب، د والأغاني وفي أ: «فضل السلاح».

(٨) كذا في ب، د، ج والأغاني. وفي الأصل: «لا نصر» تحريف.

بَزَزْتُ سَبْقَ الْجِيَادِ فِي مَهَلٍ قَصَّرْتُ دُونَ سَغِيكِ الْعَرَبِ
فَالْتَفْتُ يَزِيدَ إِلَى مَوْلَى لَهُ وَقَالَ: أَغْطِهِ نَجْمَ هَذَا الْأُسْبُوعِ، وَنَصْبِرْ عَلَى الْعَذَابِ
إِلَى السَّبْتِ الْآخِرِ^(١).

قال الأصمعي: حضرت مجلس الرشيد، وفيه مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ، إِذْ دَخَلَ أَبُو
نُؤَاسٍ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ: مَا أَخَذْتُمْ بَعْدَنَا يَا أَبَا نُؤَاسٍ؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْ
فِي الْخَمْرِ؟ فَقَالَ: قَاتِلَكَ اللَّهُ! وَلَوْ فِي الْخَمْرِ! فَأَنْشَدَ:

يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمٍ نِمْتُ عَنْ لَيْلَى وَلَمْ أَنْمِ^(٢)
حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهَا، فَقَالَ:

فَتَمَشَّتُ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشِّي الْبُزْءِ فِي السَّقَمِ
فَقَالَ: أَحْسَنَ وَاللَّهِ! يَا غَلَامَ، أَغْطِهِ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ وَعَشْرَ خِلْعٍ^(٣)؛
فَأَخَذَهَا وَخَرَجَ.

قال الأصمعي: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ لِي مُسْلِكُ بْنُ الْوَلِيدِ: أَلَمْ تَرَ إِلَى
الْحَسَنِ بْنِ هَانِيءٍ كَيْفَ سَرَقَ شِعْرِي، وَأَخَذَ بِهِ مَالًا وَخِلْعًا! فَقُلْتُ لَهُ: وَأَيُّ مَعْنَى
سَرَقَ لَكَ؟ قَالَ: قَوْلُهُ: «فَتَمَشَّتُ فِي مَفَاصِلِهِمْ...» الْبَيْتُ.

فَقُلْتُ: وَأَيُّ شَيْءٍ قُلْتَ؟ قَالَ:

كَأَنَّ قَلْبِي وَشَاحَاها إِذَا خَطَرَتْ وَقَلْبُهَا قُلُوبُهَا فِي الصَّمْتِ وَالْخَرَسِ^(٤)
تَجْرِي مَحَبَّتُهَا فِي قَلْبٍ وَامِقِهَا جَرِي السَّلَامَةِ فِي أَعْضَاءِ مُنْتَكِسِ



(١) الخبر والشعر في الأغاني ٢٩١/١٢ (طبع دار الكتب).

(٢) ديوانه: ٣٢٤.

(٣) الخلع: جمع خلعة، وهي ما يخلع على الإنسان من مال أو ثياب أو نحوه.

(٤) ديوانه: ٣٢٥.

ترجمة المعتزلة

المعتزلة: طائفة من المسلمين، يَرَوْنَ أَنَّ أفعالَ الخير من الله، وأفعالَ الشر من الإنسان، وأن القرآن مخلوق محدث ليس بقديم، وأنَّ الله تعالى غيرُ مرئيٍّ يوم القيامة، وأن المؤمن إذا ارتكب الذنب مثل الزنا وشرب الخمر كان في منزلة بين منزلتين - يعنون بذلك أنه ليس بمؤمن ولا كافر - وأن إعجاز القرآن في الصُرْفَة - لَا أَنَّهُ فِي نَفْسِهِ مُعْجَزٌ، وَلَوْ لَمْ يَصْرِفِ اللَّهُ الْعَرَبَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ لِاتَّوَا بِمَا يُعَارِضُهُ، وَأَنَّ مِنْ دَخَلَ النَّارَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا.

وإنما سُمُّوا مُعْتَزِلَةً لِأَن وَاصِلَ بْنَ عَطَاءٍ^(١) كَانَ يَجْلِسُ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا ظَهَرَ الْخِلَافُ، وَقَالَتِ الْخَوَارِجُ بِكُفْرِ مَرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ^(٢)، وَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَإِنْ فُسِّقُوا بِالْكَبَائِرِ، خَرَجَ وَاصِلٌ عَنِ الْفَرِيقَيْنِ، وَقَالَ: إِنَّ الْفَاسِقَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا مُؤْمِنٌ وَلَا كَافِرٌ، بَلْ هُوَ فِي مَنزَلَةٍ بَيْنَ مَنزَلَتَيْنِ، فَطَرَدَهُ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ مَجْلِسِهِ، فَاعْتَزَلَ عَنْهُ، فَقِيلَ لِأَتْبَاعِهِ: «مُعْتَزِلَةٌ».

وَلَمْ يَزَلْ مَذْهَبُ الْإِعْتَزَالِ يَنْمُو إِلَى أَيَّامِ الرَّشِيدِ. فَظَهَرَ بِشَرِّ الْمَرْيَسِيِّ، وَأُخْضِرَ الشَّافِعِيُّ مُكْبَلًا فِي الْحَدِيدِ، فَسَأَلَهُ بِشَرٌّ، وَالسُّؤَالُ: مَا تَقُولُ يَا قُرَشِيٌّ فِي الْقُرْآنِ؟ فَقَالَ: إِيَّايَ تَعْنِي! قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَخْلُوقٌ؛ فَخَلَّى عَنْهُ. وَأَحْسَسَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْشَّرِّ، وَأَنَّ الْفِتْنَةَ تَشْتَدُّ فِي إِظْهَارِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، فَهَرَبَ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى مِصْرَ.

وَلَمْ يَقُلْ الرَّشِيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، فَكَانَ الْأَمْرُ بَيْنَ أَخْذٍ وَتَرْكِ إِلَى أَنْ وَلِيَ الْمَأْمُونُ، فَقَالَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَبَقِيَ يُقَدِّمُ رَجُلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَى فِي الدَّعْوَةِ إِلَى ذَلِكَ، إِلَى أَنْ قَوِيَ عَزْمُهُ فِي السَّنَةِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا. وَطَلَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخْبَرَ فِي الطَّرِيقِ أَنَّهُ تُوفِّيَ. فَبَقِيَ الْإِمَامُ مُحْبُوسًا بِالرِّقَّةِ حَتَّى بُويعَ الْمُعْتَصِمُ، فَأُخْضِرَ إِلَى بَغْدَادَ، وَعَقِدَ لَهُ مَجْلِسَ لِلْمَنَظَرَةِ؛ وَفِيهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ وَالْقَاضِي أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادَ، وَغَيْرُهُمَا، فَتَظَاهَرُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَلَمْ يَقْطَعْ فِي بَحْثٍ، وَسَفَّهَ أَقْوَالَ الْجَمِيعِ، فَأَمَرَ بِهِ فَضْرِبَ بِالسَّيَاطِ إِلَى أَنْ أُغْمِيَ عَلَيْهِ، وَرُمِيَ عَلَى بَارِيَّةٍ^(٣) وَهُوَ مَغْشِيٌّ

(١) هو واصل بن عطاء، رأس المعتزلة، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين.

(٢) البارية: الحصار المنسوج.

(٣) في أ: «الكبائر».

عليه، ثم حُمِلَ وصار إلى مَنْزِلِهِ، ولم يَقُلْ بخلق القرآن، ومكث في السَّجَن ثمانية وعشرين شهراً. ولم يَزَلْ يحضِر الجمعة ويُفْتِي ويحدِّث حتى مات المعتصم، وولِي الوثاق، فأظْهَرَ ما أظْهَرَ من المحنة، وقال للإمام أحمد: لا تَجْمَعَنَّ إِلَيْكَ أحداً، ولا تُسَاكِنِي في بَلَدٍ أنا فيه. فاخْتَفَى الإمام أحمدُ لا يَخْرُجُ إلى صلاةٍ ولا غيرها حتى مات الوثاق، وولِي المتوكل، فأخْضَرَهُ وأكْرَمَهُ، وأطْلَقَ له مالاً فلم يَقْبَلْهُ وقرَّقه، وأجرى على أهله وولده في كلِّ شهرٍ أربعة آلاف درهم، ولم تزل جاريةٌ إلى أن مات المتوكل.

وفي أيامه ظهرت السُّنَّة، وكتب إلى الآفاق برفع ما تَوَقَّع من المِحَنَّة، وإظهار السُّنَّة، وتكلَّم في مجلسه بالسُّنَّة.

ولم يزلوا - أغني المعتزلة - في قُوَّة إلى أيام المتوكل، ولم يَكُنْ في هذه الأُمَّة الإسلامية أهلٌ بِدْعَةٍ أكثر منهم.

ومن مشاهيرهم - على ما ذكروا - من الفضلاء الأعيان: الجاحظ، وواصل بن عطاء، والقاضي عبد الجبار، والرَّمَاني النحوي، وأبو عليِّ الفارسي، وأقضى القضاة الماورديَّ الشافعي؛ وهذا غريب.

ومن المعتزلة أيضاً الصَّاحِبُ بن عَبَّاد، وصاحب الكشَّاف^(١)، والفراء النحوي والسَّيرافي، وابن جُني. والله أعلم.



جاريتا جعفر البرمكي

ومما جنيته من ثمرات الأوراق، أنَّ الرِّشيدَ سأل جعفرًا عن جَواريه، فقال: يا أمير المؤمنين، كنتُ في اللَّيلة الماضية مُضْطَجِعاً وعندي جاريتان، وهما يُكْبِسَانِي، فتناوَمْتُ عنهما لأنظر صَنِيعَهُمَا، وإحداهما مَكِّيَّة، والأخرى مَدَنِيَّة. فمدَّت المَدَنِيَّة يديها إلى ذلك الشيء فَلَعَبَتْ به، فانتَصَب قائماً، فوثبت المَكِّيَّة وقعدت عليه، فقالت المَدَنِيَّة: أنا أحقُّ به؛ لأنَّني حَدَّثْتُ عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحيا أرضاً مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ». فقالت المَكِّيَّة: وأنا حَدَّثْتُ عن مُعمر، عن عِكْرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس الصَّبْدُ لمن أثاره، إنما الصَّبْدُ لمن اقتنصه»^(٢).

فَصَحَّحَ الرِّشيدُ حتى اسْتَلْفَى على قفاه وقال: هل من سَلْوَةٍ عنهما؟ فقال جعفر: هما ومولاهما بحُكْمِ أمير المؤمنين؛ وحملهُمَا إليه.



(١) هو محمود بن عمر الزمخشري.

(٢) ج: «أخذه».

في مجلس أمير

ومن ذلك ما حُكي أن بعض المطربين غنى في جماعة عند بعض الأمراء^(١):

إِذَا أَنْتَ أُعْطِيتِ السَّعَادَةَ لَمْ تُبَلِّ وَلَا نَظَرْتُ شُزْرًا إِلَيْكَ الْقَبَائِلُ^(٢)

وَأَنْ فَوْقَ الْأَعْدَاءِ نَحْوُكَ أَشْهُمَا تَنْشَاهَا عَلَى أَغْقَابِهِنَّ الْمَنَاصِلُ^(٣)

فَطَرَبَ الأمير إلى الغاية. ولَمَّا زَادَ طَرَبُهُ قَالَ لِبَعْضِ مَمَالِيكِهِ: هَاتِ خِلْعَةً لِهَذَا الْمُغْنِي - وَلَمْ يَفْهَمْ الْمُغْنِي مَا يَقُولُهُ الأمير - فَقَامَ لِقَلَّةٍ حَظَّهُ إِلَى بَيْتِ الْخَلَاءِ، وَفِي غَيْبَتِهِ جَاءَ الْمَمْلُوكُ بِالْخِلْعَةِ، فَوَجَدَ الْمُغْنِيَّ غَائِبًا، وَقَدْ حَصَلَ فِي الْمَجْلِسِ عَزِيدَةٌ، وَأَمَرَ الْأَمِيرُ بِإِخْرَاجِ الْجَمِيعِ، فَقِيلَ لِلْمُغْنِيِّ بَعْدَ مَا خَرَجَ: إِنَّ الْأَمِيرَ كَانَ قَدْ أَمَرَكَ بِخِلْعَةٍ. فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ، حَضَرَ الْمُغْنِيَّ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَمِيرِ وَغَنَّى، فَقَالَ:

إِذَا أَنْتَ أُعْطِيتِ السَّعَادَةَ لَمْ «تُبَلِّ» وَلَوْ نَظَرْتُ شُزْرًا إِلَيْكَ الْقَبَائِلُ

بِفَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّ الْبَاءِ، فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: نَعَمْ؛ لِأَنِّي لَمَّا بُلْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَاتَنْتِي السَّعَادَةَ مِنَ الْأَمِيرِ.

فَأَوْضَحُوا لِلْأَمِيرِ^(٤) الْقِصَّةَ، فَضَحِكَ، وَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ، وَأَمَرَ لَهُ بِخِلْعَةٍ.



حرفة الأدب

وَمِنَ الْمَنْقُولِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمَعْتَزِ، مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، مَعَ كَمَالِهِ وَغَزَاةِ فَضْلِهِ كَانَ لَمْ يَزَلْ مُنْغَصًّا فِي مَدَةِ حَيَاتِهِ، بُويعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ، وَظَنَّ أَنَّ الْحِظَّ قَدْ تَنَبَّهَ لَهُ، فَلَمْ يَتِمَّ الْأَمْرُ لَهُ إِلَّا يَوْمًا وَاحِدًا، ثُمَّ قُبِضَ عَلَيْهِ وَقُتِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، عَلَى أَنَّهُ مَا وَافَقَ عَلَى وَلَايَةِ الْأَمْرِ حَتَّى اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَسْفِكُوا دَمًا، وَمَحَلَّهُ مِنَ الْأَدَبِ لَا يَخْفَى، وَشَمْعَةُ فَضْلِهِ كَالصُّبْحِ لَا تَقُطُّ^(٥) وَلَا تَطْفَأُ، وَفِيهِ قِيلَ هَذَا [الشعر]^(٦):

لَلَّهِ دُرُّكَ مِنْ مَلِكٍ بِمَضْيَعَةٍ نَاهِيكَ فِي الْعِلْمِ وَالْعِلْيَاءِ وَالْحَسْبِ
مَا فِيهِ «لَوْ» وَلَا «لَيْتُ» تَنْغُصُهُ وَإِنَّمَا أَدْرَكْتَهُ حِرْفَةُ الْأَدَبِ

(١) بعدها في ج. «وقال هذين البيتين».

(٢) لم تبل: لم تكثر. والنظر الشذر: ما كان بمؤخر العين.

(٣) المناصل: جمع منصل وهو السيف.

(٤) كذا في ب. وفي باقي الأصول «له».

(٥) القط: القطع.

(٦) من ١، ج.

وقال ابن الساعاتي [رحمه الله] ^(١):

عَفْتُ الْقَرِيضَ فَلَا أَسْمُو لَهُ أَبَدًا حَتَّى لَقَدْ عَفْتُ أَنْ أُرَوِّيه فِي الْكُثْبِ
هَجَزْتُ نَظْمِي لَهُ لَا مِنْ مَهَانَتِهِ لَكُنْهَا خِيفَةٌ مِنْ حِرْزَةِ الْأَدَبِ
قلت: وما بَرَحَ الزَّمانُ مُولَعًا بِخُمُولِ أَهْلِ الْأَدَبِ وَخُمُودِ نَارِهِمْ: كان الملكُ
الأَفْضَلُ نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف من كبارِ أَهْلِ الْأَدَبِ، وكان حَسَنَ
السَّيْرَةِ مُتَدَيِّنًا، قُلَّ أَنْ عَاقَبَ عَلَى ذَنْبٍ، وله المَنَاقِبُ الجميلة، وكان أكبرَ إِخْوَتِهِ - ومع
كمالِ صفاتِهِ وآدابه ^(٢) التي سارت بها الرُّكبان - ما صَفَا لَهُ الدهرُ، ولا هَنَىءَ بالملك
بعد أبيه السُّلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى. لَبِثَ مَدَّةً يَسِيرَةً بدمشق المحروسة،
ثم حَضَرَ إِلَيْهِ عُمُهُ أَبُو بَكْرٍ العادل وأخوه الملك العزيز عثمان، فأَخْرَجَاهُ مِنْ مُلْكِهِ
بدمشق إِلَى صَرْخَدَ، ثُمَّ جَهَّزَاهُ إِلَى سُمَيْسَاطَ، وفي ذلك كُتِبَ إِلَى الإمامِ الناصر ببغداد
[يقول هذا الشعر] ^(٣):

مَوْلَايَ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَصَاحِبَهُ عثمانَ قَدْ مَنَعَا بِالسَّيْفِ حَقِّي عَلَيَّ ^(٤)
فَانْظُرْ إِلَى حَظِّ هَذَا الْأَسَمِ كَيْفَ لَقِيَ مِنْ الْأَخْرِ مَا لَاقَى مِنْ الْأَوَّلِ
فكتب الناصرُ الجواب؛ ولكنَّ الفرقَ مثل الصُّبحِ:
وَاقَى كِتَابُكَ يَا بَنَ يَوْسُفَ مُغْلِنًا بِالصُّدُقِ يُخْبِرُ أَنَّ أَصْلَكَ طَاهِرُ
غَضَبُوا عَلَيَّا حَقَّهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ النَّبِيِّ لَهُ بِئِشْرَبَ ثَائِرُ
فَاضْبِرْ فَإِنَّ غَدًا عَلَيْهِ حِسَابُهُمْ وَابْشُرْ، فَنَاصِرُكَ الْإِمَامُ النَّاصِرُ
ولم ينصره الإمامُ الناصر، بل تَوَفَّى فَجَاءَهُ بِسُمَيْسَاطَ رحمه الله تعالى.
ومن شعره، ما ذكره ابن واصل في «مُفَرَّجِ الْكَرُوبِ» [قال رحمه الله تعالى] ^(٥):

يَا مَنْ يُسَوِّدُ شَعْرَهُ بِخُضَابِهِ لَعَسَاءُ مِنْ أَهْلِ الشَّيْبَةِ يَحْصُلُ
هَا، فَاخْتَضِبْ بِسَوَادِ حَظِّي مَرَّةً وَلَكَ الْأَمَانُ بِأَنَّهُ لَا يَنْصُلُ ^(٦)
قلت: ومثله الملكُ الناصر داود ابن الملك المعظم، وكانَ داوُدُ - صاحبُ

(١) ب، د. «فتنقة»، والبيتان نسيهما ابن خلكان في ترجمة عبد الله بن المعتز (٢٥٨/١) إلى

علي بن محمد بن بسام.

(٢) ب، ج، د: «وأدواته».

(٣) تكملة من ج.

(٤) ب، ج: «قد غضبا».

(٥) مفرج الكروب ٦٩/٣.

(٦) لا ينصل: لا يخرج عنه خضابه.

الكرّك^(١) المشار إليه - ما برح مع كمال فضله مُتَكِّدًا، مُشْتَتًا في البلاد، تَوَجَّهَ إلى بغداد ومعه فَخْرُ القضاة ابن بُصَاقه، والشيخ شمس الدين الخرشاهي، وقد اضْطَحَبَ جواهر نفيسة، والتَّجَأَ إلى الإمام الناصر، وطلب الحضور بين يديه لِشَهِادِهِ فِي الْمَلَأِ مِمَّا قُدِّرَ لَهُ ذَلِكَ، وَلَا وَافِقَ الْخَلِيفَةَ عَلَيْهِ، حَتَّى امْتَدَحَهُ بِقَصِيدَتِهِ الْبَائِيَةِ الَّتِي مَطَّلَعَهَا:

وَدَانِ أَلَمْتُ بِالْكَثِيبِ دَوَائِبُهُ وَجُنْحُ الدُّجَى وَحَفٌّ تَجُولُ غَيَاهِبُهُ^(٢)
تُقَهِّقُهُ فِي تِلْكَ الرُّبُوعِ رُعودُهُ وَتَبْكِي عَلَى تِلْكَ الطُّلُولِ سَحَابِيُهُ
وقال منها في حكاية حاله مع الخليفة:

أَيَحْسُنُ فِي شَرْعِ الْمَعَالِي وَدِينِهَا أَنْتَ الَّذِي تُعْزَى إِلَيْهِ مَذَاهِبُهُ
بَأَنِّي أَخُو ضِ الدَّوِّ وَالدَّوِّ مُقْفِرٌ سَبَارِيثُهُ مُقْفَرَةٌ وَسَبَابِسُهُ^(٣)
وَيَأْتِيكَ غَيْرِي مِنْ بِلَادٍ قَرِيبَةٍ لَهُ الْأَمْنُ فِيهَا صَاحِبٌ لَا يُجَانِبُهُ
فَيَلْقَى دُنُوًّا مِنْكَ لَمْ أَلَقْ مِثْلَهُ وَيَحْظَى، وَلَا أَحْظَى بِمَا أَنَا طَالِبُهُ
وَيَنْظُرُ فِي الْأَلَاءِ قَدْ سِكَ نَظْرَةً فِيرْجِعُ وَالتَّوْرُ الْإِمَامِي صَاحِبُهُ
وَلَوْ كَانَ يَغْلُونِي بِنَفْسٍ وَرُثْبَةٍ وَصِدْقٍ وَلَا لَسْتُ فِيهِ أَصَاقِبُهُ^(٤)
لَكُنْتُ أَسْلَى النَّفْسِ مِمَّا تَرُومُهُ وَكُنْتُ أَذُودُ الْعَيْنِ عَمَّا تُرَاقِبُهُ
وَلَكِنَّهُ مِثْلِي، وَلَوْ قُلْتُ إِنِّي أَزِيدُ عَلَيْهِ لَمْ يَعِْبْ ذَاكَ عَائِبُهُ

وَالنَّاصِرُ يُشِيرُ إِلَى مَظْفَرِ الدِّينِ كُوكَبُورِي بْنِ كُوجِكْ، فَإِنَّهُ قَدِمَ إِلَى الدِّيَوَانِ، فَطَلَبَ الْحُضُورَ فَأَدِنَ لَهُ، وَبَرَزَ لَهُ الْخَلِيفَةُ وَشَاهَدَ وَجْهَهُ -.

وَلَمَّا وَقَفَ الْخَلِيفَةُ عَلَى هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، أَعْجَبَتْهُ غَايَةُ الْإِعْجَابِ، وَهِيَ مِنَ النَّظْمِ الْبَدِيعِ فِي غَايَةِ لَا تُدْرَكُ، فَاسْتَدْعَاهُ بَعْدَ شَطْرِ مِنَ اللَّيْلِ، وَاجْتَمَعَ بِهِ خَلْوَةً، وَمَا تَمَّ لَهُ مَا ظَفَرَ بِهِ مُظَفَّرُ الدِّينِ الْمَذْكُورِ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ رَاعَى عَمَّهُ الْمَذْكُورَ. وَالَّذِي ثَبَتَ عِنْدَ أَهْلِ التَّارِيخِ أَنَّ عَمَّهُ الْعَادِلَ مَا فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا حَسَدًا لَهُ عَلَى كِمَالِ أَدَوَاتِهِ، وَبِلَاغَةِ آدَابِهِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ كَتَبَ خَطًّا مَنْسُوبًا أَزْرَى بِالْحَدَائِقِ الْمَذْبُجَةِ.



(١) الكرك: حصن بفلسطين.

(٢) وحف: شديد السواد. والغياهب: الظلمة الشديدة.

(٣) الدو والدوية: الفلاة. والسباريت: جمع سبروت، وهو الأرض القفر.

(٤) أصاقبه: أدانيه، وفي ب: «أناسبه».

من طرائف التصحيف

وحكى صاحب الرِّيحان والريعان^(١) قال: حَضَرَ شاب ذكي بعض مجالس الأدب، فقال بعضهم: ما تَصْحِيفُ «تَصَحَّتْ فَخُتَّتَنِي»؟ قال: «تصحيف حسن»، فاستغرب إسراره. وكان بالمجلس شاعرٌ من أهل بَلَنْسِيَّةَ، فأتاهم الشاب، وقال مُخْتَبِراً له: ما تصحيفُ «بَلَنْسِيَّةَ»؟ فأطرق ساعةً ثم قال: «أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ»، فجعلَ الْبَلَنْسِيَّ يقول: صَدَقَ ظَنِّي! إِنَّكَ تَدَّعِي، وَتَنْتَحِلُ ما تقول: والفتى يَضْحَك، ثم قال له: أَشْعَرْتُ يا شاعرٌ؟ فقال له: وأَيُّ نسبة بين «أربعة أشهر» وبين «بَلَنْسِيَّةَ»، فقال له: إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي اللَّفْظِ فهو في المعنى. ثم قام وهو يقول ذلك. فَتَنَّبَهُ بعضُ الحاضرين ونَظَرَ، فإذا أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ «ثَلَاثُ سَنَةٍ»، وهو تصحيف «بَلَنْسِيَّةَ» فَحَجَلَ الشاعرُ المنازع، ومضى إلى الشاب معترفاً ومُعْتَذِراً.

وهذا المعنى في بَلَنْسِيَّةَ نظمه الشيخ بدر الدين الدماميني أُحْجِيَةً فقال:

أَيَا وَاحِدِ الْعَصْرِ، مَا بَلَدَةٌ مُحَاسِنُهَا فِي الْوَرَى تُذَكِّرُ،
حِجَا مَا يُرَادِفُ تَصْحِيفُهَا وَحَقِّكَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرُ؟



عمارة اليميني

ومن^(٢) غريب ما نُقِلَ عن الفقيه عمارة اليميني^(٣) الشاعر أنه مرَّ بِمَضْلُوبٍ، فقال:

وَمَدَّ عَلَى صَلِيبِ الصَّلْبِ مِنْهُ يَمِيناً لَا تَطُولُ إِلَى الشَّمَالِ
وَنَكَّسَ رَأْسَهُ لِعِتَابِ قَلْبٍ دَعَاهُ إِلَى الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ

فلم يَمْضِ ثلاثة أيام حتى صُلِبَ بَيْنَ الْقَصْرَيْنِ مع الجماعة الغرماء.

وكان الفقيه نَجْمُ الدِّينِ عُمَارَةُ أَدِيباً، مَاهِراً، فَفَهِهاً، شَافِعِيَّ المَذْهَبِ، مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، قَدِمَ فِي دَوْلَةِ الْفَاطِمِيِّينَ إِلَى طَلَاعِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَصَاحِبُهَا يَوْمَئِذٍ الْفَائِزُ بْنُ الظَّافِرِ وَوَزِيرُهُ الصَّالِحُ بْنُ رُزَيْكٍ. فَكَانَ عِنْدَهُ فِي أَكْرَمِ مَحَلٍّ، وَأَعَزَّ جَانِبٍ، وَاتَّحَدَ بِهِ

(١) كتاب ريحان الألباب وريحان الشباب في مراتب الآداب، ذكره صاحب كشف الظنون وقال: كتاب حسن في الأدب، في مجلدين، لأبي القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة الإشبيلي من أعيان إشبيلية، وكاتب صاحبها السيد أبو حفص.

(٢) ط. «من الغريب».

(٣) هو نجم الدين عمارة بن علي بن زيدان، مؤرخ شاعر فقيه من أهل اليمن، قدم إلى مصر فأحسن الفاطميون إليه وأكرموه، ومدحهم، ولم يزل موالياً لهم حتى دالت دولتهم وملك السلطان صلاح الدين مصر، فرتاهم، فتغير عليه، وأمر بصلبه في سبعة من أعيان المصريين سنة ٥٦٩ هـ. ابن خلكان ٣٧٦/١.

على ما كانَ يَبْتَهِمَا من الاختلاف في العقيدة، ثم رَحَلَ إلى اليمن، وعادَ إلى مِصر، وأقام بها إلى أنْ زَالَتْ دَوْلَةُ الفاطميين على يَدِ السُّلْطَانِ صلاح الدين يُوسُف بن أيُّوب، ورثى أَهْلَ العَصْرِ بِقصيدته التي أولها:

رَمَيْتَ يَا دَهْرُ كَفَّ الْمَجْدِ بِالشَّلَلِ ورُعْتَهُ بعد حُسْنِ الحَلِي بِالْعَطَلِ^(١)
ومنها:

قَدِمْتُ مِصْرَ فَأَوْلَتْنِي خَلَائِفُهَا من المَكَارِمِ مَا أَزْبَى عَلَى الأَمَلِ
قَوْمٌ عَرَفْتُ بِهِمْ كَسْبَ الأُلُوفِ وَمِنْ تَمَامِهَا أَنَّهَا جَاءَتْ وَلَمْ أَسَلِ
يَا لَائِمِي فِي هَوَى أُنْبَاءِ فَاطِمَةٍ لَكَ المَلَامَةُ إِنْ قَصَّرْتَ فِي عَدْلِي
بِاللَّهِ زُرْ سَاحَةَ القُضْرَيْنِ وَابْكِ مَعِي عليهما لَا عَلَى صِفَيْنِ وَالْجَمَلِ
مَاذَا تَرَى كَانَتْ الإِفْرَنْجُ فَاعِلَةٌ بِنَسْلِ آلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ
وهي طويلة غاية في الحسن. فلَمَّا بَلَغَتْ السُّلْطَانُ صلاح الدين تَغَيَّرَ عَلَيْهِ.
وقيل: إِنَّهُ اسْتَفْتَى عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَتِهِ المِيمِيَّةِ:

وَكَانَ مَبْدَأُ هَذَا الأَمْرِ مِنْ رَجُلٍ سَعَى فَأَصْبَحَ يُدْعَى سَيِّدَ الأُمَمِ
فَأَفْتَى الفُقَهَاءُ بِقَتْلِهِ، وقالوا: إِنَّ هَذَا الكَلَامَ رَأْيُ الفَلَاسِيفَةِ فِي التُّبُوتِ وَأَنَّهَا
بِالتَّكْسِبِ، وهي إِخْدَى المسائل التي كُفِّرُوا بِهَا، والصَّحِيحُ أَنَّهُ يَجْتَبِي^(٢) مِنْ رُسُلِهِ مَنْ
يَشَاءُ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ عِنْدَهُ شَعُورٌ بِأَنَّهُ يَكُونُ فِيمَا بَعْدَ نَبِيٍّ.

والذي يَظْهَرُ أَنَّ هَذَا مُفْتَعَلٌ عَلَى الفقيه عماره، نَظَّمَهُ بَعْضُ أَعْدَائِهِ عَلَى لِسَانِهِ،
ودَسَّه فِي تِلْكَ القَصِيدَةِ، وَمَا يَبْنَعُ أَنَّ القَاضِي الفَاضِلَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَانَ لَهُ مِثْلٌ إِلَى
هَلَاقِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا اسْتَشَارَهُ السُّلْطَانُ صلاح الدين فِي ضَرْبِهِ قَالَ: الكَلْبُ يَسْكُتُ ثُمَّ
يَنْبَحُ. قَالَ: فَيُسَجِّنُ، قَالَ: يُرْجَى لَهُ الخَلَاصُ، قَالَ: فَيُقْتَلُ. قَالَ: [كذا]^(٣). المُلُوكُ
إِذَا أَرَادُوا شَيْئاً فَعَلُوهُ. وَنَهَضَ فَأَمَرَ بِصُلْبِهِ مَعَ الغُرْمَاءِ^(٤). فَلَمَّا أَمْسَكُوهُ، مَرَّوْا بِهِ عَلَى
بَابِ الفَاضِلِ، فَلَمَّا رَأَاهُ مَقْبِلاً، قَامَ وَدَخَلَ إِلَى بَيْتِهِ وَأَغْلَقَ البابَ، فَقَالَ الفَقِيهُ عُمَارَةُ:

عَبْدُ الرَّحِيمِ قَدْ اخْتَجَبَ إِنَّ الخَلَاصَ مِنَ العَجَبِ^(٥)

(١) ذكرها ابن خلكان في ٢٧٦/١ ومطلعها.

الحمدُ للعيسِ بَعْدَ العَزْمِ والهَمَمِ حَمْدُاً يَقْرُومُ بِمَا أَوَّلَتْ مِنَ النُّعَمِ
(٢) يجتبي: يختار.
(٣) من ط.

(٤) ذكر ابن خلكان في ترجمة عماره أَنَّهُ اتَّفَقَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ رُؤَسَاءِ البَلَدِ عَلَى التَّعَصُّبِ لِلْمِصْرِيِّينَ
وإِعَادَةِ دَوْلَتِهِمْ. فَلَمَّا أَحْسَنَ بِهِمْ صلاح الدين شَقَّهْمُ فِي رَمَضَانَ سَنَةِ ٥٦٩ هـ.

(٥) ديوانه: الورقة ٣٦.

نكتة أدبية

قال ابن سناء المُلْك^(١) من أبيات:

صَلِّينِي وَهَذَا الْحُسْنُ بَاقٍ قَرِيبًا يُعَزَّلُ بَيْتُ الْحُسْنِ مِنْهُ وَيُكْنَسُ
فَوَقَفَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَلَى هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، وَكَتَبَ إِلَى ابْنِ سَنَاءِ
الْمُلْكِ مِنْ جُمْلَةٍ فَضَّلَ:

وَمَا قُلْتُ هَذِهِ الْغَايَةَ، إِلَّا وَتُعَلِّمُنِي أَنَّهَا الْبِدَايَةُ، وَلَا قُلْتُ هَذَا الْبَيْتُ آيَةُ الْقَصِيدَةِ
إِلَّا وَتَلَا مَا بَعْدَهُ: ﴿وَمَا تُرِيهِمْ مَنَآيَةَ﴾ [الزخرف: ٤٨]؛ ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا
تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]. وَلَا عَيْبَ فِي هَذِهِ الْمَحَاسِنِ إِلَّا قُصُورُ الْأَفْهَامِ، وَتَقْصِيرُ
الْأَنَامِ، وَإِلَّا فَقَدْ لَهَجَ النَّاسُ بِمَا تَحْتَهَا، وَدَوَّنُوا مَا دُونَهَا. وَالْقَصِيدَةُ فَائِقَةٌ فِي حُسْنِهَا،
بَدِيعَةٌ فِي فَنِّهَا، وَلَكِنْ «بَيْتٌ يُعَزَّلُ وَيُكْنَسُ»، أَرَدْتُ أَنْ أَكُنْسَهُ مِنَ الْقَصِيدَةِ «فَإِنْ لَفْظَةً،
الْكُنْسُ» غَيْرَ لَائِقَةٍ بِمَكَانِهَا.

فَأَجَابَ ابْنُ سَنَاءِ الْمُلْكَ قَائِلًا: قَدْ عَلِمَ الْمَمْلُوكُ مَا نَبَهَ عَلَيْهِ مَوْلَانَا مِنْ أَمْرِ الْبَيْتِ
الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَكُنْسَهُ مِنَ الْقَصِيدَةِ، وَقَدْ كَانَ الْمَمْلُوكُ مُشْغُوفًا بِهَذَا الْبَيْتِ، مُسْتَحْلِيًا لَهُ،
مُتَعَجِّبًا^(٢) مِنْهُ، مُعْتَقِدًا أَنَّ قَافِيَةَ بَيْتِهِ أَمِيرَةٌ ذَلِكَ الشَّعْرُ، وَسَيِّدَةُ قَوَافِيهِ، وَمَا أَوْقَعَهُ فِي
الْكُنْسِ إِلَّا ابْنُ الْمَعْتَزِ حَيْثُ يَقُولُ:

وَقَوَامِي مِثْلُ الْقَنَاءِ مِنَ الْخَطِّ وَخَدِّي مِنْ لِحْيَتِي مَكْنُوسُ
وَالْمَوْلَى يَعْلَمُ أَنَّ الْمَمْلُوكَ لَمْ يَزَلْ يَجْرِي خَلْفَ هَذَا الرَّجُلِ وَيَتَعَثَّرُ، وَيَطْلُبُ
مَطَالِبَهُ فَتَتَعَصَّرُ عَلَيْهِ وَتَتَعَذَّرُ، وَمَا مَالَ الْمَمْلُوكُ إِلَّا إِلَى طَرِيقٍ مَنْ مِثْلُهُ إِلَيْهِ طَبْعُهُ؛ وَلَا
سَارَ إِلَّا مِنْ دَلَّةٍ عَلَيْهِ سَمْعُهُ، وَرَأَى الْمَمْلُوكُ أَبَا عُبَادَةَ قَدْ قَالَ:

وَيَا عَاذِلِي فِي عَبْرَةٍ قَدْ سَفَحْتُهَا لِبَيْنٍ وَأُخْرَى قَبْلَهَا لِلتَّحْجُبِ^(٣)

(١) هو هبة الله بن سناء المُلْك، شاعر من النبلاء، مصري المولد، كان وافر الفضل، جيد الشعر،
بديع الإنشاء، كتب في ديوان الإنشاء بمصر مدة.

(٢) في ط: «معجباً به».

(٣) أبو عبادة البحري، ديوانه: ٤٩/١.

تَحَاوِلْ مِنِّي شِيْمَةً غَيْرَ شِيْمَتِي وَتَطْلُبْ مِنِّي مَذْهَبًا غَيْرَ مَذْهَبِي
وقال :

وَمَا زَارَنِي إِلَّا وَلَهْتُ صَبَابَةً إِلَيْهِ وَإِلَّا قُلْتُ : أَهْلًا وَمَرْحَبًا^(١)
فَعَلِمَ الْمَمْلُوكُ أَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةٌ لَا تُسْلِكُ ، وَعَقِيلَةٌ^(٢) لَا تُمْلِكُ ، وَغَايَةٌ لَا تُذْرِكُ ،
وَوَجَدَ الْمَمْلُوكُ أَبَا تَمَّامٍ قَدْ قَالَ :

* سَلَّمَ عَلَى الرَّبْعِ مِنْ سَلَمِي بِذِي سَلَمٍ^(٣) *
ووجدته أيضاً قد قال :

* خَشُنْتُ عَلَيْهِ أُخْتُ بَنِي خُشَيْنٍ^(٤) *
فَاشْمَأَزَّ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ طَبْعُهُ ، وَافْتَشَعَرَّ مِنْهُ فَهْمُهُ ، وَنَبَأَ^(٥) عَنْهُ دَوْقُهُ ، وَكَانَ سَمْعُهُ
يَتَجَرَّعُهُ ، وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ^(٦) ، وَوَجَدَ هَذَا الْمُبْدِعُ السَّيِّدَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَزِّ قَدْ قَالَ :
وَقَفْتُ فِي الرَّبْعِ أَشْكُو فَقَدْ مُشِبِّهِهِ حَتَّى بَكَتْ بِدُمُوعِي أَعْيُنُ الزَّهْرِ
لَوْ لَمْ أُعْرِزْهَا دُمُوعَ الْعَيْنِ تَسْفَحُهَا لِرَحْمَتِي لاسْتَعَارَتْهَا مِنَ الْمَطَرِ
وقد قال :

قَدْكَ غُضُنٌ لَا شَكَّ فِيهِ كَمَا وَجْهُكَ شَمْسٌ نَهَارُهُ جَسَدُكَ
فَوَجَدَ الْمَمْلُوكُ طَبْعَهُ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ مَائِلًا ، وَخَاطِرَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَيْهِ
سَائِلًا ، فَتَسَجَّ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ ، وَغَلَبَ عَلَى خَاطِرِهِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ الْمَغْلُوبُ ، وَحُبُّكَ
الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمْ ، فَقَدْ أَعْمَاهُ حُبُّهُ وَأَصَمَّهُ ، إِلَى أَنْ نَظَّمَ تِلْكَ اللَّفْظَةَ فِي تِلْكَ الْأَبْيَاتِ
تَقْلِيدًا لِابْنِ الْمُعْتَزِّ ، قَالَهَا ، وَحَمَلَ أَثْقَالَهَا ، وَهِيَ زَلَّةٌ تُغْفَرُ^(٧) فِي جَنْبِ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا
الْمَمْلُوكُ فَهُوَ عَوْرَةٌ ظَهَرَتْ مِنْ أَبْيَاتِهِ .

(١) ديوانه : ٥٥ / ١ .

(٢) العيلة : كريمة الحي الإبل ، وعقيلة كل شيء أكرمه .

(٣) عجزه :

عَلَيْهِ وَسَمِ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْقِدَمِ

وهو من قصيدة لأبي تمام يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ١٨٤ / ٣ .

(٤) وعجزه :

وَأُنْجِحَ فِيكَ قَوْلُ الْعَاذِلِينَ

وبنو خشين قبيلة من اليمن ، والبيت من قصيدة لأبي تمام يمدح بها إسحاق بن إبراهيم . ديوانه :

٢٩٧ / ٣ .

(٥) نبا عنه : تجافى وتبعد .

(٦) ساغ الشراب : سهل مدخله في الحلق .

(٧) ط : « تغفر » .

فأجابه الفاضل بقوله: ولا حجة فيما احتجّه بابن المعتز عن الكُنس في بَيْتِهِ، فإنّه غيرُ مَعْصومٍ من الغَلَط، ولا يُقْلَدُ إلّا في الصواب فقط.

وقد علم مما ذكره ابنُ رشيّق في «العمدة» من تهافت طبعه، وتباين صنّعه ومُخَالَفَةِ وَضْعِهِ، فذكر من محاسنه ما [لا] ^(١) يعلّق معه كتاب، ومن بارده ^(٢) وعثّه ما لا تلبّس عليه الثياب، وقد تعصّب القاضي السعيد على أبي تمام، فنقصه حظّه. و [أما] ^(٣) البُخْترِي فأعطاه أكثر من حقّه.

ولو كان هذا موضعُ العتب لاشتقّي فُؤادي ولكن للعتابِ مَوَاضِعُ قال الشّيخ صلاح الدين الصّفدي: لما وقفت على هذا الفصل، رأيت ابن سناء المُلْك استعمل هذه اللَّفْظَةَ في غير هذا الموضع، ولم يتعظّ بنهي الفاضل ولا ازعوى ^(٤)، ولا ازدجرَ عما قبحه بل غلب عليه الهوى، فقال:

وَحَلَصَنِي مِنْ يَدَي عِشْقِهِ ظِلَامٌ عَلَى خَدِّهِ جُنْدَسَةٌ ^(٥)
كُنُسْتُ فُؤَادِي مِنْ حُبِّهِ لِحَيْثُهُ كَانَتْ الْمِكْنَسَةُ

قلت: ما برح الشّيخ صلاح الدين - غفر الله له - يُزَوِّقُ تقليداً كقوله عن ابن سناء المُلْك لما استعمل في هذه الصيغة المشتملة على الهجو بشاعة المكنسة: «ولم يتعظّ بنهي الفاضل ولا ازعوى، ولا ازدجر عما قبحه بل غلب عليه الهوى».

أما نقد الفاضل على ابن سناء المُلْك بوضع المكنسة على وَجْنةٍ مَعْشُوقَتِهِ التي ليس للعِدَار بوجنتها شعور، فنقدٌ صحيح.

وأما وَضْعُ مِكنَسَةِ اللَّحِيَةِ على وَجْنةٍ من طلعت لحيته فكان جائراً على عاشقه، وسبّكها هنا في قالب الهجو، فهو نوعٌ من المرقص والمطرب، ولو وقف الفاضل على هذه المكنسة هنا لأعدها لأبياته ^(٦). انتهى.



مجد الدين بن دقيق العيد وأحد تلاميذه

ومن لطائف المنقول ما حكى عن الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد، والد القاضي

(١) من ج، ط.

(٢) في ط: «نادرة وعثّه» تصحيف، والصواب ما في باقي الأصول.

(٣) من ط.

(٤) ارعوى عن القبيح: كف عنه.

(٥) الحندس: شدة الظلام، ويقصد هنا «الحال».

(٦) كذا في ط، وفي باقي الأصول: «لأعدها من أبياته».

القضاة تَقِي الدين - تَعَمَّدَهُمَا اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ - وَهُوَ أَنَّ الشَّيْخَ مَجْدَ الدين المَشَارَ إِلَيْهِ كَانَ كَثِيرَ الإِحْسَانِ إِلَى أَصْحَابِهِ، يَسْعَى لَهُمْ عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ فِيمَنْ يَصْلُحُ لِلْحُكْمِ، وَفِيمَنْ يَصْلُحُ لِلْعَدَالَةِ، فَجَاءَهُ بَعْضُ طَلَبَتِهِ، وَشَكَا [إِلَيْهِ] ^(١) رِقَّةَ الحال، وَكَثْرَةَ الضَّرُورَةِ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قِصَّتَكَ ^(٢)، وَأَنَا أَتَحَدَّثُ مَعَ الْوَلَدِ.

فَكُتِبَ لَهُ ذَلِكَ الطَّالِبُ: الْمَمْلُوكُ فَلَانُ يُقْبَلُ الْأَرْضَ، وَيُنْهَى أَنَّهُ فَقِيرٌ، وَمَظْرُورٌ (بِالْظَّاءِ الْقَائِمَةِ)، وَقَلِيلُ الْحَضِّ (بِالضَّادِ)؛ وَنَاوَلَهَا لِلشَّيْخِ.

فَلَمَّا قَرَأَهَا تَبَسَّمَ وَقَالَ: يَا فَقِيرٌ ^(٣)، [سُبْحَانَ اللَّهِ ^(٤)]!، ضَرْكَ قَائِمٌ، وَحَظَّكَ سَاقِطٌ!

وَمِنْ لَطِيفِ الْمَنْقُولِ عَنْ قَاضِي الْقِضَاةِ شَمْسِ الدين بن خُلَّكَانَ.

أَنَّهُ كَانَ يَهْوَى بَعْضَ أَوْلَادِ الْمُلُوكِ، وَلَهُ فِيهِ الْأَشْعَارُ الرَّائِقَةُ؛ يَقَالُ: إِنْ أَوَّلَ يَوْمٍ زَارَهُ، بَسَطَ لَهُ الطَّرْحَةَ، وَقَالَ: مَا عِنْدِي أَعَزُّ مِنْ هَذِهِ، طَأُّ عَلَيْهَا. وَلَمَّا فَشَا أَمْرُهُمَا، وَعَلِمَ بِهِ أَهْلُهُ، مَنَعُوهُ مِنَ الرُّكُوبِ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ:

يَا سَادَتِي إِنِّي قَنِعْتُ وَحَقَّقْتُمْ
إِنْ لَمْ تَجُودُوا بِالْوِصَالِ تَعَطُّفًا
لَا تَمْنَعُوا عَيْنِي الْقَرِيحَةَ أَنْ تَرَى
لَوْ كُنْتُ تَعْلَمُ يَا حَبِيبِي مَا الَّذِي
لَرَحِمَتَنِي وَرَأَيْتُ لِي مِنْ حَالَةٍ
قَسَمًا بِوَجْهِكَ وَهُوَ بَذْرٌ طَالِعٌ
وَبِقَامَةٍ لَكَ كَالْقَضِيبِ رَكِبْتُ مِنْ
لَوْلَمْ أَكُنْ فِي رُتْبَةٍ أَرْغَى لَهَا أَلْ
لَهَتَكْتُ سِتْرِي فِي هَوَاكَ، وَلَدَّ لِي
وَلَكِنْ خَشِيتُ بَأْنَ يَقُولَ عَوَاذِلِي:
فَارْحَمْ قَدَيْتُكَ حُرْقَةً قَدْ قَارَبَتْ

فِي حُبِّكُمْ مِنْكُمْ بِأَيْسَرِ مَطْلَبٍ ^(٥)
وَرَأَيْتُمْ هَجْرِي، وَقَرِطُ تَجَنُّبِي
يَوْمَ الْخَمِيسِ جَمَالَكُمْ فِي الْمَوَكِبِ
أَلْقَاهُ مِنْ كَمَدٍ إِذَا لَمْ تَزْكَبِ
لَوْلَاكَ لَمْ يَكُ حَمْلُهَا مِنْ مَذْهَبِي
وَبَلِيلُ طُرَّتِكَ الَّتِي كَالْعَيْهَبِ
أَخْطَارُهَا فِي الْحَبِّ أَضْعَبَ مَرْكَبِ
عَهْدَ الْقَدِيمِ صِيَانَةً لِلْمَنْصِبِ
خَلَعُ الْعِذَارِ، وَلَجَّ فِيكَ مُؤَنَّبِي ^(٦)
قَدْ جَنَّ هَذَا الشَّيْخُ فِي هَذَا الصَّبِي
كَشَفَ الْقِنَاعَ بِحَقِّ ذِيَاكَ النَّبِي

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدين بن عبد القاهر التَّبْرِيزِي: الَّذِي [كَانَ] ^(٧) يَهْوَاهُ الْقَاضِي

(١) تَكْمَلَةٌ مِنْ ط، ج.

(٢) كَذَا فِي ط. وَفِي بَاقِي الْأَصُولِ: «اَكْتُبْ قِصَّةً».

(٣) فِي ب، ج، د: «يَا فَقِيرَهُ».

(٤) تَكْمَلَةٌ مِنْ ط، د.

(٥) فَوَاتُ الْوَفَايَاتِ ١/١٠١.

(٦) ط: «سَرَى».

(٧) تَكْمَلَةٌ مِنْ ب، ج.

شمس الدين بن خلّكان رحمه الله، الملك المسعود بن الملك الظاهر، وكان قد تيممه حُبّه، وكنّت أُنَام عنده بالعادليّة، فتحدّثنا في بعض الليالي إلى أن ذهبَت الناس، فقال لي: نَم أنت ها هنا - وألقَى عَلَيَّ قَرْوَةَ قَرْظ - وقَام يَدُورُ حَوْلَ بَرْكَة العادليّة، ويقول في دورانه:

أَنَا وَاللَّهِ هَالِكٌ آيَسٌ مِنْ سَلَامَتِي ^(١)
أَوْ أَرَى الْقَامَةَ الَّتِي قَدْ أَقَامَتْ قِيَامَتِي

وقيل: إن قاضي القضاة شمس الدين المشار إليه - رحمه الله - سأل بعض أهل دِمَشْق المحروسة - وكان المسؤول من خَوَاصِّ أَصْحَابِهِ - عن ترجمته عند أهل دِمَشْق، فاستَغفاه من ذلك، فَالَحَّ عليه، فقال:

أَمَّا الْعِلْمُ وَالْفَضْلُ فَهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَيْهِ، وَأَمَّا النَّسَبُ فَيَدْعُونَ فِيهِ الْأَدْعَاءَ، ويقولون: إِنَّ مَوْلَانَا يَأْكُلُ الْحَشِيشَةَ، ويحبُّ الْعِلْمَانَ.

فقال: أَمَّا النَّسَبُ وَالْكَذِبُ فِيهِ فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الْهَذْيَانِ، وَلَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْتَسِبَ إِلَى الْعَبَّاسِ، أَوْ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ لِأَجَازَا ذَلِكَ. وَأَمَّا النَّسَبُ إِلَى قَوْمٍ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَقِيَّةٌ، وَأَضْلَهُمْ فُرْسٌ مَجُوسٌ، فَمَا فِيهِ فَائِدَةٌ. وَأَمَّا الْحَشِيشَةُ فَالْكُلُّ ارْتِكَابٌ مُحَرَّمٌ، وَإِذَا كَانَ وَلَا بُدَّ فَكَنْتُ أَشْرَبَ الْخَمْرِ فَإِنَّهُ أَلَذُّ؛ وَأَمَّا مَحَبَّةُ الْعِلْمَانِ فَإِلَى غَدٍ أَجِيئُكَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ.

ومما يناسب لطيفة قاضي القضاة شمس الدين ما نقلته من «رَوْضِ الْجَلِيسِ وَنُزْهِةِ الْأَنْبَسِ» «حُكَيِّ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ الصَّقَلِيِّ قَالَ: كَانَ بِإِفْرِيقِيَةِ رَجُلٌ نَبِيَّةٌ شَاعِرٌ، وَكَانَ يَهْوَى غُلَامًا جَمِيلًا مِنْ غِلْمَانِهَا، فَاشْتَدَّ كَلْفُهُ بِهِ. وَكَانَ الْغُلَامُ يَتَجَنَّى عَلَيْهِ، وَيُعْرِضُ عَنْهُ كَثِيرًا.

فبينما هو ذات ليلة وقد انفرد بنفسه ليشرب الخمر، إِذْ ذَكَرَ مَحَبُّوبَهُ، فَجَرَى بِخَاطِرِهِ مَا يَفْعَلُهُ بِهِ مِنَ التَّجَنِّيِّ، فَزَادَ سُكْرُهُ، وَقَامَ مِنَ الْقَوْرِ، وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ سُكْرُ الْغُلَامِ ^(٢)، وَسُكْرُ الْمُدَامِ، فَأَخَذَ قَبَسَ نَارٍ وَجَعَلَهُ عِنْدَ بَابِ الْغُلَامِ لِيَحْرِقَ عَلَيْهِ دَارَهُ. فَلَمَّا دَارَتِ النَّارُ بِالْبَابِ، بَادَرَ النَّاسُ بِإِطْفَافِهَا، وَاعْتَقَلُوهُ. فَلَمَّا أَصْبَحُوا نَهَضُوا بِهِ إِلَى الْقَاضِي، فَأَعْلَمُوهُ بِفَعْلِهِ، فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي: لِأَيِّ شَيْءٍ أَخْرَقْتَ بَابَ هَذَا الْغُلَامِ؟ فَأَنْشَدَ عَلَى الْقَوْرِ:

لَمَّا تَمَادَى عَلَى بَعَادِي وَأَضْرَمَ النَّارَ فِي فُؤَادِي

(١) فوات الوفيات: ١/١٠٢.

(٢) ط: «الغرام».

وَلَمْ أَجِدْ مِنْ هَوَاهُ بُدَاً وَلَا مُعِيناً عَلَى الشُّهَادِ
 حَمَلْتُ نَفْسِي عَلَى وَقُوفِي بِبَابِهِ وَقِفَةُ الْجَوَادِ
 فَطَارَ مِنْ بَعْضِ نَارِ قَلْبِي أَقْلٌ فِي الْوَصْفِ مِنْ زِنَادِ
 فَأَخْرَقَ الْبَابَ دُونَ عِلْمِي وَلَمْ يَكُنْ ذَاكَ مِنْ مُرَادِي
 قال: فاستظرف القاضي واقعته، واستمْلَحَ شِعْرَهُ، وَرَقَّ لِحَاكِيَةِ حَالِهِ، وَتَحَمَّلَ
 عَنْهُ مَا أَفْسَدَهُ مِنْ بَابِ الْغَلَامِ، وَأَطْلَقَهُ.



لطائف

ومما يناسب هذه اللطائف؛ قيل: إنه رُفِعَ إلى المأمون أن حائِكاً يعملُ السنةَ كلها،
 لَا يَتَعَطَّلُ فِي عِيدٍ وَلَا جُمُعَةٍ، فَإِذَا ظَهَرَ الْوَرْدُ، طَوَى عَمَلَهُ، وَغَرَّدَ بِصَوْتٍ عَالٍ:
 طَابَ الزَّمَانُ، وَجَاءَ الْوَرْدُ فَاضْطَبِّحُوا مَا دَامَ لِلْوَرْدِ أَزْهَارٌ وَنُورُ
 فَإِذَا شَرِبَ مَعَ ثُدَمَائِهِ عَلَى الْوَرْدِ، غَنَى:
 اشْرَبْ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمَرَاءِ صَافِيَةٍ شَهْرًا، وَعَشْرًا، وَخَمْسًا بَعْدَهَا عِدَا
 وَلَا يَزَالُونَ فِي صَبُوحٍ^(١) وَغَبُوقٍ مَا بَقِيَتْ وَرْدَةٌ؛ فَإِذَا انْقَضَى الْوَرْدُ عَادَ إِلَى
 عَمَلِهِ، وَغَرَّدَ بِصَوْتٍ عَالٍ:
 فَإِنَّ يُبْقِيَنِي رَبِّي إِلَى الْوَرْدِ أَضْطَبِّحْ وَإِنْ مِتُّ وَالْهَفْيُ عَلَى الْوَرْدِ وَالْخَمْرُ!
 سَأَلْتُ إِلَهَ الْعَرْشِ جَلَّ جَلَالُهُ يُوَاصِلُ قَلْبِي فِي غَبُوقٍ إِلَى الْحَشْرِ
 فقال المأمون: لقد نَظَرَ هذا الرجلُ إلى الوردِ بعينِ جَلِيلَةٍ، فِينْبَغِي أَنْ تُعِينَهُ عَلَى
 هَذِهِ الْمَرْوَةِ. فَأَمَرَ أَنْ يُدْفَعَ لَهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ عَشْرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ فِي زَمَنِ الْوَرْدِ.
 ومن اللطائف ما حُكِيَ عَنْ مُجِيرِ الدِّينِ الْخِيَاطِ الدِّمَشْقِيِّ؛ قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ يَهْوَى
 غُلَامًا مِنْ أَوْلَادِ الْجَنْدِ، فَشَرِبَ مُجِيرُ الدِّينِ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي وَسَكِرَ، فَوَقَعَ فِي
 الطَّرِيقِ، فَمَرَّ الْغُلَامُ عَلَيْهِ بِشَمْعَةٍ وَهُوَ رَاكِبٌ، فَرَأَاهُ فِي اللَّيْلِ مَطْرُوحًا عَلَى الطَّرِيقِ،
 فَوَقَعَ عَلَيْهِ بِالشَّمْعَةِ وَنَزَلَ، فَأَقْعَدَهُ وَمَسَحَ وَجْهَهُ، فَسَقَطَ مِنَ الشَّمْعَةِ نُقْطَةٌ عَلَى وَجْهِهِ،
 فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ، فَرَأَى مُحَبُّوبَهُ عَلَى رَأْسِهِ، فَاسْتَيْقَظَ وَأَنْشَدَ:

يَا مُخْرِقًا بِالنَّارِ وَجْهَ مُحِبِّهِ مَهْلًا، فَإِنَّ مَدَامِعِي تُطْفِئُهُ.
 أَخْرَقَ بِهَا جَسَدِي، وَكُلَّ جَوَارِحِي وَاخْذَرْ عَلَى قَلْبِي فَإِنَّكَ فِيهِ^(٢)

(١) الصبوح: الشراب الذي يكون في أول النهار، والغبوق: الذي يقدم في آخره.

(٢) ط. «لأنك».

ومن اللطائف ما حكاه الأصمعي قال: مَرَزْتُ بِكَتَّاسٍ يَكْنُسُ كَنِيفًا وَهُوَ يُعَنِّي، ويقول:
أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا لِيَوْمَ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ ثَغْرِ^(١)
فقلت له: أَمَا سِدَادُ الثَّغْرِ فَلَا عِلْمَ لَنَا كَيْفَ أَنْتَ فِيهِ، وَأَمَا سِدَادُ الْكُتْفِ فمعلوم.
قال الأصمعي: وَكَنتَ حَدِيثُ^(٢) السَّنِّ، فَأَرَدْتُ الْعَبَثَ بِهِ، فَأَعْرَضَ عَنِّي مَلِيًّا،
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ وَأَنشَدَ:

وَأُكْرِمُ نَفْسِي، إِنِّي إِنْ أَهَنْتُهَا - وَحَقِّكَ - لَمْ تَكْرُمَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدِي
فقلت له: وَأَيُّ كَرَامَةٍ حَصَلَتْ لَهَا مِنْكَ! وَمَا يَكُونُ مِنَ الْهَوَانِ أَكْثَرَ مِمَّا أَهَنْتَهَا بِهِ!
فقال: لَا وَاللَّهِ بَلْ مِنَ الْهَوَانِ مَا هُوَ [أَكْثَرُ^(٣)] وَأَعْظَمُ مِمَّا أَنَا فِيهِ.

فقلت له: وَمَا هُوَ؟ فقال: الْحَاجَةُ إِلَيْكَ وَإِلَى أَمْثَالِكَ. قال: فَانصَرَفْتُ وَأَنَا
أَخْزَى النَّاسِ.

ذكرت بقول الكتّاس غريم الأصمعي مَا يُضَارِعُ ذَلِكَ - أعني قوله:

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا لِيَوْمَ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ ثَغْرِ
قيل: إِنَّهُ كَانَ لِأَبِي حَنِيفَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - جَارٌ إِسْكَافٌ بِالْكُوفَةِ، يَعْمَلُ نَهَارَهُ
أَجْمَعَ، فَإِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ، رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ بِلُحْمٍ وَسَمَكٍ، فَيَطْبُخُ [اللحم]، وَيَشْوِي
السَّمَكَ، فَإِذَا دَبَّ فِيهِ السَّكْرُ أَشْدَ:

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا لِيَوْمَ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ ثَغْرِ
وَلَا يَزَالُ يَشْرَبُ، وَيُرَدُّدُ الْبَيْتَ إِلَى أَنْ يَغْلِبَهُ السَّكْرُ وَيَنَامَ.
وَكَانَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ يُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ، وَيَسْمَعُ حَدِيثَهُ وَإِنْشَادَهُ، فَفَقَدَ^(٤) صَوْتَهُ
بَعْضَ اللَّيَالِي، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقِيلَ: أَخَذَهُ الْعَسَسُ مِنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَهُوَ مَحْبُوسٌ. فَصَلَّى
الْإِمَامُ الْفَجْرَ، وَرَكِبَ بَغْلَتَهُ وَمَشَى، وَاسْتَأْذَنَ عَلَى الْأَمِيرِ. فَقَالَ: ائْذَنُوا^(٥) لَهُ وَأَقْبَلُوا بِهِ
رَاكِبًا حَتَّى يَطَأَ الْبَسَاطَ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى الْأَمِيرِ أَجْلَسَهُ مَكَانَهُ، وَقَالَ: مَا حَاجَةُ الْإِمَامِ؟
فقال: لِي جَارٌ إِسْكَافٌ أَخَذَهُ الْعَسَسُ مِنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَتَأْمُرُ بِتَخْلِيَّتِهِ. فقال: نَعَمْ،
وَكُلَّ مَنْ أَخَذَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا. ثُمَّ أَمَرَ بِتَخْلِيَّتِهِ وَتَخْلِيَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ. فَرَكِبَ

(١) الثغر: موضع المخافة، وسداد بكسر السين، وكل ما سددت شيئاً فهو سداد، والسداد بالفتح هو القصد، في الدين والسبيل. والبيت للعرجي، ديوانه: ٣٤.

(٢) د. «حدث».

(٣) تكملة من ط.

(٤) ب. «وفقد».

(٥) ط، ب، د. «وأقبلوا به راكباً».

الإمام، وَتَبِعَهُ جَارُهُ الْإِسْكَافُ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى دَارِهِ، قَالَ لَهُ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ: أَتَرَانَا أَضْغَنَّاكَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ حَفِظْتُ وَرَغَيْتُ. جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا عَنْ صُخْبَةِ الْجَوَارِ وَرِعَايَتِهِ، وَلِلَّهِ عَلَيَّ أَلَّا أَشْرَبَ بَعْدَهَا خَمْرًا. فَتَابَ مِنْ يَوْمِهِ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ.

ومما يناسب هذه اللطائف ما ذكره الحريري في كتابه الموسوم بـ «تَوْشِيحِ الْبَيَانِ»، نَقَلَ أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ الْمَعْدَلِ كَانَ يَجِدُ بِأَخِيهِ عَبْدِ الصَّمَدِ وَجَدًا عَظِيمًا؛ عَلَى تَبَايُنِ طَرِيقَيْهِمَا؛ لِأَنَّ أَحْمَدَ كَانَ صَوَامًا قَوَّامًا، وَكَانَ عَبْدُ الصَّمَدِ سَكِينًا خَمِيرًا^(١)، وَكَانَا يَسْكُنَانِ دَارًا وَاحِدَةً، يَنْزِلُ أَحْمَدُ فِي غُرْفَةٍ أَعْلَاهَا، وَعَبْدُ الصَّمَدِ فِي أَسْفَلِهَا. فَدَعَا عَبْدُ الصَّمَدِ ذَاتَ لَيْلَةٍ جَمَاعَةً مِنْ ثُدَمَائِهِ، وَأَخَذَ فِي الْقَضْفِ وَالْعَزْفِ حَتَّى مَنَعُوا أَحْمَدَ الْوَرْدَ، وَنَقَضُوا عَلَيْهِ التَّهَجُّدَ. فَاطْلَعَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكْرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ [النحل: ٤٥]، فَرَفَعَ عَبْدُ الصَّمَدِ رَأْسَهُ وَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وذكرت بهذا الاقتباس الذي خَلَبَ الْقُلُوبَ هُنَا بِحُسْنِ مَوْقِعِهِ اقْتِبَاسًا خَلَبَ قُلُوبَ النَّاسِ لِعَظَمِ مَوْقِعِهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ الْحَاكِمَ الْفَاطِمِيَّ - عَلَى مَا ذَكَرَ - لَمَّا بَنَى الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ بِالْقَاهِرَةِ الْمَعْرِزِيَّةَ الْمُجَاوِرَ لِبَابِ الْفَتْوحِ قِيلَ: إِنَّهُ فَسَدَ حَالُهُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ، وَادَّعَى الْإِلَهِيَّةَ، وَكُتِبَ «بِسْمِ الْحَاكِمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وَجُمِعَ النَّاسُ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَبَذَلَ لَهُمْ نَفَائِسُ الْأَمْوَالِ.

وَكَانَ ذَلِكَ فِي فَصْلِ الصَّيْفِ، وَالذُّبَابُ يَتْرَاكُمُ عَلَى الْحَاكِمِ، وَالْخِدَامُ تَدْفَعُهُ وَلَا يَنْدَفِعُ، فَقَرَأَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ بَعْضُ الْقُرَاءِ - وَكَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ: ﴿يَكَايُهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّكَ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

فَاضْطَرَبَتِ الْأُمَّةُ لِعَظَمِ وَقُوعِ هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ فِي حِكَايَةِ الْحَالِ، حَتَّى كَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا تَكْذِيبًا لِلْحَاكِمِ فِيمَا ادَّعَاهُ. وَسَقَطَ الْحَاكِمُ مِنْ فَوْقِ سَرِيرِهِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يُقْتَلَ، وَوَلَّى هَارِبًا، وَأَخَذَ فِي اسْتِجْلَابِ ذَلِكَ الرَّجُلِ إِلَى أَنْ اطمأن إليه. فَجَهَّزَهُ رَسُولًا إِلَى بَعْضِ الْجَزَائِرِ، وَأَمَرَ بِإِغْرَاقِهِ.

وَرُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا وَجَدْتَ؟ فَقَالَ: مَا قَصَّرَ مَعِيَ صَاحِبُ السَّفِينَةِ، أَرْسَى بِي عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ.

وَمِنْ الْاِقْتِبَاسَاتِ الَّتِي وَقَعَتْ لِلْمُتَأَخِّرِينَ فِي أَحْسَنِ الْمَوَاقِعِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِحِكَايَةِ

(١) خَمِيرًا: شَرِيبًا لِلْخَمْرِ دَائِمًا.

الحال، ما سمعته وشاهدت، حكاية حاله بالجامع الأموي، وما ذاك إلا أن قاضي القضاة علاء الدين أبي البقاء الشافعي رحمه الله تعالى كان قد عُزل من وظيفة قضاء القضاة بدمشق المحروسة. [ولما حلَّ الرُّكَّابُ الشريف الظاهريُّ بدمشق المحروسة أعاده]^(١) إلى وظيفته، وألبسه التشريف من قلعة دمشق وحضر إلى الجامع على العادة، ومعه أخوه قاضي القضاة بدر الدين الشافعي بالديار المصرية، فاستفتح الشيخ معين الدين الضَّيرير المقرئ وقرأ: ﴿قَالُوا يَا بَانَكَمَا نَبَغِي هَذَا. ضَعْنَاهُ لَدُنَّا وَإِنَّا خَافُوا أَنَّهُ يَكْفُرُ﴾ [يوسف: ٦٥] إلى آخر الآية.

فحصل بالجامع الأموي تَرْتَمَ صَفَقٌ لَهُ النَّسْرُ بجناحيه.

وروى المرزبان بإسناده أن المجنون خرجَ مَعَ أَصْحَابٍ لَهُ يَمْتَارُ مِنْ وَادِي الْقُرَى، فَمَرَّ بِجَبَلَيْنِ نَعْمَان، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَيْنِ جَبَلَا نَعْمَان - وَقَدْ كَانَتْ لَيْلَى تَنْزُهُمَا - قَالَ: فَأَيُّ رِيحٍ تَهْبُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهِمَا إِلَى هَذَا الْمَكَانِ؟ فَقَالُوا: الصَّبَا؛ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّى تَهْبُ الصَّبَا. فَأَقَامَ فِي نَاحِيَةِ مِنَ الْجَبَلِ، وَمَضُوا فَاْمْتَارُوا لَهُ وَلَهُمْ ثُمَّ اتَّوَا، فَحَبَسَهُمْ حَتَّى هَبَّتِ الصَّبَا، وَرَحَلَ مَعَهُمْ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ:

| | |
|--|---|
| أَيَا جَبَلَيْنِ نَعْمَانَ بِاللَّهِ خَلِيَا | نَسِيمَ الصَّبَا يَخْلُصُ إِلَيَّ نَسِيمُهَا ^(٢) |
| أَجْدُ بَرْدَهَا أَوْ تُشَفِّ مِئِّي حَرَارَةً | عَلَى كَبِيدٍ لَمْ يَبْقُ إِلَّا صَمِيمُهَا |
| فَإِنَّا الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَسَّسَتْ | عَلَى نَفْسٍ مَهْمُومٍ تَجَلَّتْ هُمُومُهَا ^(٣) |
| وَضَمَنَ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ الشَّيْخُ صَفِيّ الدِّينِ الْجَلِّيُّ فِي مَلِيحِ اسْمِهِ نَعْمَانُ: | |
| أَقُولُ وَقَدْ عَانَقْتُ نَعْمَانًا لَيْلَةً | بِثُورٍ مُحْيَاهُ أَنْارَ أَدِيمِهَا |
| وَقَدْ أَرْسَلْتُ أَلْيَاهُ نَخْوِي فَسَوْءَ | يُرْوَحُ كَرْبُ الْمُسْتَهَامِ شَمِيمِهَا |
| «أَيَا جَبَلَيْنِ نَعْمَانَ بِاللَّهِ خَلِيَا | نَسِيمَ الصَّبَا يَخْلُصُ إِلَيَّ نَسِيمُهَا» |

وكان لابن الجوزي رحمه الله تعالى زوجة اسمها «نسيم الصبا»، فاتفق أنه طلقها؛ فَحَصَلَ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ نَدَمٌ وَهَيْامٌ أَشْرَفَ مِنْهُ عَلَى التَّلَفِ. فَخَضَرَتْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ مَجْلِسَ وَغْظِهِ، فَحِينَ رَأَاهَا عَرَفَهَا، فَاتَّفَقَ أَنْ جَاءَتِ امْرَأَتَانِ، وَجَلَسَتْ أَمَامَهُ فَحَبَّبَتْهَا عَنْهُ، فَأَنشَدَ فِي الْحَالِ:

أَيَا جَبَلَيْنِ نَعْمَانَ بِاللَّهِ خَلِيَا نَسِيمَ الصَّبَا يَخْلُصُ إِلَيَّ نَسِيمُهَا
قلت: وعلى ذكرِ نَعْمَانِ والكنية عنه؛ ما أَلْطَفَ ما ذكره الشيخ بدر الدين

(١) تكلمة من ب، ج.

(٢) تجلت همومها: ذهبت وتكشفت.

(٣) ديوانه: ٢٥١.

حسن بن زُفر الطبيب الإربلي، في كتابه «رَوْضَةُ الْجَلِيسِ وَنُزْهَةُ الْأَنْبِيَاءِ»؛ وهو أَنَّ بَعْضَ الرُّؤَسَاءِ قَالَ: أَخْبَرَنِي بَعْضُ الْأَصْحَابِ قَالَ: كُنْتُ يَوْمًا جَالِسًا عِنْدَ صَدِيقٍ لِي بِالْمَوْصِلِ إِذْ جَاءَهُ كِتَابٌ مِنْ بَغْدَادٍ مِنْ صَدِيقٍ لَهُ، وَفِيهِ تَشْوِيقٌ، وَفِيهِ عِتَابٌ بِهَذَا الْبَيْتِ:

تَنَاسَيْتُمُ الْعَهْدَ الْقَدِيمَ كَأَنَّا عَلَى جَبَلَيْنِ نَعْمَانُ لَنْ نَتَجَمَّعَا
فَأَخَذَ يَسْتَحْسِنُ هَذَا الْبَيْتَ، وَيَهْتَرُ لَهُ، فَقُلْتُ: بِاللَّهِ عَلَيْكَ! أَسْأَلُكَ شَيْئًا لَا تُخْفِهِ، قَالَ: سَلْ، قُلْتُ: هَذِهِ مَعْشَوْقَتُكَ صَاحِبَةُ هَذَا الْكِتَابِ، هَلْ كُنْتَ تَأْتِيهَا مِنْ وَرَاءِ الدَّارِ؟ فَقَالَ: إِي وَاللَّهِ، وَمِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ: مِنَ الْبَيْتِ؛ لِأَنَّهَا ذَكَرْتُكَ فِيهِ بِجَبَلَيْنِ نَعْمَانُ، وَهُمَا كُنَايَةُ عِنْدَ الظُّرَفَاءِ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ عَنْ جَانِبِي الْكَفَلِ لِلْمَلِيخِ وَالْمَلِيخَةِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرَكْتُ مَا أَدْرَكْتَ.

ونقلت من اللطائف المسبوكة في قالب التورية أَنَّ بعض الكتاب دَخَلَ يُسَلِّمُ عَلَى بَعْضِ فُضَلَاءِ النُّحَاةِ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ - فَوَجَدَهُ قَائِمًا يَلُوطُ بِأَحَدِ الْغُلَّامِ الْمَلَّاحِ مِنْ طَلَبَتِهِ، فَرَأَاهُ النَّحْوِيَّ، وَلَمْ يَرَهُ الْغَلَامَ، فَجَلَسَ النَّحْوِيُّ فِي مَكَانِهِ، وَبَقِيَ الْغَلَامُ وَاقِفًا مَبْهُوتًا. فَقَالَ الْكَاتِبُ لِلنَّحْوِيِّ: مَا لِي أَرَى هَذَا الْغَلَامَ وَاقِفًا! فَقَالَ النَّحْوِيُّ: وَقَعَ عَلَيْهِ الْفِعْلُ فَانْتَصَبَ.

ومثل ذلك قصة ابن عُثَيْنٍ مَعَ الْمَلِكِ الْمَعْظَمِ عِيسَى بْنِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ لَمَّا كَتَبَ إِلَيْهِ فِي ضَعْفِهِ:

أَنْظُرْ إِلَيَّ بِعَيْنِ مَوْلَى لَمْ يَزَلْ يُؤَلِّي التَّدْيَ وَتَلَا فَبَلَّ تَلَا فِي^(١)
أَنَا كَالَّذِي أَحْتَاجُ مَا يَحْتَاجُهُ فَاعْنَمِ دَعَائِي وَالتَّنَاءِ الْوَافِي
فَحَضَرَ إِلَيْهِ الْمَعْظَمُ بِنَفْسِهِ، وَمَعَهُ ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ، وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ «الَّذِي» وَأَنَا «الْعَائِدُ» وَهَذِهِ «الْصَّلَةُ».

وظَرَفَ مِنْ قَالَ:

وَذِي أَدَبٍ بَارِعٍ نَكُثُهُ وَأَوَّلَجْتُ فِيهِ قُمْدًا عَنُفَ^(٢)
فَقُلْتُ: فَدَيْثُكَ أَغْصِرَ عَلَيْهِ فَفِيهِ اللَّذَاذَةُ لَوْ تَغْتَرَفُ
فَقَالَ: أَجَذْتُ وَلَكِنْ لَحَنْتَ لِقَوْلِكَ «أَغْصِرَ» بِفَتْحِ الْأَلْفِ
فَقُلْتُ لَكَ الْوَيْلُ مِنْ أَخْمَقٍ فَقَالَ: «وَأَخْمَقُ لَا يَنْصَرَفُ»
وَأَظَرَفُ مِنْهُ قَوْلُ الْحُسَيْنِ بْنِ الرِّيَّانِ:

أَتَيْتُ حَانَةَ خَمَارٍ وَصَاحِبَهَا مُمَاجِنٌ مُثَقِّنٌ لِلنَّحْوِ ذُو لَسَنِ
وَحَوْلَهُ كُلُّ هَيْفَاءٍ مَنْعَمَةٍ وَكُلُّ عِلْقٍ رَشِيقٍ أَهْيَفٍ حَسَنِ

فقال لي إذ رأى عيني قد انصرفت إلى النساء كلام الحاذق الفطين
أنت، وركب، وصف، واغدل بمعرفة واجمع، وزد، واسترخ من عجة وزن
ومثله ما حكى أن بعض الفقراء وقف على باب نحوي فقرعه، فقال النحوي:
من الباب! فقال: سائل، فقال: ينصرف. فقال: اسمي «أحمد». فقال النحوي
لغلامه: أعط سيويه كسرة.
ومثله قوله ابن عنين:

شكا ابن المؤيد من عزله ودّم الزمان، وأبدى السفة^(١)
فقلت له لا تدم الزمان فتظلم أيامه المنصفة
ولا تغجبن إذا ما صرقت فلا عدل فيك ولا مغرفة
والطف منه قول القائل:

ورقيع أراد أن يعرف النح
قال لي: لست تعرف النحو مثلي
قال: ما المبتدا وما الخبر المج
وأحسن منه وأبدع قول الشيخ زين الدين بن الوردی:

وشادین یسألنني ما المبتدا والخبر؟
مئلهم مالي مسرعاً فقلت: أنت القمر

ومن النكت المسبوكة في قالب التورية أيضاً ما قيل من أن شهاب الدين
القوصي، حضر عند الملك الأشرف، وقد دخل إليه سعد الدين الحكيم؛ فقال الملك
الأشرف لشهاب الدين: ما تقول في سعد الدين الحكيم؟ فقال: يا مولانا السلطان،
إذا كان بين يدك فهو سعد الدين، وعلى السّماط سعد بلع، وفي الخباء عند الضيوف
سعد الأخية^(٢)، وعند مرضى المسلمين سعد الذّابح.

قال: فضحك الملك الأشرف، واستحسن اتفاقه البيدي.

وأبدع منه في هذا الباب ما نُقل عن الشيخ نظام الدين قيس، قيل: إنه لقي
الصاحب عز الدين عبد العزيز بن منصور، فسأله الصاحب عن حاله، فقال:

حالّ متى علّم ابنُ منصورٍ بها جاء الزّمانُ إليّ منها تائباً^(٣)

(١) ديوانه: ٢٢٩.

(٢) هذه كلها أسماء نجوم.

(٣) البيت للمتنبي، ديوانه: ٩٠/١.

قلت: إِنَّ نظام الدين أَحَقُّ من أَبِي الطَّيِّب بهذا البيت.

ومن النكت بالتورية أيضاً، قيل إِنَّ بعض الماْجِنَاتِ أَرَادَتِ السَّفَر، فَلَقَّيْهَا بعضُ المَجَّانِ فقال لها: خِذِي مَعَكَ هذا الكتاب، وَأشار إلى ذَكَرِهِ. فقالت له على الفور: إِنَّ لَمْ أَلْقِ أَمَتَكَ، أَعْطِهِ لِأَخْتِكَ!

ومثل ذلك أَنَّ الشيخ بدر الدين الصاحب لَقِيَ شخصاً ومعه مَلِيحان، فقال: ما اسمك؟ فقال: عبد الواحد، فقال: اخرج منهما، فأنا عبد الإثنين.

ومثله أَنَّ ابن ثَقِيلَةَ المَغْنِي مَرَضَ، وأشرف على الموت، فجاء إليه ابن الصاحب يعوده، فقال له: كيف حال الثَّقِيلَةِ؟ فقال: ما أَخَوْفَنِي أن تصير مدفونة.

ومثله أَنَّ بعض المَجَّانِ رأى امرأةَ حاملة سَرموْجَة، فقال لها: متى زوجك حَمَلَك تَرَكاْشِه^(١)؟ فقالت له: رُخْ لا أرميك منه بفردة.

ومثله أَنَّ بعضهم رأى امرأةَ حاملةَ فَرْدَة سَقمان لتحنيطه، فقال لها: اعتقي هذا الغراب. فقالت له: رُخْ لا أسيِّه ينقرك.

ومثله أَنَّ الشيخ بدر الدين المذكور أولاً، حَضَرَ إلى مجلس قاضي القضاة ناصر الدين المالكي، فذكروا محاسن القاضي محب الدين ناظر الجيشين وحُسْنَ أخلاقه، ثم ذكروا محاسن الشعر، فأنشده قاضي القضاة:

فَكَمَّ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنٍ ذُرّاً شَرَفٍ كَمَا عَلَا بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ^(٢)
فكُلُّ من الجماعة أَثْنَى على هذا البيت.

فقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب: والقاضي مُجِبُّ الدين يُجِبُّ هذا البيت، فطربوا له.

ومما وقع له بذلك المجلس أَنَّهُ لَمَّا قُدِّمَ المشروبُ على العادة، كان قد تَوَلَّى السُّقْيَا مملوكٌ له اسمه «بُكْتَمَر» فَلَمَّا شَرِبَ الشيخ بدر الدين، قال له قاضي القضاة: ما تقول يا شيخ؟ قال: رأيتُ ملكَ العُلَماءِ، بُكْتَمَر السَّاقِي.

ومثله أَنَّ الصاحبَ بن شكر أراد قارئاً يقرأ بالمدرسة التي أنشأها بالقاهرة فاخترأوا له رجلين، أحدهما اسمه «زيادة» والآخر «مرتضى»، فَوَقَّعَ في ظهر القِصَّةِ «مرتضى زيادة» و «زيادة مرتضى».

(١) سَرموْجَة: ويقال: سَرموْزَة. كلمة فارسية معناه الحذاء والتركاشة: الكنانة التي يوضع فيها النشاب.

(٢) لابن الرومي، مختارات البارودي ٤٠٢/١.

ومثله أَنَّ أبا الحسين الجزَّار، جاء إلى باب صاحب زين الدين بن الزبير، فأذِن للناس في الدخول ولم يُؤذَن له، فكتب في ورقة:

النَّاسُ كُلُّهُمْ كَالْأَيْرِ قَدْ دَخَلُوا وَالْعَبْدُ مِثْلُ الْخُصِيِّ مُلْقَى عَلَى الْبَابِ
فلَمَّا قرأها ابن الزبير قال لحاجبه: أَخْرِجْ إِلَى الْبَابِ، وَقُلْ: يَا خَصِيٍّ أَدْخُلْ.
فدَخَلَ أَبُو الْحُسَيْنِ وَهُوَ يَقُولُ: هَذَا دَلِيلٌ عَلَى السَّعَةِ.

ومن التنكيت والحشمة بالتورية أَنَّ الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِي، قال: أَخْبِرْنِي
الشيخ فتح الدين بن سيد الناس بالقاهرة، قال: قلت للشيخ تقي الدين بن دقيق
العيد: إِنَّ بهاء الدين بن النحاس يُرَجِّحُ أبا تمام على المتنبي، فما رأيك أنت؟
فسكت، فقلت ثانياً: كنت هكذا في الأول.

قال الشيخ صلاح الدين: وَلَمَّا حَكَيْتُ ذَلِكَ لِلْشَيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ ثُبَاتَةَ، قَالَ:
أَنَا عَلَى رَأْيِ ابْنِ دَقِيقِ الْعِيدِ.

قال الشيخ صلاح الدين: وَمِمَّنْ رَأَيْتَهُ يُعْظَمُ أبا تَمَّامٍ شَيْخُنَا أَثِيرَ الدِّينِ، وَيُرَجِّحُهُ
عَلَى الْمَتْنَبِيِّ، فَعَدَّلْنَاهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ:

* أَنَا مَا أَسْمَعُ عَذْلًا فِي حَبِيبِ *

ونقلت من خطِّ الصَّاحِبِ فخر الدين بن مكاسر رحمه الله تعالى قال:

سافرت سنة إحدى وستين وسبعمائة مع الصَّاحِبِ فخر الدين بن قروينة إلى
دمشق المحروسة، وقد وَلِيَّ نَظَرَ مَمْلَكَتَهَا، وَوَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ إِفْتَاءَهَا، وَكَانَ لَهُ
دَوَادَارٌ^(١) يُسَمَّى صَبِيحًا، وَهُوَ مِنْ عُقَّاءِ جَدِّهِ الْوَزِيرِ أَمِينِ الدِّينِ بْنِ الْغَنَامِ - وَكَانَ لَطِيفًا
كَثِيرَ النَّوَادِرِ - فَاتَّفَقَ أَنَّ جَمَالَ الدِّينِ بْنِ الرَّهَائَوِيِّ - مَوْقِعَ دَسْتِ الْوِزَارَةِ - رَكِبَ يَوْمًا
فَتَقَنَّنَطَرَ^(٢) بِهِ الْفَرَسَ، وَدَاسَ عَلَى رَأْسِ إِحْلِيلِهِ، فَحَمَلَ إِلَى دَارِهِ، وَأَقَامَ أَيَّامًا إِلَى أَنْ
عُوفِيَ، وَحَضَرَ مَجْلِسَ الْوِزَارَةِ وَهُوَ غَاصٌّ بِالنَّاسِ، فَقَالَ الصَّاحِبُ: مَا سَبَبُ تَأْخُرِكَ؟
فَقَالَ: تَقَنَّنَطَرَ بِي الْفَرَسَ، وَدَاسَ رَأْسَ إِحْلِيلِي، فَكِدْتُ أَمُوتُ، وَالْآنَ فَقَدْ لَطَفَ اللَّهُ
تَعَالَى، وَحَصَلَ الْبُرْءُ وَالشِّفَاءُ؛ فَقَالَ لَهُ صَبِيحٌ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى سَلَامَةِ الْخُصِيِّ؛
فَانْقَلَبَ الْمَجْلِسُ ضَحْكَاً، وَخَبِلَ [ابن] الرَّهَائَوِيُّ، وَانصَرَفَ.

وَحِكَايَةُ أَنَّ بَعْضَ الرُّؤَسَاءِ كَانَ لَهُ خَادِمٌ وَعَبْدٌ، فَدَخَلَ يَوْمًا فَوَجَدَ الْعَبْدَ فَوْقَ
الْخَادِمِ، فَضْرَبَهُ، وَخَرَجَ فَرَأَى بَعْضَ أَصْدِقَائِهِ: فَسَأَلَهُ عَنْ غَيْظِهِ، فَقَالَ: هَذَا الْعَبْدُ

(١) دَوَادَارٌ: مَعْنَاهُ حَامِلُ الْمَحْبَرَةِ، لَقِبَ عَامِلٍ مِنَ الْعَمَالِ فِي دَوْلَةِ الْمَمَالِيكِ مَهْمَتَهُ تَسْلِيمَ الْبَرِيدِ
الْمَوْجِهَ لِلْإِسْلَامِ وَتَوْقِيعَ جَمِيعِ رِسَالَتِهِ.

(٢) مِنْ ط.

التَّخَسُّ فَعَلَ بِالْخُوَيْدِمِ الصَّغِيرِ! فقال: بل مولانا السيّد الكبير، فخبّل منه، وأبرزها في قالب المجون.

وأنشد ابن الجوزي في بعض مجالس وعظه:

أَصْبَحْتُ الْطِفَّ مِنْ مَرِّ النَّسِيمِ عَلَى زَهْرِ الرِّيَاضِ يَكَاذُ الْوَهْمُ يُؤْلَمُنِي
مِنْ كُلِّ مَعْنَى لَطِيفٍ أَجْتَلِي قَدْحًا وَكُلَّ نَاطِقَةٍ فِي الْكُونِ تُطْرِينِي
فَقَامَ إِلَيْهِ إِنْسَانٌ فَقَالَ: يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ حِمَارًا؟ فَقَالَ: أَقُولُ لَهُ:
يَا حِمَارُ، اسْكُتْ.

ويعجبني قول برهان الدين القيراطي:

صَاحَ هَذِي قَبَابٌ طَيِّبَةٌ لَاحَتْ وَفَوَادِي عَلَى اللَّقَاءِ حَرِيصُ
وَتَبَدَّتْ نَخِيلُهَا لِلْمَطَايَا فَعُيُونُ الْمُطَيِّ لِلتَّخْلِ خَوْصُ
ويطربني ما حكاه أبو الفوارس إسرائيل الدمشقي، قال: كنت يوماً عند
السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، فحضر رسول صاحب المدينة - على
صاحبها أفضل الصّلاة والسلام - ومعه قَوْذٌ^(١) وهدايا، فلما جلس، أخرج مِنْ كُمِّهِ
مِرْوَحَةً بِيضَاءَ، عَلَيْهَا سَطْرَانٌ بِالسَّعْفِ الْأَحْمَرِ، وَقَالَ: الشَّرِيفُ يَخْدُمُ مَوْلَانَا
السُّلْطَانَ وَيَقُولُ: هَذِهِ الْمِرْوَحَةُ، مَا رَأَى مَوْلَانَا السُّلْطَانَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي أَيُّوبَ
مِثْلَهَا. فَاسْتَشَاطَ السُّلْطَانُ صَلاَحُ الدِّينِ غَضَبًا، فَقَالَ الرَّسُولُ: يَا مَوْلَانَا السُّلْطَانَ؛
لَا تَعْجَلْ بِالْغَضَبِ^(٢) قَبْلَ تَأْمُلِهَا - وَكَانَ السُّلْطَانُ صَلاَحُ الدِّينِ مَلِكًا حَكِيمًا،
فَتَأْمَلَهَا فَإِذَا عَلَيْهَا مَكْتُوبٌ:

أَنَا مِنْ نَخْلَةٍ تُجَاوِرُ قَبْرًا سَادَ مَنْ فِيهِ سَائِرَ النَّاسِ طَرًّا
شَمِلْتَنِي عَنَائَةُ الْقَبْرِ حَتَّى صِرْتُ مِنْ رَاخَةِ ابْنِ أَيُّوبَ أَقْرَى
وَإِذَا هِيَ مِنْ خَوْصِ التَّخْلِ الَّذِي فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ. فَقَبَّلَهَا السُّلْطَانُ
صَلاَحُ الدِّينِ، وَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِهِ، وَقَالَ لِرَسُولِ صَاحِبِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ: صَدَقْتَ فِيمَا
قُلْتَ مِنْ تَعْظِيمِ هَذِهِ الْمِرْوَحَةِ.

وأحسن ما سَمِعَ فِيهَا قول عرقلة الدمشقي، حيث قال:

وَمَحْبُوبَةٍ فِي الْقَيْظِ لَمْ تَخُلْ مِنْ يَدٍ وَفِي الْقُرَى تَسْلُوها أَكْفُ الْحَبَائِبِ
إِذَا مَا الْهَوَى الْمَقْصُورُ هَيَّجَ عَاشِقًا أَتَتْ بِالْهَوَا الْمَمْدُودِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

(١) القود: جماعة الخيل تقاد بمقاودها ولا تركب.

(٢) ب: «لا تغضب».

وقال غيره وأجاد:

وَمِرْوَاحَةٌ أَهْدَتْ إِلَى النَّفْسِ رُوحَهَا لَدَى الْقَيْظِ مَبْثُوثًا بِإِهْدَارِ رِيحِهَا
رَوَيْنَا عَنِ الرِّيحِ الشَّمَالَ حَدِيثَهَا عَلَى ضَعْفِهِ مُسْتَخْرَجًا مِنْ صَحِيحِهَا



بديهة أبي العلاء

ونقل الحافظ اليعمرى أنَّ أبا نصر المَنَازِىَّ - واسمه أحمدُ بنُ يوسف - دَخَلَ
على أبي العَلاءِ المعرِّي في جماعة من أهل الأدب، فأنشد كُلَّ واحدٍ منهم مِنْ شِعْرِهِ
ما تيسَّر، فأنشدَه أَبُو نَصْر:

وَقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سَقَاهُ مُضَاعَفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ^(١)
نَزَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا حُنُوَ الْوَالِدَاتِ عَلَى الْقَطِيمِ
وَأَزْشَقْنَا عَلَى ظَمَأٍ زُلَالًا أَلَدَ مِنْ الْمَدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
يَصُدُّ الشَّمْسُ أَتَى وَاجَهْتُنَا فَيَخْجُبُهَا وَيَأْذُنُ لِلنَّسِيمِ
تَرَوْعُ حَصَاهُ خَالِيَةَ الْعَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

فَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ: أَنْتَ أَشْعَرُ مَنْ بِالشَّامِ.

ثُمَّ رَحَلَ أَبُو الْعَلَاءِ إِلَى بَغْدَادَ، فَدَخَلَ الْمَنَازِىَّ عَلَيْهِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ
بِبَغْدَادَ، وَأَبُو الْعَلَاءِ لَا يَعْرِفُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَأَنْشَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مَا حَضَرَهُ مِنْ شِعْرِهِ، حَتَّى
جَاءَتْ نَوْبَةُ الْمَنَازِىَّ فَأَنْشَدَ:

لَقَدْ عَرَضَ الْحَمَامُ لَنَا بِسَجْعٍ إِذَا أَضْغَى لَهُ رُكْبٌ تَلَا حَى
شَجَا قَلْبَ الْخَلِيِّ فَقِيلَ غَثَى^(٢) وَبَرَّحَ بِالشَّجِيِّ فَقِيلَ نَاحَا^(٣)
وَكَمْ لِلشُّوقِ فِي أَحْشَاءٍ صَبُّ إِذَا انْدَمَلَتْ أَجَدُّ لَهَا جَرَا حَا
ضَعِيفُ الصَّبْرِ عَنْكَ وَإِنْ تَقَاوَى وَسُكْرَانُ الْفَوَادِ وَإِنْ تَصَا حَى
كَذَاكَ بَنُو الْهَوَى سَكَّرَى صُحَاةً كَأَحْدَاقِ الْمَهَا مَرْضَى صَحَا حَا

فَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ: وَمَنْ بِالْعِرَاقِ؟ عَطَفَا عَلَى قَوْلِهِ: «وَمَنْ بِالشَّامِ».



(١) تنسب هذه الأبيات لحمدونة بنت زياد. معجم الأدباء ١/ ٢٧٦.

(٢) شجاء: أحزنه.

(٣) برح به الأمر: أجهد.

نادرة

مَشَى الْبَيْدَقُ الْيَزِيدِيَّ مَعَ شَابٍ مُوسِمٍ بِالْجَمَالِ، فَقَالَ لَهُ شَمْسُ الدِّينِ الْمَنْجَمُ الشَّاعِرُ: أَرَاكَ يَا بَيْدَقُ تَفَرِّزُنْ^(١) حَوْلَ هَذِهِ النَّفْسِ! فَقَالَ: وَإِذَا كَانَ! فَقَالَ: أَخْشَى^(٢) عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ الرُّخَّ لَا يَقْطَعُكَ مِنَ الْحَاشِيَةِ، وَيَرْمِيكَ عَنِ الْفَرَسِ، وَيَقْطَعُ عَلَيْكَ الرُّقْعَةَ، وَلَوْ كَانَ فِي كَفِّكَ الْفِيلُ.

ومثله في الظرف أن بعض الأجناد كان كثير اللعب بالشطرنج، وكان الجندي خليعاً ظريفاً، فأعطاه الأمير في بعض الأيام فرساً، وقال له: لَا تُفَرِّطْ فِيهَا، فَقَالَ: نَعَمْ. وَبَعْدَ ذَلِكَ التَّقَى بِهِ الْأَمِيرُ وَهُوَ لَا بَسَّ جَوْخَةً، فَقَالَ لَهُ: وَيْلَكَ! أَيْنَ الْفَرَسُ؟ فَقَالَ: يَاخُونَدُ^(٣)، ضَرَبَنِي الشَّاهُ مَاتَ^(٤)، فَتَسْتَرْتُ بِالْفَرَسِ.

ويعجبني قول الشيخ بدر الدين بن الصاحب:

تَأْمَلُ تَرَّ الشُّطْرَنْجِ كَالدَّهْرِ دَوْلَةً نَهَارًا وَلَيْلًا تَمُ بُوَسَى وَأَنْعُمًا
مَحْرُكُهَا بَاقٍ، وَتَفْنَى جَمِيعُهَا وَيَعْدُ الْفَنَاءُ تَخِيًا وَتُبْعَثُ أَعْظَمًا

قلت: ويشبه هذا قول القاضي الفاضل، وقد أخرج له السلطان الملك الناصر صلاح الدين من القصر مَنْ يُعَانِي الْخِيَالَ - أَغْنَى خِيَالَ الظَّلِّ - لِيَفَرِّجَهُ عَلَيْهِ، فقام الفاضل عند الشروع في عمله، فقال له الناصر: إِنْ كَانَ حَرَامًا فَمَا نَحْضُرُهُ - وَكَانَ حَدِيثُ الْعَهْدِ بِخِدْمَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَلِيَّ السُّلْطَنَةَ فَمَا أَرَادَ أَنْ يُكَدَّرَ عَلَيْهِ - فَقَعْدَ إِلَى أُخْرَةٍ، فَلَمَّا انْقَضَى ذَلِكَ قَالَ لَهُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ: كَيْفَ رَأَيْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ مَوْعِظَةً عَظِيمَةً، رَأَيْتُ دَوْلًا تَمْضِي وَدَوْلًا تَأْتِي. وَلَمَّا طَوِيَ الْإِزَارُ، إِذَا بِالْمَحْرُكِ وَاحِدٍ؛ فَأَخْرَجَ بِبَلَاغَتِهِ هَذَا الْجَدَّ فِي هَذَا الْهَزَلِ.

وللشيخ بدر الدين بن الصاحب مَضْمُنًا فِي الشُّطْرَنْجِ:

أَمِيلُ لِشُّطْرَنْجِ أَهْلِ النُّهَى وَأَسْلُوهُ مِنْ نَاقِلِ الْبَاطِلِ
وَكَمْ زُمْتُ تَهْذِيبَ لَعَابِهِ «وَتَأْبَى الطَّبَاغُ عَلَى النَّاقِلِ»^(٥)

(١) الْفَرِزَيْنِ: مِنْ لَعِبِ الشُّطْرَنْجِ، أَعْجَمِي مُعَرَّبٌ، وَهُوَ الْمَلِكُ فِي اصْطِلَاحِ الشُّطْرَنْجِ. وَفِي ط: «تَفَرِّزْتُ».

(٢) فِي ب: «أَخَافُ».

(٣) خُونَدُ: لَفْظُ تَرْكِي، مَعْنَاهُ، السَّيِّدُ أَوْ الْأَمِيرُ. حَوَاشِي السُّلُوكِ ٢٢٤/١.

(٤) اصْطِلَاحٌ فِي لَعِبِ الشُّطْرَنْجِ بِمَعْنَى «كَشَ مَلِكٌ»، أَيْ إِنْ مَرَّكَزَ اللَّاعِبُ صَارَ مَهْدَدًا.

(٥) الشُّطْرَانِ الثَّانِي لِلْمَتْنِيِّ: وَصَدْرُهُ:

يُرَادُّ مِنَ الْقَلْبِ نَسْيَانُكُمْ

ديوانه: ٢٢/٣.

ويعجبني قول الشيخ عز الدين الموصلي حيث قال :

جاهلٌ شَطْرَنجٌ ينادي وَقَدْ أَمَاتَ نَفْسَ اللَّعْبِ مِنْ عَكْسِهِ
مَا يَفْعَلُ الْأَعْدَاءُ فِي جَاهِلٍ مَا يَفْعَلُ الْجَاهِلُ فِي نَفْسِهِ^(١)
[وقال بعضهم وأجاد :

تلاعبت بالشطرنج مَع مَنْ أَحْبَبَهُ فنادمني حتى سَكِرْتُ مِنَ الْوَجْدِ
وأنشدني مالي أراك مُفَكِّراً تدورُ على الشَّامَاتِ وهي على خَدَيَّ!]^(٢)
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة :
أَفْئِدِيهِ لَاعِبَ شَطْرَنجٍ قَدْ اجْتَمَعَتْ فِي شَكْلِهِ مِنْ مَعَانِي الْحَسَنِ أَشْتَاتُ
عَيْنَاهُ مَنْصُوبَةٌ لِلْقَلْبِ غَالِبَةٌ وَالْخُدُّ فِيهِ لِقَتْلِ النَّفْسِ شَامَاتُ



نادرة لطيفة

حُكِيَ أَنَّ السَّرَاجَ الْوَرَّاقَ جَهَّزَ غُلَامًا لَهُ يَوْمًا لِيَتَبَعَ لَهُ زَيْتًا طَيِّبًا لِيَأْكُلَ بِهِ لِفَتًا، فَأَحْضَرَهُ وَقَلَبَهُ عَلَى اللَّفْتِ، فَوَجَدَهُ زَيْتًا حَارًّا، فَأَنْكَرَ عَلَى الْغُلَامِ ذَلِكَ، وَأَخَذَهُ وَجَاءَ بِهِ إِلَى الْبَيْعِ، وَقَالَ لَهُ: لِمَ تَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا سَيِّدِي مَا لِي ذَنْبٌ، لِأَنَّهُ قَالَ: أَعْطَنِي زَيْتًا لِلْسَّرَاجِ.

ومثله ما حكاه الصاحب فخر الدين بن مكانس عن صاحبه سراج الدين القوصي، أنه كان حصل له طلوع في جسده، فتردَّدَ إليه المزين، وصنع^(٣) له فتائل على العادة، فقلت له يوماً: كيف الحال يا سراج الدين؟ فقال: كيف حال سراج فيه سبع فتائل!

ورأيت في ديوانه يداعب سراج الدين المذكور بقوله :

إِذَا السَّرَاجُ اشْتَرَى أَيْرِي فَأَنْتَ بِهِ أَوْلَى وَذَلِكَ لِلْأَمْرِ الَّذِي وَجَبَا
سَكَنْدَرِيٌّ وَتُدْعَى بِالسَّرَاجِ وَذَا مِثْلَ الْمَنَارِ إِذَا مَا قَامَ وَانْتَصَبَا



نادرة لطيفة

اجتمع محدث ونصراني في سفينة، فصب النصراني من رَكْوَةٍ^(٤) كانت معه في

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس، التمثيلي والمحاضرة ٧٧.

(٢) تكملة من د. (٣) في ج "ووضع".

(٤) الركوة: إناء من جلد يوضع فيه الماء.

مشربة، وشرب. وصَبَّ وعرض على المحدث، فتناولها من غير فِكْر ولا مبالاة، فقال النُّصراني^(١): جُعِلَتْ فِدَاكَ! هذا خمر، فقال: من أين علمت أنها خمر؟ قال: اشتراها غلامي من خَمَار يهودي، وحَلَف أنها خمرٌ عتيق. فشربها بالعجلة، وقال: نحن أصدق، نروي عن الصحابة والتابعين، أفنُصَدِّق نصرانيّاً، عن غلامه، عن يهودي خَمَار، واللّٰه ما شربتها إلّا لضعف الإسناد.



نادرة لطيفة

نظرَ طُفَيْلِيّ إلى قَوْم ذاهبين فَلَمْ يَشْكْ أنهم [في دَعْوَةٍ]^(٢) ذاهبون إلى وَلِيمة، فقام وتبعَهُم، فإذا هم شعراء، قد قَصَدُوا السُّلْطَانَ بِمَدَائِحْ لهم. فلَمَّا أُنْشِدَ كُلُّ وَاحِدٍ منهم شعره، وأخذَ جائزته، لم يَبْقَ إلّا الطُفَيْلِيّ وهو جالسٌ ساكت، فقال له: أُنْشِدْ شِعْرَكَ، فقال: لَسْتُ بِشَاعِر. فقال: فمن أنت؟ قال: مِنَ الْغَاوِينَ الَّذِينَ قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

فَصَحَّحَ السُّلْطَان، وأمرَ له بجائزة الشعراء.



أبو حنيفة في عيادة مريض

حكى الهَيْثَمُ بن عديّ قال: مَاشَيْتُ الإمام أبا حنيفة رَضِيَ اللّٰهُ عنه في نَفَرٍ مِنْ أصحابه إلى عيادة مريض من أهل الكوفة، وكان المريض مُبْخَلًا^(٣)، وتَوَاصَيْنَا على أن نُعْرِضَ بِالْعَدَاءِ. فلَمَّا دَخَلْنَا وقضينا حقَّ العيادة، قال أحَدُنَا^(٤): ﴿إِنَّا غَدَاءٌ نَالَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]. قال: فَتَمَطَّى المريض وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١].

فغمز أبو حنيفة أصحابه، وقال: قوموا فما لكم هنا [من] فرج^(٥).



ومن غرائب المنقول

أنَّ يحيى بن إسحاق كان طبيباً حاذقاً، صانعاً بيده - وكان في صدر دولة

(١) «وقال للنصراني: أنت أحق، نحن أصحاب الحديث نروي الحديث عن الصحابة».

(٢) تكملة من ج، ط.

(٣) في ط: «بخيلاً».

(٤) في ج، ط: «بعضنا».

(٥) تكملة من ط، ج.

عبد الرحمن الناصر لدين الله، واستوزره - نُقل عنه من حِذْقِه أنه أتى إليه بدويٌّ على حمار وهو يصيح على باب داره: أدركوني وكلّموا الوزير بخبري! فلَمَّا دَخَلَ عليه قال: ما بالك؟ قال: وَرَمَ بإحليلي منعني النوم منذ أيام، وأنا في الموت: فقال له: اكشف عنه، فإذا هو ورم، فقال لرجل جاء معه: احضر لي حجراً أملَس، فطلبه فوجده، فقال له: ضَع عليه الإحليل. فلَمَّا تمكن إحليل الرجل على الحجر جمع الوزير يده، وضرب الإحليل ضربةً غُشِيَّ على الرجل منها، ثم اندلع الصديد يجري. فلَمَّا انقطع جريان الصديد، فتح الرجل عينه، ثم بال في إثر ذلك، فقال له: اذهب فقد برئت عِلَّتْكَ، وأنت رجل جاهل عابث، واقَعْتَ بهيمة في دُبُرِها، فصادت شعيرة من علفها لحِجَّتْ في عَيْن الإحليل فَوَرِمَ لها، وقد خرجت في الصديد.

فقال له الرجل: قد فعلت ذلك وهذا يدلّ على الحِذْق المفرط. ومثله أن ابن جميع الإسرائيلي كان من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين خَدَمَ سلطانَ مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وحَظِيَ في أيامه، وكان رفيع المنزلة، نافذ الأمر.

ومما نقل عنه من حِذْقِه أنه كان جالساً في دُكَّانه، وقد مَرَّت عليه جنازة، فلَمَّا نَظَرَ إليها صاح: يا أهل الميت، إنَّ صاحبكم لم يَمُتْ ولا يَحِلُّ أن تدفِنوه حيّاً.

فقال بَعْضُهم لبعض: هذا الذي يقوله لا يَضُرُّنا، وَيَتَعَيَّن أن نَمُتِّحَنه؛ فإن كان حيّاً فهو المراد، وإن لم يَكُنْ حيّاً فما يَتَغَيَّر عَلَيْنَا شيء. فاستَدْعَوْهُ إليهم، وقالوا: بَيِّنْ لنا ما قُلْتَ، فأمرهم بالعود إلى البَيْتِ، وأن يَنَزِعُوا أَكْفَانَه.

فلَمَّا فرغوا من ذَلِكَ، أَذْخَلَهُ الحَمَّامَ، وَسَكَبَ عليه الماء الحارَّ، وأخَمَى بدنه، ونَظَلَه^(١) فَظَهَرَ فيه أذنى حَسٍّ، وتَحَرَّكَ حَرَكَةً خفيفة، فقال: أَبْشِرُوا بعافيته، ثُمَّ تَمَّمَ عِلاجَه إلى أن أَفاق، وصاح، فكانَ ذلك مَبْدَأَ اشْتِهَارِهِ بِشِدَّةِ الحِذْق والعِلْم.

ثم إِنَّهُ سُئِلَ بعد ذلك: وَمِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ أَنَّ في ذلك الميتَ بَقِيَّةَ رُوح وهو في الأكفان مَحْمُولٌ؟ فقال: نَظَرْتُ إلى قَدَمَيْهِ فَوَجَدْتُهَا قَائِمَتَيْنِ، وَأَقْدَامُ الموتي مُنْبَسِطَةٌ. فَحَدَسْتُ أَنَّهُ حيٌّ، وكان حَدْسِي^(٢) صَائِباً.



نادرة لطيفة

قيل: إِنَّ المَنْصُورَ بن أبي عامر الأَنْدَلُسِيَّ كان إذا قَصَدَ غَزاةً عَقَدَ لِوَاءَهُ بِجَامِعِ

(١) يقال: نَظَلَ رأس العليل، أي جعل الماء المطبوع بالأدوية في كوز ثم صبّه على رأسه قليلاً قليلاً.

(٢) الحدس: التخمين والظن.

قَرْطُبَةً، وَلَمْ يَسِرْ إِلَى الْغَزَاةِ إِلَّا مِنَ الْجَامِعِ؛ فَاتَّفَقَ أَنَّهُ فِي بَعْضِ حَرَكَاتِهِ لِلْغَزَاةِ، تَوَجَّهَ إِلَى الْجَامِعِ لِعَقْدِ اللِّوَاءِ، فَاجْتَمَعَ عِنْدَهُ الْقَضَاةُ وَالْعُلَمَاءُ وَأَزْبَابُ الدَّوْلَةِ، فَرَفَعَ حَامِلُ اللِّوَاءِ اللِّوَاءَ، فَصَادَفَ ثُرَيَّا مِنْ قَنَادِيلِ الْجَامِعِ فَانْكَسَرَتْ عَلَى اللِّوَاءِ، وَتَبَدَّدَ عَلَيْهِ الزَّيْتُ، فَتَطَيَّرَ الْحَاضِرُونَ مِنْ ذَلِكَ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُ الْمَنْصُورِ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَبَشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِغَزَاةٍ هَيِّئَةٍ، وَغَنِيمَةٍ سَارَّةٍ؛ فَقَدْ بَلَغَتْ أَعْلَامُكَ الثَّرِيَّا، وَسَقَاها اللَّهُ مِنْ شَجَرَةِ مُبَارَكَةٍ؛ فَاسْتَحْسَنَ الْمَنْصُورُ ذَلِكَ وَاسْتَبَشَّرَ بِهِ، وَكَانَتِ الْغَزْوَةُ مِنْ أَبْرَكِ الْغَزَوَاتِ.

ومثل هذا لما خرج المنصور العباسي إلى قتال أبي يزيد الخارجي في جماعة من الأولياء، وواجه الحصن، سقط الرُمح من يده، فأخذه بعض الأولياء فمسحه، وقال:

فَأَلَقْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنَا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرُ
قال: فضحك المنصور، وقال: لِمَ لَا قُلْتُ: ﴿فَالْتَقَى مُوسَى عَصَاهُ﴾؟ [الشعراء: ٤٥]
فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: العبدُ تكلَّم بما عنده من إشاراتِ الْمُتَأَدِّبِينَ، وَتَكَلَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أُنْزِلَ فِي نَبِيِّهِ مِنْ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَكَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ، وَأَخَذَ الْحِصْنَ، وَحَصَلَ الظَّفَرُ بِأَبِي يَزِيدَ.



عيادة شهاب الدين بن محمود لابن خلكان

حُكِيَ أَنَّ الشَّيْخَ شَهَابَ الدِّينِ بَنَ مُحَمَّدًا قَالَ: عُدْتُ قَاضِي الْقَضَاةِ شَمْسَ الدِّينِ ابْنَ خَلْكَانَ فِي دِمَشْقَ بِالمَدْرَسَةِ النَّجَّيَّةِ سَنَةَ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَسِتْمِائَةَ، فَأَنْشَدَنِي لِبَعْضِ أَهْلِ الْأَدَبِ فِي تَقْيِيدِ الْأَشْرَافِ بِالمَدَائِنِ رِثَاءَ خَلْبِ قَلْبِي. وَهُوَ يَقُولُ:

قَدْ قُلْتُ لِلرَّجُلِ الْمُؤَلَّى غَسْلُهُ: هَلَّا أَطَاعَ وَكُنْتُ مِنْ نُصَحَائِهِ!
جَنَّبَهُ مَاءً ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَا أَذْرَتْ عَيُونُ الْمَجْدِ عِنْدَ بَكَائِهِ
وَأَزَلَّ أَفَاوِيَةَ الْحَنُوطِ وَنَحَّهَا^(١) عَنْهُ وَحَنَّطَهُ بِطَيْبِ ثَنَائِهِ
وَمَرَّ الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامَ بِنَقْلِهِ^(٢) شَرَفًا أَلَسْتُ تَرَاهُمْ بِإِزَائِهِ!
لَا ثَوَى أَغْنِاقِ الرِّجَالِ بِحَمْلِهِ يَكْفِي الَّذِي حَمَلُوهُ مِنْ نِعْمَائِهِ

قال الشَّيْخُ شِهَابُ الدِّينِ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَذَا الرِّثَاءِ، وَأَنَّهُ نَقَى نَفْسَهُ، فَمَاتَ فِي ذَلِكَ الْأُسْبُوعِ، بَرَدَ اللَّهُ مَضْجَعَهُ!



(١) الحنوط: طيب يخلط، ويوضع للميت.

(٢) ب، د: «يحملة».

نكتة لطيفة

قيل إنه لما رجع الشيخ شهاب الدين السهروردِي رحمه الله من الشام إلى بغداد، وجلس على عادته، أخذ يقلل أحوال الناس، ويهضم جانب الرجال، ويقول: إنه ما بقي من يلقي، وقد خلت الدنيا، وأنشد:

ما في الصحاب أخو وجد نطارحه حديث نجد ولا خيل نجاريه
فصاح من أطراف المجلس رجل عليه قباء وكلوته^(١)، فقال: يا شيخ: كم تنتقص بالقوم! والله إن فيهم من لم يرص أن يجاريك، وقصاراك أن تفهم ما يقول، هلاً قلت:

ما في الصحاب وقد سارت حمولهم إلا محب له في الركب محبوب
كأنما يوسف في كل راحلة والحي في كل بيت منه يعقوب
فصاح السهروردِي، ونزل من على الكرسي، وطلب الشاب فلم يجده.



ابن المطرزي والشريف الرضي

عن ابن المطرزي الشاعر، أنه مر - وفي رجليه نعل بالية - بالشريف الرضي، فأمر بإحضاره وقال: أنشدني أبياتك التي تقول فيها:

إذا لم تبْلغني إليكم ركائبِي فلا وردت ماء ولا رعت العُشبَا
فأنشده إيّاها. فلما انتهى إلى هذا البيت أشار إلى نعله البالية، وقال: هذه كانت ركائبك! فأطرق ابن المطرزي ساعة ثم قال: لما عادت هبات مولانا الشريف إلى مثل قوله:
وخذ النّوم من جفوني فيأني قد خلعت الكرى على العشاق
عادت ركائبِي إلى مثل ما ترى؛ لأنك خلعت ما لا تمليك على من لا يقبل.
فخجل الشريف، وقابله بما يليق من الإكرام.



الأجوبة الهاشمية

قلت: وأما الأجوبة الهاشمية وبلاغتها فهي في المحل الأزفع؛ فمن ذلك: أنه اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص، والوليد بن عتبة، وعتبة بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، فقالوا: يا أمير المؤمنين، ابعث لنا الحسن بن علي؛ فقال لهم:

(١) الكلوة: غطاء للرأس مزركش من مستحذات عصر الأشرف خليل بن قلاوون، وانظر حواشي السلوك ٤٩٣/١.

فِيمَ؟ فقالوا: كي نوبِّخَهُ ونُعرِّفَهُ أَنَّ أباه قَتَلَ عثمان، فقال لهم: إنكم لا تَنْتَصِفُونَ منه، ولا تقولون شَيْئاً إلا كَذَبَكُمْ الناس، ولا يقول لكم شَيْئاً ببلاغته إلا صَدَقَهُ الناس: فقالوا: أُرْسِلْ إليه فإنَّا سَنَكْفِيكَ أمره. فأرسل إليه معاوية، فلَمَّا حَضَرَ قال: يا حسن، إني لم أُرْسِلْ إليك، ولكنَّ هؤلاء أرسلوا إليك، فاسْمَعْ مَقَالَتَهُمْ، وأجِب، ولا تَحْتَرِمْني. فقال الحسن عليه السلام: فليتكلموا ونسمع.

فقام عمرو بن العاص، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: هل تعلم يا حسن، أَنَّ أباك أول من أثار الفتنة، وطلَّب المُلْك. فكَيْفَ رَأَيْتَ صُنِعَ الله به؟

ثم قام الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا بني هاشم، كنتم أصهار عثمان بن عفان. فَنِعْمَ الصُّهْر! كان يُفَضِّلُكم ويَقْرِّبُكم، ثم بَغَيْتُمْ عليه فقتلتموه. ولقد أَرَدْنَا يا حسن قَتْلَ أبيك فَأَنْقَذَنَا الله منه، ولو قتلناه بعثمان ما كان علينا من الله دَنْب.

ثم قام عُتْبة فقال: تعلم يا حسن أَنَّ أباك بَغَى على عثمان فقتله حَسِداً على المُلْك والدنيا فَسَلِّهُمَا، ولقد أَرَدْنَا قَتْلَ أبيك حَتَّى قَتَلَهُ الله تعالى.

ثم قام المغيرة بن شُعبة فكان كلامه كُلُّهُ سَبّاً لعلي، وتعظيماً لعثمان.

فقام الحسن عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: بِكَ أبدأ يا معاوية، لم يَشْتُمْنِي هؤلاء، ولكن أنت شتَمْتَنِي بُغْضاً وعداوة، وخِلَافاً لِجَدِّي ﷺ، ثم اتَّفَقْتَ إلى الناس وقال: أنشدكم الله! أتَعْلَمُونَ أَنَّ الرجل الذي شَتَمَهُ هؤلاء كان أول من آمَن بالله، وصَلَّى للقبْلَتَيْنِ، وَأَنْتَ يا معاوية يومئذٍ كافرٌ تَشْرِكُ بالله! وكان معه لواء النَّبِيِّ ﷺ يوم بَدَرَ ومع معاوية وأبيه لواء المشركين! ثم قال: أنشدكم الله والإسلام، أتعلمون أَنَّ معاوية كان يَكْتُبُ الرِّسَالِ لِجَدِّي ﷺ، فأرسل إليه يوماً فَرَجَعَ الرسول وقال: هو يأكل، فَرَدَّ الرسولُ إليه ثلاث مرات، كُلُّ ذلك وهو يقول: هو يأكل، فقال النبي ﷺ: «لَا أَشْبَعُ الله بَطْنَهُ» أما تعرف ذلك في بَطْنِكَ يا معاوية، ثم قال: وأنشدكم الله! أتعلمون أَنَّ معاوية كان يَقودُ بأبيه على جمل، وأخوه هذا يسوقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَعَنَ الله الجمل وقائِده وراكبه وسائقه!» هذا كله لك يا معاوية.

وأما أنت يا عمرو، تَنَازَعَ فيك خمسة من قريش فَعَلَبَ عليك شَبَهَ الْأُمَمِ حسباً، وشرَّهم مَنْصِباً، ثم قُمْتَ وسط قريش فقلت: إني شانيُّ محمداً، فأنزَلَ الله على نَبِيِّهِ: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]. ثم هَجَوْتَ محمداً ﷺ بثلاثين بيتاً من الشعر، قال النبي ﷺ: «اللهم إني لا أُحْسِنُ الشعر، ولكن العن عمرو بن العاص بكل بيت لعنة»، ثم انطلقت إلى النجاشي بما عَلِمْتَ وَعَمِلْتَ فأكذبتك الله ورَدَّكَ خائباً! فأنت عَدُوٌّ بني هاشم في الجاهلية والإسلام، فلا نَلْمُكَ على بَغْضِكَ.

وأما أنت يا بن أبي مُعَيْط، فكيف ألومك على سَبِّكَ لِعَلِّي، وقد جَلَدَ ظَهْرَ أبيك في الخمر ثمانين سَوْطاً، وقتل أباك صَبْرًا بِأَمْرِ جَدِّي وَقَتْلَهُ جَدِّي بِأَمْرِ رَبِّي، وَلَمَّا قَدَّمَهُ لِلْقَتْلِ قَالَ: مَنْ لِلصُّبَّةِ يَا مُحَمَّد؟ فقال: لهم النار، فلم يَكُنْ لَكُمْ عِنْدَ النَّبِيِّ إِلَّا النَّارُ، ولم يكن لكم عند عليّ غير السَّيْفِ والسَّوْطِ.

وأما أنت يا عتبة، فكيف تعدّ أحداً بالقتل! لِمَ لَا قَتَلْتَ الذي وَجَدْتَهُ فِي فِرَاشِكَ مُضَاجِعاً لَزَوْجَتِكَ، ثُمَّ أَمْسَكَتَهَا بَعْدَ أَنْ بَغَتْ!.

وأما أَنْتَ يَا أَغْوَرُ ثَقِيف، ففي أَيِّ ثَلَاثٍ تَسَبَّ عَلِيّاً؟ أَفِي بُغْدِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَمْ فِي حُكْمِ جَائِرٍ، أَمْ فِي رَغْبَةٍ فِي الدُّنْيَا؟ فَإِنْ قُلْتَ: شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ [فَقَدْ كَذَبْتَ^(١)] وَأَكْذَبَكَ النَّاسُ، وَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ عَلِيّاً قَتَلَ عُثْمَانَ فَقَدْ كَذَبْتَ، وَأَكْذَبَكَ النَّاسُ، وَأَمَّا وَعِيدُكَ فَإِنَّمَا مَثَلُكَ كَمَثَلِ بَعُوضَةٍ وَقَعَتْ عَلَى نَخْلَةٍ، فَقَالَتْ لَهَا: اسْتَمْسِكِي فَإِنِّي [أُرِيدُ أَنْ]^(٢) أَطِيرَ، فَقَالَتْ لَهَا النَّخْلَةُ: مَا عَلِمْتُ بِوُقُوعِكَ، فَكَيْفَ يَشُقُّ عَلَيَّ طَيْرَانُكَ؟ وَأَنْتَ فَمَا شَعَرْنَا بِعِدَاوَتِكَ، فَكَيْفَ يَشُقُّ عَلَيْنَا سَبُّكَ! ثُمَّ نَفَضَ ثِيَابَهُ وَقَامَ، فَقَالَ لَهُمْ مَعَاوِيَةُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَا تَنْتَصِفُونَ مِنْهُ! فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَظْلَمَ عَلَيَّ الْبَيْتُ حَتَّى قَامَ، فَلَيْسَ فِيكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ خَيْرٌ.



ومن غريب النقل

أَنَّ شَرِيكَ بْنَ الْأَغْوَرِ دَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَهُوَ يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَشَرِيكَ، وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْ شَرِيكَ، وَإِنَّكَ ابْنُ الْأَغْوَرِ: وَالصَّحِيحُ خَيْرٌ مِنَ الْأَغْوَرِ، وَإِنَّكَ لَدَمِيمٌ، وَالْوَسِيمُ خَيْرٌ مِنَ الدَّمِيمِ؛ فَبِمَ سَوَّدَكَ قَوْمُكَ؟ فَقَالَ لَهُ شَرِيكَ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لِمَعَاوِيَةَ، وَمَا مَعَاوِيَةُ إِلَّا كَلْبَةٌ عَوَتْ فَاسْتَعَرَتْ^(٢)، فَسُمِّيتَ مَعَاوِيَةَ، إِنَّكَ ابْنُ حَرْبٍ وَالسَّلَامُ خَيْرٌ مِنَ الْحَرْبِ، وَإِنَّكَ ابْنُ صَخْرٍ، وَالسَّهْلُ خَيْرٌ مِنَ الصَّخْرِ، وَإِنَّكَ ابْنُ أُمِيَّةٍ وَمَا أُمِيَّةٌ إِلَّا أُمَةٌ صُغِرَتْ فَسُمِّيتْ أُمِيَّةً، فَكَيْفَ صِرْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا [مَا]^(٣) خَرَجْتَ عَنِّي. [فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:

أَيْشْتُمْنِي مَعَاوِيَةُ بْنُ حَرْبٍ وَسَيْفِي قَاطِعٌ وَمَعِي لِسَانِي
وَحَلْفِي مِنْ ذَوِي عَمِّي لِيُوْثُ ضَرَاغِمَةٌ تَهْشُ إِلَى الطَّعَانِ^(٤)]



(١) تكملة من ط.

(٢) ج، د، ط: «فاستوت».

(٣) تكملة من ط.

(٤) تكملة من ب.

نكتة لطيفة

اتفق أن الملك المعظم عزم على الصيد، فقال له بعض جماعته: يا مولانا؛ إن القمر في العُقرب، والسفر فيه مَذْمُوم، والمصلحة أن تُصْبِرَ إلى أن ينزل القمر القوس. فعزم على الصبر، فبينما هو مُفَكِّرٌ إذ دخل عليه مملوك له من أحسن الناس وجهاً، فوقف أمامه وقد توشَّح بقوس، فقال له بعض الحاضرين: بالله يا مولانا اركب في هذه الساعة، فهذا القمر قد حلَّ في القوس حقيقة، فقام لوقته، وركب استِشْاراً بالقول، فلم يرَ أطيَبَ من تلك السَّفرة، ولا أكثر من صيدها.



ومن غريب المنقول

ما حكى إسحاق النديم، عن أبيه، قال: استأذنت الرشيد أن يَهَبَ لي يوماً من الجمعة لا يَبْعَثَ فيه [إليَّ] بوجِه ولا سَبَبٍ لأخلو فيه^(١) بجواري وإخواني، فأذن لي في يوم السبت وقال: هو يومٌ أَسْتَثِقُّه، فاله فيه بما شئت. قال: فأقمتُ يومَ السبت بمنزلي، وتقدمتُ لإصلاح طعامي وشرابي، وأمرتُ بوابي بإغلاق الباب وتقدمت إليه في ألا يأذن لأحدٍ من الناس في الدخول عليّ، فبينما أنا في مجلسي والجواري قد حَفَفْنَ بي، إذا أنا بشيخ عليه هيئة وجمال، وعلى رأسه قَلَنْسُوءة، وبيده عُكَّازة مُطْعَمَةٌ بالفضة، وروائح الطيب تَفُوحُ منه، فداخَلَنِي، لدخوله عليّ مع ما قدَّمْتُ من الوصِيَّةِ غَيْظٌ عظيم، وهَمَمْتُ بطردِ بوابي ومن يَحْجُبُنِي لأجله، فسلم عليّ أحسنَ سلام، فرددت عليه: وأمرته بالجلوس، فجلس، وأخذ [بي] في أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارهم، حتى سَكَنَ ما بي، فظننتُ أن غلماني قصدوا مسرتي بإدخاله عليّ؛ لظرفه وأدبه.

فقلت له: هل لك في الطعام؟ فقال: لا حاجة لي به، فقلت: هل لك في الشراب؟ فقال: ذاك إليك، قال: فشربت رطلاً، وسقيته مثله فقال: يا أبا إسحاق؛ هل لك في أن تُغْنِي فَنَسْمَعُ منك ما فُكَّتْ به على العام والخاص؟ قال: فعَاطَنِي منه ذلك، ثم سَهَلْتُ الأمر على نفسي، وأخذتُ العودَ، وضربتُ وغنَّيتُ، فقال: أحسنت يا إبراهيم، فازدَدْتُ غِيظاً، وقلت: ما رَضِيَ بما فعله حتى سماني باسمي، ولم يُحْسِنْ مُحَاظَبَتِي! ثم قال: هل لك في أن تَزِيدَنَا ونكافئك؟ فقال: فتذممتُ وأخذتُ العودَ فغنَّيتُ، وتحفَّظتُ وقمتُ بما غَنَّيْتُه إياه قِياماً تاماً، فَطَرَبَ، وقال: أحسنت يا سيدي! ثم قال: أتأذنُ لعبدك في الغناء؟ فقلت: شأنك؛ واستضعفتُ عقله كيف سَوَّلَتْ له

(١) زيادة من كتاب الأغاني.

نفسه أن يُعْثِي بحضرتي بعدما سمعه مني! فأخذ العودَ وجَسَّهُ؛ فوالله لقد خِلْتُهُ يَنْطِقُ بلسان عربي، واندفع يغني:

وَلِي كَيْدٌ مَقْرُوحَةٌ مِنْ يَبِيعُنِي بِهَا كَيْدًا لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوحِ!
أَبَاهَا عَلَيَّ النَّاسُ لَا يَشْتَرُونَهَا وَمَنْ يَشْتَرِي ذَا عِلَّةٍ بِصَحِيحِ!

فقال إبراهيم: فوالله لقد ظننتُ أن الحيطانَ والأبوابَ وكلَّ من في البيت يُجيبه وَيُغْثِي معه؛ وبقيتُ مَبْهُوتًا لا أَسْتَطِيعُ الكلامَ ولا الحركةَ، لِمَا خالط قلبي. ثم غَنَى: أَلَا يَا حَمَامَاتِ اللَّوَى... الأبيات^(١)؛ فكاد يذهبُ عَقْلِي طربًا، ثم قال: يا إبراهيم، خُذْ هذا الغناء وانحُ نَحْوَهُ فِي غَنَائِكَ، وَعَلِّمَهُ جَوَارِيكَ. فسألته أن يُعيدَ ما غَنَاهُ، فقال: لم تحتجِ إلى شيء من ذلك. ثم غاب من بين عيني، فازتعتُ وقمتُ إلى السَّيْفِ فَجَرَّدْتُهُ، ثم عَدَوْتُ نحو الأبواب، وقلت للجواري: أَيُّ شَيْءٍ سَمِعْتُنَّ؟ فَقُلْنَ: سَمِعْنَا أَحْسَنَ غِنَاءٍ. فخرجتُ مُتَحِيرًا إلى باب الدار، فوجدته مُغْلَقًا، فسألتِ الْبَوَابَ عن الشيخ، فقال أَيُّ شَيْخٍ! وَاللَّهِ مَا دَخَلَ إِلَيْكَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، فَرجعتُ لِأَتَأَمَّلَ أَمْرِي، فإذا به قد هَتَفَ من بعض جوانب الدار، فقال: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ أَبَا إِسْحَاقَ، أَنَا إِبْلِيسُ، وَقَدْ اخْتَرْتُ مُنَادِمَتَكَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، فَلَا تُرْغ. فركبتُ على القَوْرِ إلى الرَّشِيدِ، وَأَتَحَفَّتُهُ بِهَذِهِ الطَّرْفَةِ. فقال: وَيَحَكَ! اعْتَبِرِ الْأَصْوَاتَ الَّتِي أَخَذَتْهَا عَنْهُ، أَخَذْتُ الْعُودَ، فإذا هي رَاسِخَةٌ فِي صَدْرِي، فَطَرِبَ الرَّشِيدُ، وَأَمَرَ لِي بِصَلَةِ، وقال: لَيْتَهُ أَمْتَعَنَا يَوْمًا وَاحِدًا كَمَا أَمْتَعَكَ.

قال أبو الفرج الأصبهاني: هكذا حدثنا ابن أبي الأزهر وما أدري ما أقول فيه^(٢)!



طرائف عن ابن خلكان

ويضارع هذا ما أورده ابن خلكان في ترجمة ابن دُرَيْد: قال أبو بكر محمد بن الحسن بن دُرَيْد: سَقَطْتُ مِنْ مَنْزِلِي [بفارس]^(٣)، فَانكَسَرَ بَعْضُ أَعْضَائِي، فَسَهَرْتُ لَيْلَتِي، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ غَمَضْتُ عَيْنِي، فَرَأَيْتُ رَجُلًا طَوِيلًا أَضْفَرَ الْوَجْهَ

(١) الأبيات كما في الأغاني:

أَلَا يَا حَمَامَاتِ اللَّوَى عُدْنَ عُدَّةً
فَعُدْنَ، فَلَمَّا عُدْنَ كَذَنَ يُمْتَنِّنِي
دَعَوْنَ بِتَزَادِ الْهَدِيرِ كَأَنَّمَا
فَلَمْ تَرَعْ عَيْنِي مِثْلَهُنَّ حَمَائِمًا

(٢) الأغاني ٢١٠/٥ - ٢٢٢ (بيروت).

(٣) تكملة: ب، ج وابن خلكان.

كَوَسَجًا^(١)، دَخَلَ عَلَيَّ وَأَخَذَ بَعْضَ دَتِّي الْبَابِ، وَقَالَ: أَنُشَدْنِي أَحْسَنَ مَا قُلْتَ فِي الْخَمْرِ، فَقُلْتُ: مَا تَرَكَ أَبُو نَوَاسٍ لِأَحَدٍ شَيْئاً فِي هَذَا الْبَابِ، فَقَالَ: أَنَا أَشْعُرُ مِنْهُ، فَقُلْتُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَبُو نَاجِيَةٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ؛ وَأُشَدْنِي:

وَحَمْرَاءَ قَبْلَ الْمَزْجِ صَفْرَاءَ بَعْدَهُ بَدَتْ بَيْنَ ثُوبِي نَرْجِسٍ وَشَقَائِقِ
حَكَّتْ وَجَنَّةَ الْمَعْشُوقِ صِرْفاً فَسَلَطُوا عَلَيْهَا مِزَاجاً فَانْكَسَتْ لَوْنٌ عَاشِقِ

فَقُلْتُ لَهُ: أَسَأْتُ، قَالَ: وَلِمَ؟ قُلْتُ: لِأَنَّكَ قُلْتَ «وَحَمْرَاءَ»، فَقَدَّمْتَ الْحَمْرَةَ ثُمَّ قُلْتُ: «بَيْنَ ثُوبِي نَرْجِسٍ وَشَقَائِقِ»، فَقَدَّمْتَ الصُّفْرَةَ، فَقَالَ: مَا هَذَا الِاسْتِقْصَاءُ فِي هَذَا الْوَقْتُ يَا بَغِيضُ! وَأَبُو نَاجِيَةٍ مِنْ كُنَى إِبْلِيسَ.

قَالَ قَاضِي الْقَضَاةِ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ خَلْكَانَ فِي تَارِيخِهِ: وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: أَنَّ الشَّيْخَ أَبَا عَلِيٍّ الْفَارَسِيَّ [النَّحْوِيَّ] قَالَ. أَنُشَدْنِي ابْنَ دُرَيْدٍ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، وَقَالَ: جَاءَنِي إِبْلِيسُ فِي الْمَنَامِ... ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَّةَ الْكَلَامِ^(٢).

وَنَقَلَ ابْنُ خَلْكَانَ وَغَيْرُهُ أَنَّ أَبَا بَكْرَ بْنَ قَرِيْعَةَ قَاضِي السُّنْدِيَّةِ وَغَيْرَهَا مِنْ أَعْمَالِ بَغْدَادٍ. كَانَ مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا فِي سُرْعَةِ الْبَدِيْهِةِ بِالْأَجُوبَةِ عَنْ جَمِيعِ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ فِي أَفْصَحِ لَفْظٍ وَأَمْلَحِ سَجْعٍ، وَكَانَ مُخْتَصِصاً بِحَضْرَةِ الْوَزِيرِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيِّ وَمِنْقَطِعاً إِلَيْهِ، وَلَهُ مَسَائِلُ وَأَجُوبَةٌ مُدَوَّنَةٌ فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَكَانَ رُؤَسَاءُ ذَلِكَ الْعَصْرِ وَالْعُلَمَاءُ وَالْفُضَلَاءُ يُدَاعِبُونَهُ، وَيَكْتُبُونَ لَهُ الْمَسَائِلَ الْغَرِيبَةَ الْمُضْحِكَةَ، فَيَكْتُبُ الْأَجُوبَةَ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ، وَلَا يَكْتُبُ إِلَّا مُطَابِقاً لِمَا سَأَلُوهُ. وَكَانَ الْوَزِيرُ الْمَذْكُورُ يُغْرِي بِهِ جَمَاعَةً يَصْنَعُونَ لَهُ الْمَسَائِلَ الْهَزْلِيَّةَ؛ مِنْ مَعَانٍ شَتَّى مِنَ التَّوَادِرِ.

فَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ عَلَى سَبِيلِ الْإِمْتِحَانِ: مَا يَقُولُ الْقَاضِي - أَيْدُهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي رَجُلٍ سَمِيَ وَلَدُهُ مُدَاماً، وَكُنَّاهُ أَبَا النَّدَامَى، وَسَمِيَ ابْنَتَهُ الرَّاحَ، وَكُنَّاهَا أُمُّ الْأَفْرَاحِ، وَسَمِيَ عَبْدَهُ الشَّرَابَ، وَكُنَّاهُ أَبَا الْأَطْرَابِ، وَسَمِيَ وَلِيدَتَهُ الْقَهْوَةَ، وَكُنَّاهَا أُمُّ النَّشْوَةِ، أَنْتَهَى عَنْ بَطَالَتِهِ، أَمْ يُؤَدِّبُ عَلَى خَلَاعَتِهِ؟ فَكَتَبَ تَحْتَ سْؤَالِهِ^(٣):

لَوْ نَعِيتُ^(٤) هَذَا لِأَبِي حَنِيفَةَ، لَأَقْعَدَهُ خَلِيفَةً، وَعَقَدَ لَهُ رَايَةً، وَقَاتَلَ مِنْ تَحْتِهَا مَنْ خَالَفَ رَايَتَهُ، وَلَوْ عَلِمْنَا مَكَانَهُ، لَقَبَلْنَا أَرْكَانَهُ؛ فَإِنْ أَتَبَعَ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ أَفْعَالاً، وَهَذِهِ الْكُنَى اسْتِعْمَالاً، عَلِمْنَا أَنَّهُ أَحْيَا دَوْلَةَ الْمَجُونِ، وَأَقَامَ لِيَوَاءِ ابْنَةِ الرَّزْجُونِ^(٥)، فَبَايَعْنَاهُ

(١) الكوسج: الذي لا شعر في عارضيه.

(٢) ابن خلكان ١/٤٩٧.

(٣) في د «السؤال».

(٤) ط: «بعث».

(٥) الزرجون: الخمر.

وشايَعناه^(١)؛ وإن تَكُنْ أسماء سَمَّاها ماله بها من سُلطان، خلَعنا طاعته وفرَّقنا جماعته، فنحن إلى إمامٍ فعَّال، أَحوجُّ مِنَّا إلى إمامٍ قَوَّال.

وكتب إليه العباس الكاتب: ما يقول القاضي - وفقه الله تعالى - في يهودي زنى بنصرانيَّة، فولدت له وَلَدًا جِسْمه للبشر، ووجهه للبقر، وقد قَبِضَ عليهما، فما يرى القاضي فيهما؟ فكتب تحت سؤال: هذا من أكبر الشُّهود، على المَلاعِين اليهود، فإنهم أَشْرَبُوا حُبَّ العِجَل في صدورهم، حتى خَرَجَ من أيورهم. وأرى أن يُنَاطَ رأس اليهودي برأس العِجَل، ويُضَلَب على عنق النصرانيَّة الساق مع الرَّجُل، ويسبَحان على الأرض، ويُنادى عليهما: ظُلُمَاتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ. والسلام.



نادرة لطيفة

لَمَّا خَرَجَ أَبُو جَعْفَرِ المنصورُ يَريدُ الحَجَّ بالنَّاسِ، قال لعيسى بن موسى الهادي: أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الخِلافةَ صائِرَةٌ إِلَيْكَ، وَأَريدُ أَنْ أَسْلَمَ لَكَ عَمِّي وَعَمَّكَ عَبْدُ اللَّهِ بنَ عَلِيٍّ فَخُذْهُ وَاقْتُلْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْبُنَ فِي أَمْرِهِ.

ثُمَّ مَضَى المنصورُ إِلَى الحَجِّ، وَكتبَ إِلَيْهِ مِنَ الطَّرِيقِ يَسْتَحِثُّهُ عَلَى ذَلِكَ. فَكتبَ إِلَيْهِ: قَدْ أَنْفَذْتُ أَمْرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. وَكانَ الْأَمْرُ بِخِلافِ ذَلِكَ؛ فَلَمْ يَشْكُ أَبُو جَعْفَرٍ أَنَّهُ قَتَلَهُ.

وَدَعَا عِيسَى بنَ مُوسَى كَاتِبَهُ، يُونُسَ، فَقَالَ لَهُ: إِنْ الْمَنْصُورَ دَفَعَ إِلَى عَمِّهِ وَأَمَرَنِي بِقَتْلِهِ، فَقَالَ لَهُ: يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَكَ بِقَتْلِهِ، فَإِنَّهُ أَمَرَكَ بِذَلِكَ سِرًّا، وَيَدْعِي بِهِ عَلَيْكَ عِلَانِيَّةً، وَالرَّأْيُ أَنْ تَسْتُرْهُ فِي مَنْزِلِكَ، وَلَا تُطْلِعَ عَلَيْهِ أَحَدًا، فَإِنْ طَلَبَهُ مِنْكَ عِلَانِيَّةً دَفَعْتَهُ إِلَيْهِ عِلَانِيَّةً، وَلَا تَذْفَعُهُ إِلَيْهِ سِرًّا أَبَدًا. فَفَعَلَ ذَلِكَ.

وَقَدِمَ الْمَنْصُورُ قَدَسَ عَلَى عُمُومَتِهِ مِنْ يَحْرُكُهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا الْمَنْصُورَ أَنْ يَهَبَ لَهُمْ أَخَاهُمْ عَبْدَ اللَّهِ فَفَعَلُوا ذَلِكَ وَكَلَمُوهُ فَأَجَابَ، وَقَالَ، نَعَمْ، عَلِيٌّ بَعِيسَى بنَ مُوسَى، فَأَتَاهُ؛ فَقَالَ: يَا عِيسَى؛ كُنْتَ دَفَعْتَ إِلَيْكَ عَمِّي وَعَمَّكَ عَبْدَ اللَّهِ قَبْلَ خُرُوجِي إِلَى الْحَجِّ، وَأَمَرْتُكَ أَنْ يَكُونَ فِي مَنْزِلِكَ مَكْرَمًا؛ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ؛ قَالَ: قَدْ كَلَمَنِي فِيهِ عُمُومَتِكَ فَرَأَيْتُ الصَّفْحَ عَنْهُ، فَأَتَنِي بِهِ، قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَمْ تَأْمُرَنِي بِقَتْلِهِ! قَالَ: لَا، بَلْ أَمَرْتُكَ بِحَبْسِهِ عِنْدَكَ.

ثُمَّ قَالَ الْمَنْصُورُ لِعُمُومَتِهِ: إِنْ هَذَا قَدْ أَقَرَّ لَكُمْ بِقَتْلِ أَخِيكُمْ، وَادَّعَى أَنِّي أَمَرْتُهُ بِذَلِكَ، وَقَدْ كَذَبَ، قَالُوا: فَادْعُهُ إِلَيْنَا نَقْتُلْهُ، قَالَ: شَأْنُكُمْ. فَأَخْرَجُوهُ إِلَى صَخْنِ

(١) شايَعناه: كنا من جماعته وأنصاره.

الدار^(١)، واجتمع الناس، واشتهر الأمر فقام واحد وشهر^(٢) سيفه، وتقدم إلى عيسى ليضربه، فقال عيسى: لا تعجلوا؛ فإن عمي حي، زدوني إلى أمير المؤمنين فردوه إليه، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنما أردت بقتله قتلي، هذا عمك حي إن أمرتني بدفعه إليهم دفعته، قال: اثبتا به. فأتى به فجعله في بيت فسقط عليه فمات.

وكان المنصور قد وضع في أساس البيت ملحاً، لما شرع في عمارته، وأعدّه لهذا المعنى، ولما جلس فيه عمه أجرى الماء في أساس البيت سراً بحيث لا يشعر به أحد، فذاب الملح، وسقط البيت.

وركب المنصور بعد موت عمه، وفي خدمته عباس ابن المتوفى - وكان يباسطه^(٣) في كل وقت - فقال له المنصور وهو يحدثه: هل تعرف ثلاثة في أول أسمائهم عين، قتلوا ثلاثة في أول أسمائهم عين؟ قال: لا أعرف إلا ما تقول العامة يا أمير المؤمنين، قالوا: إن علياً قتل عثمان - وكذبوا والله - وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير، وسقط البيت على عم أمير المؤمنين!

قال: فضحك المنصور، وقال: إذا سقط البيت على عمي فما ذنبي؟ قال: قلت: مالك ذنب يا أمير المؤمنين.

وقتل عبد الله كان بسبب البيعة التي تقدمت له مع السقاح، وشرحها يطول. انتهى.



ابن الدقاق البلنسي

ونقلت من خط قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان ما صورته: نقلت من خط القاضي كمال الدين بن العديم من مسودة تاريخه أن ابن الدقاق البلنسي، الشاعر المشهور كان يسهل الليل، ويشغل بالأدب، وكان أبوه حذاداً فقيراً فلامه أبوه وقال: يا ولدي نحن فقراء، ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه، فاتفق أنه برع في العلم والأدب، وقال الشعر، وعمل في أبي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية قصيدة مطربة أولها:

يا شمس خدر مالها مغرب وبذر تيم قط لا يحجب
وقال منها:

ناشدتك الله نسيم الصبا أين استقرت بعدنا زينب!
لم تسر إلا بشذا عزفها أو لا فماذا النفس الطيب!

(١) صحن الدار: وسطها.

(٢) أشهر سيفه وشهره: انتضاه فرغه على غيره.

(٣) يباسطه: يكلمه ليدخل السرور على نفسه.

فأُطْلِقَ لَهُ ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ، فَجَاءَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ جَالِسٌ فِي حَائُوثِهِ مُنْكَبٌّ عَلَى صَنْعَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي حِجْرِهِ، وَقَالَ: خُذْ هَذِهِ وَابْتَغْ بِهَا زَيْتًا. انْتَهَى.



أحمد بن عمر بن سريج ورفيقاه

وَحُكِّيَ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْفَضْلِ قَالَ: خَرَجَ الْقَاضِي أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سُرَيْجٍ، وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ دَاوُدَ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ نَفْطُوِيهِ إِلَى وَلِيمَةٍ، فَأَفْضَى بِهِمُ الطَّرِيقَ إِلَى مَكَانٍ ضَيِّقٍ، فَأَرَادَ كُلُّ وَاحِدٍ تَقْدِيمَ صَاحِبِهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ ابْنُ سُرَيْجٍ: ضَيِّقُ الطَّرِيقِ يُورِثُ سُوءَ الْأَدَبِ. فَقَالَ ابْنُ دَاوُدَ، لَكِنَّهُ تُعْرَفُ بِهِ مَصَائِرُ الرِّجَالِ، فَقَالَ نَفْطُوِيهِ: إِذَا اسْتَحْكَمْتَ الْمَوَدَّةَ بَطَلَتِ التَّكَالُيفُ.



أبو العباس سريج والأعجمي

وَحُكِّيَ عَنْ سُرَيْجِ بْنِ أَبِي الْعَبَّاسِ الْمَشْهُورِ بِالصَّلَاحِ الْوَافِرِ، أَنَّهُ كَانَ أَعْجَمِيًّا لَا يَعْرِفُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ شَيْئًا، فَاتَّفَقَ أَنَّهُ رَأَى الْبَارِيَّ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّوْمِ، فَحَادَّثَهُ وَقَالَ: يَا سُرَيْجُ «طَلَبَ كُنْ»، فَقَالَ: «يَا خُدَّاسَرُ بَسْرَ»، قَالَهَا ثَلَاثًا.

وَهَذَا لَفْظٌ أَعْجَمِيٌّ مَعْنَاهُ بِالْعَرَبِيَّةِ يَا سُرَيْجُ اطْلُبْ، فَقَالَ: يَا رَبِّ رَأْسُ بَرَأْسٍ، كَمَا يَقَالُ: رَضِيتُ أَنْ أَخْلَصَ رَأْسًا بِرَأْسٍ.



ومن لطائف المنقول

أَنَّهُ كَانَ بِالْعَقْبَةِ ظَاهِرَ دِمَشْقَ الْمَحْرُوسَةِ خَانٌ تَجَمُّعُ فِيهِ أَسْبَابُ الْمَلَادِ، وَيَتَّفَقُ فِيهِ مِنَ الْفُسُوقِ وَالْفُجُورِ مَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ، فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَى أَبِي الْفَتْحِ مُوسَى بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْعَادِلِ بْنِ أَيُّوبَ الْمَلْقُوبِ بِالْأَشْرَفِ، فَهَدَمَهُ وَعَمَّرَهُ جَامِعًا، وَسَمَّاهُ النَّاسُ جَامِعَ التَّوْبَةِ، كَأَنَّهُ تَابَ إِلَى اللَّهِ وَأَنَابَ مِمَّا كَانَ فِيهِ.

وَجَرَتْ فِي خُطَابَتِهِ نَكْتَةٌ لَطِيفَةٌ وَهِيَ أَنَّهُ كَانَ بِمَدْرَسَةِ الشَّامِ الَّتِي خَارِجَ الْبَلَدِ إِمَامٌ يُعْرَفُ بِالْجَمَالِ، قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ فِي [زَمَانٍ] ^(١) صِبَاهٍ يَلْعَبُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَلَاهِي، وَهِيَ الَّتِي تَسْمَى الْجَفَانَةَ، وَلَمَّا كَبِرَ حَسُنَتْ طَرِيقَتُهُ، وَعَاشَرَ الْعُلَمَاءَ وَأَهْلَ الصَّلَاحِ، حَتَّى صَارَ مَعْدُودًا فِي الْأَخْيَارِ، فَلَمَّا اخْتِاجَ الْجَامِعُ الْمَذْكُورُ إِلَى خُطِيبٍ رَشَحَ جَانِبَهُ لِلخُطَابَةِ لِكثْرَةِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، فَتَوَلَّاهَا. فَلَمَّا تَوَفَّى تَوَلَّى بَعْدَهُ الْعِمَادُ الْوَاسِطِيُّ الْوَاعِظُ، وَكَانَ مُتَّهَمًا بِاسْتِعْمَالِ الشَّرَابِ؛ وَكَانَ صَاحِبَ دِمَشْقَ يَوْمَئِذٍ الْمَلِكُ الصَّالِحُ عِمَادُ الدِّينِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ الْعَادِلِ أَيُّوبَ.

فكتب إليه الجمالُ عبد الرحيم المعروف بابن رُوَيْبِنَةَ أَيْيَاتًا؛ وهي هذه:

| | |
|---------------------------------|------------------------------|
| يَا مَلِيكَ أَوْضَحَ الْحَـ | قُ لَدِينَا وَأَبَانَهُ |
| جَامِعِ التَّوْبَةِ قَدْ | حَمَلَنِي مِنْهُ أَمَانَهُ |
| قَالَ قُلْ لِلْمَلِكِ الصَّـ | لِحِ أَعْلَى اللّٰهِ شَانَهُ |
| يَا عِمَادَ الدِّينِ يَا مَنْ | حَمِدَ النَّاسُ زَمَانَهُ |
| كَمْ إِلَى كَمْ أَنَا فِي بُؤْ | سٍ وَضُرٍّ وَإِهْـ |
| لِي خَطِيبٌ وَاسْطِيبُ | يَعِشِقُ الشَّرْبَ دِيَانَهُ |
| وَالَّذِي قَدْ كَانَ مِنْ قَبْـ | لُ يُغْنِي بِجِفَانَهُ |
| فَكَمَا نَحْنُ وَمَا زَلْنـ | ا وَلَا أَبْرُحُ حَانَهُ |
| رُدْنِي لِلْخَطِيبِ الْاَوْ | لِ وَاسْتَبْقِ زَمَانَهُ |

ومن لطائف المنقول أَنَّ بُثَيْنَةَ وَعَزَّةَ دَخَلَتَا عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَانْحَرَفَ إِلَى عَزَّةَ، قَالَ: أَنْتِ عَزَّةٌ كَثِيرٌ، قَالَتْ: لَسْتُ لَكَثِيرٍ بِعَزَّةَ، وَلَكِنِّي أُمُّ بَكْرٍ، قَالَ: أَتَرَوِينَ قَوْلَ كَثِيرٍ:

وَقَدْ رَعِمْتَ أَنِّي تَغَيَّرْتُ بَعْدَهَا وَمَنْ ذَا الَّذِي يَأْخُذُ لَا يَتَغَيَّرُ!

قَالَتْ: لَسْتُ أَرْوِي هَذَا، وَلَكِنِّي أَرْوِي قَوْلَهُ:

كَأَنِّي أَنَادِي أَوْ أَكْلُمُ صَخْرَةً مِنْ الصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا الْعُصْمُ رَلَّتْ

ثم انحرَفَ إِلَى بُثَيْنَةَ، فَقَالَ: أَنْتِ بُثَيْنَةُ جَمِيلٌ؟ قَالَتْ: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: مَا الَّذِي رَأَى فِيكَ جَمِيلٌ حَتَّى لَهَجَ بِذِكْرِكَ مِنْ بَيْنِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ! قَالَتْ: الَّذِي رَأَى النَّاسُ فِيكَ فَجَعَلُوكَ خَلِيفَةً.

قَالَ: فَضَحِكَ حَتَّى بَدَأَ لَهُ ضِرْسٌ أَسْوَدٌ، كَانَ يَسْتَرُهُ - وَلَمْ يُرَ قَبْلَ ذَلِكَ - وَفَضَّلَ بُثَيْنَةَ عَلَى عَزَّةَ فِي الْجَائِزَةِ.

ثم أمرهما أَنْ يَدْخُلَا عَلَى عَاتِكَةَ [بنت يزيد]^(١)، فَدَخَلَتَا عَلَيْهَا، فَقَالَتْ لِعَزَّةَ: أَخْبِرِينِي عَنْ قَوْلِ كَثِيرٍ:

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوْقَى غَرِيمِهِ وَعَزَّةٌ مَنطُولٌ مُعْنَى غَرِيمُهَا

مَا كَانَ دَيْنُهُ؟ وَمَا كُنْتُ وَعَدْتِهِ؟ قَالَتْ: كُنْتُ وَعَدْتُهُ قُبْلَةً، ثُمَّ تَلَثَّمْتُ مِنْهَا؛ قَالَتْ: عَاتِكَةُ: وَدِدْتُ أَنَّكَ فَعَلْتَ، وَأَنَا كُنْتُ تَحَمَّلْتُ إِثْمَهَا عَنْكَ. ثُمَّ نَدِمَتْ

عَاتِكَةُ وَاسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَعْتَقْتُ عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ أَرْبَعِينَ رَقْبَةً. انْتَهَى.
وَيَعِجْبُنِي قَوْلُ أَسَامَةَ بْنِ مَنَقْدٍ فِي ابْنِ طَلِيبِ الْمِصْرِيِّ - وَقَدْ احْتَرَقَتْ دَارُهُ:

انْظُرْ إِلَى الْأَيَّامِ كَيْفَ تَسُوقُنَا قَسْرًا إِلَى الْإِقْرَارِ بِالْأَقْدَارِ
مَا أَوْقَدَ ابْنَ طَلِيبٍ قَطُّ بَدَارَهُ نَارًا وَكَانَ حَرِيقُهَا بِاللَّئَارِ

قلت: ومما يناسب هذه الواقعة أن الوجية بن صورة المصري دلال الكتب بمصر، كان له دار موصوفة بالحسن فاحترقت، فعمل فيها نشو الملك المعروف بابن المنجم:

أَقُولُ وَقَدْ عَايَنْتُ دَارَ ابْنِ صُورَةَ وَلِلنَّارِ فِيهَا مَارِجٌ يَتَضَرَّمُ^(١)
كَذَا كُلِّ مَالٍ أَضْلُهُ مِنْ تَهَاوُسٍ فَعَمَّا قَلِيلٍ فِي تَهَاوُرٍ يَعمَدُ
وَمَا هُوَ إِلَّا كَافِرٌ طَالَ عُمُرُهُ فَجَاءَتْهُ لَمَّا اسْتَبْطَأَتْهُ جَهَنَّمُ

قلت: وهذه اللطائف تضارع قصة أبي الحسين الجزار مع بعض أهل الأدب بمصر، وكان شيخاً قد ظهر عليه جرب، فالتطخ بالكبريت. فلما سمع أبو الحسين الجزار بذلك كتب إليه:

أَيُّهَا السَّيِّدُ الْأَدِيبُ دُعَاءُ مِنْ مُحِبٍّ خَالٍ عَنِ التَّنَكُّيَةِ
أَنْتَ شَيْخٌ وَقَدْ قَرُبْتَ مِنَ النَّارِ فَكَيْفَ ادَّهَنْتَ بِالْكِبْرِيتِ!



الزعفراني والصاحب بن عباد

قيل: إنَّ أبا القاسم الزعفراني مدح الصاحب بن عباد بقصيدة نونية، وانتهى إلى قوله منها:

وَحَاشِيَةُ الدَّارِ يَمْشُونَ فِي صَنُوفٍ مِنَ الْخَزْرِ إِلَّا أَنَا

فقال الصاحب: قرأت في أخبار مغل بن زائدة الشيباني، أن رجلاً قال له: احملني أيها الأمير؛ فأمر له بناقة وقرس وبغل وجمار وجارية، ثم قال: لو علمت أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق مراكباً غير هذا لحملتك عليه، وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص وعمامة ودُّرَاعَةٍ وسراويل ومِنْدِيلٍ ومُطَرَفٍ وِرْدَاءٍ وكساء وجُورِبٍ^(٢) وكيس. ولو علمنا لباساً من الخز لأغطيناكه.

وبلغ حديث مغل المذكور للعلاء^(٣) بن أيوب فقال: رحم الله ابن زائدة! لو

(١) المارج: النار بلا دخان.

(٢) «وجراب».

(٣) أ: «لعلى».

كان يعلمُ أَنَّ الغلامَ يُركبُ لأمرَ لهُ به، ولكنه كان عربياً خالصاً لم يُدَسَّ بقاذورات الأعاجم. انتهى.



بيوت الشعر

قيل: إِنَّ بَيُوتَ الشعرِ أَرْبَعَةٌ: فَخْرٌ وَمَدِيحٌ وَهَجَاءٌ وَنَسِيبٌ؛ وكان جَرِيرٌ أَفْحَلُ شعراءِ الإسلامِ في الأربعة؛ فَالْفَخْرُ قوله:

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَاباً^(١)
والمديح قوله:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٌ رَاحَ^(٢)
والهجاء قوله:

فَغَضُّ الطَّرْفِ إِنْكَ مِنْ تَمِيمٍ فَلَا كَغَبَابٍ بَلَّغْتَ وَلَا كَلَابِ^(٣)
والتَّسِيبُ قوله:

إِنَّ الْعُيُونَ أَلَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُخَيِّنَ قَتْلَانَا^(٤)
يُضْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهَنْ أَوْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْسَانَا
وقال أبو عبيدة: التقي جريرٌ والفرزدقُ بِمَنَى وهما حاجان، فقال الفرزدقُ لجرير:

فإِنَّكَ لَاقٍ بِالْمَنَازِلِ مِنْ مَنَى فَخَاراً فَأَخِيرَنِي بِمَنْ أَنْتَ فَاخِرُ^(٥)
فقال جرير: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ!

قال أبو عبيدة: وأصحابنا يَسْتَخْسِنُونَ هذا الجواب من جرير ويعجبون منه.



خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء

قيل: لَمَّا اسْتُخْلِفَ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدَّ الشعراءُ إِلَيْهِ، وَأَقَامُوا بِبَابِهِ أَيَّاماً لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ؛ فبينما هم كذلك إِذْ مَرَّ بِهِمْ رَجَاءُ بْنُ خَيْثُومَةَ - وكان جليس عمر - فَلَمَّا رَأَاهُ جَرِيرٌ دَاخِلاً، قَامَ إِلَيْهِ وَأَنْشَدَهُ:

يَأْيُهَا الرَّجُلُ الْمُزْخِي عِمَامَتَهُ هَذَا زَمَانُكَ فَاسْتَأْذِنْ لَنَا عَمَرَا

(١) ديوانه: ٨٧.

(٢) ديوانه: ٩٨.

(٣) ديوانه: ٧٥.

(٤) ديوانه: ٥٩٥.

(٥) ديوانه: ٤٣٨.

فدخل عليه ولم يذكر له شيئاً من أمرهم، ثم مرّ بهم عديّ بن أَرْطَاة، فقال له جريزٌ أبياتاً آخرها، قوله:

لَا تَنْسَ حَاجَتَنَا لُقَيْتَ مَغْفِرَةٍ قَدْ طَالَ مُكْثِي عَنْ أَهْلِي وَعَنْ وَطَنِي^(١)
قال: فدخل عديّ على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين؛ الشعراء ببابك، وسهامهم مَسْمُومَةٌ، وأقوالهم نَافِذَةٌ. قال: وَيَحْكُ يا عَدِيّ! ما لي وللشعراء! قال: أعزّ الله أمير المؤمنين، إنّ رسول الله ﷺ قد امْتَدَحَ وأعطى، ولك في رسول الله عليه الصلاة والسلام أُسْوَةٌ [حسنة]^(٢)، قال: كيف؟ قال: امْتَدَحَهُ العباسُ بنُ مُزْدَاسَ السَّلَمِيّ فَأَعْطَاهُ حُلَّةً، فَقَطَعَ بِهَا لِسَانَهُ، قال: أَوْ تَزَوِي من قوله شيئاً^(٣)؟ قال: نعم قوله:

رَأَيْتُكَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا نَشَرْتُ كِتَاباً جَاءَ بِالْحَقِّ مُغْلِماً
شَرَعْتَ لَنَا دِينَ الْهُدَى بَعْدَ جَوْرِنَا عَنِ الْحَقِّ لَمَّا أَضْبَحَ الْحَقُّ مُظْلِماً
وَنَوَّزْتَ بِالْبُرْهَانِ أَمراً مُدَلِّساً^(٤) وَأَطْفَأْتَ بِالْإِسْلَامِ نَاراً تَضَرَّماً
فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِي النَّبِيِّ مُحَمَّدًا وَكُلُّ أَمْرِيءٍ يُجْزَى بِمَا كَانَ قَدْماً
أَقَمْتُ سَبِيلَ الْحَقِّ بَعْدَ اغْوِجَاجِهِ وَكَانَ قَدِيماً رُكْنُهُ قَدْ تَهْدَماً
فقال عمر: ويلك يا عديّ! من بالبابِ منهم؟ قال: عُمَرُ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ. قال: أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ:

ثُمَّ نَبَّهْتُهَا فَمَدَّتْ كَعَابَا طِفْلَةٌ مَا تُبَيِّنُ رَجْعَ الْكَلَامِ^(٥)
سَاعَةً ثُمَّ إِنِّهَا بَعْدُ قَالَتْ: وَيَلْتَا قَدْ عَجَلْتَ يَا بَنَ الْكَرَامِ
فلو كان عَدُوُّ اللَّهِ إِذْ فَجَرَ كَتَمَ عَلَى نَفْسِهِ لَكَانَ أَسْتَرُ لَهُ، لَا يَدْخُلُ وَاللَّهِ عَلَيَّ أَبَداً. فَمَنْ بِالْبَابِ سِوَاهُ؟ قال: الْفَرَزْدَقُ، قال: أَوَلَيْسَ الَّذِي يَقُولُ:

هُمَا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا انْقَضَ بَارُ أَقْتَمِ الرَّيْشِ كَاسِرُهُ^(٦)
فَلَمَّا اسْتَوَتْ رِجْلَايَ فِي الْأَرْضِ قَالَتَا: أَحْيِي فَيُزَجِّي أَمْ قَتِيلٌ نُحَازِرُهُ!
لَا يَدْخُلُ عَلَيَّ وَاللَّهِ. فَمَنْ بِالْبَابِ سِوَاهُ؟ قال: الْأَخْطَلُ، قال: يا عديّ، أليس هو الذي يقول:

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمْضَانَ طَوْعاً وَلَسْتُ بِأَكْلٍ لَحْمِ الْأَضَاجِي^(٧)

(١) ديوانه: ٥٨٨.

(٥) ملحق ديوانه: ٤٩٤.

(٢) تكملة من ط.

(٦) ديوانه: ٣٦١.

(٣) د: «خلعة قطع بها لسانه».

(٧) ديوانه: ١٥٤.

(٤) مدلساً: من الدلس، وهو الظلمة.

ولستُ بزاجرٍ عنساً بُكورا إلى بطحاءٍ مَكَّةَ لِلْجَاحِ^(١)
ولستُ بزائرٍ بَيْتاً عتيقاً^(٢) بمكة أبتغي فيه صلاحي
ولستُ بقائمٍ بالليل أذعو قُبَيْلَ الصُّبْحِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
ولكنِّي سأشربُها شَمولاً وأسجدُ عِنْدَ مُنْبَلَجِ الصُّبَاحِ^(٣)
والله لا يدخل عليّ وهو كافرٌ أبداً؛ فمن بالباب سوى من ذكرت؟ قال
الأخوص؛ قال: أليس الذي يقول:

اللهَ بَيْنِي وَبَيْنَ سَيِّدِهَا يَفِرُّ مِنِّي بِهَا وَأَتْبَعُهُ
فما هو بدون من ذكرت، فمن هنا أيضاً؟ قال: جميل بن مَعْمَرٍ، قال أليس هو
الذي يقول:

أَلَا لَيْتَنَا نَحْيَا جَمِيعاً وَإِنْ أُمْتُ يُوَافِقُ فِي الْمَوْتِ ضَرِيحِي ضَرِيحُهَا^(٤)!
فلو كان عدوُّ الله تَمَّتْ لِقَاءُهَا فِي الدُّنْيَا لِيَعْمَلَ بَعْدَ ذَلِكَ صَالِحاً لَكَانَ أَضْلَحَ؛ والله
لا يدخل عليّ أبداً؛ فهل سوى من ذكرت أحد؟ قال: جرير، قال: أما هو الذي يقول:
دُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنَزِلَةِ اللَّوَى وَالْعَيْشَ بَعْدَ أَوْلَيْكَ الْأَيَّامِ^(٥)
طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا وَقَتِ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ
فإن كان ولا بُدُّ فهو الذي يدخل. فلما مثلَ بين يديه، قال: يا جرير؛ اتقِ الله
ولا تَقُلْ إِلَّا حَقّاً، فَأَنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ الرَّائِيَّةَ المشهورة التي منها:

إِنَّا لَنَرْجُو إِذَا مَا الْغَيْثُ أَخْلَقْنَا مِنَ الْخَلِيفَةِ مَا نَرْجُو مِنَ الْمَطَرِ^(٦)
نَالُ الْخِلَافَةِ إِذْ كَانَتْ لَهُ قَدْرًا كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ
هَذِي الْأَرَامِلُ قَدْ قَضَيْتَ حَاجَتَهَا فَمِنْ لِحَاجَةٍ هَذَا الْأَرْمَلِ الذِّكْرُ!
الخيرُ ما دُمْتَ حَيّاً لَا يُفَارِقُنَا بَوْرُكْتَ يَا عُمَرَ الْخَيْرَاتِ مِنْ عُمَرِ
فقال: يا جرير؛ ما أرى لك فيما ها هنا حقاً! قال: بلى يا أمير المؤمنين، إنني
ابن سَبِيلٍ وَمُتَقَطِّعٍ بِهِ.

(١) العنس: البازل، الصلبة من الإبل.

(٢) العتيق: أي البيت الحرام.

(٣) الشمول: البارد من الخمر.

(٤) ديوانه: ٥١.

(٥) ديوانه: ٥٥١.

(٦) ديوانه: ٢٧٥.

فقال له: وَيَحَكَ يا جرير، قد وُلِّينا هذا الأمرَ ولا نَمْلِكُ إِلَّا ثَلَاثَ مِائَةِ دِرْهَمٍ؛ فَمِائَةٌ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ، وَمِائَةٌ أَخَذَتْهَا أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ، يَا غَلَامُ اعْطِهِ الْمِائَةَ الْبَاقِيَةَ.

قال: فَأَخَذَهَا جرير، وقال: وَاللَّهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا اكْتَسَبْتُهُ. ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ لَهُ الشُّعْرَاءُ: مَا وَرَاءَكَ؟ فَقَالَ: مَا يَسُوؤُكُمْ، خَرَجْتُ مِنْ عِنْدَ خَلِيفَةٍ يُعْطِي الْفُقَرَاءَ وَيَمْنَعُ الشُّعْرَاءَ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَرَاضٍ، وَأَنْشُدُ:

رَأَيْتُ رُقَى الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفِرُّهُ وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الْجِنِّ رَاقِيَا^(١)



ومن لطائف الطُّرْفِ

مَا حَدَّثَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهَدِّيِّ، قَالَ: قَالَ لِي جَعْفَرُ يَوْمًا: إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْخُلُوةِ عَدَا، فَهَلْ أَنْتَ مُسَاعِدِي؟

فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ! أَنَا أَسْعُدُ بِمُسَاعَدَتِكَ، وَأَسْرُ بِمُحَادَثَتِكَ، قَالَ: فَبَكَرْتُ إِلَيْهِ بَكُورَ الْغَرَابِ.

قَالَ: فَأَتَيْتُهُ عِنْدَ الْفَجْرِ فَوَجَدْتُ الشَّمْعَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ يَنْتَظِرُنِي لِلْمِيعَادِ، فَضَلَّيْنَا، ثُمَّ أَفْضَيْنَا إِلَى الْحَدِيثِ، وَقُدِّمَ الطَّعَامُ فَأَكَلْنَا، فَلَمَّا غَسَلْنَا أَيْدِينَا خُلِعَتْ عَلَيْنَا ثِيَابُ الْمُنَادِمَةِ، ثُمَّ ضُمَّخْنَا بِالْخُلُقِ^(٢)، وَمُدَّتِ السَّنَائِرُ^(٣)، ثُمَّ إِنَّهُ ذَكَرَ حَاجَةً قَدَعَا الْحَاجِبَ، فَقَالَ: إِذَا أَتَى عَبْدُ الْمَلِكِ فَأَذِّنْ لَهُ - يَغْنِي قَهْرْمَانًا لَهُ.

فَاتَّفَقَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحِ الْهَاشِمِيِّ شَيْخُ الرَّشِيدِ - وَهُوَ مِنْ جَلَالَةِ الْقَدْرِ وَالْوَرَعِ، وَالَامْتِنَاعِ مِنَ مُنَادِمَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَمْرٍ جَلِيلٍ، وَكَانَ الرَّشِيدُ قَدْ اجْتَهَدَ أَنْ يَشْرَبَ مَعَهُ قَدْحًا وَاجِدًا، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، تَرَفُّقًا لِنَفْسِهِ - فَلَمَّا رُفِعَ السِّتْرُ، وَطُلِعَ عَلَيْنَا، سَقِطَ فِي أَيْدِينَا^(٤)، وَعَلِمْنَا أَنَّ الْحَاجِبَ قَدْ غَلِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الْقَهْرْمَانِ، فَأَعْظَمَ جَعْفَرُ ذَلِكَ، وَارْتَاعَ لَهُ، ثُمَّ قَامَ إِجْلَالًا لَهُ.

فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى تِلْكَ الْحَالِ دَعَا غَلَامَهُ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ سَيْفَهُ وَعِمَامَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: اصْنَعُوا بِنَا مَا صَنَعْتُمْ بَأَنْفُسِكُمْ.

قَالَ: فَجَاءَ إِلَيْهِ الْغُلَمَانُ فَطَرَحُوا عَلَيْهِ الثِّيَابَ الْحَرِيرَ، وَضَمَّخُوهُ، وَدُعِيَ بِالطَّعَامِ فَطَعِمَ وَشَرِبَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: لِيُخَفَّفَ لِي، فَإِنَّهُ شَيْءٌ مَا شَرِبْتُهُ وَاللَّهِ. فَتَهَلَّلَ وَجْهُ جَعْفَرِ

(١) الخبر والشعر في العقد ٩١/٢ - ٩٦.

(٢) الخلق: الطيب.

(٣) أ، ب: «الستارة».

(٤) سقط في يده وأسقط، أي أحس أنه زل وأخطأ.

وَفَرَحَ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: جُعِلْتُ فِدَاءَكَ! بِالْعَتِّ فِي الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ، فَهَلْ مِنْ حَاجَةٍ تَبْلُغُ إِلَيْهَا قُدْرَتِي، وَتُحِيطُ بِهَا نِعْمَتِي فَأَقْضِيَهَا مُكَافَأَةً لِمَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: بلى؛ إِنَّ فِي قَلْبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ غَضَبًا، فَتَسْأَلُهُ الرِّضَا عَنِّي، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ: قَدْ رَضِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ [عَنْكَ] ^(١).

ثُمَّ قَالَ: وَعَلَيَّ عَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ، فَقَالَ: هِيَ لَكَ حَاضِرَةٌ مِنْ مَالِي، وَمِنْ مَالِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ضِعْفُهَا ^(٢). ثُمَّ قَالَ: وَابْنِي إِبْرَاهِيمَ أَحِبُّ أَنْ أَشُدَّ ظَهْرَهُ بِصَهْرٍ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: قَدْ زَوَّجَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ابْنَتَهُ الْعَالِيَةَ. قَالَ: وَأَحِبُّ أَنْ تَخْفُقَ عَلَى رَأْسِهِ الْأُلُويَّةُ، قَالَ: قَدْ وَلَّاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِصْرَ. فَانْصَرَفَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ: فَبَقِيتُ مُتَحَيِّرًا مُتَعَجِّبًا مِنْ إِقْدَامِ جَعْفَرٍ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، وَقُلْتُ: عَسَى أَنْ يُجِيبَهُ فِيمَا سَأَلَ مِنَ الرِّضَا وَالْمَالِ وَالْوِلَايَةِ! وَلَكِنْ مَنْ أَطْلَقَ لَجَعْفَرٍ أَوْ لغيره تَزْوِيجَ بَنَاتِ الرَّشِيدِ!

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِّ بَكَرْتُ إِلَى بَابِ الرَّشِيدِ لَأَرَى مَا يَكُونُ، فَدَخَلَ جَعْفَرُ، فَلَمْ يَلْبَثْ حَتَّى دَعَا بِأَبِي يُوسُفَ الْقَاضِي وَإِبْرَاهِيمَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحٍ، فَخَرَجَ إِبْرَاهِيمُ وَقَدْ عَقِدَ نِكَاحَهُ بِالْعَالِيَةِ بِنْتِ الرَّشِيدِ، وَعَقِدَ لَهُ عَلَى مِصْرَ، وَالرَّايَاتِ وَالْأُلُويَّةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَحُمِلَتْ الْبِدْرُ إِلَى مَنْزِلِ عَبْدِ الْمَلِكِ.

ثُمَّ خَرَجَ جَعْفَرُ فَأَشَارَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: تَعَلَّقْتُ قُلُوبُكُمْ بِحَدِيثِ عَبْدِ الْمَلِكِ. فَأَخْبَيْتُمْ عِلْمَ آخِرِهِ.

لَمَّا دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: كَيْفَ كَانَ يَوْمُكَ يَا جَعْفَرُ؟ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ حَتَّى بَلَغْتُ إِلَى دُخُولِ عَبْدِ الْمَلِكِ - وَكَانَ مُتَكِنًا جَالِسًا - فَقَالَ: إِيهِ وَلِلَّهِ أَبُوكَ! فَقُلْتُ: سَأَلَنِي فِي رِضَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: فِيمَ أَجَبْتَهُ؟ قُلْتُ: قَدْ رَضِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ، قَالَ: قَدْ رَضِيتَ، ثُمَّ مَاذَا؟ قُلْتُ: وَذَكَرْتُ أَنَّ عَلَيْهِ عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ، قَالَ: فِيمَ أَجَبْتَهُ؟ قُلْتُ: قَدْ قَضَاهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ، قَالَ: قَضَيْتُ.

قُلْتُ: وَذَكَرْتُ أَنَّهُ رَاغِبٌ فِي أَنْ يَشُدَّ ظَهْرَ وَلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ بِصَهْرٍ مِنْكَ. قَالَ: فِيمَ أَجَبْتَهُ؟ قُلْتُ: زَوَّجَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ابْنَتَهُ الْعَالِيَةَ؛ قَالَ: قَدْ أَنْصَيْتُ ذَلِكَ. ثُمَّ مَاذَا لِلَّهِ أَبُوكَ! قُلْتُ: وَذَكَرْتُ أَنَّهُ يَشْتَهِي أَنْ تَخْفُقَ عَلَى رَأْسِ وَلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ الْأُلُويَّةُ، قَالَ: فِيمَ أَجَبْتَهُ؟ قُلْتُ: قَدْ وَلَّاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِصْرَ، قَالَ: وَلَيْتَهُ. فَأَحْضَرَ إِبْرَاهِيمَ وَالْقُضَاةَ وَالْفُقَهَاءَ، وَأَتَمَّ لَهُ جَمِيعَةَ ذَلِكَ مِنْ سَاعَتِهِ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ: فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي: أَيُّهُمْ أَكْرَمُ وَأَعْجَبُ فِعْلًا؟ مَا ابْتَدَأَهُ

عبد الملك من الموافقة وشرب الخمر - ولم يكن شربها قط - ولباسه ما ليس من لبسه من ثياب المنادمة، أم إقدام جعفر على الرشيد بما أقدم، أم إمضاء الرشيد جميع ما حَكَمَ به جَعَفَرُ عليه!



ومن لطائف المنقول

ما حُكِيَ عن أَبِي مَعْشَرِ الْبَلْخِيِّ الْمُتَنَجِّمِ الإمام المُصَنِّفِ صاحبِ التَّصَانِيفِ المفيدة في عِلْمِ النُّجُومِ، قيل: إِنَّهُ كَانَ مُتَّصِلًا بِخِدْمَةِ بَعْضِ الْمُلُوكِ وَإِنَّ ذَاكَ الْمَلِكَ طَلَبَ رَجُلًا مِنْ أَتْبَاعِهِ وَأَكْبَرِ دَوْلَتِهِ لِيُعَاقِبَهُ بِسَبَبِ جَرِيمَةٍ صَدَرَتْ مِنْهُ؛ فَاسْتَحْفَى، وَعَلِمَ أَنَّ أَبَا مَعْشَرٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَسْتَخْرِجُ بِهَا الْخَبَايَا وَالْأَشْيَاءَ الْكَامِنَةَ، فَأَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ شَيْئًا حَتَّى لَا يَهْتَدِيَ إِلَيْهِ، وَيَبْعَدَ عَنْهُ حَدْسَهُ، فَأَخَذَ طُسْتًا، وَجَعَلَ فِيهِ دَمًا، وَجَعَلَ فِي الدَّمِ هَاوُنَ ذَهَبٍ، وَقَعَدَ عَلَى الْهَاوُنِ أَيَّامًا، وَتَطَلَّبَهُ الْمَلِكُ وَبَالَغَ فِي الطَّلَبِ، فَلَمَّا عَجَزَ عَنْهُ أَخْضَرَ أَبَا مَعْشَرٍ وَطَلَبَ إِظْهَارَهُ، فَعَمِلَ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي يَسْتَخْرِجُ بِهَا، وَسَكَتَ زَمَانًا حَائِرًا، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا سَبَبُ سُكُوتِكَ وَحَيْرَتِكَ؟ فَقَالَ: أَرَى شَيْئًا عَجِيبًا، فَقَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: أَرَى الرَّجُلَ الْمَطْلُوبَ عَلَى جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَالْجَبَلُ فِي بَحْرِ مِنْ دَمٍ، وَلَا أَعْلَمُ فِي الْعَالَمِ مَوْضِعًا عَلَى هَذِهِ الصُّفَةِ، فَقَالَ لَهُ: أَعِذْ نَظْرَكَ، فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَرَى إِلَّا مَا ذَكَرْتُ، وَهَذَا شَيْءٌ مَا وَقَعَ لِي مِثْلُهُ، فَلَمَّا أَيْسَرَ الْمَلِكُ مِنْ تَخْصِيلِهِ، نَادَى فِي الْبَلَدِ بِالْأَمَانِ لِلرَّجُلِ، وَلَمَنْ أَخْفَاهُ. فَلَمَّا اطْمَأَنَّ الرَّجُلُ ظَهَرَ، وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ، فَسَأَلَهُ عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا اعْتَمَدَهُ^(١)، فَأَعْجَبَهُ حَسَنُ اخْتِيَالِهِ فِي إِخْفَاءِ نَفْسِهِ، وَلَطَافَةُ أَبِي مَعْشَرِ الْمُنَجِّمِ فِي اسْتِخْرَاجِهِ. وَلَهُ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْإِصَابَاتِ.

قال قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان: ومما يناسب هذا من فطن المتطبين ما رواه الحسين بن إدريس الحلواني: قال: سمعت الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه يقول: ما أفلح سمين إلا أن يكون محمد بن الحسن، قيل له: ولم ذلك؟ قال: لأنه لا يعدو العاقل إحدى خلتين؛ إما أن يهتم لآخرته ومعاذته، أو لدنياه ومعايشه؛ والشخم مع الهَم لا يتعقد. ثم قال: وكان بعض ملوك الأرض قديمًا كثير الشخم، لا ينتفع بنفسه، فجمع الحكماء وقال: اختالوا لي بحيلة يخف عني لحيي هذا قليلاً، قال: فما قدرُوا له على شيء، فجاءه رجل عاقل لبيب متطبيب، فقال: عالجني ولك الغنى، قال: أصلح الله الملك! أنا طيب منجم! دغني حتى أنظر الليلة

(١) ج، ط: «اعتمد عليه».

في طالعك لأرى أي دواء يُوافقه، فلما أصبح قال: أيُّها الملك، الأمان! فلما أمّنه قال: رأيت طالعك يدلُّ على أنه لم يبقَ من عُمرِكَ غيرُ شهرٍ واحدٍ، فإن اخترتَ عالجُتكَ، وإن أردتَ بيانَ ذلكَ فاحبسني، فإن كان لقولي حقيقةٌ فخل عني، وإلا فاقصص مني.

قال: فحبسه، ثم رفع الملك الملاهي، واختجب عن الناس، وخلا وخذه مُعْتَمًا، فكلما انسَلَخَ يومُ ازداد همًّا وغمًّا، حتى هزلَّ وخفَّ لُحمه، ومضى لذلك ثمانية وعشرون يومًا، فبعث إليه وأخرجه، فقال: ما ترى؟ فقال: أعزَّ الله الملك! أنا أهونُ على الله من أن أعلم الغيب، والله إنني لم أعلم عمري، فكيف أعلم عمرك! ولكن لم يكن عندي دواء إلا الغم، فلم أقدر أن أجلب إليك الغم إلا بهذه الحيلة؛ فإن الغم يذيب الشحم.

فأجازه على ذلك، وأحسن إليه غاية الإحسان، وذاق حلاوة الفرح بعد مرارة الغم.

قلت: ويعجبني قول جعفر بن شمس الخلافة في هذا المعنى:

هِيَ شِدَّةٌ يَأْتِي الرَّخَاءُ عَقِيبَهَا وَأَسَى يُبَشِّرُ بِالسُّرُورِ الْعَاجِلِ
وَإِذَا رَأَيْتَ فَإِنَّ بُؤْسًا عَاجِلًا^(١) لِلْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ نَعِيمٍ زَائِلٍ

ويعجبني قوله، وإن كان في غير ما نحن فيه:

مَدَحْتُكَ أَلْسِنَةُ الْأَنَامِ مَخَافَةً وَتَشَاهَدَتْ لَكَ بِالثَّنَاءِ الْأَحْسَنِ
أَتَرَى الزَّمَانَ مُؤَخَّرًا فِي مُدَّتِي حَتَّى أَعِيشَ إِلَى انْطِلَاقِ الْأَلْسَنِ!



نادرة لطيفة

نُقِلَ عن قاضي القضاة شمس الدين بن خلِّكان في تاريخه أنَّ الجُنَيْدَ قال: ما انْتَفَعْتُ بشيءٍ كائِنْفَاعِي بِأَبْيَاتِ سَمِعْتُهَا، قِيلَ له: وما هي؟ قال: مررتُ بِدَرْبِ القَرَاتِيسِ، فَسَمِعْتُ جَارِيَةً تُعْطِي من دَارٍ، وتقول هذه الأبيات:

إِذَا قُلْتُ أَهْدِي الْهَجْرَ لِي خُلِّلِ الْأَسَى^(٢) تَقُولِينَ لَوْلَا الْهَجْرُ لَمْ يَطْبِ الْحُبُّ
وَإِنْ قُلْتُ هَذَا الْقَلْبُ أَحْرَقَهُ الْهَوَى تَقُولِي بَنِيرَانَ الْهَوَى شَرَفَ الْقَلْبِ
وَإِنْ قُلْتُ مَا أَذْنُبْتُ قُلْتُ مُجِيبَةً حِسَاتِكَ ذَنْبٌ لَا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبُ

فصُعِقْتُ وصِخْتُ: فبينما أنا كذلك إذ خرجَ صاحبُ الدار فقال: ما هذا يا سيدي! فقلت له: مما سمعت، فقال: إنها هبةٌ مني إليك، فقلت: قد قبلت، وهي

(١) ب، ج، د: «وإذا نظرت».

(٢) ج، د: «حلل البلى».

حُرَّةً لوجه الله تعالى . ثم زوّجها^(١) لبعض أصحابنا بالرباط ، فولدت منه ولداً نبيلاً حجّ على قدميه ثلاثين حجة^(٢) .



أبو عليّ الفارسيّ

وذكر قاضي القضاة شمس الدين بن خلّكان في ترجمة أبي عليّ الفارسيّ أنّه كان يوماً يسائر عَضُد الدولة بن بُويه في ميدان شيراز ، فقال له : بِمِ^(٣) انْتَصَبَ المستثنى في قولنا : قام القومُ إلّا زيداً؟ فقال الشيخ : بفعلٍ مُقدَّر ، فقال له : كيف تقديره؟ فقال : أسْثني زيداً ، فقال له عَضُد الدولة : هَلّا رفعته ، وقَدَرْتَ الفعل : امتنع زيدٌ؟ فانقطع الشيخ^(٥) وقال : هذا الجواب مُبدّاني ، ثمّ إنّه لما رَجَعَ إلى منزله وُضِعَ في ذلك كلاماً حسناً وحمله إليه ، فاستحسنه^(٤) .

وحكى أبو القاسم بن أحمد الأندلسيّ : قال جرى ذكرُ الشُّعر بحضرة أبي عليّ الفارسيّ وأنا حاضر ، فقال : إِنِّي لَا غِطْكُمْ عَلَى قول الشعر ؛ فَإِنْ خَاطِرِي لَا يُوَافِقُنِي إِلَى ذَلِكَ ، مَعَ تَحْقِيقِ الْعُلُومِ الَّتِي هِيَ مِنْ مَوَادِّهِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : فَمَا قُلْتَ قَطُّ شَيْئاً مِنْهُ؟ قَالَ : مَا أَعْلَمُ أَنَّ لِي شِعْراً غَيْرَ ثَلَاثَةِ آيَاتٍ فِي الشَّيْبِ ، وَهِيَ قَوْلِي :

خَضِبْتُ الشَّيْبَ لَمَّا كَانَ عَيْباً وَخَضِبُ الشَّيْبِ أَوْلَى أَنْ يُعَابَا
وَلَمْ أَخْضِبْ مَخَافَةَ هَجْرٍ خِلٍّ^(٥) وَلَا عَيْباً خَشِيتُ وَلَا عِتَابَا
وَلَكِنِّ الْمَشِيبَ بَدَأَ دَمِيماً فَصَيَّرْتُ الْخَضَابَ لَهُ عِقَابَا



ومن لطائف المنقول

أنّ أبا محمد الوزير المهلبيّ كان في غَايَةِ مِنَ الْأَدَبِ وَالْمَحَبَّةِ لِأَهْلِهِ ، وَكَانَ مِنْ قَبْلِ اتِّصَالِهِ بِمُعِزِّ الدَّوْلَةِ بن بُويه في شِدَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ الضَّرُورَةِ وَالْمُضَايَقَةِ ، وَسَافِرٍ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ ، وَلَقِيَ فِي سَفَرِهِ شِدَّةً عَظِيمَةً ، فَاشْتَهَى اللَّحْمَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ ارْتَجَالاً :

أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
أَلَا مَوْتُ لَزِيدُ الطَّغَمِ يَأْتِي يُخَلِّصُنِي مِنَ الْعَيْشِ الْكَرْبِ

(١) كذا في ابن خلّكان . وفي الأصول : «دفعها» .

(٢) ابن خلّكان ١/ ١١٨ .

(٣) كذا في أ ، وفي باقي الأصول «لم» .

(٤) ابن خلّكان ١/ ١٣١ .

(٥) ط : «خلى» .

إِذَا أَبْصَرْتُ قَبْرًا مِنْ بَعِيدٍ وَدِدْتُ لَوْ أَنَّ نِيَّ فِيمَا يَلِيهِ
أَلَّا رَجَمَ الْمُهَيْمَنُ نَفْسَ حُرٍّ تَصَدَّقَ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ
وكان معه رفيقٌ يقالُ لَهُ أبو عبد الله الصُّوفي - وقيل: أبو الحسن^(١)
العسقلاني، فلَمَّا سَمِعَ الأبيات، اشْتَرَى لَهُ لَحْمًا بِدِرْهَمٍ، وَطَبَخَهُ. وَأَطْعَمَهُ،
وَتَفَارَقَا. وَتَنَقَّلْتُ [بِالْمُهَلَّبِيِّ]^(٢) الأَحْوَالَ، وَوَلِيَّ الوَزَارَةَ ببغدادَ لمعز الدولة
المذكور، وَضَاقَتِ الحالُ بِرَفِيقِهِ الَّذِي اشْتَرَى لَهُ اللَّحْمَ فِي السَّفَرِ، وَبَلَغَهُ وَزارَةُ
المُهَلَّبِيِّ فَقَصَّده، وَكَتَبَ إِلَيْهِ:

أَلَا قُلْ لِلوَزِيرِ قَدْتُهُ نَفْسِي مَقَالَ مُذَكِّرٍ مَا قَدْ نَسِيهِ
أَتَذَكَّرُ إِذْ تَقُولُ لِضَيْقِ عَيْشٍ: أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ!
فلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهَا تَذَكَّرَ الحالَ، وَهَزَّتْهُ أَرْجَحِيَّةُ الكَرَمِ، فَأَمَرَ لَهُ بِسَبْعِمِائَةِ دِرْهَمٍ، وَوَقَعَ
لَهُ فِي رُقْعَتِهِ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ
مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ثُمَّ دَعَا بِهِ فَخَلَعَ عَلَيْهِ، وَقَلَّدَهُ عَمَلًا يَزْتَفِقُ مِنْهُ^(٣).



حماد الراوية

وذكر الحريري صاحب المقامات في كتابه المسمى «بدر الغواص»^(٤) ما مثاله:
قال حماد الراوية: كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان في خلافته،
وكان أخوه هشام يجفوني لذلك، فلَمَّا مَاتَ يَزِيدُ وَأَفْضَتِ الخِلافةُ إلى هِشَامِ خِفْتُه،
وَمَكَّنْتُ فِي بَيْتِي سَنَةً لَا أُخْرَجُ إِلَّا لِمَنْ أَثِقُ بِهِ مِنْ إِخْوَاني سِرًّا.
فلَمَّا لَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا يَذْكُرُنِي فِي السَّنَةِ، أَمِنْتُ وَخَرَجْتُ، وَصَلَّيْتُ الجُمُعَةَ فِي
جامع الرُّصَافَةِ، فَإِذَا شُرْطِيانَ قَدْ وَقَفَا عَلَيَّ، وَقَالَا: يَا حَمَادُ؛ أَجِبِ الأَمِيرَ يوسُفَ بن
عُمَرَ الثَّقَفِي - وَكَانَ وَالِيًا عَلَى العِراقِ - فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مِنْ هَذَا كُنْتُ أَخَافُ! ثُمَّ قُلْتُ
لَهُمَا: [هَلْ لَكُمْ أَنْ]^(٥) تَدْعَانِي حَتَّى آتِيَ أَهْلِي فَأَوْدِعَهُمْ [وداعَ من لا يرجع إليهم
أبدًا]^(٦)، ثُمَّ أَسِيرَ مَعَكُمْ؟ فَقَالَا: مَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ سَبِيلٍ؛ فَاسْتَسَلَّمْتُ فِي أَيْدِيهِمَا، ثُمَّ

(١) كذا في ط، ج، وابن خلكان. وفي أ، ب: «الحسين».

(٢) زيادة من ابن خلكان.

(٣) يرتفق منه: يستعين به في حياته.

(٤) ابن خلكان ١/١٤٢.

(٥) درة الغواص ١١٠، ١١١.

(٦) زيادة من درة الغواص.

صِرْتُ إِلَى يَوْسَفَ بْنِ عُمَرَ، وَهُوَ فِي الْإِيوَانِ الْأَحْمَرِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، وَرَمَى إِلَيَّ بَكْتَابٍ فِيهِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ عَبْدِ اللَّهِ هِشَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْسَفَ بْنِ عُمَرَ:
أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي هَذَا فَاثْبُتْ إِلَى حَمَادِ الرَّائِيَةِ مَنْ يَأْتِيكَ بِهِ غَيْرَ مَرْوَعٍ وَلَا مُتَعَتِّعٍ، وَادْفَعْ لَهُ خَمْسَمِائَةَ دِينَارٍ، وَجَمَلًا مَهْرِيًّا^(١) يَسِيرُ عَلَيْهِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً إِلَى دِمَشْقَ.
فَأَخَذْتُ الدنانيرَ، وَنَظَرْتُ فَإِذَا جَمَلٌ مَرْحُولٌ^(٢)، فَرَكِبْتُ وَسِرْتُ حَتَّى وَافَيْتُ دِمَشْقَ فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً، فَتَزَلْتُ عَلَى بَابِ هِشَامِ وَاسْتَأْذَنْتُ، فَأُذِنَ لِي، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى طَنْفَسَةٍ حُمْرَاءَ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ مِنْ حَرِيرِ أَحْمَرَ، وَقَدْ ضَمَخَ بِالْمِسْكِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، وَاسْتَذْنَانِي. فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَبَلْتُ رِجْلَهُ، فَإِذَا جَارِيَتَانِ لَمْ أَرْ مِثْلَهُمَا قَطُّ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتِ؟ وَكَيْفَ حَالُكَ؟ فَقُلْتُ: بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: أَتَدْرِي فِيمَ بَعَثْتُ إِلَيْكَ؟ فَقُلْتُ: لَا؛ قَالَ: بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِسَبَبِ بَيْتِ خَطَرٍ بِيَالِي لَا أَغْرِفُ قَائِلَهُ، قُلْتُ: وَمَا هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ:

وَدَعَاوَا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ

فَقُلْتُ: يَقُولُهُ عَدِيٌّ بْنُ زَيْدٍ الْعِبَادِيُّ فِي قَصِيدَةٍ. قَالَ: أَنْشِدْنِيهَا، فَأَنْشَدْتُهُ:

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصُّبِّ ح يَقُولُونَ لِي أَمَّا تَسْتَفِيْقُ

وَيَلُومُونَ فِيكَ يَا بَنَةَ عَبْدِ اللَّهِ ه وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْهَقُ^(٣)

لَسْتُ أَذْرِي إِذْ أَكْثَرُوا الْعَذْلَ فِيهَا أَعْدُوْ يَلُومُنِي أَمْ صَدِيقُ!

قَالَ حَمَادُ: فَانْتَهَيْتُ فِيهَا إِلَى قَوْلِهِ:

وَدَعَاوَا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ

فَدَمَّتْهُ عَلَى عُقَارٍ كَعَيْنِ الدِّيبِ كِ صَقَى سُلَاقَهَا الرَّأْوُقُ^(٤)

مُرَّةً قَبْلَ مَرْجِهَا فَإِذَا مَا مُزِجَتْ لَدَّ طَعْمِهَا مَنْ يَذُوقُ

قَالَ: فَطَرِبَ هِشَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنْتَ يَا حَمَادُ! سَلْ حَاجَتَكَ، قُلْتُ: إِخْدِي الْجَارِيَتَيْنِ، قَالَ: هُمَا جَمِيعًا لَكَ بِمَا عَلَيْهِمَا وَمَا لُهُمَا، فَأَقَامَ عِنْدَهُ مَدَّةً، ثُمَّ وَصَلَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ^(٥).

(١) المهرية من الإبل: المنسوبة إلى مهرة بن حيدان، أبو قبيلة.

(٢) جمل مرحول، أي عليه الرحل.

(٣) موهوق: مشدود بالوهق وهو الحبل.

(٤) قدم الإناء، أي وقع عليه القدم، والقدم: المصفاة. والراووق: ناجود الشراب الذي يروق فيه.

(٥) انظر الخبر أيضاً في ابن خلكان ١/١٦٤، ١٦٥.

قلت: انظر أيها المتأمل إلى نفاق رخيص الأدب في ذلك العصر، وكساد غاليه في هذا العصر؛ ويشهد الله أن البنت الذي طلب حماد الراوية بسببه من بغداد إلى دمشق في اثنتي عشرة ليلة، وأجيز عليه بالجاريّتين والمائة ألف درهم، تأنف نفسي أن أضعه في قصيدة من قصائدي لرخصه وسفالته وهو:

ودعوا بالصُّبوح يوماً فجاءت فينة في يمينها إيريث
وكنت أود أن أكون في ذلك العصر، ويسمع هشام بن عبد الملك قولي في هذا
الباب من قصيدة قتلها:

| | |
|-------------------------------|------------------------------------|
| طاراً به لعصا الجوزاء نقرات | في ليلة رَقَمَ البذر المنير لها |
| تحت الصفائر صُبُحات وعَبَقَات | وبان لي من لَمَاهُ إذ تبسّم لي |
| لكن لها ضاع في الكاسات نفحات | والزّاح دَقَّ على فُهْمِي تصوُّرها |
| هي المنازل لي فيها علامات | كانت علامة تحقيقي، وقال فمي |
| مُعَرِّدين ولإنشاء سَجَعَات | مُذْ أنشأتنا سَجَعًا في محاسنها |
| ومازجتها ثغور لؤلؤيات | هذا وأفواه كاساتي قد ابتسمت |
| فللحباب على التسكين جَزَمَات | ومن يقل حركات الهَم ما سكنت |



خالد الكاتب

قال ثعلب: ما أحد من الشعراء تكلم في الليل الطويل إلا قارب، ولكن خالد الكاتب أبدع فيه فقال:

رقدت فلم ترثٍ للسَّاهِرِ وليل المجبّ بلا آخر
ولم تذرِ بَعْدَ ذهابِ الرِّقَا دِما صَنَعَ الدَّمْعُ بالنَّاطِرِ!
وقال بعض من كان يخضر مجلس المبرّد: كنا نختلِفُ إليه فإذا كان آخر المجلس أَمَلَى علينا من طُرف الأخبار ومُلَحَّ الأشعار ما نرتاحُ إلى حِفْظِهِ، فأُشْدِنَا يوماً مرثية زياد الأعجم في المغيرة بن الملهب التي منها:

فإذا مرزت بقبره فاغقر به كُومَ الهجان وكلّ طُرفٍ سابح^(١)
وانضخ جوانب قبره بدمائها فلقد يكونُ أحادِمٌ وذَبائِحُ
قال: فخرجت من عنده وأنا أديرها في لساني لأحفظها، فإذا بشيخ قد خرج من

(١) الشعر والشعراء ٣٩٧. كوم الهجان: الإبل البيض الكرام، والطرف: الجواد الكريم، والسابح: السريع كأنه يسبح بقوائمه.

خربة وفي يده حجر، فهَمَّ أن يرميني به، فتفرست بالمحبرة والدفتري، فقال: ماذا تقول؟ أنشئمني؟ فقلت: اللهم لا، ولكني كنت عند أستاذنا أبي العباس المبرد، فأنشدنا مرثية زياد الأعجم في المغيرة بن المهلب، فقال: إيه إيه! أنشدني ما أنشدكم باردكم لا مبردكم، فأنشدته فقال: والله ما جود الرائي ولا أنصف المرئي، ولا أحسن الرأوي؛ قلت: فما عساه أن يقول: قال: كان يقول:

أخيلاني إن لم يكن لكما عَقْدُ رُ إلى جنب قبره فاعقراني
وانضحا من دمي عليه فقد كا ن دمي من نداءه لو تعلمان

قال: فقلت: هل رأيت أحداً وأسى أحداً بنفسه؟ قال: نعم هذا الفتى الفتح بن خاقان، طرح نفسه على المتوكل حتى خلط لحمه بلحمه، ودمه بدمه.

ثم تركني وتولى. فلما عُدْتُ إلى المبرد قصصت عليه القصة، فقال: أعرفه؟ قلت: لا، قال: ذلك خالد الكاتب، تأخذه السوداء أيام الباذنجان.

قيل: كبر خالد الكاتب حتى دقَّ عظمه، ورقَّ جلده، وقوي به الوسواس، ورُئي ببغداد والصبيان يتبعونه، فأسند ظهره إلى قصر المعتصم والصبيان يصيحون: يا بارد! فقال: كيف أكون بارداً وأنا الذي أقول:

بكى عاذلي من رَحمتي فرحمتُه وكم مثله من مُسعدٍ ومُعين!
ورقَّت دموع العين حتى كأنها دُموع دموعي لا دموع جفوني

وحدث أبو الحسن علي بن مقلة، قال: حدثني أبي عن عمه، قال: اجتاز بي خالد الكاتب وأنا على باب داري بسرَّ من رأى، والصبيان حوله يلعبون^(١) فجاءني لما رأيته، وسألني صرْفهم عنه، فصرفتهم وأدخلته داري، وقلت له: ما تشتهي أن تأكل؟ قال: هريسة، فتقدمت بإصلاحها له، فلما أكل، قلت: أي شيء تحب بعد هذا؟ قال: رطب، فأمرت بإحضاره فأكل، فلما فرغ من أكله قلت له: أنشدني من شعرك، فأنشدني:

تناسيت ما أوغيت سمعك يا سَمْعِي كأنك بعد الضُرِّ خالٍ من النفعِ
فإن كنت مطبوعاً على الصَّدِّ والجفا فمن أين لي صبرٌ فأجعله طبعي!
لئن كان أضحى فوق خديك روضة^(٢) فإن على خدي غديراً من الدمعِ

فقلت: زدني، فقال: لا يصيبك بهريستك ورطبك غير هذا.

(١) كذا في ج، ط، وفي باقي الأصول: «يولعون».

(٢) د: «لئن كان قد أضحى بخديك».

ومن المروى عنه، قال بعض طلبة المبرّد: خرجت من مجلس المبرّد فلقيت خالداً الكاتب، فقال: من أين؟ قلت: من مجلس المبرّد، قال: بلّ البارد، ثم قال: ما الذي أنشدكم اليوم؟ قلت: أنشدني:

أَعَارَ الْغَيْثَ نَائِلَهُ إِذَا مَا مَاؤُهُ نَفِداً
وإنَّ أَسَدَ شَكَا جُنْبِنَا أَعَارَ فُؤَادَهُ الْأَسَدَا

فقال: أخطأ قائل هذا الشعر، قلت: كيف؟ قال: ألا تعلم أنه إذا أعار الغيث نائله بقي بلا نائل، وإذا أعار الأسد فؤاده بقي بلا فؤاد! قلت: فكيف كان يقول؟ فأنشد:

عَلَّمَ الْغَيْثَ التُّدَى مِنْ يَدِهِ مُذْ دَعَاهُ، عَلَّمَ الْبَاسَ الْأَسَدُ
فَإِذَا الْغَيْثُ مُقِرٌّ بِالْنَدَى وَإِذَا اللَّيْثُ مُقِرٌّ بِالْجَلْدِ
قال: فكتبتهما وانصرفت.



نادرة لطيفة

دخل أبو دُلَامَة على المهديّ، فأنشده قصيدة؛ فقال: سَلْ حاجتك. فقال: يا أمير المؤمنين؛ هَبْ لي كلباً، قال: فغَضِبَ وقال: أقولُ لك: سَلْ حاجتك فتقول: هَبْ لي كلباً! فقال: يا أمير المؤمنين، الحاجة لي أم لك؟ فقال: بلّ لك، فقال: إنني أسألك أن تهَبْ لي كلبَ صَيْد. فأمر له بـكَلْب، فقال: يا أمير المؤمنين، هَبْني خَرَجْتُ لِلصَّيْدِ أَأَعِدُّو عَلَى رِجْلِي؟ فأمر له بدَابَّة، فقال: يا أمير المؤمنين؛ فَمَنْ يَقُومُ عَلَيْهَا؟ فأمر له بـعُلَام، فقال: يا أمير المؤمنين؛ فَهَبْني قَدْ صِدَّتْ صَيْداً، وَأَتَيْتُ بِهِ الْمَنْزَلَ، فَمَنْ يَطْبُخُهُ؟ فأمر له بِجَارِيَةٍ، فقال: يا أمير المؤمنين؛ فَهَؤُلَاءِ أَيْنَ يَبِيتُونَ؟ فأمر له بِدَار، فقال: يا أمير المؤمنين قَدْ صَيَّرْتُ فِي عُنُقِي عِيَالاً، فَمَنْ أَيْنَ لِي أَنْ أَقُوتَ^(١) هَؤُلَاءِ؟ قال المهدي: أعطوه جَرِيب^(٢) نخل، ثم قال: هل بَقِيَثْ لك حاجة؟ قال: نعم؛ تَأْذُنْ لِي أَنْ أَقْبَلَ يَدَكَ!



واعظ هشام بن عبد الملك

قَدِمَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ حَاجّاً إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، فَلَمَّا دَخَلَ الْحَرَمَ، قَالَ: ائْتُونِي بِرَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقِيلَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ قَدْ تَفَانَوْا، قَالَ: فَمَنْ التَّابِعِينَ، فَأَتِيَ بِطَاوُوسِ الْيَمَانِيِّ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ خَلَعَ نَعْلَيْهِ بِحَاشِيَةِ بَسَاطِهِ، وَلَمْ يُسَلِّمْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ يَكُنْهُ،

وجلس إلى جانبه بغير إذنه، وقال: كيف أنت يا هشام؟ فعُصِبَ من ذلك غَضَباً شديداً حتى هَمَّ بقتله، فقيل له: أنت يا أمير المؤمنين في حَرَمِ الله، وحَرَمِ رسول الله ﷺ، لا يكون ذلك.

فقال: يا طاووس، ما حَمَلَكَ على ما صنعت؟ قال: وما صنعت؟ قال: خَلَعْتُ نَعْلَيْكَ بحاشية بساطي، وَلَمْ تُسَلِّمْ عَلَيَّ يا أمير المؤمنين، ولم تُكُنِّي، وجَلَسْتَ بإزائي بغير إذني، وقُلْتَ: يا هشام، كيف أنت؟

فقال له طاووس: أَمَّا خَلَعُ نَعْلِي بحاشية بساطك فإني أَخْلَعُهَا بين يَدَي رَبِّ العِزَّة في كلِّ يومِ خَمْسِ مَرَّاتٍ، فلا تُعَاتِبْنِي ولا تَغْضَبْ عَلَيَّ؛ وَأَمَّا قَوْلُكَ: لَمْ تُسَلِّمْ عَلَيَّ بإمرة المؤمنين فليس كلُّ المؤمنين راضين بإمرتك، فخَفْتُ أَنْ أَكُونَ كاذِباً، وَأَمَّا قَوْلُكَ: لَمْ تُكُنِّي، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَمَّى أَنْبياءَهُ، فقال: يا داود، ويا يحيى، ويا عيسى، وكَتَبَ أَعْدَاءُهُ فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبِّ﴾ [المسد: ١]. وَأَمَّا قَوْلُكَ: جَلَسْتُ بإزائي، فإني سَمِعْتُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إِذَا أَرَدْتُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَانْظُرْ إِلَى رَجُلٍ جَالِسٍ وَحَوْلَهُ قَوْمٌ قِيَامٌ. فقال له: عِظْنِي، فقال له: إِنِّي سَمِعْتُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إِنَّ فِي جَهَنَّمَ حَيَاتٍ وَعَقَارِبَ كَالْبِغَالِ تَلْدَغُ كُلَّ أَمِيرٍ لَا يَغْدِلُ فِي رَعِيَّتِهِ. ثم قام فخرج.



نادرة لطيفة

مروية عن أبي عمرو عامر الشعبي، ولكن يتعين أن نبدأ بشيء من ترجمته أولاً: قال الزهري: العلماء أربعة: ابن المسيب بالمدينة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام، والشعبي بالكوفة. ويقال: إنه أدرك خمسمائة من الصحابة أصحاب رسول الله ﷺ.

والتادرة الموعود بذكرها هي ما حكى الشعبي، قال: أَنفَذَنِي عبد الملك بن مَرْوَانَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ، فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَيْهِ جَعَلَ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَجَبْتُهُ - وَكَانَتْ الرِّسَالُ لَا تُطِيلُ الإِقَامَةَ عِنْدَهُ، فَحَبَسَنِي^(١) عِنْدَهُ أَيَّاماً كَثِيرَةً - فَلَمَّا أَرَدْتُ الانْصِرَافَ قَالَ: أَمِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: لَا، وَلَكِنِّي رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ، فَدَفَعَ إِلَيَّ رُقْعَةً وَقَالَ: إِذَا أَدَيْتَ الرِّسَالَ إِلَى صَاحِبِكَ فَأَوْصِلْ إِلَيْهِ هَذِهِ الرُقْعَةُ. قَالَ: فَأَدَيْتُ الرِّسَالَ عِنْدَ وَضُولِي إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ، وَأُنْسِيتُ الرُقْعَةَ، فَلَمَّا صَرْتُ إِلَى الْبَابِ أُرِيدُ الْخُرُوجَ تَذَكَّرْتُ الرُقْعَةَ، فَرَجَعْتُ فَأَوْصَلْتُهَا إِلَيْهِ، فَلَمَّا قَرَأَهَا قَالَ لِي:

(١) كذا في ب، ط، وفي أ: «فأجلسني».

هَلْ قَالَ لَكَ شَيْئاً قَبْلَ أَنْ يَدْفَعَهَا إِلَيْكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ لِي: أَنْتَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ؟ قُلْتُ: لَا، وَلَكِنِّي رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ فِي الْجُمْلَةِ. ثُمَّ خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَلَمَّا بَلَغْتُ الْبَابَ طَلَبَنِي، فَرَدَدْتُ، فَلَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: أَتَذَرِي مَا فِي الرُّفْعَةِ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: أَقْرَأْهَا. فَقَرَأْتُهَا فَإِذَا فِيهَا: «عَجِبْتُ مِنْ قَوْمٍ فِيهِمْ مِثْلُ هَذَا كَيْفَ مَلَكَوا غَيْرَهُ!» قُلْتُ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ عَلِمْتُ مَا فِيهَا مَا حَمَلْتُهَا، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّهُ لَمْ يَرَكَ، قَالَ: أَتَذَرِي لِمَ كَتَبْتُهَا؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: حَسَدَنِي عَلَيْكَ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَرِّبَنِي بِقَتْلِكَ.

وقيل: كَانَ الشَّعْبِيُّ ضَبِيلًا نَحِيلًا، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: زُوخِمْتُ فِي الرَّجِمِ - وَكَانَ قَدْ وُلِدَ هُوَ وَأَخٌ آخَرُ، وَأَقَامَ فِي الْبَطْنِ سَتَيْنِ؛ ذَكَرَهُ صَاحِبُ كِتَابِ «الْمَعَارِفِ»^(١).
ويقال: إِنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ لَهُ يَوْمًا: كَمْ عَطَاءُكَ فِي السَّنَةِ؟ فَقَالَ: أَلْفَيْنِ، فَقَالَ لَهُ: وَيَحَكَ! كَمْ عَطَاؤُكَ؟ قَالَ: أَلْفَانِ، فَقَالَ: وَيَحَكَ! كَيْفَ لَحَنْتَ أَوَّلًا! فَقَالَ: لَحَنَ الْأَمِيرُ فَلَحَنْتُ، فَلَمَّا أَعْرَبَ الْأَمِيرُ أَعْرَبْتُ، وَمَا يَخْسُنُ أَنْ يَلْحَنَ الْأَمِيرُ وَأَعْرَبَ، فَاسْتَحْسَنَ ذَلِكَ مِنْهُ وَأَجَازَهُ.



نادرة بديعة غريبة منقولة عن سديد الملك

أبي الحسن علي بن منقذ^(٢) صاحب قلعة شيزر

وكان سديد الملك المذكور مقصوداً من البلاد ممدوحاً، مدحه جماعة من الشعراء كابن الخياط والحقاجي وغيرهما، وله شعر جيد أيضاً؛ ومنه قوله وقد غضب على مملوكه فضربه:

أَسْطَوْ عَلَيْهِ وَقَلْبِي لَوْ تَمَكَّنَ مِنْ كَفَيْ غُلْهُمَا غَيْظاً إِلَى عُنْقِي
وَأَسْتَعِيرُ إِذَا عَاقَبْتُهُ حَقّاً^(٣) وَأَيْنَ ذُلُّ الْهَوَى مِنْ عِزَّةِ الْحَنِقِ

وكان موصوفاً بقوة الفطنة؛ يُحْكِي عَنْهُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَى حَلَبِ قَبْلَ تَمْلِكِهِ قَلْعَةَ شَيْزَر، وَصَاحِبُ حَلَبِ يَوْمِئِذٍ تَاجُ الْمُلُوكِ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُرْدَاسٍ، فَجَرَى أَمْرٌ خَافَ سَدِيدُ الْمَلِكِ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَخَرَجَ مِنْ حَلَبِ إِلَى طَرَابُلُسِ الشَّامِ، وَصَاحِبُهَا يَوْمِئِذٍ جَلَالُ الْمَلِكِ بْنُ عَمَّارٍ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ، فَتَقَدَّمَ مُحَمَّدُ صَاحِبُ حَلَبِ إِلَى كَاتِبِهِ أَبِي نَضْرَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ النَّحَّاسِ الْحَلَبِيِّ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى سَدِيدِ الْمَلِكِ

(١) المعارف ٤٥٠.

(٢) كذا في الأصول، وفي ابن خلكان «علي بن مقلد صاحب قلعة شيزر».

(٣) كذا في أ، ب وابن خلكان، وفي ج، ط: «أستعين».

كتاباً يتشوقه فيه ويستعطفه، ويستدعيه إلى حلب. ففهم الكاتب أنه يقصد له شراً إذا جاء به إليه - وكان الكاتب صديقاً إلى سديد الملك - فكتب الكاتب كما أمره مخدمه، إلى أن بلغ إلى آخره، وهو: «إن شاء الله» فشدد النون وفتحها. فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن بمجلسه من خواصه، فاستحسنوا عبارة الكاتب، واستعظموا ما فيه من رغبة محمود فيه، وإيثاره لقربه، فقال سديد الملك: «إني أرى ما لا ترون في الكتاب، ثم أجاب عن الكتاب بما اقتضاه الحال، وكتب في جملة فصول الكتاب: «إننا الخادم المقر بالإنعام»، وكسر الهمزة من «أنا» وشدد النون. فلما وصل الكتاب إلى محمود ووقف عليه، سر بما فيه وقال لأصدقائه: قد علمت أن الذي كتبه لا يخفى عليّ مثله، وقد أجاب بما طيب قلبي عليه. وكان الكاتب قد قصد قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَلَمَلًا يَاتِمُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ١٩]، فأجاب سديد الملك بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَدَّخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٤]. وكانت هذه النادرة^(١) معدودة من شدة تيقظه وفهمه^(٢).



نبل ابن الفرات

وحكى الصابي في «كتاب الأعيان والأماثل»^(٣) أن رجلاً اتصلت عُطْلَتُهُ، وانقطعت مادته، فزور كتاباً من الوزير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله العباسي، إلى أبي زنبور الماذرائي عامل مضر يتضمن المبالغة في الوصايا وزيادة الإكرام، وعمل الصالح. فلما دخل مضر، واجتمع بأبي زنبور^(٤) دُفِعَ إليه الكتاب، فلما قرأ أبو زنبور الكتاب ارتاب في أمره لتغير لفظ الخطاب عما جرث به العادة، وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله، فراعاه مراعاة قريبة، ووصله صلة قليلة، وحسبه عنده على وعد به، ثم كتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الذي ورد عليه، وأنفذه بعينه إليه.

فلما وقف عليه ابن الفرات عرف الرجل، وذكر ما كان عليه من الحرمة، وما له من الحقوق القديمة عليه، فعرضه على كتّابه، وعرفهم الصورة، وعجب إليهم منها، وقال لهم: ما الرأي في مثل هذا الرجل؟ فقال بعضهم: تأديبه، وقال بعضهم: قطع إنهامه، وقال أجملهم مخضراً: يكشف لأبي زنبور أمره، ويرسم له بطرده وجرمانه.

(١) في ط: «هذه الحكاية».

(٢) الخبر في ابن خلكان: ٣٦٧/١.

(٣) كذا في ابن خلكان.

(٤) ج، ط: «ابن زيتون».

فقال ابنُ الفُرات: ما أبعدكم من الخير^(١)! رجلٌ تَوَسَّلَ بنا، وتَحَمَّلَ المشقَّةَ إلى مصرَ، وأَمَّلَ الخَيْرَ بِجَاهِنَا، والانتِسابَ إلَيْنَا؛ يكونُ حالُهُ عندَ أَحْسَنِكُمْ نظراً تَكْذِيبَ ظَنِّهِ، وَتَخْيِيبَ سَعْيِهِ! واللَّهِ لَا كَانََ هَذَا أَبَدًا، ثم أخذَ القلمَ، ووَقَّعَ على الكِتَابِ المَزُورِ: هَذَا كِتَابِي، وَلَسْتُ أَعْلَمُ لِمَ أَنْكَرْتَ أَمْرَهُ، واغْتَرَضْتُكَ فِيهِ شُبُهَةً! وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يَخْدُمُنَا تَعْرِفُهُ، وَهَذَا رَجُلٌ خَدَمَنِي أَيَّامَ نَكْبَتِي، فَأَحْسِنُ تَفَقُّدَهُ وَرَفْدَهُ، وَصَرَفَهُ فِيمَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ. ثُمَّ رَدَّ الْكِتَابَ إِلَى أَبِي زُبُورٍ مِنْ يَوْمِهِ.

وَمَضَتْ عَلَى ذَلِكَ مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ إِذْ دَخَلَ عَلَى ابْنِ الْفُرَاتِ رَجُلٌ ذُو هَيْئَةٍ مَقْبُولَةٍ، وَبِزَّةٍ جَمِيلَةٍ، فَأَقْبَلَ يَدْعُو لَهُ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ، وَيَبْكِي وَيُقَبِّلُ يَدَيْهِ وَالْأَرْضَ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْفُرَاتِ: مَنْ أَنْتَ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ؟ قَالَ: صَاحِبُ الْكِتَابِ الْمَزُورِ إِلَى أَبِي زُبُورِ الَّذِي صَحَّحَهُ كَرَمُ الْوَزِيرِ بِفَضْلِهِ.

فَضَحِكَ ابْنُ الْفُرَاتِ وَقَالَ: كَمْ وَصَلَ إِلَيْكَ مِنْهُ؟ قَالَ: أَوْصَلَ إِلَيَّ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ قِسْطِ قِسْطِهِ عَلَى عُمَالِهِ عِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ. فَقَالَ ابْنُ الْفُرَاتِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى صَلَاحِ حَالِكَ، ثُمَّ اخْتَبَرَهُ فَوَجَدَهُ كَاتِبًا سَدِيدًا، فَاسْتَخْدَمَهُ^(٢).



مصارع العشاق

ذكر الحصري في كتابه المسمى «الدر المصون في سر الهوى المكنون» أنَّ الجاحِظَ ذُكِرَ للوائقِ لتأديبِ بَعْضِ أَوْلَادِهِ، فَلَمَّا رَآهُ اسْتَبْشَعَ مَنْظَرَهُ، فَأَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَصَرَفَهُ.

قال الجاحِظُ: فخرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ. فَلَقِيتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ يُرِيدُ الانْحِدَارَ إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ، فَعَرَضَ عَلَيَّ الانْحِدَارَ مَعَهُ، فَاِنْحَدَرْتُ، وَنُصِبَتْ سِتَارَةٌ وَأُمِرَ بِالْغِنَاءِ، فَاِنْدَفَعَتْ عَوَادَةٌ تُغْنِي:

| | |
|---|--|
| كُلَّ يَوْمٍ قَطِيعَةً وَعِتَابُ | يَنْقُضِي دَهْرُنَا وَنَحْنُ غَضَابُ |
| لَيْتَ شِعْرِي أَنَا خَصِصْتُ بِهِذَا | دُونَ ذَا الْخَلْقِ أَمْ كَذَا الْأَخْبَابُ! |
| ثُمَّ سَكَنْتُ، فَأَمِثْتُ طَنْبُورِيَةَ فَعَنَّتْ: | |
| وَارْحَمَتَا الْعَاشِقَيْنَا | مَا إِنْ أَرَى لَهُمُ مُعِينًا |
| كَمْ يُهَجَّرُونَ وَيُضْرَمُونَ | نَ وَيُقْطَعُونَ فَيُضْبِرُونَا! |

(١) أ: «الجميل».

(٢) الخبر في ابن خلكان ١/ ٣٧٤.

فَقَالَتْ لَهَا الْعَوَّادَةُ: فَيَصْنَعُونَ مَاذَا؟ فَقَالَتْ: يَصْنَعُونَ هُكَذَا؛ وَضَرَبَتْ يَدَهَا عَلَى السَّتَارَةِ، وَبَدَتْ كَأَنَّهَا فَلَقَةُ قَمَرٍ^(١)، ثُمَّ زَجَّتْ بِنَفْسِهَا فِي الْمَاءِ.

قَالَ: وَكَانَ عَلَى رَأْسِ مُحَمَّدٍ غِلَامٌ يُضَاهِيهَا فِي الْجَمَالِ وَفِي يَدِهِ مِدْبَةٌ، فَأَلْقَى الْمِدْبَةَ مِنْ يَدِهِ لَمَّا رَأَى مَا صَنَعَتِ الْجَارِيَةُ، ثُمَّ أَتَى إِلَى الْمَوْضِعِ وَنَظَرَ إِلَيْهَا، وَأَنْشَدَ:

أَنْتِ الَّتِي عَرَفْتَنِي بُغْدَ الْقَضَا لَوْ تَعْلَمِينَا

وَزَجَّ بِنَفْسِهِ فِي أَثَرِهَا، فَأَادَارَ الْمَلَّاحُ الْحَرَاقَةَ، فَإِذَا بِهِمَا مُتَعَايِقَيْنِ، ثُمَّ غَاصَا.

فَهَالِ ذَلِكَ مُحَمَّداً وَاسْتَعْظَمَهُ، وَقَالَ: يَا عَمْرُو، إِنْ لَمْ تُحَدِّثْنِي حَدِيثاً يُسَلِّينِي عَنْهُمَا أَلَحَقْتُكَ بِهِمَا.

قَالَ الْجَا حَظ: فَحَضَرَنِي خَبَرُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَقَدْ قَعَدَ يَوْماً لِلْمَظَالِمِ، وَغُرِضَتْ عَلَيْهِ الْقِصَصُ، فَمَرَتْ قِصَّةٌ فِيهَا مَكْتُوبٌ: «إِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ أَنْ يُخْرِجَ إِلَيَّ جَارِيَتَهُ فَلَانَةٌ حَتَّى تُغْنِيَنِي ثَلَاثَةُ أَصْوَاتٍ فَعَلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى». فَاغْتَاظَ سُلَيْمَانُ لِذَلِكَ، وَأَمَرَ مَنْ يَأْتِيهِ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ أَرْدَفَهُ رَسُولاً آخَرَ أَنْ يَدْخُلَ بِهِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: الثُّقَّةُ بِحِلْمِكَ، وَالْاِتِّكَالُ عَلَى عَفْوِكَ. فَأَمَرَهُ بِالْقُعُودِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِلَّا خَرَجَ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِالْجَارِيَةِ فَأُخْرِجَتْ وَمَعَهَا عُودٌ، فَقَالَ لَهَا: غَنِي مَا يَقُولُ لَكَ، فَقَالَ لَهَا الْفَتَى: غَنِي:

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ نَجْدِيّاً فَقُلْتُ لَهُ يَا أَيُّهَا الْبَرْقُ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولٌ

فَعَنَّتُهُ، فَطَلَبَ رَطْلاً مِنَ الشَّرْبِ^(٢)، فَأَتَنِي بِهِ فَشَرِبَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: غَنِي:

حَبِّذا رَجَعُهَا إِلَيْنَا يَدَاهَا فِي يَدَيِ دِرْعِهَا تَحِلُّ الْإِزَارَا

فَعَنَّتُهُ، ثُمَّ طَلَبَ رَطْلاً ثَانِياً، فَأَتَنِي بِهِ فَشَرِبَهُ، ثُمَّ قَالَ: غَنِي:

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضُ هَذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ صَرْمِي فَأَجْمِلِي^(٣)

فَعَنَّتُهُ، فَقَالَ لِسُلَيْمَانَ: أَتَأْمُرُ لِي بِشَرْبِ رَطْلٍ؟ فَمَا اسْتَتَمَ شَرْبُهُ حَتَّى صَعِدَ عَلَى الْفَوْرِ عَلَى قُبَّةِ لِسُلَيْمَانَ، فَرَمَى بِنَفْسِهِ عَلَى دِمَاغِهِ فَمَاتَ. فَقَالَ سُلَيْمَانُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! أَتَرَاهُ الْأَحْمَقُ ظَنَّ أَنِّي أَخْرَجُ إِلَيْهِ جَارِيَتِي وَأَرُدُّهَا إِلَيَّ مِلْكِي! يَا غِلْمَانُ، خُذُوا بِيَدِ هَذِهِ الْجَارِيَةِ، وَانْطَلِقُوا بِهَا إِلَى أَهْلِهَا إِنْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ، وَإِلَّا فَبَيْعُوهَا، وَتَصَدَّقُوا بِثَمَنِهَا عَلَيْهِ. فَلَمَّا انْطَلَقُوا بِهَا نَظَرْتُ إِلَى حَفِيرَةٍ فِي

(١) كَذَا فِي أ، ب، وَفِي ط: «بَدْر».

(٢) ط: «فَقَالَ لِي سُلَيْمَانُ: أَتَأْمُرُ لِي بِرَطْلٍ».

(٣) لَامِرُئِ الْقَيْسِ، دِيوانه: ١٢.

دار سليمان اتَّخَذَتْ للمطر، فَجَذَبَتْ نَفْسَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ، ثم قالت:
مَنْ مَاتَ عِشْقاً فَلِيَمْتَ هُكْذَا لَا خَيْرَ فِي عِشْقِي بِلا مَوْتٍ
فَرَجَّتْ بِنَفْسِهَا فِي الْحَفِيرِ، فَمَاتَتْ. فَسُرِّيَ عَنْ مُحَمَّدٍ، وَأَحْسَنَ صَلَاتِي.



بديع الجناس

وكتب أبو منصور أفتكين التركي، متولّي دمشق إلى عضد الدولة بن بويه كتاباً مضمونه: إن الشام قد صفا وصار في يدي، وزال عنكم حكم صاحب مصر، وإن قوّيتني بالأموال والرجال والعُدَد، حاربت القوم في مُسْتَقَرِّهِمْ.

فكتب إليه عضد الدولة في جوابه هذه الكلمات، وهي متشابهة في الخط لا تعرف إلا بعد النُّقْط والضُّبُط؛ وهي: «عَرَّكَ عِزُّكَ فَصَارَ قِصَارَى ذَلِكَ ذَلِكَ، فَاخْشَ فَاخْشَ فِعْلِكَ، فَعَلَّكَ بهذا تَهْدَأُ».

قال القاضي شمس الدين بن خَلْكَان تَغَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ: لقد أَبْدَعَ غاية الإبداع. قلت: وَأَبْدَعَ مِنْهُ قَوْلُ السَّلَامِيِّ فِيهِ مِنْ قَصِيدَتِهِ الَّتِي مِنْهَا:
إِلَيْكَ طَوَى عَرْضَ الْبَسِيطَةِ جَاعِلٌ قِصَارَى الْمَطَايَا أَنْ يَلُوحَ لَهَا الْقَصْرُ
فَكُنْتُ وَعِزُّمِي فِي الظَّلَامِ وَصَارُمِي ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ كَمَا اجْتَمَعَ النَّسْرُ
وَبَشَّرْتُ آمَالِي بِمَلِكٍ هُوَ الْوَرَى وَدَارِ هِيَ الدُّنْيَا وَيَوْمَ هُوَ الدَّهْرُ
قال ابن خَلْكَان: هذا على الحقيقة هو السحر الحلال كما يقال. وقد أخذ هذا المعنى القاضي أبو بكر الأَرْجَانِي فَقَالَ:

يَا سَائِلِي عَنْهُ لَمَّا جِئْتُ أَمْدَحُهُ هَذَا هُوَ الرَّجُلُ الْعَارِي مِنَ الْعَارِ
لَقِيْتُهُ فَرَأَيْتُ النَّاسَ فِي رَجُلٍ وَالذَّهْرُ فِي سَاعَةٍ، وَالْأَرْضُ فِي دَارٍ
وَلَكِنْ أَيْنَ الثَّرَى مِنَ الثَّرَى!

وَأَلَمَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي أَيْضاً بِهَذَا الْمَعْنَى لَكَنَّهُ مَا اسْتَوْفَاهُ بِقَوْلِهِ:

هُوَ الْعَرَضُ الْأَقْصَى، وَرَوَيْتُكَ الْمَنَى وَمَنْزِلُكَ الدُّنْيَا وَأَنْتَ الْخَلَائِقُ^(١)!
وَلَكِنْ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُمَا بَيْتُ السَّلَامِيِّ^(٢).



نادرة لطيفة

كان أبو بكر المحلّي يَتَوَلَّى نَفَقَاتِ أَبِي الْمِسْكِ كَافُورِ الْإِخْشِيدِي، وَكَانَ لَهُ فِي

كُلَّ عِيدٍ أَضْحَى عَادَةً، وَهُوَ أَنْ يُسَلِّمَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الْمَذْكُورِ بَغْلًا مُحَمَّلًا ذَهَبًا، وَجَرِيدَةً تَتَضَمَّنُ أَسْمَاءَ قَوْمٍ مِنْ حَدِّ الْقَرَاةِ إِلَى الْجَبَانَةِ وَمَا بَيْنَهُمَا.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَذْكُورُ: وَكَانَ يَمْشِي مَعِيَ صَاحِبُ الشَّرْطَةِ، وَتَقِيبُ يَغْرِفُ الْمَنَازِلَ، وَأَطُوفُ مِنْ بَعْدِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ إِلَى آخِرِ اللَّيْلِ حَتَّى أَسَلَّمَ ذَلِكَ إِلَى مَنْ تَضَمَّنَتْ اسْمُهُ الْجَرِيدَةَ، فَأَطْرَقُ مَنَزَلَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَا بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، وَأَقُولُ: الْأُسْتَاذُ أَبُو الْمَسْكَ كَافُورُ الْإِخْشِيدِيِّ يَهْتِكُ بِالْعِيدِ، وَيَقُولُ لَكَ: أَصْرِفْ هَذَا فِي مَنَفْعَتِكَ، فَأَدْفَعُ إِلَيْهِ مَا جُعِلَ لَهُ.

وَفِي آخِرِ وَقْتٍ زَادَ فِي الْجَرِيدَةِ الشَّيْخُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَابَارٍ، وَجَعَلَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْعِيدِ مِائَةَ دِينَارٍ، فَطَفْتُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَأَنْفَقْتُ الْمَالَ فِي أَرْبَابِهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الصُّرَّةُ، فَجَعَلْتُهَا فِي كُمِّي، وَسَرْتُ مَعَ النَّقِيبِ حَتَّى أَتَيْنَا مَنَزِلَهُ بِظَاهِرِ الْقَرَاةِ، فَطَرَقْتُ الْبَابَ، فَتَزَلَّ إِلَيْنَا الشَّيْخُ، وَعَلَيْهِ أَثَرُ السَّهَرِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ، وَقَالَ: مَا حَاجَتُكَ؟ قُلْتُ: الْأُسْتَاذُ أَبُو الْمَسْكَ كَافُورٌ يَخْصُ الشَّيْخَ بِالسَّلَامِ، فَقَالَ: وَالْيَ بِلَدِنَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: حَفَظَهُ اللَّهُ، اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي أَذْعُو لَهُ فِي الْخُلُوتِ وَأَذْبَارِ الصَّلَوَاتِ بِمَا اللَّهُ سَامِعُهُ وَمُسْتَجِيبُهُ، قُلْتُ: وَقَدْ أَنْفَذَ مَعِيَ نَفَقَةً وَهِيَ هَذِهِ الصُّرَّةُ، وَيَسْأَلُكَ قَبُولَهَا لِتُصْرَفَ فِي مُؤَنَةِ هَذَا الْعِيدِ الْمُبَارَكِ، فَقَالَ: نَحْنُ رَعِيَّتُهُ، وَنُحِبُّهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا نَفْسِي هَذِهِ الْمَحَبَّةَ بِعِلَّةٍ. فَرَاغْتُهُ الْقَوْلَ؛ فَتَبَيَّنَ لِي الضُّجْرُ فِي وَجْهِهِ وَالْقَلَقُ، وَاسْتَحْيَيْتُ^(١) مِنْ اللَّهِ أَنْ أَقْطَعَهُ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ، فَتَرَكْتُهُ وَانْصَرَفْتُ.

قَالَ: فَجِئْتُ فَوَجَدْتُ الْأَمِيرَ قَدْ تَهَيَّأَ لِلرَّكُوبِ وَهُوَ يَنْتَظِرُنِي، فَلَمَّا رَأَنِي قَالَ: إِيهِ يَا أَبَا بَكْرٍ، قُلْتُ: أَرْجُو اللَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ فِيكَ كُلَّ دَعْوَةٍ صَالِحَةٍ دُعِيتَ لَكَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَفِي هَذَا الْيَوْمِ الشَّرِيفِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي سَبَبًا لِإِيصَالِ الرَّاحَةِ إِلَى عِيَالِهِ، ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ بِامْتِنَاعِ ابْنِ جَابَارٍ، فَقَالَ: نَعَمْ هُوَ جَدِيدٌ، لَمْ تَجْرِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مُعَامَلَةٌ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ، ثُمَّ قَالَ لِي: عُدْ إِلَيْهِ، وَارْكَبْ ذَابَّةً مِنْ دَوَابِّ الثُّوبَةِ، وَاطْرُقْ بَابَهُ، فَإِذَا نَزَلَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ لَكَ: أَلَمْ تَكُنْ عِنْدَنَا؟ فَلَا تَرُدَّ عَلَيْهِ جَوَابًا، ثُمَّ اسْتَفْتَحْ وَافْرَأْ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طه مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْوَعْلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه: ١ - ٦] يَا بَنَ جَابَارٍ: الْأُسْتَاذُ كَافُورُ يَقُولُ لَكَ: وَمَنْ كَافُورُ الْعَبْدِ الْأَسْوَدُ! وَمَنْ هُوَ مَوْلَاهُ! وَمَنْ الْخَلْقُ! لَيْسَ لِأَحَدٍ مَعِ اللَّهِ مُلْكٌ وَلَا شَرَكَةٌ، تَلَاشِي النَّاسَ كُلَّهُمْ هَا هُنَا، أَتَدْرِي مَنْ هُوَ مُعْطِيكَ؟ وَعَلَى مَنْ رَدَدْتَ أَنْتَ مَا سَأَلْتَ! وَإِنَّمَا هُوَ أَرْسَلَ لَكَ يَا بَنَ جَابَارٍ، أَنْتَ مَا تُفَرِّقُ بَيْنَ السَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ.

(١) فِي ط، ب: «وَاسْتَحْيَيْتُ».

قال أبو بكر: فَرَكَبْتُ وَسِرْتُ فَطَرَقْتُ مَنْزِلَهُ، فنزل إليّ فقال لي مثل لفظ كافور، فَأَضْرَبْتُ عَنْ الْجَوَابِ، وَقَرَأْتُ «طه»، ثم قُلْتُ لَهُ مَا قَالَ لِي كَافُورٌ، فَبَكَى وَقَالَ لِي: أَيْنَ مَا حَمَلْتُ؟ فَأَخْرَجْتُ الصُّرَّةَ، فَأَخَذَهَا، وَقَالَ: عَلِمْنَا الْأُسْتَاذُ كَيْفَ التَّصَوُّفِ! قُلْتُ لَهُ: أَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَكَ! ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَسَرَّ وَسَجَدَ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ.

ونقل ابن خَلِّكَانَ فِي تَارِيخِهِ، أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ الْأَعْرَابِيِّ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ الْأَصْمَعِيَّ وَأَبَا عُبَيْدَةَ لَا يُحْسِنَانِ شَيْئًا، وَكَانَ يَقُولُ: جَائِزٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَنْ يُعَاقَبَ بَيْنَ الضَّادِ وَالظَّاءِ، فَلَا يُخْطِئُ مَنْ يَجْعَلُ هَذَا فِي مَوْضِعِ هَذَا، وَيُنْشَدُ:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ خَلِيلٍ أَوْدُهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ كُلُّهَا لِي غَائِضٌ^(١)
ويقول: هَكَذَا سَمِعْتُهُ بِالضَّادِ.



ومن النوادر اللطيفة

وَرَدَ أَبُو نَصْرِ الْفَارَابِيُّ إِلَى دِمَشْقَ عَلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ بْنِ حَمْدَانَ - وَهُوَ إِذْ ذَٰكَ سُلْطَانُهَا - قِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ بِزِيِّ الْأَثَرَاكِ، وَكَانَ ذَلِكَ زِيَّهُ دَائِمًا، وَقَفَ، فَقَالَ لَهُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ: اجْلِسْ، فَقَالَ: حَيْثُ أَنَا أَوْ حَيْثُ أَنْتَ؟ فَقَالَ: حَيْثُ أَنْتَ، فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مُسْنَدِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ، وَزَاوَمَهُ فِيهِ حَتَّى أَخْرَجَهُ عَنْهُ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ مَمَالِيكَ، وَلَهُ مَعَهُمْ لِسَانٌ خَاصٌّ يُسَارُّهُمْ بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ بِذَلِكَ اللِّسَانِ: إِنَّ هَذَا الشَّيْخَ قَدْ أَسَاءَ الْأَدَبَ، وَإِنِّي مُسَائِلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ لَمْ يَغْرِفْهَا فَأَخْرُجُوا بِهِ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو نَصْرِ بِذَلِكَ اللِّسَانِ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ: اضْبِرْ فَإِنَّ الْأُمُورَ بِعَوَاقِبِهَا. فَعَجِبَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ مِنْهُ، وَعَظَّمَ عَنْده، ثُمَّ أَخَذَ يَتَكَلَّمُ مَعَ الْعُلَمَاءِ الْحَاضِرِينَ فِي كُلِّ قَنْ، فَلَمْ يَزَلْ كَلَامُهُ يَغْلُو، وَكَلَامُهُمْ يَسْفُلُ حَتَّى صَمَتَ الْكُلُّ، وَبَقِيَ يَتَكَلَّمُ وَحْدَهُ، ثُمَّ أَخَذُوا يَكْتُبُونَ مَا يَقُولُهُ، فَصَرَفَهُمْ سَيْفُ الدَّوْلَةِ وَخَلَا بِهِ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ فِي أَنْ تَأْكُلَ؟ قَالَ لَا: قَالَ: فَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَشْرَبَ؟ قَالَ: لَا. فَقَالَ: هَلْ تَسْمَعُ؟ قَالَ: نَعَمْ.

فَأَمَرَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِإِخْضَارِ الْقِيَانِ، فَحَضَرَ كُلُّ مَاهِرٍ فِي الصُّنْعَةِ بِأَنْوَاعِ الْمَلَاهِي فَخَطَّ الْجَمِيعَ، فَقَالَ لَهُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ: وَهَلْ تُحْسِنُ هَذِهِ الصُّنْعَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ وَسْطِهِ خَرِيطَةً^(٢) فَفَتَحَهَا، فَأَخْرَجَ مِنْهَا عِيدَانًا وَرَكْبَهَا، ثُمَّ لَعِبَ بِهَا، فَضَحِكَ كُلُّ

(١) البيت في اللسان (غاض) من غير نسبة وروايته: «ثلاث خلال».

(٢) الخريطة، مثل الكيس وتصنع من الخرق، وتشد على ما فيها بالعرا.

مَنْ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ فَكَّهَا وَرَكَّبَهَا تَرْكِيبًا آخَرَ فَبَكَى كُلُّ مَنْ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ فَكَّهَا وَغَيَّرَ تَرْكِيبَهَا، وَحَرَّكَهَا، فَنَامَ كُلُّ مَنْ فِي الْمَجْلِسِ حَتَّى الْبَوَابِ. فَتَرَكَهُمْ نِيَامًا وَخَرَجَ.

وهو الذي وضع القانون، وكان مُتَفَرِّدًا بِنَفْسِهِ، لَا يُجَالِسُ النَّاسَ، وَكَانَ مُدَّةَ إِقَامَتِهِ بِدِمَشْقَ لَا يَكُونُ غَالِبًا إِلَّا عِنْدَ مُجْتَمَعِ الْمِيَاهِ، أَوْ مُشْتَبَكِ الرِّيَاضِ، وَهَنَاكَ يُؤَلَّفُ كُتُبُهُ، وَكَانَ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، لَا يَحْتَفِلُ بِأَمْرِ مَسْكَنٍ وَلَا مَكْسَبٍ. وَسَأَلَهُ سَيَفُ الدَّوْلَةَ فِي مُرْتَبٍ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، فَقَالَ: يَكْفِينِي أَرْبَعَةُ دَرَاهِمٍ. وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ تُوفِّي سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثُمِائَةٍ بِدِمَشْقَ، وَصَلَّى عَلَيْهِ سَيَفُ الدَّوْلَةَ، وَأَرْبَعَةُ مِنْ خَوَاصِهِ وَقَدْ نَاهَزَ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَدُفِنَ ظَاهِرَ دِمَشْقَ خَارِجَ الْبَابِ الصَّغِيرِ. رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى!



ومن المنقول من خط القاضي الفاضل

أَنَّ نَوْرَ الدِّينِ بْنِ الشَّهِيدِ كَتَبَ إِلَى رَاشِدِ الدِّينِ سِنَانَ صَاحِبِ الْقَلَاعِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ كِتَابًا يُهَدِّدُهُ فِيهِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى سِنَانَ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ بِمَا هُوَ فَوْقَ الْوَصْفِ بِحِكَايَةِ الْحَالِ، وَهُوَ:

يَا ذَا الَّذِي بِقِرَاعِ السَّيْفِ هَدَدْنَا لَا قَامَ مَضْرَعُ قَلْبٍ كُنْتُ تَضْرَعُهُ
قَامَ الْحَمَامُ إِلَى الْبَازِي يُهَدِّدُهُ وَاسْتَضَرَّخْتُ بِأَسْوَدِ الْغَابِ أَضْبَعُهُ
أَضْحَى يَسْدُ قَمِ الْأَفْعَى بِأَضْبَعِهِ يَكْفِيهِ مَاذَا تُلَاقِي مِنْهُ إضْبَعُهُ^(١)

وَقَفْنَا عَلَى تَفْصِيلِهِ وَجُمْلِهِ، وَعَلِمْنَا مَا هَدَدْنَا بِهِ مِنْ قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، فَيَا لِلَّهِ! الْعَجَبُ مِنْ ذُبَابَةٍ تَطْنُ فِي أُذُنِ الْفِيلِ، وَبِعَوَضَةٍ تُعَدُّ فِي التَّمَائِيلِ! وَلَقَدْ قَالَهَا مِنْ قَبْلِكَ قَوْمٌ آخَرُونَ قَدَّمَرْنَا عَلَيْهِمْ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. أَوْ لَلْحَقِّ تَذَخُّضُونَ، وَلِلْبَاطِلِ تَنْصُرُونَ^(٢)! وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ. وَأَمَّا مَا صَدَرَ مِنْ قَوْلِكَ فِتْلِكَ أَمَانِي^(٣) كَاذِبَةٌ، وَخِيَالَاتٌ غَيْرُ صَائِبَةٍ، فَإِنَّ الْجَوَاهِرَ لَا تَزُولُ بِالْأَغْرَاضِ، كَمَا أَنَّ الْأَزْوَاحَ لَا تَضْمُجِلُ بِالْأَمْرَاضِ، فَإِنْ عُدْنَا إِلَى الظُّوَاهِرِ وَالْمَحْسُوسَاتِ، وَعَدَلْنَا عَنِ الْبَوَاطِنِ وَالْمَغْفُولَاتِ، فَلَنَا أَسْوَةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «مَا أُودِيَ نَبِيٌّ بِمَا أُودِيتَ». وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جَرَى عَلَى عِثْرَتِهِ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَشِيعَتِهِ، وَالْحَالُ مَا حَالُ، وَالْأَمْرُ مَا زَالُ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى. قُلْ: إِذْ نَحْنُ مَظْلُومُونَ لَا ظَالِمُونَ، وَمَغْضُوبُونَ لَا غَاصِبُونَ. قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا. وَقَدْ عَلِمْتُمْ ظَاهِرَ حَالِنَا، وَكَيْفِيَّةَ رِجَالِنَا، وَمَا يَمْتَنُونَهُ مِنَ الْفُوتِ، وَيَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى حِيَاضِ

(١) هذا البيت ساقط من أ ب.

(٢) أ: «تبصرون».

(٣) أ: «إيمان».

الموت. قُلْ فَتَمَتُّوْا الموتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وفي أمثال العامة السائرة: أَوْ لَلْبَطِّ، تَهْدُدُونَ بِالسُّطِّ؟ فَهَيْئٌ لِلْبَلَاءِ جَلْبَابًا، وَتَدْرُغُ لِلرَّزَايَا أَثْوَابًا، وَإِنَّكَ لَكَالْبَاحِثِ عَنْ حَتْفِهِ بِظُلْفِهِ، أَوْ الْجَادِعِ أَثْفَهَ بِكَفِّهِ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ.



ومن غريب الطَّرَفِ

ما حكاه ابن خُلُكَّانَ في تاريخه^(١)، قال: حَدَّثَنِي مَنْ أَثِقَ بِهِ أَنَّ شَخْصًا قَالَ لَهُ: رَأَيْتَ فِي بَعْضِ تَأْلِيفِ^(٢) أَبِي الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ مَا صَوَّرْتَهُ: «أَصْلَحَكَ اللَّهُ وَأَبْقَاكَ! لَقَدْ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ تَأْتِيَنَا الْيَوْمَ إِلَى مَنْزِلِنَا الْخَالِي، لَكِي تُحَدِّثَ^(٣) بِكَ عَهْدًا يَا زَيْنَ الْأَخْلَاءِ، فَمَا مِثْلُكَ مِنْ غَيْرِ عَهْدًا أَوْ غَفْلَ». وَسَأَلَهُ مِنْ أَيِّ الْأَبْحَرِ؟ وَهَلْ هُوَ بَيْتٌ وَاحِدٌ أَوْ أَكْثَرُ؟ فَإِنْ كَانَ أَكْثَرَ، فَهَلْ أَبْيَاتُهُ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ، أَوْ مُخْتَلَفَةٌ الرَّوِيِّ؟ قَالَ: فَأَفَكَّرَ فِيهِ. ثُمَّ أَجَابَهُ بِجَوَابٍ حَسَنٍ.

قال ابن خُلُكَّانَ: فَقُلْتُ لِلْمَقَاتِلِ: اضْبُرْ حَتَّى أَنْظُرَ فِيهِ، وَلَا تَقُلْ مَا قَالَهُ. فَأَجَابَ قَاضِي الْقَضَاةِ شَمْسُ الدِّينِ بْنُ خُلُكَّانَ بَعْدَ حُسْنِ النَّظَرِ بِمَا أَجَابَهُ عَنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ. وَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ تَخْرُجُ مِنْ بَحْرِ الرَّجَزِ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَبْيَاتٍ فِي رَوِيِّ اللَّامِ، وَهِيَ عَلَى صُورَةِ يَسُوعَ اسْتِعْمَالُهَا عِنْدَ الْعَرُوضِيِّينَ. وَمَنْ لَا يَكُونُ لَهُ بِهَذَا الْفَنِّ مَعْرِفَةٌ يُنَكِّرُهَا لِأَجْلِ قَطْعِ الْمَوْصُولِ مِنْهَا، وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِثْنَانِ بِهَا لِتُظْهَرَ صُورَةُ ذَلِكَ، وَهِيَ:

| | |
|-------------------------------|------------------------------|
| أَصْلَحَكَ اللَّهُ وَأَبِ | قَاكَ لَقَدْ كَانَ ال |
| وَاجِبُ أَنْ تَأْتِيَنَا ال | يَوْمَ إِلَى مَنْزِلِنَا ال |
| خَالِي لَكِي تُحَدِّثَ عَنْهُ | دَا بِكَ يَا زَيْنَ الْأَخِل |
| لَاءِ فَمَا مِثْلُكَ مَنْ | غَيْرَ عَهْدًا أَوْ غَفْلَ |

قلت: وعلى ذكر أبي العلاء الضَّرِيرِ يعجبني قول مُظَفَّرِ بْنِ جَمَاعَةِ الضَّرِيرِ:

| | |
|------------------------------------|---|
| قَالُوا عَشِيقَتِ وَأَنْتَ أَغْمَى | ظَنِيًّا كَحِيلِ الطَّرْفِ أَلْمَى ^(٤) |
| وَحُلَاهُ مَا عَايَنْتَهَا | فَتَقُولَ قَدْ شَعَفْتُكَ وَهَمَا ^(٥) |
| وَخِيَالَهُ بِكَ فِي الْمَنَا | مَ، فَمَا أَطَافَ وَلَا أَلَمَا |
| مَنْ أَيْنَ أَرْسَلَ لَلْفَوْا | دَ - وَأَنْتَ لَمْ تَنْظُرْهُ - سَهَمَا |

(١) ابن خُلُكَّانَ ٩٨/٢.

(٢) ب: «تأليف».

(٣) أ: «يتحدث بك».

(٤) ابن خُلُكَّانَ ٩٨/٣.

(٥) ابن خُلُكَّانَ: «شغلتك هما».

وَمَتَّى رَأَيْتَ جَمَالَه
وَبِأَيِّ جَارِحَةٍ وَصَلْ—
فَأَجَبْتُ أَتِي مُوسَوِ
أَهْوَى بِجَارِحَةِ السَّمَا
ويعجبني أيضاً قول ضرير آخر:

وَعَادَةٌ قَالَتْ لِأَثَرِهَا
أَيَعْشَقُ الْإِنْسَانُ مَا لَا يَرَى؟
إِنْ لَمْ تَكُنْ عَيْنِي رَأَتْ شَخْصَهَا
ومثل هذا قول المهذب^(٢) عمر بن الشيخ^(٣):

وَإِنِّي أَمْرُؤُ أَحْبَبْتُكُمْ لِمَحَاسِنِ
وَتَقَدَّمَهُ بِشَارٍ بِقَوْلِهِ:
يَا قَوْمِ أَذْنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ

وَالْأَذُنُ تَعْشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا



حاتم الطائي

ونقل الشيخ جمال الدين بن ثباتة في كتابه المسمى بـ «سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون» عن علي بن أبي طالب أنه قال: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَزْهَدَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فِي الْخَيْرِ! عَجَبًا لِرَجُلٍ يَجِيئُهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فِي حَاجَةٍ فَلَا يَرَى نَفْسَهُ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَلَا يَرْجُو ثَوَابًا، وَلَا يَخَافُ عِقَابًا! وَكَانَ يَتَّبِعِي لَهُ أَنْ يُسَارِعَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى سُبُلِ^(٤) النِّجَاحِ.

فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَسَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمَّا أَتَيْتِ بِسَبَايَا طَيْئٍ، وَقَفْتُ جَمِيلَةً، فَلَمَّا رَأَيْتُهَا أُعْجِبْتُ بِهَا [وَقُلْتُ: لَا طَلِبَتْهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ]^(٥)، فَلَمَّا تَكَلَّمْتُ أُنْسِيْتُ^(٦) جَمَالَهَا لِفَصَاحَتِهَا، فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّد، إِنْ رَأَيْتَ

(١) ابن خلكان ٩٨/٢.

(٢) ج: «مذهب الدين».

(٣) ابن خلكان: «عمر بن محمد المعروف بابن الشيخ الموصلي الأديب الشاعر المشهور، وهذا البيت من قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب».

(٤) كذا في ب، ط، وفي باقي الأصول «سبيل النجاح».

(٥) تكلمة من ب، ج، د وسرح العيون.

(٦) في ج، ط: «نسيت جمالها».

أَنْ تُحَلِّيَ سَبِيلِي، وَلَا تُشْمِتْ بِي أَخِيَاءَ الْعَرَبِ، فَإِنِّي ابْنَةُ سَيِّدِ قَوْمِي! وَإِنَّ أَبِي كَانَ يَفُكُّ الْعَانِي، وَيُشْبِعُ الْجَائِعَ، وَيَكْسُو الْعَارِي، وَيُفْشِي السَّلَامَ، وَلَا يَرُدُّ طَالِبَ حَاجَةٍ قَطُّ، أَنَا ابْنَةُ حَاتِمِ الطَّائِي.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا جَارِيَّةُ، هَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ، خَلُّوا عَنْهَا، فَإِنَّ أَبَاهَا كَانَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١).

والمنقول عن حاتم في زيادة الكرم كثير، من ذلك ما حكاه المدائني، قال: أَقْبَلَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَبَنِي قَيْسٍ يُرِيدُونَ الثُّعْمَانَ، فَلَقُوا حَاتِمًا، فَقَالُوا: تَرَكْنَا قَوْمَنَا يُثْنُونَ عَلَيْكَ، وَقَدْ أَرْسَلُوا إِلَيْكَ رِسَالَةً، قَالَ: وَمَا هِيَ؟ فَأَنْشَدَهُ الْأَسَدِيُّونَ شِعْرًا لِلنَّابِغَةِ فِيهِ، فَلَمَّا أُنْشِدُوهُ قَالُوا: إِنَّا نَسْتَجِيبُ أَنْ نَسْأَلَكَ شَيْئًا، وَإِنَّ لَنَا حَاجَةً! قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالُوا: صَاحِبٌ لَنَا قَدْ أَرْجَلَ - يَعْنِي فَقَدَتْ رَاحِلَتَهُ - فَقَالَ حَاتِمٌ: خُذُوا قَرَسِي هَذِهِ فَاخْمِلُوهُ عَلَيْهَا. فَأَخَذُوهَا؛ وَرَبَطَتِ الْجَارِيَّةُ فِلَوْهَا بِثَوْبِهَا فَأَقْلَتِ يَتَبَعُ أُمَّهُ، فَتَبِعَتْهُ الْجَارِيَّةُ لَتَرُدَّهُ، فَصَاحَ حَاتِمٌ: مَا تَبِعَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ؛ فَذَهَبُوا بِالْفَرَسِ وَالْفِلْوِ وَالْجَارِيَّةِ.

وقيل: أَجُودُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ: حَاتِمُ الطَّائِي، وَهَرَمُ بْنُ سِنَانٍ، وَكَعْبُ بْنُ مَامَةَ، وَحاتم كان أشهرهم [بِالْكَرَمِ]^(٢) ذِكْرًا، أَدْرَكَ مَوْلِدَ النَّبِيِّ ﷺ.



أجواد العرب في الإسلام

وحكى الهيثم بن عدي، قال:

تمارى^(٣) ثلاثة في أجواد الإسلام، فقال رجل: أَسَخَى النَّاسَ فِي عَصْرِنَا هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَقَالَ آخَرُ: أَسَخَى النَّاسَ عَرَابَةُ الْأَوْسِيِّ، وَقَالَ آخَرُ: بَلْ هُوَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ بْنُ عِبَادَةَ؛ وَأَكْثَرُوا الْجِدَالَ فِي ذَلِكَ، وَكَثُرَ ضَجِيجُهُمْ وَهُمْ بِفِنَاءِ الْكَغْبَةِ؛ فَقَالَ لَهُمْ رَجُلٌ: قَدْ أَكْثَرْتُمُ الْجِدَالَ [فِي ذَلِكَ]^(٤)، فَمَا عَلَيْكُمْ أَنْ يَمْضِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ إِلَى صَاحِبِهِ يَسْأَلُهُ حَتَّى تَنْظُرَ مَا يُعْطِيهِ، وَنَحْكُمَ عَلَى الْعِيَانِ.

فَقَامَ صَاحِبُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَيْهِ، فَصَادَفَهُ قَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي غَرْزٍ^(٥) نَاقَتِهِ يُرِيدُ ضَيْعَةً [لَهُ]^(٦)؛ فَقَالَ: يَا بَنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ: قُلْ مَا تَشَاءُ، قَالَ: ابْنُ سَبِيلٍ وَمُنْقَطَعٌ بِهِ. قَالَ: فَأَخْرَجَ رِجْلَهُ مِنْ غَرْزِ النَّاقَةِ، وَقَالَ لَهُ: ضَعِ رِجْلَكَ وَاسْتَوِ عَلَى الرَّاحِلَةِ، وَخُذْ مَا فِي الْحَقِيَّةِ، وَاحْتَفِظْ بِسَيْفِكَ فَإِنَّهُ مِنْ سَيْوِفِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ:

- (١) سرح العيون ١١٣.
(٢) تكملة من ط، ج.
(٣) تمارى: جادل بعضهم بعضاً.
(٤) تكملة من ط.
(٥) الغرز: ركاب الرجل.
(٦) تكملة من: ب، ط.

فجاء بالنّاقّة والحقيبة فيها مطارف^(١) خَزَ وأربعة آلاف دينار. وأعظمها وأجلها السيف. ومضى صاحب قيس بن سعد بن عبادة فصادفه نائماً، فقالت الجارية: هو نائم، فما حاجتك إليه؟ قال: ابن سبيل ومُنْقَطِع به، قالت: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار؛ واللّه يعلم أنّ ما في دار قيس غيره، خذه وامض إلى معاطن^(٢) الإبل، إلى أموال^(٣) لنا بعلامتنا، فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها، وعبدًا، وامض لشأنك. فقيل: إنّ قيساً لما انتبه من رقدته أخبرته بما صنعت، فأعقها.

ومضى صاحب عرابة الأوسيّ إليه، فألفاه قد خرج من منزله يريد الصلاة، وهو يمشي على عَبدَيْن، وقد كُفَّ بصره، فقال: يا عرابة، ابن سبيل ومُنْقَطِع به. قال: فخلّي العبدَيْن، وصَفِّقْ بيمينه على اليسرى^(٤) وقال: أوّاه أوّاه! ما تركت الحقوق لعرابة مالا؛ ولكن خذهما - يعني العبدَيْن - قال: ما كنت الذي أقصّ جناحك؟ قال: إنّ لم تأخذهما فهما حرّان، فإن شئت تأخذ وإن شئت تعتق؛ وأقبل يلتمس الحائط بيده راجعاً إلى منزله. قال: فأخذهما وجاء بهما.

ثبت أنّهم أجود أهل عصرهم، إلا أنهم حكموا لعرابة؛ لأنه أعطى جهده.



نادرة غريبة

حضر يعقوب بن إسحاق الكندي - المسمّى بوقته فيلسوف الإسلام - مجلس أحمد بن المعتصم، وقد دخل عليه أبو تمام، فأنشده قصيدته السينية المشهورة، فلما بلغ إلى قوله:

إقدام عمرو في سَمَاحَةِ حاتم في جِلْمٍ أَخْنَفَ في ذِكَاءِ إِيَّاسٍ^(٥)
قال له الكندي: ما صَنَعْتَ شيئاً، فقال: كيف؟ قال: ما زِدْتُ على أنّ شَبَّهْتُ
ابن أمير المؤمنين بصعاليك^(٦) العرب. وأيضاً فإن شعراء دَهْرِنَا تجاوزوا بالممدوح مَنْ
كان قَبْلَهُ، ألا تَرَى إلى قَوْلِ الْعَكُوكِ في أَبِي دُلْفٍ:

رَجُلٌ أَبْرَ على شِجَاعَةِ عَامِرٍ بَأْساً وَغَيْرُ في مُحَيَّا حاتمٍ

(١) المطرف من الثياب: ما جعل في طرفه علمان.

(٢) المعاطن: مع معطن، وهو مبرك الإبل.

(٣) كذا في ط، وفي أ، د: «مولى لنا». والصحيح ما أثبتناه، تريد بذلك الإبل، وكانت عند العرب أكثر مالهم.

(٤) ج، ط: «يسراه».

(٥) ديوانه: ٢٤٩/٢.

(٦) صعاليك الرعب: ذؤبانهم ولصوصهم.

فأطرق أبو تمام، ثم أنشأ يقول:

لا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلًا شُرُودًا فِي التَّدْيِ وَالْبَاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِثُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنُّبْرَاسِ

ولم يكن هذا في القصيدة؛ فتزايد العجب منه، ثم طلب أن تكون الجائزة ولاية عمل، فاستصغره عن ذلك، فقال الكندي: ولوه لأنه قصير العمر، لأنَّ ذهنه ينحط من قلبه. فكان كما قال، وقد تكون ظهرت له دلائل من شخصه في ذلك الوقت [دلت] (١) على قرب أجله.

وسمع الكندي إنساناً يُنشد:

وفي أربعٍ منِّي حَلَّتْ مِنْكَ أَرْبَعٌ فما أنا أدري أيُّها هاج لي كَرْبِي!
خَيَالُكَ فِي عَيْنِي أَمْ الذَّكَرُ فِي فَمِي أَمْ التُّطْقُ فِي سَمْعِي أَمْ الْحَبُّ فِي قَلْبِي!
فقال: والله لقد قسَمْتَهَا تقسيماً فلسفياً.



أوتار العود

ونقل الشيخ جمال الدين بن نباتة في كتابه المسمّى بـ «سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون»: أَنَّ واضِعَ العُودِ بعضُ حكماءِ الفرس، ولَمَّا فَرَعَ مِنْهُ سَمَاءَ «الْبَرْبَط» وتفسيره: باب النجاة، ومعناه أنه مأخوذ من صرير باب الجنة. وجعلت أوتاره أَرْبَعَةَ بِإِزاءِ الطَّبائعِ [الأربع] (٢)؛ فالزير بإزاء السوداء، والبسم بإزاء الصفراء، والمثنى بإزاء الدم، والمثلث بإزاء البلغم؛ فإذا اعتدلت أوتاره المرتبة على ما يجب جَانَسَتِ الطَّبائعُ، وأُنْتَجَتِ الطَّرَبُ، وهو رُجُوعُ النَّفْسِ إلى الحالةِ الطَّبِيعِيَّةِ دَفْعَةً واحدةً.

وبدئ هذا العلم ببطليموس، وختم بإسحاق بن إبراهيم الموصلي (٣).

وحكى ابنُ خَمْدُونٍ في تَذَكُّرِهِ أَنَّ الحسن بن حَمَادٍ، قال: كنت بالمدينة فخلا لي الطَّرِيقُ نِصْفَ النَّهَارِ، فجعلت أَتَغَنَّى بِشِعْرِ ذِي يَزَنَ وهو:

مَابَالُ قَوْمِكَ يَا رَبَّابُ خُزْرًا كَأَنَّهُمْ غَضَابُ (٤)!

فإذا كُؤةٌ قد فُتِحَتْ، وإذا وَجْهٌ قد بدا منها تَتَبَّعَهُ لَحِيَّةٌ حمراء. فقال: يا فاسق، أَسَأَتِ التَّأْدِيَةُ، وَمَنَعَتِ الْقَائِلَةُ، وَأَدْعَتِ الْفَاحِشَةُ! ثم اندفع يُعَنِّي، فَعَنَّى الصَّوْتُ غَنَاءً

(١) تكملة من ج.

(٢) من ج، د، ط.

(٣) سرح العيون ١٢٩.

(٤) الخزر، محرقة: كسر العين خلقة أو ضيفها.

لم أَسْمَعْ بِمِثْلِهِ، فَقُلْتُ: أَضْلَحَكَ اللَّهُ! مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الْغِنَاءُ؟ فَقَالَ: نَشَأْتُ وَأَنَا غُلَامٌ يُعْجِبُنِي الْأَخْذُ عَنِ الْمُعْتَنِينَ، فَقَالَتْ أُمِّي: يَا بُنَيَّ، إِنَّ الْمُعْتَنِي إِذَا كَانَ قَبِيحَ الْوَجْهِ لَمْ يُلْتَفَتْ إِلَى غِنَائِهِ، فَدَعِ الْغِنَاءَ، وَاطْلُبِ الْفَقْهَ. فَتَرَكْتُهُ وَتَبِعْتُ الْفَقْهَاءَ فَبَلَغَ اللَّهُ بِي إِلَى مَا تَرَى. فَقُلْتُ: أَعِذْ لِي الصَّوْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ! فَقَالَ: لَا حُبًّا وَلَا كِرَامَةً! أَتُرِيدُ أَنْ تَقُولَ: أَخَذْتَهُ عَنِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ!.



فائدة غريبة

رَوَى عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْزِلُ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَؤُا، وَتَغْنُّوْا بِهِ، فَمَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ فَلَيْسَ مِنَّا». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ (١).



نادرة لطيفة

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي يَزِيدَ: مَرَّ بِنَا أَبُو لُبَابَةَ فَاتَّبَعْنَاهُ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ، فَإِذَا رَجُلٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»، قَالَ: فَقُلْتُ لَابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَكُنْ حَسَنَ الصَّوْتِ! قَالَ: يَحْسُنُهُ مَا اسْتَطَاعَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٢).



نادرة لطيفة

تَتَضَمَّنُ الْمَثَلُ السَّائِرُ فِي قَوْلِهِمْ عَنِ الْخَائِبِ: رَجَعَ بِخُفْيٍ حُنِينٍ. الْمَنْقُولُ عَنْ حُنِينٍ أَنَّهُ كَانَ إِسْكَافًا مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ، سَاوَمَهُ أَغْرَابِيٌّ بِخُفْيَيْنِ وَلَمْ يَشْتَرِ مِنْهُ شَيْئًا، وَغَاطَهُ ذَلِكَ، فَخَرَجَ إِلَى الطَّرِيقِ الَّتِي لَا بُدَّ لِلْأَغْرَابِيِّ مِنَ الْمُرُورِ مِنْهَا، فَعَلَّقَ الْفَرْدَةَ الْوَاحِدَةَ مِنْهُمَا فِي شَجَرَةٍ عَلَى طَرِيقِهِ، وَتَقَدَّمَ قَلِيلًا فَطَرَحَ الْفَرْدَةَ الثَّانِيَةَ، وَاخْتَفَى. فَبَجَاءَ الْأَغْرَابِيُّ: فَرَأَى أَحَدَ الْخُفْيَيْنِ فَوْقَ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ: مَا أَشْبَهَهُ بِخُفٍّ حُنِينٍ! لَوْ كَانَ مَعَهُ آخَرُ لَتَكَلَّفْتُ أَخْذَهُ؛ وَتَقَدَّمَ فَرَأَى الْخُفَّ الْآخَرَ مَطْرُوحًا، فَنَزَلَ، وَعَقَلَ بِعِيرِهِ، وَأَخَذَهُ، وَرَجَعَ لِيَأْخُذَ الْأَوَّلَ، فَخَرَجَ حُنِينٌ مِنَ الْكَمِينِ فَأَخَذَ بِعِيرِهِ وَذَهَبَ. وَرَجَعَ الْأَغْرَابِيُّ إِلَى نَاحِيَةِ بَعِيرِهِ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَرَجَعَ بِخُفْيٍ حُنِينٍ. فَصَارَتْ مَثَلًا.



(١) سنن ابن ماجه ١/٤٢٤.

(٢) سنن أبي داود ٢/١٠٠.

نادرة لطيفة

قِيلَ إِنَّ بَعْضَ وَفُودِ الْعَرَبِ قَدِمُوا عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ فِيهِمْ شَابٌ، فَقَامَ وَتَقَدَّمَ وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَصَابَتْنا سَنُونَ؛ سَنَةٌ أَذَابَتْ الشَّحْمَ، وَسَنَةٌ أَكَلَتْ اللَّحْمَ، وَسَنَةٌ أَذَابَتْ الْعَظْمَ، وَفِي أَيْدِيكُمْ فُضُولُ أَمْوَالٍ؛ فَإِنْ كَانَتْ لَنَا فَعَلَامٌ تَمْنَعُونَهَا عَنَا! وَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ فَمَرَّقُوها عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ فَتَصَدَّقُوا بِهَا عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ.

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: مَا تَرَكَ الْأَعْرَابِيُّ لَنَا عُذْرًا فِي وَاحِدَةٍ.

وَوَقَفَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى خَلْقَةِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، فَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ مَنْ تَصَدَّقَ مِنْ فَضْلٍ، أَوْ وَاسَى مِنْ كَفَافٍ، أَوْ أَثَرَ مِنْ قُوَّةٍ! فَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مَا تَرَكَ الْأَعْرَابِيُّ مِنْكُمْ أَحَدًا حَتَّى عَمَّهُ بِالسُّؤَالِ.

قلت: هذا النوع سَمَاهُ الْبَدِيعِيُّونَ بِالتَّقْسِيمِ.



نادرة أدبية بديعة

حَكَى ضِيَاءُ الدِّينِ بْنُ الْأَثِيرِ فِي «الْمَثَلِ السَّائِرِ» بَعْدَمَا أَوْرَدَ لُغْزًا فِي الْخَلْخَالِ:

وَمَضْرُوبٌ بِلَا جُزْمٍ مَلِيحُ اللَّوْنِ مَغْشُوقِ
لَهُ شَكْلُ الْهَلَالِ عَلَى رَشِيقِ الْقَدِّ مَمْشُوقِ
وَأَكْثَرُ مَا يُرَى أَبَدًا عَلَى الْأَمْشَاطِ فِي السُّوقِ

قَالَ: بَلَّغْنِي أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَمَّا سَمِعَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ، قَالَ: دَخَلْتُ السُّوقَ فَلَمْ أَرَ عَلَى الْأَمْشَاطِ شَيْئًا^(١).

وَمِنْ نَوَادِرِ الْأَدَبِ أَيْضًا إِشَارَةُ ابْنِ حَجَّاجٍ إِلَى قَوْلِ ابْنِ ثُبَاتَةَ السَّعْدِيِّ فِي فَرَسٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ:

غَضِبْتُ صَبَاحٌ وَقَدْ رَأَيْتَنِي قَابِضًا أَيْرِي، فَقُلْتُ لَهَا مَقَالَةً فَاجِرِ
بِاللَّهِ إِلَّا مَا لَطَمْتُ جَبِينَهُ حَتَّى يُحَقِّقَ فِيكَ قَوْلَ الشَّاعِرِ
يُرِيدُ بِذَلِكَ قَوْلَهُ:

وَكَأَنَّمَا لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ فَافْتَصَّ مِنْهُ فَخَاضَ فِي أَحْشَائِهِ



ملوك حماة

ومن المنقول المشهور أن الأدب وأهلَه كانا عند أصحاب حماة المحروسة في الذروة العالية، ولكن قصّة زكيّ الدين عبد الرحمن القُوصيّ^(١) مع المَلِكِ المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقيّ الدين محمود، كانت على غير المَعهودِ منه، ومن سلفه الطاهر، وما ذاك إلا أن زكيّ الدين المذكور أنشد الملك المظفر محموداً قبل أن يتملك حماة: ^(٢)

مَتَى أَرَاكَ وَمَنْ تَهْوَى وَأَنْتَ كَمَا تَهْوَى عَلَى رَغْمِهِمْ رُوحَيْنِ فِي بَدَنِ
هُنَاكَ أَنْشَدُ وَالْأَمَالَ حَاضِرَةً هَنِتْتُ بِالْمُلْكِ وَالْأَخْبَابِ وَالْوَطَنِ
فَوَعْدَهُ إِنْ تَمَلَّكَ حِمَاةً أَنْ يُعْطِيَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَلَمَّا مَلَكَهَا أَنْشَدَهُ:

مَوْلَايَ هَذَا الْمُلْكُ قَدْ نِلْتَهُ بِرَغْمِ مَخْلُوقٍ مِنَ الْخَالِقِ
وَالذَّهْرُ مُنْقَادٌ لِمَا تَشْتَهِي^(٣) قَذَا أَوَانُ الْمَوْعِدِ الصَّادِقِ

فدفع له ألف دينار، وأقام معه مدة، ولزمته أسفاراً أنفق فيها المال الذي أعطاه، ولم يحصل بيده زيادة عليه، فقال:

إِنَّ الَّذِي أَعْطَوهُ لِي جُمْلَةً قَدْ اسْتَرَدَّوهُ قَلِيلاً قَلِيلاً
فَلَيْتَ لَمْ يُغْطُوا وَلَمْ يَأْخُذُوا فَحَسَبْنَا اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ!
فَبَلَغَ ذَلِكَ الْمَظْفَرَ فَأَخْرَجَهُ مِنْ دَارٍ كَانَ قَدْ أَنْزَلَهُ بِهَا، فَقَالَ:

أَتُخْرِجُنِي مِنْ كَسْرِ بَيْتٍ مُهْدَمٍ وَلِي فِيكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ بُيُوتُ
فَإِنْ عِشْتُ لَمْ أَغْدَمْ مَكَاناً يَضُمُّنِي وَأَنْتَ سَتَدْرِي ذِكْرٌ مِنْ سِيَمُوتُ

فحبسه المظفر، فقال: ما ذنبِي إِلَيْكَ؟ فقال: حَسَبْنَا اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ وَأَمَرَ بِخَفِّهِ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِذَلِكَ قَالَ:

أَعْطَيْتَنِي الْأَلْفَ تَعْظِيماً وَتَكْرِماً يَا لَيْتَ شِغْرِي أَمْ أَعْطَيْتَنِي دَيْتِي^(٤)!

قلت: كَانَ حُكْمُ الْمَلِكِ الْمَظْفَرِ أَلْيَقَ بِهَذَا الْمَقَامِ الَّذِي لَمْ يَقْصِدْ بِهِ زَكِيّ الدين القُوصي غيرَ تزويج الأدب في اختلاف المعاني، والمداعبة به، والتوصّل بذلك إلى بسطِ الْمَلِكِ الْمَظْفَرِ، ولكن كان حالُ الزكيّ كقول الشاعر:

وَكُنْتُ كَالْمَتَمَنِّي أَنْ يَرَى فَلَقاً مِنَ الصَّبَاحِ فَلَمَّا أَنْ رَأَاهُ عَمِي

(٢) تكلمة من ط.

(١) ط: «العوفي تحريف».

(٣) كذا في أ، وفي باقي الأصول: «لما شئت».

(٤) انظر الخبر السعيد ١٥٠.

قلت: وكان والدُ السلطان الملك المظفر المنصور من كبار أهل الأدب، وكان أحبَّ الناس لأهله، وله كتابُ «طبقات الشعراء» في عشر مجلدات، وسمع الحديث من الحافظ السلفي بالإسكندرية، وكان مغرمًا بحُبِّ الأدباء والعلماء، وجمع تاريخاً على السنين في عدة مجلدات^(١)، ومن مصنفاته كتابه المسمى بـ«مضمار الحقائق وسر الخلائق»^(٢)، وهو كبير نفيس، يدل على فضله. وجمع عنده من الكتب مما لا مزيد عليه، وكان في خدمته ما يناهز مائتي متعمم من الفقهاء والأدباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجّمين والكتاب، وأقامت دولته ثلاثين سنة، وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة، ومن شعره:

أَرَبِي رَاخٌ وَرَيْنَحَا نٌ وَمَخْبُوبٌ وَشَادِي
وَالَّذِي سَاقَ لِي الْمَلِكُ كَ لَهُ دَفْعُ الْأَعَادِي

قلت: وقد تقدّم القول وتقرر أن جميع ملوك حماة المحروسة من بني أيوب، كان لهم إمام بالأدب وأهله، وقد تعيّن أن نذكر هنا ترجمة مؤيّدهم؛ فإنه كان بذّر كمالهم، ومُسك ختامهم، وهو الملك المؤيّد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الملك الأفضل بن الملك المظفر بن الملك المنصور بن الملك المظفر صاحب حماة المحروسة. كان أميراً بدمشق المحروسة، فخدم الملك الناصر لما كان بالكرك، وبألف في خدمته، فوعده بحماة، ووفى له بذلك، وجعله بها سلطاناً يفعل فيها ما يشاء من إقطاع وغيره، ليس لأحد من الدولة المصرية معه حديث، وأزكبه في القاهرة بشعار المملكة وأبهة السلطنة، ومشى الأمراء في خدمته حتى الأمير سيف الدين بن أرغون النائب، وقام له القاضي كريم الدين بكل ما يحتاج إليه في ذلك المهم من التّشريف والإنعامات على وجوه الدولة، ولقبوه بالملك الصالح، ثم بعد ذلك بقليل لقب بالملك المؤيّد، وتقدم أمر السلطان الملك الناصر إلى نوابه بأن يكتبوا إليه: «يقبل الأرض» و «بالمقام الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي»، وفي العنوان: «صاحب حماة».

وكان الملك الناصر يكتب إليه أخوه: محمد بن قلاوون، أعزّ الله أنصار المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي المولوي^(٣).

(١) ط: «في عشر مجلدات».

(٢) ذكره صاحب كشف الظنون، وقال: «صنف الملك المنصور محمد بن عمر صاحب حماة المتوفى سنة ٦١٧، قال: وهو كتاب نفيس، وتوهمه بعض المؤرخين فأسند تأليفه إليه، وإنما صنفه رجل من علماء عصره؛ كما هو المفهوم من المختصر».

(٣) النجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٣.

وكان الملك المؤيد من علماء الفقه والأدب، والطب والحكمة والهيئة، ونظم «الحاوي»، وله تاريخٌ بديع، وكتاب الكُنَاش، وكتابُ تقويم البلدان، هذَّبه وجدوله وأجاد فيه ما شاء، وله كتابُ الموازين.

وكان قد رَتَّبَ للشيخ جمال الدين بن بُاتة في كُلِّ شهر ألفَ درهمٍ غيرَ ما يُثجِّفه به وهو مُقيمٌ بدمشق. وتوجَّه الملكُ المؤيدُ في بعض السنين إلى الديارِ المِصْريَّة، ومعه ابنه الملكُ الأفضَلُ مُحَمَّدُ فَمَرَضَ ولده، فجهَّزَ إليه السُّلطانُ الحَكيمُ جمالُ الدين بنَ المِغْرِبِي، رئيسَ الأطباء، فكانَ يَجيءُ إليه بَكْرَةً وَعَشِيًّا، فيراه، وَيَبْحَثُ معه في مَرَضِهِ، ويُقدِّرُ له الأدوية، ويطبِّخُ له الشَّرابَ بيده في دَسْتِ فُضَّة. فقال له ابنُ المِغْرِبِي: يا مولانا السُّلطان، أَنتَ واللَّه ما تحتاج للمملوك^(١)، وما أُجِيءُ إِلَّا امْتِثَالاً للأوامرِ الشَّريفة. ولَمَّا عُوِّفِي أعطاه بَغْلَةً بسرجٍ ذَهَب، ولِجَافاً وكُنْبُوشاً^(٢) مُزَرَّكشاً، وبِقِجَتَيْنِ قماشاً وعشرة آلاف درهم، والدَسْتِ الفضة، وقال: يا رئيسُ، اعذرني، فَإِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ من حِماة ما حَسِبْتُ مَرَضَ هذا الولد^(٣).

ومَدَحَهُ شُعراءُ زَمَانِهِ وأَجَازَهُم. وبنى بظَاهِرِ حِماة المحروسة جامعاً حسناً، وسَمَّاه جامعَ الدهشة، ووقَّفَ عليه كُتُباً قِلِيلَ إنها ما اجتمعت لغيره من سائرِ الفنون؛ فَإِنَّهُ اجْتَهَدَ في جَمْعِهَا من سائرِ البلادِ شَرْقاً وَغَرْباً.

وَتُوِّفِي رَحِمَهُ اللَّهُ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ وَمِنْ شِعْرِهِ:

كَمْ مِنْ دَمٍ حَلَلْتُ وَمَا نَدِمْتُ تَفْعَلُ مَا تَشْتَهِي فَلَا عِدْمَتُ^(٤)
سَمْتُ فَلَوْ تَبْلَغُ الشُّمُوسُ إِلَى لَثُمَ مَوَاطِيءُ أَقْدَامِهَا لَثُمْتُ



أبو دلف العجلي

والمُنْقُولُ عن القاسم المَكْتَبِي بِأَبِي دُلْفٍ؛ أَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ طَرَفَيْ الْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ، وَلِي دِمَشْقَ فِي خِلَافَةِ الْمُعْتَصِمِ؛ فَأَمَّا شَجَاعَتُهُ فَإِنَّهُ لَحِقَ قَوْماً مِنَ الْأَكْرَادِ قَطَعُوا الطَّرِيقَ، فَطَعَنَ فَارِساً [طُعْنَةً]^(٤)، فَنفذت الطُّعْنَةُ إِلَى فَارِسٍ آخَرَ رَدِيفَهُ فَقَتَلْتَهُمَا، فَقَالَ بَكْرُ بْنُ النَّطَّاحِ:

قَالُوا وَيَنْظِمُ فَارِسِينَ بِطُعْنَةٍ يَوْمَ الْهَيَاجِ وَلَا تَرَاهُ كَلِيلاً^(٥)

(١) ط: «إلى المملوك».

(٢) الكنبوش: البرذعة تجعل تحت سرج الفرس (محيط المحيط).

(٣) الدرر الكامنة ١/ ٢٧٣.

(٤) فوات الوفيات ١/ ٣٠.

(٥) تاريخ بغداد ٢/ ٤١٧، ابن خلكان ١/ ٤٢٤.

لا تَعْجَبُوا فَلَوْ أَنَّ طُورَ قَنَايَةِ مِيلٌ إِذَا نَظَمَ الْفَوَارِسَ مِيلًا
وفيه يَقُولُ ابْنُ أَبِي فَتْنٍ^(١):

تَمْشِي الْمَنَايَا إِلَى غَيْرِي فَأَكْرَهُهَا فَكَيْفَ أَمْشِي إِلَيْهَا بَارِزَ الْكَجْفِ!
ظَنَنْتُ أَنَّ نِزَالَ الْقِرْنِ مِنْ خُلُقِي وَإِنَّ قَلْبِي فِي جَنْبِي أَبِي دَلْفِ
وأما شهرته في الكرم فهو الذي قال فيه أبو تمام^(٢):

يَا طَالِبَ الْكِيمِيَاءِ وَعَلِمِهَا مَدْحُ ابْنِ عَيْسَى الْكِيمِيَاءِ الْأَعْظَمِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا ذَرَاهُ وَمَدْحَتُهُ لَأَتَاكَ ذَاكَ الدَّرَاهِمِ
ودخل عليه بعضُ الشعراءِ فَأَنشده:

أَبَا دَلْفٍ إِنَّ الْمَكَارِمَ لَمْ تَزَلْ مُقْلَقَلَةً تَشْكُو إِلَى اللَّهِ حَلَّهَا
فَبَشَّرَهَا مِنْهُ بِمِيلَادِ قَاسِمٍ فَأَرْسَلَ جَنْبِلًا إِلَيْهَا فَحَلَّهَا
فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ، فَقَالَ الْخَازِنُ: لَمْ يَكُنْ هَذَا الْقَدْرُ بَيْنَ الْمَالِ، فَأَمَرَ لَهُ بِضِعْفِهِ،
فَقَالَ: هَذَا غَيْرُ مُمَكِّنٍ، فَأَمَرَ لَهُ بِضِعْفِهِ؛ فَلَمَّا حَمَلَ إِلَيْهِ الْمَالِ، قَالَ أَبُو دَلْفٍ:

أَتَعْجَبُ إِنْ رَأَيْتَ عَلَيَّ دِينَارًا وَأَنْ ذَهَبَ الطَّرِيفُ مَعَ التَّلَادِ
وَمَا وَجَبَتْ عَلَيَّ زَكَاةُ مَالٍ وَهَلْ تَجِبُ الزُّكَاةُ عَلَى جَوَادِ!
وَقَالَ آخَرُ:

إِنْ سَارَ سَارَ الْمَجْدُ أَوْ حَلَّ وَقَفَ
أَنْظُرْ بِعَيْنَيْكَ إِلَى أَسْنَى الشَّرَفِ
هَلْ نَالَهُ بِقُدْرَةٍ أَوْ بِكَلْفِ
خَلَقَ مِنَ النَّاسِ سِوَى أَبِي دَلْفِ!

فَأَغْطَاهُ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ. وفيه يَقُولُ الْعَكُوكُ عَلِيُّ بْنُ جَبَلَةَ:

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دَلْفٍ بَيْنَ بَايِدِهِ وَمُخْتَضِرَةٍ^(٣)
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دَلْفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ بَيْنَ بَايِدِهِ إِلَى خَضِرَةٍ
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةٍ يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخِرَةٍ

(١) في الأصول «ابن عنين»، تحريف، صوابه من تاريخ بغداد وابن خلكان.

(٢) كذا في الأصول، وليس في ديوانه؛ ونسبهما ابن خلكان إلى بكر بن النطاح المذكور.

(٣) الأغاني ٢٢٤/٨ (دار الكتب).

فأعطاه أئو دَلَفٍ مائة ألف درهم. ولما بلغت المأمون غضباً شديداً على العكوك، فطلبه فهرب، فاجتهدوا إلى أن جاؤوا به مقيداً، فلما صار بين يديه، قال له: يا بن اللخنة! أنت القائل في مدحك لأبي دلف:

* كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * البيتين.

جَعَلْنَا مِمَّنْ يَسْتَعِيرُ الْمَكَارِمَ مِنْهُ، وَيَفْتَخِرُ بِهَا! فقال: يا أمير المؤمنين، أنتم أهل بيت لا يُقَاسُ بكم؛ لأن الله تعالى اخْتَصَّكُمْ لِنَفْسِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وآتاكم الكتاب والحكم، وإنما ذهبت في شعري لأقران وأشكال أبي دلف، فقال: والله ما أبقيت من أحد، ولقد أدخلتنا في الكل، وما استحل دمك بهذا، ولكن بكفرك في شعرك، حيث قلت في عبد ذليل مهين:

أَنْتَ الَّذِي تُنْزِلُ الْأَيَّامَ مَنْزِلَهَا وَتَنْقُلُ الدَّهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ
وَمَا مَدَدْتَ مَدَى طَرْفٍ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا قَضَيْتَ بِأَرْزَاقٍ وَأَجَالٍ
ذاك هو الله يا كافر! أخرجوا لسانه من قفاه، ففعلوا به ذلك، فمات.

ومن مصنفاته كتاب «البزاة والصيد» وكتاب «السلاح» وكتاب «النزه» وكتاب «سياسة الملوك». وكانت له اليد الطولى في الغناء، وهو مترجم بذلك في كتاب الأغاني^(١).



النضر بن شميل

وذكر أبو عبيدة في كتاب «مثالب أهل البصرة» أنَّ النَّضْرَ بْنَ شَمِيلٍ النَّحْوِيُّ البَصْرِيُّ كَانَ عَالِمًا بِفَنُونٍ مِنَ الْعِلْمِ، صَاحِبَ غَرِيبٍ، وَفَقِيهٍ، وَشَعْرٍ، وَمَعْرِفَةٍ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ، وَرَوَايَةِ الْحَدِيثِ، وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ، فَاتَّفَقَ أَنْ ضَاقَتْ بِهِ الْمَعِيشَةُ، وَرَقَّ حَالُهُ، فَخَرَجَ يُرِيدُ خُرَاسَانَ، فَشِيعَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ رَجُلٍ مَا فِيهِمْ إِلَّا مُحَدِّثٌ أَوْ نَحْوِيٌّ، أَوْ عَرُوضِيٌّ، أَوْ لُغَوِيٌّ، أَوْ إِخْبَارِيٌّ، أَوْ فُقَيْهٍ. فَلَمَّا بَعَدُوا عَنِ الْمَدِينَةِ جَلَسَ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ: يَعْزُّ عَلَيَّ فِرَاقُكُمْ، وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُ كُلَّ يَوْمٍ كَيْلَجَةً^(٢) بِأَقْلَاءٍ مَا فَارَقْتُكُمْ، قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِيهِمْ يَتَكَلَّفُ لَهُ ذَلِكَ الْقَدْرَ الْيَسِيرَ، وَسَارَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى خُرَاسَانَ، فَأَفَادَ بِهَا مَالاً عَظِيماً؛ فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَخَذَ عَلَى حَرْفِ ثَمَانِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ.

وهذه القصة نقلها الحريري صاحب المقامات في كتابه المسمى بـ «درة الغواص

(١) الأغاني ٢٤٨/٨ - ٢٥٧ (دار الكتب).

(٢) الكيلجة: مكيال.

في أوهام الخواصر»، قال: حُكِيَ عَن مُحَمَّدِ بْنِ نَاصِحِ الْأَهْوَازِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ الْمَازَنِيُّ قَالَ:

كُنْتُ أَدْخُلُ عَلَى الْمَأْمُونِ فِي سَمَرِهِ، فَدَخَلْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَعَلَيَّ قَمِيصٌ [مَرْفُوعٌ] ^(١) فَقَالَ: يَا نَضْرُ، مَا هَذَا التَّقَشُّفُ حَتَّى تَدْخُلَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْخُلُقَانِ ^(٢)! قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ وَضَعِيفٌ، وَحَرٌّ مَرَوْ شَدِيدٌ، فَأَتَبَرَّدُ بِهَذِهِ الْخُلُقَانِ، قَالَ: لَا، وَلَكِنَّكَ قَشِيفٌ. ثُمَّ أَجَرْنَا الْحَدِيثَ فَأَجْرَى ذَكَرُ النِّسَاءِ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي هُشَيْمٌ عَنْ مُجَالِيدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لِجَمَالِهَا وَدِينِهَا كَانَتْ سِدَادًا مِنْ عَوْزٍ» بَفَتْحِ السَّيْنِ مِنْ «سِدَادٍ» فَقُلْتُ: صَدَقَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُشَيْمٌ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ ابْنِ أَبِي جَمِيلَةَ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لِدِينِهَا وَجَمَالِهَا كَانَ فِيهِ سِدَادٌ مِنْ عَوْزٍ»، بِكسْرِ السَّيْنِ. قَالَ: وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُتَكِنًا فَاسْتَوَى جَالِسًا، وَقَالَ: يَا نَضْرُ، كَيْفَ قُلْتَ «سِدَادًا»? قُلْتُ: نَعَمْ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ «سِدَادًا» بِالْفَتْحِ هُنَا لَحْنٌ، قَالَ: أَوْ تُلْحِنُنِي! قُلْتُ: إِنَّمَا لَحْنٌ هُشَيْمٍ - وَكَانَ لِحَانَةً - فَتَبَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَفْظَهُ، قَالَ: فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا؟ قُلْتُ: «السِّدَادُ» بِالْفَتْحِ: الْقَصْدُ فِي الدِّينِ وَالسَّيْلِ. «وَالسِّدَادُ» بِالْكَسْرِ: الْبُلْغَةُ، وَكُلُّ مَا سَدَدَتْ بِهِ شَيْئًا فَهُوَ سِدَادٌ. قَالَ أَوْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ هَذَا الْعَرَجِيُّ يَقُولُ:

أَصَاغُونِي وَأَيَّ فَتَى أَصَاغُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ تَغْرِ ^(٣)

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: قَبَّحَ اللَّهُ مَنْ لَا أَدَبَ لَهُ! وَأَطْرَقَ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: مَا مَالُكَ ^(٤)؟ يَا نَضْرُ؟ قُلْتُ: أَرِيسَةُ لِي بِمَرَوْ، قَالَ: أَفَلَا تُفِيدُكَ مَعَهَا مَالًا؟ قُلْتُ: إِنِّي إِلَى ذَلِكَ لَمُحْتَاجٌ.

قَالَ: فَأَخَذَ الْقُرْطَاسَ، وَأَنَا لَا أَذْرِي مَا يَكْتُبُ؛ ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تَقُولُ إِذَا أَمَرْتَ أَنْ تُتْرَبَ؟ قُلْتُ: أَتَرَبُّهُ، قَالَ: فَهُوَ مَاذَا؟ قُلْتُ: «مُتْرَبٌ» قَالَ: فَمَنْ الطِّينُ، قُلْتُ: طِنُهُ، قَالَ: فَهُوَ مَاذَا؟ قُلْتُ: «مَطِينٌ» قَالَ: هَذِهِ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى. ثُمَّ قَالَ: يَا غُلَامُ، أَتَرَبُّهُ [وَطِنُهُ] ^(٥)؟ ثُمَّ صَلَّى بِنَا الْعِشَاءَ، ثُمَّ قَالَ لِغُلَامِهِ: تَبْلُغِ النَّضْرَ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ.

قَالَ: فَلَمَّا قَرَأَ الْفَضْلُ الْكِتَابَ قَالَ: يَا نَضْرُ، إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَمَرَ لَكَ

(١) من ط.

(٢) الخلقان: جمع خلق وهو البالي من الثياب.

(٣) ديوانه: ٣٤.

(٤) كذا في ط، وإنابه الرواة، وفي باقي الأصول: «مالك».

(٥) تكملة من ابن خلكان.

بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فَمَا كَانَ السَّبَبُ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، وَلَمْ أَكْذِبْهُ [شَيْئًا]، فَقَالَ: أَلَحَنْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قُلْتُ: كَلَّا، إِنَّمَا لَحَنَ هُشَيْمٌ، وَكَانَ لِحَانَةً، فَتَبَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَفْظَهُ، وَقَدْ تَتَبَعَ أَلْفَاظَ الْفُقَهَاءِ، وَرَوَاةَ الْأَثَارِ، ثُمَّ أَمَرَ لِي الْفَضْلُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَأَخَذْتُ ثَمَانِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ^(١).

وَيُحْكِي أَنَّ النَّضَرَ بِنَ شُمَيْلٍ مَرَضَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ قَوْمٌ يَعُودُونَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُكْنَى أَبَا صَالِحٍ: مَسَخَ اللَّهُ مَا بِكَ فَقَالَ: لَا تَقُلْ مَسَخَ (بِالسَّيْنِ)، وَلَكِنْ قُلْ: «مَصَخَ» اللَّهُ بِالصَّادِ، أَيْ أَذْهَبَهُ وَفَرَّقَهُ، أَوْ مَا سَمِعْتُ قَوْلَ الْأَعَشَى:

وَإِذَا مَا الْخَمْرُ فِيهَا أَزْبَدَتْ أَقْلَ الْإِزْبَادِ فِيهَا وَمَصَخَ^(٢)

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: إِنَّ السَّيْنَ قَدْ تُبْدَلُ مِنَ الصَّادِ، كَمَا يَقَالُ الصُّرَاطُ، وَالسُّرَاطُ، وَصَقَّرَ وَسَقَّرَ، فَقَالَ لَهُ النَّضَرُ: فَأَنْتَ إِذَا أَبُو سَالِحٍ^(٣)!

قُلْتُ: وَيَشْبَهُ هَذِهِ النَّادِرَةُ مَا حُكِيَ أَنَّ بَعْضَ الْأَدْبَاءِ جَوَّزَ بِحَضْرَةِ الْوَزِيرِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ الْفَرَاتِ أَنَّ تُقَامَ السَّيْنُ مَقَامَ الصَّادِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ، فَقَالَ الْوَزِيرُ: أَتَقُولُ: ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، أَمْ «سَلَحَ» فَخَجَلَ الرَّجُلُ وَانْقَطَعَ.

وَالَّذِي ذَكَرَهُ أَرْبَابُ اللُّغَةِ فِي جَوَازِ إِبْدَالِ الصَّادِ مِنَ السَّيْنِ، أَنَّهُ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ كَانَ فِيهَا سَيْنٌ، وَجَاءَ بَعْدَهَا أَحَدُ الْحُرُوفِ الْأَرْبَعَةِ، وَهِيَ: الطَّاءُ وَالخَاءُ، وَالْعَيْنُ وَالْقَافُ، فَتَقُولُ: الصُّرَاطُ وَالسُّرَاطُ، وَفِي سَخَّرَ لَكُمْ، صَخَّرَ لَكُمْ، وَفِي مَسْعَبَةٍ مَصْعَبَةٍ وَفِي: سَيْقَلٌ صَيْقَلٌ، وَقِسْ عَلَى هَذَا.



خير المدائح

وَنَقُلُ قَاضِي الْقَضَاةِ شَمْسُ الدِّينِ بَنَ خَلْكَانَ فِي تَارِيخِهِ أَنَّ أَبَا جَعْفَرَ أَحْمَدَ بَنَ يَحْيَى الْبَلَادُرِيِّ الْمَوْرُخَ قَالَ: كُنْتُ مِنْ جُلَسَاءِ الْمُسْتَعِينِ فَقَصَدَهُ الشُّعْرَاءُ، فَقَالَ: لَسْتُ أَقْبَلُ إِلَّا مَنْ يَقُولُ مِثْلَ قَوْلِ الْبُخْتَرِيِّ فِي الْمَتَوَكِّلِ:

فَلَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمِنْبَرُ^(٤)

قَالَ الْبَلَادُرِيُّ: فَرَجَعْتُ إِلَى دَارِي وَأَتَيْتُهُ وَقُلْتُ: قَدْ قُلْتُ فِيكَ أَحْسَنَ مِمَّا قَالَهُ الْبُخْتَرِيُّ، قَالَ: هَاتِهِ، فَأَنْشَدْتُهُ:

وَلَوْ أَنَّ بُرْدَ الْمُصْطَفَى إِذْ لَبِسَتْهُ يَظُنُّ لَظَنَّ الْبُرْدُ أَنَّكَ صَاحِبُهُ

(١) الخبر في درة الغواص ٨، وابن خلكان ١٦١/٢، ١٦٢، وإنباه الرواة ٣/٣٥٠.

(٢) ديوانه: ٣٥.

(٣) إنباه الرواة ٣/٢٥١.

(٤) ديوانه: ٢١٢/١.

وَقَالَ وَقَدْ أُعْطِيَتْهُ وَلَيْسَتْهُ نَعَمْ هَذِهِ أَعْطَاهُ وَمَنَاكِبُهُ
فَقَالَ: ارجع إلى منزلك، وافعل ما أَمَرَك به، فرجعت. فبعث إليّ سبعة آلاف
دينار، وقال: ادْخِرْ هذه للحوادث من بعدي، ولك الجِرائَةُ والكِفَايَةُ [ما دُمْتُ حَيًّا]^(١).
ويعجبني من المدائح الرافلة في حُلِّ الحِشْمَةِ قول هبة الله الأسطرابي:

أَهْدِي لِمَجْلِسِهِ الْكَرِيمِ وَإِنَّمَا أَهْدِي لَهُ مَا حُزْتُ مِنْ نَعْمَائِهِ
كَالْبَحْرِ يُمِطُّهُ السَّحَابُ وَمَالَهُ فَضْلٌ عَلَيْهِ لَأَنَّهُ مِنْ مَائِهِ
ومثله قول القاضي الفاضل، وقد كتب به إلى وزير بغداد:

يَأْتِيهَا الْمَوْلَى الْوَزِيرُ وَمَنْ لَهُ مِنْ حَلَلَنْ مِنَ الزَّمَانِ وَثَاقِي
مَنْ شَاكَرَ عَنِّي نَدَاكَ فَإِنِّي مِنْ عَظْمٍ مَا أَوْلَيْتَ ضَاقَ يَطَاقِي!
مِنْ تَخَفْتُ عَلَى يَدَيْكَ وَإِنَّمَا ثَقُلْتُ مَوَوْنَتُهَا عَلَى الْأَعْنَاقِ



ترسل القاضي الفاضل

قلت: كان نظم القاضي الفاضل رحمه الله ونثره كَفَرَسَي رِهَان، ولكن نثره أكثر
مما نظمه. وأجمع الناس أنه أتى مع الإكثارِ بالعجائب. وذكر قاضي القضاة
شمس الدين بن خلّكان في تاريخه أن مُسَوِّدَاتِ رسائله إذا جُمِعَتْ ما تَقْصُرُ عن مائة
مجلد، وهو مُجِيدٌ في أكثرها، ولعمري إِنَّ الإنشاء الذي صدر في الأيام الأموية
والأيام العباسية نُسِيَّ وألْغِيَ بإنشاء الفاضل، وما اخترعه من النكت الأدبية، والمعاني
المختصرة، والأنواع البديعية، والذي يُؤَيِّدُ قولِي قولُ العماد الكاتب في الخريدة: إنه
في صناعة الإنشاء كالشريعة المحمّدية نسخت الشرائع^(٢).

ومن غرر نثره هذه الرسالة التي أنشأها في حمائم الرسائل، وسحب فيها ذيل
البلاغة والفصاحة على سخبان وائل؛ وهي: سَرَحَةٌ لا تزال أجنحتها^(٣) تحملُ من
البطائق أجنحة، وتُجَهِّزُ^(٤) جيوش المقاصد والأقلام أسلحة، وتحمل من الأخبار ما
تَحْمِلُهُ الضمائر، وتَطْوِي الأرض إذا نَشَرَتْ الجناح الطائر، وتَزْوِي^(٥) لها الأرض حتى
تَرَى ما سيبلغه ملك هذه الأمة، وتَقْرُبُ منها السماء حتى ترى ما لا يبلغه وهم ولا

(١) من ب، ج، د وابن خلّكان، والخبر فيه في ١٧٦/٢.

(٢) ابن خلّكان ١/٢٨٤.

(٣) أ: «بضمها».

(٤) ب: «وتحرص».

(٥) تزوي: تتجمع.

هِمَّةً، وتكون مراكبُ الأغراض والأجنحة قلوغاً، وتركب الجوّ بحراً تصفق فيه هبوب الرياح موجاً مرفوعاً، وتعلّق الحاجات على أعجازها، ولا تعوق الإيرادات عن إنجازها، ومن بلاغات البطائق استفادت ما هي مشهورة به من السّجع، ومن رياض كتبها ألفُ الرّياض فهي إليها دائمة الرّجع، وقد سكنت التّجوم فهي أنجم، وأعدت في كنانتها فهي للحاجات أسهم، وكادت تكون ملائكة لأنها رسل وإذا أنيطت بالزّقاع، صارت أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وقد باعد الله بين أسفارها وقربها، وجعلها طيّف خيال اليقظة الذي صدق العين وما كذبها، وقد أخذت عهداً أداء الأمانة في رقبها أطواقاً، وأدنت من أذنانها أوراقاً، وصارت خوافي من وراء الخوافي، وأعطت سرّها المودع بكتمانٍ سحبت عليه ذيول ريشها الضّوافي، ترغم أنف النّوى بتقريب العهود، وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ نجم السّعود، وهي أنبياء الطيور لكثرة ما تأتي به من الأنباء، وخطباؤها، لأنها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء.



ومن غريب المنقول

أنني حضرت [في]^(١) بعض الليالي على جانب النيل المبارك، في خدمة مولانا المقرّ الأشرف المرحوم القاضوي الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة، كان تغمّده الله تعالى بالرحمة والرضوان وبيده الكريمة جزء من تذكرة الشيخ صلاح الدين الصفدي بخطه رحمه الله، وهذه الرسالة في أول الجزء فشرع في قراءتها، وكثرها مراراً وهو يترنم في بديعها وغريبها، ورسم في غضون^(٢) ذلك لي بمعارضتها، فلم أجد بداً من الشروع في هذا الالتزام الواجب، وأوترت قوس العزم مطمئناً بهذا الرأي الصائب، وقد أوصلت هنا شمل القطعتين، ليتفكّه^(٣) المتأمل في جنى الجنّتين، ويتنزه نظره في حقائق الروضتين، ويطربه^(٤) سجع حمائم الدّوحتين.

قلت: شرح فما سرّ العيون إلّا دون رسالته المقبولة، وطلب السبق فلم يرض مفرق البرق سرجاً ولا استطلّى صفحته المضقولة، وهمز جواد التّسيم فقصر، وأمسّت أذياله بعرق الشّحب مبلولة، وأرسل فأقرّ الناس برسالته وكتابه المصدق، وانقطع كوكب الصبح خلفه فقال: عند التقصير كنت نجّاباً، وعلى يدي مخلّقي يؤدّي ما جاء

(١) تكملة من ج، ط.

(٢) ط: «أثناء».

(٣) ب: «يتنزه»، ج، ط «لي تأمل».

(٤) ب، ج، ط: «ويطرب بسجع الحمائم».

على يده من الترسل فيهبج الأشواق، وما برحت الحمايم تُحسِن الأداء في الأوراق، وصحبناه على الهدى فقال: «ما ضلَّ صاحبُكم وما غوى»، ومن روى عنه حديث الفضل المسند فعن عكرمة قد روى، يطير مع الهواء لفرط صلاحه، ولم يبقَ على السر المصون جناح إذ دخل تحت جناحه، إن برز من مقفصه لم يبقَ لطرح البرد قيمة، بل يتغزل بتدبيج أطواقه^(١)، وتعلق عليه من العين تلك التهمة ما سُجن إلا صبر على السُجن وضيق الأطواق، ولهذا حُمِدَت عاقبته^(٢) على الإطلاق، ولا غنى على عود إلا أسال دموع الندى من حدائق الرياض، ولا أُطْلِقَ من كبد الجو إلا كان سهماً مريشاً تُبلِّغ به الأغراض، كم علا فصار بريش القوادم كالأهداب لعين الشمس، وأمسى عند الهبوط لعين الهلال التعلية كالطمس، فهو الطائر الميمون والغاية السبابة، والأمين الذي إذا أودع أسرار الملوك حملها بطاقة، فهو من الطيور التي خلا لها الجو فتقرت ما شاءت من حبات التجوم، والعجماء التي من أخذ عنها شرح المعلقة فقد أعرب عن دقائق الفهوم، والمقدمة والنتيجة لكتاب الحجل في منطق الطير، وهي من جملة الكتاب الذي إذا وصل القارئ منه إلى الفتح تهلل بفاتحة الخير، وإن تصدر البارزي بغير علم فكم جمعت بين طرفي كتابه، وإن سألت العقبان عن بديع السجع أخرجمت عن ردّ الجواب نعم^(٣).

رعت السُور بقوة جيف الفلا ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف ما قدمت إلا وأرتنا^(٤) من شمائلها اللطيفة نغم القادمة، وأظهرت لنا من خوافيها ما كانت له خَيْرَ كاتمة، كم أهدت من مخلقها وهي غادية رائحة، وكم حنّت إليها الجوارح وهي أدام الله إطلاقها غير جارحة، وكم أدارت من كؤوس السجع ما هو أرق من قهوة الإنشاء، وأبهج على زهر المنشور من صبح الأعشى، وكم عامت بحور الفضاء ولم تحفل بموج الجبال، وكم جاءت ببشارة وخضبت الكف ورمت من تلك الأنملة قلامة الهلال، وكم زاحمت التجوم بالمناكب حتى ظفرت بكف الخضيب، وانحدرت كأنها دمة سقطت على خد الشفق لأمر مريب، وكم لمع في أصيل الشمس خضاب كفها الوضاح، فصارت بسموها وفرط البهجة كمشكاة فيها مصباح، والله تعالى يديم بأفنان أبوابه العالية ألحان السواجع، ولا برح تغريدها مطرباً بين البادي والراجع.



(١) ط: «أوراقه».

(٢) ط: «عواقبه».

(٣) كذا في ب. وفي ط: «شعر».

(٤) ط: «وأورثتنا».

موفق الدين بن الخلال

وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الجزري في كتابه المسمى بـ «الوشى المرقوم في حل المنظوم»، قال: حدثني الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني بمدينة دمشق سنة ثمان وثمانين وخمسمائة للهجرة، وكان إذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية أن فن الإنشاء كان في زمن الدولة العلوية غصاً، وكان ديوان الإنشاء لا يخلو من رئيس يرأس مكاناً وبياناً، وكان إذا أنشأ أقام السلطان بإنشائه سلطاناً، وكان من العادة أن كلاً من أرباب البيوت إذا نشأ له ولد أخضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة، ويتدرّب ويسمع، فأرسلني والدي - وكان إذ ذاك قاضياً بشعر عسقلان - إلى الديار المصرية في أيام الحافظ العبيدي وهو أحد خلفائها، فدخلت ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام وهو صاحب الإنشاء بمصر موفق الدين أبو الحجاج يوسف المعروف بابن الخلال، فلما مثلت بين يديه، وعرفته من أنا، وما طلبني، رحب بي، ثم قال: ما الذي أعذدت لفن الإنشاء وكتابته؟ فقلت: ليس عندي سوى أنني أحفظ القرآن الكريم وكتاب «الحماسة»، فقال: في هذا بلاغ. ثم أمرني بملازمته، فلما ترددت إليه، وتدرّبت عليه، وطال تدريبي بين يديه، أمرني أن أحل عليه ديوان الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرة أخرى، فحللته. انتهى ما ذكره ابن الأثير.

قلت: وقال عماد الدين الكاتب في كتاب «الخريدة» في حق موفق الدين بن الخلال، كان فن الترسل والإنشاء آل إليه، وكان في ذلك ناظر ديوان مضر وإنسان ناظره، وقبلته وجامع مفاخره^(١).

قلت: الذي ثبت وتقرر عند المؤرخين وعلماء هذا الفن أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أخذ علم الإنشاء وحكمه عن موفق الدين بن الخلال منشئ الخليفة الحافظ العلوي، ورتبته في الإنشاء معلومة، ولكن جئحت إلى الوقوف على شيء من نظمه لأنظر في الرئبتين، كما قررت ذلك في نظم القاضي الفاضل ونثره، فوجدت قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان رحمه الله، قد أورد له في تاريخه^(٢) نظماً ونثراً دلني على أن نظمه ونثره رضيعا لبان، وقرسا رهان.

فمن ذلك قوله في الشمعة ولله ذره حيث أجاد^(٣):

وصحيحة بيضاء تطلّع في الدجى صبحاً وتشفي الناظرين بدائها

(١) خريدة القصر (قسم شعراء مصر) ٢٣٥/١.

(٢) ابن خلكان ٤٠٧/٢ - ٤٠٩.

(٣) الخريدة: ٢٣٦/١.

شَابَتْ ذَوَائِبُهَا أَوَانَ شَبَابِهَا وَاسْوَدَّ مَفْرِقُهَا أَوَانَ فَنَائِهَا
كَالْعَيْنِ فِي طَبَقَاتِهَا وَدُمُوعِهَا وَسَوَادِهَا وَبَيَاضِهَا وَضِيَائِهَا
وَلَهُ أَيْضًا:

وَأَعْنَى سَيْفٌ لِحَاطِظِهِ يَفْرِي الْحَسَامَ بِحَدِّهِ^(١)
عَجَبُ الْوَرَى لَمَّا جَنَّه تَ وَقَدْ فَنَيْتَ بِبُغْدِهِ
وَبَقَاءُ جَسْمِي نَاجِلًا يَضْلَى بِوَقْدَةِ صَدِّهِ
كَبَقَاءِ عُنْبَرِ خَالِهِ فِي نَارِ صَفْحَةِ خَدِّهِ



نادرة

كتب عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى عَدِيٍّ بنِ أَرْطَاطَ أنْ أجمعَ بينَ إِيَّاسَ بنِ معاويةَ والقاسمِ بنِ رَبِيعَةَ قَوْلَ الْقَضَاءِ أَفْقَهُمَا، فجمعَ بينهما، فقالَ له إِيَّاسُ: أَيُّهَا الرَّجُلُ؛ سَلْ عَنِّي وَعَنْهُ فَقِيهَيِ الْمِصْرِ: الْحَسَنَ وَابْنَ سِيرِينَ، وَكَانَ الْقَاسِمُ يَأْتِيهِمَا، وَإِيَّاسُ لَا يَأْتِيهِمَا. فَفَهِمَ الْقَاسِمُ أَنَّهُ إِنْ سَأَلَهُمَا عَنْهُ أَشَارَا بِهِ. فَقَالَ لَهُ: لَا تَسَلْ عَنِّي وَلَا عَنْهُ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّ إِيَّاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ أَفْقَهُ مِنِّي، وَأَعْلَمَ مِنِّي بِالْقَضَاءِ، فَإِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَمَا عَلَيْكَ أَنْ تَوَلِّينِي وَأَنَا كَاذِبٌ، وَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا فَيَنْبَغِي أَنْ تَقْبَلَ قَوْلِي. فَقَالَ لَهُ إِيَّاسُ: إِنَّكَ جِئْتَ بِرَجُلٍ وَقَفْتَ بِهِ عَلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ، فَجِئْتَ نَفْسَهُ مِنْهَا بِمِمينَ كَاذِبَةٍ يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا، وَيَنْجُو مِمَّا يَخَافُ، فَقَالَ لَهُ عَدِيٌّ: أَمَّا إِذْ فَهِمْتَهَا فَأَنْتَ لَهَا أَهْلٌ، فَاسْتَقْضَاهُ^(٢).



نادرة لطيفة

نَقَلَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي «الْعِقْدِ» أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ زَارَ مُعَاوِيَةَ فِي الشَّامِ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ عِنْدِهِ دَخَلَ عَلَى الْإِمَامِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ: أَجِدْنَا. قَالَ: مَا أَصَبْنَا شَيْئًا فَتُجَدِّدُكَ، فَأَخَذَ الْإِمَامُ عُمَرَ خَاتَمَهُ فَبَعَثَ بِهِ إِلَى هِنْدَ، وَقَالَ لِلرَّسُولِ: قُلْ لَهَا: يَقُولُ لَكَ أَبُو سُفْيَانَ أَنْظِرِي الْخُرَجِينَ الَّذِينَ جِئْتَ بِهِمَا مِنْ عِنْدِ مُعَاوِيَةَ فَأَخْضِرِيهِمَا. فَلَمْ يَلْبَثْ عُمَرُ أَنْ أَتَى بِالْخُرَجِينَ فِيهِمَا عَشْرَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ، فَأَلْقَاهَا عُمَرُ فِي بَيْتِ الْمَالِ.

فَلَمَّا وَلِيَ عِثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَرَادَ رَدَّهَا إِلَيْهِ، قَالَ: مَا كُنْتُ لَأَخْذَ مَا لَا عَابَةَ عُمَرَ عَلَيَّ، وَاللَّهِ إِنْ بَنَّا إِلَيْهِ لِحَاجَةً، وَلَكِنْ لَا تَرُدُّ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ فَيَرُدُّ عَلَيْكَ مِنْ بَعْدِكَ^(٣).

(١) خريدة القصر ١/ ٢٣٥، ٢٣٦.

(٢) سرح العيون ١٤٢، ١٤٣.

(٣) العقد ١/ ٥٨.

استنجاز المواعيد

قلت: وما ظنك بشيء قد جعله الله في كتابه العزيز مدحة وفخراً لأنبيائه؟ فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، ولو لم يكن في خلف الوعد إلا قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] لكفى.

وقال عمر بن الحارث: كانوا يفعلون ولا يقولون، فصاروا يقولون ولا يفعلون، ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون، فزعم أنهم ضنوا بالكذب فضلاً عن الصدق.

ويعجبني قول العباس بن الأخنف:

لو كان عللني بوعد كاذب^(١) ما ضر من شغل الفؤاد ببخله
صبراً عليك فما أرى لي حيلة
إلا التمسك بالرجاء الخائب
سأموث من مظل وتبقى حاجتي
فيما لديك ومالها من طالب
وذكر حيّان بن سليمان عامر بن الطفيل، فقال: والله كان إذا وعد الخير وفى، وإذا وعد الشر أخلف، وهو القائل:

ولا يزهب ابن العم ما عشت صولتي
وإنني وإن أوعدته أو وعدته
ويأمن مني صولة المتهدد^(٢)
لمخلف إيعادي ومنجز مواعيدي
وقال ابن خازم:

إذا قلت عن شيء نعم فأتيمه
وإذا فقل «لا»، تسترخ وتريح بها
فإن «نعم» دين على الحر واجب
لئلا يظن الناس أنك كاذب
ويعجبني قول عبد الصمد الرقاشي في خالد بن ديسم عامل الرّي، وقد أبطأ عليه بوعده:

أخالد إن الرّي قد أجحفت بنا
وقد أطمعنا منك يوماً سحابة
وضاق علينا رخبها ومعاشها^(٣)
أضاءت لنا بزقاً وأبطأ رشاشها
ولا ودقها يهمي فيروى عطاشها
فلا غيمها يضحو فيرجع طامع
ومن البلاغة المُرْقِصَة في هذا الباب خطاب كوثر بن زُفر وقد وعده يزيد بن

(١) البيت الأول في عيون الأخبار ١٤٦/٣.

(٢) عيون الأخبار ٣: ١٤٤ والبيت الثاني في اللسان «وعد».

(٣) عيون الأخبار ٣: ١٤٥.

المهلب وأبطأ بوعده وهو: أصلح الله الأمير! أنت أعظم من أن يُستعان بك أو يُستعان عليك، ولست تفعل من الخير شيئاً إلا وهو يصغر عنك، وأنت أكبر منه^(١) وليس العجب أن تفعل، ولكن العجب ألا تفعل.

وقيل: إن يزيد بن المهلب لما سمع هذا الخطاب البليغ، مال سكرًا وطربًا، وقال له: سل حاجتك، قال: حملت من عشيّرتي عشر ديات، قال: قد أمرت لك بها، وشفعتها بمثلها.

ويعجبني قول بعضهم: أما بعد، فإن شجرة وعدك قد أورقت، فليكن ثمرها^(٢) سالمًا من جوائح المطل. والسلام.



لطيف الاستماتح

قال الحكماء: لطيف الاستماتح سبب النجاح، والأنفس^(٣) ربما انطلقت وانشرحت بلطيف السؤال، وانقبضت وامتنعت بجفاء السائل. والله درّ القائل:

إنّ الكريم أخا المودة والنهي من ليس في حاجاته بمثقل
دخل عبد الملك بن صالح على الرشيد فقال له: أسألك بالقرابة والخاصة أم أسألك بالخلافة والعامة؟ فقال: بل بالقرابة والخاصة. فقال: يا أمير المؤمنين، يداك بالعطية أطلق من لساني. فأجزل عطيته.

ووقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة، فقالت: أشكو إليك قلة الجرذان، فقال: ما أحسن هذه الكناية! إملأوا لها بيتها لحماً، وخبزاً وسمناً.



نادرة لطيفة

كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل متكئاً، وكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث، فلما أفضت إليه الخلافة قدّم أزهر عليه فرحب به، وقرّبه، وقال: ما حاجتك يا أزهر؟ فقال: يا أمير المؤمنين، داري متهدمة، وعليّ أربعة آلاف درهم، وأريد أزوّج ابني محمداً. فوصله بأثني عشر ألف درهم، وقال: قد قضينا حاجتك يا أزهر، فلا تأتينا بعد هذا طالباً. فأخذها وارتحل.

(١) ط: «وأنت تكبر عنه»

(٢) ط: «وعدها»

(٣) «والنفس».

فلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَنَةٍ، أَتَاهُ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ: مَا جَاءَ^(١) بِكَ يَا أَزْهَرُ؟ فَقَالَ: جِئْتُ مُسَلِّمًا. فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، بَلْ جِئْتَ طَالِبًا، وَقَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِأَثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، فَلَا تَأْتِنَا طَالِبًا وَلَا مُسَلِّمًا، فَأَخَذَهَا وَمَضَى.

فلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَنَةٍ، أَتَاهُ فَقَالَ: مَا حَاجَتُكَ يَا أَزْهَرُ؟ قَالَ أَتَيْتُ عَائِدًا، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ بَلْ جِئْتَ طَالِبًا، وَقَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِأَثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، فَادْهَبْ وَلَا تَأْتِنَا بَعْدُ طَالِبًا وَلَا مُسَلِّمًا وَلَا عَائِدًا، فَأَخَذَهَا وَأَنْصَرَفَ.

فلَمَّا مَضَتْ السَّنَةُ، أَقْبَلَ فَقَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ يَا أَزْهَرُ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ دُعَاءُ كُنْتُ أَسْمَعُكَ تَدْعُو بِهِ، جِئْتُ لِأَكْتُبِهِ. فَضَحِكَ أَبُو جَعْفَرٍ، وَقَالَ: الدُّعَاءُ الَّذِي تَطْلُبُهُ غَيْرُ مُسْتَجَابٍ. فَإِنِّي دَعَوْتُ اللَّهَ بِهِ أَلَّا أُرَاكَ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي، وَقَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِأَثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَتَعَالَ إِذَا شِئْتَ، فَقَدْ أَعَيْتَنَا الْحِيلَةَ فَيْكَ.

وَدَخَلَ رَجُلٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ عَلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدِ بْنِ بَزْمَكٍ، فَأَنْشَدَهُ:

سَأَلْتُ التَّدَى هَلْ أَنْتَ حُرٌّ فَقَالَ لَا وَلَكِنِّي عَبْدٌ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ
فَقُلْتُ: شِرَاءٌ؟ قَالَ: لَا، بَلْ وَرَاثَةٌ تَوَارَثَنِي مِنْ وَالِدٍ بَعْدَ وَالِدٍ
فَأَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ.



أَجْوَادُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ

أَجْوَادُ الْجَاهِلِيَّةِ الَّذِينَ انْتَهَى إِلَيْهِمُ الْجَوْدُ ثَلَاثَةٌ نَفَرٌ: حَاتِمُ بْنُ عَدِيٍّ الطَّائِي، وَهَرِمُ بْنُ سِنَانَ الْمُزْنِي، وَكَعْبُ بْنُ مَامَةَ الْإِيَادِي.

وَلَكِنَّ الْمَضْرُوبَ بِهِ الْمَثْلُ حَاتِمٌ وَحْدَهُ، وَكَانَ إِذَا اشْتَدَّ الْبَرْدُ، وَكَانَ^(٢) الشِّتَاءُ أَمْرٌ غَلَامُهُ فَأَوْقَدَ نَارًا فِي بَقَاعِ الْأَرْضِ، لِيَنْظُرَ إِلَيْهَا مِنْ ضُلٍّ^(٣) الطَّرِيقَ لَيْلًا فَيَبَادِرُ إِلَيْهَا؛ وَهُوَ الْقَائِلُ لَغَلَامِهِ يَسَارُ:

أَوْقَدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرٌّ وَالرَّيْحُ يَا مُوقِدُ رِيحٍ صَرٌّ
حَتَّى يَرَى نَارَكَ مَنْ يَمُرُّ إِنْ جَلَبَتْ ضَيْفًا فَأَنْتَ حُرٌّ
وَأَمَّا هَرِمُ بْنُ سِنَانَ فَهُوَ صَاحِبُ زُهَيْرٍ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ^(٤)

وَأَمَّا كَعْبُ بْنُ مَامَةَ الْإِيَادِي، فَلَمْ يَأْتِ لَهُ إِلَّا مَا ذَكَرْتُ عَنْهُ مِنْ إِثَارِهِ رَفِيقَهُ السَّعْدِي

(٣) ط: «لِيَنْظُرَ إِلَيْهَا الْمَارَ لَيْلًا».

(٤) ديوانه ١٤٢.

(١) ط: «مَا حَاجَتُكَ»

(٢) ط: «وَكَلْب»

بالماء، حَتَّى مَاتَ عطشاً، ونجا السَّعْدِيُّ. وناهيك بهذا الكرم الَّذي ما سُبِقَ إليه.



أجواد العرب في الإسلام

وأما أجواد الإسلام فأحد عَشَرَ رَجُلًا في عصر واحد بعضهم قريب من بعض [ولم يكن في زمنهم ولا بعدهم مثلهم]^(١).

وأما أجواد الحجاز فثلاثة في عصر واحد؛ وهم عبيد الله بن العباس، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن العاص. وأجواد أهل البصرة خمسة في عصر واحد؛ وهم عبد الله بن عامر، وعبد الله بن أبي بكر مولى رسول الله ﷺ، وسالم بن زياد، وعبيد الله بن مَعْمَر القُرَشِيُّ التِّيمِيُّ، وطلحة الطُّلحات، وهو طلحة بن خالد الخُزَاعِيُّ. وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد؛ وهم: عتاب بن ورقاء الرَّبَاحِيُّ، وأسماء بن خارجة، وعُكْرَمَةُ الْفَيَاض.

فمن جود عبيد الله أنه أول من فَطَّرَ جيرانه، وأول من وضع الموائد على الطَّرِيق. ومن جوده أن أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، وقال: يا بن عباس، إنَّ لي عندك يداً، وقد احتجت إليها. فصعد فيه بصره وصوبه فلم يعرفه، فقال له: ما يدك عندنا؟ قال له: رأيتك واقفاً بزمزم، وغلارك يملأ لك من مائها، والشمس قد صهرتك فَظَلَّلْتُكَ بطرف كسائي حتى شَرِبْتُ، فقال: أجل [إنِّي]^(٢) لأذكر ذلك: ثم قال لغلामه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم. قال: ادفعها إليه، وما أراها تَفِي بحقَّ يده عندنا. فقال له الرجل: والله لو لم يَكُنْ لإسماعيل ولد غيرك لكان فيك كفاية، فكيف وقد ولد سيّد الأولين والآخرين^(٣)، ثم شَقَّ بك وبأبيك^(٤)!

ومن جوده أيضاً: أنَّ معاوية حبس عن الحسين بن علي بن أبي طالب^(٥) رضي الله عنه صلّاته حتى ضاقت عليه، ف قيل له: لو وَجَّهْتَ إلى ابن عمِّك عُبيد الله بن العباس لكفأك، وقد قَدِمَ بنحو ألف ألف! قال الحسين: فما مقدارها عنده! والله إنَّه لأجود من الرِّيح إذا عصفَتْ، وأسحَى من البحر إذا زَخَرَ، ثم وَجَّهَ إليه رسوله بكتاب ذكر فيه حَبَسَ معاوية عنه صلّاته، وضيَّقَ حاله، وأنَّه يحتاج إلى مائة ألف. فلمَّا قرأ عُبيد الله كتابه - وكان أرقَّ النَّاس قلباً، وألْيَنَهُمْ عِطْفاً - انْهَمَلَتْ عيناه، ثم قال: ويلك

(١) تكلمة من ب.

(٢) تكلمة من ب، ط

(٣) ط: «سيد المرسلين»

(٤) «وبأخيك».

(٥) تكلمة من ب.

يا معاوية! تكون لَيْنَ المِهاد، رفيع العِماد، والحسين يشكو ضَعَفَ الحال، وكثرة العيال! ثم قال لَقَهْرَمَانِه: احوِلْ إلى الحسين نصف ما نملكه من فضة وذهب ودابة، وأخبره أَنِّي شاطرته، فَإِنْ أَقْنَعَهُ ذَلِكَ وَإِلَّا فارجع، واحمل إليه الشَّطْر^(١) الآخر. قال: فلَمَّا وصل الرسول إلى الحسين، قال: إِنَّا لِلَّهِ! ثَقُلْتُ واللَّهِ على ابن عَمِّي، وما ظَنَنْتُ أَنَّهُ يَتَّسِعُ لنا بهذا كله، فأخذ الشَّطْر من ماله، وهو أَوَّل من فعل هذا في الإسلام.

ومن جوده أيضاً أن مُعاوية أهدى إليه وهو عنده في شهر من هدايا التَّوروز خللاً كثيرة، ومِسْكَاً، وآنيَةً من ذهب وفضة، ووجَّهها إليه مع حاجبه، فلَمَّا وَضَعَهَا بين يديه، نظر إلى الحاجب وهو يُطِيل النَّظْرَ فيها، فقال: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم، واللَّهِ إِنَّ في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف، فَضَحِكَ عبيدُ اللّهِ، فقال: فَشَأْنُكَ بها، فهي لَكَ. قال: جَعَلْتُ فداكَ [وَأَنَا]^(٢) أخاف أن يبلغَ ذلك معاوية، فيغضب [لذلك]^(٣)، قال فاخْتِمَهَا بخاتِمِكَ، وادفعها إلى الخازن، فهو يحملها إليك ليلًا. فقال الحاجب: واللَّهِ إِنَّ هذه الحِيلة في الكرماء أَكْثَر من الكرم، وَلَوْدِدْتُ أَلَّا أَمُوتَ حتى أراك مكانه - يعني معاوية - فَظَنَّ عُبَيْدُ اللّهِ أَنَّهَا مَكِيدَةٌ منه، فقال: دع هذا الكلام، فَإِنَّا ^(٣) «قومٌ نَفِي بما عهدنا»^(٣)، ولا نَقْضُ ما أَكْذَبْنَا.

وقال له رجل من الأنصار: جُعِلْتُ فِداكَ، واللَّهِ لو سَبَقَتْ حَاتِمًا بيوم ما ذَكَرْتُهُ الْعَرَبُ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ عَفْوَ جُودِكَ أَكْثَرُ من مَجْهُودِهِ، وَطَلَّ صَوْنُكَ أَكْثَرُ من وَابِلِهِ.

ومن جود عبد الله بن جعفر أن عبد الرحمن^(٤) بن أبي عُمارة دخل على نَخَّاسٍ يعْرِضُ قِيَانًا لِلْبَيْعِ فشغفه حُبُّ واحدةٍ منهم، ولم يكن له جَدَّةٌ يَتَوَصَّلُ بها إلى المشتري، فشَبَّبَ بِذِكْرِهَا حتى مشى إليه عطاءً وطاووس ومجاهد، يعذِّلونه [في ذلك]^(٥)، فكان جوابه أن قال:

يَلُومُنِي فِيكَ أَقْوَامٌ أَجَالِسُهُمْ فما أَبَالِي أَطَارَ اللَّوْمُ أَمْ وَقَفَا!

فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر، فلم يكن له هَمٌّ غيره، فحجَّ وبعث إلى مَوْلَى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم، وأمر قَيْمَةَ جواريه أن تُزَيِّنَهَا وَتُحْلِيَهَا، ففعلت. وبلغ الناس قُدُومَهُ، فدخلوا عليه، فقال: ما لي لا أَرَى ابنَ عُمارة زائرًا! فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ، فَاتَى مُسَلِّمًا، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَنْهَضَ اسْتَجْلَسَهُ، ثم قال: ما فَعَلَ بِكَ حُبُّ

(١) ط: «النصف».

(٢) تكملة من ط.

(٣) ب، ط: «فأنا من قوم نفي بما عهدنا».

(٤) ط: «عبد الله».

(٥) تكملة من ب، ط.

فلانة؟ قال: حُبُّها في اللَّحْمِ والدَّمِ والمُخِّ والعَصَبِ. قال: أَتَعْرِفُهَا إِنْ رَأَيْتَهَا؟ قال: لو أُدْخِلْتَ الْجَنَّةَ لَمْ أَنْكَرْهَا، فَأَمَرَهَا عَبْدُ اللَّهِ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ، وقال له: إِنَّمَا اشْتَرَيْتُهَا لَكَ، ووالله ما دَبْتُ مِنْهَا، فَشَأْنُكَ بِهَا، بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، فَلَمَّا وَلَّى، قال: يَا غَلامَ، احْمِلْ إِلَيْهِ^(١) مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ. قال: فَبَكَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وقال: يَا أَهْلَ الْبَيْتِ، لَقَدْ خَصَّكُمْ اللَّهُ بِشَرَفٍ مَا خَصَّ بِهِ أَحَدًا مِنْ صُلْبِ آدَمَ، فَهَنَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذِهِ النُّعْمَةِ، وَبَارَكَ لَكُمْ فِيهَا.

ولقد تقرر أن أجواد الإسلام أَحَدَ عَشَرَ جَوَادًا، ذَكَرْتُ مِنْ جُودِ بَعْضِهِمْ مَا تيسَّرَ. وقال صاحب العقد: إِنَّهُ جَاءَ بَعْدَهُمْ طَبَقَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ الطَّبَقَةُ الثَّانِيَّةُ؛ فَمِنْهُمْ الْحَكَمُ بْنُ حَنْطَبٍ، قِيلَ: سَأَلَهُ أَعْرَابِيٌّ فَأَعْطَاهُ خَمْسَ مِائَةِ دِينَارٍ فَبَكَى الْأَعْرَابِيُّ، فَقَالَ لَهُ: لَعَلَّكَ اسْتَفْلَلْتَ مَا أَعْطَيْتُكَ! فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، وَلَكِنِّي أَبْكِي لِمَا تَأْكُلُ الْأَرْضُ مِنْكَ، ثُمَّ أَنْشَدَ:

فَكَأَنَّ آدَمَ حِينَ قَرَبَ وَفَاتِهِ أَوْصَاكَ وَهُوَ يَجُودُ بِالْحَوْبَاءِ^(٢)
بِبَنِيهِ أَنْ تَرْعَاهُمْ فَرَعَيْتَهُمْ وَكَفَيْتَ آدَمَ عَيْلَةَ الْأَبْنَاءِ

وَحُكِّيَ عَنِ الْعُتْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ مَثِيجٍ، قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا الْحَكَمُ بْنُ حَنْطَبٍ وَهُوَ مُمْلِقٌ فَأَغْنَانَا، فَقُلْتُ: وَكَيْفَ أَغْنَاكُمْ وَهُوَ مُمْلِقٌ؟ فَقَالَ: عَلَّمَنَا الْمَكَارِمَ فَعَادَ غَنِينَا عَلَى فَقِيرِنَا^(٣).

وَمِنْهُمْ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ، يُقَالُ فِيهِ: حَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرْجَ، وَحَدَّثَ عَنْ مَعْنٍ وَلَا حَرْجَ. أَتَاهُ رَجُلٌ يَسْتَحْمِلُهُ فَقَالَ: يَا غَلامَ، أَغْطِهِ فِرْسًا وَبِرْذُونًا وَبَغْلًا، وَغَيْرًا، وَبَعِيرًا، وَجَارِيَةً، وَلَوْ عَرَفْتُ مَرْكُوبًا غَيْرَ هَذَا لَأَعْطَيْتُكَ.

وَمِنْهُمْ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ، قِيلَ: كَانَ هِشَامُ بْنُ حَسَّانٍ إِذَا ذَكَرَهُ قَالَ: وَاللَّهِ كَانَتْ السُّفُنُ تَجْرِي فِي بَحْرِ جُودِهِ، حَكَى الْأَصْمَعِيُّ: أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى يَزِيدٍ قَوْمٌ مِنْ قُضَاعَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ:

وَاللَّهِ مَا نَدْرِي إِذَا مَا فَاتَنَا طَلَبَ إِلَيْكَ مَنْ الَّذِي نَتَطَلَّبُ
وَلَقَدْ ضَرَبْنَا فِي الْبِلَادِ فَلَمْ نَجِدْ أَحَدًا سِوَاكَ إِلَى الْمَكَارِمِ يُنْسَبُ
فَاضْبِرْ لِعَادَتِكَ الَّتِي عَوَّدْتَنَا أَوْ لَا، فَأَرْشِدْنَا إِلَى مَنْ نَذْهَبُ
فَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ^(٤).

(١) كَذَا فِي ط، وَفِي بَاقِي الْأَصُولِ: «مَعَهُ».

(٢) الْحَوْبَاءُ: النَّفْسُ.

(٣) الْعَقْدُ ١/٣٤٩.

(٤) ابْنُ خُلَكَانَ ٢/٢٦٦.

ومنهم يزيد بن حاتم، قيل: إن ربيعة الرقيّ قدِم مصر، فأتى يزيد السلمي فلم يُعطه شيئاً، ثم عطف على يزيد بن حاتم، فشغل عنه لأمر ضروري، فخرج وهو يقول:

أراني ولا كُفرانَ لله راجعاً بخفي حنين من نوال ابن حاتم
فلما فرغ يزيد من ضرورته سأل عنه، فأخبر عنه أنه خرج وهو يقول كذا، وأنشد البيت، فأرسل من يجد في طلبه، فأتى به، فقال: كيف قلت؟ فأنشد البيت، فقال شغلنا عنك، وعجلت علينا، ثم أمر بخفيه فخلعاً من رجله، ومثلاً مالا، وقال: ارجع بهما بدلاً من خفي حنين^(١).

ومنهم أبو ذلف، واسمه القاسم، وفيه يقول عليّ جبلة:

إنما الدنيا أبو ذلف بين باديه ومختصره
فلإذا ولى أبو ذلف ولت الدنيا على أثره
وقال آخر:

إن سار سار المجذو أو حلّ وقف أنظر بعينيك إلى أعلى الشرف
هل ناله بقذرة أو بكلف خلق من الناس سوى أبي ذلف!
فأعطاه خمسين ألف درهم.

ومنهم خالد بن عبد الله القسريّ، قيل: إنه كان جالسا في مظلة إذ نظر إلى أعرابيّ يحبّ على بعيره، مقبلاً نحوه، فقال لحاجبه: إذا قدِم لا تحجبه، فلما قدِم أدخله فسلم، فقال:

أصلحك الله قل ما بيدي فما أطيق العيال إذ كثروا
أناخ دهر لنا بكلّك فأرسلوني إليك وانظروا
فقال خالد: إذ أرسلوك إليّ وانتظروا، والله لا تنزل حتى تعود إليهم بما يسرهم، فأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة.

ومنهم عديّ بن حاتم، حكى صاحب العقد، قال: دخل أبو ذارة على عديّ بن حاتم، فقال: إنني مدحتك، قال: أمسك حتى آتيك بمال، فإني أكره ألا أعطيك ثمن ما تقول، هذه ألف شاة وألف درهم، وثلاثة أعبد، وثلاث إماء، وفرسي هذا حبيس في سبيل الله، فامدحني على حسب ما أجزتك^(٢).



(١) ابن خلكان ٢/ ٢٨٢.

(٢) العقد ١/ ٣٥٧.

وفود أروى بنت الحارث على معاوية

قيل إِنَّ أَرْوَى بِنْتَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، كَانَتْ أَغْلَظَ الْوَافِدَاتِ عَلَى مُعَاوِيَةَ خُطَابًا، وَكَانَ جِلْمُ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَعْظَمَ مِنْ خُطَابِهَا، دَخَلَتْ عَلَيْهِ وَهِيَ عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ، فَلَمَّا رَأَاهَا مُعَاوِيَةُ قَالَ: مَرْحَبًا بِكَ يَا خَالَةَ! كَيْفَ كُنْتِ بَعْدَنَا؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَقَدْ كَفَرْتُ النِّعْمَةَ، وَأَسَأْتُ لَابْنَ عَمِّكَ الصُّحْبَةَ، وَتَسَمَّيْتُ بِغَيْرِ اسْمِكَ، وَأَخَذْتَ غَيْرَ حَقِّكَ مِنْ غَيْرِ دِينٍ كَانَ مِنْكَ، وَلَا مِنْ آبَائِكَ، وَلَا سَابِقَةٍ فِي الْإِسْلَامِ، بَعْدَ أَنْ كَفَرْتُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاتَّعَسَ اللَّهُ مِنْكُمْ الْجُدُودَ، وَأَمْرَعَكُمْ الْخُدُودَ، وَرَدَّ الْحَقَّ إِلَى أَهْلِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ! وَكَانَتْ كَلِمَتُنَا هِيَ الْعِلْيَا، وَنَبِينُنَا هُوَ الْمَنْصُورُ عَلَى مَنْ نَاوَاهُ، وَكُنَّا أَعْظَمَ النَّاسِ حَقًّا وَنَصِيبًا وَقَدْرًا، حَتَّى قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهَ فَوُلِّيْتُمْ عَلَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ، فَأَضْبَحْتُمْ تَحْتَجُّونَ عَلَى سَائِرِ الْعَرَبِ بِقِرَابَتِكُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ، وَأَوْلَى بِهَذَا مِنْكُمْ، فَكُنَّا فِيكُمْ بِمَنْزِلَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي آلِ فِرْعَوْنَ، وَكَانَ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، فَغَايَتُنَا الْجَنَّةُ، وَغَايَتُكُمْ النَّارُ. فَقَالَ لَهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: كُفِّي أَيْتُهَا الْعَجُوزُ الضَّالَّةُ، وَأَقْصِرِي عَنْ قَوْلِكَ مَعَ ذَهَابِ عَقْلِكَ، إِذْ لَا تَجُوزُ شَهَادَتُكَ وَحْدَكَ، فَقَالَتْ لَهُ: وَأَنْتِ يَا بِنْتُ الْبَاغِيَةِ! تَتَكَلَّمُ وَأَنْتُكَ كَانَتْ أَشْهَرُ بَغِيٍّ بِمَكَّةَ، وَأَرْخَصَهُنَّ أَجْرَةً! وَادَّعَاكَ خَمْسَةُ نَفَرٍ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّكَ ابْنَتُهُ، فَسُئِلَتْ أَنْتُكَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ: كُلُّهُمْ أَتَانِي، فَانْظُرُوا أَشْبَهَهُمْ بِهِ فَأَلْحِقُوهُ بِهِ؛ فَغَلَبَ عَلَيْكَ شَبَهُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، فَلَحِقَتْ بِهِ. فَقَالَ مِرْوَانُ: كُفِّي أَيْتُهَا الْعَجُوزُ، وَأَقْصِدِي مَا جِئْتَ لَهُ، فَقَالَتْ: وَأَنْتِ أَيْضًا يَا بِنْتُ الزَّرَقَاءِ، تَتَكَلَّمُ! ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَى مُعَاوِيَةَ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا جَزَأَ هَؤُلَاءِ غَيْرَكَ، وَأَنْتُكَ الْقَائِلَةُ فِي قَتْلِ حِمْزَةِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ:

نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ وَالْحَزْبُ بَعْدَ الْحَزْبِ ذَاتُ سُغَرٍ
مَا كَانَ لِي عَنْ عُثْبَةٍ مِنْ صَبْرٍ وَلَا أَخِي وَعَمُّهُ وَبَكْرٍ
سَكَنْتَ وَخَشِيًّا غَلِيلَ صَدْرِي فَشُكْرُ وَخَشْيَ عَلَيَّ دَهْرِي
حَتَّى تُرِمَّ أَغْظَمِي فِي قَبْرِي

فأجابتها ابنة عمي بقولها:

خُزَيْتٍ فِي بَدْرٍ وَغَيْرِ بَدْرٍ يَا بِنْتَ جَبَّارِ عَظِيمِ الْكُفْرِ
فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ! يَا خَالَةَ هَاتِي حَاجَتَكَ.
فَقَالَتْ: مَالِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ، وَخَرَجْتَ عَنْهُ.

وهذه العبارة بنصّها منقولة من العقد لابن عبد ربه رحمه الله تعالى^(١).

عقيل بن أبي طالب ومعاوية

وحكى صاحب العقد أيضاً قال: قَدِمَ عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَأَكْرَمَهُ، وَقَرَّبَهُ وَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، يَا عَقِيلُ؛ أَنَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَخِيكَ عَلِيٍّ، قَالَ صَدَقْتَ، أَخِي أَثَرُ دَيْنِهِ عَلَى دَنِيَاهُ، وَأَنْتَ أَثَرْتُ دَنِيَاكَ عَلَى دِينِكَ، فَأَنْتَ خَيْرٌ لِي مِنْ أَخِي، وَأَخِي خَيْرٌ لِنَفْسِهِ مِنْكَ لِنَفْسِكَ.

وَدَخَلَ عَقِيلٌ أَيْضاً عَلَى مُعَاوِيَةَ وَقَدْ كُفَّ بَصَرُهُ، فَأُقْعِدَ عَلَى سُرِيرٍ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَنْتُمْ مَعَاشِرُ بَنِي هَاشِمٍ تُصَابُونَ فِي أَبْصَارِكُمْ، فَقَالَ عَقِيلُ: وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ بَنِي أُمَيَّةٍ تُصَابُونَ فِي بَصَائِرِكُمْ!

وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْماً فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِأَصْحَابِهِ: هَذَا عَقِيلٌ عَمَهُ أَبُو لَهَبٍ، فَقَالَ عَقِيلُ: وَهَذَا مُعَاوِيَةُ عَمَّتُهُ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاوِيَةُ، إِذَا دَخَلْتَ النَّارَ فَاغْدِلْ ذَاتَ الْيَسَارِ، فَإِنَّكَ سَتَجِدُ عَمِّي أَبَا لَهَبٍ مُفْتَرِشاً عَمَّتِكَ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فَاظْطَرَّ أَيُّهُمَا خَيْرُ: الْفَاعِلِ أَمْ الْمَفْعُولِ بِهِ!

وَقَالَ لَهُ يَوْماً: مَا أَبِينِ الشَّبَقَ فِي رِجَالِكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ! قَالَ: لَكِنَّهُ فِي نِسَائِكُمْ أَبِينِ يَا بَنِي أُمَيَّةٍ!



بنو هاشم ومعاوية

وَقَالَ الْجَاظُ: اجْتَمَعَتْ يَوْماً بَنُو هَاشِمٍ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: يَا بَنِي هَاشِمٍ، وَاللَّهِ إِنَّ خَيْرِي لِمَمْنُوحٍ، وَإِنَّ بَابِي لَكُمْ لِمَفْتُوحٍ، وَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِي وَأَمْرِكُمْ، فَرَأَيْتُ أَمْرِي مُخْتَلِفاً؛ إِنَّكُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ أَحَقُّ مِنِّي بِمَا فِي يَدِي، فَإِذَا أُعْطِيتُمْ عَطِيَّةً فِيهَا قِضَاءُ حَقُوقِكُمْ قَلْتُمْ أَعْطَانَا دُونَ حَقِّنَا، وَقَصَّرْنَا عَنْ قَدْرِنَا. هَذَا مَعَ إِنْصَافٍ قَائِلِكُمْ، وَإِسْعَافٍ سَائِلِكُمْ. فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ جَرِيئاً عَلَيْهِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا مَنَحْتَنَا شَيْئاً حَتَّى سَأَلْنَاهُ، وَلَا فَتَحْتَ لَنَا بَاباً حَتَّى قَرَعْنَاهُ، وَأَمَّا هَذَا الْمَالُ فَمَا لَكَ مِنْهُ إِلَّا مَا لِرَجُلٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْ لَا حَقَّنَا فِي هَذَا الْمَالِ لَمْ يَأْتِكَ مِنَّا أَثَرٌ يَحْمِلُهُ مِنَّا خُفٌّ وَلَا حَافِرٌ. وَأَمَّا حَرِبْنَا إِيَّاكَ بِصِفِّينَ، فَعَلَى تَرْكِكَ الْحَقَّ، وَادِّعَائِكَ الْبَاطِلَ، أَكْفَاكَ أَمْ أَزِيدُكَ؟ قَالَ: كَفَانِي.



عبد الله بن الزبير وابن عباس

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ يَوْماً لِابْنِ عَبَّاسٍ: قَاتَلْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَوَارِجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! فَقَالَ: أَمَّا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْتَ أَخْرَجْتَهَا أَنْتَ وَأَبُوكَ وَخَالَكَ، وَبِنَا سُمِّيتَ

أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَكُنَّا لَهَا خَيْرَ بَنِينَ، وَقَاتَلْتَ أَنْتِ وَأَبُوكَ عَلِيًّا، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا ضَلَلْتُمْ بِقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ كَانَ عَلِيٌّ كَافِرًا فَقَدْ بُؤْتُمْ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ بِفَرَارِكُمْ مِنَ الرَّحْفِ!



عبد الله بن الزبير وزوجه

وذكر صاحب العقد، أن عبد الله بن الزبير تزوج امرأة من قُرَازَةَ، يقال لها أُمُّ عَمْرُو، فلما دخل بها، قال: هل تَذَرِينَ مَنْ مَعَكَ؟ قالت: نعم، عبد الله بن الزبير بن العوام بن خُوَيْلِد. قال: ليس هذا! قالت: فأَيُّ شَيْءٍ تُرِيدُ؟ قال: معك مَنْ أَصْبَحَ فِي قَرِيشٍ كَمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، لَا بِلِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ، قالت: أما والله لو أَنَّ بَعْضَ الْهَاشِمِيِّينَ خَضَرَكَ، لَقَالَ خِلَافًا لِقَوْلِكَ، قال: فَالطَّعَامُ وَالشَّرَابُ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى أَخْضِرَ الْهَاشِمِيِّينَ وَغَيْرَهُمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَذَلِكَ إِنْكَارًا؛ قالت: إِنْ أَطَعْتَنِي لَمْ تَفْعَلْ، فَأَنْتِ أَعْلَمُ بِشَأْنِكَ.

فخرج إلى المسجد^(١) فإذا هو بحلقةٍ فيها جماعة من قريش، وفيها من بني هاشم عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وعبد الله بن الحارث بن عبد المطلب، فقال لهم ابن الزبير: إِنِّي أَحِبُّ أَنْ تَنْطَلِقُوا مَعِيَ إِلَى مَنْزِلِي، فقام القوم بأجمعهم حَتَّى وَقَفُوا عَلَى بَابِ بَيْتِهِ، فقال ابن الزبير: يَا هَذِهِ، اطرحي عليك سِتْرَكَ. ثُمَّ أَذِنَ لِلْقَوْمِ، فَلَمَّا أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ، دَعَا ابْنُ الزُّبَيْرِ بِالْمَائِدَةِ، فَتَغَدَّى الْقَوْمُ، فَلَمَّا فَرَّغُوا قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: إِنَّمَا جَمَعْتُكُمْ لِحَدِيثِ رَدَّتْهُ عَلَيَّ صَاحِبَةُ هَذَا السِّتْرِ، وَزَعَمْتُ أَنْ لَوْ كَانَ بَعْضُ بَنِي هَاشِمٍ حَاضِرًا مَا أَقَرَّ لِي بِمَا قُلْتُ، وَقَدْ حَضَرْتُمْ جَمِيعًا، وَالحديثُ الَّذِي رَدَّتْهُ عَلَيَّ، قُلْتُ لَهَا لَيْلَةَ الدُّخُولِ بِهَا، وَأَنَا مَعَهَا فِي خِدْرِهَا: إِنْ مَعَكَ مَنْ أَصْبَحَ فِي قُرَيْشٍ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، لَا بِلِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ، فَرَدَّتْ عَلَيَّ مَقَالِي.

فقال ابن عباس: إِنْ شِئْتَ أَقُولُ، وَإِنْ شِئْتَ أَكْثِفُ. قال: لَا بِلِ قُلْ، وَمَا عَسَيْتَ أَنْ تَقُولَ! أَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَّ الزُّبَيْرَ حَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْ أُمِّي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ذَاتُ النُّطَاقَيْنِ، وَأَنَّ خَدِيجَةَ سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَمَّتِي، [وَأَنَّ صَفِيَّةَ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَدَّتِي]^(٢)، وَأَنَّ عَائِشَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ خَالَتِي؟ فَهَلْ تَسْتَطِيعُ لِهَذَا إِنْكَارًا يَا بَنَ عَبَّاسٍ؟ قال ابن عباس، لا، وَلَقَدْ^(٣) ذَكَرْتُ شَرَفًا شَرِيفًا، وَفَخْرًا عَظِيمًا، غَيْرَ أَنَّكَ بِنَا نِلْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَأَنْتِ تَفَاخَرُ مَنْ بِفَخْرِهِ فَخَرْتُ، وَتُسَامِي مَنْ بِفَضْلِهِ سَمَوْتُ، قال ابن الزبير: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قال: لَمْ تَذْكُرْ مَفْخَرًا إِلَّا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتِهِ وَأَقْرَبُ إِلَيْهِ، وَأَوْلَى بِالْفَخْرِ بِهِ، قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَأَنَا أَفَاخِرُكُمْ بِمَا كَانَ

(١) ط: من المجلس.

(٢) ط: «ولكن».

(٣) تكملة من ب، ط.

قبل النَّبِيِّ ﷺ! فقال ابن عباس: لقد أنصفت، أسألكم^(١) أيُّها الحضور؛ أعبد المطلب كان أشرف في قريش أم خُوَيْلِد؟ قالوا: عبد المطلب؛ قال: فأسألكم: أهاشم كان أشرف في قريش أم أُمَيَّة؟ قالوا: بل هاشم. قال: فأسألكم بالله؛ أعبد مناف كان أشرف أم عَبْدُ الْعُزَّى؟ قالوا: اللَّهُمَّ عَبْدُ مناف، فأنشد ابن عباس يقول:

تُفَاخِرُنِي يَا بَنَ الزُّبَيْرِ وَقَدْ قَضَى عَلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ لَا قَوْلَ هَازِلٍ
فَلَوْ غَيْرَنَا يَا بَنَ الزُّبَيْرِ فَخَرَّتْهُ وَلَكِنْ بَنَا سَامَيْتَ شَمْسَ الْأَصَائِلِ
رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما افترقت فرقتان إلّا وكنت في خيرهما»، فقد فارقك من لدن قُصَيِّ بن كلاب، فنحن في فرقة الخير أولاً، ونحن في فرقة الخير آخراً. فإن قلت: نعم خُصِمْتُ، وإن قلت: لا، كُفِرْتُ.

قال: فضحك بعض القوم، وقالت المرأة من خلف الستر: أما والله لقد نهَيْتُهُ عن هذا المجلس فأبى إلّا ما ترى. فقال ابن عباس: مه أَيُّهَا المرأة! اقْنَعِي بِبَيْعِكَ.
وأخذ القوم يَبْدِ ابن عَبَّاس، فقالوا: انْهَضْ أَيُّهَا الرجل؛ فقد أْفَحَمْتَهُ في منزله غير مرة، فنهض ابن عَبَّاس، وهو يقول:

أَلَا يَا قَوْمَنَا ازْجَلُوا وَسِيرُوا فَلَوْ تَرَكَ الْقَطَا لَيْلًا لَنَامَا



معاوية والأحنف بن قيس وعقيل بن أبي طالب

وحكى صاحب العقد قال: بينما معاوية جالس وعنده وُجُوهُ النَّاسِ وفيهم الأحنف، إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً، وقال: لَعَنَ اللَّهُ عَلِيًّا.

فأطرق الناس وفيهم الأحنف، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل إن عَلِمَ أَنَّ رِضَاكَ فِي لَعْنِ الْمُرْسَلِينَ لَعَنَهُمُ، فَاتَّقِ اللَّهَ، وَدَعْ عَنْكَ عَلِيًّا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَدْ لَقِيَ رَبَّهُ، وَأُفْرِدَ بِقَبْرِهِ، وَخَلَا بِعَمَلِهِ، وَكَانَ وَاللَّهُ مُبْرِّزاً فِي سَبْقِهِ، طَاهِرِ الثَّوْبِ، مَيِّمُونَ التَّقِيَّةَ، عَظِيمِ الْمَصِيبَةِ. فقال له معاوية: يا أحنف، لقد أغضبت العين على القَدَى، أما والله لتضعدن المنبر، وتلعن علياً طَوْعاً أَوْ كَرْهاً! فقال: إن تُعْغِنِي خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُجْهِزَنِي عَلَى ذَلِكَ فَوَاللَّهِ لَا تَجِدُنِي شَفِيئاً بِهِ أَبَدًا. قال: وما أنت قائل يا أحنف؟ قال: أحمد الله، وأصلي على نبيّه، ثم أقول: إن أمير المؤمنين أمرني أن ألعن علياً، ومعاوية وعليّ اقتتلا واختلفا، وأدعى كل واحد منهما أَنَّهُ مَبْغِي عليه، فإذا دعوت فأمتوا رحمكم الله؛ اللَّهُمَّ الْعَنِ أَنْتَ وَمَلَائِكَتُكَ وَأَنْبِيَائُكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ الْبَاغِي

منهما على صاحبه، وألَعَنَ الْفِئَّةَ الْبَاغِيَةَ! أَمُنُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ. يا معاوية لا أزيدُ على ذلك ولا أنقص، ولو كان فيه ذهابُ نَفْسِي، فقال معاوية: إِذَا أَعْفَيْتُكَ.

وقال معاوية لعقيل: إِنَّ عَلِيًّا قَطَعَكَ وَوَصَلْتُكَ، ولا يُرْضِينِي مِنْكَ إِلَّا أَنْ تَلْعَنَهُ على المنبر، قال أفعَل.

فصعدَ المنبرَ وحمدَ اللهَ، وأثنى عليه، ثم قال: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَنِي أَنْ أَلْعَنَ عَلِيًّا، فالعنوه، [عليه] ^(١) لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، ثم نزل، فقال له معاوية. يا عقيل: إِنَّكَ لَمْ تُبَيِّنْ مِنَ الْمُرَادِ مِثًّا؟ قال: وَاللَّهِ مَا زِدْتُ ^(٢) حَرْفًا، وَالْكَلَامُ رَاجِعٌ إِلَى نِيَّةِ الْمُتَكَلِّمِ.



ومن غريب المنقول

ما نقل عن منصور ^(٣) بني العباس، وهو أنه وعد الهذليّ بجائزة ونسي، فحبّجا معاً، ومراً في المدينة الثبوية ببيت عاتكة، فقال الهذليّ: يا أمير المؤمنين، هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأخوص:

يَا دَارَ عَاتِكَةَ الَّتِي أَتَعَزَّلُ ^(٤)

فأنكر عليه أمير المؤمنين المنصور ذلك، لأنه تكلم من غير أن يُسأل. فلما رجع الخليفة نظر في القصيدة إلى آخرها، ليعلم ما أراد الهذليّ بإنشاد ذلك البيت من غير استدعاء، فإذا فيها.

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَغْضَهُمْ مَذِقُ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ ^(٥)

فعلم المنصور أنه أشار إلى هذا البيت، فتذكّر ما وعد به، وأنجزه له، واعتذر إليه من النسيان.

ومثله ما حكى أن أبا العلاء المعريّ كان يتعصّب لأبي الطيّب المتنبّي فحضر يوماً مجلس المرتضى [فجرى ذكرُ أبي الطيّب، فهضَمَ من جانبه المرتضى] ^(٦)،

(١) تكلمة من ط.

(٢) ط: «لا».

(٣) كذا في الأصول، وفي ط: «المنصور».

(٤) تعزل الشيء وتعزل عنه: تنحى، اللسان: «عزل»، وعجز البيت:

حذر العدا وبه الفؤاد موكل

(٥) مذاق اللسان: كذوب لم يخلص في قوله.

(٦) تكلمة من ط، ب.

فقال أبو العلاء: لو لم يكن لأبي الطَّيِّب من الشعر إلا قوله:

لك يا منازل في القُلُوبِ منازل^(١)

لكفاه، فغضب المرتضى وأمر به فُسْحِبَ وأُخْرِجَ، وبعد إخراجِه، قال المرتضى: هَلْ تَدْرُونَ^(٢) ما عني بذكر البيت؟ قالوا: لا والله، قال: عَنِّي به قول أبي الطَّيِّب في القصيدة:

وَإِذَا أَتَيْتُكَ مَدَّيْتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ^(٣)

ومثله قصة السَّريِّ الرِّفاء مع سيف الدولة بسبب المُتَنَبِّي أيضاً؛ فَإِنَّ السَّريِّ الرِّفاء كان من مَدَّاح سيف الدولة، وجرى في مَجْلِسِه يوماً ذكر أبي الطَّيِّب، فبالغ سيف الدولة في الثَّناء عليه، فقال له السَّريُّ: أَشْتَهِي أَنْ الأَمِيرَ يَنْتَخِبَ لي قَصيدة من غُرَرِ قَصائده لأَعَارِضها، وَيَتَحَقَّقُ الأَمِيرُ بِذلك أَنَّهُ أَزْكَبُ المُتَنَبِّيِّ في غَيْرِ سِرِّجِه، فقال له سَيِّفُ الدولة على الفور: عَارِضُ لَنَا قَصِيدَتُهُ الَّتِي مَطَّلَعُهَا:

لِعَيْنَيْنِكَ مَا يَلْقَى الْفَوَاذُ وَمَا لَقِي وَلِلْحُبِّ مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّي وَمَا بَقِيَ^(٤)

قال السَّريُّ: فَكُتِبَتِ الْقَصيدة، واعتبرتها في تلك اللَّيْلَةِ فلم أَجِدْهَا من مختارات أبي الطَّيِّب، لكن رَأَيْتُهُ يَقُولُ في آخرها عن ممدوحه:

إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُو بِلِخِيَةِ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ: الْحَقُّ^(٥)

فقلت: وَاللَّهِ مَا أَشَارَ سَيِّفُ الدولة إِلَّا إِلَى هَذَا الْبَيْتِ، فَأَعْجِبْتُ من معارضة القصيدة.

ومثله ما نقله ابنُ الجوزيِّ في كتاب «الأذكياء»، وهو من الغرائب في هذا الباب، حكى أَنَّ رَجُلًا من طلبة العلم [الأذكياء]^(٦) قَعَدَ على جسر بغداد يَتَنَزَّهُ، فَأَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ بَارِعَةٌ فِي الْجَمَالِ مِنْ جِهَةِ الرُّصَافَةِ إِلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ، فَاسْتَقْبَلَهَا شَابٌّ، فَقَالَ لَهَا: رَحِمَ اللَّهُ عَلِيَّ بْنَ الْجَهْمِ! فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: رَحِمَ اللَّهُ أَبَا الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ، وَمَا وَقَفَا، بَلْ سَارَا مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا. قَالَ الرَّجُلُ: فَتَبِعَتِ الْمَرْأَةُ، وَقُلْتُ:

(١) ديوانه: ١٧٦/٢ وعجزه:

أَقْفَرْتُ أَنْتِ وَهَنٌْ مِنْكَ أَوَاهِلُ

(٢) كذا في أ، ب. وفي ط: «هل تعلمون ما أراد بذكر البيت؟».

(٣) ديوانه: ١٨٤/٢.

(٤) ديوانه: ٤٥٧/١.

(٥) ديوانه: ٤٦٥/١، الأحق: الجاهل الذي لا عقل له.

(٦) تكملة من ب.

واللَّهِ إِنَّ لَمْ تَقُولِي [لِي] ^(١) مَا أَرَادَ ابْنُ الْجَهْمِ فَضَحْتُكَ، فَضَحْتُكَ وَقَالَتْ: أَرَادَ بِهِ قَوْلَهُ:

عَيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجِسْرِ جَلَبَنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أُدْرِي وَلَا أُدْرِي ^(٢)

وَأَرَدْتُ ^(٣) أَنَا بِقَوْلِي بِأَبِي الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ قَوْلَهُ:

فِيَا دَارَهَا بِالْخَيْفِ إِنَّ مَرَارَهَا قَرِيبٌ وَلَكِنْ دُونَ ذَلِكَ أَهْوَالٌ ^(٤)

ومثله ما هو منقول عن الإمام الحافظ فتح الدين، أبي الفتح محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن سيّد الناس اليعمريّ، أَنَّ الشَّيْخَ بهاءَ الدين بن النَّحَّاسِ رحمه الله، دَخَلَ إِلَى الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ فَوَجَدَ أَبَا الْحُسَيْنِ الْجَزَارِ جَالِسًا وَإِلَى جَانِبِهِ مَلِيحٌ، فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا، وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ. وَلَمَّا فَرَغَ قَالَ لِأَبِي الْحُسَيْنِ: مَا أَرَدْتُ إِلَّا قَوْلَ ابْنِ سَنَاءِ الْمُلْكِ؛ فَقَالَ أَبُو الْحُسَيْنِ الْجَزَارُ: وَأَنَا تَفَاءَلْتُ بِقَوْلِ صَاحِبِنَا السَّرَّاجِ الْوَرَّاقِ؛ أَمَّا مَرَادُ الشَّيْخِ بهاءَ الدين فهو إشارةٌ إِلَى قَوْلِ ابْنِ سَنَاءِ الْمُلْكِ:

أَنَا فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ بَيْنَ قَوَادٍ وَعِلَقٍ

وَأَمَّا مَرَادُ أَبِي الْحُسَيْنِ الْجَزَارِ مِنْ قَوْلِ السَّرَّاجِ الْوَرَّاقِ فَهُوَ:

وَمَهْفَهْفٍ رَاضٍ ^(٥) الْأَبْيَّ فَقَادَهُ سَلَسُ السَّقِيَادِ

لَمَّا تَوَسَّطَ بَيْنَنَا جَرَّتِ الْأُمُورُ عَلَى السَّدَادِ

فَبَلَّغَ كُلُّ مَنَّهُمَا مَا أَرَادَ مِنْ صَاحِبِهِ، وَلَمْ يَشْعُرْ أَحَدٌ بِمَرَادِ الْاِثْنَيْنِ غَيْرَهُمَا.



نَوَادِرُ الْأَذْكِيَاءِ

قلت: وبالنسبة إلى هذا الذكاء المفطر الصادر من هؤلاء القوم يتعيّن أن نُورِدَ هنا نبذة من كتاب الأذكياء لابن الجوزي.

فمن ذلك ما رُوِيَ عن منصور بن العباس وهو أنّه جَلَسَ يَوْمًا فِي أَحَدِ قُبَابِ الْمَدِينَةِ، فَرَأَى رَجُلًا مَلْهُوفًا يَجُولُ فِي الطَّرِيقَاتِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مَنْ أَتَاهُ بِهِ، فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ خَرَجَ فِي تِجَارَةٍ فَأَقَادَ فِيهَا مَالًا كَثِيرًا وَأَنَّهُ رَجَعَ بِهَا إِلَى زَوْجَتِهِ، وَدَفَعَ الْمَالَ إِلَيْهَا، فَذَكَرَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الْمَالَ سُرِقَ مِنَ الْمَنْزِلِ، وَلَمْ يَرَ نَقْبًا وَلَا مَسْلَقًا، فَقَالَ لَهُ

(١) تكملة من ط، ب.

(٢) ديوانه: ١٤١.

(٣) في ط: «وعنيت».

(٤) ديوانه ١٢٤٨، وروايته: «فيا دارها بالحزن».

(٥) في ب «رام».

المنصور: مُنْذُ كَمْ تَزَوَّجْتَهَا؟ قال: مُنْذُ سَنَةٍ، قال: تَزَوَّجْتَهَا بِكَرَّ أَمْ نَيْبًا؟ قال: نَيْبًا، قال: شَابَّةٌ أَمْ مُسِنَّةٌ؟ قال: شَابَّةٌ. فدعا المنصور بقارورة طيب، وقال: تَطَيِّبْ بهذا، فَإِنَّهُ يَذْهَبُ هَمُّكَ، فَأَخَذَهَا وَانْقَلَبَ إِلَى أَهْلِهِ.

فقال المنصور لجماعة من نقبائه: اقْعُدُوا عَلَى أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، فَمَنْ مَرَّ بِكُمْ وَشَمَمْتُمْ فِيهِ رَوَائِحَ هَذَا الطَّيْبِ فَأَتُونِي بِهِ، وَمَضَى الرَّجُلُ بِالطَّيْبِ إِلَى بَيْتِهِ، فَدَفَعَهُ إِلَى الْمَرْأَةِ، وَقَالَ: هَذَا مِنْ طَيِّبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا شَمَّمَتْهُ أَعْجَبَهَا إِلَى الْغَايَةِ، فَبَعَثَتْ بِهِ إِلَى رَجُلٍ كَانَتْ تُحِبُّهُ، وَهُوَ الَّذِي دَفَعَتْ إِلَيْهِ الْمَالَ، فَقَالَتْ لَهُ: تَطَيِّبْ بِهَذَا الطَّيْبِ، فَتَطَيِّبْ بِهِ، وَمَرَّ مُجْتَازًا بِبَعْضِ الْأَبْوَابِ، فَفَاحَتْ مِنْهُ رَوَائِحُ الطَّيْبِ، فَأَخَذَ، وَأَتَى بِهِ إِلَى الْمَنْصُورِ، فَقَالَ لَهُ: مِنْ أَيْنَ اسْتَفَدْتَ هَذَا الطَّيْبَ؟ فَتَلَجَّلَجَ فِي كَلَامِهِ، فَسَلَّمَهُ إِلَى صَاحِبِ شُرْطَتِهِ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَخْضَرَ كَذَا وَكَذَا مِنَ الدَّنَانِيرِ فَخَلَّهُ^(١)، وَإِلَّا فَاضْرِبْهُ أَلْفَ سَوْطٍ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ جُرِّدَ وَهُدَّدَ حَتَّى أَذْعَنَ بِرَدِّ الدَّنَانِيرِ وَأَخْضَرَهَا كَهَيْئَتِهَا، ثُمَّ أَعْلَمَ الْمَنْصُورُ بِذَلِكَ، فَدَعَا صَاحِبَ الدَّنَانِيرِ وَقَالَ لَهُ: أَرَأَيْتَكَ إِنْ رَدَدْتُ عَلَيْكَ مَتَاعَكَ بَعَيْنِهِ أَتَحْكُمُنِي فِي أَمْرَاتِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: هَا هِيَ دَنَانِيرُكَ، وَقَدْ طَلَقْتُ أَمْرَاتَكَ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْخَبَرَ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ الْمَهْدِيِّ وَهُوَ: أَنَّ شَرِيكَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقَاضِي، دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَهُ، فَقَالَ لِلْخَادِمِ: أَحْضِرْ لِلْقَاضِي عَوْدًا، فَذَهَبَ الْخَادِمُ فَجَاءَ بِالْعُودِ الَّذِي يُلْهَى بِهِ، فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِ شَرِيكَ، فَاضْطَرَبَ شَرِيكَ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: مَا هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: عَوْدٌ أَخَذَهُ صَاحِبُ الْعَسَسِ الْبَارِحَةَ، فَأَخْبَيْنَا أَنْ يَكُونَ كَسْرُهُ عَلَى يَدِ الْقَاضِي، فَقَالَ شَرِيكَ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! ثُمَّ أَفَاضُوا فِي الْحَدِيثِ حَتَّى نَسِيَ الْأَمْرَ، فَقَالَ الْمَهْدِيُّ لَشَرِيكَ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَمَرَ وَكَيْلًا لَهُ أَنْ يَأْتِيَ بِشَيْءٍ بَعَيْنُهُ فَجَاءَ بِغَيْرِهِ فَتَلَفَ ذَلِكَ الشَّيْءُ؟ فَقَالَ: يَضْمَنُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ لِلْخَادِمِ: اضْمَنْ مَا أَتَلَفْتُ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا حُكِيَ أَنَّهُ قَدِمَ رَجُلٌ إِلَى بَغْدَادَ وَمَعَهُ عِقْدٌ يَسَاوِي أَلْفَ دِينَارٍ، فَأَرَادَ بَيْعَهُ فَلَمْ يَتَّفَقْ. فَجَاءَ إِلَى عَطَّارٍ مَوْصُوفٍ بِالْخَيْرِ وَالِدَيَّانَةِ، فَأَوْدَعَ الْعِقْدَ عِنْدَهُ، وَحَجَّ، وَأَتَى بِهَدِيَّةٍ لِلْعَطَّارِ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ! وَمَنْ يَعْرِفُكَ؟ فَقَالَ: أَنَا صَاحِبُ الْعِقْدِ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ رَفَسَهُ وَأَلْقَاهُ عَنْ دَكَانِهِ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ وَقَالُوا: وَيْلَكَ! هَذَا رَجُلٌ صَالِحٌ، فَمَا وَجَدْتَ مَنْ تَكْذِبُ عَلَيْهِ إِلَّا هَذَا! فَتَحَيَّرَ الْحَاجُّ، وَتَرَدَّدَ عَلَيْهِ^(٢)، فَمَا زَادَهُ إِلَّا شُتْمًا وَضَرْبًا، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ ذَهَبْتَ إِلَى عَضِدِ الدَّوْلَةِ لَحَصَلَ لَكَ مِنْ فِرَاسَتِهِ خَيْرٌ،

فكتب قِصَّتَه، وجعلها على قصبة رفعها إليه^(١)، فقال: ما شأنك؟ فقَصَّ عليه القِصَّة، فقال: اذهب غداً واجلس على دكان العطارِ ثلاثة أيام حتى أمرُّ عليك في اليوم الرابع، فأَقِفْ وأسلم عليك فلا ترُدَّ عليّ إلا السلام، فإذا انصرفت فأعِدْ عليه ذِكْرَ العِقد ثم أغلِمني بما يقول لك، ففعل الحاجُّ ذلك، فلما كان في اليوم الرابع، جاء عَضُدُ الدولة في موكبه العظيم، فلما رأى الحاجَّ وقف، وقال: سلامٌ عليكم فقال الحاجُّ - ولم يتحرَّك -: وعليكم السلام. فقال: يا أخي تقدّم من العراق ولا تأتينا، ولا تعرّض علينا حوائجك! فقال له: ما اتَّفَقَ هذا، ولم يزد على ذلك شيئاً، وهذا والعسكر واقف بكماله، فانذَهَل العطار، وأيقَنَ بالموت.

فلما انصرف عَضُدُ الدولة، التفت العطار إلى الحاجِّ، وقال له: يا أخي متى أودَعْتَنِي هذا العِقد^(٢)! وفي أي شيء هو مَلْفُوف؟ فذكرني لعلِّي أتذكر. فقال: من صفته كذا وكذا، فقامَ وفتش، ثم فَتَحَ جِراباً وأخرج منه العِقد. وقال: الله أعلم أني كنتُ ناسياً، ولو لم تُذكرني ما تذكرت.

فأخذَ الحاجُّ عِقدَه ومَضَى إلى عَضُدِ الدولة، فأعلّمه [فبعث به مع الحاجب إلى دكان العطار]^(٣) فعَلَقَهُ في عنقه، وصَلَبَهُ على بابِ دكانه ونودي عليه: هذا جزاء من استودعَ فَجَحَدَ^(٤)! ثم أخذَ الحاجُّ العِقدَ ومضى إلى بلاده^(٥).

ومثله ما نُقلَ عن ذكاء إياس الذي سارت به الرُكبان قيل: إن رجلاً استودعَ أمينَ إياسَ مالاً، وخرج المودعُ إلى الحجاز، فلما رجع طَلَبَهُ فجحده، فأتى إياساً فأخبره. فقال له إياس: أعلِم^(٦) أنك أتيتني؟ قال: لا. قال: أفنارَعته عند غيري؟ قال: لا، قال: فانصرف واكتُم سِرَّك، ثم عد إليّ بعد يومين. فَمَضَى الرجل، ودعا إياسَ أُميئته، فقال: قد حضر عندنا مالٌ كثير أريد أن أسلمه إليك، أفحصين منزلك؟ قال: نعم. قال: فأعِدْ موضعاً للمال، وقوماً يحملونه. وعاد الرجلُ إلى إياس، فقال: انطلق إلى صاحبك فإن أعطاك المال فذاك، وإن جحدَ فَقُلْ له: إنني أخبر القاضي بالقِصَّة.

فأتى الرجل صاحبه، فقال: تعطيني الوديعة أو أشكوك إلى القاضي، وأخبره بالحال، فدفع إليه المال، فرجع الرجل وأخبر إياساً، وقال: أعطاني الوديعة ثم جاء

(١) ط: «وعرضها عليه».

(٢) ب: «ذلك العِقد».

(٣) تكملة من كتاب الأذكياء.

(٤) ط: «ثم جحد».

(٥) الأذكياء: ٣١، ٣٢.

(٦) ط: «أعلّمته».

الأمين إلى إياس ليأخذ المال الموعود به، فزجره وقال له: لا تقربني بعد هذا يا خائن^(١). ومثله: وَلِيَ الْقَضَاءُ بِوَاسِطِ رَجُلٍ ثَقَّةٍ مَشْهُورٍ بِالذِّينِ وَالذِّكَاءِ الْمَفْرُطِ فَجَاءَهُ رَجُلٌ اسْتَوْدَعَ بَعْضَ الشُّهُودِ كَيْسًا مَخْتُومًا ذَكَرَ أَنَّ فِيهِ أَلْفَ دِينَارٍ فَلَمَّا حَصَلَ الْكَيْسُ عِنْدَ الشَّاهِدِ وَطَالَتْ غَيْبَةُ الْمُوْدَعِ ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَهَمَّ بِإِنْفَاقِ الْمَالِ، وَخَشِيَ مِنْ مَجِيءِ صَاحِبِهِ، فَفَتَّقَ الْكَيْسَ مِنْ أَسْفَلِهِ، وَأَخَذَ الدَّنَانِيرَ، وَجَعَلَ مَكَائِهَا دَرَاهِمَ، وَأَعَادَ الْخِيَاطَةَ كَمَا كَانَتْ. فَقُدِّرَ أَنَّ الرَّجُلَ حَضَرَ إِلَى وَاسِطِ، وَطَالَبَ الشَّاهِدَ بِوَدِيعَتِهِ، فَأَعْطَاهُ الْكَيْسَ بِخَتْمِهِ، فَلَمَّا حَصَلَ فِي مَنْزِلِهِ فَضَّ خَتْمَهُ، فَإِذَا فِي الْكَيْسِ دَرَاهِمَ، فَرَجَعَ إِلَى الشَّاهِدِ، وَقَالَ لَهُ: ازْدُدْ عَلَيَّ مَالِي، فَإِنِّي أُوْدَعْتُكَ دَنَانِيرَ، وَالَّذِي وَجَدْتُ دَرَاهِمَ، فَأَتَكَّرَ [فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ الشَّاهِدِ مَعَ خَصْمِهِ]^(٢) فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ الْقَاضِي الْمَتَقَدِّمُ ذِكْرَهُ فَلَمَّا حَضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ الْحَاكِمُ لِلْمُسْتَوْدَعِ: مُنْذُ كَمْ أُوْدَعَكَ الْكَيْسَ؟ قَالَ: مِنْذُ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ، فَقَالَ الْقَاضِي لَصَاحِبِ الْكَيْسِ أَحْضِرْ لِي الدَّرَاهِمَ، فَأَحْضَرَهَا، فَقَالَ الْقَاضِي لِلشُّهُودِ: اغْتَبِرُوا تَوَارِيخَ الدَّرَاهِمِ، فَفَرَّأُوا سِجْكَهَا فَإِذَا فِيهَا مَالُهُ مَدَّةَ سَنَتَيْنِ؟ وَثَلَاثَ سَنِينَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَ لَهُ الدَّنَانِيرَ، فَدَفَعَهَا، وَعَزَّرَهُ الْقَاضِي، وَطَافَ بِهِ الْبَلَدَ، وَأَسْقَطَهُ^(٣).

ومثله بل أغرب منه: أَنَّ رَجُلًا اسْتَوْدَعَ رَجُلًا مَالًا، ثُمَّ طَلَبَهُ فَجَحَدَهُ، فَخَاصَمَهُ إِلَى إِيَّاسَ، وَقَالَ الْمُدَّعِي: إِنِّي أَطَالِبُهُ بِمَا أُوْدَعْتُهُ إِيَّاهُ، وَقَدَّرَهُ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ لَهُ إِيَّاسُ: وَمَنْ حَضَرَكَ؟ قَالَ: رَبُّ الْعِرْزَةِ كَانَ حَاضِرًا، قَالَ: دَفَعْتَهُ إِلَيْهِ فِي أَيِّ مَكَانٍ؟ قَالَ: فِي مَوْضِعٍ كَذَا، قَالَ: فَأَيُّ شَيْءٍ تَعْهَدُهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ؟ قَالَ: شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، قَالَ: فَانْطَلِقْ إِلَى الْمَوْضِعِ، وَانْظُرْ إِلَى الشَّجَرَةِ، لَعَلَّ اللَّهَ يَظْهَرُ لَكَ عَلَامَةً يَتَبَيَّنُ بِهَا حَقُّكَ، وَلَعَلَّكَ دَفَنْتَ مَالَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَنَسِيتَ فَتَذَكَّرَهُ إِذَا رَأَيْتَ الشَّجَرَةَ.

فَمَضَى الرَّجُلُ مَسْرَعًا. فَقَالَ إِيَّاسُ لِلرَّجُلِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ: اقْعُدْ حَتَّى يَرْجِعَ خَصْمُكَ، فَجَلَسَ، وَإِيَّاسٌ يَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا هَذَا أَتَرَى صَاحِبَكَ بَلَغَ مَوْضِعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ إِنَّكَ لَخَائِنٌ، فَقَالَ: أَقْلِنِي أَقَالَكَ اللَّهُ! فَأَمَرَ بِحِفْظِهِ حَتَّى جَاءَ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ إِيَّاسُ: قَدْ أَقْرَ لَكَ بِحَقِّكَ فَخُذْهُ^(٤).

وَمِنْ لَطَائِفِ الْمَنْقُولِ مِنْ كِتَابِ الْأَذْكَيَاءِ، أَنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ الْقَاضِي وَلِيَ الْقَضَاءَ بِالْبَصْرَةِ وَسَبْعَةَ عَشْرُونَ سَنَةً، فَاسْتَضَعَّرَهُ أَهْلُ الْبَصْرَةِ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: كَمْ سِنَّ الْقَاضِي؟ فَعَلِمَ يَحْيَى أَنَّهُ اسْتَضَعَّرَهُ، فَقَالَ: أَنَا أَكْبَرُ مِنْ عَتَّابِ بْنِ أَسِيدٍ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(٣) الأذكياء: ٤١.

(٤) الأذكياء: ٤٢.

(١) الأذكياء ٤٠، ٤١.

(٢) تكملة من كتاب الأذكياء.

قاضياً عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَأَنَا أَكْبَرُ مِنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ وَجَّهَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاضِياً عَلَى أَهْلِ الْيَمَنِ، وَأَنَا أَكْبَرُ مِنْ كَعْبِ بْنِ سُوْرٍ حِينَ وَلَّاهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَاضِياً عَلَى أَهْلِ الْبَصْرَةِ، قَالَ: فَعَظُمَ فِي أَغْيُنِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَهَابُوهُ.

وَمِنَ الْمَنْقُولِ مِنْ كِتَابِ الْأَذْكَيَاءِ أَنَّ بَعْضَ اللَّصُوصِ دَخَلَ بَيْتاً وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ تَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهَيْهِ فِي الْقَتْلِ وَالسَّرْقَةِ، فَظَفَرُوا بِصَاحِبِ الْبَيْتِ، وَأَوْقَفُوهُ لِلْقَتْلِ فَدَخَلَ^(١) عَلَيْهِمْ فِي إِبْقَاءِ رُوحِهِ^(٢)، وَأَخَذَ مَا فِي الْبَيْتِ بِكَمَالِهِ، فَقَالَ كَبِيرُهُمْ: حَلَفُوهُ بِالطَّلَاقِ الثَّلَاثِ، وَعَلَى الْمَصْحَفِ [الشَّرِيفِ] أَلَا يَذْكُرُنَا إِلَّا بِخَيْرٍ، فَحَلَفَ لَهُمْ بِالطَّلَاقِ الثَّلَاثِ وَعَلَى الْمَصْحَفِ^(٣) أَلَا يُعْلِمَ بِهِمْ أَحَدًا، فَأَصْبَحَ الرَّجُلُ يَرَى اللَّصُوصَ يَبِيعُونَ مَتَاعَهُ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِأَجْلِ الْيَمِينِ. فَجَاءَ إِلَى الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَأَعْلَمَهُ بِحَالِهِ^(٤)، فَقَالَ لَهُ: أَحْضِرْ أَكْبَرَ حَيْكٍ، وَأَعْيَانَ جِيرَانِكَ، وَإِمَامَ جَمَاعَتِكَ، فَلَمَّا حَضَرُوا قَالَ لَهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ: هَلْ تُحِبُّونَ أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ مَتَاعَهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: أَجْمَعُوا كُلَّ ذِي عِرْقٍ مِنْهُمْ، فَأَدْخَلُوهُمْ الْجَامِعَ، ثُمَّ أَخْرَجُوهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، وَكُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ قَالُوا: هَذَا لِيُكِّ، فَإِنْ كَانَ لَيْسَ بِلِصٍّ قَالَ: لَا، وَإِنْ كَانَ لِيُكِّهَ فَيَسْكُتَ، فَإِذَا سَكَتَ فَاقْبِضُوا عَلَيْهِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَردَّ اللَّهُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا سُرِقَ لَهُ^(٥).

وَمِنْهُ أَنَّ الرَّبِيعَ صَاحِبَ الْمَنْصُورِ كَانَ يُعَادِي أَبَا حَنِيفَةَ، فَحَضَرَ يَوْمًا عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ الرَّبِيعُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ يَخَالِفُ جَدَّكَ ابْنَ عَبَّاسٍ، وَكَانَ جَدُّكَ يَقُولُ: إِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ عَلَى شَيْءٍ يَمِينًا ثُمَّ اسْتَنْتَى بَعْدَ ذَلِكَ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: لَا يَجُوزُ الْإِسْتِثْنَاءُ^(٦) إِلَّا مُتَّصِلًا بِالْيَمِينِ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ الرَّبِيعَ يَزْعُمُ أَنَّ لَيْسَ لَكَ فِي رِقَابِ جُنْدِكَ عَهْدٌ. قَالَ: كَيْفَ [ذَلِكَ]^(٧)؟

قَالَ: يَخْلِفُونَ لَكَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فَيَسْتَنْتُونَ، فَتَبْطُلُ أَيْمَانُهُمْ. فَضَحِكَ الْمَنْصُورُ، وَقَالَ: يَا رَبِيعَ، لَا تَتَعَرَّضْ لِأَبِي حَنِيفَةَ^(٨).

وَمِنْهُ أَنَّ الْإِمَامَ أَبَا حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ الْبَادِيَةَ فَاحْتَجْتُ إِلَى الْمَاءِ،

(١) فِي ط: «فَتَدَخَلَ».

(٢) ط: «مَهْجَتِهِ».

(٣) تَكْمِلَةٌ مِنْ ب.

(٤) فِي ب: «بِالْحَالِ».

(٥) الْأَذْكَيَاءُ ٤٥، ٤٦.

(٦) ط: «وَأَبُو حَنِيفَةَ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ إِلَّا مُتَّصِلًا».

(٧) تَكْمِلَةٌ مِنْ ب، ط.

(٨) الْأَذْكَيَاءُ: ٤٦.

فجاءني أعرابيٌّ ومعه قِرْبَةٌ مَلَانَةٌ، فأبى أَنْ يَبِيعَهَا إِلَّا بِخَمْسَةِ دَرَاهِمٍ فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ، ثُمَّ أَخَذْتُ الْقِرْبَةَ، فَقُلْتُ: مَا رَأَيْكَ يَا أَعْرَابِيَّ فِي السُّوَيْقِ؟ فَقَالَ: هَاتِ، فَأَعْطَيْتُهُ سُوَيْقًا مَلْتُوتًا بِزَيْتٍ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ حَتَّى امْتَلَأَ، ثُمَّ عَطَشَ، فَقَالَ عَلَيَّ بِشْرَبَةٍ، فَقُلْتُ [لَهُ] ^(١): بِخَمْسَةِ دَرَاهِمٍ عَلَى قَدَحٍ مِنْ مَاءٍ، فَاسْتَرَدَّدْتُ الْخَمْسَةَ، وَبَقِيَ الْمَاءُ ^(٢).

وَمِنْهُ أَنَّ رَجُلًا اسْتَوْدَعَ ^(٣) رَجُلًا مَالًا، وَحَجَّ وَرَجَعَ، فَطَلَبَهُ فَجَحَدَهُ وَجَعَلَ يَحْلِفُ لَهُ، فَاَنْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ، فَخَلَا بِهِ وَأَخْبَرَهُ بِأَمْرِهِ ^(٤)، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ: لَا تُعْلِمَ ^(٥) أَحَدًا بِجُحُودِهِ - وَكَانَ الرَّجُلُ يُجَالِسُ أَبَا حَنِيفَةَ - فَقَالَ لَهُ: وَقَدْ خَلَا لِهَمَا الْمَكَانُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ بَعَثُوا يَسْتَشِيرُونِي فِي رَجُلٍ يَصْلُحُ لِلْقَضَاءِ، وَقَدْ اخْتَرْتُكَ، فَانصَرَفَ مِنْ عِنْدِ الْإِمَامِ وَقَدْ طَمِعَ بِذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَ صَاحِبَ الْوَدِيعَةِ، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ: ارْجِعْ إِلَى صَاحِبِكَ وَذَكِّرْهُ لَاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ نَاسِيًا فَذَهَبَ إِلَيْهِ، وَسَأَلَهُ فَلَمْ يَخْتَجْ مَعَهُ إِلَى عِلَامَةٍ، بَلْ دَفَعَ إِلَيْهِ مَتَاعَهُ، وَتَوَجَّهَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ: إِنِّي نَظَرْتُ فِي أَمْرِكَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْفَعَ قَدْرَكَ، وَلَا أُسَمِّكَ حَتَّى يَحْضُرَ مَا هُوَ أَنْفَسُ مِنْ هَذَا ^(٦).

وَمِنْهُ أَنَّهُ كَانَ بِجَوَارِ أَبِي حَنِيفَةَ شَابٌّ يَغْشَى مَجْلِسَهُ، فَقَالَ لَهُ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ: يَا إِمَامُ، إِنِّي أُرِيدُ التَّزْوِيجَ إِلَى فُلَانَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَقَدْ خَطَبْتُهَا مِنْ وَلِيِّهَا، فَطَلَبَ مِنِّي مِنَ الْمَهْرِ فَوْقَ وَسْعِي وَطَاقَتِي، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: فَاسْتَخِرِ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَعْطِهِمْ مَا طَلِبُوا مِنْكَ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا، فَلَمَّا عَقَدُوا النِّكَاحَ جَاءَ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ، فَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا مِنِّي الْبَعْضَ، وَيَدْعُوا الْبَعْضَ عِنْدَ الدُّخُولِ، فَأَبَوْا، فَمَا تَرَى؟ قَالَ: اخْتَلْ، وَافْتَرِضْ حَتَّى تَدْخُلَ بِأَهْلِكَ، فَإِنَّ الْأَمْرَ يَكُونُ أَسْهَلَ عَلَيْكَ مِنْ تَعْقِيدِهِمْ. فَفَعَلَ ذَلِكَ؛ فَلَمَّا زُفَّتْ إِلَيْهِ، وَدَخَلَ بِهَا، قَالَ لَهُ أَبُو حَنِيفَةَ: مَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تُظْهِرَ الْخُرُوجَ بِأَهْلِكَ عَنْ هَذَا الْبَلَدِ إِلَى مَوْضِعٍ بَعِيدٍ. فَافْتَرَى الرَّجُلُ جَمَلَيْنِ وَأَحْضَرَ آلَاتِ السَّفَرِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يَرِيدُ الْخُرُوجَ مِنَ الْبَلَدِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ، وَأَنْ يَصْحَبَ أَهْلَهُ مَعَهُ، فَاسْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْمَرْأَةِ وَجَاؤُوا إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ يَسْتَشِيرُونَهُ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ: لَهُ أَنْ يَخْرُجَهَا إِلَى حَيْثُ شَاءَ، فَقَالُوا: لَمْ نَصْبِرْ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: فَأَرْضَوْهُ بِأَنْ تَرُدُّوا عَلَيْهِ مَا أَخَذْتُمْ مِنْهُ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ لِلْفَتَى: إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ سَمِعُوا، وَأَجَابُوا إِلَى أَنْ يَرُدُّوا عَلَيْكَ مَا أَخَذُوا مِنْكَ مِنَ الْمَهْرِ، وَيُبْرِثُوكَ مِنْهُ، فَقَالَ

(١) تكملة من ب.

(٢) الأذكياء ٤٧.

(٣) ط: «أنه استودع رجل بالكوفة رجلاً».

(٤) ط: «بذلك».

(٥) ط: «لا تكلم».

(٦) الأذكياء: ٤٧.

الفتى: لا بُدَّ من زيادة أخذها منهم، فقال أبو حنيفة: أيما أحب إليك، أن ترضى بما بذلوا لك، وإلا أقرت المرأة لرجل بدين عليها يزيد على المهر، ولا يُمكنك حملها، ولا السفرُ بها حتى تقضي ما عليها من الدين؟ قال فقال الفتى: الله الله يا إمام! لا يسمع أحدٌ منهم بذلك، ثم أجاب وأخذ ما بذلوه من المهر^(١).

ومنه أن رجلاً جاء إلى أبي حنيفة، وقال: يا إمام، دفنتُ مالا من مدة طويلة، ونسيتُ الموضعَ الذي دفنتُهُ فيه، فقال الإمام: ليس في هذا فقه فأختالَ لك، ولكن اذهب فصلَّ الليلة إلى الغداة، فإنك ستذكره إن شاء الله تعالى؛ ففعل، فلم يَمْضِ إلَّا أقل من رُبْع الليل حتى ذكر الموضعَ الذي فيه، فجاء إلى أبي حنيفة فأخبره، فقال: قد عَلِمْتُ أَنَّ الشيطان لا يدَعُكَ تُصَلِّي الليل كله، فهَلَّا أتممتَ ليلتك كلها شكراً لله تعالى.

ومنه أن بعضهم كانت له زوجة جميلة، وكان يُحبُّها حبًّا شديداً، وتَبَغَّضَهُ بُغْضاً شديداً، ولم تَزَلْ المُنافرة بينهما البتَّة، فأضجره ذلك، وطالت مدة تجرُّئها عليه في تغليظ الكلام^(٢)، فقال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً بتاتاً إن خاطبتني بشيء، ولم أخاطبك بشيء مثله، فقالت له في الحال: أنت طالق ثلاثاً بتاتاً. فأبلس^(٣) الرجل، ولم يَذِرْ ما يجيب! وخاف في جوابها من وقوع الطلاق، فأرشدَ إلى أبي جعفر الطبري، فأخبره بما جرى، فقال له: إذا طالبتك بالجواب فقل لها: أنت طالق ثلاثاً بتاتاً إن أنا طلقتك، فتكون قد خاطبتَها ووقيتَ بيمينك.

ومنه قيل: إنَّ ذا النون المِصْرِيَّ - رحمه الله - كان يعرف الاسمَ الأعظم، فقال يوسفُ بنُ الحسين: لما تحققتُ عنه ذلك، قَصَدْتُ مصر، وخدمته سنة، ثم قلت له: رحمك الله، إنِّي قد خدمتك، ووجب حقِّي عليك وأشتهي أن تُعرِّفني اسمَ الله الأعظم، [وقد عَرَفْتَنِي]^(٤) فلا تجد له موضعاً مثلي قال: فسكت ولم يجبني سِتَّة أشهر، وأوماً إليَّ أَنَّهُ يَعْلَمُنِي. ثم أخرج من بيته طبقاً ومِكبَّة، وقد شُدَّاً بمنديل - وكان ذو الثون يسكن الجيزة - فقال: تعرف فلاناً صديقنا من الفُسطاط؟ قلت: نعم. قال: فأحبُّ أن تُؤدِّيَ هذا إليه، قال: فأخذت الطبق وهو مشدود، وجعلتُ أمشي طول الطريق وأقول: مثلُ ذي النون يُوجِّه إلى فلانٍ بهديهِ! تُرَى أيُّ شيء هي؟ فلم أصبر إلى أن بلغت الجسر، فحلَلْتُ المِندِيلَ، ورفعتُ المِكبَّة، فإذا فأرَّةٌ نَفَرْتُ^(٥) من

(١) الأذكياء: ٤٧، ٤٨.

(٢) ب: «الخطاب».

(٣) أبلس الرجل: سكت وتحير، والمبلس: الساكت على ما في نفسه.

(٤) تكملة من الأذكياء.

(٥) ب: «قفزت».

الطَّبَق، وفَرَّت، فاغتنط غيظاً شديداً، وقلت: ذو الثَّونِ المِصري يَسْخَرُ بي، ويوجه مع مثلي فأرة؟ فرجعت على ذلك الغَيْظ، فلَمَّا رَأَيْتُ علم ما في وجهي، فقال: يا أحمق، أَتَمَتَّنْكَ على فأرة فحُتَّتَنِي، فكيف أَتَمِنُكَ على اسم الله الأعظم! مَرُّ عَنِّي فلا أراك أبداً^(١).

ومن ذلك ما هو منقول عن الإفراط في ذكاء العرب قِيل، سار مُضر وربيعة وإياد وأنمار أولاد نِزار بن معدّ إلى أرض نَجْران، فبينما هم يسرون إذ رأى مُضرُ كلاً قد رُعِي، فقال: البعير الذي رَعَى هذا أعور، فقال ربيعة: وهو أَرُوْر، وقال إياد: وهو أبتَر، وقال أنمار: هو شَرود. فلم يسيرا إلا قليلاً حتى لقيهم رجل على راحلة، فسألهم عن البعير، فقال مُضر: أهو أغور؟ قال: نعم، قال ربيعة: أهو أَرُوْر؟ قال: نعم، قال إياد: أهو أبتَر؟ قال: نعم، قال أنمار: أهو شَرود؟ قال: نعم، والله هذه صفات بعيري، دُلُونِي عليه، فحلفوا أنهم ما رَأَوْه، فَلَزِمَهُمْ.

وقال: كيف أَصَدَّقُكم وأنتم تَصِفُون بَعِيرِي بِصِفَتِهِ! فساروا حتى قربوا نَجْران، فنزلوا بالأفْعَى الجَرْهَمِي، فنَادَى صاحبُ البَعِير: هَؤُلاءِ القوم وصفوا لي بعيري بصفته، ثم أَتَكَرَّوه. فقال الجَرْهَمِي: كيف وصفْتُموه. ولم تَرَوْه؟ فقال مُضر: رأيتُه يَزْعِي جانباً وَيَدْعُ^(٢) جانباً فَعَلِمْتُ أَنَّهُ أَغُور. وقال ربيعة: رأيتُ إِحْدَى يَدَيْهِ ثَابِتَةَ الأَثَرِ والأُخْرَى فَاسِدَةَ الأَثَرِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ أَفْسَدَهَا بِشِدَّةِ وَطْئِهِ لِأَزُورَارِهِ. وقال إياد: عَرَفْتُ بَتْرَهُ بِاجْتِمَاعِ بَعْرِهِ، ولو كان دَيَّالاً لَتَفَرَّقَ. وقال أنمار: عَرَفْتُ أَنَّهُ شَرُودٌ؛ لأنَّه كان يَرْعَى فِي المَكَانِ المَلْتَفِّ نَبْتَهُ، ثم يَجُوزُهُ إِلَى مَكَانٍ أَرْقَ مِنْهُ وَأَخْبَثَ. فقال الأَفْعَى: لیسوا بأصحاب بعيرك، فاطلبه.

ثم سألهم مَنْ هم؟ فَأَخْبَرُوهُ؛ فَرَحَّبَ بِهِمْ وَأَصَافَهُمْ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِمْ^(٣). ومنه أَنَّ عُقْبَةَ الأَزْدِيِّ كان مشهوراً بمعالجة الجان^(٤)، وصدق العزائم، فَأَتَوْهُ بجارية قد جُنَّتْ فِي لَيْلَةِ عُرْسِهَا، فَعَزَمَ عَلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ قَدْ سَقَطَتْ، فقال لأهلها: اخلُونِي بِهَا، فَأَجَابُوهُ، فَلَمَّا خَلَا بِهَا، قال لها: أَصْدَقْنِي عَنْ نَفْسِكَ وَعَلَيَّ خِلَاصُكَ، فقالت: إِنَّه كان لي صديق وأنا في بيت أهلي، وَلَهُمْ أَرَادُوا أَنْ يُدْخِلُونِي عَلَى زَوْجِي وَلَسْتُ بِبِكْرٍ، فَخِفْتُ الْفَضِيحَةَ، فَهَلْ عِنْدَكَ حِيلَةٌ فِي أَمْرِي؟ فقال: نعم، ثم خَرَجَ إِلَى أَهْلِهَا فقال: إِنَّ الْجِنِّي قَدْ أَجَابَنِي إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا، فَاخْتَارُوا مِنْ أَيِّ غُضُوٍ اتَّحِبُّونَ أَنْ

(١) الأذكياء: ٥٣.

(٢) ط: «ويترك».

(٣) الأذكياء: ٥٣، ٥٤.

(٤) ط: «الجن».

أخرجه من أعضائها^(١). واعلموا أنَّ العُضْوَ الذي يخرج منه الجِنِّي لا بُدَّ أن يَهْلِكَ وَيُفْسَد، فإن خَرَجَ من عَيْنِهَا عَمِيثٌ، وإن خَرَجَ من أُذُنِهَا صَمْتٌ [وإن خرج من فَمِهَا خَرِصَتْ] وإن خرج من يدها شُلْتُ، وإن خرج من رجلها زَمِنْتُ^(٢)، وإن خرج من فَرْجِهَا ذَهَبَتْ بَكَارَتُهَا.

فقال أهلها: إِنَّا لَمْ نَجِدْ شيئاً أهون من ذهاب عُذْرَتِهَا، فَأَخْرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ. فَأَوْهَمَهُمْ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ. وَأَدْخَلَتِ الْمَرْأَةُ عَلَى زَوْجِهَا^(٣).

ومن ذلك أن الإمام عمر بن الخطَّاب - رضي الله عنه - استعمل رجلاً [من قريش]^(٤) على عَمَلٍ، فبلَّغَهُ عنه أنه قال:

اسْقِنِي شَرْبَةَ أَلَدٍ عَلَيْهَا واسقِ باللهِ مثْلَهَا ابنَ هِشَامٍ
قال: فَأَشْخَصْتَهُ [إليه، وذكر أنه إنما أشخصه من أجل البيت]^(٥) وعلم الرجلُ
بالحال، فضَمَّ إِلَيْهِ بَيْتاً آخَرَ، فلَمَّا قَدِمَ عَلَى الإمام، قال: أَلَسْتُ الْقَاتِلَ:

اسْقِنِي شَرْبَةَ أَلَدٍ عَلَيْهَا واسقِ باللهِ مثْلَهَا ابنَ هِشَامٍ
قال: نعم يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إن لِهَذَا الْبَيْتِ ثَانِيًا، وَهُوَ:
عَسَلًا بَارِدًا بِمَاءِ سَحَابٍ إِنْنِي لَا أَحِبُّ شُرْبَ الْمُدَامِ
فقال الإمام: اللَّهُ إِلَهًا! ازْجِعْ إِلَى عَمَلِكَ^(٦).

ومن لطائف هزليات الأذكياء أنَّ الرَّشِيدَ خَرَجَ مُتَنَزِّهاً فَأَنْفَرَدَ عَنِ الْعَسْكَرِ وَمَعَهُ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ، فإِذَا هُوَ بِشَيْخٍ قَدْ رَكَبَ حِمَاراً ضَعِيفاً، وَهُوَ رَطْبُ الْعَيْنِينَ، فَعَمَزَ الْفَضْلُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا شَيْخٌ؟ فَقَالَ: حَائِطًا لِي^(٧)، قَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ أَذْلِكَ عَلَى شَيْءٍ تُدَاوِي بِهِ عَيْنِكَ فَتَذْهَبَ هَذِهِ الرُّطُوبَةُ؟ فَقَالَ: مَا أَخَوَجَنِي إِلَى ذَلِكَ؛ قَالَ: فَخُذْ عِيدَانَ الْهَوَاءِ^(٨)، وَغِبَارَ الْمَاءِ، وَوَرَقَ الْكَمَا؛ فَصَيِّرِ الْجَمِيعَ فِي قَشَرِ جَوْزَةٍ، وَاكْتَحِلْ مِنَ الْقِشْرِ، فَإِنَّهُ يَذْهَبُ رُطُوبَةُ عَيْنِكَ.

فَاتَّكَأَ الشَّيْخُ عَلَى ظَهْرِ حِمَارِهِ، وَضَرَطَ ضَرْطَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ قَالَ: خُذْ هَذِهِ الضَّرْطَةَ أَجْرَةً وَصَفِكَ، فَإِنْ نَفَعْنَا زِدْنَاكَ. فَصَحَّحَكَ الرَّشِيدُ حَتَّى كَادَ يَسْقُطُ عَنْ ظَهْرِ دَابَّتِهِ^(٩).

ومن الجِدِّ الْمَفْجَحِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ يَوْمًا لِلْإِمَامِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا دَفَنْتُمْ

(١) تكملة من الأذكياء.

(٢) زمنت: أصيبت بعاة.

(٣) الأذكياء: ٦٥

(٤) تكملة من كتاب الأذكياء.

(٥) ٤ب، ط: «الهُوَى».

(٦) تكملة من كتاب الأذكياء.

(٧) الحائط: البستان.

(٨) ٤ب، ط: «الهُوَى».

(٩) كتاب الأذكياء: ٨٥.

نَبِيَّكُمْ حَتَّى قَالَتْ الْأَنْصَارُ: مِثْلًا أَمِيرٍ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ. فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ: أَنْتُمْ مَا جَعَلْتُمْ أَقْدَامَكُمْ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ حَتَّى قَلْتُمْ: ﴿يَكُونُ أَجْعَلُ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ إِلَهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ومنه أَنَّ الْمُتَوَكَّلَ قَالَ يَوْمًا لَجُلَسَائِهِ: نَقَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عُثْمَانَ أَشْيَاءَ؛ مِنْهَا أَنَّ الْإِمَامَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا تَسَنَّمَ الْمَنْبِرَ هَبَطَ عَنْ مَقَامِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَرْقَاةٍ، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ دُونَ مَقَامِ أَبِي بَكْرٍ، وَصَعِدَ عُثْمَانُ ذِرْوَةَ الْمَنْبِرِ، فَقَالَ عَبَادُ: مَا أَحَدٌ أَعْظَمَ مَنَّةً عَلَيْكَ مِنْ عُثْمَانَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! قَالَ: وَكَيْفَ، وَيَلَيْكَ! قَالَ: لِأَنَّهُ صَعِدَ ذِرْوَةَ الْمَنْبِرِ، وَلَوْ أَنَّهُ كَلَّمَا قَامَ خَلِيفَةً نَزَلَ مَرْقَاةً، وَنَزَلَ عُثْمَانُ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ، كُنْتَ أَنْتَ تَخْطُبُنَا مِنْ بَشَرٍ! فَضَحَكَ الْمُتَوَكَّلُ وَمَنْ حَوْلَهُ.

ومن المنقول عن أذكى الأطباء أَنَّ جاريةً من جَوَارِي^(١) الرَّشِيدِ تَمَطَّتْ، فَلَمَّا^(٢) أَرَادَتْ أَنْ تَمُدَّ يَدَهَا^(٣) لَمْ تُطِقْ، وَحَصَلَ فِيهَا الْوَرَمُ، فَصَاحَتْ وَأَلَمَهَا [ذَلِكَ]^(٤)، فَشَقَّ عَلَى الرَّشِيدِ، وَعَجَزَ الْأَطْبَاءُ عَنْ عِلَاجِهَا، فَقَالَ لَهُ طَبِيبٌ حَازِقٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا أَنْ يَدْخُلَ إِلَيْهَا رَجُلٌ أَجْنَبِيٌّ غَرِيبٌ، فَيَخْلُوَ بِهَا، وَيَمْرُخَهَا^(٥) بَدَنٍ نَعْرِفُهُ. فَأَجَابَهُ الْخَلِيفَةُ إِلَى ذَلِكَ رَغْبَةً فِي عَافِيَتِهَا، فَأَخْضَرَ الطَّبِيبُ الرَّجُلَ وَالذَّهْنَ، وَقَالَ: أُرِيدُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَأْمُرُ بِتَغْرِيتِهَا حَتَّى يَمْرُخَ جَمِيعَ أَعْضَائِهَا بِهَذَا الدَّهْنِ؛ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْخَلِيفَةِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَفْعَلَ، وَأَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ قَتْلَ الرَّجُلِ، وَقَالَ لِلْخَادِمِ: خُذْهُ وَأَدْخِلْهُ عَلَيْهَا، بَعْدَ أَنْ تُغَرِّيَهَا؛ فَغَرَّيْتُ الْجَارِيَةَ وَأَقِيمْتُ. فَلَمَّا دَخَلَ الرَّجُلُ عَلَيْهَا، وَقَرَّبَ مِنْهَا، وَسَعَى إِلَيْهَا، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى فَرْجِهَا لِيَمْسَهُ غَطَّتِ الْجَارِيَةُ فَرْجَهَا بِيَدِهَا الَّتِي قَدْ كَانَتْ عَطَلَتْ حَرَكَتَهَا، وَلَشِدَّةً مَا دَاخَلَهَا مِنَ الْحَيَاءِ وَالْجَزَعِ حَمِيَ جَسْمُهَا بِانْتِشَارِ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ، فَأَعَانَهَا عَلَى مَا أَرَادَتْ مِنْ تَغْطِيَةِ فَرْجِهَا وَاسْتِعْمَالِ يَدِهَا فِي ذَلِكَ. فَلَمَّا غَطَّتْ فَرْجَهَا قَالَ لَهَا الرَّجُلُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْعَافِيَةِ! فَأَخَذَهُ الْخَادِمُ وَجَاءَ بِهِ إِلَى الرَّشِيدِ، وَأَعْلَمَهُ بِالْحَالِ وَمَا اتَّفَقَ، فَقَالَ الرَّشِيدُ لِلرَّجُلِ: فَكَيْفَ نَعْمَلُ فِي رَجُلٍ نَظَرَ إِلَى حُرْمِنَا^(٥)! فَمَدَّ الطَّبِيبُ يَدَهُ إِلَى لَحْيَةِ الرَّجُلِ فَانْتَزَعَهَا فَإِذَا هِيَ مُلَصَّقةٌ، وَإِذَا الشَّخْصُ جَارِيَةً، وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا كُنْتُ لِأَبْذُلَ حُرْمَكَ لِلرِّجَالِ، وَلَكِنْ خَشِيتُ أَنْ أَكْشِفَ لَكَ الْخَبَرَ فَيَتَّصَلَ بِالْجَارِيَةِ فَتَبْطُلَ الْحِيلَةُ، وَلَا يُفِيدَ الْعِلَاجُ؛ لِأَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُدْخِلَ

(١) فِي أ: «مِنْ خَوَاصِّ».

(٢ - ٢) كَذَا فِي ط، وَفِي أ: «فَلَمَّا جَاءَتْ تَمْدِيدَهَا»، وَفِي ب: «فَلَمَّا جَاءَتْ تَرْدِيدَهَا».

(٣) زِيَادَةٌ مِنْ كِتَابِ الْأَذْكَيَاءِ.

(٤) يَمْرُخُهَا: يَدْنُهَا بِالدَّهْنِ الْمَعْرُوفِ بِالْمَرْوِخِ.

(٥) فِي ب «مَدَّ يَدَهُ».

على قلبها فزعاً شديداً ليحمي طَبْعُها، ويقودُها إلى تحريك يدها، وتمشي الحرارة الغريزية في سائر أعضائها بهذه الواسطة .

فَسُرِّيَ عن الرشيد ما كان وَقَر في صدره من الرَّجُل، وَأَجْزَلَ عَطِيَّتِهِ^(١).

ومن المنقول عن أذكىاء المتطفلين، قَالَ أَبُو عَمْرٍو الْجَهْضَمِيُّ^(٢): كَانَ لِي جَارٌ طُفَيْلِيٌّ، وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ مَنْظَرًا، وَأَعْذِبُهُمْ مَنْطَقًا، وَأَطْيَبُهُمْ رَائِحَةً، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ إِذَا دُعِيَ إِلَى وَلِيمَةٍ يَتَّبِعُنِي، فَيُكْرِمُهُ النَّاسُ مِنْ أَجْلِي، وَيَظُنُّونَ صُحْبَتِي لَهُ، فَاتَّفَقَ أَنْ جَعْفَرُ بْنُ الْقَاسِمِ الْهَاشِمِيُّ أَمِيرَ الْبَصْرَةِ أَرَادَ أَنْ يَخْتَنَ بَعْضَ أَوْلَادِهِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: كَأَنِّي بِرَسُولِ الْأَمِيرِ قَدْ جَاءَنِي، وَكَأَنِّي بِالطُّفَيْلِيِّ قَدْ تَبِعَنِي، وَاللَّهِ لَئِنْ فَعَلَ لَأَفْضَحَنَّهُ. فَأَنَا عَلَى ذَلِكَ إِذْ جَاءَنِي رَسُولُ الْأَمِيرِ يَدْعُونِي، فَمَا زِدْتُ عَلَى أَنْ لَيْسَتْ ثِيَابِي وَخَرَجْتُ، فَإِذَا أَنَا بِالطُّفَيْلِيِّ وَقَفَ عَلَى بَابِ دَارِهِ، وَقَدْ سَقَنِي بِالتَّأَهُبِ، فَتَقَدَّمْتُ وَتَبِعَنِي، فَلَمَّا [دَخَلْنَا دَارَ الْأَمِيرِ جَلَسْنَا سَاعَةً، وَدُعِيَ بِالطَّعَامِ]^(٣) وَحَضَرَتِ الْمَوَائِدُ، كَانَ مَعِيَ عَلَى الْمَائِدَةِ، فَلَمَّا مَدَّ يَدَهُ لِيَأْكُلَ، قُلْتُ: حَدَّثَنِي دُوسْتُ بْنُ زِيَادٍ، عَنْ أَبَانَ بْنِ طَارِقٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَأَكَلَ طَعَامَهُمْ، دَخَلَ سَارِقًا، وَخَرَجَ مُغِيرًا». فَلَمَّا سَمِعَ الطُّفَيْلِيُّ ذَلِكَ، قَالَ: أَنْفَتُ لَكَ وَاللَّهِ ذَلِكَ يَا أَبَا عَمْرٍو مِنْ هَذَا الْكَلَامِ عَلَى مَائِدَةِ سَيِّدٍ مَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ! فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْجَمَاعَةِ إِلَّا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّكَ تُعَرِّضُ بِهِ دُونَ صَاحِبِهِ، وَقَدْ بَخَلْتَ بِطَعَامِ غَيْرِكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، ثُمَّ مَا اسْتَحْيَيْتَ حَتَّى حَدَّثْتَ عَنْ دُوسْتِ بْنِ زِيَادٍ - وَهُوَ ضَعِيفٌ - وَعَنْ أَبَانَ بْنِ طَارِقٍ - وَهُوَ مَتْرُوكُ الْحَدِيثِ - وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى خِلَافِ مَا ذَكَرْتَ، فَإِنَّ حُكْمَ السَّارِقِ الْقَطْعُ، وَحُكْمُ الْمُغِيرِ أَنْ يَعْزُرَ^(٤) عَلَى مَا يَرَاهُ الْإِمَامُ، وَأَيُّنَ أَنْتَ مِنْ حَدِيثِ حَدَّثَنَاهُ أَبُو عَاصِمٍ، عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الْاِثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الْاِثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ، وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ»؛ وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَمَثْنٌ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. قَالَ أَبُو عَمْرٍو: وَاللَّهِ لَقَدْ أَفْحَمَنِي، وَلَمْ يَخْضُرْنِي لَهُ جَوَابٌ.

فَلَمَّا خَرَجْنَا [مِنَ الْمَوْضِعِ لِلانْصِرَافِ]^(٥)؛ فَارَقْنِي مِنْ جَانِبِ الطَّرِيقِ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَمْشِي وَرَائِي، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:

وَمَنْ ظَنَّ مِمَّنْ يُلَاقِي الْحُرُوبَ^(٦) بَأَلَّا يُصَابَ فَقَدْ ظَنَّ عَجْزًا^(٧)

(١) كتاب الأذكىاء: ١١٢.

(٢) في الأذكىاء: «نصر بن علي».

(٣) زيادة من كتاب الأذكىاء.

(٤) التعزير: ضرب دون الحد.

(٥) زيادة من كتاب الأذكىاء.

(٦) ب: «أن سيلاقى».

(٧) الأذكىاء ١١٣، ١١٤، والبيت للخنساء، ديوانها ١٤٦.

ومن المنقول عن أذكىاء المتلصّصين أنّ بعضَ التجار قال: احتال عليّ رجل بحوالة، فكان يأتيّني كلّ يوم، ويأخذ قدر نفقته إلى أنّ نفدت، وصار بيننا معرفة، وألف الجلوس عندي، وكان يراني أخرج من صندوق لي فأعطيه منه، فقال لي يوماً: إنّ قفلَ الرجل صاحبه في سفره، وأمينه في حضره، وخليفته على حفظ ماله، [والذي ينفي الظنّة عن أهله وعياله]^(١) وإن لم يكن وثيقاً تطرّقت الجيل إليه، وأرى قفلك هذا وثيقاً، فقل: ممّن ابتعته لأبتاع مثله لنفسي؟ فقلت: من فلان الأقفاليّ، قال: فما شعرت يوماً وقد جئت إلى دكانيّ، وتقدمت إلى الصندوق لأخرج منه شيئاً من الدراهم، ففتحتّه فإذا ليس فيه شيء. فقلت للغلامي - وهو أمين غير مُتهم عندي: هل أنكرت شيئاً من أحوال الدكان؟ قال: لا، قلت: ففتش هل ترى نقباً، أو في السّفف شيئاً؟ قال: لا، قلت: فاعلم أنّ الذي كان في الصندوق قد نُهب. وقلّق الغلام فأمسكته، وأقمتُ مفكراً، وتأخّر الرجل عني فتذكّرت سؤاله عن القفل، وقلت للغلام: أخبرني كيف تفتح دكانيّ وتغلّقه^(٢)؟ فقال: أحمل الدّراب^(٣) دفتين، وثلاث، حتى أضعها في محلها، وهكذا أضنع في غلقها. قلت: فمن تدع عند الدكان إذا نقلت الدّراب؟ قال: اتركه خالياً. قلت: فمن هاهنا دهيت؟ فمضيت إلى الصانع الذي ابتعت منه القفل، فقلت: جاءك إنسان منذ أيام اشترى منك مثل هذا القفل؟ فقال: نعم، رجل من صفته كذا وكذا - وأعطاني صفة صاحبي - فعلمت أنّه احتال على الغلام وقت المساء لما انصرفت أنا، [وبقي الغلام يحمل الدراب]^(٤)؛ ودخل الدكان، واختبأ فيه، ومعه مفتاح القفل الذي اشتراه يقع على قفلي، وأنّه أخذ المال، ومكث طول الليل إلى الصباح، فلما فتح الغلام وحمل الدّراب ليضعها في محلّها خرج، وأنه ما فعل ذلك إلّا وقد خرج من المدينة.

فخرجت من البصرة، ومعني قفلي ومفتاحي، فقال: أبتيّ [بطلب الرجل]^(٥) بواسط، فلما صعدت طلبتُ خاناً أنزله، فلما دخلت الخان وجدت قفلاً مثل قفلي على باب بيت، فقلت لقيّم الخان: هذا البيت من ينزله؟ قال: رجل قديم أمس من البصرة. فقلت: ما صفته؟ فوصف لي صفة صاحبي، فما شككت أنّه هو، وأنّ الدراهم في بيته. فاكتريت بيتاً إلى جانبهِ ورصدته حتى انصرف قيّم الخان، ففتحت القفل ودخلت البيت، فوجدت كيساً بعينه، فأخذته وخرجت، ووضعت قفله على

(١) تكلمة من الأذكىاء.

(٢) في ط: «وتقفله».

(٣) في اللسان: الدرب: الباب الأكبر و«جمعه دراب».

(٤) من كتاب الأذكىاء.

(٥) الأذكىاء: ١١٧، ١١٨.

بابه، ونزلت على القور في السفينة، وانحدرت إلى البصرة، ولم أقم بواسط غير ساعة من نهار، ورجعت إلى منزلي بمالي كله^(١).

ومن المنقول عن أذكيا الصبيان أنه وقف إياس بن معاوية وهو صبي إلى^(٢) قاضي دمشق ومعه شيخ، فقال: أصلىح الله القاضي! هذا الشيخ ظلمني، [واعتدى عليّ]^(٣)، وأكل مالي؛ فقال القاضي: ازق بالشيخ، ولا تستقبله بمثل هذا الكلام. فقال إياس: [أصلح الله القاضي]^(٢)، إن الحق أكبر مني ومنه ومنك. قال: اسكت. قال: فإن سكت فمن يقوم بحجتي! قال: فتكلم فوالله لا تتكلم بخير، فقال: لا إله إلا الله وخده لا شريك له. فبلغ ذلك الخليفة، فعزل القاضي، وولى إياساً مكانه^(٤).

ومن المنقول عن أذكيا النساء ما حكى المدائني، قال: خرج ابن زياد في فوارس، فلقوا رجلاً ومعه جارية لم ير مثلاً في الحسن، فصاحوا به: خل عنها، وكان معه قوس، [فرمى أحدهم]^(٥) فهابوه وهابوا الإقدام عليه، فعاد ليرمي، فانقطع الوتر، فهجموا عليه، وأخذوا الجارية، فهرب واشتغلوا عنه بالجارية؛ ومد بعضهم يده إلى أذنها وفيها قرط، وفي القرط ذرة [يتيمة]^(٤) لها قيمة عظيمة، فقالت: وما قدر هذه الذرة! إنكم لو رأيتم ما في قلنسوتي من الدر لا ستحقرتم هذه الذرة. فتركوها وأتبعوه، وقالوا له: ألق ما في قلنسوتك، وكان فيها وتر قد أعدّه فنسيه من الدهش، فلما ذكروه ركبته في القوس، [ورجع إلى القوم]^(٤). فولى القوم هارين، وخلوا عن الجارية.



ذكاء الحيوان

وحكى ابن الجوزي في كتاب الأذكيا نبذة عن الحيوان الذي كان بذكائه يشبه ذكاء آدميين؛ فمن ذلك أن بعض السُّقار^(٦) مرَّ بمقبرة، فإذا قبر عليه قبة مكتوب عليها: هذا قبر الكلب؛ فمن أحب أن يعلم خبره فليض إلى قرية كذا وكذا، فإن فيها من يخبره. فسأل الرجل عن القرية، فدلوه عليها، فقصدوها [وسأل أهلها]^(٧)، فقليل له: ما يعلم ذلك إلا شيخ هنا قد جاوز المائة؛ فسأله، فقال: كان هنا ملك عظيم

(١) ط: «علي».

(٢) من كتاب الأذكيا.

(٣) الأذكيا: ١٢٩.

(٤) تكلمة من ط.

(٥) كذا في أ، وفي ب «الكلاب» وفي ط: «الكتاب».

(٦) زيادة من الأذكيا.

(٧) ثرد الخبر: فته

الشَّانَ، وَكَانَ يُحِبُّ التَّنَزُّهُ وَالصَّيْدَ، وَكَانَ لَهُ كَلْبٌ قَدْ رَبَّاهُ لَا يُفَارِقُهُ، فَخَرَجَ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ مُتَنَزِّهَاتِهِ، وَقَالَ لِبَعْضِ غِلْمَانِهِ: قُلْ لِلطَّبَّاخِ يُضْلِحْ لَنَا ثُرْدَةً^(١) بَلْبَنٍ؛ فَجَاؤُوا بِاللَّبَنِ إِلَى الطَّبَّاخِ، وَنَسِيَ أَنْ يُغَطِّيَهُ بِشَيْءٍ، وَاشْتَغَلَ بِالطَّبْخِ، فَخَرَجَتْ مِنْ بَعْضِ الشُّقُوقِ أَفْعَى، فَكَرَعَتْ فِي ذَلِكَ اللَّبَنِ؛ وَمَجَتْ فِي الثُّرْدَةِ وَالْكَلْبُ زَابِضٌ يَرَى ذَلِكَ، وَلَمْ يَجِدْ لَهُ حِيلَةَ يَصِلُ بِهَا إِلَى الْأَفْعَى. وَكَانَ هُنَاكَ جَارِيَةٌ زَمَنَةُ خَرَسَاءَ، قَدْ رَأَتْ مَا صَنَعَتْ الْأَفْعَى؛ وَكَانَ قَدْ^(٢) وَافَى الْمَلِكُ مِنَ الصَّيْدِ فِي آخِرِ النَّهَارِ، فَقَالَ: يَا غِلْمَانُ أَذْرِكُونِي بِالثُّرْدَةِ، فَلَمَّا وُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، أَوْمَأَتِ الْخَرَسَاءُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَفْهَمْ مَا تَقُولُ، وَنَبَحَ الْكَلْبُ وَصَاحَ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، وَلَجَّ فِي الصَّيْحِ فَلَمْ يَعْلَمْ مُرَادَهُ، فَقَالَ لِلْغِلْمَانِ: نَحُوهُ عَنِّي، وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى اللَّبَنِ، [مِنْ]^(٣) بَعْدَ مَا رَمَى إِلَى الْكَلْبِ مَا كَانَ يَرْمِي إِلَيْهِ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ الْكَلْبُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى غَيْرِ الْمَلِكِ، فَلَمَّا رَأَاهُ يَرِيدُ أَنْ يَضَعَ اللَّقْمَةَ مِنَ اللَّبَنِ فِي فَمِهِ، وَثَبَ^(٤) إِلَى وَسْطِ الْمَائِدَةِ، وَأَدْخَلَ فَمَهُ وَكَرَعَ مِنَ اللَّبَنِ فَسَقَطَ مَيِّتًا، وَتَنَاقَرَتْ لَحْمُهُ، وَبَقِيَ الْمَلِكُ مُتَعَجِّبًا مِنَ الْكَلْبِ وَمِنْ فِعْلِهِ، فَأَوْمَأَتِ الْخَرَسَاءُ إِلَيْهِ فَعَرَفُوا مُرَادَهَا، وَمَا صَنَعَ الْكَلْبِ. فَقَالَ الْمَلِكُ لِحَاشِيَّتِهِ: هَذَا الْكَلْبُ فَدَانِي بِنَفْسِهِ، وَقَدْ وَجَبَ أَنْ نُكَافِئَهُ، وَمَا يَحْمِلُهُ وَيُدْفِئُهُ غَيْرِي. فَدَفَنَهُ؛ وَبَنَى عَلَيْهِ الْقُبَّةَ الَّتِي رَأَيْتَهَا^(٥).



نوادير الحمقى

قلت: قد أوردنا نبذة لطيفة من كتاب الأذكياء لابن الجوزيِّ مختلفة الأنواع، وقد تعيَّن أن نورد هاهنا نبذة لطيفة من كتاب الحمقى والمغفلين؛ لأنه قال في كتاب الحمقى: ما وضعت ذلك إلا لأنَّ النفسَ قد تَمَلُّ من مَلَامَةِ الْجَدِّ، وَتَرْتَاحَ إِلَى بَعْضِ الْمُبَاحِ مِنَ اللَّهْوِ، كَمَا وَرَدَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِحَنْظَلَةَ: «سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ».

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: «رَوَّحُوا الْقُلُوبَ بِطَرَائِفِ الْحِكْمِ، فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ».

وكان رجلٌ^(٦) يجالس أصحاب رسول الله ﷺ ويحدثهم، فإذا أَكْثَرُوا وَثَقُلَ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ، قَالَ: إِنَّ الْأُذُنَ مَجَاجَةٌ وَإِنَّ الْقُلُوبَ حِمِضَةٌ؛ هَاتُوا مِنْ أَشْعَارِكُمْ وَحَدِيثِكُمْ.

(١) في ط: «ومج في الثريد».

(٢) تكملة من «ب».

(٣) تكملة من «ب».

(٤) في أ، ب: «طفر».

(٥) الأذكياء: ١٤٩، ١٥٠.

(٦) كذا في كتاب الحمقى، وفي الأصول: «الرجل».

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إني لأجتم نفسي بشيء من الباطل كراهة أن أحملها من الحق ما يؤملها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يحدث أصحابه ساعة، ثم يقول: حمضونا، فيأخذ في أحاديث العرب وأشعارها [ثم يعود يفعل، ذلك مراراً]. ومثله عن الزهري ومالك بن دينار.

وكان شعبة يحدث فإذا رأى أبا زيد قال له: إيه أبا زيد!

واستعجمت دار نغم ما تكلمنا والدار لو كَلَّمْنَا ذات أخبار^(١)

ووصف رجل [من النساك]^(٢) عند ابن عائشة فقيل: هو جدُّ كُله؛ فقال ابن عائشة: لقد أعان على نفسه، وقصر لها طول المدى، ولو فكَّها بالانتقال من حال إلى حال لَنَفَسَ عنها ضيق العُقد، ورجع إلى الجدِّ بنشاط.

وقال الرشيد: التواد تشحد الأذهان وتفتق الآذان.

وقال آخر: لا يحب الملح إلا ذكران الرجال، ولا يكرهها إلا مؤنثوهم.

وقال الشاعر:

أروح القلب ببغض الهزل تجاهلاً مئني بغير جهل
أمرح فيه مزح أهل الفضل والمزح أحياناً جلاء العقل
قال ابن الجوزي في كتاب الحمقى: إن الأحنف بن قيس قال: إذا رأيتم الرجل طويل القامة، عظيم اللحية، فاحكموا عليه بالحمق^(٣).

وقال معاوية لرجل: كفى أن تشهد عليك بالحمق ما نراه من طول لحيته.

وقال آخر وتلطّف ما شاء: من طالت لحيته تكوَّسج عقله.

وقال أصحاب الفراسة: من طالت قامته، وطالت لحيته، وجبت تعزيتة في عقله.

وقالوا: إذا كان الرجل طويلاً طویل اللحية، وأضيف إلى ذلك أن يكون صغير

الرأس فاحكم عليه بالحمق.

وقال زياد بن أبيه: ما زادت لحيه الرجل على قبضته إلا كان ذلك نقصاناً عن عقله.

وقال الشاعر:

إذا عرضت للفتى لحيه وطالت وصارت إلى سرته
فنقصان عقل الفتى عندنا بمقدار ما زاد من لحيته^(٤)

(١) البيت للنابغة الذبياني، ديوانه: ١٠١.

(٢) (٣) ص ١٣، ١٤.

(٢) زيادة من كتاب الحمقى.

(٤) في ط: «فقد ضاق».

وقال ابن الرومي:

إِنْ تَطُلْ لِحْيَةً عَلَيْكَ وَتَغْرَضْ فَاَلْمَخَالِي مَخْلُوقَةٌ لِلْحَمِيرِ^(١)
عَلَّقَ اللَّهُ فِي عِذَارِيكَ مِخْلَا وَلَكِنَّهَا بَغَيْرِ شَعِيرِ

وقال بعضهم: صارم الأحمق فليس له خَيْرٌ من الهجران. وقيل: إن في التوراة مكتوباً: من اضْطَنَعَ إلى أحمق مَعْرُوفاً فهي خطيئة مكتوبة عليه. وقال سفيان الثوري: هجران الأحمق قُرْبَةٌ إلى الله تعالى.

وَمِمَّنْ ضُرِبَ الْمَثَلُ بِحُكْمِهِ وَتَغَفَّلَ هَبْنَقُهُ، واسمه يزيد، وكان قد جعل في عنقه قِلَادَةً من عظام وَوَدَعَ وخزف، وقال: أَخْشَى أَنْ أَضِيعَ من نفسي، ففعلت ذلك لِأَعْرِفَهَا، فحوَلَتْ أُمُّهُ الْقِلَادَةَ إِلَى عُنُقِ أَخِيهِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَرَأَاهَا، قال: أَخِي، أَنَا أَنْتَ، فَمَنْ أَنَا؟^(٢)

وَضَلَّ لَهُ بَعِيرٌ^(٣) فَجَعَلَ يَقُولُ: مَنْ وَجَدَهُ فَهُوَ لَهُ^(٤). فَقِيلَ لَهُ: فَلِمَ تَنْشُدُهُ! فَقَالَ: لِحَلَاوَةِ الظَّفَرِ.

وَاخْتَصَمَتْ طُفَاوَةٌ^(٥) وَبَنُو رَاسِبٍ فِي رَجُلٍ، ادَّعَى كُلٌّ مِنَ الْقَرِيْقَيْنِ أَنَّهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ هَبْنَقُهُ: حُكْمُهُ أَنْ يُلْقَى فِي الْمَاءِ، فَإِنْ طَفَا فَهُوَ مِنْ طُفَاوَةٍ، وَإِنْ رَسِبَ فَهُوَ مِنْ بَنِي رَاسِبٍ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنْ كَانَ الْحُكْمُ هَذَا فَقَدْ زَهَدْتُ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ^(٦).

وَمِنْهُمْ أَبُو عُبْشَانَ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةٍ؛ كَانَ يَلِي سِدَانَةَ الْبَيْتِ، فَاجْتَمَعَ مَعَ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ بِالطَّائِفِ عَلَى الشَّرَابِ، فَلَمَّا سَكِرَ، اشْتَرَى مِنْهُ قُصَيٌّ وَلَايَةً سِدَانَةَ الْبَيْتِ بِزِقٍّ مِنْ خَمْرٍ، وَأَخَذَ مِنْهُ مَفَاتِيحَهُ، وَطَارَ بِهَا إِلَى مَكَّةَ، وَقَالَ: يَا مُعَاشِرَ قُرَيْشٍ، هَذِهِ مَفَاتِيحُ أَبِيكُمْ إِسْمَاعِيلَ^(٧)، رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ غَيْرِ عَذْرِ وَلَا ظُلْمٍ. وَأَفَاقَ أَبُو عُبْشَانَ فَتَدِمَ غَايَةَ الدَّمِ، فَقِيلَ: أَحْمَقُ مِنْ أَبِي عُبْشَانَ.

وقال شاعرهم:

بَاعَتْ خُزَاعَةٌ بَيْتَ اللَّهِ إِذْ سَكِرَتْ بِزِقٍّ خَمْرٍ فَبَيْسَتْ صَفْقَةَ الْبَادِي
بَاعَتْ سِدَانَتَهَا بِالْخَمْرِ وَأَنْقَرَضَتْ عَنْ الْمَقَامِ وَظِلَّ الْبَيْتِ وَالنَّادِي

(١) في ط ب: «طال».

(٢) كذا في كتاب الحمقى وفي الأصول: «وَأَنْتَ أَنَا».

(٣ - ٤) في: ب «فنادى عليه: من رآه فهو له».

(٤) كذا في أ كتاب الحمقى، وفي ط: «بنو طفاوة».

(٥) كتاب الحمقى: ٢٢، ٢٣.

(٦) كذا في أ، ب، وكتاب الحمقى ٢٣ وفي ط: «إبراهيم».

ومنهم ربيعة البكاء، سُمِّيَ الْبَكَاءَ لِأَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أُمِّهِ وَهِيَ تَحْتَ زَوْجِهَا فَبَكَى وَصَاحَ: أَتَقْتُلُ أُمِّي! فَقَالُوا: أَهْوَنَ مَقْتُولٍ أُمٌّ تَحْتَ زَوْجٍ. فَذَهَبَتْ مَثَلًا.

ومنهم حمزة بن بيض، قال [يوماً]^(١) لغلّامه: أَيَّ يَوْمٍ صَلَّيْنَا الْجُمُعَةَ بِالرُّصَافَةِ؟ فَافْتَكَرَ الْغَلَامُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ^(٢).

ومنهم جُحَا، قال بعضهم: كَانَ مِنْ أَذْكِيَاءِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِ عَدَاوَةٍ، فَوَضَعُوا عَلَيْهِ حِكَايَاتٍ سَارَتْ بِهَا الرُّكْبَانُ.

وقيل: كَانَ مِنْ كِبَارِ الْحَمَقَى وَالْمَغْفَلِينَ؛ قِيلَ: إِنَّهُ دَخَلَ الْحَمَّامَ وَخَرَجَ مِنْهُ، فَضَرَبَتْهُ رِيحٌ بَارِدَةٌ فَمَسَّتْ خُصْيَتَيْهِ، فَإِذَا إِحْدَاهُمَا قَدْ تَقَلَّصَتْ فَرَجَعَ إِلَى الْحَمَامِ؛ وَجَعَلَ يَفْتَشُ النَّاسَ، فَقَالُوا لَهُ: مَا لَكَ؟ قَالَ: سُرِقَتْ إِحْدَى بِيضَتَيَّ. ثُمَّ إِنَّهُ دَفَعَ فِي الْحَمَامِ وَحَمِيَّ فَرَجَعَتِ الْبَيْضَةُ، فَلَمَّا وَجَدَهَا سَجَدَ شُكْرًا لِلَّهِ وَقَالَ: كُلُّ مَا لَا تَأْخُذُهُ الْيَدُ لَا يَفْقَدُ^(٣).

وَاشْتَرَى يَوْمًا دَقِيقًا وَحَمَلَهُ عَلَى حَمَالٍ، فَلَمَّا دَخَلَ الْحَمَالُ الزَّحَامَ هَرَبَ، فَرَأَى جُحَا بَعْدَ أَيَّامٍ فَاسْتَرَّ مِنْهُ فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَطْلُبَ مِنِّي كِرَاهٍ^(٤).

وَكَانَ لَهُمْ جَارِيَةٌ تُسَمَّى عَمِيرَةً؛ فَضَرَبَتْهَا أُمُّهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَاحَتْ الْجَارِيَةُ. وَاجْتَمَعَ عَلَى الْبَابِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ عَافَاكُمْ اللَّهُ! إِنَّمَا هِيَ أُمِّي تَجْلِدُ عَمِيرَةً.

ومنهم ابن الجصاص؛ قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ التَّبَالَهَ خِيفَةً مِنَ الْوَزِيرِ ابْنِ الْفَرَاتِ، فَمِنْ الْمَنْقُولِ عَنْ حَمَقِهِ أَنَّهُ كَانَ يَوْمًا مَعَ الْوَزِيرِ فِي مَرْكَبٍ وَمَعَ ابْنِ الْجِصَّاصِ بِطَيْخَةٍ؛ فَأَرَادَ أَنْ يُعْطِيَهَا لِلْوَزِيرِ وَيَبْصُقَ فِي الْبَحْرِ، فَبْصَقَ فِي وَجْهِ الْوَزِيرِ، وَرَمَى الْبَطِيخَةَ فِي الْبَحْرِ.

هَذَا مِنَ الْمَنْقُولِ عَمَّا ظَهَرَ عَنْهُ مِنَ التَّبَالَهَ، وَإِلَّا فَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا وَلِيَ ابْنُ الْفَرَاتِ الْوِزَارَةَ: قَصَدَنِي قَصْدًا قَبِيحًا، وَأَنْفَذَ الْعُمَالَ إِلَى ضِيَاعِي، وَبَسَطَ لِسَانَهُ وَتَنَقَّصَنِي فِي مَجْلِسِهِ، فَدَخَلْتُ يَوْمًا دَارَهُ، فَسَمِعْتُ حَاجِبَهُ؛ وَقَدْ وَلَّيْتُ يَقُولُ: هَذَا بَيْتٌ مَالٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، لَيْسَ لَهُ مِنْ يَأْخُذُهُ. فَقُلْتُ: هَذَا مِنْ كَلَامِ صَاحِبِهِ؛ [وَإِنِّي مُسْلُوبٌ]^(٥)، وَقَدْ كَانَ عِنْدِي فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ سَبْعَةُ آلَافٍ دِينَارٍ عَيْنًا سِوَى الْجَوَاهِرِ وَالذَّخَائِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَسَهَرْتُ فِي لَيْلَتِي أَفْكَرَ فِي أَمْرِي مَعَهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي فِي الثَّلَاثِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ أَنَّ رَكِبْتُ إِلَى دَارِهِ عَلَى الْفُورِ، فَوَجَدْتُ الْأَبْوَابَ مُغْلَقَةً،

(١) تكملة من ط.

(٢) أخبار الحمقى: ٢٤.

(٣) في ط: «كل شيء لا تسرقه اليد».

(٤) أخبار الحمقى: ٢٧.

(٥) زيادة من «أخبار الحمقى».

فطرقتها، فقال البواب: مَنْ هذا؟ قلت: ابنُ الجصاص، فقال: ليس هذا وقت وصول، والوزير نائم، فقلت: عرّف الحجاب أني حضرت في مهم. فعرفهم، فخرج إليّ أحدهم، وقال: إنه في هذا الوقت لا يَنْتَبِه. فقلت: الأمرُ أهم من ذلك فأيقظه، وعرفه عني ما قلت لك. فدخل وأبطأ ساعة، ثم خرج وأدخلني [إلى الدار، حتى انتهيت إلى مرقده وهو جالس على سريره]^(١)؛ فازتاع لدخولي، وظنّ أني جئته برسالة من الخليفة، أو حدثت حادثة وهو متوقع لما أورده عليه، فنظر إليّ وقال: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟ [هل حدثت حادثة؟ أو معك من الخليفة رسالة؟]^(٢) قلت: خير، ما حدثت حادثة، ولا معي رسالة، ولا جئت إلا في أمرٍ يخصني ويخص الوزير. ولم تَصْلُحْ مُفَاوَضَتُهُ إِلَّا على خَلْوَةٍ. فسكن رَوْعُهُ، وقال لمن حوله: انصرفوا، فَمَضَوْا، فقال: هات؛ فقلت: إِنَّكَ قَصَدْتَنِي بِأَجْبَحِ قَصْدٍ، وَشَرَعْتَ فِي هَلَاكِي، وَإِزَالَةِ نِعْمَتِي، وفي إزالتها خُرُوجِ نفسي؛ وليس عن النفس عَوْضٌ، وقد جعلت هذا الكلام عُذْرًا بيني وبينك، فإن نَزَلَتْ تحت حُكْمِي في الصُّلْحِ، وَإِلَّا قَصَدْتُ الخليفةَ في هذه الساعة، وحوَلْتُ إليه [من خزائني]^(٣) أَلْفَ أَلْفِ دينار - وأنت تعلمُ قُدْرَتِي عليها - وأقول له: خُذْ هذا المَالَ وَسَلِّمْ إليّ ابنَ الفرات، وأسلمك لمن أختاره للوزارة، ويقع في نفسي أنه يجيبُ إلى تقليده ممّن له وجه مقبول ولسان عَذْبٍ، وخطٌ حسن، ولا أَعْتَمِدُ إِلَّا على بعض كتابك، فإنه لا يفرّق بينك وبينه إذا رأى المال حاضرًا، فيسلمك في الحال إليه، ويفرغ عليك العذاب بحضوري، ويأخذُ منك المالَ المعين، وأنت تعلمُ أَنَّ حَالَك تَقْيِي بهذا ولكِنَّكَ تَتَقَيَّرُ بعدها، ويرجع المَالَ إليّ، وأكون قد أهلكْتُ عَدُوِّي، وَشَفَيْتُ غِيْظِي، [واسترجعت مالي، وصنت نعمتي]^(٤)؛ وزاد محلي [بصرفي وزيراً]^(٥)؛ وتقليدي وزيراً.

فلما سمِعَ هذا الكلام سَقَطَ في يده، وقال: يا عَدُوَّ اللَّهِ، أو تَسْتَحِلُّ ذلك! فقلت: لستُ عَدُوَّ اللَّهِ بل عَدُوَّ اللَّهِ من اسْتَحْلَ مِنْهُ هذا؛ فقال: وما تُريد؟ فقلت: تحلفُ الساعة بما أَسْتَحْلِفُكَ به من الأيمان المغلظة أن تكون معي لا عليّ؛ في صغير أمري وكبيره، ولا تنقص لي رسماً، [ولا تُغَيِّرْ لي معاملة]^(٦)؛ ولا تَضَعْ مني، بل تبالغ في رِفْعَتِي، ولا تُبْطِنَ عليّ؛ فقال: وتحلفُ أنت أيضاً لي بمثل هذا اليمين على جميل الثبة، وحسن الطاعة، فقلت أفعل. فقال: لعنك الله، والله لقد سَحَرْتَنِي؛ واستدعى بدواة، وعملنا نسخة يمين، وحلَفَ كُلُّ مَنَّا عليها، فلما أَرَدْتُ القيامَ قال لي: يا أبا عبد الله. لقد عَظُمْتُ في نفسي، والله ما كان المقتدرُ يفرق بين أحسن

(١) من كتاب أخبار الحمقى.

(٢) من «أخبار الحمقى».

كُتَابِي^(١) إِذَا رَأَى الْمَالَ، فليكن ما جرى بَيْنَنَا مطوياً. فقلت: سبحان الله! فقال: إِذَا كَانَ غَدًا فَصِرْ إِلَى الْمَجْلِسِ لَتَرَى مَا أَعَامِلُكَ بِهِ. فقامت فَأَمَرَ الْغُلَّامَانِ أَنْ يَسِيرُوا فِي خِدْمَتِي بِأَجْمَعِهِمْ إِلَى دَارِي. وَلَمَّا أَصْبَحَتْ جِئْتُهُ، فَبَالَغَ فِي الْإِكْرَامِ وَالتَّعْظِيمِ، وَأَمَرَ بِإِنْشَاءِ الْكُتُبِ إِلَى عَمَالِ التَّوَّاحِي بِإِعْزَازِي وَإِعْزَازِ وَكَلَائِي، وَحَمَايَةِ أَمْلَاكِي، فَشَكَرْتُهُ وَقَمْتُ. فَأَمَرَ الْغُلَّامَانِ أَيْضًا بِالمَشْيِ بَيْنَ يَدَيَّ، وَالحِجَابِ وَالنَّاسِ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَحَدٌ مَا السَّبَبُ؛ وَمَا حَدَّثْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ إِلَّا بَعْدَ الْقَبْضِ عَلَيْهِ^(٢).

وذكر ابن الجوزي في الباب التاسع من كتاب الحمقى والمغفلين أن جماعة من العقلاء صدر عنهم أفعال الحمقى، وأصرّوا على ذلك مستصوين لها، فصاروا بذلك الإضرار حمقى ومغفلين.

فأول القوم إبليس لعنه الله تعالى؛ فإنه صوّب نفسه، وخطأ حكمة الله تعالى، ورَمَى عن قَوْسِ الاعتراض في عدم السُّجود لآدم عليه السلام، ثم قال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]؛ فصارت لذته في إيقاع العاصي في الذنب كأنه يغيث بذلك، أو نسي عقابه الدائم! فلا حُمُقَ كحمقه، ولا غفلة كغفلته، لعنه الله في الدارين. ولله درّ القائل في إبليس:

عَجِبْتُ مِنْ إِبْلِيسَ فِي غَفْلَتِهِ وَخُبْتُ مَا أَظْهَرَ مِنْ نِيَّتِهِ
تَاهَ عَلَى آدَمَ فِي سَجْدَتِهِ وَصَارَ قَوَادًا لِدُرِّيَّتِهِ

والثاني: فِرْعَوْنُ في دعواه الربوبية، وافتخاره بقوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]؛ فافتخر بساقية لا هو أجراها، ولا يعرف مَبْدَها ولا مُنْتَهَاها، ونسي أمثالها مما ليس تحت قُدرته؛ وليس في الحُمُقِ أَعْظَمَ مِنْ ادِّعَائِهِ الإلهية. وقد صرّبت الحكماء بذلك مثلاً فقالوا: دخل إبليس على فرعون فقال له: من أنت؟ قال: إبليس، فقال: ما جاء بك؟ قال: جئت مُتَعَجِّباً مِنْ جُنُونِكَ، قال: وَكَيْفَ؟ قال: أَنَا عَادَيْتُ مَخْلُوقاً مِثْلِي فَأَمْتَنْتُ مِنَ السُّجُودِ لَهُ فَطَرِدْتُ وَلُعِنْتُ، وَأَنْتَ تَدْعِي أَنَّكَ إِلَه! هَذَا وَاللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَالْجُنُونُ الْبَارِدُ^(٣).

ومن عجيب الحمق والتغفل اتِّخَاذُ الْأَصْنَامِ بِالْيَدِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَى عِبَادَتِهَا، وَالْإِلَهَ يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَ وَلَا يُفْعَلَ.

وكذلك نمرود في بناءه الصَّرح، ثم رميه بنشابة يُريدُ أَنْ يَقْتُلَ إِلَهَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

(١) كذا في أ وكتاب «أخبار الحمقى» وفي باقي الأصول «أحسن كتابي».

(٢) أخبار الحمقى: ٣٤ - ٣٧.

(٣) أخبار الحمقى: ٤٣، ٤٤.

وكذلك بنو إسرائيل حين جاوزوا البحر، وقد أنجاهم الله تعالى من العَرَق^(١)، واستنقذهم من فرعون، فقالوا: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].
وكذلك قول النصارى: إِنَّ عيسى إله وابنُ إله. ثم يقرؤون أن اليهود صلبوه، وهذا غاية البَلَّة والعَفْلَة.

وكذلك الرافضة يعلمون إقرارَ عليٍّ [رضي الله عنه] على بيعة أبي بكر وعمر، واستيلاده الحنفية من سبي أبي بكر، وتزويجه أم كلثوم ابنته من عمر، وكل ذلك دليل على رضاه ببيعتهما. ثم في الرافضة من يسبهما، وفيهم من يكفرهما، وكل ذلك يطلبون به حبَّ عليٍّ رضي الله عنه بزعمهم، وقد تركوا حُبهم وراء ظهورهم.

وقد روي عن الإمام أحمد بن حنبل؛ أنه قال: لو جاءني رجلٌ فقال: إني حلقت بالطلاق ألا أكلم في هذا اليوم من هو أحمق، فكلم رافضياً أو نصرانياً، لقلت له: حنئت، فقال له ابن الدينوري: أعزك الله! ولم صاراً أحمقين؟ قال: لأنهما خالفا الصادقين عندهما؛ أما الصادق الأول فعيسى عليه السلام قال للنصارى: إني عبدُ الله! وقال أن اعبدوا الله. فقالوا: لا وعبدوه جهلاً وحُمقاً. والصادق الثاني الإمام علي رضي الله عنه فإنه روي عن النبي ﷺ أنه قال عن أبي بكر وعمر: «هذان سيدا كهول أهل الجنة» [والرافضة يسبونهما]^(٢).

ومن المنقول عن حُمقِ النساء أن الأمين لما حوَصَرَ قال لجاريتته: غني، فغئت. تبكي فراقهم عيني فأزقها
فقال لها: لعنك الله، أما تعرفين غير هذا! فغئت:
ما اختلف الليل والنهار وما
دارت نجوم السماء في فلك
إلا لنقل السلطان من ملك
غيب تحت الثرى إلى ملك
فقال لها: قومي؛ فقامت، فعثرت بقَدَحٍ بلورٍ فكسرتَه، فقال قائل: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

ولما قتله المأمون، دخل على زبيدة ليُعزِّبها فيه، فقالت: إن رأيتَ^(٣) أن تُسَلِّبني في غداك عندي! فتعدى عندها، فأخرجت إليه من جوارِي الأمين من تُغْنِيه، فغئت:
هُم قَتَلُوهُ كَيْ يَكُونُوا مَكَانَهُ
كما عُدِرت يوماً بكسرى مرابضة^(٤)

(١) أخبار الحمقى: ٤٣ - ٤٥.

(٢) في ب، ط: «من تلك الأهوال».

(٣) من ب. والخبر في أخبار الحمقى ٤٥، ٤٦.

(٤) في ط: «أردت»، وفي أخبار الحمقى: «أرأيت».

فوثب المأمون مُغْضَباً؛ فقالت له زُبَيْدَة: حَرَمَنِي اللّهُ أَجْرَهُ إِنْ كُنْتُ دَسَسْتُ إِلَيْهَا، أَوْ لَقِئْتُهَا. فَصَدَّقَهَا وَانصَرَفَ^(١).

ومن ذلك أَنَّ المَعْتَصِمَ لَمَّا فَرَعَ مِنْ بِنَاءِ قَصْرِ لَهُ، أَذْخَلَ النَّاسَ عَلَيْهِ. فَاسْتَأْذَنَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي الْإِنْشَادِ، فَأَذَنَ لَهُ، فَأَنشَدَ يَقُولُ:

يَا دَارَ غَيْرِكَ الْبَلَى وَمَحَاكِ
يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي أَبْلَاكِ

فَتَطَيَّرَ المَعْتَصِمُ وَجَمِيعٌ مِنْ حَضَرَ المَجْلِسَ، وَتَعَجَّبُوا كَيْفَ يَصْذُرُ مِنْ مِثْلِ إِسْحَاقَ هَذَا التَّغْلُّلَ المَفْرِطُ! وَلَمْ يَجْتَمِعْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالذَّارِ اثْنَانِ^(٢).

ومن لطائف المنقول عن الحمقى والمغفلين أَنَّ عيسى بنَ صالح تَوَلَّى جُنْدَ قَتْسَرِينَ والعَوَاصِمَ للرَّشِيدِ - وَكَانَ مِنَ الحُمُقِ عَلَى جَانِبٍ عَظِيمٍ - [فَاسْتَخْلَفَ ابْنَهُ عَلَى الْعَمَلِ]^(٣) قَالَ ابْنُهُ: فَأَتَانِي رَسُولُهُ بِاللَّيْلِ، فَأَمَرَنِي بِالْحُضُورِ، فَتَوَهَّمْتُ أَنَّ كِتَاباً جَاءَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مُهِمٍّ اخْتِاجٍ فِيهِ إِلَى حُضُورِ مِثْلِي؛ فَكَبَيْتُ إِلَى دَارِهِ، فَلَمَّا دَخَلْتُ سَأَلَتِ الْحُجَابَ: هَلْ وَرَدَ كِتَابٌ مِنَ الْخَلِيفَةِ، أَوْ حَدَّثَ أَمْرٌ؟ فَقَالُوا: لَا. فَأَفْضَيْتُ إِلَى الْخَدَمِ، فَسَأَلْتُهُمْ، فَقَالُوا مِثْلَ مَقَالَةِ الْحُجَابِ، فَصِرْتُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، فَقَالَ لِي: ادْخُلْ يَا بَنِي لَيْسَ عِنْدِي أَحَدٌ؛ فَدَخَلْتُ فَوَجَدْتَهُ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقَالَ: اعْلَمْ أَنِّي سَهَرْتُ اللَّيْلَ مُفَكِّراً فِي أَمْرِي إِلَى سَاعَتِي هَذِهِ. فَقُلْتُ: وَمَا هُوَ الْأَمْرُ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ! قَالَ: اشْتَهَيْتُ أَنْ يُصَيِّرَنِي اللَّهُ حُورِيَّةً فِي الْجَنَّةِ، وَيَجْعَلَ زَوْجِي يُوسُفَ الصَّدِيقَ، فَطَالَ لِي ذَلِكَ فِكْرِي فَقُلْتُ [لَهُ]^(٤): فَهَلَا اشْتَهَيْتَ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَكُونَ زَوْجَكَ، فَإِنَّهُ [أَحَقُّ بِالقَرَابَةِ وَالنِّسْبِ، وَهُوَ]^(٥) سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ! فَقَالَ: لَا تَنْظُنْ أَنِّي لَمْ أَفُكِّرْ فِي هَذَا، فَقَدْ فَكَّرْتُ فِيهِ، وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَغِيْظَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(٦).

ومن لطائف المنقول عن المغفلين من الأعراب، قِيلَ: صَلَّى أَعْرَابِيٌّ خَلْفَ بَعْضِ الْأَئِمَّةِ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَكَانَ اسْمُ الْأَعْرَابِيِّ مُجْرَماً، فَقَرَأَ الْإِمَامُ ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ١٦]. تَأَخَّرَ الْأَعْرَابِيُّ إِلَى الصَّفِّ الْآخِرِ، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: ١٧]،

(١) المرزبة: رياضة الفرس، والرئيس: مرزبان، والبيت للوليد بن عقبة بن أبي معيط، من أبيات في الكامل ٣: ٢٨.

(٢) أخبار الحمقى: ٤٨، ٤٩.

(٣) من أخبار الحمقى.

(٤) من أخبار الحمقى.

(٥) تكملة من ب.

(٦) أخبار الحمقى: ٦٨، ٦٩.

فرَجَعَ إِلَى الصَّفِّ الْأَوْسَطِ، فَقَالَ: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٨] فَوَلَّى هَارِباً، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا الْمَطْلُوبُ غَيْرِي^(١).

ومثله: صَلَّى أَعْرَابِيٌّ خَلْفَ إِمَامٍ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَقَرَأَ الْإِمَامُ سُورَةَ «الْبَقَرَةِ» - وَكَانَ الْأَعْرَابِيُّ مُسْتَعِجِلاً، فَفَاتَهُ مَقْصُودُهُ - فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِّ بَكَرَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَاِبْتَدَأَ الْإِمَامُ فَقَرَأَ سُورَةَ «الْفِيلِ»، فَقَطَعَ الْأَعْرَابِيُّ الصَّلَاةَ، وَوَلَّى هَارِباً، وَهُوَ يَقُولُ: أَمْسِ قَرَأْتَ سُورَةَ «الْبَقَرَةِ» فَلَمْ تَفْرُغْ مِنْهَا إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، وَالْيَوْمَ تَقْرَأُ سُورَةَ «الْفِيلِ»! مَا أَظْنُكَ تَفْرُغُ مِنْهَا إِلَى اللَّيْلِ^(٢).

ومنه: كَانَ أَعْرَابِيٌّ قَائِماً يُصَلِّي، فَأَخَذَ قَوْمٌ يَمْدَحُونَهُ وَيَصِفُونَهُ بِالصَّلَاحِ [وَهُوَ يَسْمَعُ]^(٣)، فَقَطَعَ الصَّلَاةَ، وَقَالَ: وَأَنَا مَعَ هَذَا صَائِمٌ^(٤)!

ومنه: دَخَلَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ الْحَمَّامَ، وَفِي الْحَمَّامِ رَجُلٌ وَمَعَهُ ابْنُهُ، فَأَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يُعْرِفَ خَالِدًا مَا عِنْدَهُ مِنَ الْبَيَانِ وَالنَّحْوِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، ابْدَأْ «بِيدَاكَ وَرَجْلَاكَ»، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى خَالِدٍ، فَقَالَ لَهُ: «يَا أَبِي صَفْوَانَ»، هَذَا كَلَامٌ قَدْ ذَهَبَ أَهْلُهُ، فَقَالَ خَالِدٌ: هَذَا كَلَامٌ مَا خَلَقَ اللَّهُ لَهُ أَهْلًا^(٥).

ومِنْ لَطَائِفِ الْمَنْقُولِ عَنِ الْمَغْفَلِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَنَّ بَعْضَهُمْ دَخَلَ مَسْجِدَ الْكُوفَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَقَدْ نُيِّمَ خَيْرُ الْمُهْدِيِّ أَنَّهُ مَاتَ، وَهُمْ يَتَوَقَّعُونَ قِرَاءَةَ الْكِتَابِ [عَلَيْهِمْ]^(٦) بِذَلِكَ، فَقَالَ رَافِعاً صَوْتَهُ:

مَاتَ الْخَلِيفَةُ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ

فَقَالُوا: هَذَا أَشْعَرُ النَّاسِ، فَإِنَّهُ نَعَى الْخَلِيفَةَ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فِي نِصْفِ بَيْتٍ. وَمَدَّتِ النَّاسُ أَبْصَارَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ:

فَكَأَنَّنِي أَفْطَرْتُ فِي رَمَضَانَ

قَالَ: فَضَحِكَ النَّاسُ. وَصَارَ شَهْرَةً فِي الْحَقِّ. ومثله، أَنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ بْنِ حَمْدَانَ أَنْصَرَفَ مِنْ حَرْبٍ وَقَدْ نُصِرَ عَلَى عَدُوِّهِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الشُّعْرَاءُ، فَأَنْشَدُوهُ، فَدَخَلَ مَعَهُمْ رَجُلٌ شَامِيٌّ، فَأَنْشَدَهُ:

وَكَانُوا كَفَّارٍ وَسُوسُوا تَحْتَ حَائِطٍ وَكُنْتُ كَسِينُورٍ عَلَيْهِمْ تَسْلُقًا^(٧)

(١) أخبار الحمقى: ٩٠.

(٢) أخبار الحمقى: ٩٠.

(٣) تكلمة من: ب، ط.

(٤) أخبار الحمقى: ٩١.

(٥) أخبار الحمقى: ٩٠.

(٦) تكلمة من ب، ط.

(٧) في ب، وأخبار الحمقى: «خلف حائط».

فأمر بإخراجه، فقام على الباب يبكي، فأخبر سيف الدولة ببكائه، فرق له وأمر برده، وقال له: مالك تبكي؟ قال: قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه؛ أطلب منه بعض ما يقدر عليه، فلما خاب أملي بكيت. فقال له سيف الدولة: ويلك! فمن يكون له مثل الثمر يكون له ذلك النظم! فكفمت أممت؟ قال: خمسمائة درهم، فأمر بألف درهم. فأخذها، وانصرف^(١).

ومن المنقول عن المغفلين على الإطلاق؛ قال بعضهم: دخلت مسجد دمشق^(٢)، فإذا أنا بجماعة عليهم سمة العلم، فجلست إليهم، وهم ينقصون من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقممت من عندهم مغضبا، فرأيت شيخا جميلا يصلي، فظننت به الخير، فجلست إليه، [فلما أحسن بي وسلّم]^(٣) قلت له: يا عبد الله^(٤)، أما ترى هؤلاء القوم يشتمون علي بن أبي طالب، ويتقصونه، وهو زوج فاطمة الزهراء وابن عم محمد ﷺ! فقال لي: يا عبد الله، لو نجا أحد من الناس لنجا منهم أبو محمد رحمه الله تعالى، فقلت: ومن أبو محمد؟ قال: الحجاج بن يوسف وجعل يبكي فقممت من عنده، وحلفت ألا أقيم بهذه البلدة^(٥)!

ومن ذلك أن رجلا سأل بعضهم - وكان فيه من الحمق جانب عظيم - فقال: أيما أفضل عندك: معاوية، أو عيسى ابن مريم؟ فقال: ما رأيت سائلا أجهل منك، ولا سمعت بمن قاس كاتب الوخي إلى نبي النصارى!

ومن ذلك أن لصا نور روضة^(٦) بيت - وكان اللص مغفلا - فنظر من خلال الروزنة، فوجد رجلا وزوجته وهي تقول له: يا رجل، من أين اكتسبت هذا المال العظيم؟ فقال لها: كنت لصا، وكنت إذا تسوّرت روضة بيت صبرت إلى أن يطلع القمر، فإذا طلع اغتنقت الضوء الذي في الروزنة؛ وتدلّيت فيها بلا حبل، وقلت: «شولم شولم» ونزلت، فأخذ جميع ما في البيت، ولا تبقى ذخيرة من ذخائر البيت إلا ظهرت لي، ثم أقول: «شولم شولم» وأصعد في الضوء، ولا ينتبه أحد من أهل البيت، وأذهب بلا تعب ولا كلفة. فسمع اللص ذلك، فصر إلى أن طلع القمر، ونام أهل البيت، فتعلق في ضوء الروزنة، فوق وتكسرت أضلاعه، فقام إليه صاحب البيت، فقال: من أنت؟ فقال: المغتر بكلامك، فقبض عليه وأرسله إلى صاحب الشرطة.

ومنهم من كان يسوق عشرة حمير، فركب واحدا منها وعدّها فإذا هي تسعة

(٤) ب، «يا أبا عبد الله».

(٥) أخبار الحمقى: ١١٥.

(٦) الروزنة: الكوة.

(١) أخبار الحمقى: ٩٨، ٩٩.

(٢) في أخبار الحمقى: «حمص».

(٣) تكملة في أخبار الحمقى.

حَمِير، فنزل وعَدَّها فإذا هي عَشْرَةٌ، فقال: أمشي وأزِبح حماراً خيراً من أنْ أَرْكَبَ وأخسر حماراً، فمَشَى حَتَّى كَادَ يَتَلَفُ إِلَى أَنْ بَلَغَ قَرِيَّتَهُ!

ومِنْهُمْ مَنْ مَاتَ بَعْضُ أَقَارِبِهِ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ لَا تَبْعَثَ جَنَازَتَهُ؟ فَقَالَ: هَذَا الْكَلَامُ مَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ؛ أَكُونُ مَنَسِيّاً، فَأَذْكَرُ بِنَفْسِي!

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْمَغْفَلِينَ سَمِعَ رَجُلًا يَنْشُدُ:

وَكَانَ بَنُو عَمِّي يَقُولُونَ مَرْحَباً فَلَمَّا رَأَوْنِي مُغْدِماً مَاتَ مَرْحَبٌ

فَقَالَ: كَذَبَ الشَّاعِرُ، مَرْحَبٌ قَتَلَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَلَمْ يَمُتْ إِلَّا قَتِيلًا.

وَمِنْهُمْ مَنْ بَاعَ دَاراً، وَكَانَ يُؤْذَنُ بَبَابَ مَسْجِدٍ بِالْقُرْبِ مِنْهَا، فَأَنْسِيَ أَنَّهُ بَاعَهَا، فَصَلَّى، وَرَجَعَ إِلَيْهَا وَدَخَلَ مِنَ الْبَابِ، فَصَاحَتِ النِّسْوَةُ وَقُلْنَ: يَا رَجُلُ، اتَّقِ اللَّهَ فِينَا! فَقَالَ اغْذُرُونِي فَإِنِّي وُلِدْتُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَلَمْ أَذْكَرِ الْبَيْعَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى جَارِيَّتَهُ تَحْتَ رَجُلٍ يَجَامِعُهَا فَقَالَ لَهَا: يَا جَارِيَّةُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ فَقَالَتْ لَهُ يَا مَوْلَايَ حَلَفَنِي بِحَيَاةِ رَأْسِكَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ صِدْقَ مَحَبَّتِي لَكَ! فَسَكَتَ^(١).

وَمِنْهُمْ مَنْ سَمِعَ أَنَّ صَوْمَ عَرَفَةَ يَغْدُلُ صَوْمَ سَنَةِ فَصَامَ إِلَى الظُّهْرِ وَقَالَ: يَكْفِينِي سِتَّةَ أَشْهُرٍ.

وَمِنْهُمْ مَنْ جَاءَ إِلَى الْجَبِّ، وَنَظَرَ فِيهِ فَإِذَا^(٢) خِيَالُ وَجْهِهِ، فَذَهَبَ إِلَى أُمِّهِ وَقَالَ: يَا أُمِّي، فِي الْجَبِّ لَصْرٌ، فَجَاءَتِ الْأُمُّ، فَتَطَلَّعَتْ^(٣) فَرَأَتْ فِيهِ خِيَالُ وَجْهِهَا، فَقَالَتْ: صَدَقْتَ؛ وَمَعَهُ قَحْبَتُهُ^(٤).

وَمِنْهُمْ مَنْ دَعَا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِأُمِّي وَلِأَخْتِي وَلِامْرَأَتِي. فَقِيلَ: لِمَ تَرَكْتَ ذِكْرَ أَبِيكَ! قَالَ: لِأَنَّهُ مَاتَ وَأَنَا صَبِيٌّ لَمْ أَذْرِكْهُ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِرَجُلٍ: كَمْ يَوْمًا فِي هَذَا الشَّهْرِ؟ فَتَنَظَرَ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَسْتُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ عَرَضَ الْجُنْدَ، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ حِمَصِيٌّ بِفَرَسٍ؛ كُلَّمَا قَدَّمَهُ يَتَأَخَّرُ، فَقَالَ هِشَامُ: مَا هَذَا! قَالَ: يَا سَيِّدِي فَارَةٌ وَلِكُنْهُ شَبَّهَكَ بَبَيْطَارٍ كَانَ يُعَالِجُهُ، فَتَفَرَّ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قِيلَ لَهُ: عِنْدَكَ مَالٌ جَزِيلٌ وَلَيْسَ لَكَ إِلَّا وَالِدَةٌ عَجُوزٌ، وَإِنْ مِتَّ

(١) ب: «فقال أحسنت».

(٢) ط: «فرأى».

(٣) ب: «ونظرت في الجب».

(٤) القحبة هنا: المرأة العجوز.

وَرَتْنُكَ فَأَفْسَدْتَ مَالَكَ. فقال: إنها لا تَرْتُنِي، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لَأَنَّ أَبِي طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ.

ومَنهم من جاء إِلَيْهِ جماعة يسألونه فِي كَفَنٍ لِجَارٍ مات، فقال: ما عِنْدِي الآنَ شيء؛ وَلَكِنْ عَاوِدُونِي فِي وَقْتٍ آخَرَ، قالوا: أَفْتُمْلِحْهُ إِلَى أَنْ يَتَيَسَّرَ عِنْدَكَ شيء!

ومَنهم من تَقَدَّمَ يُصَلِّي المَغْرِبَ بجماعة، فأطال القيام، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ سَجَدَ سَجْدَتِي السَّهْوِ - ولم يكن سَهَاً - فقيل: نحن أَنْكَرْنَا عَلَيْكَ طَوْلَ الْقِرَاءَةِ، فما الجواب عن سَجْدَتِي السَّهْوِ ولم تكن سَهْوَتٌ؟ فقال: ذَكَرْتُ أَنِّي صَلَّيْتُ بِكُمْ عَلَى غَيْرِ وَضوءٍ، فَسَجَدْتُ لِلْسَّهْوِ.

ومِن ذلك أَنَّ عَبْدًا كان بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي الشَّرْكَةِ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا يَضْرِبُهُ؛ فَلَامَهُ شَرِيكَهُ فقال: إِنَّمَا ضَرَبْتُ حِصَّتِي.

ومَنهم من قيل لَهُ: كَيْفَ صَنَعْتُمْ فِي رَمَضَانَ؟ فقال: اجْتَمَعْنَا ثَلَاثِينَ [رَجُلًا]^(١)، فَأَنْقَذْنَاهُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَاسْتَرَخْنَا [مِنْهُ]^(١).

قال الأَصْمَعِيُّ: خَرَجَ جماعةٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ، وَمَعَهُمْ رَجُلٌ مُعْقِلٌ، فَأَصَابَتْهُمْ رِيحٌ فِي الْبَحْرِ، أَيْسُوا مَعَهَا مِنَ الْحَيَاةِ، فَأَعْتَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَمْلُوكًا أَوْ مَمْلُوكَةً، فقال ذلك الرَّجُلُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَيْسَ لِي مَمْلُوكٌ وَلَا مَمْلُوكَةٌ، وَلَكِنْ امْرَأَتِي طَالَتْ طَلَقَةً وَاحِدَةً لَوْجْهَكَ الْكَرِيمَ.

وقال ابن الجوزي فِي آخِرِ كِتَابِ الْحَمَقِيِّ وَالْمَغْفَلِينَ: إِنَّ الْمَعْلَمِينَ لِلصُّبَّانِ صِنَاعَتُهُمْ تَكَادُ أَنْ تَكُونَ إِكْسِيرًا لِقَلَّةِ الْعَقْلِ وَإِبْرَازِ الْحِمَاةِ.

وقال: عَدَلَ عَقْلُ امْرَأَةٍ عَقْلٌ سَبْعِينَ حَائِكًا، وَعَدَلَ عَقْلُ حَائِكٍ سَبْعِينَ مُعَلِّمًا؛ وَسَبَبُ قِلَّةِ عَقْلِ الْمَعْلَمِ أَنَّهُ مَعَ الصُّبَّانِ بِالنَّهَارِ وَمَعَ النِّسَاءِ بِاللَّيْلِ.

وَكَانَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ لَا يَقْبَلُ شَهَادَةَ الْمُعَلِّمِ.

وقيل لَصَبِيٍّ: مَا زِلْنَا نَرَاكَ كَثِيرَ الْحَمَقِ؟ فقال: لَوْ لَمْ أَكُنْ كَذَلِكَ لَكُنْتُ وَلَدَ زِنَا!

وقيل لمَعْلَمٍ: مَالِكَ تَضْرِبُ هَذَا الصَّبِيَّ وَلَمْ يُذْنِبْ! قال: إِنَّمَا ضَرَبْتُهُ قَبْلَ أَنْ يُذْنِبَ؛ لِئَلَّا يُذْنِبَ.

وقال الجاحظ: مَرَرْتُ بِمُعَلِّمٍ وَهُوَ يُقَرِّئُ صَبِيًّا: «وَإِذَا قَالَ لَقَمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا، وَآكِيدُ كَيْدًا». فَقُلْتُ لَهُ: وَيَحْكُ، لَقَدْ أَذْخَلْتَ سُورَةَ فِي سُورَةٍ! فقال: نَعَمْ - عَافَاكَ اللَّهُ - إِذَا كَانَ أَبُوهُ يُدْخِلُ

شهرًا في شهر، فأنا أيضاً أدخلُ سورةً في سورة، ولا آخذُ شيئاً ولا ابتهُ يتعلَّم شيئاً. انتهى ما تخيَّرتَه من كتاب الأذكياء، والحمقى والمغفلين.



سمير الوليد بن يزيد

ومما تخيَّرتَه من كتاب «سلوان المطاع»^(١) لابن ظفر، أنَّ الوليد بن يزيد لما بلغه أنَّ ابنَ عمِّه يزيد بن الوليد بن عبد الملك قد شرَّد عنه القلوب، واستحاش عليه أهل اليمن، ونازعه في مُلكه، اختجب عن سَمَّاره، ودعا في بعض الليالي خادماً، فقال له: انطلق مُتَنَكِّراً حتَّى تقِف ببغض الطرق، وتأمَّل من يَمُرُّ بك من الناس، فإذا رأيتَ كهلاً رَثَ الهيئة؛ يمشي مشياً هُوَيْنِي وهو مُطَرِّق، فسَلِّم عليه، وقُلْ له في أذنه: أمير المؤمنين يدعوك، فإن أسرع في الإجابة فائتني به، وإن استراب فدعه^(٢) واطْلُبْ غيره؛ حتَّى تجِدَ رجلاً على [هذا]^(٣) الشرط الذي ذُكرت لك.

فانطلق الخادمُ فأتاه برجلٍ على الشرط. فلما دخل الرجلُ على الوليد حيَّاه بتحيةة الخلافة، فأمره الوليد بالجلوس والدُّنُو منه، وصبرَ إلى أن ذهب رُوعُه، وسكن جأشُه، ثم أقبل عليه فقال له: أتُخسِنُ المسامرة للخلفاء؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين. فقال الوليد: إن كنت تُخسِنُها فأخبرنا ما هي؟

فقال: يا أمير المؤمنين، المسامرةُ إخبارٌ لمنصبت، وإنصاتٌ لمُخبر، ومفاوضةٌ فيما يُعجِبُ ويليق.

فقال له الوليد: أَحَسَّنتَ، لا أزيدُك امتحاناً فقلْ أَسْمَعُ لِقَوْلِكَ^(٤). فقال الكهل: نعم يا أمير المؤمنين، ولكن المسامرةُ صنفان لا ثالث لهما: أحدهما: الإخبار بما يُوافقُ خبراً مَسْمُوعاً. والثاني: الإخبار بما يُوافقُ أغراضَ صاحبِ المجلس وإنِّي لم أَسْمَعُ بحضرةِ أمير المؤمنين طريقةً فَأُنْحُو نَحْوَهَا، وَأَلْزَمُ أَسْلُوبَهَا.

(١) سلوان المطاع في عدوان الطباع لأبي عبد الله محمد بن محمد بن القاسم القرشي المعروف بابن ظفر المكي، المتوفى سنة ٥٦٨هـ، ألفه لبعض القواد بصقلية سنة ٥٥٤هـ، وهو كتاب في قوانين الحكمة، ونوادير أخبار السلاطين على لسان الطيور والوحوش، ورتبه على خمس سلوانات: الأولى في التفويض ونتائجه، والثانية في التآسي وفوائده، والثالثة في الصبر وعوائده، والرابعة في الرضا وميامنه، والخامسة في الزهد.

طبع في مصر وتونس وبيروت، وترجم إلى اللغة الإيطالية بفلورنسا سنة ١٨٥١م، ومنه ترجمة إلى الإنجليزية، وطبع بلندن مع الترجمة سنة ١٨٥٢م.

(٢) ب: «فاتركه».

(٣) تكملة من ب.

(٤) ب: «نسمع».

فقال الوليد: صدقت، وها نحن نقتريخ لك ما تقتضيه.

قد بلغنا أن رجلاً من رعيئنا سعى في ضرر ملكنا، فأثر سعيه، وشق ذلك علينا، فهل سمعت بذلك؟ فقال الكهل: نعم يا أمير المؤمنين. فقال له الوليد: قل الآن على حسب ما سمعت، وعلى ما ترى من التدبير.

فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني عن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، أنه لما ندب الناس لقتال عبد الله بن الزبير، وخرج بهم متوجّهاً إلى مكة - حرسها الله تعالى - استصحب عمرو بن سعيد بن العاص، وكان عمرو قد انطوى على فساد نية، وخبث طوية وطماعية في نيل الخلافة، وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد قطن لذلك، إلا أنه كان يحترمه. ولما أبعد أمير المؤمنين عن دمشق تمارض عمرو بن سعيد، فاستأذن أمير المؤمنين في العود إلى دمشق فأذن له فلما دخل عمرو دمشق، صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من الخليفة، واستولى على دمشق، ودعا الناس إلى خلع عبد الملك، فأجابوه إلى ذلك وبايعوه؛ وحصن بعد ذلك سور دمشق، وحصى حوزتها، فبلغ ذلك عبد الملك وهو متوجه إلى ابن الزبير، وبلغه مع^(١) ذلك أن والي حمص قد نزع يده من الطاعة، وأن أهل الثغور قد تشوفوا^(٢) للخلاف. فأخضر وزرأه، فأطلعهم على ما بلغه، وقال لهم: إن دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد، وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق واليمن ومصر وخراسان؛ وهذا النعمان بن بشير أمير حمص وزفر بن الحارث أمير فلسطين قد خرجا عن الطاعة، وبايعا الناس لابن الزبير، وهذه المضرة بسؤفها تطالينا بقتلى المرج^(٣).

فلما سمع وزرأه مقالته، ذهلت عقولهم، فقال لهم عبد الملك: مالكم لا تنطقون! هذا وقت الحاجة إليكم. فقال أفضلهم: ودئت أن أكون طيراً على عود تهامة، حتى تنقضي هذه الفتن.

فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه، قام وأمرهم بلزوم موضعهم، وركب متفرداً، وأمر جماعة من شجاعانه أن يتبعوه متباعدين، ففعلوا. وسار عبد الملك حتى انتهى إلى شيخ ضعيف البدن، سيئ الحال وهو يجمع سماً^(٤)؛ فسلم عليه عبد الملك، وأنسه بحديثه، ثم قال له: أيها الشيخ ألك علم بنزل هذا العسكر؟

(١) ط: «من».

(٢) تشوفوا للخلاف: تطلعت نفوسهم إليه.

(٣) مرج راهط: موضع بناحي بدمشق: كانت به وقعة مشهورة بين قيس وتغلب سنة ٦٥هـ.

(٤) السماق: كرمان ثمر يشهى.

[فقال: نعم، فقال عبد الملك: سمعت شيئاً مما يقوله الناس في أمر هذا العسكر؟]^(١)، فقال الشيخ: وما سؤالك عنه؟ فقال عبد الملك: إني أردت الانتظام في سلكه، فقال له: إني أرى عليك سمة الرياسة، فينبغي أن تصرف نفسك عن هذا الرأي؛ فإن الأمير الذي أنت قاصده قد انحلت عرا ملكه، والسلطان في اضطراب أموره كالبحر إذا هاج.

فقال عبد الملك: أيها الشيخ، قوي عليّ جذب نفسي إلى صُحبة هذا الأمير، فهل لك أن ترشدني إلى رأي أتفق به عنده، فلعله يكون سبب قربي منه!

فقال الشيخ: إن هذه الثألة التي نزلت بهذا الأمير من التوازل التي لا تنفذ فيها العقول، وإني لأكره أن أرد مسألتك بالخبيّة.

فقال له عبد الملك: قل جزاك الله خيراً.

فقال الشيخ: إن هذا الخليفة خرج إلى قتال عدوّه، والإرادة غير قابلة لمُرادِه، والدليل على ذلك أن الله تعالى لم يرِدْ ما قصده من مُحاربة ابن الزبير ووثوب عمرو بن سعيد على منبره، واستيلائه على بيوت أمواله، وسرير خلافته، فإذا قصدت هذا الأمير، وانتظمت في سلكه، انظر في أمره؛ فإن رأيته قد أصرّ على قصده ابن الزبير فاعلم أنه مخذول فاجتنبه، وإن رأيته قد رجع من حيث جاء وترك قصده الأول فازج له النضر والسّلامة.

فقال عبد الملك: يا شيخ، وهل رجوعه إلى دمشق إلّا كمسيره إلى ابن الزبير! فقال الشيخ: إن الذي أشكل عليك لوأضح، وها أنا أزيل عنك اللبس؛ وهو أن عبد الملك إذا قصد ابن الزبير كان في صورة ظالم؛ لأن ابن الزبير لم يُعطه طاعة قط، ولا وثب له على ملكه، فإذا قصد ابن سعيد كان في صورة مظلوم؛ لأنه نكث ببغيه وخان أمانته، ووثب على دار ملك لم تكن له ولا لأبيه من قبله، بل كانت لعبد الملك ولأبيه من قبله، وعمرو عليها مُتعدّد. ومن الأمثال: سمين الغضب مهزول، ووليّ العذر معزول، وسأضرب لك مثلاً يشفي النفس، ويزيل اللبس:

زعموا أن ثعلباً كان يُسمّى ظالماً، وكان له جحر يأوي إليه، وكان مُغتبطاً به، فخرج يوماً يبغي ما يأكل، ثم رجع فوجد فيه حيّة، فانظر خروجها فلم تخرج، فعلم أنها استوطنته؛ وذلك أن الحيّة لا تتخذ جحراً، بل إذا أعجبها جحر اغتصبتّه، وطردت من به من الحيوان، ولهذا قيل: فلان أظلم من حيّة، فهذا ظلّمها. ولما رأى ظالم أن الحيّة قد استوطنت جحره، ولم يمكنه السكنى معها، ذهب يطلب لنفسه مأوى،

فانتهى به السيرُ إلى جُحْرِ حسن الظَّاهر حصين، في أرض منيعَةٍ ذات أشجار مُلتَفَّة وماءٍ معين. فأعجبه وسأل عنه فقالوا: هذا الجحر يملكه ثعلب اسمه مُفَوّض، وأَنَّهُ ورثه عن أبيه. فناداه ظالمٌ، فخرج إليه، ورحبَ به، وأدخله إلى جُحره، وسأله عن حاله فقَصَّ عليه خبره مع الحية، فَرَقَّ له مُفَوّض، وقال له: الموتُ في طَلَبِ النَّارِ خَيْرٌ من الحياة في العار، والرأي عندِي أَن تنطلق معي إلى مأواكَ الَّذي أخذ منك عَضْباً حتى أَنظُرَ إِلَيْهِ، فلعلِّي أَهتدي إلى مَكيدة تُخَلِّصُ بها مأواكَ.

فانطلقا معاً إلى ذَلِكَ الجُحر، فتأملَ مُفَوّض وقال لظالم: اذهب معي، فَبِت اللَّيلة عندِي لَأَنظُرَ لَيْلَتِي هذه فيما يَسْنَح من الرَّأي والمَكيدة. ففعلاً ذَلِكَ، وبات مُفَوّض مُفَكِّراً، وجعل ظالم يتأملُ مَسْكَن مُفَوّض، فرأى من سَعَتِهِ وطيبِ هَوَائِهِ وحَصَانَتِهِ، ما اشتدَّ حِرْصُهُ عليه، وطفِقَ يُدَبِّرُ الحيلةَ في اغْتِصَابِهِ ونَفْيِ مُفَوّض عنه.

فلَمَّا أَصْبَحَا قال مُفَوّض لظالم: إِنِّي رأيتُ ذَلِكَ الجُحر بعيداً من الشَّجر والماء، فاضرفْ نَفْسَكَ عنه، وهلمَّ أَعِينُكَ على اختفَار جُحْرِ في هذا المكان المشتَهى. فقال ظالم: هذا غَيْرُ ممكن؛ لأنَّ لي نَفْساً تَهْلِكُ لِبُعْدِ الوَطَنِ حَنِيناً، فلَمَّا سَمِعَ مُفَوّض مقالة ظالم، وما تَظَاهَرَ به من الرَّغبة في وَطَنِهِ قال له: إِنِّي أرى أَن تَذْهَبَ يومنا هذا فَتَحْتَطَبَ حطباً ونربطَ منه حُزْمَتَيْنِ، فإذا جاء اللَّيْلُ انطلقنا إلى بَعْضِ هذه الخيام، فأخذنا قَبَسَ نارٍ، واختَمَلْنَا الحطبَ والقَبَسَ إلى مَسْكِنِكَ، فتَجْعَلِ الحُزْمَتَيْنِ في بابِهِ، وتَضْرِمِ النَّارَ؛ فَإِن خَرَجَتِ الحيةُ اخْتَرَقَتْ، وإن لَرِمْتَ الجُحْرَ قَتَلَهَا الدُّخان. فقال لَهُ ظالم: هذا نِعَمُ الرَّأي.

فذهَبَا واختَبَطَا حُزْمَتَيْنِ، ولَمَّا جاء اللَّيْلُ، انطلق مُفَوّض إلى ظاهر تلك الخيام، فأخَذَ قَبَساً، فَعَمَدَ ظالمٌ إلى إحدى الحُزْمَتَيْنِ فَازَالَهَا إلى مَوْضِعٍ غَيْبٍ فِيهِ، ثم جرَّ الحزمة الأخرى إلى باب مَسْكَنِ مُفَوّض فسَدَّهُ بها سَدّاً مُحْكَمًا، وَقَدَّرَ فِي نَفْسِهِ أَن مُفَوّضاً إِذَا أَتَى الجُحْرَ لم يَمَكِنَهُ الدُّخُولُ إِلَيْهِ لِحَصَانَتِهِ؛ إِذَا يَبَسَ مِنْهُ دَهَبَ فَنظَرَ لِنَفْسِهِ مَأْوًى. وكان ظالمٌ قد رَأَى في مَنَزِلِ مُفَوّض طَعَاماً أَدْخَرَهُ لِنَفْسِهِ، فعَوَّلَ ظالمٌ على أَنَّهُ يَقْتَاتُ بِهِ إِذَا حَاصِرَهُ مُفَوّض وهو مِن دَاخِلٍ، وَأَذْهَلَهُ الشَّرُّ والحِرْصُ عن فَسَادِ هذا الرَّأي.

ثم إن مُفَوّضاً جاء بالقَبَسِ؛ فلم يَجِدْ ظالمًا ولا وجد الحطبَ، فَظَنَّ أَن ظالمًا قد حَمَلَ الحُزْمَتَيْنِ تَخْفِيفاً عَنْهُ، وَأَنَّهُ سَبَقَهُ إلى مَسْكَنِ الَّذِي فِيهِ الحيةُ إِشْفَاقاً على مُفَوّض. فشَقَّ ذَلِكَ عليه، وظهر لَهُ من الرَّأي أَن يُبَادِرَ إِلَيْهِ، وَيَلْحَقَهُ لِيَحْمَلَ مَعَهُ الحطبَ، فَوَضَعَ القَبَسَ بِالقُرْبِ مِنَ الحطبِ، ولم يَشْعُرْ أَنَّ البابَ مَسدودٌ بِهِ لِشِدَّةِ الظُّلْمَةِ، فما أَبْعَدَ عن البابِ إِلَّا وضوءَ النَّارِ وشِدَّةَ الدُّخَانِ قد لَحِقَا بِهِ، فعَادَ وَتَأَمَّلَ البابَ، فرأى الحطبَ قد صَارَ نَاراً، فعَلِمَ مَكِيدَةَ ظالمٍ، وَرَأَاهُ قد اخْتَرَقَ مِن دَاخِلِ الجُحْرِ، وحقَّ مَكْرُهُ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]؛ فقال: هذا البَاحِثُ على حَتْفِهِ بِظُلْفِهِ.

ثم إِنَّ مَفُوضاً صَبَرَ حَتَّى انْطَفَأَتِ النَّارُ، فَدَخَلَ جُحْرَهُ فَأَخْرَجَ جُثَّةَ ظَالِمٍ فَأَلْقَاهَا وَاسْتَوَظَنَ جُحْرَهُ آمناً.

فهذا المثلُ ضَرَبَتْهُ لَكَ لِأَنَّهُ مَلَائِمٌ لِفِعْلِ عَمْرٍو بْنِ سَعِيدٍ فِي بَغْيِهِ وَمُخَادَعَتِهِ عَبْدَ الْمَلِكِ وَحِيلَتِهِ فِي أَخْذِ دَارِ مُلْكِهِ وَتَخْصِيصِهَا مِنْهُ، وَهَذَا فِعْلُ ظَالِمٍ مَعَ مَفُوضٍ.

فَلَمَّا سَمِعَ عَبْدُ الْمَلِكِ حِكْمَةَ الشَّيْخِ فِي ضَرْبِ أَمْثَالِهِ سُرَّ بِذَلِكَ سُروراً عَظِيماً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: جَزَيْتَ عَنِّي خيراً، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَوْعِداً، أَوْ تَعْرِفَنِي مَكَانَكَ لِلْأَلْقَاكِ بِهِ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا. فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: وَمَا تَرِيدُ بِذَلِكَ؟ فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: إِنِّي أُرِيدُ مَكَافَأَتَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ؛ فَقَالَ الشَّيْخُ: إِنِّي أُعْطِيتُ اللَّهَ عَهْداً أَلَّا أَقْبَلَ مَنَّةً لِيَبْخِلَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ: وَمَنْ أَيْنَ عَلِمْتَ أَنِّي بَخِيلٌ! فَقَالَ: لِأَنَّكَ أَخَّرْتَ صِلَتِي مَعَ الْقُدْرَةِ [عَلَيْهَا] ^(١)، فَمَا عَلَيْكَ لَوْ وَصَلْتَنِي بِبَعْضِ مَا عَلَيْكَ! فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: أَفَسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ ذَهَلْتُ، ثُمَّ نَزَعَ سَيْفَهُ، وَقَالَ لَهُ: أَقْبَلْ مِنِّي هَذَا وَاحْرِصْ عَلَيْهِ، فَقِيمَتُهُ عَشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ. فَقَالَ الشَّيْخُ: إِنِّي لَا أَقْبَلُ صِلَةَ ذَاهِلٍ، فَدَعْنِي وَرَبِّي الَّذِي لَا يَذْهَلُ وَلَا يَبْخُلُ، فَهُوَ حَسْبِي.

فَلَمَّا سَمِعَ عَبْدُ الْمَلِكِ كَلَامَ الشَّيْخِ عَظُمَ فِي عَيْنِهِ، وَعَلِمَ فَضْلَهُ فِي دِينِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ؛ فَارْفَعْ حَوَائِجَكَ إِلَيَّ، فَقَالَ الشَّيْخُ: وَأَنَا أَيْضاً عَبْدُ الْمَلِكِ، فَهَلُمَّ نَرْفَعْ حَوَائِجَنَا إِلَى مَنْ أَنَا وَأَنْتَ لَهُ عَبْدَانِ!

فَانْطَلَقَ عَبْدُ الْمَلِكِ وَعَمِلَ بِرَأْيِ الشَّيْخِ فَأَنْجَحَ اللَّهُ قَضْدَهُ، وَانْتَصَرَ عَلَى أَعْدَائِهِ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْوَلِيدُ مَا أَخْبَرَهُ بِهِ الْكَهْلُ اسْتَرْجَحَ عَقْلَهُ، وَاسْتَظَرَفَ أَدَبَهُ، وَاسْتَحْسَنَ مُحَاضَرَتَهُ، وَسَأَلَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَتَسَمَّى وَانْتَسَبَ؛ فَلَمْ يَعْرِفْهُ الْوَلِيدُ فَاسْتَحْيَا مِنْهُ، وَقَالَ لَهُ: مِنْ جَهْلٍ مِثْلِكَ فِي رَعِيَّتِهِ ضَاعَ. فَقَالَ لَهُ الْكَهْلُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّ الْمُلُوكَ لَا تَعْرِفُ إِلَّا مَنْ تَعْرِفُ إِلَيْهَا، وَلَزِمَ أَبْوَابَهَا، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِصَدَقَةٍ مُعَجَّلَةٍ، وَعَهْدَ إِلَيْهِ فِي مُلَازِمَتِهِ، فَكَانَ يَتَمَتَّعُ بِأَدَبِهِ وَحِكْمَتِهِ؛ إِلَى أَنْ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْوَلِيدِ مَا هُوَ مَشْهُورٌ.



خبر سابور بن هرمز وقيصر

وَمِمَّا تَخَيَّرْتَهُ مِنْ عَجَائِبِ «سَلْوَانَ الْمَطَاعِ». قِيلَ: لَمَّا عَزَمَ سَابُورُ بْنُ هُرْمُزٍ عَلَى الدُّخُولِ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ مُتَنَكِّراً نَهَاها نُصَحَاؤُهُ وَعَقْلَاءُ وَزَرَائِهِ، وَحَذَّرُوهُ مِنْ ذَلِكَ فَعَصَاهُمْ، وَكَانَ يُقَالُ: أَشَقَى ^(٢) النَّاسِ وَزَرَائِ الْأَحْدَاثِ مِنَ الْمُلُوكِ، وَعُشَاقُ الْفَتَيَانِ ^(٣)

(١) تَكْلِمَةُ مَنْ ب.

(٣) ب: «الفتيات».

(٢) ط: «أوزر الناس».

من المشايخ؛ فإنَّ سابور تَوَجَّهَ نحو بلادِ الرُّومِ، واستَصْحَبَ وزيراً كان له ولأبيه من قبله - وكان من أدهى النَّاسِ في الحزم وسدادِ الرَّأيِ واختلافِ الأديانِ ولغاتها، وكان من المتبحرين في العلوم والمبرزين بالمكائد - فسَلَّمَ إِلَيْهِ سَابُورُ جميع ما يَحْتَاجُ إليه في سفره، وأمره ألاَّ يَتَجَاوَزَ في السَّيْرِ، ولا يَبْعُدَ عنه بحيثُ يُراعي جَمِيعَ أحواله في ليله ونهاره. فتَوَجَّهَ نحو الشام، وَلَبَسَ ذَلِكَ الْوَزِيرُ زِيَّ الرُّهْبَانِ، وتكَلَّمَ بلسانهم، وتحَرَّفَ صِنَاعَةَ الطَّبِّ الجِرَاحِيِّ - وكان معه الدُّهْنُ الصَّيْنِيُّ الَّذِي إِذَا دُهِنَتْ به الجِرَاحَاتُ خَتَمَتْ بِسُرْعَةٍ وانْدَمَلَتْ - فَكَانَ ذَلِكَ الْوَزِيرُ في مَسِيرِهِ نحو بلادِ الرُّومِ يُدَاوِي الجِرَاحَاتِ بِأَدْوِيَةٍ يَضِيفُ إِلَيْهَا يَسِيراً من ذَلِكَ الدُّهْنِ، فَتَبَرَّأَ بِسُرْعَةٍ، وإذا غُنِيَ بِأَحَدٍ من ذَوِي الْأَقْدَارِ دَاوَاهُ بِذَلِكَ الدُّهْنِ صِرَفاً فَبِيراً على الفور، ولا يَأْخُذُ على ذَلِكَ أَجْرَةً، فانتَشَرَ ذِكْرُهُ في بلادِ الرُّومِ، وعُقِدَتْ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ، وأُقْبِلَ عَلَيْهِ النَّاسُ، وكان مع انفرادِهِ عن سَابُورِ يُراعي جَمِيعَ أحواله، فلم يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى طَافَا جَمِيعَ الشَّامِ، وَقَصَّدا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ فَقَدِمَاها، فَذَهَبَ الْوَزِيرُ إِلَى الْبَطْرِكِ - وتفسير هذا الاسم أبو الآباء - فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ، وسأله عن قَصْدِهِ؛ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ هَاجَرَ إِلَيْهِ لِيَتَشَرَّفَ بِخِدْمَتِهِ، ويدْخُلَ في أَتْبَاعِهِ، ثم أَهْدَى إِلَيْهِ هَدِيَّةً نَفِيسَةً، حَسَنَ مَوْقِعُهَا مِنَ الْبَطْرِكِ، فَقَرَّبَهُ وَأَكْرَمَهُ، وَأَحْسَنَ نَزْلَهُ، وَالْحَقُّهُ بِطَانَتِهِ، واختبره فوجده عالِماً بدينيهم بل مُبْرِزاً، فَأَعْجَبَ بِهِ غَايَةَ الْإِعْجَابِ.

وجعل الوزير يَتَأَمَّلُ أحوال البطرك ليصبحه بما يلائمه، ويتَّفَقَ عنده، فوجده مائلاً إلى الفكاهات، مُعْجَباً بنوادر الأخبار - وكان الْوَزِيرُ في ذَلِكَ غَايَةً - فَأَخَذَ يُنَحِّفُهُ بِكُلِّ نَادِرَةٍ غَرِيبَةٍ وَمُلَحَةٍ عَجِيبَةٍ، فصَارَ الْبَطْرِكُ لم يُطِقْ عن الْوَزِيرِ صَبْراً؛ لِأَنَّهُ حَلَا لَعِينَهُ، وحلَّ بقلبه، وجعل الْوَزِيرُ مع ذَلِكَ يعالج الجِرَاحَاتِ، ولا يَأْخُذُ على ذَلِكَ عَوْضاً، فَعَظُمَ قَدْرُهُ فِي النَّاسِ؛ هَذَا وَهُوَ يَتَعَاهَدُ أحوال سَابُورِ في كُلِّ وَقْتٍ إِلَى أَنْ صَنَعَ قَيْصَرَ وَلِيْمَةً، وحَضَرَ النَّاسُ إِلَيْهَا على طبقاتهم، فأَرَادَ سابور حضورها لِيُطَّلِعَ على أحوال قَيْصَرَ، وعلى رُبَّتَيْهِ في قصره وعِظَمَ وليمته، فنهاه وَزِيرُهُ عن ذَلِكَ، فَعَصَاهُ وَتَرْتِياً بِزِيٍّ ظَنَّ أَنَّهُ يَسْتَتِرُ بِهِ، ودخل دَارَ قَيْصَرَ مع مَنْ حَضَرَ الْوَلِيْمَةَ.

وكان قَيْصَرُ مِنْ شِدَّةِ اخْتِرَاسِهِ مِنْ سَابُورِ، وَخِيفَةً مِنْ أَنْ يَطْرُقَ بِلَادَهُ، وَتُحَسِّنَ لَهُ هِمَّتُهُ الْعَالِيَةُ وَحِدَةُ الشَّبِيبَةِ ذَلِكَ، صَوَّرَ سَابُورَ في مجلسه، وعلى سُتُورِ بَيْتِهِ وعلى فَرَشِهِ، وفي آلاَتِ أَكْلِهِ وَشُرْبِهِ.

ولَمَّا دَخَلَ سَابُورُ يَوْمَ الْوَلِيْمَةِ، واستَقَرَّ في مجلسه، وأَكَلَ مع مَنْ حَضَرَ، أَتَوْا بِالشَّرْبِ فِي كُؤُوسِ الْبَلُورِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالزُّجَاجِ الْمَحْكَمِ. وكان في المجلس رَجُلٌ مِنْ حُكَمَاءِ الرُّومِ وَدُهَاتِهِمْ، فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى سَابُورِ أَنْكَرَهُ، وجعل يَتَأَمَّلُ

شخصه، فرأى عليه مخايل الرياسة، ولما زاد في تأمله وصل إليه دُورُ الكأس، فتأمل الصورة التي على الكأس وراجع النظر في سابور، فما شكَّ أنَّ الصورة التي على الكأس وُضعت على مثاله؛ وغلب على ظنه أنَّه سابور، فأمسك الكأس في يده إمساكاً طويلاً، ثمَّ قال رافعاً صوته: إنَّ هذه الصورة التي على هذه الكأس تخبرني إخباراً عجيباً، فقيل له: وما الَّذي تُخبرُك؟ فقال: تُخبرني أنَّ الذي هي مثال^(١) له معنا في مجلسنا هذا. ثمَّ نظر إلى سابور وقد تغيَّر لونه حين سَمِعَ مقالته. فَحَقَّقَ ظَنَّهُ. فبلغ ذلك قنصر، فأذناه وقرَّبه وسأله، فأخبر أنَّ سابور معه في مجلسه - وأشار إليه - فأمر قنصر بالقبض عليه، وقرب من قنصر فسأله عن نفسه، فتعلَّل بضروبٍ من العلل لم تُقبل، فقال ذلك المُتفرِّس: أيُّها الملك، لا تُقبل قولَه، فإنَّه سابور لا محالة؛ فهذه قنصر بالقتل، فاعترف أنَّه سابور، فحبسه قنصر مكرماً، وأمر أن يعمل له من جلود البقر صورة بقرة، وتطبق عليها الجلود سبع طبقات، ويخذ لها باب، وتجعل لها كوة لأجل المبال وستقر سابور بها، وتجمع يده إلى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة يُمكنه معها تناول ما يعمل له من طعامٍ وشرابٍ وغير ذلك.

فلما دخل سابور جوف تلك الصورة؛ جمع قنصر جنوده، واستعدَّ لغزو بلاد فارس^(٢)، ووكل بسابور وهو داخل البقرة مائة رجلٍ من ذوي البأس والشدة يحملونها، وصرف أمره إلى المطران، وهو خليفة البطرك، فكانت تلك الصورة تُحمل بين يديه، فإذا نزل المعسكر^(٣) نزلت الصورة التي فيها سابور وسط العسكر، وضربت عليها قبة، وتضرب للمطران قبة مجاورة لقبة سابور، وسار قنصر مُحتفلاً^(٤) بجنوده وعساكره، وقد عزم على خراب بلاد فارس.

ولما جدَّ السير قال وزير سابور للبطرك: أيُّها الأب، إنما استفدت بخدمتك [والقرب منك]^(٥) الرغبة في مصالح الأعمال، ولا عمل أصلح من تنفيس كربة عن مجهود، وجرَّ منقعة إلى مضطر، وقد علمت اجتهادي في مداواة الجرحى، وإنَّ نفسي تنازعني إلى صحبة الملك قنصر في سفره هذا؛ فلعلَّ الله تعالى يستنقذ بي نفساً سالحة، أو يسوقني إلى مداواة جريح من العسكر ليتقدَّم قلبي بهذه المثوبات.

فكرة البطرك ذلك، وقال له: قد علمت أنَّني لا أستطيع فراقك ساعة، فكيف تطالبني بالسفر البعيد! قال: فلم يزل وزير سابور يتصرَّع إلى البطرك إلى أن استحيا

(١) ب: «مثاله».

(٢) ب: «الفرس».

(٣) ب: «العسكر».

(٤) ب: «مختلفاً».

(٥) من ب.

منه، وسمح له بذلك وزوّده، وكتب معه إلى المطران يُخبره برُتبته عنده، وأنّه يُحلّه في أعلى المراتب، ويستضيء برأيه إذا أشكل عليه أمر.

فقدّم وزير سابور على المطران، فعرف له حقّه، وأنزله في قُبتّه، وجعل زمام أمره ونهيه بيده، وصار الوزير يستميله بما يميل إليه، ويُطْرِفه في كُلِّ لَيْلَةٍ بِطَرْفِ الأخبار، رافعاً بها صوته لِيَسْمَعَ سابورُ حَدِيثه، فَيَتَسَلَّى بِذَلِكَ؛ وَيَدَسَّ في أَحَادِيثه ما يُريدُ أن يُعَلِّمه به، وَيُطِنّه من الأسرار؛ فكان سابورُ يَجِدُ بذلك راحةً عظيمة.

وكان الوزير قد أعدَّ لِخَلَّاصِ سابورِ أنواعاً من المكاييد رَتَّبَهَا عندما قَدِمَ على المطران، منها أنّه امتنع عن مُؤَاكَلَةِ المَطْران، وأخبره أنّه لا^(١) يَخْلُطُ بطعام البطرك غيره لأجل بَرَكَتِهِ، فكان إذا حضر طعامُ المطران أخرج هو ذلك الزاد الذي معه، وانفردَ بالأكل وحده، فلم يَزَلْ قَيِّصِر سائراً بِجُنُودِهِ حتى بَلَغَ أرض فارس، فأكثرَ فيها القَتْلَ والسَّبْيَ وتَغْوِير^(٢) المِياه وقَطَعَ الأشجار وخراب القرى والحصون، وهو مع ذلك يُوَاصِلُ السَّيْرَ لِيَسْتَوِلِيَ على دار ملكِ سابور قَبْلَ أَنْ يَشْعُرُوا فَيَمْلِكُوا عليهم رجلاً منهم.

ولم يَكُنْ لِلْفُرسِ همٌّ إِلَّا الفرار من بين يديه، والاعتصام بالمعاقل والحصون، فلم يزل قيصر على تلك الحالِ حتَّى بلغ مَدِينَةَ سابور وقرار مُلْكِهِ، فأحاطَ بها، ونَصَبَ عليها آلاتِ الحِصار، ولم تَكُنْ عندها قُوَّةٌ ولا مَنَعَةٌ في دَفْعِهِ أَكْثَرَ من ضَبْطِ الأسوار والقِتالِ عليها، وكُلُّ ذَلِكَ فَهَمَهُ سابورُ من كِنَاياتِ الوزير في محاضراته للمطران، ولكن لم يسمع له كلمة من حين سَجَنَهُ قَيِّصِر في تلك الصُّورة.

فَلَمَّا عَلِمَ سابورُ أَنَّ قَيِّصَرَ قَدْ ثَقُلَتْ وطأته، وأشرفَ على فتح البَلَدِ عِيلَ صَبْرِهِ، وساءَ ظَنُّهُ، ويَشِسَ من الحَيَاةِ، فَلَمَّا جَاءَهُ المَوَكَّلُ بِطَعَامِهِ، قال له: إن هذه الجامعة^(٣) قد نالت مِنِّي مَنَالاً ضَعُفَتْ قُوَّتِي عن احتِماله، فإن كُنْتُم تَريدون بقاء نَفْسِي فَتَقَسُّوا عَنِّي منها، واجْعَلُوا بَيْنَهَا وبين يدي وعُنُقِي خِرْقاً من الحرير. فجاء المَوَكَّلُ بالطعام إلى المطران، وأَعْلَمَهُ بِالَّذِي قاله سابور. فَسَمِعَهُ الوزير، وعَلِمَ أَنَّ سابورَ قد جَزَعَ وساءَ ظَنُّهُ، وَقَطِنَ لِمَا أَرَادَ سابور.

فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ وجَلَسَ لمسامرةِ المطران، قال له: قد ذَكَرْتُ اللَّيْلَةَ حَدِيثاً عَجيباً ما ذَكَرْتُهُ مِنْذُ كَذَا وكَذَا، وَدِدْتُ أَنَّنِي كُنْتُ حَدَّثْتُ بِهِ البَطْرِكَ قَبْلَ سَفَرِي، فقال له المطران: إِنِّي أَرْغَبُ إِلَيْكَ أَنْ تُحَدِّثَنِي اللَّيْلَةَ أَيُّهَا الرَّاهِبُ الحَكِيمُ، فقال الوزير: حُبّاً

(١) ب: «لم».

(٢) تغوير المِياه: إذهابها.

(٣) الجامعة: القيود.

وَكَرَامَةً! ثُمَّ انْدَفَعَ يُحَدِّثُهُ رَافِعاً صَوْتَهُ لِيَسْمَعَ سَابُورٌ وَيَفْهَمَ الْغَرَضَ وَيَسْتَأْنَسَ؛ فَقَالَ: اَعْلَمُ أَيُّهَا الْمَطْرَانُ أَنَّهُ كَانَ بِلَادَنَا فَتَى وَفَتَاةٌ لَيْسَ فِي زَمَانِهَا أَحْسَنُ مِنْهُمَا، اسْمُ الْفَتَى «عَيْنُ أَهْلِهِ» واسم الْفَتَاةِ «سَيِّدَةُ النَّارِ»^(١)، وَكَانَا زَوْجَيْنِ مُؤْتَلِفَيْنِ، لَا يَبْتَغِي أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ بَدِيلًا. ثُمَّ إِنَّ عَيْنَ أَهْلِهِ جَلَسَ يَوْمًا مَعَ أَصْحَابِهِ فَتَذَاكَرُوا النِّسَاءَ إِلَى أَنْ ذَكَرَ أَحَدُهُمْ امْرَأَةً أَطْنَبَ فِي وَصْفِهَا وَبَالِغَ، وَذَكَرَ أَنَّ اسْمَهَا «سَيِّدَةُ الذَّهَبِ»، فَوَقَعَ فِي قَلْبِ عَيْنِ أَهْلِهِ حُبُّهَا، فَسَأَلَ الْوَاصِفَ عَنْ مَنَزْلِهَا، فَذَكَرَ أَنَّهَا يَبْلُدُ بِالْقُرْبِ مِنْ بَلَدِهِ، فَفَكَّرَ عَيْنُ أَهْلِهِ فِي أَمْرِهَا، وَخَامَرَهُ^(٢) حُبُّهَا.

فَانْطَلَقَ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي هِيَ سَاكِنَةٌ بِهِ، وَسَأَلَ عَنْ مَنَزْلِهَا فَعَرَفَهُ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَرَدَّدُ إِلَى بَابِهَا حَتَّى رَأَاهَا، فَرَأَى مَنَظَرًا حَسَنًا، وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ بِأَحْسَنَ مِنْ امْرَأَتِهِ، بَلْ ضَرُورَاتُ النَّفْسِ حُبُّ التَّنَقُّلِ فِي الْأَحْوَالِ، وَلاَزِمَ عَيْنَ أَهْلِهِ الْمَعَاوِدَةَ إِلَى مَنَزْلِ سَيِّدَةِ الذَّهَبِ حَتَّى فَطَنَ لَهُ بَعْلُهَا. وَكَانَ جَافِيًا غَلِيظَ الطَّبْعِ شَدِيدَ الْبَطْشِ، يَسْمَى الذُّثْبَ، فَرُصِدَ لَهُ عَيْنُ أَهْلِهِ حَتَّى مَرَّ بِهِ. فَلَمَّا رَأَاهُ وَثَبَ عَلَيْهِ وَقَتَلَ فَرَسَهُ، وَمَزَّقَ ثِيَابَهُ، وَاسْتَعَانَ بِجَمَاعَتِهِ عَلَيْهِ، فَاحْتَمَلُوهُ إِلَى دَاخِلِ دَارِ الذُّثْبِ، وَرَبَطُوهُ إِلَى سَارِيَةٍ فِي الدَّارِ، وَوَكَلَ بِهِ عَجُوزًا مَقْطُوعَةً الْيَدَ جَدْعَاءَ^(٣) عَوْرَاءَ شَوْهَاءَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ أَوْقَدَتْ تِلْكَ الْعَجُوزُ النَّارَ^(٤) بِالْقُرْبِ مِنْهُ، وَجَعَلَتْ تَضْطَلِّي؛ فَذَكَرَ عَيْنُ أَهْلِهِ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ السَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ وَالرَّفَافِيَةِ وَالْعِزِّ، فَبَكَى بِكَاءٍ شَدِيدًا، فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ الْعَجُوزُ، وَقَالَتْ [لَهُ]^(٥): مَا ذَنْبُكَ الَّذِي أَوْجَبَ هَذَا؟ فَقَالَ عَيْنُ أَهْلِهِ: مَا عَلِمْتُ لِي ذَنْبًا، فَقَالَتْ الْعَجُوزُ: هَكَذَا قَالَ الْفَرَسُ لِلْخَنَزِيرِ وَكَذَبَ، فَقَالَ عَيْنُ أَهْلِهِ لِلْعَجُوزِ: وَمَا الَّذِي كَذَبَ فِيهِ الْفَرَسُ عِنْدَ الْخَنَزِيرِ؟ فَقَالَتْ لَهُ الْعَجُوزُ:

ذَكَرُوا أَنَّ فَرَسًا كَانَ لِأَحَدِ الشُّجْعَانِ، فَكَانَ يَبَالِغُ فِي إِكْرَامِهِ، وَيَحْسُنُ إِلَيْهِ وَيُعِدُّهُ لِمَهْمَّاتِهِ، وَلَا يَصْبِرُ عَنْهُ سَاعَةً. وَكَانَ يَخْرُجُ بِهِ صَحْبَتَهُ كُلَّ يَوْمٍ، فَيُزِيلُ لِحْجَامَهُ وَسَرْجَهُ، وَيُطِيلُ رَسَنَهُ فَيَتَمَرَّغُ، وَيُرْعَى فِي كُلِّ مَرْجٍ مُخَصَّبٍ حَتَّى يَرْتَفِعَ النَّهَارُ، فَيَرِدُّهُ وَهُوَ عَلَى يَدِهِ.

ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ يَوْمًا إِلَى الْمَرْجِ رَاكِبًا، وَنَزَلَ عَنْهُ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ قَدَمَاهُ عَلَى الْأَرْضِ، نَفَرَ الْفَرَسُ وَجَمَحَ، وَمَرَّ يَغْدُو بِسَرْجِهِ وَلِحْجَامِهِ، فَطَلَبَهُ الْفَارِسُ يَوْمَهُ^(٦) كُلَّهُ فَأَعْجَزَهُ، وَغَابَ عَنْ عَيْنِهِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَارْجَعَ الْفَارِسُ إِلَى أَهْلِهِ وَقَدْ يَتَّسُّ مِنَ الْفَرَسِ.

(١) كَذَا فِي ب، وَفِي بَاقِي الْأَصُولِ: «النَّاسِ».

(٢) خَامَرَهُ: خَالَطَهُ.

(٣) جَدْعَاءُ: مَقْطُوعَةُ الْأَنْفِ.

(٤) «نَارًا».

(٥) ب: «يَوْمًا».

ولمّا انْقَطَعَ الطَّلَبُ عن الفرس، وأظلم عليه اللَّيْلُ جَاع، وطلب أن يَزْعَى فَمَنَعَهُ اللَّجَامُ، ورامَ أن يَتَمَرَّغَ فَمَنَعَهُ السَّرَجُ، ورامَ أن يَضْطَجِعَ فَمَنَعَهُ الرِّكَابُ، فَبَاتَ بَشَرًا [ليلة] ^(١). فلمّا أصبح، ذهب يَبْتَغِي فرجاً مما هو فيه، فاعترضه نَهْرٌ فدخله لِيَقْطَعَهُ إلى جهته الأخرى؛ فإذا هو بعيدُ القعر فسبح فيه، وكان حِزَامُهُ وَلَبِيبُهُ ^(٢) من جِلْدٍ ما أَتَقَنَ في دبغه. فلمّا خرج أصابت الشَّمْسُ الحِزَامَ واللَّبِيبَ فيبسا، واشتدَّ عليه، فورم مَوْضِعُ اللَّبِيبِ والمحزم واشتدَّ به الضَّرَرُ، وقوي به الجُوعُ، ومضت عليه أَيَّامٌ، فَنَزَايَدَ ضَعْفُهُ، وعجز عن المشي، فمرَّ به خِنْزِيرٌ فَهَمَّ بِقَتْلِهِ، فَرَأَهُ ضَعِيفاً جَدًّا، فسأله عن حاله فأخبره بما هو من أَضْرَارِ اللَّجَامِ واللَّبِيبِ والحِزَامِ، وسأله أن يصنع معه مَعْرُوفاً، وَيُخْلَصَهُ مما هو فيه.

فسأله الخِنْزِيرُ عن الذَّنْبِ الَّذِي أَوْقَعَهُ فِي تِلْكَ الْعُقُوبَةِ، فزعم الفرس ألا ذَنْبَ لَهُ، فقال له الخِنْزِيرُ: كَذَبْتَ، ولو صَدَقْتَ خَلَصْتُكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ، ومن جهل ذنوبه وَأَصْرَّ عليها لم يُرَجَّ فَلَاحُهُ، فحدَّثَنِي يا فرس عن ابتداء أَمْرِكَ فيما نزل بك، وعن حَالِكَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَصَدَّقَهُ الفرس، وأخبره بجميع أَمْرِهِ، وَكَيْفَ كَانَ [عند] ^(٣) فَارِسِهِ مُكْرَمًا وَكَيْفَ فَارِقَهُ، وما لقي في طَرِيقِهِ إلى حين اجتماعه بالخِنْزِيرِ.

فقال الخِنْزِيرُ: قَاتَلَكَ اللَّهُ! لقد كفرت النعم، وأكثرت الذُّنُوبَ؛ منها خِلَافُكَ لِفَارِسِكَ الَّذِي بَالِغٌ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْكَ، وَأَعَدَّكَ لِمُهْمَّاتِهِ، ومنها كُفْرُكَ إِحْسَانِهِ، ومنها تَعَدُّيكَ عَلَى مَا لَيْسَ لَكَ وَهُوَ السَّرَجُ واللَّجَامُ، ومنها إِسَاءَتِكَ لِنَفْسِكَ ^(٤) بتعاطيك التَّوَحُّشَ الَّذِي لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَا لَكَ عَلَيْهِ مَقْدِرَةٌ، ومنها إِضْرَارُكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَكُنْتَ قَادِرًا عَلَى الْعُودِ إِلَى فَارِسِكَ قَبْلَ أَنْ يُوْهَنَكَ ^(٥) اللَّجَامُ والجُوعُ والحِزَامُ واللَّبِيبُ بِالْأَلَمِ.

فقال الفرس للخِنْزِيرِ: قد عرفت ذَنْبِي، فَانْطَلِقْ عَنِّي ودعني، فَإِنِّي أَسْتَحِقُّ أَضْعَافَ مَا أَنَا فِيهِ، فقال الخِنْزِيرُ: بعد أن اعترفت وعُذْتُ عَلَى نَفْسِكَ بِاللَّوْمِ ^(٦)، وَاخْتَرْتُ لَهَا الْعُقُوبَةَ عَلَى جَهْلِهَا؛ تَعَيَّنَ الشَّرُوعُ فِي خِلَاصِكَ.

ثم إِنَّ الخِنْزِيرَ قَطَعَ عِذَارَ اللَّجَامِ فَسَقَطَ وَقَطَعَ الحِزَامَ، فَتَفَسَّسَ عَنِ الْفَرَسِ [ما يجد] ^(٧).

(١) من ب.

(٢) اللبب: ما يشد به صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل.

(٣) من ب.

(٤) ب: «على نفسك».

(٥) ط: «يوهيك».

(٦) ب: «بالملام».

(٧) تكلمة من ط.

قال: فلَمَّا سَمِعَ عَيْنُ أَهْلِهِ مَا خَاطَبَتْهُ بِهِ الْعَجُوزُ، قَالَ لَهَا: صَدَقْتَ فِيمَا نَطَقْتَ، وَلَقَدْ تَأَذَّبْتَنِي فَتَأَذَّبْتُ، ثُمَّ أَعْلَمَهَا بِخَبَرِهِ، ثُمَّ رَغَّبَهَا فِي أَنْ تُثْنِيَ عَلَيْهِ بِالْخُلَاصِ كَمَا فَعَلَ الْخِزْنِيرُ بِالْفَرَسِ، فَقَالَتِ الْعَجُوزُ: الَّذِي سَأَلْتَنِي لَا يُمَكِّنُنِي فِعْلُهُ الْآنَ [فَاصْبِرْ]^(٥)؛ وَلَعَلِّي أَجِدُ لَكَ فَرْجاً أَوْ مَخْرَجاً [عَنْ قَرِيبٍ]^(٥)؛ فَعَلَيْكَ بِالصَّبْرِ. وَأَمْسَكَتِ الْعَجُوزُ عَنْ مُخَاطَبَتِهِ.

فَلَمَّا انْتَهَى الْوَزِيرُ فِي حَدِيثِهِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ أَقْبَلَ الْمَطْرَانَ وَقَالَ: إِنِّي أَحْسُ فِي أَعْضَائِي فَتُوراً وَفِي رَأْسِي صُدَاعاً، وَلَمْ أَقْدِرِ اللَّيْلَةَ عَلَى إِنْتِمَاءِ الْحَدِيثِ، وَلَعَلِّي أَكُونُ اللَّيْلَةَ الْقَابِلَةَ نَشِيطاً إِلَى ذَلِكَ، وَنَهَضَ إِلَى مَضْجَعِهِ فَجَعَلَ سَابُورٌ يَتَأَمَّلُ حَدِيثَ الْوَزِيرِ، وَيَتَأَمَّلُ الْأَمْثَالَ الَّتِي ضَرَبَهَا لَهُ، وَدَسَّهَا فِي الْمَسَامِرَةِ، فَفَهِمَ أَنَّ الْوَزِيرَ كَتَى عَنْ سَابُورٍ بَعَيْنَ أَهْلِهِ، وَكَتَى عَنْ مَمْلَكَتِهِ بَسِيدَةَ النَّارِ [لأنهم يعبدون النار]^(١)، وَكَتَى عَنْ بِلَادِ الرُّومِ بَسِيدَةَ الذَّهَبِ، وَكَتَى عَنْ قَيْصَرٍ بِالذُّثْبِ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ بَعَلَ سَيِّدَةَ الذَّهَبِ، وَكَتَى عَنْ طُمُوحِ نَفْسِ سَابُورٍ إِلَى مَمْلَكَةِ الرُّومِ بِطُمُوحِ نَفْسِ عَيْنِ أَهْلِهِ إِلَى رُؤْيَا سَيِّدَةِ الذَّهَبِ، وَكَتَى عَنْ أَخْذِ قَيْصَرٍ لَهُ بِقَبْضِ الذُّثْبِ عَلَى عَيْنِ أَهْلِهِ، وَكَتَى عَنْ نَفْسِهِ وَحَالِهِ وَعَجْزِهِ بِالْعَجُوزِ الْقَطْعَاءِ، وَعَرَفَهُ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُهُ تَخْلِيصُهُ فِي هَذَا الْوَقْتِ، كَمَا قَرَّرَتِ الْعَجُوزُ لِعَيْنِ أَهْلِهِ، وَأَنَّهُ شَارَعَ فِي خُلَاصِهِ.

فَاسْتَرْوَحَ سَابُورٌ رِيحَ الْفَرَجِ، فَسَكَنَتِ نَفْسُهُ، وَوُثِقَ بِوَزِيرِهِ. فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الْقَابِلَةَ وَتَعَشَّى الْمَطْرَانُ، وَأَخَذَ مَقْعَدَهُ لِلْمَسَامِرَةِ، قَالَ لِلْوَزِيرِ: أَيُّهَا الْحَكِيمُ الرَّاهِبُ، أَخْبِرْنِي مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ عَيْنِ أَهْلِهِ، وَهَلْ خَلَصَتْهُ الْعَجُوزُ مِنْ وَثَاقِ الذُّثْبِ أَمْ لَا؟ فَقَالَ الْوَزِيرُ: سَمِعْتُ وَطَاعَةً، فَشَرَعْتُ فِي حَدِيثِهِ، وَقَالَ: إِنَّ عَيْنَ أَهْلِهِ أَقَامَ عَلَى حَالَتِهِ عِدَّةَ أَيَّامٍ، وَكُلَّ يَوْمٍ يَدْخُلُ عَلَيْهِ الذُّثْبُ وَيَهْدُهُ بِالْقَتْلِ، وَيَزِيدُهُ قَيْدًا.

ثُمَّ إِنَّ الْعَجُوزَ جَاءَتْهُ فِي بَغْضِ اللَّيَالِي، وَأَضْرَمَتْ لَهَا بِالْقُرْبِ مِنْهُ نَاراً، وَجَلَسَتْ^(٢) تَضْطَلِي، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَى عَيْنِ أَهْلِهِ، وَقَالَتْ لَهُ: سَاعِدْنِي عَلَى خُلَاصِكَ بِالصَّبْرِ، فَقَالَ لَهَا عَيْنُ أَهْلِهِ: هَانَ عَلَى الطَّلِيحِ مَا لَقِيَ الْأَسِيرُ! فَقَالَتِ الْعَجُوزُ: حَدَاثَةُ سِنِّكَ قَصَّرَتْ فَهَمَّكَ عَنْ إِذْرَاكِ الْحَقَائِقِ، أَفَتَسْمَعُ حَدِيثاً لَكَ فِيهِ سَلَوَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَتِ الْعَجُوزُ: ذَكِّرُوا أَنَّ بَعْضَ الثُّجَارِ كَانَ لَهُ وَلَدٌ، وَكَانَ مَشْغُوفاً بِهِ، فَأَتَحَفَهُ بِبَعْضِ مَعَارِفِهِ بِخَشْفٍ^(٣) غَزَالَ، فَعَلَّقَ قَلْبُ الصَّبِيِّ بِذَلِكَ الْخَشْفِ الصَّغِيرِ، فَكَانَ لَا يُفَارِقُهُ، وَجَعَلُوا فِي جِيدِهِ خُلِيّاً نَفِيساً، وَرَبَطُوا لَهُ شَاةً تُرْضِعُهُ حَتَّى اشْتَدَّ، وَنَجَمَ قَرْنَاهُ؛ فَأَعْجَبَهُ

(١) تكملة من ب.

(٢) ب: «وجعلت».

(٣) الخشف: ولد الطيبي أول ما يولد؛ أول مشيه.

بَرِيقَتُهُمَا وَسَوَادُهُمَا، وَقَالَ لِأَهْلِهِ: مَا هَذَا الَّذِي ظَهَرَ فِي رَأْسِ الْخَشْفِ؟ فَقَالُوا: قَرْنَاهُ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّهُمَا سَيَكْبُرَانِ وَيَطْوِلَانِ. فَقَالَ الْغَلَامُ لِأَبِيهِ: إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَرَى غَزَالًا كَبِيرًا لَهُ قَرْنَانِ كَامِلَانِ، فَأَمَرَ أَبُوهُ بَعْضَ الصَّيَّادِينَ أَنْ يَصِيدَ لَهُ غَزَالًا كَبِيرًا، فَأَخْضَرَ لَهُ غَزَالًا قَدْ اسْتَكْمَلَ قُوَّةً وَثُمُوًا، فَأَعْجَبَ الْغَلَامُ، وَحَلَّى جِيدَهُ أَيْضًا، فَأَنْسَ الْغَزَالُ الْكَبِيرُ بِالْخَشْفِ الصَّغِيرِ لِلْمَجَانَسَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَقَالَ الْخَشْفُ لِلْغَزَالِ: مَا كُنْتُ أَظُنُّ لِي فِي الْأَرْضِ شَكْلًا قَبْلَ أَنْ أَرَكَ؟ فَقَالَ لَهُ الْغَزَالُ: إِنَّ أَشْكَالَكَ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ الْخَشْفُ: وَأَيْنَ هِيَ؟ فَأَخْبَرَهُ الْغَزَالُ بِتَوَحُّشِهَا وَانْفِرَادِهَا فِي فُلُواتِ الْأَرْضِ وَتَنَاسُلِهَا، فَازْتَرَحَ الْخَشْفُ لَذَلِكَ وَتَمَتَّى أَنْ يَرَاهَا. فَقَالَ لَهُ الْغَزَالُ: هَذِهِ أُمْنِيَّةٌ لَا خَيْرَ لَكَ فِيهَا، لِأَنَّكَ نَشَأْتَ فِي رِفَاهِيَّةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَلَوْ حَصَلَتْ عَلَيَّ مَا تَمَنَيْتَ لَنَدِمْتُ، فَقَالَ الْخَشْفُ لِلْغَزَالِ: لَا بُدَّ مِنَ اللَّحَاقِ بِأَشْكَالِي.

فَلَمَّا رَأَى الْغَزَالُ أَنَّ الْخَشْفَ غَيْرُ رَاجِعٍ، لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ قَضَاءِ أَرْبِهِ لِحُرْمَةِ الْأَلْفَةِ، فَرَصَدَا وَقْتًا قَابِلًا، وَخَرَجَا مَعًا حَتَّى لَحِقَا بِالصَّخْرَاءِ، فَلَمَّا عَايَنَهَا الْخَشْفُ فَرِحَ وَمَرَحَ، وَمَرَّ يَغْدُو لَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَا وَرَاءَهُ، فَسَقَطَ فِي أَخْدُوْدٍ ضَيِّقٍ قَدْ قَطَعَهُ السَّيْلُ، فَانْتَظَرَ أَنْ يَأْتِيَهُ الْغَزَالُ فَيَخْلُصَهُ فَلَمْ يَأْتِهِ. وَأَمَّا وَلَدُ التَّاجِرِ فَإِنَّهُ تَنَكَّدَ لِفَقْدِ الْخَشْفِ وَالْغَزَالِ، وَأَشْفَقَ أَبُوهُ عَلَيْهِ، فَاسْتَدْعَى كُلَّ مَنْ يَعَانِي الصَّيْدَ، فَعَرَفَهُمُ الْقِصَّةَ، وَكَلَّفَهُمْ طَلَبَ الْخَشْفِ وَالْغَزَالِ، وَوَعَدَهُمْ بِالْمُكَافَأَةِ عَلَى ذَلِكَ، وَرَكِبَ التَّاجِرُ مَعَهُمْ، وَفَرَّقَ أَتْبَاعَهُ عَلَى أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ يَنْتَظِرُونَ مَنْ يَأْتِي مِنَ الصَّيَّادِينَ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَعَبِيدُهُ حَتَّى دَخَلُوا الصَّخْرَاءَ؛ فَرَأَوْا عَلَى بُعْدٍ رَجُلًا مُنْكَبًا عَلَى شَيْءٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَسْرَعُوا نَحْوَهُ فَرَأَوْا صَيَّادًا قَدْ أَوْتَقَ غَزَالًا كَبِيرًا وَقَدْ عَزَمَ عَلَى ذَبْحِهِ، فَتَأَمَّلَهُ التَّاجِرُ فَإِذَا هُوَ الْغَزَالُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَوْلَدَهُ، فَخَلَّصَهُ مِنَ الصَّيَّادِ، وَأَمَرَ عَبِيدَهُ فَفَتَّشُوهُ، فَوَجَدُوا مَعَهُ الْحُلِيَّ الَّذِي كَانَ عَلَى هَذَا الْغَزَالِ فَسَأَلَهُ: كَيْفَ ظَفَرْتُ بِهِ، وَأَيْنَ وَجَدَهُ؟ فَقَالَ: إِنِّي بَتُّ فِي هَذِهِ الصَّخْرَاءِ، وَنَصَبْتُ شَرَكًا، وَمَكَّثْتُ قَرِيبًا مِنْهُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ مَرًّا عَلَيَّ هَذَا الْغَزَالُ وَمَعَهُ خَشْفٌ يَغْدُو وَيَمْرَحُ فِي جِهَةٍ غَيْرِ جِهَةِ الشَّرَكِ، وَجَاءَ هَذَا الْغَزَالُ يَمْشِي حَتَّى حَصَلَ^(١) فِيهِ فَفَتَّصْتُهُ، وَقَصَدْتُ بِهِ الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا بَلَغْتَ هَذَا الْمَوْضِعَ ظَهَرَ لِي أَنِّي مُخْطِئٌ فِي إِدْخَالِ هَذَا الظَّنِّي إِلَى الْمَدِينَةِ حَيًّا لِعِلْمِي أَنَّهُ إِذَا رُئِيَ حَيًّا طُولِبَتْ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْحُلِيِّ، فَرَأَيْتُ أَنْ أَذْبَحَهُ وَأَدْخُلَ بِهِ لَحْمًا. فَهَذَا خَبْرِي.

فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ: لَقَدْ جَنَى عَلَيْكَ جَمْعُكَ الْخَبِيَةَ فَمَاذَا عَلَيْكَ لَوْ أَطْلَقْتَهُ، وَحَصَلَتْ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْحُلِيِّ!

ثُمَّ إِنَّ التَّاجِرَ أَرْسَلَ الْغَزَالَ إِلَى وَلَدِهِ مَعَ أَحَدِ عَبِيدِهِ، وَقَالَ لِلصَّيَّادِ: ارْجِعْ مَعِي،

فَأَرِنِي الْجَهَّةَ الَّتِي رَأَيْتَ الْخَشْفَ سَعَى نَحْوَهَا، فَرَجَعَ بِهِ إِلَى تِلْكَ الْجَهَّةِ ^(١) فَسَمِعَ مِنْ قَرِيبٍ صَوْتَهُ ^(٢)، فَصَاحَ بِهِ التَّاجِرُ، فَعَرَفَ الْخَشْفَ صَوْتَهُ فَصَوَّتَ، فَسَمِعَ التَّاجِرُ الصَّوْتَ فَأَذْرَكَه، فَإِذَا هُوَ فِي ذَلِكَ الْأُخْدُودِ مُلْقَى ^(٣)، فَأَخَذُوهُ، وَوَهَبَ التَّاجِرُ لِلصَّيَّادِ مَا رَضِيَ بِهِ وَصَرَفَهُ، وَرَجَعَ التَّاجِرُ بِالْخَشْفِ إِلَى وَلَدِهِ. فَكَمَلَتْ مَسَرَّةُ الْغَلَامِ، وَجَعَلَ الْخَشْفُ يَتَجَبَّبُ الْغَزَالَ الْكَبِيرَ إِذَا رَأَاهُ وَلَا يَأْلَفُهُ، فَتَنَغَّصَتْ مَسَرَّةُ الْغَلَامِ لَذَلِكَ، وَجَهْدَ أَهْلِهِ بِكُلِّ حِيلَةٍ أَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ الْخَشْفِ وَالْغَزَالِ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ. فَبَيْنَمَا الْخَشْفُ نَائِمٌ فِي كِنَاسِهِ ^(٤) إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ الْغَزَالُ فَأَيَّقَظَهُ وَعَاتَبَهُ عَلَى نِفَارِهِ مِنْهُ، فَقَالَ الْخَشْفُ: أَمَّا أَنْتَ الَّذِي غَدَرْتَ، وَقَدْ عَلِمْتَ احْتِيَاجِي فِي غُرْبَتِي إِلَى مُعَاوَنَتِكَ! فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ مَا أَخَّرَنِي عَنْ ذَلِكَ إِلَّا وَقُوعِي فِي شَرِكِ الصَّيَّادِ. وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، فَقَبِلَ عَذْرَهُ، وَعَادَ إِلَى الْأَلْفَةِ كَمَا كَانَ.

فَلَمَّا سَمِعَ عَيْنُ أَهْلِهِ خُطَابَ الْعَجُوزِ، وَفَهُم كِنَايَاتِهَا عَنْ عَجْزِهَا فِي تَخْلِيصِهِ، أَمْسَكَ عَنْ خُطَابِهَا.

قِيلَ: فَلَمَّا انْتَهَى وَزِيرُ سَابُورٍ مِنْ حَدِيثِهِ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ سَكَتَ، قَالَ الْمَطْرَانُ: أَيُّهَا الْحَكِيمُ الرَّاهِبُ، مَا هَذَا السُّكُوتُ؟ فَقَالَ الْوَزِيرُ: قَدْ عَاوَدَنِي ذَلِكَ الْفُتُورُ الَّذِي أَجَدَهُ فِي أَعْضَائِي، فَقَالَ الْمَطْرَانُ: لَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَشُقُّ عَلَيَّ، فَقَالَ الْوَزِيرُ: نَعَمْ، أَفْعَلُ ذَلِكَ طَلِبًا لِمَرْضَاتِكَ، ثُمَّ انْدَفَعَ يُحَدِّثُهُ.

قَالَ: وَبَاتَ عَيْنُ أَهْلِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي أَضْيَقِ الْأَحْوَالِ، وَلَمَّا أَصْبَحَ دَخَلَ عَلَيْهِ الذُّئْبُ فَنَالَ مِنْهُ، وَهَدَّاهُ بِالْقَتْلِ، وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ فَجَعَلَ يُعَلِّلُ نَفْسَهُ بَقِيَّةَ نَهَارِهِ وَيَمْنِيهَا بِالْفَرَجِ؛ فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ اسْتَوْحَشَ، وَانْتَظَرَ أَنْ تَجْلِسَ إِلَيْهِ الْعَجُوزُ وَتُحَادِثَهُ فَلَمْ تَفْعَلْ، فَأَيَّقَنَ قَتْلَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَأَقْبَلَ عَلَى الْبُكَاءِ حَتَّى مَضَى ^(٥) جَانِبَ مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَالَ ^(٦) لِلْعَجُوزِ: لَمْ أَخْظَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بِمُؤَانَسَتِكَ، فَقَالَتْ لَهُ: قَدْ جَرَحْتَ قَلْبِي بِقَوْلِكَ لِي: هَانَ عَلَى الطَّلِيْقِ مَا لِقِيَ الْأَسِيرِ، وَلَوْ اعْتَبَرْتَ بَاطِنَ حَالِي لَعَلِمْتَ أَنَّ أَسْرِي أَشَدَّ مِنْ أَسْرِكَ. فَاسْتَمِعَ لِي أَحَدُكَ [عَنْ حَالِي] ^(٧).

اعْلَمْ أَيُّهَا الْفَتَى أَنِّي كُنْتُ زَوْجَةً لِبَعْضِ الْفَرَسَانِ، وَكَانَ لِي مُجِبًّا، فَكُنْتُ مَعَهُ فِي

(١ - ١) ب: «فسمع ترتيب الخشف، أي صوته».

(١) ب: «متشبا فيه».

(٢) كناس الظبي: بيته ومستتره.

(٣) ب: «ذهب».

(٤) ب: «ثم جاءت العجوز فقال لها».

(٥) من ب.

أزغِدَ عيش، وولدت له أولاداً كثيرة، فغضب الملك على زَوْجِي لِأَمْرِ كَانَ مِنْهُ، فقتله وقتل أولادي الذكور، وباعني أنا وبناتي، فاشتراني هذا الفارس الذي عدا عليك، واختَمَلَنِي إلى هذه البلدة، وأساء إِلَيَّ وكَلَّفَنِي من العمل ما لا أطيق، ولي معه على هذه الحالة سبع سنين، ثم فرزت منه فظفِرَ بِي، فقطع يدي، وعاود عَسْفِي ومَضَرَّتِي، وقد عزمْتُ على تَخْلِيصِكَ اللَّيْلَةَ، وما أَشْكُ أَنَّهُ يَقْتُلَنِي، وَجُلُّ قَضْدِي ذَلِكَ لِأَجْلِ الرَّاحَةِ مِمَّا أَنَا فِيهِ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ أَنَا أَكْثَرُ الدُّخُولِ والخروج إِلَيْكَ، وَأَنَا فِي غَايَةِ الْحِيرَةِ مِنَ الْفَزَعِ والجزع.

ثم إِنَّهَا فَتَحَتْ قُيُودَ عَيْنِ أَهْلِهِ، وقطعت وثاقه، وتناولت سِكِّيناً لَتَقْتُلَ نَفْسَهَا، فَقَالَ لَهَا عَيْنُ أَهْلِهِ: إِنْ تَرَكْتِكَ تَقْتُلِينَ نَفْسَكَ فَقَدْ شَارَكْتِكَ فِي دَمِكَ، وَانْتَزَعَ السِّكِّينَ مِنْ يَدِهَا وَقَالَ لَهَا: قُومِي أَذْهَبِي مَعِي لَكِي نَجْوٍ مَعاً، أَوْ نَعْطِبْ مَعاً. فَقَالَتْ: إِنْ كَبِرَ سِتِّي وَضَعَفَ بَصْرِي يَمْنَعَانِي مِنْ اتِّبَاعِكَ؛ فَقَالَ لَهَا عَيْنُ أَهْلِهِ: إِنَّ اللَّيْلَ مُتَسِّعٌ، وَالْمَوْضِعَ الَّذِي أَنَا فِيهِ قَرِيبٌ، وَلِي قُوَّةٌ عَلَى حِمْلِكَ. فَقَالَتْ لَهُ الْعَجُوزُ: [أَمَّا] ^(١) إِذْ عَزَمْتُ عَلَى هَذَا فَإِنِّي لَا أَخُوجُكَ إِلَى حِمْلِي. وَخَرَجَا مَعاً فَلَمْ يَنْقُضِ اللَّيْلُ حَتَّى بَلَغَا حَيْثُ أَمْنَا؛ فَجَزَاها عَيْنُ أَهْلِهِ خَيْراً عَلَى مَا صَنَعَتْ، وَاتَّخَذَهَا أُمًّا؛ فَهَذَا مَا بَلَغَنِي مِنْ ذَلِكَ.

فَقَالَ الْمَطْرَانُ: مَا أَعْجَبَ أَحَادِيثَكَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ [الراهب] ^(١)! وَلَقَدْ وَدِدْتُ أَنِّي لَا أَفَارُقُكَ أَبَداً، وَنَهَضَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى مَضْجَعِهِ. وَبَاتَ سَابُورٌ يَتَصَفَّحُ حَدِيثَ وَزِيرِهِ، وَيَتَأَمَّلُ أَمْثَالَهُ، فَفَهِمَ أَنَّ الْخَشْفَ مِثْلُ لِسَابُورٍ، وَأَنَّ الْغَزَالَ الْكَبِيرَ مِثْلُ الْوَزِيرِ، وَأَنَّ خُرُوجَ الْخَشْفِ مَعَ الْغَزَالِ إِلَى الصَّخْرَاءِ، وَحُصُولُ الْخَشْفِ فِي الْأَخْدُودِ مِثْلُ لَصُخْبَةِ سَابُورٍ وَزِيرِهِ حَتَّى حَصَلَ سَابُورٌ فِي حَبْسٍ قَيْصَرٍ، وَأَنَّ نِفَارَ الْخَشْفِ عَنِ الْغَزَالِ سَوْءٌ ظَنُّ سَابُورٍ بِوَزِيرِهِ لِتَأَخُّرِهِ عَنِ اسْتِنْقَاذِهِ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ الْوَزِيرَ قَدْ عَزَمَ عَلَى خِلَاصِهِ وَالْخُرُوجِ بِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيْلاً، وَأَنَّ الْمَدِينَةَ قَرِيبَةٌ مِنْهُمَا، وَأَنَّهُ يَحْمِلُهُ إِنْ عَجَزَ عَنِ الْمَشْيِ. فَأَيَّقَنَ سَابُورٌ بِالْفَرَجِ.

وَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الْقَابِلَةُ تَلَطَّفَ وَزِيرُ سَابُورٍ حَتَّى دَخَلَ الْخَيْمَةَ الَّتِي يُطْبَخُ بِهَا الطَّعَامُ لِلْمَطْرَانِ، وَبِهَا الْمَوْكَلُونَ بِقُبَّةِ سَابُورٍ نَائِمُونَ يَنْتَظِرُونَ الطَّعَامَ، فَتَحِيلَ إِلَى أَنَّ أَلْقَى فِي الطَّعَامِ مُرْقِداً ^(٢) قَوِيَّ الْفِعْلِ، وَلَمَّا حَضَرَ طَعَامُ الْمَطْرَانِ انْفَرَدَ الْوَزِيرُ بِأَكْلِ زَادِهِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ، فَلَمْ تَكُنْ إِلَّا سَاعَةٌ حَتَّى صُرِعَ الْقَوْمُ، فَبَادَرَ الْوَزِيرُ إِلَى فَتْحِ بَابِ الْبَقْرَةِ، وَاسْتَخْرَجَ سَيِّدَهُ، وَأَزَالَ الْجَامِعَةَ عَنْ عُنُقِهِ وَيَدَيْهِ، وَتَلَطَّفَ حَتَّى أَخْرَجَهُ

(١) مِنْ ب.

(٢) الْمَرْقَدُ: دَوَاءٌ يَنَامُ بِهِ شَارِبُهُ.

من عَسْكَرٍ قَيْصَرَ وقصد به المدينة، فانتَهِيا معاً إلى سورِها، فَصَرَخَ بهم المُوكِّلون، فتقدَّم الوزير إِلَيْهِمْ، وأمرهم بخفض أصواتهم، وأعلمهم بسلامة الملك، ثم عرَّفهم نفسه، فابتدروا لهما وأدخلوهما المدينة.

فَقَوِيَتْ نُفُوسُ أَهْلِهَا، وأمرهم سابور بالاجتماع، وفرَّقَ فيهم السلاح، وأمرهم أن يأخذوا أهْبَتَهُمْ فإذا ضُرِبَتْ نَوَاقِيسُ النَّصَارَى الضَّرْبَ الأوَّلَ يخرجون من المدينة، وَيَتَفَرَّقُونَ على عَسْكَرِ الرُّومِ، فإذا ضُرِبَتْ النَوَاقِيسُ الضَّرْبَ الثَّانِي يَحْمِلُونَ بِأَجْمَعِهِمْ. فامْتَثَلُوا أَمْرَهُ.

ثُمَّ إِنَّ سابور انْتَخَبَ كَتِيبَةً عَظِيمَةً فيها شُجْعَانُ أساورته، ووقف معهم ممًّا يلي الْجِهَةَ التي فيها أُخْبِيَّةٌ قَيْصَرَ، فلما ضُرِبَتْ النَوَاقِيسُ الضَّرْبَ الثَّانِي حملوا من كُلِّ جِهَةٍ، وَقَصَدَ سابور أُخْبِيَّةَ قَيْصَرَ، ولم يكن الرُّومُ مُتَأَهِّبِينَ لِعِلْمِهِمْ بِضَعْفِ الْفَرَسِ عن مَقَاوِمَتِهِمْ، وسَدَّ أَبْوَابَهُمْ، فما شعروا حتَّى دَهَمُوهُمْ^(١)، وأخذ سابور قَيْصَرَ أَسِيرًا وَغَنِمَ جميع ما في عسكره، واختوى على جميع خَزَائِنِهِ، ولم يَنْجُ من جنوده إِلَّا الْيَسِيرَ.

ثم عاد سابور إلى مدينته ودار مَمْلَكَتِهِ، فَقَسَمَ تلكَ الْغَنَائِمَ بين أَهْلِ عسكره، وَأَحْسَنَ إلى حَفَظَةِ مُلْكِهِ؛ وفَوَّضَ جَمِيعَ أُمُورِهِ إلى الوزير.

ثم إِنَّهُ أَخْضَرَ قَيْصَرَ فَلَاطِفَهُ، وأكرمه، وقال له: إِنِّي مُبْقٍ عَلَيْكَ كَمَا أَبْقَيْتَ عَلَيَّ، وَغَيْرَ مُجَازٍ لَكَ على التَّضْيِيقِ، ولكن أَخْذُكَ بِإِصْلَاحٍ [جميع]^(٢) ما أَفْسَدْتَ من جميع مُلْكِي فتبني ما هدمت، وَتَغْرِسُ نَظِيرَ جَمِيعِ ما قَلَعْتَ، وَتُطْلِقُ كُلَّ من عندك من أَسَارَى الْفَرَسِ، فَضَمِّنْ لَهُ جَمِيعَ ذَلِكَ وَوَفِّى بِهِ.

فَلَمَّا تَمَّ لِسَابُورِ ما أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَحْسَنَ إلى قَيْصَرَ، وأطلقه، وَجَهَّزَهُ إلى دار مُلْكِهِ، واستمرَّ قَيْصَرٌ على مُهَادَنَتِهِ، والائْتِيَادِ إلى طَاعَتِهِ.



قصة أرينب بنت إسحاق

ومن لطائف المنقول قصة أَرَيْنَبِ بنتِ إِسْحَاقَ زوج عبد الله بن سلام: كان عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ والياً بِالْعِرَاقِ من قبل معاوية، وكانت أَرَيْنَبُ بنتُ إِسْحَاقَ زوجاً له - وَهِيَ مِنْ أَجْمَلِ نِسَاءِ عَصْرِهَا، وَأَحْسَنَهُنَّ أَدْباً وَأَكْثَرَهُنَّ مَالاً - وكان يزيد بن معاوية قد

(١) ب: «دهموا عليهم».

(٢) من ب.

هام بجمالها وأدبها على السَّماع، وبما بلغه عنها من حسن الخلق والخلق، وفُتِن بها، فلما عِيل صَبْرهُ خَصَّ بِسَرِّهِ خَصِيصاً لِمُعَاوِيَةَ اسْمُهُ رَفِيقٌ، فذَكَرَ رَفِيقُ ذَلِكَ لِمُعَاوِيَةَ، وذكر شِدَّةَ شَغَفِ يَزِيدَ بِهَا.

فَبَعَثَ مُعَاوِيَةُ إِلَى يَزِيدٍ، فَاسْتَفْسَرَهُ عَنْ أَمْرِهِ، فَبَيَّنَّ لَهُ شَأْنَهُ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: مَهْلًا يَا يَزِيدُ! قَالَ: عَلَامَ تَأْمُرُنِي بِالْمَهْلِ وَقَدْ انْقَطَعَ مِنْهَا الْأَمَلُ! فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: وَأَيْنَ حِجَاكَ وَمَرْوَتُكَ؟ فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ: قَدْ عِيلَ الْحِجَا، وَنَفِدَ الصَّبْرُ، قَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ سَاعِدْنِي عَلَى أَمْرِكَ بِالْكُتْمَانِ، وَاللَّهِ بِالْغِ أَمْرِهِ.

وَكَانَتْ أُرَيْبُ بِنْتُ إِسْحَاقَ قَدْ سَارَتْ بِذِكْرِ جَمَالِهَا الزُّكْبَانَ، وَضُرِبَتْ بِهَا الْأُمُثَالُ. فَأَخَذَ مُعَاوِيَةُ فِي الْحِيلَةِ حَتَّى يَبْلُغَ يَزِيدَ رِضَاهُ، وَيُنَالِ غَرْضَهُ وَمُنَاهُ. فَكُتِبَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ يَسْتَحِثُّهُ عَلَى الْحُضُورِ لِمُضْلِحَةٍ عَيْنَهَا لَهُ. وَكَانَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ يَوْمَئِذٍ بِالشَّامِ أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ صَاحِبَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ الشَّامَ أَعَدَّ لَهُ مُعَاوِيَةُ مَنَزِلًا حَسَنًا، وَنَقَلَ إِلَيْهِ، وَبَالِغَ فِي إِكْرَامِهِ، ثُمَّ قَالَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ: إِنَّ ابْنَتِي قَدْ بَلَغَتْ، وَأُرِيدُ نِكَاحَهَا، وَقَدْ رَضِيَْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ لِدِينِهِ وَشَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَأَدَبِهِ، وَقَدْ كُنْتُ جَعَلْتُ لَهَا فِي نَفْسِهَا شُورَى؛ وَلَكِنْ أَرْجُو أَلَّا تَخْرُجَ عَنْ رَأْيِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مُتَوَجِّهَيْنِ إِلَى مَنْزِلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ بِمَا^(١) قَالَ لَهُمَا مُعَاوِيَةُ.

ثُمَّ دَخَلَ مُعَاوِيَةُ عَلَى ابْنَتِهِ، فَقَالَ لَهَا: إِذَا دَخَلَ عَلَيْكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَأَبُو هُرَيْرَةَ فَعَرِّضَا عَلَيْكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ، وَإِنِّكَ حَاجِي إِلَيْكَ مِنْهُ، وَحَضَّاكِ عَلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى رِضَايَ، فَقُولِي لَهُمَا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ كَفَّءٌ كَرِيمٌ، غَيْرُ أَنَّ تَحْتَهُ أُرَيْبُ بِنْتُ إِسْحَاقَ، وَأَنَا خَائِفَةٌ أَنَّ يَعْزِضَ لِي مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يَعْزِضُ لِلنِّسَاءِ، وَلَسْتُ بِفَاعِلَةٍ حَتَّى يَفَارِقَهَا.

وَأَمَّا أَبُو الدَّرْدَاءِ وَأَبُو هُرَيْرَةَ فَإِنَّهُمَا لَمَّا وَصَلَا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَعْلَمَاهُ بِمَا قَالَ لَهُمَا مُعَاوِيَةُ، فَرَدَّهُمَا خَاطِبَيْنِ عَنْهُ، فَلَمَّا مَثَّلَا بَيْنَ يَدَيْ مُعَاوِيَةَ قَالَ لَهُمَا: إِنِّي كُنْتُ أَغْلَمْتُكُمَا أَنَّنِي جَعَلْتُ لَهَا فِي نَفْسِهَا شُورَى، فَادْخُلَا عَلَيْهَا، وَأَعْلِمَاهَا بِمَا رَأَيْتَ لَهَا.

فَدَخَلَا عَلَيْهَا وَأَعْلَمَاهَا بِذَلِكَ، فَأَبْدَتْ مَا قَرَّرَهُ أَبُوهَا [عِنْدَهَا]^(٢) مِنْ قَبْلِ، فَعَادَا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، فَأَعْلَمَاهُ بِذَلِكَ فَفَهَمَ الْمُرَادَ، وَأَشْهَدَهُمَا عَلَيْهِ بِطَلَاقِ أُرَيْبَ [بِنْتُ إِسْحَاقَ]^(٣) وَبَعَثَهُمَا إِلَيْهِ خَاطِبَيْنِ؛ فَلَمَّا دَخَلَا عَلَى مُعَاوِيَةَ أَعْلَمَاهُ بِطَلَاقِ أُرَيْبَ، فَأَظْهَرَ مُعَاوِيَةُ كِرَاهِيَتَهُ لِذَلِكَ، وَقَالَ: مَا اسْتَحْسَنْتُ طَلَاقَ زَوْجَتِهِ وَلَا أَحْبَبْتُهُ، فَانْصَرِفَا

(١) ط: «بِالَّذِي».

(٢) مِنْ ط.

(٣) مِنْ ب.

ففي عافية وعودا إِلَيْنَا. وكتب إلى ابْنِهِ يزيد يعلمه بما كان من طلاق عبد الله بن سلام لأرنب بنت إسحاق.

وعاد بعد ذلك أبو الدرداء وأبو هريرة إلى معاوية فأمرهما بالدخول على ابنته، وسؤالهما عن رضاها، وهو يقول: لم يكن لي أن أكرهها، وقد جعلت لها الشورى في نفسها. فدخل عليها، وأعلمها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرّها بذلك؛ وذكر فضلته وشرفه وكرمه ومروءته. فقالت: جفّ القلم بما هو كائن، ولا أنكر شرفه وفضله، وإني سائلة عنه حتى أعرف دَخِيلَةَ خبره، ولا حول ولا قوة إلا بالله [فقالا: وفّقك الله، وخار لك، وانصرفا عنها، وأعلمها عبد الله بقولها: فأنشد]:

فإن يك صدرُ هذا اليوم ولّى فإن غداً لناظره قريب
ثم تزايد حديث الناس بطلاق أرنب، وخطبة ابنة معاوية، واستحثّ عبد الله أبا الدرداء وأبا هريرة فأتياها، فقالا لها: اصنعي ما أنت صانعة، واستخيري الله.

فقالت: أرجو - والحمد لله - أن يكون الله قد اختار^(١) لي؛ فإنه لا يكلّ إلى غيره، وقد استبرأت^(٢) أمره وسألت عنه، فوجدته غير ملائم ولا موافق^(٣) لما أريد لنفسني مع اختلاف من استشرّته فيه؛ فمنهم النّاهي عنه ومنهم الأمر به. فلمّا بلغه كلامها علم أنها حيلة وأنه مخدوع، وقال متعزياً: ليس لأمر الله راد، ولعلّ ما سرّوا به لا يدوم لهم سرور.

قال: وذاع أمره وفشا في الناس، وقالوا: خدعه معاوية حتى طلق امرأته لغرض ابنه، بثس ما صنع!

ثم إن معاوية بعد انقضاء أيامها المعلومة، وجّه أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على يزيد، فخرج حتى قدّمها، وبها يؤمّد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فقال أبو الدرداء إذ قدّم العراق: ما ينبغي لذي عقل أن يبتدأ بشيء قبل زيارة الحسين، سيّد شباب أهل الجّة إذا دخل موضعاً هو فيه. فقصد الحسين رضي الله عنه فلمّا رآه، قام إليه وصافحه إجلالاً لصحبته لجده ﷺ، وقال: ما أتى بك يا أبا الدرداء؟ قال: وجّهني معاوية خاطباً على ابنه يزيد أرنب بنت إسحاق؛ فرأيت عليّ حقاً ألا أبدأ بشيء قبل السّلام عليك.

فشكره الحسين على ذلك وأثنى عليه، وقال: لقد كنت ذكرت نكاحها، وأردت

(١) ب: «خار».

(٢) استبرأت أمره: استقصت جميع أموره.

(٣) ب: «ولا يوافق ما أريد».

الإرسال إليها إذا انقضت عدتها^(١) وقد أتى الله بك، فاخطب على بركة الله عليّ وعليه، وهي أمانة في عنقك، وأعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه؛ فقال: أفعل إن شاء الله.

فلما دخل عليها، قال: أيتها المرأة: إن الله خلق الأمور بقدرته، وكونها بعزته، وجعل لكل أمر قدرًا، ولكل قدر سببًا، فليس لأحد عن قدر الله مخلص^(٢)، فكان ما سبق لك، وقدر عليك من فراق عبد الله بن سلام على غير قياس، ولعل ذلك لا يغيرك، ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا، وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها وولي عهده والخليفة من بعده يزيد بن معاوية، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ، وابن [أول]^(٣) من أقر به من أمته، وسيد شباب أهل الجنة، فاخترني أيهما شئت.

فسكتت^(٤) طويلاً ثم قالت: يا أبا الدرداء، لو جاءني هذا الأمر وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل إليك، وأتبعته فيه رأيك، فأما إذ كنت أنت المرسل، فقد فوضت أمري فيه بعد الله إليك، وجعلته في يدك؛ فاختر لي أراضاهما لربك؛ والله شاهد عليك، فافض ولا يصدّنك عن ذلك اتباع الهوى، فليس أمرهما عليك خفيًا.

فقال أبو الدرداء: أيتها المرأة، إنما عليّ إعلامك ولك الاختيار لنفسك، فقالت: عفا الله عنك! إنما أنا بنت أخيك، ولا يمنعك أحد من قول الحق فيما طوّقتك به، فقد وجب عليك أداء الأمانة.

فلَمْ يجد بُدًا من القول، فقال: يا بُنَيَّة؛ ابن بنت رسول الله ﷺ أحب إليّ في ذلك، وأرضى عندي، والله أعلم بخيرهما لك، وقد رأيت رسول الله ﷺ واضعاً شفتيه على شفتي الحسين؛ فضعي شفتيك حيث وضع رسول الله ﷺ شفتيه.

قالت: قد اخترته ورَضِيته؛ فتزوجها الحسين بن عليّ عليهما السلام، فساق لها مهرًا عظيمًا. وبلغ معاوية ما فعله أبو الدرداء فعظم عليه، وقال: من يرسل ذا بَلَهٍ وعمى ركب خلاف ما يهوى.

وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه إياها ذهبًا، وكان معاوية قد اطرّحه، وقطع عنه جميع روادفه لقوله إنه خدعه حتى طلق امرأته، فلم يزل يجفوه حتى قل ما بيده. فرجع إلى العراق، فلما قَدِمَها لقي الحسين فسلم عليه ثم قال: لقد علمت ما كان من خبري وخبر أرنب، وكنت قبل فراقني إياها استودعْتُها مالًا، وكان الذي كان ولم أقبضه، والله إن ظني بها جميل، فذاكرها في أمري، فإن الله يجزيك به أجرك.

(٣) من ب.

(١) ب: «مدتها».

(٤) ب: «فبكت».

(٢) ب: «خلاص».

فسكت عنه، فلما انصرف إلى أهله، قال لها: قَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ بنَ سَلام، وهو كثيرُ الثَّناء عليك في دينك وحسنِ صُحْبَتِكَ؛ فسرَّني ذلك وأعجبني، وذكر أنَّه استودعك مالا؛ فقالت: صدق، استودعني مالا لا أدري لمن هو، وإنَّه لمطبوعٌ عليه بخاتمِه، وها هو ذا فادفعه إليه بطابعه. فأثَّني عليها الحسين خيراً، وقال: ألا أدخلك عليك حتى تتبرَّئي إليه منه. ثم لقي عبدَ اللَّهِ، فقال: ما أنكرتَ مالك، وزعمتَ أنَّه كما دفعته إليها بطابعك، فادخل يا هذا إليها، واستوفِ مالك منها بحيث تحصل البراءة من الطرفين.

فلما دخل عليها، قال لها الحسين: هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلبُ وديعتَه، فأخرجتُ إليه البدر^(١)؛ فوضعتها بين يديه، وقالت له: هذا مالك؛ فشكر وأثنى. فخرج الحسينُ عنهما، وفضَّ عبد الله خواتمَ بَدَرِه، وحَثَا^(٢) لها من ذلك جانباً كبيراً، وقال لها: واللَّهِ هذا قليلٌ مني. فاستعبرا حتى علَّتْ أصواتهما بالبكاء على ما ابتُلِيا به، فدخل الحسين عليهما وقد رَقَّ لهما، ثم قال: أشهدُ الله أنها طالقٌ ثلاثاً، اللهم أنت تعلم أنني لم أستنكحها رغبةً في مالها ولا في جمالها، ولكنني أردت إخلاهاً لزوجها.

فَطَلَّقَها وَلَمْ يأخذ شيئاً مما ساق لها في مهرها بعدما عرضته عليه، وقال: الذي أرجوه من الثواب خير لي. فلما انقضت عِدَّتُها تزوجها عبد الله بنُ سَلام، وعادا إلى ما كانا عليه من حُسْنِ الصُّحْبَةِ إلى أن فرَّقَ الموتُ بينهما. هكذا نقله ابن بدرون في تاريخه والله أعلم^(٣).



عفاف ومروءة

ومن غرائب المنقول وعجائبه عن الأمير بدر الدين أبي المحاسن يوسف المَهْمَنْدَار المعروف بمَهْمَنْدَار^(٤) العرب أنَّه قال: حكى لي الأمير شجاع الدين محمد الشيرازي مُتَوَلِّي القاهرة في الأيام الكامِلِيَّة سنة ثلاثين وستمائة قال: بتنا عند رَجُل

(١) البدر: جمع بدرة وهي كيس فيه ألف أو عشرة آلاف.

(٢) حثا له: أعطاه.

(٣) هو أبو مروان عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي الأشبيلي ثم السبتي، من أدباء القرن السادس الهجري، وشارح قصيدة ابن عبدون الرائية، التي رثى بها ملوك بني الألفطس؛ والخبر في هذا الشرح ص ١٧١ - ١٨٠.

(٤) المَهْمَنْدَار: هو الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان، وينزلهم دار الضيافة، ويتحدث في القيام بأمرهم. (صبح الأعشى ٤: ٢٢، ٥: ٤٥٩).

ببعض بلاد الصعيد، فأكرمنا - وكان الرجل شديد السُّمرة وهو شيخ كبير - فحضر له أولادٌ بيضُ الوجوه، حسانُ الأشكال، فقلنا له: هؤلاء أولادُك؟ فقال: نعم، وكأني بكم وقد أنكرتُم بياضهم وسوادي! فقلنا له: نعم، قال: هؤلاء أمهم إفرنجية أخذتها في أيام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شاب، فقلنا: وكيف أخذتها؟ قال: حديثي بها عجيب. قلنا: أتحفنا به؟ قال:

زرعْتُ كِتَاناً في هذه البلدة، وقلعته ونفضته، فانصرف عليه خمسمائة دينار؛ ولم يبلغ الثمن إلى أكثر من ذلك، فحملته إلى القاهرة فلم يصل إلى أكثر من ذلك، فأشير عليَّ بحمله إلى الشام فحملته، فما زاد على تلك القيمة شيئاً، فوصلت به إلى عكا فبعت بعضه بالأجل، والبعض تركته عندي واكثرَيْتُ حانوتاً أبيع فيه على مهلي إلى حيث انقضاء المدَّة، فبينما أنا أبيع إذ مرَّت بي امرأة إفرنجية - ونساء الإفرنج يمشون في الأسواق بلا نقاب - فأتت تشتري مِنِّي كِتَاناً، فرأيتُ من جمالها ما بهرني، فبعتها وسامحتها. ثم انصرفت وعادت إليَّ بعد أيام فبعتها وسامحتها أكثر من المَرَّة الأولى، فتكررت إليَّ، وعلمت أنني أحبُّها، فقلتُ للعجوز التي معها: إنني قد تلفت بحُبِّها^(١) وأريد منك الحيلة، فقالت لها ذلك، فقالت: تروِّح أرواحنا الثلاثة؛ أنا وأنت وهو؛ فقلتُ لها: قد سمحتُ بروحي في حُبِّها. واتفق الحال على أن أذفع لها خمسين ديناراً صوريَّة فوزَّعتها وسلَّمتها للعجوز، فقالت: نحن اللَّيلة عنْدك؛ فمضيتُ وجَهَّزْتُ ما قَدَرْتُ عليه من مأكول ومشروب وشمع وحلوى، فجاءت الإفرنجية فأكلنا وشربنا، وجنَّ اللَّيل ولم يبق غير النوم، فقلتُ في نفسي: أما تَسْتَجِي من الله؛ وأنت غريب تَعْصِي الله مع نُصْرَانِيَّة! اللهم إني أشهدك أنني قد عَفَفْتُ عنها في هذه اللَّيلة حياءً منك وخَوْفاً من عقابك، ثم نِمْتُ إلى الصُّبح، وقامت في السَّحر وهي غَضْبَى، ومَضَتْ ومَضِيَّت أنا إلى حانوتي. فجلست فيه وإذا هي قد عَبَرَتْ^(٢) عليَّ؛ هي والعجوز وهي مُغَضَّبة وكأنها القَمَر، فقلتُ في نفسي: من هو أنت حتَّى تترك هذه البارعة في حُسْنِها! ثم لحقتُ العجوز وقلت: ارجعي. فقالت: وحقَّ المسيح ما أَرْجِعُ إِلَيْكَ إلَّا بمائة دينار؛ فقلت: نعم رَضِيت؛ فوزنت مائة دينار. فلمَّا حَضَرَت الجارية عندي لحقتني الفِكرَةُ الأولى وعَفَفْتُ عنها. وتركتها حياءً من الله تعالى، ثم مضتُ ومَضِيَّت إلى موضعي، ثم عَبَرَتْ بعد ذلك عليَّ. وكانت مستعربة. فقالت: وحقَّ المسيح ما بقيتُ تفرح بي عنْدك إلَّا بخمسمائة دينار أو تموت كمدأ، فارتعْتُ لذلك وعزمت أنني أصرف عليها ثمن الكِتَان جميعه.

(١) ب: «بحبها».

(٢) ب: «قد أقبلت».

فبينما أنا كذلك والمنادي يُنادي: معاشِرَ المسلمين، إِنَّ الهُدنة التي بَيْننا وبينكم قد انقَضَتْ؛ وَقَدْ أَمَهَلْنَا مَنْ هُنَا من المسلمين إلى جُمعة.

فانْقَطَعَتْ عَنِّي، وأخذت أنا في تحصيل ثمن الكتان الذي لي، والمصالحة على ما بَقِيَ منه، وأخذتُ معي بِضَاعَةً حَسَنَةً، وخرجت من عَكَا وفي قلبي من الإفرنجية ما فيه، فوصلت إلى دِمَشق، وبِعْتُ البضاعة بأَوْفَى ثمن بسبب الهُدنة؛ وَمَنْ اللّهُ عَلَيَّ بكسبٍ وَافِرٍ، وأخذتُ أَتَجَرُّ في الجوّاري لَعَلَّهُ يذهب ما بِقَلْبِي من الإفرنجية، فمضت ثلاثَ سنين، وَجَرَى للسلطان الملك الناصر ما جرى من وَفْعَةٍ حَظِيْنٍ وأَخَذَهُ جميع الملوك، وفتحهُ بلاد السّاحل بإذن الله تعالى، فطلب مني جاريةً للملك الناصر فأحضرتُ جاريةً حسنة، فاشترىَ له مِئتيَ بمائة دينار؛ فأوصلوا إليّ تسعين ديناراً وبقيت عشرةَ دنانير فلم يلتقوها في الخزانة ذلك اليوم، لأنه أَتَفَقَ جميعُ الأموال، فشاؤروه على ذلك، فقال: امضوا به إلى الخزانة التي فيها السّي من نساء الإفرنج، فحَيَّرُوهُ في واحدةٍ مِنْهُنَّ يأخذها بالعشرة الدنانير التي له، فَأَتَيْتُ الخيمةَ فعرفتُ غَريمتي الإفرنجية، فقلت: اعطوني هاتيك. فأخذتها ومضيت إلى حَيْمَتِي وخلوتُ بها، وقلت لها: أَتَعْرِفيني؟ قالت: لا، فقلت: أنا صاحبك التاجر الذي جَرَى لي مَعَكَ ما جرى، وأخذتُ مِنِّي الذهب، وَقُلْتُ ما بقيتُ تُبَصِّرُنِي إِلَّا بخمسمائة دينار، وقد أخذتُكَ بعشرة دنانير. فقالت: مُدَّ يَدَكَ، أنا أشهد أن لا إلهَ إِلَّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رسول الله. فَأَسْلَمْتُ وَحَسَنَ إِسْلَامُهَا.

فقلت: واللّهِ لا وَصَلْتُ إليها إِلَّا بأمر القاضي، فَرُخْتُ إلى ابنِ شَدَاد وَحَكَيْتُ له ما جَرَى، فعَجِبَ وَعَقَدَ لي عليها، وباتت تلك اللَّيلةَ عِنْدِي فحملت مِنِّي.

ثم رحل العسكر، وأتينا دِمَشق وبعد مدة يسيرة أتى رسول الملك يَطْلُبُ الأسارى والسّبايا باتفاق وَقَعَ بين الملوك، فَرَدُّوا مَنْ كان أسيراً من الرجال والنساء، ولم يَبْقَ إِلَّا التي عندي، فسألوا عنها، واتَّضَحَ الخبر أنها عندي وَطَلَبْتُ مِنِّي.

فحضرتُ وقد تَغَيَّرَ لونِي، وأحضرتها معي بين يَدَيَّ [مولانا]^(١) السلطان الملك الناصر، والرسول حاضر، فقلت: هذه المرأة التي عندي، فقال لها الملك الناصر بحضرة الرسول: تَرْجعين إلى بلادك، أو إلى زَوْجِكَ؟ فَقَدْ فَكَّكْنَا أسْرَكَ وأَسْرَ غَيْرَكَ: فقالت: يا مولانا السلطان أنا قد أَسْلَمْتُ وَحَمَلْتُ، وها بَطْنِي كما تَرَوْنَهُ، وما بقيتُ الإفرنج تَنْتَفِعُ بي. فقال لها الرسول: أَيُّمَا أَحَبَّ إِلَيْكَ؛ هذا المسلم أو زَوْجُكَ الإفرنجي فلان؟ فأَعَادَتْ عِبَارَتَهَا الأولى. فقال الرسول لمن تبعه^(٢) من الإفرنج:

اسْمَعُوا كَلَامَهَا. ثُمَّ قَالَ لِي الرَّسُولُ خُذْ زَوْجَتَكَ، فَوَلَّيْتُ بِهَا فَطَلَبَنِي ثَانِيًا. وَقَالَ: أُمُّهَا أَرْسَلَتْ مَعِيَ وَدِيْعَةً وَقَالَتْ: إِنَّ ابْنَتِي أَسِيرَةٌ وَأَشْتَهِي أَنْ تُوَصَّلَ لَهَا هَذِهِ الْكُسْوَةُ، فَتَسْلُمَنَا الْكُسْوَةُ وَمَضَيْنَا إِلَى الدَّارِ، وَفَتَحْنَا الْقُمَاشَ فَإِذَا هُوَ قُمَاشُهَا بَعِينَهُ قَدْ سَبَّرْتَهُ لَهَا أُمُّهَا، وَوَجَدْتُ الصَّرَّتَيْنِ الذَّهَبَ الْخَمْسِينَ دِينَارًا وَالْمِائَةَ دِينَارًا كَمَا هُمَا بِرَبَطَتِي لَمْ يَتَغَيَّرَا. وَهَؤُلَاءِ الْأَوْلَادُ مِنْهَا. وَهِيَ الَّتِي صَنَعْتَ لَكُمْ هَذَا الطَّعَامَ.



إبراهيم بن المهدي والمأمون

وَمِنْ لَطَائِفِ الْمَنْقُولِ مِنَ الْمُسْتَجَادِ^(١)، قَالَ الْوَاقِدِيُّ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ قَدْ ادَّعَى الْخِلَافَةَ لِنَفْسِهِ بِالرِّيِّ، وَأَقَامَ مَالِكَهَا سَنَةً وَاحِدَةً عَشَرَ شَهْرًا وَاثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا، وَلَهُ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ، أَحْسَنُهَا عِنْدِي مَا حَكَاهُ لِي.

قَالَ: لَمَّا دَخَلَ الْمَأْمُونُ الرِّيَّ فِي طَلَبِي، وَجَعَلَ لِمَنْ أَتَاهُ بِي مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، خَفْتُ عَلَى نَفْسِي، وَتَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِي، فَخَرَجْتُ مِنْ دَارِي وَقَتَّ الظَّهْرَ - وَكَانَ يَوْمًا صَائِفًا^(٢)، وَمَا أَذْرِي أَيْنَ أَتَوَجَّهُ - فَوَقَفْتُ فِي شَارِعٍ غَيْرِ نَافِذٍ، وَقُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! إِنَّ عُذَّتْ عَلَى أَثَرِي يُرْتَابُ فِي أَمْرِي، فَرَأَيْتُ فِي صَدْرِ الشَّارِعِ عَبْدًا أَسْوَدَ قَائِمًا عَلَى بَابِ دَارٍ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ، وَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكَ مَوْضِعٌ أَقِيمُ فِيهِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَفَتَحَ الْبَابَ، فَدَخَلْتُ إِلَى بَيْتٍ نَظِيفٍ فِيهِ حُصْرٌ وَبُسْطٌ وَوَسَائِدُ جُلُودٍ إِلَّا أَنَّهَا نَظِيفَةٌ ثُمَّ أَغْلَقَ الْبَابَ عَلَيَّ وَمَضَى، فَتَوَهَّمْتُ قَدْ سَمِعَ الْجَعَالََةَ فِي^(٣)، وَأَنَّهُ خَرَجَ لِيَذُلَّ عَلَيَّ، فَبَقِيتُ عَلَى مِثْلِ النَّارِ.

فَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ، إِذْ أَقْبَلَ وَمَعَهُ حِمَالٌ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ خَبْزٍ وَلَحْمٍ، وَقَدَّرَ جَدِيدَةً وَجَرَّةً نَظِيفَةً، وَكِيْزَانًا جُدْدًا، فَحَطَّ عَنِ الْحِمَالِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ! أَنَا رَجُلٌ حَجَّامٌ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ تَقْرَأُ نَفْسَكَ^(٤) مِنِّي لَمَّا أَتَوَلَّاهُ مِنْ مَعِيشَتِي؛ فَشَأْنُكَ لَمَّا لَمْ تَقْعَ عَلَيْهِ يَدٌ. وَكَانَ بِي حَاجَةٌ إِلَى الطَّعَامِ، فَطَبَخْتُ لِنَفْسِي قِدْرًا مَا أَذْكَرُ أَنِّي أَكَلْتُ مِثْلَهَا. وَلَمَّا قَضَيْتُ أَرْبِي مِنَ الطَّعَامِ قَالَ: هَلْ لَكَ فِي الشَّرَابِ فَإِنَّهُ يَنْفِي^(٥) الْهَمَّ وَيُطِيبُ الْفَمَ؟ فَقُلْتُ: أَكْرَهُ ذَلِكَ؛ رَغْبَةً فِي مَوَاسِئِهِ.

(١) كتاب المستجاد من فعلات الأجواد، لأبي علي المحسن بن علي التنوخي، عالم أديب شاعر، وهو صاحب نشوان المحاضرة، والفرج بعد الشدة وغيرها، وتوفي سنة ٣٨٤هـ.

(٢) صائفاً، أي حاراً.

(٣) الجعالة: الأجر يعطى على عمل.

(٤) تقر نفسك، أي تنقبض.

(٥) ب، ط: «يسلي النفس».

فأتى بقطرميز^(١) لم تمسه يد، وجاءني بدن فيه شراب مطيب، وقال لي: روق لنفسك، فروقت شراباً في غاية الجودة، وأحضر لي قدحاً جديداً وفاكهة وأبقالا مختلفة في طسوت فتأخر جدد، ثم قال بعد ذلك: أأذن لي - جعلت فداك - أن أقعد ناحية، وأتي بشرابي فأشربه سروراً بك؟ فقلت له: افعل، فشرب وشربت، ثم دخل إلى خزانة له، فأخرج عوداً مصفحاً، ثم قال: يا سيدي، ليس من قدرتي أن أسألك في الغناء، ولكن قد وجبت على مروءتك حزمي؛ فإن رأيت أن تُشرف عبدك فلك علو الرأي. فقلت: ومن أين لك أنني أحسن الغناء؟ فقال: يا سبحان الله! مولانا أشهر من ذلك؛ أنت إبراهيم بن المهدي، خليفتنا بالأمس، الذي جعل المأمون لمن دله عليه مائة ألف درهم.

فلما قال ذلك عظم في عيني، وثبت مروءته عندي، فتناولت العود وأصلحته وغثيت، وقد مرّ بخاطري فراق أهلي وولدي:

وَعَسَى الَّذِي أَهْدَى لِيُوسُفَ أَهْلَهُ وَأَعَزَّهُ فِي السَّجْنِ وَهُوَ أَسِيرُ
أَنْ يَسْتَجِيبَ لَنَا فَيَجْمَعَ شَمْلَنَا وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدِيرُ
فاستولى عليه الطرب المفرط، وطاب عيشه كثيراً، ومن شدة طربه وسروره قال لي: يا سيدي، أأذن لي أن أغني ما سَنَحَ بخاطري؛ وإن كنت من غير أهل هذه الصناعة؟ فقلت: هذا زيادة في أدبك ومروءتك؛ فأخذ العود وغنى:

شَكُونَا إِلَى أَحْبَابِنَا طُولَ لَيْلِنَا فَقَالُوا لَنَا: مَا أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنَا
وَذَاكَ لِأَنَّ التَّوَمَ يَغْشَى عُيُونَهُمْ سَرِيعاً وَلَا يَغْشَى لَنَا التَّوَمُ أَغْنَانَا
إِذَا مَا دَنَا اللَّيْلُ الْمَضِرُّ بِذِي الْهَوَى جَزَعْنَا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ إِذَا دَنَا
فَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُلاقُونَ مِثْلَ مَا ثَلَاثِي لَكَانُوا فِي الْمَضَاجِعِ مِثْلَنَا
فوالله لقد أحسنت بالبيت قد سار بي، وذهب عني كل ما كان بي من الهلع؛ وسألته أن يغني فغنى:

تُعَيِّرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلُ^(٢)
وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ
يَقْرُبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا وَتَكَرُّهُ آجَالُهُمْ فَتَطْوُلُ

فدأخلني من الطرب ما لا مزيد عليه إلى أن عاجلني السكر، فلم أستيقظ إلا بعد المغرب.

(١) القطرميز: وعاء زجاجي يسان فيه النقل.

(٢) للسؤال بن عدياء، ديوانه ١٠.

فعاودني فكري في نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه، فقمْتُ وغسلْتُ وجهي وأيقظته، وأخذتُ خريطةً كانت صحبتي، فيها دنانير لها قيمة، فرميتُ بها إليه، وقلتُ له: أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ؛ فَإِنِّي ماضٍ من عندك، وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة^(١) في بعض مهمّاتك؛ ولك عندي المزيد إن أمنتُ مِنْ خَوْفي. فأعادها عليّ منكرًا وقال: يا سيدي؛ إِنَّ الصعاليك منّا لا قَدْر لهم عندكم، آخذ على ما وَهَبَنيهِ الزَّمان من قُرْبِكَ وحُلُولِكَ عندي ثمنًا! واللَّهِ إن راجعتني في ذلك لأقتلنَّ نَفْسي. فأعدت الخريطة إلى كمي وقد أثقلني حملُها.

فلما انتهيتُ إلى باب داره، قال لي: يا سيدي؛ إِنَّ هذا المكان أخفى لك من غيره، وليس في مؤنتك [عليّ]^(٢) ثقله؛ فأقيم عندي إلى أن يفرِّجَ اللَّهُ عنك؛ فرجعتُ وسألتُهُ أن ينفق من تلك الخريطة فلم يفعل، فأقمت عنده أياماً على تلك الحالة في ألد عيش.

فتذممتُ^(٣) من الإقامة في مؤنته، واحتشمتُ من التثقيب عليه، فتركته وقد مضى يُجدد لنا حالاً^(٤)؛ وقمْتُ فترزنت بزيِّ النساء؛ بالخفِّ والثَّقاب وخرجتُ. فلما صرت في الطَّرِيق داخلني من الخوف أمرٌ شديد، وجئتُ لأعبرَ الجسر؛ فإذا أنا بموضع مرشوش بماء^(٥)، فبصُر بي جنديٌّ ممَّن كان يخدمني فعرفني؛ فقال: هذه حاجة المأمون؛ فمن حلاوة الرُّوح دفعته هو وفرسه فرميتُهما في ذلك الزَّلَق، فصار عبْرَةً، وتبادر الناس إليه، فاجتهدتُ في المشي حتَّى قطعْتُ الجسر، ودخلتُ شارعاً، فوجدتُ باب دار، وامرأة [واقفة]^(٦) في دهليز، فقلت: يا سيِّدة النِّساء احقني دمي؛ فَإِنِّي رجل خائف؛ فقالت: على الرَّحْب، وأطلعَتني إلى غرفة مفروشة، وقدمتُ لي طعاماً، وقالت: ليهْدأ رَوْعُكَ؛ فما علم بك مخلوق، وإذا بالباب يدقُّ دقًّا عنيفاً، فخرجتُ وفتحتُ الباب؛ وإذا بصاحبي الذي دفعته على الجسر وهو مشدود الرأس ودمه يَجْري على ثيابه، وليس معه فرس؛ فقالت له: يا هذا ما دهاك! فقال: ظفرتُ بالغنى وانفَلتَ مني، و^(٧)أخبرها بالحال^(٧)؛ فأخرجتُ خرقاً، وعصبتُ بها، وفرشتُ له، ونامَ عليلاً، وطلعت إليّ وقالت: أظنك صاحبُ القصة؟ فقلت: نعم، قالت: لا بأس

(١) الخريطة: وعاء من جلد.

(٢) من ط.

(٣) تذممت: خشيت اللوم والذم.

(٤) المستجد «أحوال».

(٥) ب: «الماء».

(٦) من ب.

(٧ - ٧) المستجد: «قالت: وكيف ذاك؟ قال: إبراهيم بن المهدي لقيته، وعلقت به فدفعني والفرس، فأصابني ما ترين، وانفَلت مني، ولو كنت حملته إلى المأمون لحصلت مائة ألف درهم».

عليك، ثم جدّدت لي الكرامة، وأقمتُ عندها ثلاثاً؛ ثم قالت: إنّي خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع عليك، فينم بك، فانبج بنفسك؛ فسألتهما المهلة إلى الليل ففعلت.

فلما دخل الليل لبستُ زِيَّ النساء، وخرجتُ من عندها، فأتيْتُ إلى بيت مولاة كانت لنا، فلما رأته بكى وتوجّعت، وحمدتُ الله على سلامتي، وخرجتُ كأنّها تريد السوق للاهتمام بالضيافة، فظننتُ خيراً، فما شعرت إلا بإبراهيم الموصليّ بنفسه في حَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، والمولاة معه حتى سلّمتني إليه، ورأيتُ الموت عياناً، وحملتُ بالزّي الذي أنا فيه إلى المأمون.

فجلس مجلساً عامّاً، وأدخلني إليه، فلما مثلتُ بين يديه سلّمت عليه بالخلافة، فقال: لا سلّم الله عليك، ولا حيّاك ولا رعاك! فقلت له: على رسلك يا أمير المؤمنين؛ إنّ وليّ الثار محكّم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، وقد جعلك الله فوق كلّ عفو؛ كما جعل ذنبي فوق كلّ ذنب، فإن تأخذ فبحقّك، وإن تعف فبفضلك، ثم أنشدت:

ذَنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَغْظَمُ مِنْهُ
فَأُخَذَ بِحَقِّكَ أَوْ لَا فَاضْفَحْ بِجَلْمِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فَعَالِي مِنْ الْكِرَامِ فَكُنْهُ
فَرَفَعَ إِلَيَّ رَأْسَهُ فِدْرَتُهُ، وَقَلَّتْ:

أَتَيْتُ ذَنْباً عَظِيماً وَأَنْتَ لِلْعَفْوِ أَهْلٌ
فَإِنْ عَفَوْتَ فَمَنْ وَإِنْ جُزِيتَ فَعَذْلٌ

فرق المأمون، واستروحَتْ روائحُ الرّحمة من شمائله، ثم أقبل على ابنه العباس وأخيه أبي إسحاق وجميع مَنْ حَضَرَ مِنْ خَاصَّتِهِ، فقال: ما تَرَوْنَ في أمرِهِ؟ فكلّهم أشار بقتلي؛ إلا أنّهم اختلفوا في القتلة كيف تكون، فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد: ما تقول يا أحمد؟ فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن قتلتَه وجدنا مثلك قَتَلَ مثله، وإن عَفَوْتَ عنه لم نجد مثلك عَفَا عن مثله؛ فنكّس المأمون رأسه، وجعل ينكّث الأرض، وأنشد متمثلاً:

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أَمِينَ أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي^(١)

فكشفت المقنعة عن رأسي، وكبرت تكبيرة عظيمة، وقلت: عفا والله عني أمير المؤمنين؛ فقال المأمون: لا بأس عليك يا عم! فقلت: ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم

(١) للمحارث بن ولة الذهلي، ديوان الحماسة بشرح المرزوقي ٢٠٤.

من أن أنفوه معه بعذر، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر؛ ولكن أقول:

إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْمَكَارِمَ حَازَهَا فِي صُلْبِ آدَمَ لِلْإِمَامِ السَّابِعِ
مُلِئْتُ قُلُوبُ النَّاسِ مِنْكَ مَهَابَةً وَتَظَلُّ تَكَلُّوهُمْ بِقَلْبٍ خَاشِعِ
مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَالْعُقُورَةُ تَمُدُّنِي أَسْبَابُهَا إِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ
فَعَفَوْتُ عَمَّنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ مِثْلِهِ عَفُوٌّ وَلَمْ يَشْفَعْ إِلَيْكَ بِشَافِعِ
وَرَجِمْتُ أَطْفَالاً كَأَفْرَاحِ الْقَطَا وَخَنِينَ وَالِدَةٍ بِقَلْبٍ جَانِعِ

فقال المأمون: لا تثريب عليك اليوم، قد عفوت عنك، ورددت عليك مالك وضياعك، فقلت:

رَدَدْتَ مَالِي وَلَمْ تَبْخُلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبَّلَ رَذَكَ مَالِي قَدْ حَقَّقْتَ دَمِي
فَلَوْ بَذَلْتُ دَمِي أَبْغِي رِضَاكَ بِهِ وَالْمَالَ حَتَّى أَسْلُ التُّغْلَ مِنْ قَدَمِي
مَا كَانَ ذَاكَ سِوَى عَارِيَةٍ رَجَعْتَ إِلَيْكَ لَوْ لَمْ تَعْرِهَا كُنْتَ لَمْ تَلِمِ
فَإِنْ جَحَدْتُكَ مَا أُولَيْتَ مِنْ كَرَمٍ إِنِّي إِلَى اللَّؤْمِ أَوْلَى مِنْكَ بِالْكَرَمِ

فقال المأمون: إن من الكلام دُرّاً وهذا منه. وخلع عليه، وقال: يا عم؛ إن أبا إسحاق والعباس أشارا بقتلك. فقلت: إنهما نصحا لك يا أمير المؤمنين؛ ولكن أتيت بما أنت أهله، ودفعت ما خفت بما رجوت، فقال المأمون: أمت حقدي بحياة عذرك، وقد عفوت عنك، ولم أجزعك مرارة امتنان الشافعين.

ثم سجد المأمون طويلاً، ورفع رأسه، وقال: يا عم، أتدري لِمَ سجدت؟ قلت: شكراً لله تعالى الذي أظفرك بعدو^(١) دولتك، فقال: ما أردت هذا؛ ولكن شكراً لله الذي ألهمني العفو عنك، فحدثني الآن حديثك.

فشرح له صورة أمري، وما جرى لي مع الحجاج والجندي والمرأة والمولاة التي نمت علي. فأمر المأمون بإحضارها وهي في دارها تنتظر الجائزة؛ فقال لها: ما حملك على ما فعلت مع سيدك؟ فقالت: الرغبة في المال، فقال لها: ألك ولد أو زوج؟ قالت: لا، فأمر بضربها مائتي سوط، وخلد سجنها ثم قال: أحضروا الجندي وامرأته والحجاج، فأحضروا، فسأل الجندي عن السبب الذي حمّله على ما فعل، فقال: الرغبة في المال، فقال المأمون؛ أنت يجب أن تكون حجاجاً. ووكل به من يلزمه الجلوس في دكان الحجاج ليتعلم الحجامة. وأكرم زوجته، وأدخلها إلى القصر، وقال: هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمات. ثم قال للحجاج: لقد ظهر من مروءتك ما

يُوجب المبالغة في إكرامك، وسَلِّم إليه دار الجندي بما فيها، وخَلَّع عليه، وأنعم عليه برزقه وزيادة ألف دينار في كلِّ سنة، ولم يزل في تلك التَّعَمَّة إلى أن مات^(١).



أكرم رجل بعد أمير المؤمنين

ومما يضارع ذلك أنه لَمَّا أُنْصَت الخلافة إلى بني العباس اختفى رجال بني أمية، ومنهم إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك - وكان إبراهيم رجلاً عالماً [عاملاً]^(٢) أديباً كاملاً، وهو في سنِّ الشَّيْبَةِ - فأخذوا له أماناً من السَّفَّاح، فقال له يوماً: حَدَّثني عَمَّا مرَّ بك في اختفائك، قال: كُنْتُ يا أمير المؤمنين مختفياً بالحيرة في منزلٍ شارعٍ^(٣) على الصَّحراء، فبينما أنا على ظهر البَيْت؛ إذ نظرتُ إلى أعلام سودٍ قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة، فتخيَّلت أنها تريدني، فخرجت من الدَّار مُتَنَكِّراً، حتى أتيت الكوفة، ولا أعرف أحداً أخفي عنده، فبقيت في حيرة^(٤)، فإذا أنا بباب كبير، ورخبة واسعة، فدخلتُ فيها فإذا رجل وسيم حسن الهيئة على قُرس قد دخل الرحبة، ومعه جماعة من غِلَمانه وأتباعه، فقال: من أنت؟ وما حاجتك؟ فقلتُ: رجل خائف على دمي، وقد استجار بمنزلك. فأدخلني منزله، ثم صيَّرني في حجرة تلي حُرْمه. وكنت عنده في كلِّ يوم على ما أحبه من مطعم ومشرب وملبس؛ ولا يسألني عن شيء من حالي؛ إلَّا أنه يركب في كلِّ يوم مركبه؛ فقلت له يوماً: أراك تُدمن الركوب، ففيم ذلك؟ قال: إبراهيم بن سليمان قَتَلَ أبي صَبْرًا^(٥)، وقد بلغني أنه مختفٍ في الحيرة، فأنا أطلبه لأدرك منه ثأري؛ فكثُر واللَّه تَعَجُّبي، وقلت: القدر ساقني إلى حتفي في منزل من يطلب دمي، وكرهتُ الحياة.

فسألتُ الرَّجُل عن اسمه واسم أبيه، فأخبرني، فعلمت أنَّ الخبر صحيح وأنا الذي قتلْتُ أباه، فقلت له: يا هذا، قد وجب عليَّ حَقُّك، ومن حَقِّك أن أدلَّكَ على خصمك، وأقرب لك الخطوة، قال: وما ذاك؟ قلت: أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك، فخذ بشارك، فقال: إني أحسبك رجلاً أمضه الاختفاء، فأحببتُ الموت، فقلت: لا واللَّه، ولكن أقول لك الحقَّ، لقد قتلته يوم كذا وبسبب كذا وكذا. فلَمَّا علم صدقي تغيَّر لونه، واحمرَّت عيناه، وأطرق ملياً، ثم قال: أما أنت فستلقى أبي

(١) الخبر في المستجد ٧٤ - ٨٥.

(٢) من ط.

(٣) شارع على الصحراء، أي مفض إليها. وفي المستجد: «شارف» أي مطل.

(٤) المستجد: «فبقيت متلداً» أي حائراً.

(٥) صبرا، أي حبس حتى مات.

عند حكم عدل، فيأخذ بثأره، وأما أنا فغير مخفر ذمتي؛ فأخرج عني فلست آمن عليك من نفسي، فأعطاني ألف دينار فلم آخذها منه، وانصرف عنه. فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين^(١).



خزيمة بن بشر وعكرمة الفياض

ومن لطائف ما نقلته من المستجاد ما حدث به أبو الحسن [علي]^(٢) بن صالح البلخي بمصر، قال: أخبرني بعض عمال شيوخنا، عن شيبة بن محمد الدمشقي قال: كان في أيام سليمان بن عبد الملك رجل يقال له خزيمة بن بشر، من بني أسد، مشهور بالمروءة والكرم والمواساة، وكانت نعمته وافرة؛ فلم يزل على تلك الحالة حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يواسيهم ويتفضل عليهم، فواسوه حيناً ثم ملّوه، فلما لاح له تغييرهم، أتى امرأته - وكانت ابنة عمه - فقال لها: يا بنت العم: قد رأيت من إخواني تغيراً، وقد عزمْتُ على لزوم بيتي إلى أن يأتيني الموت، ثم أغلق بابي عليه، وأقام يتقوّت بما عنده حتى نفذ، وبقي حائراً في حاله.

وكان عكرمة الفياض والياً على الجزيرة؛ فبينما هو في مجلسه، وعنده جماعة من أهل البلد، إذ جرى ذكر خزيمة بن بشر، فقال عكرمة: ما حاله؟ فقالوا: صار في أسوأ الأحوال، وقد أغلق بابي، ولزم بيته. فقال عكرمة الفياض - وما كان سُمي الفياض إلا للإفراط في الكرم: فما وجد خزيمة بن بشر مواسياً ولا مكافئاً! فقالوا: لا. فأمسك عن ذلك.

فلما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار، فجعلها في كيس واحد، ثم أمر بإسراج دابته، وخرج سراً من أهله، فركب ومعه غلام واحد يحمل المال، ثم سار حتى وقف بباب خزيمة، فأخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه، وتقدم إلى الباب فطرقه بنفسه فخرج خزيمة، فقال له: أضلح بهذا شأنك، فتناولته فراه ثقيلاً، فوضعه، وقبض على لجام الدابة، وقال له: من أنت جعلت فداءك؟ قال له: ما جئتُك في هذا الوقت وأنا أريد أن تعرفني، قال خزيمة: فما أقبله أو تخبرني من أنت؟ قال: أنا جابر عثرات الكرام. قال: زدني قال: لا ثم مضى.

ودخل خزيمة بالكيس إلى امرأته فقال لها: أبشري فقد أتى الله بالفرج، فلو كان في هذا فلوس لكانت كثيرة، قومي فأسرجي، قالت: لا سبيل إلى السراج، فبات

(١) المستجاد: ٣٣، ٣٤

(٢) زيادة من المستجاد.

يلمس الكيس فيجد تحت يده خشونة الدنانير [ولا يصدق]^(١). ورجع عكرمة إلى منزله، فوجد امرأته قد افتقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه منفرداً، فارتابت وشقت جيبها، ولطمت خدّها. فلما رآها على تلك الحالة قال لها: ما دهاك يا ابنة العم؟ قالت: سوء فعلتك بابنة عمك؛ أمير الجزيرة [لا] يخرج بعد هدأة^(٢) من الليل منفرداً عن غلمانها، في سرّ من أهله إلّا إلى زوجة أو سُرّية^(٣)! فقال: لقد علم الله ما خرجت لواحدة منهما، قالت: فخبّرني فيم خرجت؟ قال: يا هذه لم أخرج في هذا الوقت إلّا وأنا أريد ألا يعلم بي أحد، قالت: لا بدّ أن تعلمني، قال: فاكتميه إذاً، قالت: سأفعل.

فأخبرها بالقصة على وجهها، ثم قال: أتحبين أن أحلف لك؟ قالت: لا، قد سكن قلبي.

ثم أصبح خزيمة، فصالح غُرماءه، وأصلح من حاله؛ ثم تجهز يريد سليمان بن عبد الملك بفلسطين. فلما وقف ببابه، دخل الحاجب، فأخبره بمكانه - وكان مشهوراً بالمرءة وكان الخليفة به عارفاً - فأذن له، فلما دخل عليه وسلّم بالخلافة، قال: يا خزيمة ما أبطأك عتاً؟ فقال: سوء الحال يا أمير المؤمنين، قال: فما منعك من النهوض إلينا؟ قال: ضعفي، قال: فما أنهضك؟ قال: لم أشعر يا أمير المؤمنين بعد هدأة من الليل إلّا ورجل يطرق بابي، وكان منه كيت كيت... وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها، فقال: هل عرفته؟ قال: لا والله لأنه كان متنكراً، وما سمعت منه إلّا «جابر عثرات الكرام». قال: فتلهّف سليمان بن عبد الملك على معرفته، وقال: لو عرفته لأعّته على مروءته. ثم قال: عليّ بقناة، فأتى بها وعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة وعلى عمل عكرمة الفياض، وأجزل عطاياه، وأمره بالتوجه إلى الجزيرة.

فخرج خزيمة متوجّهاً إليها، فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه؛ فسلم عليه، ثم سارا جميعاً إلى أن دخلا البلد، فنزل خزيمة في دار الإمارة، وأمر أن يؤخذ عكرمة وأن يحاسب، فحوسب؛ ففضل عليه مال كثير، فطلبه خزيمة بالمال؛ فقال: مالي إلى شيء منه سبيل، فأمر بحبسه، ثم بعث يطالبه، فأرسل إليه: إني لست ممّن يصون ماله بعرضه، فاصنع ما شئت، فأمر به فكُبل بالحديد، وضيق عليه، فأقام على ذلك شهراً، فأضناه ثقل الحديد وأضرّ به.

وبلغ ذلك ابنة عمّه، فجزعت عليه واغتمت، ثم دعت مولاة لها ذات عقل،

(١) من المستجاد.

(٢) بعد هدأة من الليل، أي حين سكن الناس

(٣) سرية، أي جارية.

وقالت: امضي الساعة إلى باب هذا الأمير، فقولني: عندي نصيحة، فإذا طُلبت منك قولني: لا أقولها إلا للأمير خزيمة، فإذا دخلت عليه سليه الخلو، فإذا فعل قولني له: ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك في مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد! قال: ففعلت ذلك.

فلما سمع خزيمة قولها قال: واسوأناه! جابر عثرات الكرام غريمي! قالت: نعم، فأمر من وقته بدايته فأُسْرِجت، وركب إلى وجوه أهل البلد. فجمعهم وسار بهم إلى باب الحبس ففتح، ودخل فرأى عكرمة الفياض في قاع الحبس متغيتراً؛ قد أضناه الضر. فلما نظر عكرمة إلى خزيمة وإلى الناس أحشمه^(١) ذلك، فنكس رأسه. فأقبل خزيمة حتى انكب على رأسه فقبله، ورفع رأسه إليه وقال: ما أعقب هذا منك؟ قال: كريم فعالك وسوء مكافأتي. قال: يغفر الله لنا ولك. ثم أمر بفك قيوده، وأن توضع في رجليه؛ فقال عكرمة: تريد ماذا؟ قال: أريد أن ينالني من الضر مثل ما نالك. فقال: أقسم عليك بالله ألا تفعل.

فخرجوا جميعاً إلى أن وصلا إلى دار خزيمة، فودّعه عكرمة، وأراد الانصراف، فلم يمكنه من ذلك؛ قال: وما تريد؟ قال: أغتير من حالك ما أراه؛ وأما حيائي من ابنة عمك فأشد من حيائي منك. ثم أمر بالحمام فأخلى ودخلا جميعاً، ثم قام خزيمة فتولّى خدمته بنفسه، ثم خرجا فخلع عليه، وحمل إليه مالا كثيراً، ثم سار معه إلى منزله واستأذنه في الاعتذار من ابنة عمه، فأذن له فاعتذر إليها وتذم^(٢) من ذلك. ثم سأله أن يسير معه إلى أمير المؤمنين، وهو يومئذ مقيم بالرملة، فأنعم له بذلك.

فسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بن عبد الملك، فدخل الحاجب فأخبره بقدم خزيمة بن بشر، فراعه ذلك وقال: والي الجزيرة يُقدِّم علينا بغير أمرنا، مع قرب العهد به! ما هذا إلا لحادث عظيم!

فلما دخل عليه قال قبل أن يسلم: ما وراءك يا خزيمة؟ قال: خير يا أمير المؤمنين، قال: فما أقدمك؟ قال: ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسرك، لما رأيت من شوقك إلى رؤيته، قال: ومن هو؟ قال: عكرمة الفياض. فأذن له بالدخول، فدخل فسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه، وقال: يا عكرمة، كان خيرك له وبالأعلى عليك، ثم قال له: اكتب حوائجك وما تختاره في رقعة، فكتبها، فقُضِيَتْ على الفور، ثم أمر له بعشرة آلاف دينار، مع ما أضيف إليها من التحف والطرف، ثم

(١) أحشمه، أخجله.

(٢) تدمم، استنكف، يقال: لو لم أترك الكذب تأثماً، لتركته متدمماً.

دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، وقال له: أمرُ خزيمة إليك؛ إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته، قال: بل أرده إلى عمله يا أمير المؤمنين.
ثم انصرفا جميعاً؛ ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته^(١).



محنة بنت مروان والخيزران

ويضارع ذلك من المستجاد أيضاً ما رُوِيَ عن أبي موسى محمد بن الفضل بن يعقوب كاتب عيسى بن جعفر، قال: حدّثني أبي قال: كنت أتردّد إلى زينب بنت سليمان^(٢) بن عليّ بن عبد الله بن عباس وأخدمها، فتوجّهت إلى خدمتها يوماً، فقالت: أقعد حتى أحدثك حديثاً كان بالأمس يكتب على الآماق؛ كنت أمس عند الخيزران^(٣)، ومن عادتني أن أجلس بإزائها وفي الصّدر مجلس للمهديّ يجلس فيه، وهو يقصّدا في كلّ وقت؛ فيجلس قليلاً ثم ينهض.

فبينما نحن كذلك، إذ دخلت علينا جارية من جواربها، فقالت: أعزّ الله السيدة! بالباب امرأة ذات جمال وخِلقة حسنة؛ وليس وراء ما هي عليه من سوء الحال غاية، تستأذن عليك، وقد سألتها عن اسمها فامتنعت أن تخبرني، فالتفتت إليّ الخيزران وقالت: ما ترين؟ فقلت: أدخلها فإنّه لا بدّ من فائدة أو ثواب.

فدخلت امرأة من أجمل النساء، لا تتوازي بشيء، فوقفت بجنب عضادتي الباب، ثم سلّمت متضائلة، ثم قالت: أنا مَرْزَنَةُ بنت مَرْوان بن محمد الأمويّ، فقالت الخيزران: لا حيّاك الله ولا قريّك! فالحمد لله الذي قد أزال نعمتك، وهتَكَ سِرّك وأذلّكَ! أتذكرين يا عَدُوَّةَ الله حين أتاك عجايزُ أهل بيتي يسألنك أن تكلّمي صاحبك في الإذن في دفن إبراهيم بن محمد فوثبت عليهنّ، وأسمعتيهنّ ما لا سمعن قبل^(٤)، وأمرت فأخرجن على الحالة التي أخرجن عليها؟

فضحكت مَرْزَنَةُ - فما أنسى حُسن ثَغْرِها وعلوّ صوتها بالقهقهة - ثم قالت: يا ابنة العمّ، أيّ شيء أعجبك من صنيع الله بي على العقوق حتى أردت أن تتأسّي بي فيه! فوالله إني فَعَلْتُ بنسائك ما فعلت، فأسلّمني الله لك ذليلاً جائعة غريانة، وكان ذلك

(١) المستجاد: ٢٦ - ٣٢.

(٢) كان المهدي قد طلب إلى الخيزران أن تلزم زينب بنت سليمان، وقال لها: اقتبسي من آدابها، وخلي من أخلاقها، فإنها عجوز لنا قد أدركت أوائلنا.

(٣) الخيزران: زوج المهدي وأم الهادي والرشد.

(٤) المستجاد: «ما أسمعت».

مقدارَ شكرِكَ لله تعالى على ما أولاك في! ثم قالت: السلام عليكم، ثم ولّت مُسرعة، فصاحت الخيزران، فرجعت.

قالت زينب: فهضتُ إليها الخيزران لتعانقها، فقالت: ليس في ذلك موضع مع الحال التي أنا عليها، فقالت الخيزران. فالحمام إذاً، وأمرت جماعة من جواريتها بالدخول معها إلى الحمام، فدخلت وطلبت ماشطة ترمي ما على وجهها من الشعر.

فلما خرجت من الحمام وافتها بالخلع والطيب، فأخذت من الثياب ما أرادت، ثم تطيبت، ثم خرجت إلينا، فعانقتها الخيزران، وأجلستها في الموضع الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي، ثم قالت الخيزران: هل لك في الطعام؟ فقالت: والله ما فيكن أحوج مني إليه، فعجلوه، فأتي بالمائدة، فجعلت تأكل غير محتشمة إلى أن اكتفت، ثم غسلنا أيدينا، فقالت لها الخيزران: من وراءك ممن تعين به؟ قالت: ما خارج هذه الدار من بيني وبينه سبب^(١). فقالت: إذا كان الأمر هكذا فقومي حتى تختاري لنفسك مقصورة من مقاصيرنا، وتحولي لها ما تحتاجين إليه، ثم لا نفرق إلى الموت. فقامت، ودارت بها في المقاصير، فاختارت أوسعها وأنزهها، ولم تبرح حتى حوّلت إليها جميع ما تحتاج إليه من الفراش والكسوة.

قالت زينب: ثم تركناها وخرجنا عنها، فقالت الخيزران: هذه المرأة قد كانت فيما كانت فيه، وقد مسّها الضرّ، وليس يغسل ما في قلبها إلّا المال، فاحملوا إليها خمسمائة ألف درهم فحملت إليها.

وفي غضون ذلك وافى المهدي، فسألنا عن الخبر، فحدّثته الخيزران حديثها، وما لقيتها به، فوثب مغضباً وقال للخيزران: هذا مقدار شكر الله على أنعمه، وقد مكّنك من هذه المرأة مع الحالة التي هي عليها! فوالله لولا محلّك من قلبي لحلفت ألا أكلّمك أبداً!

فقالت الخيزران: يا أمير المؤمنين، قد اعتذرتُ إليها ورضيتُ، وفعلتُ معها كذا وكذا.

فلما علم المهدي ذلك قال لخدام كان معه: اخمل إليها مائة بذرة، وادخل إليها، وأبلغها مني السلام، وقل لها: والله ما سررتُ في عمري كسروري اليوم، وقد أوجب عليّ أمير المؤمنين إكرامك، ولولا أنه يكره احتشامك^(٢) لحضر إليك مسلماً عليك، وقاضياً لحقّك.

(١) ط، المستجاد: «نسب».

(٢) احتشم منه: أخجله.

فمضى الخادم بالمال والرسالة، فأقبلت على القُور، فسَلِّمت على المهدي بالخلافة، وشكرت صنيعه، وبالغت في الثناء على الخيزران عنده، وقالت: ما على أمير المؤمنين حِشمة، أنا في عُدِّ حُرْمه، ثم قامت إلى منزلها. فخلفتها عند الخيزران وهي تتصرّف في المنازل والجواري كتصرّف الخيزران. فأرّخها عندك فإنها من أحسن النوادر^(١).



حديث في التطفل

وروي عن عبد الرحمن بن عمر الفهري عن رجال سمّاهم، قال: أمر المأمون أن يحمل إليه عشرة من أهل البصرة كانوا قد رُمُوا بالزندقة، فحملوا فرأهم أحد الطفيلية قد اجتمعوا بالساحل، فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة، فدخل معهم، ومضى بهم الموكلون إلى البحر، وأطلعوهم في زورق قد أعدّ لهم.

فقال الطفيلي: لا شك أنها نزهة، فصعد معهم في الزورق، فلم يكن بأسرع من أن قيّدوا، وقيد الطفيلي معهم؛ فعلم أنه قد وقع، ورام الخلاص فلم يقدر، وساروا بهم إلى أن دخلوا بغداد، وحملوا حتى لم يبق إلا الطفيلي وهو خارج من العدة: فقال لهم المأمون: من هذا؟ قالوا: والله ما ندري يا أمير المؤمنين؛ غير أننا وجدناه مع القوم فجئنا به، فقال المأمون: ما قصّتك؟ قال: يا أمير المؤمنين، امرأتي طالق إن كنتُ أعرف^(٢) من أقوالهم شيئاً، ولا أعرف غير «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وإنما رأيتهم مجتمعين، فظننت أنهم مدعوون إلى وليمة، فالتحقت بهم.

قال: فضحك المأمون، ثم قال: بلغ من شؤم هذا التطفل أن أحلّ صاحبه هذا المحلّ؛ لقد سلّم هذا الجاهل من الموت؛ ولكن يؤدّب حتى يتوب.

قال إبراهيم بن المهدي: هب لي، وأحدّثك بحديث عن نفسي في التطفل عجيب، قال: المأمون: قد وهبته لك، هات حديثك...

قال: يا أمير المؤمنين، خرجت متنكراً للتنزه، وانتهى بي المشي إلى موضع شملت منه روائح طعام وأبازير قد فاحت، فتاقت نفسي إليها، ووقفت يا أمير المؤمنين لا أقدر على المضي، فرفعت بصري، وإذا بشباك ومن خلفه كفّ ومغصم ما رأيت أحسن منهما، فوقفت حائراً، ونسييت روائح الطعام بذلك الكفّ والمغصم، وأخذت في إعمال الحيلة، فإذا خياط قريب لمن في ذلك الموضع، فتقدمت إليه،

(١) المستجاد: ٢١، ٢٥ وفيه: «فهذا الحديث خير لك من كتاب، وقد وهبت لك كتاباً».

(٢) المستجاد: «امرأته طالق إن كان يعرف».

وسَلِّمْتُ عليه، فردَّ عليَّ السلام، فقلت: لِمَنْ هذه الدار؟ فقال: لرجل من التجار، قلت: ما اسمه؟ قال: فلان بن فلان، فقلت: أهو مِمَّن يشرب الخمر؟ قال: نعم، وأحسب اليوم أن عنده دعوة، وليس ينادم إلا التجار.

فبينما نحن في الكلام، إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان، فأعلمني أنهما أخَصَّ الناس بَصُحْبته، وأعلمني باسميهما، فحرَّكْتُ دابَّتي، فلقَيْتُهُما وقلت: جُعِلْتُ فداكما! قد استبطأ كما أبو فلان؛ وسائرتهما حتى أتيا الباب؛ فدخلت ودخلا. فلَمَّا رَأَيْتُ صاحب الدار معهما لم يشكَّ أَنِّي ضَيْفُهُما؛ فرحَّب بي وأجلسني في أفضل المواضع، ثم جيء بالمائدة فقلت في نفسي: هذه الألوان قد مَنَّ اللَّهُ عليَّ ببلوغ الغرض منها، بقي الكف والمِغْصَم. ثم نُقِلْنَا إلى مجلس المنادمة، فرأيتُ مجلساً محفوفاً بِاللَّطائف، وجعل صاحب المنزل يتلَطَّف بي، ويقبل عليَّ في الحديث، لظَنَّهُ أَنِّي ضيف لأضيافه. وهم على مثل ذلك حتى شربنا أَقْداحاً؛ إذ خرجت علينا جارية كأنها غصن بانٍ، في غاية الظَّرْف وحسن الهيئة؛ فسَلِّمْتُ غير خجلة، وأتَيْتُ بعود فأخذته وجسته، فإذا هي حاذقة، واندفعت تقول:

أليس عجيباً أن بيتاً يَضُمُّني وإيّاك لا نخْلُو ولا نتكلَّمُ
سوى أعْيُنِ ثُبْدِي سرائر أنْفُسِ وتقطيع أنفاسٍ على النَّارِ تُضْرَمُ
إشارة أفواهِ، وغَمَز حواجِبِ، وتكسير أجفان، وكفُّ تُسَلَّمُ

فهيجت يا أمير المؤمنين بلابلي، فطربت لحذيقها وحسن شِعْرِها الذي غنَّت به، فحسدتها وقلت: قد بقي عليك يا جارية شيء، فرَمْتُ العود وقالت: متى كُنْتُمْ تُحْضِرُونَ البُعْضَاء في مجالسكم! فندمتُ على ما كان مني، ورأيتُ القوم قد أنكروا عليَّ ذلك، فقلت في نفسي: فاتني جميع ما أمَلْتُ، ثم قلت: أئنمُ عود؟ قالوا: نعم، وأحضروا عوداً، فأصلحتُ ما أردتُ فيه، ثم اندفعت فغنَّيت:

هذا مُجِيبُكَ مطويٌّ على كمدِه صبَّ مدامعُه تجري على جَسَدِه
له يدٌ تسألُ الرحمن راحته ممَّا به ويدٌ أخرى على كبِدِه
يا مَنْ رأى كلفاً مستبعداً دنفاً كانت منيَّته في عَيْنِه ويَدِه

فوئبت الجارية، فأكبَّت على رجليّ تقبلهما، وقالت: المَعذرة إليك يا سيدي، واللَّه ما علمت بمكانك، ولا سمعت بمثل هذه الصناعة. ثم أخذ القوم في إكرامي وتبجيلي، بعدما طربوا غاية الطَّرْب، وسألني كلُّ منهم الغناء، فغنَّيتُ لهم نَوْبَات مطربة، فغلبَ القومُ السَّكْر، وغابت عقولُهُمْ، فحُمِلُوا إلى منازلهم، وبقيَ صاحبُ المنزل فشرب معي أَقْداحاً، ثم قال: يا سيدي، ذهب ما مضى من عمري مجاناً إذ لم

أعرف مثلك؛ فباللّٰه يا مولاي مَنْ أنت لأعرف نديمي الذي من اللّٰه عليّ به في هذه الليلة! فأخذت أُرّى [عليه] ^(١) وهو يقسم عليّ فأعلمته، فوثب قائماً، وقال قد عجبت أن يكون هذا الفضل إلا لمثلك، ولقد أسدى إليّ الزّمان يداً لا أقوم بشكرها، ومتى طمعت بأن تزورني الخلافة في منزلي، وتنادمني ليلتي! ما هذا إلا في المنام!

فأقسمت عليه أن يجلس فجلس، وأخذ يسألني عن السّبب في حضوري عنده بالطف معني؛ فأخبرته بالقصة من أوّلها إلى آخرها، وما سترت منها شيئاً. ثم قلت: أما الطعام فقد نلت منه بغيتي، فقال: والكفّ والمعصم إن شاء اللّٰه. ثم قال: يا فلانة، قولي لفلانة تنزل؛ ثم جعل يستدعي واحدةً بعد واحدة؛ يعرضها عليّ وأنا لا أرى صاحبتي؛ إلى أن قال: واللّٰه ما بقي إلا أمّي وأختي، واللّٰه لتنزلاًن. فعجبت من كرمه وسعة صدره، فقلت: جُعِلَتْ فداك! تبدأ بالأخت؟ قال: حباً وكرامة؛ ثم نزلت أخته، فأراني يدها، فإذا هي التي رأيتها، فقلت: هذه الحاجة. فأمر غلمانه لوقته وأحضروا الشهود، وأخرج بذرتين. فلمّا حضر الشهود، قال لهم: هذا سيّدنا إبراهيم بن المهدي يخطب أختي فلانة، وأشهدكم أنني قد زوجتها له، وأمهرتها منه عشرين ألف درهم. فقلت: قبلت ذلك ورضيت؛ فشهدوا علينا، فدفع البذرة الواحدة إلى أخته، والأخرى فرّقها على الشهود.

ثم قال: يا سيّدي، أمهد لك بعض البيوت، فتنام مع أهلك؟ فأخسمني ما رأيث من كرمه، وتذمّمت أن أخلّو بها في داره، ثم قلت: بل أحضر عمارتي وأخملها إلى منزلي، فقال: افعل ما شئت.

فأحضرت عمارتي، وحملتها إلى منزلي؛ فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل إليّ من الجهاز ما ضاقَتْ عنه بيوتنا على سعتها، فأولدتها هذا الغلام القائم بين يدي أمير المؤمنين!

فعجب المأمون من كرم هذا الرجل؛ وقال: للّٰه درّه! ما سمعتُ قطّ بمثلها. وأمر إبراهيم بإحضار الرّجل ليشاهده، فأحضره بين يديه، فاستنطقه فأعجبه وصيّره من جملة خواصّه ومحاضريه ^(٢).



مشيئة ابن معمر

ومن غريب المنقول أن فتى من ذوي النّعم قعد به زَمَانُهُ، وكانت له جارية حسناء، محسنة في الغناء، فضاق بهما الخناق، واشتدّ بهما الحال في عدم ما يقتاتان

(١) من المستجاد.

(٢) المستجاد: ٥٣ - ٦٣ مع تصرف واختصار.

به، فقال لها: قد ترين ما قد صرنا إليه من هذه الحال السيئة؛ واللّه لمؤتي وأنّ معي أحسن وأهون عليّ مما أذكره لك؛ فإن رأيت أن أبيعك لمن يحسن إليك، ويغسل عنك ما أنت فيه، وأتفرّج أنا بما لعلّه يصير إليّ من الثمن، ولعلك تحصلين عند من تتوصلين إلى نفعي معه! فقالت: واللّه لمؤتي على تلك الحالة معك أثر عندي من انتقالي إلى غيرك ولو كان خليفة؛ ولكن اصنع ما بدا لك!

قال: فخرج وعرضها للبيع، فأشار عليه أحد أصدقائه ممّن له رأي أن يحملها إلى ابن مَعْمَر أمير العراق، فحملها إليه، فلما عرضت عليه استحسناها، فقال لمولاها: كم شراؤها عليك؟ قال: مائة ألف درهم، وقد أنفقت عليها مالا كثيرا، حتى صارت في رتبة الأستاذين. قال: أما ما أنفقت عليها فغير مُحْتَسَب لك به؛ لأنك أنفقت في لذاتك، وأما ثمنها فقد أمرنا لك بمائة ألف درهم وعشرة أسفاط من الثياب وعشرة رؤوس من الخيل، وعشرة رؤوس من الرقيق، أَرْضِيت؟ قال: نعم، أَرْضَى اللّهُ الأمير. فأمر بالمال فأحضّر، وأمر قهرمانه بإدخال الجارية إلى الحرّم، فأمسكت بجانب السّتر، وبكت وقالت:

هنيئاً لك المال الذي قد أَقْدَنَهُ
أقول لِنَفْسِي وهي في كرباتها
إذا لم يكن للأمر عندك موضع
فبكي مولاها، وأجاب قائلاً:

ولولا قعود الدهر بي عنك لم يَكُنْ
أروح بهم من فراقك مُوجِع
عليك سلامي لا زيارة بيننا

فقال له ابن مَعْمَر: قد شئت. فخذها بارك الله لك فيها، وفيما وصل إليك منا. فأخذها وأخذ المال والخيل والرقيق والثياب وعاد وقد حَسَنَتْ حاله.



الحجاج وإبراهيم بن طلحة

ومما جنيته من ثمرات الأوراق أن الحجاج لما قتل عبد الله بن الزبير رحل إلى عبد الملك بن مروان، ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة. فلما قدم على عبد الملك سلّم عليه بالخلافة، وقال: قدِمْتُ عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز في الشرف والأبوة وكمال المروءة والأدب، وحسن المذهب، والطاعة والنصيحة مع العزلة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله، فافعل به يا أمير المؤمنين ما يستحق أن

يُفعل بمثله في أُبُوتِهِ وشرفه. فقال عبد الملك: يا أبا محمد؛ أذْكَرْتَنَا حَقًّا واجِبًا، ائْذِنُوا لإِبْرَاهِيمَ. فَلَمَّا دَخَلَ وَسَلَّمَ بالخِلافة، أَمَرَهُ بالجلوس في صدر المجلس، وقال له عبد الملك: إِنَّ أبا محمد ذَكَرْنَا ما لم نَزَلْ نَعْرِفُهُ مِنْكَ مِنَ الأَبُوتِ والشرف، فلا تَدْعُ حاجة في خاصَّةِ أَمْرِكَ وَعَامَّتِهِ إِلَّا سَأَلْتُهَا.

فقال إبراهيم: أَمَّا الحوائِجُ التي نَبْتَغِي بها الرُّلْفَى، ونرجو بها الثواب فما كان لله خَالِصًا وَلِئَنِّيهِ ﷺ. ولكن لك يا أمير المؤمنين عندي نصيحة، لا أَجْدُ بُدًّا من ذكري إياها، قال: أَهْيَ دون أبي محمد؟ قال: نعم. قال: قُمْ يا حَجَّاج. فنهض الحَجَّاج خِجَلًا لا يُبْصِرُ أَيْنَ يَضَعُ رِجْلَهُ.

ثُمَّ قال عبد الملك: قل يا بن طَلْحَةَ، فقال: تَاللَّهِ يا أمير المؤمنين إِنَّكَ عَمِدَتَ إلى الحَجَّاج في ظُلْمِهِ وَتَعَدَّيهِ على الحق، وإصغائه إلى الباطل، فَوَلَّيْتَهُ الحَرَمين، وفيهما مَنْ فيهما مِنْ أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وأبناءِ المهاجرين والأنصار، يَسُومُهُمُ الخَسْفُ ويَطْوُهُمُ العسف، بطعامِ أهلِ الشَّامِ، وَمَنْ لا رَوِيَّةَ له في إقامةِ الحق، ولا إِزاحةِ الباطل.

قال: فَاطْرُق عبد الملك ساعة، ثم رفع رأسه، وقال: كَذَبْتَ يا بن طَلْحَةَ، ظَنُّ فَيْك الحَجَّاج غير ما هو فَيْك، قُمْ فَرُبَّمَا ظَنَّ الحَيْرُ بغيرِ أهله. قال: فقمت وأنا ما أَبْصِرُ طريقًا. قال: وَأَتْبَعْنِي حَرَسِيًّا، وقال له: أَشَدُّ يَدُكَ بِهِ.

قال إبراهيم: فما زِلْتُ جالِسًا حتى دعا الحَجَّاج، فما زالا يتناجيان طويلاً حتى ساءَ ظَنِّي، ولا أَشْكُ أَنَّهُما في أَمْرِي، ثم دعا بي فلقيني الحَجَّاجُ في الصَّخْنِ خَارِجًا؛ فَقَبَّلَ ما بين عَيْنَيَّ وقال: أَحْسَنَ اللَّهُ جِزَاءَكَ^(١). فقلت في نفسي: إِنَّهُ يَهْزَأُ بي. ودخلت على عبد الملك فأجلسني مجلسي الأول، ثم قال: يا بن طَلْحَةَ، هَلْ أَطْلَعُ على نصيحتك أَحَدًا؟ فقلت: لا وَاللَّهِ يا أمير المؤمنين، ولا أَرُدُّ إِلَّا اللَّهَ ورسوله والمسلمين، وأمير المؤمنين قد علم^(٢) بذلك.

فقال عبد الملك: قد عزلتُ الحَجَّاجَ عن الحَرَمين لما كَرِهْتَهُ فِيهِ لَهْمًا، وأعلمتُهُ أَنَّكَ اسْتَقْلَلْتَ ذلك عليه، وسألتني له وِلَايَةً كبيرة، وقد أَوْلَيْتُهُ العِراقَيْنِ، وَقَرَّرْتُ له أَنَّ ذلك بِسؤالِكَ، لِيَلْزِمَهُ مِنْ حَقِّكَ ما لا بُدَّ له من القيام به، فأخْرُجْ معه، فَإِنَّكَ غَيْرُ دَامٍ لَصُحْبَتِهِ. فخرجت معه، ونالني منه كل خير^(٣).



(١) أ: «إليك».

(٣) المستجاد: ٤٤ - ٤٦.

(٢) ط: «يعلم ذلك».

الإسكندر وملك الصين

ومن لطائف المنقول عن القاضي أبي القاسم علي بن المحسن بن علي التَّنُوخِي رحمه الله تعالى، أَنَّ الإسكندر لما انتهى إلى الصِّين، ونزل على ملكها، أتاه حاجبه وقد مضى من الليل شطره، فقال له: رسول ملك الصِّين يَسْتَأْذِنُ عليك، فقال: ائذن له.

فلما دخل عليه، وقف بين يديه وسلَّم، وقال: إن رأى الملك أن يُخْلِىَ مجلسه فَلْيَفْعَلْ. فأمر الإسكندر مَنْ بِخِدمته بالانصراف، ولم يبقَ غير حاجبه، فقال له الرسول: الذي جئتُ به لا يَحْتَمِلُ أن يَسْمعه غيرك، فأمر بتفتيشه ففُتِّش فلم يَجِدْ^(١) معه شيئاً من السَّلاح، فوضع الإسكندر بين يديه سيفاً مُجَرِّداً، وقال له قل ما شئت، ثم أخرجَ جميع مَنْ عنده.

فلما خلا المكان، قال له الرسول: أَنَا مَلِكُ الصِّين لا رسوله، وقَدْ حضرتُ أسألكَ عَمَّا تُريدُه، فإن كان ممَّا يُمكن الانقيادُ إليه ولو على أَضْعَفِ الوجوه أجبته إليه، وغنيتُ أَنَا وإِيَّاكَ^(٢) عن الحرب.

فقال له الإسكندر: وما الذي أَمْنُكَ مِنِّي؟ قال: علمي بأنك رجل عاقل، وليس بيننا عداوةٌ مُتَقَدِّمة، ولا مُطالَبةٌ بِدُخُلِ^(٣)، ومتى قتلتنِي أقاموا غيري، وَلَمْ يُسَلِّمُوا إِلَيْكَ البلد، ثم تُنْسَبُ أنت إلى غير الجميل وَضِدَّ الحزم.

فأطرقَ الإسكندر مُتَفَكِّراً في مقالَه، وَعَلِمَ أَنَّهُ رجل عاقل، فقال له: أريدُ ارتفاعَ^(٤) ملكك لثلاث سنين عاجلاً ونصفَ ارتفاعه في كل سنة. قال: أَجِبْتُكَ. قال: كيف تكون حالك؟ قال: أَكون قتيلاً أو مُحَارِباً. قال: فَإِنْ قَنِعْتُ منك بارتفاع سنتين كيف تكونُ حَالُكَ؟ قال: أَصلُحُ مما تقدم ذِكره. قال: فَإِنْ قَنِعْتُ منك بارتفاع سنة واحدة؟ قال: يكونُ مُضِرّاً بي، ومُذهِباً لجميع لَدَاتِي. قال: فَإِنْ اقْتَصَرْتُ منك على السُّدُس؟ قال: يكون السُّدُس مُوقِراً والباقي لجيشي ولأسباب المُلْك. قال: قد اقتصرْتُ على هذا، فشكره وانصرف.

فلما أصبح وطلعت الشمس، أَقبل جيش الصِّين حتى طَبَقَ^(٥) الأرض، واختلط بجيش الإسكندر، فأزَعَبَهُ^(٦)، وتوأتب أصحابه فركبوا، واستَعَدُّوا للحرب.

(١) كذا في أ، وفي ب، ط: «فلم يوجد معه شيء».

(٢) ط: «أنت».

(٣) الدحل: الثار.

(٤) ارتفاع ملكك، أي ما يغله ملكك.

(٥) طبق الأرض: ملأها.

(٦) ط: «فارتعب».

فبينما هم كذلك إذ ظهر ملك الصّين عليهم وعليه التّاج، فلمّا رأى الإسكندر تَرَجَّل، فقال له الإسكندر: أَعْدَرْتُ؟ قال: لَا واللّٰه. قال: فما هذا الجيش؟ قال: أَرَدْتُ أَنْ أَعْلِمَكَ أَنِّي لَمْ أَطْعَمَ مِنْ ضَعْفٍ وَلَا مِنْ قَلَّةٍ، وَمَا غَابَ عَنْكَ مِنَ الْجَيْشِ أَكْثَرُ؛ وَلَكِنِّي رَأَيْتُ الْعَالَمَ الْأَكْبَرَ مُقْبِلًا عَلَيْكَ، مُمَكِّنًا لَكَ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مِنْ حَارِبِ الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ غُلِبَ، فَأَرَدْتُ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِكَ وَالذَّلَّةَ لِأَمْرِهِ بِالذَّلَّةِ لِأَمْرِكَ.

فقال الإسكندر: ليس مثلك يُؤْخَذُ منه شيء، فما رأيت بيني وبينك أحداً يستحقُّ التّفْضِيلَ والوصف بالفضلِ غيرك، وقد أَعْقَيْتُكَ مِنْ جَمِيعِ مَا أَرَدْتَهُ مِنْكَ، وَأَنَا مُنْصَرَفٌ عَنْكَ.

فقال ملك الصّين: أَمَّا إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، فَلَسْتَ تَخْشُرُ. فلمّا انصرف الإسكندر اتَّبَعَهُ ملك الصّين مِنَ الْهَدَايَا وَالتَّحْفِ بِضِعْفٍ مَا كَانَ قَرَرَهُ مَعَهُ^(١).



زيد الخيل

ومن غريب المنقول عن أبي الفرج الأصبهانيّ أنه قال: أخبرني أبو زيد قال: أخبرني عمّي عن أبي عن الكلبيّ عن أبيه قال: أخبرني شيخ من بني نبهان قال: أصابت بني نبهان سَنَةً ذَهَبَتْ بِالْأَمْوَالِ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْهُمْ بَعِيَالَهُ، وَأَنْزَلَهُمُ الْحِيرَةَ، وَقَالَ: كُونُوا قَرِيبًا مِنَ الْمَلِكِ يُصَبِّحُكُمْ مِنْ خَيْرِهِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكُمْ. ومضى على وجهه يَسُوقُ رَاحِلَتَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَطْنٍ^(٢) إِبِلٍ عِنْدَ تَطْفِيلِ الشَّمْسِ^(٣)؛ فَإِذَا خِبَاءٌ عَظِيمٌ وَقُبَّةٌ مِنْ أَدَمَ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا لِهَذَا الْخِبَاءِ بُدٌّ مِنْ أَهْلٍ، وَمَا لِهَذِهِ الْقُبَّةِ بُدٌّ مِنْ رَبٍّ، وَمَا لِهَذَا الْعَطْنِ بُدٌّ مِنْ إِبِلٍ.

فَنظَرْتُ فِي الْخِبَاءِ فَإِذَا شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ أَوْهَاهُ الْكِبَرُ، وَهُوَ شَبَهُ النَّسْرِ، فَجَلَسْتُ خَلْفَهُ؛ فَلَمَّا انْصَرَمَ النَّهَارُ، أَقْبَلَ فَارِسٌ لَمْ أَرْ أَعْظَمَ مِنْ شَكْلِهِ، وَفِي خِدْمَتِهِ أَسْوَدَانِ يَمْشِيَانِ بَيْنَ جَنْبَيْهِ، وَإِذَا مَائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ مَعَهُ فَحَلُّهَا، فَبَرَكَ الْفَحْلُ، وَبَرَكْنَ حَوْلَهُ، وَنَزَلَ الْفَارِسُ فَقَالَ لِأَحَدِ عَبْدَيْهِ: احْلُبِ الْفُلَانَةَ^(٤)، فَحَلَبَهَا، ثُمَّ وَضَعَ اللَّبَنَ بَيْنَ يَدَيِ الشَّيْخِ فَكْرَعَ مِنْهُ، وَأَخَذَهُ وَقَدَّمَهُ إِلَيَّ، فَشَرِبْتُ نِصْفَهُ. ثُمَّ أَمَرَ بِشَاةٍ فَذُبِحَتْ وَشُوِيَتْ وَأَكَلْنَا مِنْهَا جَمِيعًا. فَأَمَهَلْتُ حَتَّى إِذَا نَامُوا، وَحَكَمَ عَلَيْهِمُ التَّوَمُ ثُرْتُ^(٥) إِلَى الْفَحْلِ فَحَلَلْتُ عِقَالَهُ وَرَكْبَتَهُ، فَاَنْدَفَعَ بِي وَتَبَعْتُهُ الْإِبِلُ. فَمَشَيْتُ إِلَى الصَّبَاحِ.

(١) المستجد: ٤٦ - ٤٩.

(٢) العطن: مبرك الإبل.

(٣) تطفيل الشمس: ميلها إلى الغروب.

(٤) الفلانة هنا: كناية عن الناقة.

(٥) ثار إليه: وثب.

فلما أصبحت نظرت فلم أجد أحداً، ولما تَعَالَى النَّهَارُ التَّفْتُ فإذا أنا بشيء كأنه طائر، فما زال يدنو حتى تَبَيَّنَتْهُ، فإذا هو فارس على فرس، وإذا هو صاحبي بالأمس؛ فَعَقَلْتُ الفحل، وَعَمَدْتُ إلى كِنَانَتِي، فقال: اخلل عقاله، فقلت: كلا، لقد خَلَفْتُ خَلْفِي عيالاً جِيعاً بالحيرة. قال: فإنك لمِيت، حُلْ عقاله لَا أُمُّ لَكَ! وانصُبْ لي خَطَامَهُ، واجعل فيه خمسَ عقد، وقلْ لي: أين تُحِبُّ أَنْ أضع سهمي؟ فقلت: في هذا الموضع؛ فكأثماً وضعه بيده.

ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمس بخمسة أسهم، فَرَدَدْتُ نَبْلِي، وَحَطَطْتُ قَوْسِي ووقفت مُسْتَسْلِماً.

فدنا مني، وأخذ القوس والسيف ثم أَرَدَفَنِي خَلْفَهُ، وقد عرف أنني الذي شربت اللبن عنده وأكلت اللحم، فقال: كيف ظنك بي؟ فقلت: أحسن ظن؛ فقال: أبشر إنه لن ينالك شر، وقد كنتَ ضيف مهلهل^(١)، فقلت: أزيد الخيل أنت؟ قال: نعم أنا زيد الخيل.

فلما انتهينا إلى منزله، قال: لو كانت هذه الإبل لي لسلمتها إليك، ولكنها لابنة مُهْلَهْلٍ فَأَقِمْ عِنْدِي. فَأَقِمْتُ عنده أياماً فشَنَّ الغارة على بني ثَمِيرَ فَأَصَابَ مائة بعير، فقال: هذه أحبُّ إليك أم تلك؟ قلت: هذه، قال: دونكها، وبعث معي خُفراء من ماء إلى ماء إلى أَنْ وَرَدْتُ الحيرة فَلَقِيَنِي نَبْطِي؛ فقال: يا أعرابي، احتفظ بإبلك، فقد قَرُبَ مَخْرَجُ النَّبِيِّ ﷺ: الذي يملك هذه الأرض ويطردها أهلها، حتى إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَبْتَاعُ البُستَانِ بثمانٍ بعير.

قال: فاختملتُ بأهلي إلى النَّبْطِ حتى جاءنا رسول الله ﷺ. فأسلمنا على يديه، وما مضت إلا أيام حتى اشتريت بثمانٍ بعير من إبلي بُستَاناً بالحيرة^(٢).



يواسي بعضهم بعضاً

ونقل عن الواقدي قال: كان لي صديقان أحدهما هاشمي والآخر نبطي، فكُنَّا فِي الصَّدَاقَةِ كَنَفْسٍ واحدة، فَنَالَتْنِي ضيقة شديدة، وَحَضَرَ الْعِيدَ، فقالت امرأتي: أما نحن فنصبر على البؤس والشدة، وأما صبياننا هؤلاء فقد تَقَطَّعَ قلبي عليهم رَحْمَةً؛ لأنَّهم يَرَوْنَ صِبْيَانِ جِيرَانِنَا وقد تَزَيَّنُوا فِي عِيدِهِمْ وهم فرحون. ولا بأس بالاحتيال فيما نصرفه في كُسوتهم. قال: فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التَّوَسُّعَ عَلَيَّ بشيء؛ فَوَجَّهَ إِلَيَّ كِيساً فيه ألف درهم، فما استقرَّ قراره حتى كتب إليَّ صديقي الآخر

(١) مهلهل: أبو زيد الخيل.

(٢) الخبر في المستجد: ٧٠/٦٦.

يشكو إليّ مثل ما شكوته إلى الهاشمي، فوجّهت إليه بالكيس على حاله، وخرجت إلى المسجد، فأقمت فيه ليلي مستحيياً من امرأتي. فلما دخلت عليها لم تُعَنِّفني؛ لعلمها بالحال.

فبينما أنا كذلك إذ أقبل صديقي الهاشمي، ومعه الكيس بختمه، فقال: اضدقني عما فعلته فيما وجّهت به إليك، فأعلمته بالخبر، فقال: إنك وجّهت إليّ ولا أملك إلا ما بعثت به إليك، وكتبْتُ إلى صديقنا أسأله المواساة، فوجّه إليّ كيسي بختمه؛ فأخرجنا للمرأة مائة درهم وتقاسمنا الباقي أثلاثاً.

وئمي الخبر إلى المأمون، فأخضرنني وسألني عن الخبر فشرخته له، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار، منها ألف للمرأة وألفان لكل واحد منا^(١).



من نواذر الكرام

ويضارع ذلك ما هو منقول عن الأصمعي، قال: قصدتُ في بعض الأيام رجلاً كنتُ أغشاهُ لكرمه، فوجدتُ على بابه بواباً فمَنَعني من الدُخول إليه، ثم قال: واللّه يا أصمعيّ ما أوقفتني على بابه لأمنع مثلك إلا لِرُقّةِ حاله، وقُصُورِ يده؛ فكتبتُ رُقعةً فيها:

إذا كانَ الكَرِيمُ له حِجَابٌ فما فَضَّلَ الكَرِيمَ على اللَّئِيمِ

ثم قُلْتُ له: أوَصِلْ رُقعتي إليه، ففعل، وعاد بالرُقعة وقد وَقَعَ على ظهرها:

إذا كانَ الكَرِيمُ قَلِيلَ مَالٍ تَحَجَّبَ بالحِجَابِ عن الغَرِيمِ

ومع الرُقعة صرة فيها خمسمائة دينار.

فقلتُ: واللّه لأثجفنَّ المأمون بهذا الخبر، فلما رآني قال: من أين يا أصمعيّ؟ قلتُ: من عند رجل من أكرم الأحياء حاشا أمير المؤمنين. قال: ومن هو؟ فدفعتُ إليه الورقة والصرة، وأعدتُ عليه الخبر. فلما رأى الصرة، قال: هذا من بيت مالي، ولا بدُّ لي من الرجل. فقلتُ: واللّه يا أمير المؤمنين إنِّي أَسْتَحْيِي أن أروِّعهُ بِرُسُلك، فقال لبعض خاصّته: امضِ مع الأصمعيّ، فإذا أراك الرجل قلْ له: أجب أمير المؤمنين من غير إزعاج.

قال: فلما حضر الرجل بين يدي المأمون، قال له: أمّا أنت الذي وقفتُ لنا بالأمس وشكوتُ رُقّة الحال، وأنَّ الزمانَ قد أناخ عليك بِكُلِّكَلِه؛ فدفعنا إليك هذه الصرة لِتُصلِحَ بها حالك، فقصدك الأصمعيّ بِبَيْتٍ واحد فدفعتها إليه!

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، واللّه ما كَذَبْتُ فيما شَكَوْتُ لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ رِقَّةِ الْحَالِ؛ لَكِنْ اسْتَحْيَيْتُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ أُعِيدَ قَاصِدِي إِلَّا كَمَا أَعَادَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. فقال له المأمون: لِلَّهِ أَنْتَ فَمَا وَلَدْتَ الْعَرَبُ أَكْرَمَ مِنْكَ؛ ثُمَّ بَالِغَ فِي إِكْرَامِهِ، وَجَعَلَهُ مِنْ جُمْلَةِ نَدَمَائِهِ^(١).



أوارث أنت بني أمية؟

ومن لطائف المنقول ما هو منقول عن الرّبيع، أنه قال: ما رأيت رجلاً أثبت ولا أَرْبَطَ جَأشاً من رجل رُفِعَ إلى المنصورِ أَنْ عنده ودائعٌ وأموالاً لبني أمية، فأمرني بإخضاره فأحضرتة ودخلت به إليه، فقال له المنصور: قد رُفِعَ إلينا خبر الودائع والأموال التي لبني أمية عندك فأخرج لنا ما عندك، فقال: يا أمير المؤمنين، أوارث أنت لبني أمية؟ قال: لا؛ قال: فوصي؟ قال: لا، قال: فما سؤالك عما في يدي من ذلك!

فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه، وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقهم، فأريد أن آخذ أموال المسلمين، وأجعلها في بيت مالهم. فقال: يا أمير المؤمنين، تحتاج في ذلك إلى إقامة البيّنة العادلة على أن الذي في يدي لبني أمية؛ مما خائوه وظلموه واغتصبوه من أموال المسلمين، فإن بني أمية كان لهم أموال غير أموال المسلمين. فأطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه إليّ وقال: صدق الرجل يا ربيع، ما وجب عليه عندنا شيء. ثم بشّ في وجهه، فقال: هل لك من حاجة؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، حاجتي أن تنفذ كتابي مع البريد إلى أهلي ليسكنوا إلى سلامتي، فقد راعهم إشخاصي، وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين، قال: ما هي؟ قال تجمع بيني وبين من سعى بي إليك، فوالله ما لبني أمية عندي ولا في يدي وديعة، ولكنني لما مثلت بين يديك، وسألتني عما سألتني عنه، رأيت ما قلته أقرب إلى الخلاص والنّجاة، فقال: يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به، فجمعت بينهما، فقال: هذا غلامي ضرب عليّ ثلاثة آلاف من مالي وأبق.

فشدد المنصور على الغلام، فأقر أنه غلامه، وأنه أخذ المال الذي ذكره وأبق منه، وكذب عليه خوفاً من الوقوع في يده.

فقال المنصور للرجل: نسألك أن تصفح عنه، فقال: يا أمير المؤمنين صفحت عن جزمه، وأبرزته من المال، وأعطيته ثلاثة آلاف دينار أخرى.

فقال المنصور: ما على ما فعلت مزيد في الكرم؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين؛

هذا حَقُّ كَلَامِكَ، وانصرف. وكان المنصور يَتَعَجَّبُ مِنْهُ كُلَّمَا ذَكَرَهُ، ويقول: ما رأيتُ مثْلَ هذا الرجل يا ربيع^(١).



رحلة الإمام الشافعي

قال الشَّيْخُ الإمام العالم المقرئ أبو القاسم عبدُ العزيز بن يوسف الأَرْدَبِيلِي المالكي بالجامع العتيق بمصر في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة للهجرة: أخبرنا الشَّيْخُ أبو محمد عبد الله بن فَتْح المعروف بابن الحبشي سنة ثلاثين وخمسمائة للهجرة، أخبرنا الشَّريف القاضي الموسوي أبو إسماعيل موسى بن الحسين بن إسماعيل بن عليّ الحسيني المقرئ في سنة أربع وثمانين وأربعمائة للهجرة بالجامع العتيق بمصر، قال: أخبرنا الشَّيْخُ أبو العباس أحمد بن إبراهيم الفارسي في ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وأربعمائة للهجرة، قال: أخبرنا يحيى بن عبد الله الرَّجُل الصَّالح ويحيى بن موسى المعدل بمصر قالَا: حدَّثنا أبو الحسن أحمد بن محمد الواعظ المصري الكَرَّاز، قال: حدَّثني أبو الفرج عبد الرزاق حمدان البطين، قال: حدَّثني أبو بكر محمد بن المنكدر. قال: حدَّثني الرُّبِيعُ بن سليمان قال: سَمِعْتُ الإمامَ الشَّافعي رضي الله عنه، يقول:

فَارَقْتُ مَكَّةَ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً لَا نَبَاتَ بَعَارِضِي، مِنَ الْأَبْطَحِ إِلَى ذِي طَوًى، وَعَلَيَّ بُرْدَتَانِ يَمَانِيَّتَانِ، فَرَأَيْتُ رَكْبًا، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيَّ السَّلَامَ، وَوُتِبَ إِلَيَّ شَيْخٌ كَانَ فِيهِمْ، قَالَ: سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ إِلَّا مَا حَضَرْتَ طَعَامَنَا! قَالَ الشَّافعي رضي الله عنه: وَمَا كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُمْ أَخْضَرُوا طَعَامًا، فَأَجَبْتُ مُسْرِعًا غَيْرَ مُحْتَشِمٍ، فَرَأَيْتُ الْقَوْمَ يَأْخُذُونَ الطَّعَامَ بِالْخُمْسِ، وَيَذْفَعُونَ بِالرَّاحَةِ، فَأَخَذْتُ كَأَخْذِهِمْ كَيْ لَا يُسْتَبَشَعَ عَلَيْهِمْ مَأْكَلِي، وَالشَّيْخُ يَنْظُرُ إِلَيَّ. ثُمَّ أَخَذْتُ السَّقَاءَ فَشَرِبْتُ وَحَمَدْتُ اللَّهَ، وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ الشَّيْخُ؛ وَقَالَ: أَمْكِي أَنْتَ؟ قُلْتُ: مَكِّي. قَالَ: أَقْرَشِي أَنْتَ؟ قُلْتُ: قُرَشِي. ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: يَا عَمَّ بِمَا اسْتَدْلَلْتَ عَلَيَّ؟ قَالَ: أَمَّا فِي الْحَضَرِ فَبِالزِّي، وَأَمَّا فِي النَّسَبِ فَبِأَكْلِ الطَّعَامِ؛ لِأَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَأْكَلَ طَعَامَ النَّاسِ أَحَبَّ أَنْ يَأْكُلُوا طَعَامَهُ، وَذَلِكَ فِي قُرَيْشٍ خُصُوصًا.

قال الشَّافعي رضي الله عنه: فَقُلْتُ لِلشَّيْخِ: مَنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ قَالَ مِنْ يَثْرِبَ، مَدِينَةُ النَّبِيِّ ﷺ. فَقُلْتُ: مَنْ الْعَالَمُ بِهَا وَالْمَتَكَلِّمُ فِي نَصِّ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمُقْتَبِي بِأَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: سَيِّدُ بَنِي أَصْبَحَ، مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رضي الله عنه. قال الشَّافعي، فَقُلْتُ: وَاشْتَوَقَاهُ إِلَى مَالِكٍ! فَقَالَ لِي: قَدْ بَلَ اللَّهُ شَوْقَكَ، انْظُرْ إِلَى هَذَا الْبَعِيرِ

الأورق، فإنه أحسنُ جمالنا، ونحن على رحيل، ولك مِنَّا حسن الصُّحبة حتى تصل إلى مالك. فما كان غير بعيد حتى قَطَرُوا بعضها إلى بعض، وأَرْكَبُونِي البُعير الأورق، وأخذ القوم في السير، وأخذتُ أنا في الدرس، فحَتَمْتُ من مَكَّةَ إلى المدينة سِتَّ عَشْرَةَ خَتْمَةً؛ بالليل خَتْمَةً وبالنهَار خَتْمَةً؛ ودخلتُ المدينة في اليوم الثَّامِن بعد صلاة العصر، فصلَّيتُ العصر في مسجد رسول الله ﷺ، ودَنَوْتُ من القَبْرِ، فسَلَّمْتُ على النبي ﷺ، ولَدُثُ بِقَبْرِهِ، فرأيتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ مُؤْتَرِراً بِزُرْدَةٍ مُتَشِحاً بِأُخْرَى، قال: حَدَّثَنِي نَافِعٌ عن ابنِ عُمَرَ، عن صَاحِبِ هَذَا القَبْرِ - وَضَرَبَ يَدَهُ إِلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -

قال الشافعي رضي الله عنه: فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ هَبْتُهُ مَهَابَةً عَظِيمَةً، وَجَلَسْتُ حَيْثُ انْتَهَى بِي المَجْلِسُ، فَأَخَذْتُ عُوداً مِنَ الأَرْضِ، فَجَعَلْتُ كُلَّمَا أَمَلَى مَالِكٌ حَدِيثاً كَتَبْتُهُ بِرِيقِي عَلَى يَدَيَّ، وَالْإِمَامُ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَنْظُرُ إِلَيَّ مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ حَتَّى انْقَضَى المَجْلِسُ، وَانْتَظَرَنِي مَالِكٌ أَنْ أَنْصَرِفَ فَلَمْ يَرْنِي أَنْصَرَفْتُ، فَأَشَارَ إِلَيَّ فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَنَظَرَ إِلَيَّ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: أَحَرَمِي أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: حَرَمِي. قَالَ: أَمَكِّي أَنْتَ؟ قُلْتُ: مَكِّي. قَالَ: أَقَرَشِي أَنْتَ؟ قُلْتُ: قَرَشِي. قَالَ: كَمَلْتَ أَوْصَافَكَ، لَكِنْ فِيكَ إِسَاءَةٌ أَدَب. قُلْتُ: وَمَا الَّذِي رَأَيْتَ مِنْ سُوءِ أَدَبِي؟ قَالَ: رَأَيْتَكَ وَأَنَا أُمَلِي أَلْفَاظَ الرِّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَلْعَبُ بِرِيقِكَ عَلَى يَدِكَ. فَقُلْتُ لَهُ: عَدِمْتُ الْبَيَاضَ، فَكُنْتُ أَكْتُبُ مَا تَقُولُ. فَجَذَبَ مَالِكُ يَدِي إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا أَرَى عَلَيْهَا شَيْئاً. فَقُلْتُ: إِنَّ الرِّيقَ لَا يَثْبُتُ عَلَى الْيَدِ، وَلَكِنْ فَهَمْتُ جَمِيعَ مَا حَدَّثْتُ بِهِ مِنْذُ جَلَسْتُ، وَحَفِظْتُهُ إِلَى حِينَ قَطَعْتُ. فَتَعَجَّبَ الْإِمَامُ مَالِكُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَعِذْ عَلَيَّ وَلَوْ حَدِيثاً وَاحِداً.

قال الشافعي رضي الله عنه: فَقُلْتُ: حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ - وَأَشْرَتْ بِيَدِي إِلَى القَبْرِ كإِشارته - حَتَّى أَعَدْتُ عَلَيْهِ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ حَدِيثاً حَدَّثَ بِهَا مِنْ حِينَ جَلَسَ إِلَى وَقْتِ قَطْعِ المَجْلِسِ وَسَقَطِ القُرْصِ، فَصَلَّى مَالِكُ المَغْرِبَ، وَأَقْبَلَ عَلَى عَبْدِهِ، وَقَالَ: خُذْ بِيَدِ سَيِّدِكَ إِلَيْكَ، وَسَأَلَنِي النُّهُوضَ مَعَهُ.

قال الشافعي رحمه الله: فَقَمِيتُ غَيْرَ مُمْتَنِعٍ إِلَى مَا دَعَا مِنْ كَرَمِهِ، فَلَمَّا أَتَيْتُ الدَّارَ أَدْخَلَنِي الْغُلَامُ إِلَى خُلُوةٍ فِي الدَّارِ، وَقَالَ لِي: الْقِبْلَةُ فِي الْبَيْتِ هَكَذَا، وَهَذَا إِنْاءٌ فِيهِ مَاءٌ، وَهَذَا بَيْتُ الْخَلَاءِ.

قال الشافعي رضي الله عنه: فَمَا لَبِثُ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى أَقْبَلَ هُوَ وَالْغُلَامُ حَامِلًا طَبَقًا، فَوَضَعَهُ مِنْ يَدِهِ وَسَلَّمَ الْإِمَامُ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ لِلْعَبْدِ: اغْسِلْ عَلَيْنَا، ثُمَّ وَثَبَ الْغُلَامُ لِإِنْاءٍ^(١)، وَأَرَادَ أَنْ يَغْسِلَ عَلَيَّ أَوَّلًا، فَصَاحَ عَلَيْهِ مَالِكٌ، وَقَالَ: الْعَسَلُ فِي أَوَّلِ الطَّعَامِ لِرُبِّ الْبَيْتِ، وَفِي آخِرِ الطَّعَامِ لِلضَّيْفِ.

قال الشافعي رضي الله عنه: فاستَحَسَنَت ذلك من الإمام مالك رضي الله عنه، وسألته عن شرحه، فقال: إنه يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يَتَدَيَّ بالغسل، وفي آخر الطعام يَنْتَظِرُ مَنْ يدخل فيأكل معه.

قال الشافعي رضي الله عنه: فكشف الإمام مالك رضي الله عنه الطَّبَقَ، فكان فيه صَخَفَتَانِ، في إحداهما لبن، والأخرى تمر، فسمَّى الله تعالى وسمَّيت، فأتيت أنا ومالك على جميع الطعام، وعَلِمَ مالك أَنَّا لم نأخذ من الطعام الكفاية، فقال لي: يا أبا عبد الله، هذا جهد مِنْ مُقِلٍّ إلى فقير مُعْدَم، فقلت لا عُذْرَ على مَنْ أَحْسَنَ، إنما العُذْرُ على مَنْ أَسَاءَ.

قال الشافعي رضي الله عنه: فَأَقْبَلَ مالك يسألني عن أهل مكة حتى دَنَت العِشَاءُ الآخرة، ثم قامَ عَنِّي وقال: حُكِّمَ المسافر أن يقلَّ تبعه بالاضطرَّاج. فَنِمْتُ لَيْلَتِي؛ فلَمَّا كان في الثُلُث الأخير من الليل قرع عليَّ مالك الباب، فقال لي: الصلاة يَزَحْمُكَ الله! فرَأَيْتُهُ حامل إناءٍ فيه ماء، فتَبَشَّعَ عَلَيَّ ذلك فقال لي: لا يَرُغِكَ ما رَأَيْتَهُ، فخدمته الضَّيْفَ فرض.

قال الشافعي رضي الله عنه: فَتَجَهَّزْتُ للصلاة، وصَلَّيت الفجر مع الإمام مالك في مسجد رسول الله ﷺ، والناس لا يعرف بعضهم بعضاً من شِدَّةِ العَلَسِ، وجلس كلُّ واحدٍ مِنَّا في مُصَلَّاهُ يُسَبِّحُ الله تعالى إلى أن طلعت الشمس على رؤوس الجبال، فجلس مالك في مجلسه بالأُمس، وناولني الموطأَ أُمْلِيه وأقرَّوه على الناس، وهُمْ يَكْتُبُونَهُ.

قال الشافعي رضي الله عنه: فَأَتَيْتُ على حِفْظِهِ من أولِهِ إلى آخره، وأَقَمْتُ ضَيْفَ مالك ثمانية أشهر، فما عَلِمَ أَحَدٌ من الأُنس الذي كان بيننا أَتَيْنَا الضَّيْفَ. ثُمَّ قَدِمَ على مالك المصريون بعد قَضَاءِ حَجَّهِم للزيارة، واستماع الموطأ.

قال الشافعي: فَأَمْلَيْتُ عليهم حِفْظاً؛ منهم عبد الله بن عبد الحكم، وأَشْهَبُ وابن القاسم - قال الرَّبِيع: وأَحْسَبُ أَنَّهُ ذَكَرَ اللَّيْثُ بن سَعْدٍ - ثُمَّ قَدِمَ بعد ذلك أَهْلُ العراق لزيارة النَّبِيِّ ﷺ.

قال الشافعي رضي الله عنه: فرَأَيْتُ بين القَبْرِ والمِنْبَرِ فَتَى جَمِيلَ الوجه، نظيف الثَّوبِ حسن الصَّلَاةِ، فتَوَسَّمت فيه خيراً فسألته عن اسمِهِ، فأخبرني، وسألته عن بلده، فقال: العِراق. فقلت: أيُّ العِراق؟ فقال لي: الكُوفَةُ. فقلت: مَنْ العالِمُ بها؟ والمتكَلِّمُ في نصِّ الكتاب، والمفتي بأخبار رسول الله ﷺ؟ فقال لي: أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبَا أبي حَنيفة رضي الله عنه.

قال الشافعي رضي الله عنه: فقلت: وَمَتَى عَزَمْتُمْ تَطْعَنُونَ؟ فقال لي: في غَدَاةٍ

عَد، وَقَتَ الْفَجْرِ. فَعُدْتُ إِلَى مَالِكٍ، فَقُلْتُ لَهُ: خَرَجْتَ مِنْ مَكَّةَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانِ الْعَجُوزِ، أَفَأَعُوذُ إِلَيْهَا أَوْ أَرْحَلُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ؟ فَقَالَ لِي: الْعِلْمُ فَائِدَةٌ يَرْجِعُ مِنْهَا إِلَى فَائِدَةٍ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رِضَاءً بِمَا يَطْلُبُهُ؟

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَلَمَّا أَرْمَعْتُ عَلَى السَّفَرِ رَوَّدَنِي الْإِمَامُ مَالِكُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا كَانَ فِي السَّحَرِ، سَارَ مَعِيَ مُشِيعًا إِلَى الْبَقِيعِ، ثُمَّ صَاحَ بِعُلُوِّ صَوْتِهِ: مَنْ يَكْرِي رَاحِلَتَهُ إِلَى الْكُوفَةِ؟ فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: بِمَ تَكْتَرِي، وَلَيْسَ مَعَكَ وَلَا مَعِيَ شَيْءٌ؟ فَقَالَ لِي: انْصَرَفْتُ الْبَارِحَةَ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ إِذْ قَرَعَ عَلَيَّ قَارِعٌ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ فَأَصَبْتُ ابْنَ الْقَاسِمِ، فَسَأَلَنِي قَبُولَ هَدِيَّتِهِ فَقَبِلْتُهَا، فَدَفَعَ إِلَيَّ صُرَّةَ فِيهَا مِائَةُ دِينَارٍ، وَقَدْ أَتَيْتُكَ بِنِصْفِهَا، وَجَعَلْتُ النِّصْفَ لِعِيَالِي. فَاتَّكِرْتُ لِي بِأَرْبَعَةِ دَنَانِيرٍ، وَدَفَعْتُ إِلَيَّ بَاقِي الدَّنَانِيرِ، وَوَدَّعَنِي وَانْصَرَفَ، وَصِرْتُ فِي جُمْلَةِ الْحَاجِّ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى الْكُوفَةِ يَوْمَ رَابِعِ عَشْرِينَ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَصَلَيْتُ الْعَصْرَ، فَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ إِذْ رَأَيْتُ غُلَامًا قَدْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، وَصَلَّى الْعَصْرَ فَمَا أَحْسَنَ الصَّلَاةَ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ نَاصِحًا، فَقُلْتُ لَهُ: أَحْسِنَ صَلَاتَكَ لِيَلَّا يُعَذَّبَ اللَّهُ هَذَا الْوَجْهَ الْجَمِيلَ بِالنَّارِ. فَقَالَ لِي: أَنَا أَظُنُّ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ؛ لِأَنَّ فِيكُمْ الْغِلْظَةَ وَالْجَفَاءَ، وَلَيْسَ فِيكُمْ رِقَّةَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَأَنَا أَصْلِي هَذِهِ الصَّلَاةَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً بَيْنَ يَدَيِ مُحَمَّدَ بْنِ الْحَسَنِ وَأَبِي يُوسُفَ، فَمَا عَابَا عَلَيَّ صَلَاتِي قَطُّ، وَخَرَجَ مُعْجَبًا يَنْفُضُ رِدَاءَهُ فِي وَجْهِي. فَلَقِيَ لِلتَّوْفِيقِ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ وَأَبَا يُوسُفَ بَبَابِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: أَعَلِمْتُمَا فِي صَلَاتِي مِنْ عَيْبٍ؟ فَقَالَا: اللَّهُمَّ لَا. قَالَ: فَفِي مَسْجِدِنَا هَذَا مَنْ عَابَ صَلَاتِي، فَقَالَا: اذْهَبْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: بِمَ تَدْخُلُ الصَّلَاةَ؟

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لِي: يَا مَنْ عَابَ صَلَاتِي، بِمَ تَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ؟ فَقُلْتُ: بِفَرْصَيْنِ وَسُنَّةٍ. فَعَادَ إِلَيْهِمَا، وَأَعْلَمَهُمَا بِالْجَوَابِ. فَعَلِمَا أَنَّهُ جَوَابُ مَنْ نَظَرَ فِي الْعِلْمِ. فَقَالَا: اذْهَبْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: مَا الْفَرِضَانِ وَمَا السُّنَّةُ؟ فَاتَى إِلَيَّ فَقَالَ: مَا الْفَرِضَانِ وَمَا السُّنَّةُ؟ فَقُلْتُ لَهُ: أَمَّا الْفَرِضُ الْأَوَّلُ فَالْنِيَّةُ، وَالثَّانِي تَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ، وَالسُّنَّةُ رَفْعُ الْيَدَيْنِ. فَعَادَ إِلَيْهِمَا فَأَعْلَمَهُمَا بِذَلِكَ، فَدَخَلَا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا نَظَرَا إِلَيَّ أَظْنَمَا اِزْدَرِيَانِي، فَجَلَسَا نَاجِيَةً وَقَالَا: اذْهَبْ إِلَيْهِ، وَقُلْ لَهُ: أَجِبَ الشَّيْخَيْنِ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ: فَلَمَّا أَتَانِي عَلِمْتُ أَنِّي مَسْئُولٌ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ، فَقُلْتُ: مِنْ حُكْمِ الْعِلْمِ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَا عَلِمْتُ لِي إِلَيْهِمَا حَاجَةٌ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَقَامَا مِنْ مَجْلِسِهِمَا إِلَيَّ، فَلَمَّا سَلَّمَا عَلَيَّ قُمْتُ إِلَيْهِمَا، وَأَظْهَرْتُ الْبَشَاشَةَ لَهُمَا، وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِمَا، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ، قَالَ: أَحَرَمِي أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: أَعَرَبِيٌّ أَمْ مَوْلَى؟ فَقُلْتُ: عَرَبِيٌّ، فَقَالَ: مَنْ

أَيُّ الْعَرَبِ؟ فَقُلْتُ: مِنْ وَلَدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: مِنْ وَلَدِ مَنْ؟ قُلْتُ: مِنْ وَلَدِ شَافِعٍ، قَالَ: رَأَيْتَ مَالِكًا؟ - هَكَذَا وَقَعَتْ اللَّفْظَةُ - قُلْتُ: مِنْ عِنْدِهِ أَتَيْتُ، قَالَ لِي: نَظَرْتُ فِي الْمَوْطَأِ؟ قُلْتُ: أَتَيْتُ عَلَى حِفْظِهِ. فَقَطَّعَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَدَعَا بِدَوَاةٍ وَبَيَاضٍ، وَكَتَبَ مَسْأَلَةً فِي الطَّهَارَةِ وَمَسْأَلَةً فِي الزَّكَاةِ، وَمَسْأَلَةً فِي الْبَيْعِ وَالْفَرَائِضِ وَالرَّهَانِ وَالْحَجِّ وَالْإِيْلَاءِ، وَمِنْ كُلِّ بَابٍ فِي الْفِقْهِ مَسْأَلَةً، وَجَعَلَ بَيْنَ كُلِّ مَسْأَلَتَيْنِ بَيَاضًا، وَدَفَعَ إِلَيَّ الدَّرَجَ^(١)، وَقَالَ: أَجِبْ عَنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ كُلِّهَا مِنَ الْمَوْطَأِ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَأَجَبْتُ بِنَصِّ كِتَابِ اللَّهِ وَبِسُنَّةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَسَائِلِ كُلِّهَا، ثُمَّ دَفَعْتُ إِلَيْهِ الدَّرَجَ فَتَأَمَّلَهُ، وَنَظَرَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ لِعَبْدِهِ: خُذْ سَيِّدَكَ إِلَيْكَ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثُمَّ سَأَلَنِي التُّهُوسُ مَعَ الْعَبْدِ؛ فَتَهَضَّتْ غَيْرَ مُمْتَنِعٍ. فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى الْبَابِ، قَالَ لِي الْعَبْدُ: إِنَّ سَيِّدِي أَمَرَنِي أَلَّا تَصِيرَ إِلَى الْمَنْزِلِ إِلَّا رَاكِبًا.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَقُلْتُ لَهُ: قَدِّمْ، فَقَدَّمَ إِلَيَّ بَغْلَةً بِسَرْجٍ مُحَلًى، فَلَمَّا عَلَوْتُ عَلَى ظَهْرِهَا رَأَيْتُ نَفْسِي بِأَطْمَارِ رَثَّةٍ، فَطَافَ بِي أَرْقَةُ الْكُوفَةِ إِلَى مَنْزِلِ مُحَمَّدَ بْنِ الْحَسَنِ، فَرَأَيْتُ أَبْوَابًا وَدِهَالِيزَ مَنْقُوشَةً بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَذَكَرْتُ ضَيْقَ أَهْلِ الْحِجَازِ وَمَا هُمْ فِيهِ، فَبَكَيتُ، وَقُلْتُ: أَهْلُ الْعِرَاقِ يَنْقُشُونَ سُقُوفَهُمْ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَهْلُ الْحِجَازِ يَأْكُلُونَ الْقَدِيدَ، وَيَمْضَوْنَ التَّوَى! ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ وَأَنَا فِي بُكَائِي، فَقَالَ: لَا يَرْغُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا رَأَيْتَ فَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ حَقِيقَةِ حَلَالٍ وَمُكْتَسَبٍ، وَمَا يُطَالِبُنِي اللَّهُ فِيهَا بِفَرْضٍ، وَإِنِّي أَخْرَجْتُ زَكَاتَهَا فِي كُلِّ عَامٍ فَأَسْرُ بِهَا الصَّدِيقَ، وَأَكْبِتُ بِهَا الْعَدُوَّ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَا بَثُّ حَتَّى كَسَانِي مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ خِلْعَةً بِأَلْفِ دِرْهَمٍ ثُمَّ دَخَلَ خَزَائِنَهُ فَأَخْرَجَ إِلَيَّ الْكِتَابَ الْأَوْسَطَ تَأْلِيفَ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ، فَتَنَظَّرْتُ فِي أَوَّلِهِ وَفِي آخِرِهِ، ثُمَّ ابْتَدَأْتُ الْكِتَابَ فِي لَيْلَتِي أَتَحَفَّظُهُ، فَمَا أَضْبَحْتُ إِلَّا وَقَدْ حَفِظْتُهُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ لَا يَعْلَمُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ - وَكَانَ الْمَشْهُورَ بِالْكُوفَةِ بِالْفَتْوَى، وَالْمَجِيبَ فِي التَّوَازِلِ - فَأَنَا قَاعِدٌ عَنْ يَمِينِهِ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ إِذْ سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ أَجَابَ فِيهَا، وَقَالَ: هَكَذَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ وَهَمْتُ فِي الْجَوَابِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَالْجَوَابُ مِنْ قَوْلِ الرَّجُلِ كَذَا وَكَذَا، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَحْتَهَا الْمَسْأَلَةُ الْفُلَانِيَّةُ، وَفَوْقَهَا الْمَسْأَلَةُ الْفُلَانِيَّةُ فِي الْكِتَابِ الْفُلَانِيِّ. فَأَمَرَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بِالْكِتَابِ فَأُخْضِرَ، فَتَصَفَّحَهُ، وَنَظَرَ فِيهِ، فَوَجَدَ الْقَوْلَ كَمَا قُلْتُ، فَرَجَعَ عَنْ جَوَابِهِ إِلَيَّ مَا قُلْتُ، وَلَمْ يُخْرِجْ إِلَيَّ كِتَابًا.

قال الشافعي: فاستأذنته في الرحيل، فقال: ما كنت لأذن لضيّف بالرحيل عني، وبذل لي مُشاطرة نعمته، فقلت: ما لذا قصّدت، ولا لذا أرذت، ولا رغبتي إلا في السفر. قال: فأمر غلامه أن يأتي بكل ما في خزائنه من بيضاء وحُمْراء، فدفع إلي ما كان فيها، وهو ثلاثة آلاف درهم، وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبِلاد الأعاجم، وألقى الرجال حتى صرْتُ ابنَ إحدى وعشرين سنة، ثم دخلت العراق في خلافة هارون الرشيد، فعند دخول الباب تعلّق بي غلامٌ فَلَاطفني، وقال: ما اسمك؟ فقلت: مُحمد، قال: ابنُ مَنْ؟ قلت: ابنُ إدريس الشافعي، فقال: مُطليبي؟ فقلت: أجل. فكتبَ ذلك في لوح كان في كُمه، وخَلَى سبيلي، فأويْتُ إلى بعض المساجد أَفكُر في عاقبة ما فعل، حتّى إذا ذهب من الليل النصف كُيس^(١) المسجد، وأقبلوا يتأملون وجه كُل رَجُل حتى أتوا إليّ، فقالوا للنّاس: لا بأس عليكم، هذا هو الحاجّة والغاية المطلوبة، ثُمَّ أَقبلوا عليّ. وقالوا: أَجِب أمير المؤمنين. فمُتّ غير مُمتنع، فلما بصُرْتُ بأمر المؤمنين سلّمْتُ عليه سلاماً بيّناً، فاستحسن الألفاظ، وردّ عليّ الجواب، ثم قال: تزعمُ أنّك من بني هاشم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين كُل زعم في كتاب الله باطل، فقال: ابنُ لي عن نَسَبك، فانتسبتُ حتّى لحقت آدم عليه السّلام. فقال لي الرشيد: ما تكونُ هذه الفصاحة، ولا هذه البلاغة إلا في رجل من وَلِد المُطلب، هل لك أن أوليك قضاء المسلمين، وأشاطرك ما أنا فيه، وتنفّد فيهم حُكْمك وحُكْمي على ما جاء به الرّسول عليه السلام. واجتمعت عليه الأُمّة؟ فقلت: يا أمير المؤمنين لو سألتني أن أفتح باب القضاء بالعداة، وأغلّقه بالعشيّ بنعمتك هذه ما فعلت ذلك أبداً. فبكى الرشيد، وقال تقبّل من عَرَض الدنيا شيئاً؟ - هكذا وردت هذه اللفظة - قلت: يكونُ مُعجلاً. فأمر لي بِألف دينار، فما برحْتُ من مقامِي حتّى قبضْتُها. ثُمَّ سألتني بعض الغلمان والحشم أن أصلهم من صِلتي فلم تسع المروءة أن كنتُ مسؤولاً غير المقاسمة فيما أنعم الله به عليّ؛ فخرج لي قسم كأقسامهم، ثم عُدْتُ إلى المسجد الذي كنتُ فيه في ليلتي، فتقدّم يصلي بنا غلام صلاة الفجر في جماعة، فأجّاد القراءة، ولحقه سهوٌ ولم يذّر كيف الدخول، ولا كيف الخروج. فقلت له بعد السّلام: أفسدت علينا وعلى نفسك. أعِدْ فأعاد مُسرِعاً وأعدّنا، ثم قلت: أحضِر بياضاً أعمل لك باب السّهو في الصّلاة، والخروج منها. فسارَعَ إلى ذلك ففتح الله عزّ وجلّ، فألفْتُ له كتاباً من كتاب الله وسنة نبيّه عليه السلام، وإجماع المسلمين، وسَمَّيْتُهُ باسمه، وهو أربعون جزءاً يُعرف بكتاب الزّعفران، وهو

(١) كبس المسجد: هجم عليه.

الذي وَضَعْتُهُ بِالْعِرَاقِ حَتَّى تَكَامَلَ فِي ثَلَاثِ سِنِينَ، وَوَلَّانِي الرَّشِيدُ الصَّدَقَاتِ بَنْجَرَانَ، وَقَدَّمَ الْحَاجَّ فَخَرَجْتُ أَسْأَلُهُمْ عَنِ الْحِجَازِ، فَرَأَيْتُ فَتًى فِي قُبَّتِهِ، فَلَمَّا أَشْرُتُ إِلَيْهِ بِالسَّلَامِ أَمَرَ قَائِدَ الْقُبَّةِ أَنْ يَقِفَ، وَأَشَارَ إِلَيَّ بِالْكَلَامِ، فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ وَعَنِ الْحِجَازِ، فَأَجَابَ بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَاوَذْتُهُ إِلَى السَّوَالِ عَنْ مَالِكٍ، فَقَالَ لِي: أَشْرَحُ لَكَ أَوْ اخْتَصِرُ؟ قُلْتُ: فِي الْاِخْتِصَارِ الْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: فِي صِحَّةِ جِسْمٍ، وَلَهُ ثَلَاثُمِائَةِ جَارِيَةٍ يَبِيتُ عِنْدَ الْجَارِيَةِ لَيْلَةً فَلَا يَعُودُ إِلَيْهَا إِلَى سَنَةٍ، فَقَدْ اخْتَصَرْتُ لَكَ خَبْرَهُ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَاشْتَهَيْتُ أَنْ أَرَاهُ فِي حَالِ غِنَاهُ كَمَا رَأَيْتُهُ فِي حَالِ فَقْرِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: أَمَا عِنْدَكَ مِنَ الْمَالِ مَا يَصْلَحُ لِلسَّفَرِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَتُوجِشْنِي خَاصَّةً وَأَهْلَ الْعِرَاقِ عَامَّةً، وَجَمِيعَ مَالِي فِيهِ لَكَ. فَقُلْتُ لَهُ: فِيمَ تَعِيشُ؟ قَالَ: بِالْجَاهِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ وَحَكَّمَنِي فِي مَالِهِ، فَأَخَذْتُ مِنْهُ عَلَى حَسَبِ الْكِفَايَةِ وَالنِّهَايَةِ، وَسِيرْتُ عَلَى دِيَارِ رَبِيعَةٍ وَمُضَرٍّ، فَأَتَيْتُ حَرَّانَ وَدَخَلْتُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَذَكَرْتُ فَضْلَ الْغَسَلِ وَمَا جَاءَ فِيهِ، فَقَصَصْتُ الْحَمَامَ، فَلَمَّا سَكَبْتُ الْمَاءَ رَأَيْتُ شَعْرَ رَأْسِي شَعِثًا، فَدَعَوْتُ الْمَزِينَ، فَلَمَّا بَدَأَ بِرَأْسِي وَأَخَذَ الْقَلِيلَ مِنْ شَعْرِي، دَخَلَ قَوْمٌ مِنْ أَعْيَانِ الْبَلَدِ، فَدَعَوْهُ إِلَى خِدْمَتِهِمْ، فَسَارِعَ إِلَيْهِمْ وَتَرَكَنِي، فَلَمَّا قَضَوْا مَا أَرَادُوا مِنْهُ، عَادَ إِلَيَّ فَمَا أَرَدْتُهُ، وَخَرَجْتُ مِنَ الْحَمَامِ، فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مَا كَانَ مَعِيَ مِنَ الدَّنَانِيرِ، وَقُلْتُ لَهُ: خُذْ هَذِهِ وَإِذَا وَقَفَ بِكَ غَرِيبٌ لَا تَحْتَقِرْهُ، فَنَظَرَ إِلَيَّ مُتَعَجِّبًا، فَاجْتَمَعَ عَلَى بَابِ الْحَمَامِ خَلْقٌ كَثِيرٌ. فَلَمَّا خَرَجْتُ عَاتَبَنِي النَّاسُ، فَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ بَعْضُ مَنْ كَانَ فِي الْحَمَامِ مِنَ الْأَعْيَانِ، فَقَدِمَتْ لَهُ بَغْلَةٌ لِيَرْكَبَهَا، فَسَمِعَ خِطَابِي لَهُمْ، فَانْحَدَرَ عَنِ الْبَغْلَةِ بَعْدَ أَنْ اسْتَوَى عَلَيْهَا، وَقَالَ لِي: أَنْتَ الشَّافِعِيُّ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ فَمَدَّ الرِّكَابَ مِمَّا يَلِينِي، وَقَالَ: بِحَقِّ اللَّهِ أَرْكَبُ. وَمَضَى بِي الْغُلَامُ مُطَرِّقًا بَيْنَ يَدَيَّ، حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى مَنْزِلِ الْفَتَى، ثُمَّ أَتَى وَقَدْ حَصُلْتُ فِي مَنْزِلِهِ، فَأَظْهَرَ الْبَشَاشَةَ، ثُمَّ دَعَا بِالْغَسَلِ فَغَسَلَ عَلَيْنَا، ثُمَّ حَضَرَتِ الْمَائِدَةُ فَسَمَّيْ، وَحَبَسْتُ يَدِي فَقَالَ: مَالِكُ يَا عَبْدَ اللَّهِ؟ فَقُلْتُ لَهُ: طَعَامُكَ حَرَامٌ عَلَيَّ حَتَّى أَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ: فَقَالَ: أَنَا مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكَ الْكِتَابَ الَّذِي وَضَعْتَهُ بِبَغْدَادٍ. وَأَنْتَ لِي أَسْتَاذٌ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَقُلْتُ الْعِلْمَ بَيْنَ أَهْلِ الْعَقْلِ رَحِمَ مُتَّصِلَةٌ، فَأَكَلْتُ بِفَرْحَةٍ إِذْ لَمْ يَعْرِفْ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا بَيْنِي وَبَيْنَ أَبْنَاءِ جِنْسِي، وَأَقَمْتُ ضَيْفَهُ ثَلَاثًا، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثٍ قَالَ: إِنَّ لِي حَوْلَ حَرَّانَ أَرْبَعَ ضِيَاعٍ مَا بِحَرَّانَ أَحْسَنَ مِنْهَا. أَشْهَدُ اللَّهَ إِنْ اخْتَرْتَ الْمَقَامَ فَإِنَّهَا هَدِيَّةٌ مِنِّي إِلَيْكَ. فَقُلْتُ: فِيمَ تَعِيشُ؟ قَالَ: بِمَا فِي صِنَادِيقِي تِلْكَ - وَأَشَارَ إِلَيْهَا، وَهِيَ أَرْبَعُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ - وَقَالَ: أَتَجَرُّ بِهَا، فَقُلْتُ: لَيْسَ إِلَيَّ هَذَا قَصْدٌ، وَلَا خَرَجْتُ مِنْ بَلَدِي لِغَيْرِ طَلَبِ الْعِلْمِ. فَقَالَ لِي: فَالْمَالُ إِذَا مِنْ شَأْنٍ

المسافر، فقبضت الأربعين ألفاً، وودعته، وخرجت من مدينة حرّان بين يديّ أحمال. ثم تلقاني الرّجال وأصحاب الحديث منهم؛ أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة والأوزاعي، فأجزت كلّ واحد منهم على قدر ما قسم له، حتّى دخلت مدينة الرملة وليس معي إلّا عشرة دنانير، فاشتريت بها راحلة واستويّت على كورها، وقصّدت الحجاز فما زلت من منهل إلى منهل حتّى وصلت إلى مدينة النبي ﷺ بعد سبعة وعشرين يوماً بعد صلاة العصر، فصلّيت العصر، ورأيت كُزيباً من الحديد عليه مِخْدَةٌ من قباطي مضر مكتوب عليها: «لا إله إلّا الله محمد رسول الله ﷺ».

قال الشافعي رضي الله عنه: وحوله أربعمائة دفر أو تزيد، ويئتما أنا كذلك إذ رأيت مالك بن أنس رضي الله عنه قد دخل من باب النبي ﷺ، وقد فاح عطره في المسجد، وحوله أربعمائة أو يزيدون، يحمل ذبوله منهم أربعة. فلما وصل؛ قام إليه من كان قاعداً، وجلس على الكرسي فألقى مسألة في جراح العمدة. فلما سمعت ذلك لم يسعني الصبر، فقمّت قائماً في سور الحلقة، فرأيت إنساناً، فقلت له: قلّ الجواب كذا وكذا، فبادر بالجواب قبل فراغ مالك من السؤال. فأضرب عنه مالك وأقبل على أصحابه فسألهم عن الجواب، فخالفوه، فقال لهم: أخطأتم وأصاب الرّجل. ففرح الجاهل بإصابته فلما ألقى السؤال الثاني، أقبل عليّ الجاهل يطلب مني الجواب، فقلت له: الجواب كذا وكذا. فبادر بالجواب، فلم يلتفت إليه مالك، وأقبل على أصحابه واستخبرهم عن الجواب فخالفوه، فقال لهم: أخطأتم وأصاب الرّجل.

قال الشافعي رضي الله عنه: فلما ألقى السؤال الثالث قلت له: قلّ الجواب كذا وكذا. فبادر بالجواب، فأعرض مالك عنه، وأقبل على أصحابه فخالفوه فقال: أخطأتم وأصاب الرّجل. ثم قال للرّجل: ادخل ليس ذلك موضعك. فدخل الرّجل طاعة منه لمالك، وجلس بين يديه فقال له مالك فإسأله: قرأت الموطأ؟ قال: لا، قال: فتظّرت ابن جريج؟ قال: لا، قال: فلقيت جعفر بن محمد الصادق؟ قال: لا، قال: فهذا العلّم من أين؟ قال: إلى جاني غلام شاب يقول لي قلّ: الجواب كذا وكذا، فكنت أقول. قال: فالتفت مالك، والتفت الناس بأعناقهم لالتفات مالك رضي الله عنه، فقال للجاهل: قم فأمر صاحبك بالدخول إلينا.

قال الشافعي رضي الله عنه: فدخلت فإذا أنا من مالك بالموضع الذي كان الجاهل فيه جالساً بين يديه، فتأملني ساعة، وقال: أنت الشافعي! فقلت: نعم فضمني إلى صدره، ونزل عن كُزيبه. وقال: أتيم هذا الباب الذي نحن فيه حتّى ننصرف إلى المنزل الذي هو لك المنسوب إليّ.

قال الشافعي رضي الله عنه: فالتفت أربعمائة مسألة في جراح العمدة فما أجابني

أحدُ بجواب، واحتجَّت أن آتي بأربعمائة جواب. فقلت: الأول كذا وكذا، والثاني كذا وكذا حتى سَقَطَ القُرص، وصَلَّيْنَا المغرب، فضرب مالك بيده إليّ، فلمَّا وصلتُ المنزل رأيتُ بناءً غير الأول، فبكيت فقال: ممَّ بُكَاءُكَ؟ كأنَّكَ خفتَ يا أبا عبد الله أن قد بعثُ الآخرة بالدُّنيا؟ قلت: هو والله ذلك، قال: طَبَّ نفساً، وقرَّ عيناً. هذه هدايا خُرَاسان وهدايا مصر، والهدايا تَجِيءُ من أَقاصي الدُّنيا. وقد كان النَّبي ﷺ يقبل الهدايا، وَيَزِدُّ الصَّدَقة، وإنَّ لي ثلاثمائة خلعة من رَقِّ خُرَاسان، وقَبَاطِي مصر، وعندي عبيد بمثلها لم تَسْتَكْمِلِ الحُلُم، فَهُم هَدِيَّةٌ مِنِّي إِلَيْكَ، وفي صناديقي تلك خمسة آلاف دينار، أَخْرَجُ زكاتها عند كُلِّ حَوْل، فلك مِنِّي نصفها قلت: إِنَّكَ موروث وأنا موروث فلا يبيِّتُ جميع ما وعدتني به إلا تحت خاتمي ليجري مُلكي عليه فإن حَضَرَنِي أَجَلِي كان لورثتي دون ورثتك، وإن حَضَرَكَ أَجْلُكَ كان لي دون ورثتك، فتبسَّم في وجهي وقال: أبَيِّتُ إِلَّا العِلْم، فقلت: لا يستعمل أحسن منه، وما بَثُّ إلا وجميع ما وعدتني به تحت حَتْمِي. فلمَّا كان في غداةٍ غَدٍ، صَلَّيْتُ الفجر في جماعة، وانصرفْتُ إلى المنزل أنا وهو وكلُّ واحد منا يده في يد صاحبه، إذ رأيتُ كراعاً على بابهِ من جِباد خُرَاسان وبغالاً من مصر، فقلت له: ما رأيتُ كراعاً أحسن من هذا، فقال: هو هَدِيَّةٌ مِنِّي إِلَيْكَ يا أبا عبد الله، فقلت له: دَعُ لكَ منها دَابَّةً، فقال: إِنِّي أَسْتَحِي من الله أن أطا قَرْيَةً فيها نبي الله ﷺ بحافِر دابة.

قال الشافعي رضي الله عنه: فعلمت أن وَرَعَ الإمام مالك باقٍ على حاله، فأَقَمْتُ عنده ثلاثاً، ثم ارتحلت إلى مكة، وأنا أسوق خير الله ونعمه، ثم أَنْقَذْتُ من يُعْلَمُ بخبري، فلمَّا وصلت الحرم خرجت العجوز ونسوة معها فَضَمَّتْنِي إلى صدرها، وَضَمَّتْنِي بعدها عجوز كنت أَلْفها دعوها خالتي، وقالت:

لَيْسَ أُمُّكَ اجْتاحت المَنايَا كُلَّ فِرْوَادِ عَلِيكَ أُمُّ

قال الشافعي رضي الله عنه: وهي أول كلمة سمعتها في الحجاز من امرأة. فلمَّا هَمَمْتُ بالدخول، قالت لي العجوز: إلى أين عَزَمْتَ؟ فقلت: إلى المنزل. فقالت: هيهات، تخرج من مكة بالأمس فقيراً، وتعودُ إليها مُتَرَفِّهاً تُفَخِّرُ على بني عَمِّكَ بذلك! فقلت: ما أَصْنَعُ؟ فقالت: نَادِ بِالْأَبْطَحِ في العرب بِأَشْبَاعِ الجائع وَحَمْلِ الْمُنْقَطِعِ، وكسوة العُراة، فَتَرَبِّحْ ثناء الدنيا وثناء الآخرة. ففعلت ما أُمِرْتُ به، وسار بذلك الفِعلُ الرِّجَالُ على أَباطِ الإبل، وَبَلَغَ ذلك مالِكاً فبعث إليّ يَسْتَحِثُّنِي على الفعل، ويعدُّني أنه يحمل إليّ في كُلِّ عام مثل ما صار إليّ منه، وما دخلتُ إلى مكة وأنا أَقْدِرُ على شيء مما جاء معي إِلَّا على بغلة واحدة وخمسين ديناراً. فوقعت المقرعة، فناولتني إياها أَمَةٌ على كتفها قَرْبَةً. فأخرجت لها خمسة دنانير، فقالت لي العجوز: ما أَنْتَ صانع؟

فقلت: أجزئها على فعلها. فقالت: اذفع إليها جميع ما تأخر معك. قال: فدفعته إليها، ودخلت إلى مكة فما بثت تلك الليلة إلا مديوناً. وأقام مالك رضي الله عنه يحمل إليّ في كل عام مثل ما كان دفع إليّ أولاً إحدى عشرة سنة. فلما مات ضاق بي الحجاز، وخرجت إلى مصر، فعوضني الله عبد الله بن عبد الحكم فقام بالكلفة. فهذا جميع ما لقيته في سفري فافهم ذلك يا ربيع.

قال الربيع: وسألني المُنزني إملأ ذلك بحضرته، فما وجدنا للمجلس فرغة فما وقع كتاب السفر إلى أحد غيري.



من أخبار أبي طالب

ومن لطائف المنقول ما نقله القرطبي في كتابه المسمى بالإعلام عن صدق محبة أبي طالب لسيدنا رسول الله ﷺ، قال: كان رسول الله ﷺ قد خرج إلى الكعبة يوماً، وأراد أن يصلي. فلما دخل في الصلاة، قال أبو جهل - لعنه الله: من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته؟ فقام عبد الله بن الزبغري، وأخذ قرئاً ودماً، فلطخ به وجه النبي ﷺ. فانتقل النبي ﷺ من صلاته، وأتى إلى أبي طالب عمه، وقال: يا عم، ألا ترى ما فعل بي؟ فقال له أبو طالب: من فعل بك هذا؟ فقال النبي ﷺ: عبد الله بن الزبغري؛ فقام أبو طالب، فوضع سيفه على عاتقه، ومشى حتى أتى القوم، فلما رآوه قد أقبل نهضوا له، فقال أبو طالب: والله إن قام رجل جللته بسيفي هذا، ثم قال: يا بني، من الفاعل بك هذا؟ فقال: عبد الله بن الزبغري، فأخذ أبو طالب قرئاً ودماً فلطخ وجوههم ولحاهم، وثيابهم، وأساء لهم القول. فنزلت هذه الآية الشريفة: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] فقال النبي ﷺ: يا عم نزلت فيك آية، قال: وما هي؟ قال: تمنع قریشاً أن يؤذوني، وتأبى أن تؤمن بي! فقال أبو طالب:

| | |
|----------------------------|--|
| والله لن يصلوا إليك بجمعهم | حتى أوسد في الثراب ذفيناً ^(١) |
| فاصدع بأمرك قد زعمتك ناصحي | فلقد صدقت وكنت قبل أميناً |
| وعرضت ديناً قد عرفت بأنه | من خير أديان البرية ديناً |
| لولا الملامة أو حذار مسبة | لوجدتني سمحاً بذلك يقيناً |

وقيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل تنفع نضرة أبي طالب؟ قال: نعم. رُفِعَ عنه بذلك الفعل أنه لم يُقرن مع الشياطين، ولم يدخل جب الحيات والعقارب، إنما عذابه في نعلين من نار في رجليه يغلي منهما دماغه، وهو أهون أهل النار عذاباً.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طالب: قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة، فقال أبو طالب: لولا أن يُعَايِرُونِي بها لأَقَرَرْتُ بها عينك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وأما عبد الله بن الزبغري فإنه أسلم عام الفتح، وحسن إسلامه، واعتذر إلى النبي ﷺ، فقبل عذره. وكان شاعراً مجيداً فقال يمدح النبي ﷺ في أبيات منها في حكاية حاله:

إني لمُعْتَذِرٌ إليك من الذي أسديتُ إذ أنا في الضلال مُقيماً
فاغفرْ فدي لك والداي كلاهما وازحمْ فإنك راحمٌ مَرُحُومٌ



تَبَعُ الْأَوَّلِ

ومن غريب ما نقله القرطبي في الإعلام أن الأنصار الذين نصرُوا النبي ﷺ كانوا من أولاد العلماء والحكماء الذين كانوا مع تَبَعِ الْأَوَّلِ - فيما ذكر ابن إسحاق - وكان تَبَعُ من الخمسة الذين كانت لهم الدنيا بأسرها، وكان كثير الوزراء، فاختر منهم واحداً، وأخرجهُ معه لِيَنْظُرَ في مُلكه، فكان إذا أتى بلدة يختار من حكمائها عشرة رجال، وكان معه من العلماء والحكماء مائة ألف رجل، ثم الذين اختارهم من البلدان، وهذا القدر غير محسوب من الجيش. فلما انتهى إلى مكة لم يخضع له أهل مكة كخضوع أهل البلاد، ولم تُعَظَّمْه، فغضب لذلك، ودعا وزيره - وكان اسمه عماريا، فقال له: كيف شاهدت أهل هذه البلدة فإنهم لم يهابوني، ولم يخشوا عسكري؟ فقال: إنهم عرب لا يعرفون شيئاً، ولهم بيت يقال له الكعبة، وهم معجبون به، ويسجدون فيه للأصنام. قال: فنزل الملك بعسكره ببطحاء مكة، وعزم على هدم البيت، وقتل الرجال، وسبي النساء، فأخذه الله بالصداع، وتَفَجَّرَ من عينيه وأذنيه ومنخره وفمه ماء مثنين، فلم يَصْبِرْ عنده أحدٌ طَرْفَةَ عَيْنٍ من ثَنِّ الرِّيحِ، فاستيقظ لذلك، وقال لوزيره: اجمع العلماء والحكماء والأطباء، وتكلَّمْ معهم في أمري، فاجتمع عنده العلماء والحكماء والأطباء فلم يَقْدِرُوا على الجلوس عنده ساعة، وعجزوا عن مداواته، وقالوا: نحن نقدر على مداواة ما يعرض من أمور الأرض، وهذا شيء من السماء لا نستطيع له رداً. ثم اشتد أمره، ونفرت الناس عنه، ولم يزل أمره في شدة حتى أقبل الليل، فجاء أحد العلماء إلى وزيره، فقال له: إن بني وبينك سراً، وهو: إن كان الملك يصدقني في حديثه عالجته. فاستبشر الوزير بذلك، وقال له: قل ما شئت. فقال: أريد الخلوة، فأخلى له المكان، فلما خلا مجلس الملك قال

له العالم: أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَنْتَ نَوَيْتَ لِهَذَا الْبَيْتِ سُوءًا؟ قَالَ: نَعَمْ، نَوَيْتُ خَرَابَهُ وَقَتْلَ رَجَالِهِ وَسُبِّي نِسَائِهِ. فَقَالَ لَهُ الْعَالَمُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، هَذِهِ النِّيَّةُ الَّتِي أَخَذْتُ لَكَ هَذَا الدَّاءَ، وَرَبُّ هَذَا الْبَيْتِ قَادِرٌ يَعْلَمُ الْأَسْرَارَ، فَبَادِرْ وَأَخْرِجْ مِنْ قَلْبِكَ مَا هَمَمْتَ بِهِ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْبَيْتِ وَأَهْلِهِ، وَلَكَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالَ الْمَلِكُ: قَدْ أَخْرَجْتُ ذَلِكَ مِنْ قَلْبِي، وَنَوَيْتُ لِهَذَا الْبَيْتِ الْمُبَارَكِ وَلَأَهْلِهِ كُلَّ خَيْرٍ فَلَمْ يَخْرُجِ الْعَالَمُ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى بَرَأَ مِنْ عِلَّتِهِ، وَعَافَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقُدْرَتِهِ، فَأَمِنَ بِاللَّهِ مِنْ سَاعَتِهِ، وَخَلَعَ عَلَى الْكَعْبَةِ سَبْعَةَ أَثْوَابٍ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَسَا الْكَعْبَةَ، وَخَرَجَ إِلَى يَثْرِبَ وَهِيَ يَوْمُئِذٍ بُقْعَةٌ فِيهَا عَيْنُ مَاءٍ لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ، فَنَزَلَ عَلَى رَأْسِ الْعَيْنِ هُوَ وَعَسْكَرُهُ وَجَمِيعُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، وَمَعَهُمْ رُئِيسُهُمْ عَمَارِيَا الَّذِي يَرَى الْمَلِكَ بِرَأْيِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَالْحُكَمَاءَ أَخْرَجُوا مِنْ بَيْنِهِمْ أَرْبَعَمِائَةَ وَهُمْ أَعْلَمَهُمْ، وَبَايَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ صَاحِبَهُ إِلَّا يَخْرُجُوا مِنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ وَإِنْ قَتَلَهُمُ الْمَلِكُ. فَلَمَّا عَلِمَ الْمَلِكُ بِمَا عَزَمُوا عَلَيْهِ، قَالَ لِلْوَزِيرِ: مَا شَأْنُهُمْ يَمْتَنِعُونَ عَنِ الْخُرُوجِ مَعِيَ، وَأَنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ؟ وَأَيُّ حِكْمَةٍ اقْتَضَتْ نَزُولَهُمْ فِي هَذَا الْمَكَانِ، وَاخْتِيَارَهُمْ إِيَّاهُ عَلَى سَائِرِ النَّوَاحِي؟ فَسَأَلَهُمُ الْوَزِيرُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: أَيُّهَا الْوَزِيرُ إِنَّ ذَلِكَ الْبَيْتَ وَهَذِهِ الْبُقْعَةُ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا يَشْرُفَانِ بِرَجُلٍ يُبْعَثُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَقَالُ لَهُ مُحَمَّدٌ، وَوَصَفُوهُ لَهُ. ثُمَّ قَالُوا: طُوبَى لِمَنْ أَدْرَكَهُ وَآمَنَ بِهِ، وَنَحْنُ عَلَى رَجَاءٍ أَنْ نُدْرِكَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ أَوْلَادُنَا. فَلَمَّا سَمِعَ الْوَزِيرُ مَقَالَتَهُمْ هَمَّ بِالْمَقَامِ مَعَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ الرَّحِيلِ أَمَرَهُمُ الْمَلِكُ أَنْ يَرْتَحِلُوا، فَقَالُوا: لَا نَفْعَ لَنَا، وَقَدْ أَعْلَمْنَا الْوَزِيرَ بِحِكْمَةِ مَقَامِنَا، فَدَعَا بِالْوَزِيرِ فَأَخْبَرَهُ بِمَا سَمِعَ مِنْهُمْ. فَتَفَكَّرَ الْمَلِكُ، وَهَمَّ أَنْ يُقِيمَ مَعَهُمْ، رَجَاءً أَنْ يَدْرِكَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَأَقَامَ وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَبْنُوا أَرْبَعَمِائَةَ دَارَ عَلَى عِدَّةِ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ، وَاشْتَرَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَارِيَةً وَأَغْتَقَهَا وَزَوَّجَهَا بِرَجُلٍ مِنْهُمْ، وَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَطَاءً جَزِيلًا، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُقِيمُوا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ إِلَى أَنْ يَجِيءَ زَمَانُ النَّبِيِّ ﷺ.

ثُمَّ كَتَبَ الْكِتَابَ، وَخَتَمَهُ بِخَاتَمٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَدَفَعَهُ إِلَى عَالِمِهِمُ الْكَبِيرِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَ الْكِتَابَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ إِنْ أَدْرَكَهُ، وَإِلَّا فَيُوصِي بِهِ أَوْلَادَهُ مِثْلَ مَا أَوْصَاهُ بِهِ، وَكَذَلِكَ الْأَوْلَادُ حَتَّى يَتَّصِلَ بِالنَّبِيِّ ﷺ. وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ:

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، وَأَنَا عَلَى دِينِكَ وَسُنَّتِكَ، وَآمَنْتُ بِرَبِّكَ وَبِكُلِّ مَا جَاءَ مِنْ رَبِّكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَدْرَكْتُكَ فِيهَا وَنِعِمْتُ، وَإِلَّا فَاشْفَعْ لِي وَلَا تُنْسِنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنِّي مِنْ أُمَّتِكَ الْأَوَّلِينَ، وَقَدْ بَايَعْتُكَ قَبْلَ مَجِيئِكَ، وَأَنَا عَلَى مِلَّتِكَ وَمِلَّةِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ خَتَمَ الْكِتَابَ وَنَفَسَ عَلَيْهِ: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]. وَكَتَبَ عَنَوَانَهُ: إِلَى مُحَمَّدَ بْنِ

عبد الله ونبي الله ورسوله وخاتم النبيين، ورسول رب العالمين ﷺ؛ من تبع الأول الجُمَيْرِي. ودفع الكتاب إلى الرجل العالم الذي أبرأه من عِلته، وسار تبع من يثرب، حتى وصل إلى بلاد الهند فمات بها. وكان من اليوم الذي مات فيه تبع إلى اليوم الذي بُعث فيه النبي ﷺ ألف سنة لا تزيد ولا تنقص. وكانت الأنصار الذين نصرُوا النبي ﷺ من أولاد أولئك العلماء والحكماء.

فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة سألَه أهلُ القبائل أن ينزل عليهم، فكانوا يتعلّقون بناقته وهو يقول: خَلُوا الثَّاقَةَ فإنها مأمورة، حتى جاءت إلى دار أبي أيوب، وكان من أولاد العالم الذي أبرأ تبعاً برأيه، ثم استشار الأنصار عبد الرحمن بن عوف في إيصال الكتاب إلى النبي ﷺ لَمَّا ظهر خبره قبل هجرته، فأشار عبد الرحمن أن يدفعوه إلى رجل ثقة، فاختاروا رجلاً يقال له «أبو لَيْلى»، وكان من الأنصار، فدفعوا الكتاب إليه، وأوصوه بحفظه. فأخذ الكتاب، وخرج من المدينة على طريق مكة، فوجد النبي ﷺ في قَبيلة بني سُلَيْم، فعرفه رسول الله ﷺ، فدعاه، وقال: أنت أبو لَيْلى؟ قال نعم، قال: ومعك كتاب تبع الأول؟ قال: نعم، فَبَقِيَ أبو لَيْلى متفكراً، وقال في نفسه: إنَّ هذا من العجائب. ثم قال أبو لَيْلى: مَنْ أنت؟ فَإِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُكَ؟ وتوهم أنه ساحر، وقال: في وجهك أثر السحر، فقال له: بَلْ أنا مُحمد رسول الله، هاتِ الكتاب فأخْرَجَهُ ودَفَعَهُ إلى رسول الله ﷺ، فأخذه النبي ﷺ، ودفعه إلى عليٍّ كَرَّمَ الله وجهه، فقرأه عليه. فلَمَّا سمع النبي ﷺ كلام تبع، قال: مَرْحَباً بالأخ الصَّالح ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثم أمر أبا لَيْلى بالرجوع إلى المدينة لِيُبَشِّرَهُمْ بقدومه عليهم.

قال أبو عبد الله محمد القُرْطُبِيُّ نَوَّرَ الله ضريحه: ما ذكرتُ هذا الخبر وإن كان فيه طُول إلا لما احتوى عليه من فَضْل مَكَّة والمدينة والتَّصديق بنبوة النبي ﷺ قَبْلَ إيجاده بألف عام.



أَوَّلُ مِنْ جَحَدِ الدِّينِ

ومن لطائف ما نقلته من كتاب الإعلام للقرطبي، ما أورده من مُسند أبي داود عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ...﴾ [البقرة: ٢٨٢] إلى آخر الآية: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ الدِّينَ آدم عليه السلام؛ لأنَّه لَمَّا أَرَاهُ الله تعالى ذرَّيته رأى فيهم رجلاً، أزهَر ساطعَ النُّورِ، فقال: يا رَبِّ؟ مَنْ هذا؟ قال: ابنك داود. قال: يا رَبِّ فما عُمُرُهُ؟ قال: سِتُّونَ سَنَةً، قال: يا رَبِّ، زِدْ في عمره، قال: لا، إِلَّا أَنْ تَزِيدَهُ مِنْ عُمُرِكَ، قال: وما عُمُرِي؟ قال: أَلْفُ سَنَةٍ، قال آدم: فقد وهبته أربعين سنة. قال: فكتب الله عليه

كتاباً، وأشهد عليه ملائكتَه. فلَمَّا حَضَرَتْهُ الوفاة قال: بقي من عُمرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً. فقيل له: قد وهبَتْها لابنك داود. قال: ما وهبت لأحد شيئاً؛ فأَخْرَجَ اللَّهُ ذَلِكَ الْكِتَابَ، وفيه شهادة الملائكة.

وفي رواية، إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جلاله أتمَّ لداود مائة سنة، ولآدم ألف سنة. أخرجه التِّرْمِذِيُّ بِمَعْنَاهُ، وَصَحَّحَهُ، وفيه، فقال عليه السلام: «نسي آدمُ فَنَسِيتُ ذُرِّيَّتَهُ، وَجَدَّ آدمُ فَجَحَدْتُ ذُرِّيَّتَهُ». واللَّهُ أعلم.



جائزة المديح

ومن لطائف الغرائب المنقولة من كتاب الإعلام للقرطبي أَنَّ العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه مَدَحَ النَّبِيَّ ﷺ بأبيات على قافيةٍ بديعة أعجبت النَّبِيَّ ﷺ، منها قوله:

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقْتَ الْأَرْضَ وَضَاءَتْ بِثُورِكَ الْأَفُقُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضُّيَاءِ وَفِي الثُّورِ رَوْسُ بِلِ الرِّشَادِ نَخْتَرِقُ
فقال: يا عمّ، لكلُّ شاعر جائزة، وجائزتك أَنَّ الْخِلَافَةَ فِي عَقَبِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.



من غريب التفسير

ومن غريب التفسير ما نقلته من الإعلام أَنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] أقوالاً ذُكِرَتْ فِي أَحْكَامِ مَخَارِجِ الْقُرْآنِ، أَحْسَنُهَا مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ إِذَا وَجَدَتْ شَجَرَةً مُتَفَرِّدَةً فِي فَلَائِ الْأَرْضِ لَا شَجَرَ مَعَهَا، سَمَّوْهَا ضَالَّةً، فَتَهْتَدِي بِهَا عَلَى الطَّرِيقِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أَيَّ وَجَدْتُكَ لَا أَحَدَ عَلَى دِينِكَ فَهَدَيْتُ بِكَ الْخَلْقَ إِلَيَّ.



وصية أبي طالب عند وفاته

قلت: قد تقدّم الكلام في سعادة العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وما نال بالإسلام من العزّ. وقول النبي ﷺ: «إِنَّ الْخِلَافَةَ فِي عَقَبِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وتقدّم ذكر شِفْوَةِ عمه أبي طالب بالشُّركِ مع حمايته ورعايته لجانب النبي ﷺ، وهو الذي تقدّم قوله مشيراً إلى قريش في خطابه إلى النبي ﷺ:

وَاللَّهُ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتَّى أَوْسَدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا

قال السَّهْلِيُّ نَوَّرَ اللَّهُ ضَرِيحَهُ فِي الرُّوضِ الْأَنْفِ: هذا من باب النظر في حكمة الله. ونقل في الروض الأنف أيضاً عن هشام بن السائب أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، جمع وجوه قريش، وقال لهم: إنكم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، وفيكم السيد المطاع، وفيكم المتقدّم الشجاع، والواسع الباع، لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلکم على الناس بذلك الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب، وعلى حربكم إلب، وإني أوصيكم بتعظيم هذه البنية، فإن فيها مَرَضَةً لِلرَّبِّ، وقواماً للمعاش، وثباتاً للوطاة. صلوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن في صلة الرَّحِمِ مَنْسَأَةً فِي الْأَجْلِ، وزيادة في العدد، واتركوا البغي والعقوق، ففيهما هلكت القرون قبلکم، وأجيبوا الدّاعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة والممات، وعليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيهما محبة في الخاص، ومكرمة في العام. وأنا أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو جامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاء - قَبْلَهُ الْجَنَانُ، وأنكره اللسان مخافة الشنآن. وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل البر في الأطراف، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظّموا أمره، فخاض بهم غمرات، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أخوَجُهُمْ إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد مَحَضَّتْهُ الْعَرَبُ ودادها، وأضفت له فؤادها، وأعطته قيادها. دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم، كونوا له ولاة، ولجزيه حُماة، ووالله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحدٌ بِهِدْيِهِ إلا سُعد، ولو كان لنفسي مدة، ولأجلي تأخير لكفيت عنه الهزاهز ولدافعت عنه الدّواهي. ثم هلك^(١).



حنان أبي بكر

ومن شهية المجتني من ثمرات الأوراق ما رُوي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه مرَّ على طائفة بالمدينة أيام خلافته، فإذا بجارية تبكي وتقول:

وَهَوَيْتُهُ مِنْ قَبْلِ قَطْعِ تَمَائِمِي مُتَنَاشِئاً مِثْلَ الْقَضِيبِ النَّاعِمِ
فَكَأَنَّ نَوْرَ الْبَدْرِ سَيِّئَةً وَجْهِهِ يَمْشِي وَيَضَعِدُ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمِ

ففرع الباب فخرجت إليه، فقال لها: أحرّة أنت أم أمة؟ فقالت: بل أمة يا صاحب رسول الله، فقال: مَنْ هويت؟ فبكت وقالت: بحق صاحب هذا القبر إلا

انصرفت عني! فقال: لست بمنصرف من مكاني حتى تعلميني، وتقولي، فقالت:
وأنا الذي عمل الفراق بقلبها فبكث بحب محمد بن القاسم
فصار أبو بكر رضي الله عنه إلى المسجد، وبعث إلى مولاها، فاشتراها منه،
وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب، غفي عنه.



عمر بن الخطاب في بيت المقدس

ومن مناقب الإمام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في فتح بيت
المقدس، أنَّ المسلمين تكامل لهم فتوح الشام، فأقاموا على دمشق شهراً، فجمع أبو
عبدة أمراء المسلمين واستشارهم في السير إلى قيسارية أو إلى بيت المقدس، فقال له
معاذ بن جبل: أيها الأمير، أكتب إلى أمير المؤمنين عمر، فحيث أمرك امتثل، قال
له: أصبت للرأي يا معاذ. ثم كتب إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه بذلك، وأرسل
الكتاب مع عزة بن ناصح النخعي، فسار حتى وصل المدينة، فسلم الكتاب إلى
عمر رضي الله عنه فقرأه على المسلمين واستشارهم، فقال علي رضي الله عنه: يا
أمير المؤمنين، مژ صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس، فإذا فتح الله
بيت المقدس صرف وجهه إلى قيسارية، فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى، كذا
أخبرنا رسول الله ﷺ. قال عمر: صدق المظنفي ﷺ وصدقت أنت يا أبا الحسن.
ثم دعا بدواة وياض، وكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر إلى عامله بالشام أبي عبيدة أما
بعد، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه، قد وصلني كتابك
تستشيرني إلى أي ناحية تتوجه، وقد أشار ابن عم رسول الله ﷺ بالمسير إلى بيت
المقدس، فإن الله يفتحها على يدك والسلام.

فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة قرأه على المسلمين ففرحوا بالمسير إلى بيت
المقدس، وتقدمه الجيش إلى بيت المقدس وأقام المسلمون في القتال عشرة أيام،
وأهل بيت المقدس يظهرون الفرح لعدم الخوف، فلما كان في اليوم الحادي عشر
أشرفت عليهم راية أبي عبيدة، وخالد عن يمينه وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق
عن يساره، فضج الناس ضجة عظيمة بالتهليل والتكبير، فوقع الرعب في أهل بيت
المقدس، فاجتمعوا بقمامة هي البيعة المعظمة عندهم، فلما وقفوا بين يدي البطرك،
قال لهم: ما هذه الضجة التي أسمع؟ قالوا: يا أبانا قد قدم أمير القوم ببيعة المسلمين.
فلما سمع البطرك منهم ذلك، انخطف لونه، وتغير وجهه، وقال: إنا وجدنا في علمنا
الذي ورثناه أنَّ الذي يفتح الأرض هو الرجل الأحمر صاحب نبيهم محمد؛ فإن كان

قَدِمَ عَلَيْكُمْ فَلَا سَبِيلَ إِلَى قِتَالِهِ، وَلَا بُدَّ أَنْ أُشْرِفَ عَلَيْهِ، وَأَنْظُرَ إِلَى صِفَتِهِ؛ فَإِنْ كَانَ هُوَ أَجَبْتُهُ إِلَى مَا يُرِيدُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرِهِ فَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ. ثُمَّ وَتَبَ قَائِمًا وَالْقَسُوسَ وَالرُّهْبَانُ وَالسَّمَّاسَةَ مِنْ حَوْلِهِ، وَقَدْ رَفَعُوا الصُّلْبَانَ عَلَى رَأْسِهِ، فَصَعَدُوا إِلَى الصُّورِ إِلَى أَنْ وَرَدَ أَبُو عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَنَادَاهُمْ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ بِإِذْنِ الْبَطْرِكِ: يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ؛ كُفُّوا عَنِ الْقِتَالِ حَتَّى نَسْأَلَكُمْ. فَأَمْسَكَ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ، فَنَادَاهُمُ الرَّجُلُ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ: ااعلموا أن الرجل الذي يَفْتَحُ بِلَدَتَنَا هَذِهِ، وَجَمِيعَ الْأَرْضِ، عِنْدَنَا صِفَتُهُ فَإِنْ كَانَتْ فِي أَمِيرِكُمْ لَمْ نَقَاتِلْكُمْ بَلْ نُسَلِّمُ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ صِفَتُهُ فَلَا نُسَلِّمُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا.

فَاعْلَمَ الْمُسْلِمُونَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِذَلِكَ، فَخَرَجَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَيْهِمْ إِلَى أَنْ حَاذَاهُمْ فَنَظَرَ الْبَطْرِكُ، وَحَقَّقَ صُورَتَهُ، فَقَالَ: لَيْسَ هُوَ الرَّجُلُ، فَأَبْشُرُوا وَقَاتِلُوا عَنْ دِينِكُمْ. وَحَرَمَكُمْ. وَكَانَ تُزُولُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ وَالْبَرْدِ، فَأَقَامُوا عَلَيْهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فِي أَشَدِّ قِتَالٍ مَعَ الصَّبْرِ عَلَى الْمَطَرِ وَالثَّلْجِ، فَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ بَيْتِ الْمَقْدَسِ إِلَى شِدَّةِ الْحِصَارِ فِي ذَلِكَ الْفَصْلِ الصَّغْبِ، وَمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيِ الْبَطْرِكِ، وَقَالُوا لَهُ: قَدْ عَظُمَ الْأَمْرُ، وَنُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تُشْرِفَ عَلَى الْقَوْمِ، وَتَسْأَلَ: مَا الَّذِي يُرِيدُونَ؟ فَإِنْ كَانَ أَمْرًا صَعْبًا فَتَفْتَحْنَا الْأَبْوَابَ وَخَرَجْنَا إِلَيْهِمْ؛ فَإِمَّا نَقْتُلْ عَنْ آخَرِنَا أَوْ نَهْزِمَهُمْ عَنَّا؛ فَأَجَابَهُمُ الْبَطْرِكُ إِلَى ذَلِكَ، وَصَعِدَ الصُّورَ، وَاجْتَمَعَ الْقِسْيُسُونَ وَالرُّهْبَانُ حَوْلَهُ، وَنَادَى مِنْهُمْ رَجُلٌ وَقَالَ: يَا مَعَاشِرَ الْفَرَسَانِ، عُثِدَّةُ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ قَدْ أَقْبَلَ يَخَاطِبُكُمْ فَلْيَذُنْ مِنَّا أَمِيرَكُمْ.

فَقَامَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَمْشِي، وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَرْجُمَانٍ؛ فَلَمَّا وَقَفَ بِأَرَاثِهِمْ قَالَ: مَا الَّذِي تُرِيدُونَ؟ هَذَا أَمِيرُ الْعَرَبِ؛ فَقَالَ الْبَطْرِكُ: إِنَّكُمْ لَوْ أَقَمْتُمْ عَلَيْنَا عَشْرِينَ سَنَةً لَنْ تَصِلُوا إِلَى فَتْحِ بِلَدَتِنَا أَبَدًا، وَإِنَّمَا يَفْتَحُهَا رَجُلٌ مَوْصُوفٌ وَلَيْسَتْ الصِّفَةُ مَعَكُمْ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَمَا صِفَةٌ مِنْ يَفْتَحُ بِلَدَكُمْ؟ قَالَ الْبَطْرِكُ: لَا نُخْبِرُكُمْ بِصِفَتِهِ، وَلَكِنْ قَرَأْنَا أَنَّ هَذَا الْبَلَدَ يَفْتَحُهُ صَاحِبٌ لِمُحَمَّدٍ اسْمُهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَيُعْرَفُ بِالْفَارُوقِ، وَهُوَ رَجُلٌ شَدِيدٌ لَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَلَسْنَا نَرَى صِفَتَهُ فِيكُمْ.

فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو عُبَيْدَةَ كَلَامَ الْبَطْرِكِ تَبَسَّمَ وَقَالَ: فَتَفْتَحْنَا الْبَلَدَ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ! ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْبَطْرِكِ وَقَالَ: إِنْ رَأَيْتَ الرَّجُلَ تَعْرِفُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَكَيْفَ لَا أَعْرِفُهُ وَصِفَتُهُ عِنْدَنَا؟ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هُوَ وَاللَّهِ خَلِيفَتُنَا، وَصَاحِبُ نَبِينِنَا ﷺ. قَالَ الْبَطْرِكُ: فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرْتُمْ، فَاحْقِنِ الدَّمَاءَ، وَابْعَثْ إِلَى صَاحِبِكَ يَأْتِي فَإِذَا رَأَيْنَاهُ وَتَبَيَّنَا نَعْتَهُ، فَتَفْتَحْنَا لَهُ الْبَلَدَ، وَأَعْطَيْنَاهُ الْجِزْيَةَ.

فَانْصَرَفَ أَبُو عُبَيْدَةَ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْكَفِّ عَنِ الْقِتَالِ، وَأَعْلَمَهُمُ بِالْخَبَرِ، فَكَبَّرُوا.

وكتب أبو عُبَيْدَةَ إلى الإمام عمر رضي الله عنه يُعَلِّمُهُ بالخبر، على يَدِ مَيْسَرَةَ بْنِ مَسْرُوقٍ، فَلَمَّا وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه فَرِحَ، وَقَرَأَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَقَالَ: مَا تَرَوْنَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ فِيمَا كَتَبَ إِلَيْنَا أَمِينَ الْأُمَّةِ؟ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذَلَّ الرُّومَ، فَإِنَّ أَنْتَ أَقَمْتَ، وَلَمْ تَسِرْ إِلَيْهِمْ، عَلِّمُوا أَنْتَ بِأَمْرِهِمْ مُسْتَحِفٌّ، فَلَا يَلْبَثُونَ إِلَّا يَسِيرًا. فَلَمَّا سَمِعَ عُمَرُ ذَلِكَ مِنْ عُثْمَانَ جَزَاهُ خَيْرًا، وَقَالَ: هَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ رَأْيٌ غَيْرُ هَذَا؟ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: نَعَمْ عِنْدِي غَيْرُ هَذَا الرَّأْيِ، وَأَنَا أُبَيِّدُهُ إِلَيْكَ رَحِمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: وَمَا هُوَ يَا أَبَا الْحَسَنِ؟ قَالَ: إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ سَأَلُوكَ، وَفِي سُؤَالِهِمْ ذُلٌّ، وَهُوَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَتَحَ، وَقَدْ أَصَابَهُمْ جَهْدٌ عَظِيمٌ؛ الْبَرْدُ، وَالْقِتَالُ، وَطُولُ الْمَقَامِ، وَإِنْ سِرْتَ إِلَيْهِمْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْكَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ، وَكَانَ لَكَ فِي مَسِيرِكَ الْأَجْرُ الْعَظِيمُ، وَلَسْتُ أَمَنَّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَيْسَوا مِنْكَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَدَدُ مِنْ طَاعِيَتِهِمْ، فَيَحْضُلُ لِلْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ الضَّرُّ، وَالصَّوَابُ أَنْ تَسِيرَ إِلَيْهِمْ.

فَفَرِحَ عُمَرُ بِمَشُورَةِ عَلِيٍّ، وَقَالَ: لَقَدْ أَحْسَنَ عُثْمَانُ النَّظَرَ فِي الْمَكِيدَةِ لِلْعَدُوِّ، وَعَلِيٌّ أَحْسَنَ النَّظَرَ لِلْمُسْلِمِينَ، جَزَاهُمَا اللَّهُ خَيْرًا، وَلَسْتُ أَخْذُ إِلَّا بِمَشُورَةِ عَلِيٍّ؛ فَمَا عَرَفْنَاهُ إِلَّا مَخْمُودَ الْمَشُورَةِ، مَيْمُونُ الطَّلَعَةِ.

ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَأْخُذُوا الْأَهْبَةَ لِلْمَسِيرِ مَعَهُ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَخَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَهُوَ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ أَحْمَرٌ، عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ فِي إِحْدَاهُمَا سَوِيْقٌ، وَفِي الْأُخْرَى تَمْرٌ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ قُرْبِيَّةٌ، وَخَلْفَهُ جَفَّةٌ^(١) لِلزَّادِ، وَسَارَ إِلَى أَنْ أَقْبَلَ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَالْتَقَاهُ أَبُو عُبَيْدَةَ، فَلَمَّا رَأَاهُ، أَنَاخَ قَلْوَصَهُ^(٢)، وَأَنَاخَ عُمَرُ بَعِيرَهُ وَتَرَجَّلَا، وَمَدَّ أَبُو عُبَيْدَةَ يَدَهُ وَصَافَحَ عُمَرَ وَتَعَانَقَا، وَسَلَّمَ كُلُّهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، وَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ يُسَلِّمُونَ عَلَى عُمَرَ ثُمَّ رَكِبُوا جَمِيعًا إِلَى أَنْ نَزَلُوا، فَصَلَّى عُمَرُ بِالْمُسْلِمِينَ صَلَاةَ الْفَجْرِ، ثُمَّ خَطَبَهُمْ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ خُطْبَتِهِ جَلَسَ وَأَبُو عُبَيْدَةَ يُحَدِّثُهُ بِمَا لَقِيَ مِنَ الرُّومِ إِلَى أَنْ حَضَرَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ.

وَأَذَّنَ بِلَالٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَلَمَّا قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، خَشَعَتْ جَوَارِحُهُمْ، وَافْشَعَرَتْ أَبْدَانُهُمْ، فَلَمَّا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، بَكَى النَّاسُ بُكَاءً شَدِيدًا عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ وَذِكْرِ رَسُولِهِ، وَكَادَ بِلَالٌ أَنْ يَقْطَعَ الْأَذَانَ. فَلَمَّ فَرَغَ الْأَذَانَ صَلَّى عُمَرُ وَجَلَسَ، ثُمَّ أَمَرَهُم بِالرُّكُوبِ فَلَمَّا هَمَّ بِالرُّكُوبِ عَلَى بَعِيرِهِ، وَعَلَيْهِ مَرْقَعَةُ الصَّوْفِ وَفِيهَا أَرْبَعُ عَشْرَةَ رُقْعَةً بَعْضُهَا مِنْ آدَمَ،

(١) الجففة: القصعة.

(٢) القلوص من الإبل: الشابة من إناثها.

قال المسلمون: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ رَكِبْتَ غَيْرَ بَعِيرِكَ جَوَادًا، وَلَبَسْتَ ثِيَابًا، لَكَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لَهَيْبَتِكَ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِكَ؛ وَأَقْبَلُوا يَسْأَلُونَهُ، وَيَطُوفُونَ بِهِ إِلَى أَنْ أَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَنَزَعَ مِرْقَعَتَهُ، وَلَبَسَ ثِيَابًا بَيْضًا - قَالَ الزبير: أَحْسَبُهَا كَانَتْ مِنْ ثِيَابِ مِصْرَ، تُسَاوِي خُمْسَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا - وَطَرَحَ عَلَى كَتِفِهِ مِنْدِيلًا مِنْ الْكَتَّانِ دَفَعَهُ إِلَيْهِ أَبُو عُبَيْدَةَ، وَقَدَّمَ لَهُ بِرَذُونًا أَشْهَبَ مِنْ بَرَاذِينَ الرُّومِ. فَلَمَّا صَارَ عُمَرُ فَوْقَهُ، جَعَلَ الْبِرَذُونُ يَهْمَلُجُ بِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ عُمَرُ إِلَى ذَلِكَ، نَزَلَ مُسْرِعًا، وَقَالَ: أَقِيلُونِي عَثَرَتِي أَقَالَكُمْ اللَّهُ عَثَرَاتِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَقَدْ كَادَ أَمِيرُكُمْ يَهْلِكُ مِمَّا دَاخَلَهُ مِنَ الْكِبَرِ.

ثُمَّ إِنَّهُ نَزَعَ الْبَيَاضَ، وَعَادَ إِلَى لُبْسِ مِرْقَعَتِهِ وَرُكُوبِ بَعِيرِهِ، فَعَلَتْ ضَجَّةٌ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ، فَقَالَ الْبَطْرُكُ لِلرُّومِ:

انْظُرُوا مَا شَأْنُ الْعَرَبِ، فَأَشْرَفَ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَنَصِّرَةِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، مَا قَضَيْتُكُمْ؟ فَقَالُوا: إِنَّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَدْ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ مَدِينَةِ نَبِيِّنَا ﷺ، فَرَجَعَ الْمُتَنَصِّرُ وَأَعْلَمَ الْبَطْرُكَ، فَأَطْرَقَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ صَلَّى عُمَرُ بِالْمُسْلِمِينَ صَلَاةَ الْفَجْرِ، ثُمَّ قَالَ لِأَبِي عُبَيْدَةَ: تَقَدَّمْ إِلَى الْقَوْمِ، وَأَعْلِمْهُمْ أَنِّي قَدْ أَتَيْتُ. فَخَرَجَ أَبُو عُبَيْدَةَ. وَصَاحَ بِهِمْ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَدْ أَتَى، فَمَا تَصْنَعُونَ فِيمَا قُلْتُمْ؟ فَأَعْلَمَ الْبَطْرُكُ بِذَلِكَ، فَخَرَجَ مِنْ قُمَامَةٍ، وَعَلِيهِ الْمَسُوحُ، وَمِنْ حَوْلِهِ الرِّهْبَانُ وَالْقَسَّاسُ. ثُمَّ عَلَا الصُّورَ، وَأَشْرَفَ عَلَى أَبِي عُبَيْدَةَ، وَقَالَ: مَا هَذَا أَيُّهَا الشَّيْخُ؟ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ الْبَطْرُكُ: قُلْ لَهُ يَدْنُو مِنِّي، فَإِنَّا نَعْرِفُهُ بِصِفَاتِهِ وَنَعْتِهِ، وَأَفْرِدُوهُ مِنْ بَيْنِكُمْ حَتَّى نَرَاهُ. فَرَجَعَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ الْبَطْرُكُ، فَهَمَّ عُمَرُ بِالْقِيَامِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَخْشَى عَلَيْكَ مِنَ الْإِنْفِرَادِ بِلَا عُدَّةٍ. فَقَالَ عُمَرُ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

ثُمَّ لَبَسَ مِرْقَعَتَهُ، وَرَكِبَ بَعِيرَهُ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ سَائِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى أَنْ أَتَى بِإِزَاءِ الْبَطْرُكِ قَرِيبًا مِنَ الْحَصَنِ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ.

فَمَدَّ الْبَطْرُكُ عُنْقَهُ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ فَرَعَقَ زَعَقَةً، وَقَالَ: هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي صَفَتَهُ وَنَعْتَهُ فِي كِتَابِنَا، ثُمَّ قَالَ: يَا أَهْلَ بَيْتِ الْمَقْدَسِ، أَنْزِلُوا إِلَيْهِ، وَخَذُوا مِنْهُ الْأَمَانَ وَالذِّمَّةَ، فَهَذَا وَاللَّهِ صَاحِبُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.

فَنَزَلُوا مُسْرِعِينَ - وَكَانَتْ أَنْفُسُهُمْ قَدْ ضَاقَتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَصَارِ - وَفَتَحُوا الْبَابَ، وَخَرَجُوا إِلَى عُمَرَ يَسْأَلُونَهُ الْعَهْدَ.

فَلَمَّا رَأَاهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، تَوَاضَعَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَخَرَّ سَاجِدًا

على قَتَبٍ بغيره، ثم أقبل عليهم، وقال: ارجعوا إلى بلدكم ولكم العهد. فرجع القوم إلى البلد، ولم يغلقوا الباب، ورجع عمر.

فلما كان من الغد وهو يوم الاثنين، دخل إليهم، وأقام بها إلى يوم الجمعة، وَخَطَّ مَجْرَاباً وهو موضع مسجده، وتقدَّم وصلى بالمسلمين صلاة الجمعة، وأقام في بيت المقدس عشرة أيام، وبها أسلم كعب الأخبار على يده وارتحل معه إلى المدينة لزيارة قبر النبي ﷺ، وذلك بعد أن كتب الإمام عمر لأهل بيت المقدس، وأقرهم في بلدهم على عهدهم، وأدوا الجزية.



إيثار علي بن أبي طالب

ومن شهِّي المجتني من ثمرات الأوراق ما نقله أبو القاسم علي بن المحسن التنوخى في المستجد^(١) أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بات على فراش النبي ﷺ ليفديه بنفسه أوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام: إني آخيتُ بينكما، وجعلتُ عُمرَ أحكما أطول من الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه الحياة؟ فاختار كلُّ منهما الحياة؛ فأوحى الله إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب، آخيتُ بينه وبين نبيي محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض، واحفظاه من عدوه. فكان جبريل عند رأسه، وميكائيل عند رجله، وجبريل: ينادي بخ بخ! منْ مثلك يابن أبي طالب، يباهي الله بك الملائكة! فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].



الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر والعجوز

قال أبو الحسن المدائني: خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم حُجَاجاً ففاتتهم أنقالتهم، وعطشوا، فمروا بعجوز في خباء لها، فقال أحدهم: هل من شراب؟ قالت: نعم. فأناخوا إليها، وليس لها إلا شويهة.

فقال: احلبوها؛ فاشربوا لبنها، ففعلوا. فقالوا: هل من طعام؟ قالت: لا، إلا هذه الشاة، فليذبحها أحدكم حتى أهيبَّ لكم ما تأكلون. فقام إليها أحدهم فذبحها، وكشطها^(٢)، ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا، وأقاموا حتى أبردوا^(٣).

(١) المستجد: ١٠.

(٢) كسطها: سلخها.

(٣) أبردوا: دخلوا في آخر النهار.

فلما ارتحلوا، قالوا: نحن نفر من قريش. نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فآلَمي بنا، فإننا صانعون لك خيراً. فارتحلوا، وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة، فغضب، وقال: ويحك، تذبحين شاتي لقوم لا أعرفهم، ثم تقولين: نفر من قريش!

ثم بعد مدة ألجأتها الحاجة إلى دخول المدينة فدخلها، وجعلا يلتقطان البعر ويعيشان بئس منه. فمرت العجوز ببعض سكك المدينة، فإذا الحسن بن عليّ على باب داره، فعرف العجوز وهي منكرة، فبعث إليها غلامه، فدعا بها، فقال لها: يا أمة^(١) الله: أتعرفيني؟ قالت: لا، قال: أنا ضيفك بالأمس يوم كذا وكذا، قالت: بأبي أنت وأمي!

ثم اشترى لها من شاء الصدقة ألف شاة، وأمر لها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين رضي الله عنه، فأمر لها بمثل ذلك، وبعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر رضي الله عنه؛ فقال لها: بكم وصلك الحسن والحسين؟ قالت: بألفي شاة وألفي دينار. فقال لها: لو بدأت بي لأتعبتهما في العطاء، اعطوها عطيتهما. فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف دينار وأربعة آلاف شاة.



بين الحسين وأخيه محمد بن الحنفية

ومما يضارع هذه اللطائف: أنه جرى بين الحسين بن علي بن أبي طالب، وبين أخيه محمد بن الحنفية رضي الله عنهما كلام فأنصرفا متغاضبين، فلما وصل محمد إلى منزله، أخذ رُقعة وكتب فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد بن علي بن أبي طالب إلى أخيه الحسين بن علي بن أبي طالب. أما بعد: فإن لك شرفاً لا أبلغه، وفضلاً لا أدركه؛ فإذا قرأت رُقعتي هذه، فالبس ردائك ونعليك، وسِرْ إليّ فترضاني، وإياك أن أكون سابقك إلى الفضل الذي أنت أولى به مِنّي والسلام.

فلما قرأ الحسين رضي الله عنه الرُقعة، لبس ردائه ونعليه، ثم جاء إلى أخيه فترضاه^(٢).



هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

قال أبو الفرج الأصبهاني، حدثني أحمد بن محمد الجعد ومحمد بن يحيى قالا: حدثنا محمد بن زكريا العلاني قال: حدثنا ابن عائشة قال: حج هِشام بن

(١) الأمة: في الأصل المملوكة.

(٢) المستجاد: ١٨.

عبد الملك في خلافة أخيه الوليد ومعه رؤساء أهل الشام، فطاف وجهده أن يستلم الحجر، فلم يقدر من الازدحام، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس، فأقبل علي بن الحسين رضي الله عنهما، وهو أحسن الناس وجهاً، وأنظفهم ثوباً، وأطيبهم رائحة. فلما طاف بالبيت، وبلغ الحجر، تنحى الناس كلهم إجلالاً له، فاستلم الحجر وخذه. فعاظ ذلك هشاماً، وبلغ منه، فقال رجل من أهل الشام لهشام: من هذا أصلح الله الأمير؟ قال لا أعرفه - وكان به عارفاً - ولكن خاف من رغبة أهل الشام فيه؛ فقال الفرزدق - وكان حاضراً - أنا أعرفه يا شامي، قال: من هو؟ قال:

| | |
|--|--|
| هذا الذي تعرف البطحاء ^(١) وطأته | والبيت يعرفه والحل والحرم |
| هذا ابن خير عباد الله كلهم | هذا النقي النقي الطاهر العلم |
| إذا رآته فريش قال قائلها | إلى مكارم هذا ينتهي الكرم |
| هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله | بجده أنبياء الله قد ختموا |
| يكاد يمسكه عرفان ^(٢) راحته | ركن الحطيم ^(٣) إذا ما جاء يستلم |
| أي الخلائق ليست في رقابهم | لأولية هذا أوله نعم |
| من يعرف الله يعرف أولية ذا | فالدين من بيت هذا ناله الأم |
| وليس قولك من هذا بضائره | العرب تعرف من أنكرت والعجم |

فحبسه هشام ثم أطلقه، فوجه إليه علي بن الحسين عشرة آلاف درهم، وقال: اغدرتا يا أبا فارس، فلو كان معنا في هذا الوقت أكثر من هذا لوصلناك به، فردّها الفرزدق، وقال: ما قلنا ما كان إلا لله، فقال له علي بن الحسين: قد رأى الله مكانك، ولكنّا أهل بيت إذا أنفدنا شيئاً لم نرجع فيه، وأقسم عليه فقبلها^(٤).



قدوم عمر بن الخطاب على معاوية بالشام

ومن غالي جواهر العقد لابن عبد ربه^(٥) قال يزيد: حدثني أبي أن عمر بن

(١) البطحاء: مسيل واسع، فيه دقاق الحصى.

(٢) عرفان: منصوب على أنه مفعول له.

(٣) الحطيم: حجر الكعبة أو جدارها، أو ما بين الركن وزمزم والمقام.

(٤) المستجاد: ٨٦ - ٨٩.

(٥) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي، نشأ بقرطبة؛ وتثقف بثقافة عصره؛ من فقه وتفسير وحديث ونحو وعروض وتاريخ وأدب، واتصف بصفات الندمان من حب للموسيقى وغرام بالصوت الحسن؛ وظهر آثار ذلك في كتاب العقد؛ واتصل بعبد الرحمن الناصر ولازمه ومده؛ وتوفي سنة ٣٢٧ هـ.

الخطاب رضي الله عنه قَدِمَ من المدينة إلى الشَّام على جِمَار، فَتَلَقَّاهُ مُعَاوِيَةُ فِي مَوْكِبٍ نَبِيل، فَأَعْرَضَ عَنْهُ عُمَرُ، فَجَعَلَ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ رَاجِلاً، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: أَتَعَبْتَ الرَّجُلَ. فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُعَاوِيَةُ، أَنْتَ صَاحِبُ الْمَوْكِبِ مَعَ مَا بَلَّغْنِي مِنْ وَقُوفِ ذَوِي الْحَاجَّاتِ بِبَابِكَ؟ قَالَ نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ وَلِمَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنَّا فِي بِلَادٍ لَا تَمْنَعُ الْجَوَاسِيسَ، وَلَا بُدَّ لَهُمْ مَا يَرُوعُهُمْ مِنْ هَيْبَةِ السُّلْطَانِ، فَإِنْ أَمَرْتَنِي بِذَلِكَ أَقَمْتُ عَلَيْهِ، وَإِنْ نَهَيْتَنِي عَنْهُ انْتَهَيْتُ. قَالَ: إِنْ كَانَ الَّذِي قُلْتَ حَقًّا فَإِنَّهُ رَأْيُ أَرِيبٍ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلاً فَإِنَّهَا خِدْعَةُ أَدِيبٍ، فَلَا أَمْرُكَ وَلَا أَنْهَاكَ عَنْهُ^(١).



دهاء معاوية

ومن لطائف معاوية: أَنَّهُ كَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَرْضٌ قَرِيبَةٌ لِأَرْضِ لِمُعَاوِيَةَ فِيهَا عَبِيدٌ لَهُ مِنَ الزُّنُوجِ يَغْمُرُونَهَا، فَدَخَلُوا فِي أَرْضِ عَبْدِ اللَّهِ، فَكُتِبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ يَا مُعَاوِيَةُ إِنْ لَمْ تَمْنَعْ عَبِيدَكَ مِنَ الدَّخُولِ فِي أَرْضِي وَإِلَّا كَانَ لِي وَلَكَ شَأْنٌ. فَلَمَّا وَقَفَ مُعَاوِيَةُ عَلَى الْكِتَابِ، دَفَعَهُ إِلَى ابْنِهِ يَزِيدَ، فَلَمَّا قَرَأَهُ قَالَ لَهُ: مَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَى أَنَّ تُنْفِذَ إِلَيْهِ جَيْشاً أَوَّلُهُ عِنْدَهُ وَآخِرُهُ عِنْدَكَ، يَأْتُونَكَ بِرَأْسِهِ.

فَقَالَ: يَا بَنِيَّ عِنْدِي خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، عَلَيَّ بِدَوَاةٍ وَقِرْطَاسٍ، وَكُتِبَ: وَقَفْتُ عَلَى كِتَابِكَ يَا بَنِيَّ حَوَارِيَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَسَاءَنِي وَاللَّهِ مَا سَاءَكَ، وَالدُّنْيَا هَيْئَةً عِنْدِي فِي جَنْبِ رِضَاكَ، وَقَدْ كُتِبَتْ عَلَى نَفْسِي رَقْماً بِالْأَرْضِ وَالْعَبِيدِ: وَأَشْهَدْتُ عَلَيَّ فِيهِ، وَلَتُنْصِفَ الْأَرْضُ إِلَى أَرْضِكَ، وَالْعَبِيدُ إِلَى عَبِيدِكَ وَالسَّلَامُ.

فَلَمَّا وَقَفَ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى كِتَابِ مُعَاوِيَةَ، كُتِبَ إِلَيْهِ، وَقَفْتُ عَلَى كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - فَلَا عَدِيمَ الرَّأْيِ الَّذِي أَحْلَهُ مِنْ قَرِيشٍ هَذَا الْمَحَلِّ. وَالسَّلَامُ.

فَلَمَّا وَقَفَ مُعَاوِيَةُ عَلَى كِتَابِ عَبْدِ اللَّهِ رَمَاهُ إِلَى ابْنِهِ يَزِيدَ. فَلَمَّا قَرَأَهُ أَسْفَرَ وَجْهَهُ، فَقَالَ: يَا بَنِيَّ، إِذَا رُمِيَ بِهَذَا الدَّاءِ، دَاوِهِ بِهَذَا الدَّوَاءِ^(٢).



نادرة لطيفة

قَالَ الْأَسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ لَمَّا سَعَى غُلَامٌ خَلِيلٌ بِالصُّوفِيَّةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ بِالزُّنْدَقَةِ أَمْرَ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمْ. فَأَمَّا الْجُنَيْدُ فَإِنَّهُ اسْتَرَّ بِالْفَقْهِ، وَأَمَّا الشَّحَامُ وَالرَّقَامُ وَالثُّورِيُّ وَجَمَاعَةٌ، فَقَبِضَ عَلَيْهِمْ وَبَسَطَ التَّلَطُّعَ لَضَرْبِ أَعْنَاقِهِمْ، فَتَقَدَّمَ الثُّورِيُّ، فَقَالَ لَهُ السِّيَافُ: أَتَذْهَبُ

(١) العقد ١٦/١، ١٧.

(٢) المستجاد: ٢٤ - ٣٥.

لماذا تتقدم؟ قال: نعم. قال فما يُعْجِلُكَ؟ قال أوثر أصحابي بحياة ساعة. فتحير السيف، وئُمِّي الخبر إلى الخليفة فردَّهم إلى القاضي ليعرف أحوالهم، فألقى القاضي على أبي الحسن الثوري مسائل فقهية. فأجاب عن الكل، ثم أخذ يقول: إنَّ لله عبادة إذا قاموا قاموا لله، وإذا نطقوا نطقوا بالله. وسرد ألفاظاً حتى بكى القاضي فأرسل إلى الخليفة يقول: إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مُسلم. فأكرمهم وأطلقهم^(١).



المعتصم وتميم بن جميل

ومن المرويين عن أحمد بن أبي دؤاد القاضي أنه قال: ما رأيت رجلاً عُرض على الموت، فلم يكثر به إلا تميم بن جميل الخارجي، كان قد خرج على المعتصم، ورأيته قد جيء به أسيراً، فأدخل عليه في يوم موكب، وقد جلس المعتصم للناس مجلساً عاماً، ودعا بالسيف والنُّطع.

فلما مثل بين يديه، نظر إليه المعتصم فأعجبه شكله وقده، ورآه يمشي إلى الموت غير مكترث به، فأطال الفكر فيه، ثم استنطقه لينظر في عقله وبلاغته، فقال: يا تميم: إن كان لك عُذر فأت به. فقال:

أما إذ أذن أمير المؤمنين - جبر الله به صدع الدين، ولم شعث المسلمين وأخمد شهاب الباطل، وأنار سبل الحق - فالذنوب يا أمير المؤمنين تُخرس الألسن، وتصدع الأفئدة، وأيم الله، لقد عظمت الجريمة، وانقطعت الحجة. وساء الظن، ولم يبق إلا العفو، وهو الأليق بشيئكم الظاهرة، ثم أنشد:

| | |
|---|---|
| أرى الموت بين السيف والنُّطع كامناً | يُلاحِظُنِي مِنْ حَيْثُ لَا أَتَلَقُّ |
| وأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّكَ الْيَوْمَ قَاتِلِي | وَأَيُّ أَمْرٍ مِمَّا قَضَى اللَّهُ يُفْلِتُ |
| وَمَنْ ذَا الَّذِي يَأْتِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ | وَسَيْفُ الْمَنِيَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُضَلَّتْ |
| وَمَا جَزَعِي مِنْ أَنَّ أَمُوتَ وَإِنِّي | لَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مُؤَقَّتٌ |
| وَلَكِنْ خَلَفِي صَبِيَّةٌ قَدْ تَرَكْتُهُمْ | وَقَدْ لَطَمُوا تِلْكَ الْخُدُودَ وَصَوَّتُوا |
| فَإِنْ عِشْتُ عَاشُوا سَالِمِينَ بِغُبْطَةٍ | أَذُودُ الرَّدَى عَنْهُمْ وَإِنْ مِتُّ مُوتُوا |
| وَكَمْ قَائِلٍ لَا يُبْعِدُ اللَّهَ دَارَهُ | وَأَخْرُجُ جَذْلًا يُسَرُّ وَيَشْمَتُ |

قال: فبكى المعتصم حتى ابتلت لحيته، وقال: إن من البيان لسيخرا، ثم قال: كاذ يسبق السيف العدل، وقد وهبتك لله، ولصبيتك. وأعطاه خمسين ألف درهم^(٢).

(١) المستجاد: ٤٣، ٤٤.

(٢) الخبر في الفرج بعد الشدة ٧٧/٢، ٧٨.

سماحة غسان بن عباد

ومن لطائف المنقول من المستجاد^(١) أنه كان بين غسان بن عباد، وبين علي بن عيسى القمي عداوة عظيمة وكان علي بن عيسى ضامناً أعمال الخراج والضياح ببلده، فبقيت عليه بقية مبلغها أربعون ألف دينار. فألح المأمون عليه بطلبها إلى أن قال لعلي بن صالح الحاجب: أمهلته ثلاثة أيام، فإن أخضر المال، وإلا فاضربه بالسياط حتى يؤدي المال أو يتلف.

فأنصرف علي بن عيسى من دار المأمون آيساً من نفسه، وهو لا يذري وجهاً يتجه إليه، فقال له كاتبه:

لَوْ عَرَّجْتَ عَلَى غَسَّانَ بْنِ عَبَّادَ، وَعَرَفْتَهُ خَبْرَكَ، لَرَجَوْتُ أَنْ يُعِينَكَ عَلَى أَمْرِكَ.
فقال له: عَلَى مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الْعَدَاوَةِ؟ فقال: نعم؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ أَرْيَحِي كَرِيم.
فدخل على غسان، فقام إليه، وتلقاه بالجميل، وأوفاه حقه بالخدمة، ثم قال له: الحال الذي بيني وبينك على حاله، ولكن دخولك إلى داري له حُرْمَةٌ تُوجِبُ بُلُوعَ ما رَجَوْتُهُ مِنِّي، فاذا كان لك حاجة.

فقص عليه القصة، فقال: أرجو أن يكفيكه الله تعالى، وَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئاً. فَتَهَضَّ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى، وخرج آيساً نادماً على قصده غسان، وقال لكاتبه: ما أفذتني بالدخول على غسان غير تعجيل السماتة والهوان.

فلم يصل علي بن عيسى إلى داره حتى حضر إليه كاتب غسان ومعه البغال عليها المال، فبلغه سلامه، وقال: قد حضر المال، فتقدم وسلمه.

وبكر إلى دار أمير المؤمنين فوجد غسان قد سبقه إليها، ودخل على المأمون، وقال: يا أمير المؤمنين، إِنَّ لِعَلِيَّ بْنِ عِيسَى بِحَضْرَتِكَ حُرْمَةً وَخِدْمَةً، وَسَالِفَ أَصْلٍ، وَقَدْ لَحِقَهُ مِنَ الْخُسْرَانِ فِي ضَمَانِهِ مَا قَدْ تَعَارَفَهُ النَّاسُ، وَقَدْ تَوَعَّدْتَهُ بِضَرْبِ السِّبَاطِ بِمَا أَطَارَ عَقْلَهُ، وَأَذْهَبَ لُبَّهُ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُجِيزَنِي عَلَى حُسْنِ كَرَمِهِ بَبَعْضِ مَا عَلَيْهِ فَهِيَ صَنِيعَةٌ يُجَدِّدُهَا عَلَيَّ، تَخْرُسُ مَا تَقَدَّمَهَا مِنْ إِحْسَانِهِ.

ولم يزل يتلطف إلى أن خط عنه النصف، واقتصر على عشرين ألف دينار. فقال غسان: عَلَى أَنْ يُجَدِّدَ عَلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الضَّمانَ، وَيُسَرِّفَهُ بِخَلْعَةٍ تَقْوِي نَفْسَهُ، وَتُرْهِفُ عَزَمَهُ، وَيَعْرِفُ بِهَا مَكَانَ الرِّضَا عَنْهُ. فَأَجَابَهُ الْمَأْمُونُ إِلَى ذَلِكَ.

قال: فَيَأْذُنُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَحْمِلَ الدَّوَاةَ إِلَى حَضْرَتِهِ لِيُوقِعَ بِمَا رَأَاهُ مِنْ هَذَا

الإنعام؟ قال: افعل. فحمل الدَّوَاةَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَوَقَّعَ بِذَلِكَ. وَخَرَجَ عَلَيَّ بَنُ عِيسَى بِالْخُلْعَةِ، وَالتَّوَقُّعُ بِيَدِهِ.

فَلَمَّا حَضَرَ إِلَى دَارِهِ، حَمَلَ مِنَ الْمَالِ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ. وَأَرْسَلَهَا إِلَى غَسَّانَ، وَشَكَرَهُ عَلَى جَمِيعِ فِعْلِهِ مَعَهُ، فَقَالَ غَسَّانُ لِكَاتِبِهِ: وَاللَّهِ مَا شَفَعْتُ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِتَوْفَرٍ عَلَيْهِ، وَيَنْتَفِعَ بِهَا، فَاْمْضِ بِهَا.

فَلَمَّا رَدَّهَا كَاتِبُهُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ عِيسَى، عَلِمَ قَدْرَ مَا فَعَلَ مَعَهُ غَسَّانُ فَلَمْ يَزَلْ يَخْدُمُهُ إِلَى آخِرِ الْعُمُرِ^(١).



الخلف الصالح

وَمِنْ غَرِيبٍ مَا يُقْتَطَفُ مِنْ ثَمَرَاتِ الْأَوْرَاقِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ خَلَّفَ أَحَدَ عَشْرِ ابْنَاءٍ، فَأَصَابَ كُلُّ ابْنٍ نِصْفَ وَرَبْعِ دِينَارٍ، وَقَالَ لَهُمْ عِنْدَ وَفَاتِهِ: يَا بَنِيَّ، لَيْسَ لِي مَالٌ فَأَوْصِي فِيهِ. وَخَلَّفَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَحَدَ عَشْرِ ابْنَاءٍ فَأَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَنِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ، فَأَمَّا أَوْلَادُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَمَا رُئِيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا وَهُوَ غَنِيٌّ، وَمِنْهُمْ وَاحِدٌ جَهَّزَ مِنْ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفِ فَارَسٍ عَلَى مِائَةِ أَلْفِ فَارَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا رُئِيَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلَادِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَّا وَهُوَ فَقِيرٌ، وَلَقَدْ شُهِدَ أَحَدُهُمْ وَهُوَ يُوقَدُ فِي الْأَتُونِ.



عبيد بن شربة عند معاوية بن أبي سفيان

قِيلَ لِمَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ. إِنَّ بِالْحِجَازِ رَجُلًا مِنْ بَنِي جُرْهُمٍ، قَدْ عَمَرَ، وَرَأَى أَعَاجِيبَ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ: عَلَيَّ بِهِ. فَلَمَّا حَضَرَ قَالَ: مَنْ الرَّجُلُ؟ قَالَ: عُبَيْدُ بْنُ شَرِيَّةٍ. قَالَ: ثُمَّ مِمَّنْ؟ قَالَ: مِنْ قَوْمٍ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَقِيَّةٌ. قَالَ: فَكَمْ مَضَى مِنْ عُمْرِكَ؟ قَالَ: عَشْرُونَ وَمِائَتَا سَنَةٍ. قَالَ: أَخْبِرْنِي بِأَعْجَبَ مَا رَأَيْتَ فِي عُمْرِكَ، قَالَ:

نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، كُنْتُ فِي حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَمَاتَ عِنْدَهُمْ مِيتَ يُقَالُ لَهُ عَشِيرٌ^(٢) بَنَ لَبِيدِ الْعَذْرِيِّ، فَمَشَيْتُ فِي جَنَازَتِهِ، وَتَأَسَّيْتُ بِجَمَاعَتِهِ، فَلَمَّا دُفِنَ فِي قَبْرِهِ، وَأَغْوَلَ النَّسَاءُ فِي أَثَرِهِ، أَذْرَكْتَنِي عَلَيْهِ عَبْرَةٌ، وَلَمْ أُسْتَطِعْ رَدَّهَا، وَتَمَثَّلَتْ بِأَبْيَاتٍ كُنْتُ سَمِعْتُهَا قَدِيمًا، وَعَلِقَ الْآنَ عَلَى خَاطِرِي مِنْهَا هَذِهِ الْأَبْيَاتُ: -

يَا قَلْبُ إِنَّكَ مِنْ أَسْمَاءِ مَغْرُورٍ فَادْكُزْ وَهَلْ يَنْفَعُكَ الْيَوْمَ تَذْكِيرُ

(١) المستجاد: ١٥٦.

(٢) المستجاد: جبلة بن الحويرث. وفي معجم الأدباء: حويرث بن جبلة.

قد بُحِتَ بِالْحُبِّ مَا تُخْفِيهِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى جَرَتْ لَكَ إِطْلَاقاً مُحَاضِيرُ^(١)
 فَلَسْتَ تَذَرِي وَلَا نَذَرِي أَعَاجِلُهَا أَدْنَى لِرُشْدِكَ أَمْ مَا فِيهِ تَأْخِيرُ
 فَاسْتَقْدِرِ اللَّهَ خَيْراً وَارْضَيْنِ بِهِ فَبَيْنَمَا الْعُسْرُ إِذْ دَارَتْ مِياسِيرُ
 وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ فِي الْأَحْيَاءِ مُغْتَبِطُ إِذَا هُوَ الرَّمْسُ تَغْفُوهُ الْأَعَاصِيرُ
 يَبْكِي الْغَرِيبُ عَلَيْهِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ وَذُو قَرَابَتِهِ فِي الْحَيِّ مَسْرُورُ
 وَذَلِكَ آخِرُ عَهْدٍ مِنْ أَخِيكَ إِذَا مَا الْمَرْءُ ضَمَّنَهُ اللَّحْدَ الْخَنَاسِيرُ^(٢)

فبينما أنا أَرَدُّدُ هذه الأبيات . وعيناي تنسكان، إذ قال لي رَجُلٌ إلى جَنِيِّ مِنْ غُذْرَةٍ:
 يَا عَبْدَ اللَّهِ هل تعرف قائل هذا الشَّعْر؟ قلتُ: لَا وَاللَّهِ، قال: قَائِلُهُ هَذَا الْمَيِّتُ الَّذِي
 دَفَنَاهُ، وَأَنْتَ الْغَرِيبُ الَّذِي تَبْكِي عَلَيْهِ وَلَا تَعْرِفُهُ، وَلَا تَعْلَمُ أَنَّهُ قَائِلُ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ، وَذُو
 قَرَابَتِهِ الَّذِي ذَكَرْتَهُ مَسْرُورٌ هُوَ ذَاكَ، وَأَشَارَ إِلَى رَجُلٍ فِي الْجَمَاعَةِ، فَرَأَيْتُهُ لَا يَسْتَطِيعُ كِتْمَانَ
 مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَسْرَةِ. فقال مُعَاوِيَةُ: يَا أَخَا جُزْهَمٍ: سَلْ مَا شِئْتَ. قال: مَا مَضَى مِنْ
 عُمْرِي تَرُدُّهُ، وَالْأَجَلَ إِذَا حَضَرَ تَدْفَعُهُ؟ قال: لَيْسَ ذَلِكَ لِي، سَلْ غَيْرَهُ.

قال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لَيْسَ إِلَيْكَ الدُّنْيَا فَتَرَدُّ شَبَابِي، وَلَا الْآخِرَةُ فَتَكْرَمَ مَآبِي،
 أَمَّا الْمَالُ فَقَدْ أَخَذْتُ مِنْهُ فِي عَثْفَوَانِي مَا كَفَانِي. قال: لَا بَدَّ أَنْ تَسْأَلَنِي. قال: أَمَّا إِذَا
 شِئْتَ فَأَمْرٌ لِي بِرَغِيفَيْنِ أَتَغْدِي بِأَحَدِهِمَا وَأَتَعَشَّى بِالْآخِرِ. وَاتَّقِ اللَّهَ، وَأَعْلَمْ أَنَّكَ مُفَارِقُ
 مَا أَنْتَ فِيهِ، وَقَادِمُ عَلَيَّ مَا قَدَّمْتُ.

فأمر له مُعَاوِيَةُ بِأَشْيَاءَ وَحَنْطَةٍ وَغَيْرَهَا، فَزَدَهَا، وَقَالَ: إِنْ أُعْطِيَ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ
 مِثْلُهَا أُعْطِيتَنِي، وَإِلَّا فَلَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، ثُمَّ وَدَّعَهُ وَانصَرَفَ^(٣).



وفود عبد الله بن جعفر على أحد خلفاء بني أمية

قِيلَ وَقَدْ عَبْدَ اللَّهُ بْنُ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى أَحَدِ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ فَقَالَ لَهُ
 الْخَلِيفَةُ: كَمْ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُعْطِيكَ - يَعْنِي أَبَاهُ - قَالَ: كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يُعْطِينِي أَلْفَ
 أَلْفِ دِرْهَمٍ. قَالَ: زِدْنَاكَ لَتَرْحِمَكَ عَلَيْهِ أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ. قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ:
 وَبِهَذِهِ أَلْفُ أَلْفٍ، قَالَ: لَا أَقُولُهَا لِأَحَدٍ بَعْدَكَ، قَالَ: وَلِهَذِهِ أَلْفُ أَلْفٍ: قَالَ: مَنَعَنِي
 مِنَ الْإِطْنَابِ فِي وَصْفِكَ الْإِشْفَاقَ عَلَيْكَ مِنْ جُودِكَ. قَالَ: وَلِهَذِهِ أَلْفُ أَلْفٍ.

فَقِيلَ لَهُ: فَارَقْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَيْتَ مَالِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، قَالَ:

(١) فِي الْمُسْتَجَادِ «مُحَاضِيرُ» جَمْعُ «مُحَاضِرٍ» وَهُوَ الْفَرَسُ الشَّدِيدُ الْعَدُو.

(٢) الْخَنَسِرُ، بِالْكَسْرِ: اللَّثِيمُ؛ وَالْخَنَاسِيرُ: الْهَلَكَ، وَضَعُافُ النَّاسِ.

(٣) الْمُسْتَجَادُ: ٢٠٩ - ٢١٣.

إِنَّمَا فَرَّقْتَهُ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ وَكَّلَ بِهِ مَنْ يُعَلِّمُهُ بِخَبْرِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَرَّقَ جَمِيعَ مَا مَعَهُ حَتَّى اخْتِاجَ بَعْدَ شَهْرٍ إِلَى الْقَرْضِ^(١).



ومن لطائف المنقول

أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهْشَامَ الْفَرُطَبِيِّ: كَمْ تَعُدُّ؟ قَالَ: مِنْ وَاحِدٍ إِلَى أَلْفٍ أَلْفٍ وَأَكْثَرُ. قَالَ لَمْ أَرُدْ هَذَا، كَمْ تَعُدُّ مِنَ السَّنِّ؟ قَالَ: اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثَيْنِ، سِتَّةَ عَشَرَ مِنْ أَعْلَى، وَسِتَّةَ عَشَرَ مِنْ أَسْفَلِ، قَالَ لَمْ أَرُدْ هَذَا، كَمْ لَكَ مِنَ السِّنِينَ، قَالَ: وَاللَّهِ لَيْسَ لِي مِنْهَا شَيْءٌ، وَالسَّنُونَ كُلُّهَا لِلَّهِ، قَالَ يَا هَذَا مَا سِئْكَ؟ قَالَ: عَظُمَ. قَالَ: أَبْنُ لِي، ابْنُ كَمْ أَأَنْتَ؟ قَالَ: اثْنَيْنِ، رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ. قَالَ كَمْ أَتَى عَلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْ أَتَى عَلَيَّ شَيْءٌ قَتَلْتَنِي. قَالَ: كَيْفَ أَقُولُ؟ قَالَ: تَقُولُ: كَمْ مَضَى مِنْ عُمْرِكَ؟



جوار سعيد بن العاص

وَقِيلَ: عَرَضَ مُحَمَّدُ بْنُ الْجَهْمِ دَارَهُ لِلْبَيْعِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَلَمَّا حَضَرُوا لِيَشْتَرُوا، قَالَ بَكُمْ تَشْتَرُونَ مِنِّي جَوَارَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ؟ فَقَالُوا لَهُ: وَالْجَوَارُ يَبَاعُ؟ قَالَ: وَكَيْفَ لَا يَبَاعُ جَوَارٌ مَنْ إِنْ سَأَلْتَهُ أَعْطَاكَ، وَإِنْ سَكَتَ عَنْهُ ابْتَدَأَكَ، وَإِنْ أَسَأْتَ إِلَيْهِ أَحْسَنَ إِلَيْكَ؟ فَبَلَغَ ذَلِكَ سَعِيدٌ فَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَقَالَ أُمْسِكَ دَارَكَ عَلَيْكَ.



أسخى من عبد الله بن جعفر

قِيلَ: خَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ، فَتَزَلَّ عَلَى نَخْلٍ قَوْمٌ فِيهَا غُلَامٌ أَسْوَدُ يَقُومُ عَلَيْهَا، فَأَتَى بِثَلَاثَةِ أَقْرَاصَ، فَدَخَلَ كَلْبٌ فِدْنَا مِنْهُ فَرَمَى إِلَيْهِ بِقِرْصٍ فَأَكَلَهُ، ثُمَّ رَمَى إِلَيْهِ بِالثَّانِي وَالثَّلَاثَ فَأَكَلَهُمَا وَعَبْدُ اللَّهِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ. فَقَالَ: يَا غُلَامُ؛ كَمْ قُوتُكَ كُلَّ يَوْمٍ؟ قَالَ: مَا رَأَيْتُ. قَالَ: فَلِمَ أَثَرْتَ الْكَلْبَ؟ قَالَ: لِأَنَّ أَرْضَنَا مَا هِيَ بِأَرْضِ كِلَابٍ، وَإِخَالُهُ جَاءَ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ جَائِعًا فَكَرِهْتُ رَدَّهُ. قَالَ: فَمَا كُنْتَ صَانِعًا الْيَوْمَ؟ قَالَ: أَطْوِي يَوْمِي هَذَا. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ: أَلَا أُمُّ عَلَى السَّخَاءِ، وَاللَّهِ إِنْ هَذَا لِأَسْخَى مِنِّي. فَاشْتَرَى النَّخْلَ وَمَا فِيهِ، أَمَّا الْعَبْدُ فَأَعْتَقَهُ، وَوَهَبَ ذَلِكَ لَهُ^(٢).



ومن لطائف المنقول

أَنَّهُ رُفِعَ لِلرُّشِيدِ مَوْتُ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَخْتَفِ، وَإِبْرَاهِيمَ الْمُوصِلِيِّ الْمَعْرُوفِ

بالنديم، وعُشَيْمة الخمارة في يوم واحد، فخرج للصلاة عليهم، فصُفِّقوا بين يديه، فقال: مَنْ الأول؟ فقالوا: إبراهيم الموصلي، فقال أخروه وقدموا العباس بن الأخنف، فقدم وصلى عليه، فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله الخزاعي، وقال: يا أمير المؤمنين، كيف أثرت العباس بالتقديم على من حضر؟ فقال بقوله:

وَسَعَى بِهَا قَوْمٌ وَقَالُوا إِنَّهَا لَهِيَ الَّتِي تَشْقَى بِهَا وَتُكَابِدُ
فَجَحَذْتَهُمْ لِيَكُونَ غَيْرَكَ ظَنَّهُمْ إِنِّي لِيُغْجِبُنِي الْمَجِبُ الْجَاوِدُ
ثم قال أتحفظهما؟ قلت: نعم، قال: أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقديم؟
فقلت: بلى والله يا أمير المؤمنين.

قلت ويضارع هذا ما حكاه صاحب الأغاني: حكى أن رجلاً أدى شهادة عند بعض القضاة، فقال القاضي: هل يعرفك أحدٌ من ذوي العدالة؟ قال: نعم، فلان. فلما حضر قال له القاضي: هل تعرف هذا؟ قال: نعم أعرفه عدلاً، وما ذاك إلا أنني سمعته يُشيد لجري:

إِنَّ الَّذِينَ عَدَوْا بَلْبُكَ غَادَرُوا وَشَلَّاءَ بَعَيْنِكَ لَا يَزَالُ مَعِينَا
عَيْضُنَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَلَقِينَا
فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا لَا يَزْسَخُ إِلَّا فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ.



رفائق تقي الدين السروجي

وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله: كانت رفائق الشيخ تقي الدين السروجي تسلب العقول، وكان يُغنى بها في عصره؛ لأنها في الطريق الغرامي غاية لا تُدرَك، فمن ذلك قوله رحمه الله:

أَنْعِمَ بِوَصْلِكَ لِي فَهَذَا وَقْتُهُ أَنْفَقْتُ عُمْرِي فِي هَوَاكَ وَلَيْتَنِي
أَنْفَقْتُ عُمْرِي فِي هَوَاكَ وَلَيْتَنِي يَأْمَنُ شُغْلْتُ بِحُبِّهِ عَنْ غَيْرِهِ
يَأْمَنُ شُغْلْتُ بِحُبِّهِ عَنْ غَيْرِهِ كَمْ جَالٍ فِي مَيْدَانِ حَسَنِكَ فَارِسْ
كَمْ جَالٍ فِي مَيْدَانِ حَسَنِكَ فَارِسْ أَنْتَ الَّذِي جَمَعَ الْمَحَاسِنَ وَجْهَهُ
أَنْتَ الَّذِي جَمَعَ الْمَحَاسِنَ وَجْهَهُ قَالَ الْوُشَاءُ: قَدْ ادَّعَى بِكَ نِسْبَةً
قَالَ الْوُشَاءُ: قَدْ ادَّعَى بِكَ نِسْبَةً بِاللَّهِ إِنْ سَأَلُوكَ عَنِّي قُلْ لَهُمْ
بِاللَّهِ إِنْ سَأَلُوكَ عَنِّي قُلْ لَهُمْ عَبْدِي، وَمِلْكُ يَدِي، وَمَا أَعْتَقْتُهُ

أو قيل: مُشْتَاقٌ إِلَيْكَ، فَقُلْ لَهُمْ: أدري بهذا وأنا الَّذِي شَوَّقْتُهُ
قلت: لو كان الشيخ تقي الدين السُّروجي رحمه الله في جُملة من صَلَّى عليه
الرَّشيد لم يُقَدِّم غيره عليه.

قال الشَّهاب محمود: وكان الشَّيخ تَقِيَّ الدين السُّروجي مع دينه وَوَرَعه وَزُهده
وعِفِّته - مُعْزِماً بِالْجَمَالِ، وكذلك قال الشَّيخ أثير الدين، وكان يَكْره مكاناً فيه امْرَأَةٌ،
وَمَنْ دَعَاهُ مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ: شَرِّطِي مَعْرُوفٌ، وهو أَلَا يَحْضُرُ بِالْمَجْلِسِ امْرَأَةٌ.

قال الشَّهاب محمود: وَكُنَّا يَوْمَافِي دَعْوَةٍ فَأَحْضَرَ صَاحِبَ الدَّعْوَةِ شِوَاءً، وَأَمَرَ
بِإِذْخَالِهِ إِلَى النِّسَاءِ يُقَطِّعْنَهُ وَيَجْعَلْنَهُ فِي الصُّحُونِ، فَلَمَّا أَحْضَرَ بَعْدَ ذَلِكَ تَقَرَّفَ مِنْهُ،
وَقَالَ: كَيْفَ يُؤْكَلُ وَقَدْ لَمَسْنَهُ^(١) بِأَيْدِيهِنَّ؟ قَالَ الشَّيخ أَثِيرُ الدين: وَلَمَّا تُوفِّيَ الشَّيخ
تَقِيَّ الدين بِمَصْرٍ رَابِعَ رَمَضَانَ الْمَعْظَمِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَسِتْمِائَةَ هـ، حَلَفَ أَبُو
مَحْبُوبِهِ أَلَّا يَدْفِنَهُ إِلَّا فِي قَبْرِ ابْنِهِ، وَقَالَ: كَانَ الشَّيخ يَهْوَاهُ بِالْحَيَاةِ، وَمَا أَفْرَقَ بَيْنَهُمَا
بِالْمَمَاتِ. هَذَا لِمَا كَانَ يَعْلَمُهُ مِنْ دِينِهِ وَعِفَافِهِ.



من أخبار العشاق

قلت: وَالشَّيخ مدرِك^(٢)، هُوَ أَبُو هَذِهِ الْعُذْرَةِ، وَثَمَرَةُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ؛ فَإِنَّهُ مِمَّنْ
هَامَ مَعَ زُهْدِهِ وَوَرَعِهِ بِالْجَمَالِ، وَعَفَّ وَصَبَرَ إِلَى أَنْ مَاتَ. وَكَانَ الشَّيخ مُدْرِكُ الْمَذْكُورِ
مِنْ أَكْبَارِ عُلَمَاءِ الْمَغْرِبِ الْمُتَفَقِّهِينَ، وَكَانَ مَطْبُوعاً فِي نَظْمِ الشَّعْرِ الْجَيِّدِ الرَّقِيقِ، وَكَانَ
يُقْرَأُ الْأَدَبَ، وَلَهُ مَجْلِسٌ بِمَحَلَّةِ دَارِ الرُّومِ، وَكَانَ لَا يَقْرَأُ إِلَّا الْأَخْدَاثَ، فَقَتِنَ
بَنَصْرَانِيَّ اسْمُهُ عَمْرُو بْنُ يُوْحَنَّا، كَانَ مِنْ أَحْسَنِ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَأَسْلَمَهُمْ طَبْعاً، فَهَامَ
الشَّيخُ بِهِ، وَكُتِبَ رُقْعَةٌ وَطَرَحَهَا فِي حِجْرِهِ وَهِيَ:

| | |
|-------------------------------|---|
| بِمَجَالِسِ الْعِلْمِ الَّتِي | بَكَتْ جَمْعُ جُمُوعِهَا |
| إِلَّا رَتْنِيَتْ لِمُفْلَةٍ | غَرِقَتْ بِمَاءِ دُمُوعِهَا |
| وَلَمَهْجَةٍ حَرَقَتْ بِمَا | قَدْ شَبَّ بَيْنَ ضُلُوعِهَا ^(٣) |
| بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةٌ | اللَّهُ فِي تَضْيِيعِهَا |

فَلَمَّا قَرَأَهَا عَمْرُو اسْتَحْيَا، وَعَلِمَ بِهَا مَنْ فِي الْمَجْلِسِ، فَانْقَطَعَ عَمْرُو، وَاشْتَدَّ

(١) فِي ط: «مَسْنَهُ».

(٢) فِي مِصَارِعِ الْعِشَاقِ: «أَبُو الْقَاسِمِ مَدْرِكُ بْنُ مُحَمَّدٍ الشَّيْبَانِي».

(٣) هَذَا الْبَيْتُ لَمْ يَرِدْ إِلَّا فِي ب، د.

بالشيخ الوجد، فترك المجلس ونظم القصيدة المشهورة. قيل: إنها اشتملت على سائر عبادات النصارى، ومواقيتهم، وأسماء المعظمين في دينهم.

وعده صاحب مصارع^(١) العشاق مع الذين ماتوا غراماً. وقال في كتابه الموسوم «بمصارع العشاق». أخبرنا القاضي أبو الفرج المعافى قال: أنشدنا أبو القاسم مذكر بن محمد الشيباني لنفسه في عمرو النضراني، قال القاضي أبو الفرج، وقد رأيت عمراً وقد ابيض رأسه:

مَنْ عَاشِقٍ نَاءٍ هَوَاهُ دَانَ
مُوثِقُ قَلْبٍ مُطْلَقُ الْجُثْمَانِ
مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ كَسَبَتْ يَدَاهُ
شَوْقاً إِلَى رُؤْيَا مِنْ أَشْقَاهُ
يَا وَيْحَهُ مِنْ عَاشِقٍ مَا يَلْقَى
ذَابَ إِلَى أَنْ كَادَ يَفْنَى عِشْقَاهُ
لَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرَ طَرْفٍ يَبْكِي
تُطْفِئُهُ نِيرَانُ الْهَوَى وَتُذَكِّي
إِلَى غَزَالٍ مِنْ بَنِي النَّصَارَى
وَعَادَرَ الْأَشْدَّ بِهِ حَيَارَى
رِثْمٌ بَدَارَ الرِّزْمِ رَامَ قَتْلِي
وَطُرَّةٌ بِهَا اسْتَطَارَ عَقْلِي
رِثْمٌ بِهِ أَيْ هَزَبِرٍ لَمْ يَصْدُ
مَتَى نَقْلُهَا، قَالَتِ الْأَحَاظُ قَدْ
[مَا أَبْصَرَ النَّاسُ جَمِيعاً بَذَرَا
أَحْسَنَ مِنْ عَمْرُو، فَذَيْتُ عَمْرَا
هَذَا أَنَا ذَا بِقَدِّهِ مَقْدُودُ

نَاطِقٌ دَمْعَ صَامِتِ اللِّسَانِ^(٢)
مُعَذِّبٌ بِالصَّدِّ وَالْهَجْرَانِ
غَيْرِ^(٣) هَوَى نَمَّتْ بِهِ عَيْنَاهُ
كَأَتَمَا عَافَاهُ مَنْ أَبْلَاهُ
مَنْ أَذْمَعُ مُنْهَلَةً مَا تَرَقَا
وَعَنْ دَقِيقِ الْفِكْرِ سُقْمَا دَقَا^(٤)
بِأَذْمَعٍ مِثْلِ نِظَامِ السُّلُوكِ
كَأَنَّهَا قَطَرَ السَّمَاءِ تَحْكِي
عِذَارُ خَدْيِهِ سَبَى الْعِذَارَى
فِي رِبْقَةِ الْحَبِّ لَهُ أُسَارَى
بِمُقْلَةٍ كَخَلَاءٍ لَا عَنْ كُحْلٍ
وَحُسْنٍ وَجْهِهِ وَقَبِيحٍ فِعْلٍ
يَقْتُلُ بِاللَّحْظِ، وَلَا يَخْشَى الْقَوْدُ
كَأَنَّهَا نَاسَوْتُهُ حِينَ اتَّحَدُ
وَلَا رَأَوْا شَمْساً وَغُضْنَا نَضْرَا
ظَنِّي بِعَيْنَيْهِ سَقَانِي خَمْرَا
وَالدَّمْعُ فِي خَدِّي لَهُ أَخْدُودُ

(١) هو جعفر بن أحمد بن الحسين السراج، أديب عالم بالقراءات والنحو واللغة، وله كتاب مصارع العشاق، ومناقب السودان وحكم الصبيان وغيره من الكتب توفي سنة ٥١٠ هـ.

(٢) مصارع العشاق ٣٤١ - ٣٤٥، معجم الأدباء ١٩/١٣٦ - ١٤٥.

(٣) كذا في المصارع وياقوت، وفي الأصول «لكن».

(٤) في المصارع وياقوت.

نَاطِقَةٌ وَمَا أَحَارَتْ نُطْقًا تُخْبِرُ عَنْ حُبِّ لَهْ اسْتَرْقَا

مَا ضَرَّ مَنْ فَقَدِي بِهِ مَوْجُودُ^(١)
 إِنْ كَانَ ذَنْبِي عِنْدَهُ الْإِسْلَامُ^(٢)
 وَاخْتَلَّتِ الصَّلَاةُ وَالصَّيَامُ
 يَا لَيْتَنِي كُنْتُ لَهُ صَليباً
 أَبْصِرُ حُسْنَ وَأَشْمُ طَيْباً
 يَا لَيْتَنِي كُنْتُ لَهُ قُزْبَاناً
 أَوْ جَائِليقاً كُنْتُ أَوْ مَطْرَاناً^(٣)
 بَلْ لَيْتَنِي كُنْتُ لِعَمْرٍو مُضْحِفاً
 أَوْ قَلَمًا يَكْتُبُ بِي مَا أَلْفَا
 بَلْ لَيْتَنِي كُنْتُ لِعَمْرٍو عُوْذَةً
 أَوْ تَرْكَةً بِاسْمِهِ مَا أَخُوذَهُ
 بَلْ لَيْتَنِي كُنْتُ لَهُ زُتَاراً
 حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ طَوَى النَّهَاراً
 [قَدْ وَالَّذِي يُبْقِيهِ لِي أَفْنَانِي
 ظَنَنْيَ عَلَى الْبِعَادِ وَالتَّدَانِي
 وَكَبِيدِي مِنْ خَدِّهِ الْمُضَرِّجِ
 لَا شَيْءٍ مِثْلَ الطَّرْفِ مِنْهُ الْأَذْعَجِ
 إِلَيْكَ أَشْكُو يَا غَزَالَ الْإِنْسِ
 يَا مَنْ هَلَالِي وَجْهَهُ وَشَمْسِي
 جَذَلِي كَمَا جَذَتْ بِحُسْنِ الْوُدِّ
 وَاضْدُ كَصَدِّي عَنْ طَوِيلِ الصَّدِّ
 هَا أَنَا فِي بَحْرِ الْهَوَى غَرِيقُ
 مُحْتَرقُ مَا مَسَّنِي حَرِيقُ

لَوْلَمْ يُقَبِّحْ فِعْلَهُ الصُّدُودُ
 فَقَدْ سَعَتْ فِي نَقْضِهِ الْآثَامُ
 وَجَازَ فِي الدِّينِ لَهُ الْحَرَامُ
 أَكُونُ مِنْهُ أَبْداً قَرِيباً
 لَا وَاشِياً أَخْشَى وَلَا رَقِيباً
 أَلْتَمُّ مِنْهُ الشُّغْرَ وَالْبَنَانَ
 كَيْمَا يَرَى الطَّاعَةَ لِي إِيْمَاناً
 يَقْرَأُ مِنِّي كُلَّ يَوْمٍ أَحْرُفاً
 مِنْ أَدَبٍ مُسْتَحْسَنٍ قَدْ صَنَّفَا
 أَوْ حُلَّةً يَلْبَسُهَا مَقْذُودَةً
 أَوْ بَيْعَةً فِي دَارِهِ مِنْبُودَةً^(٤)
 يُدِيرْنِي فِي الْخَضِرِ كَيْفَ دَارَا
 صِرْتُ لَهُ حَيْثُ إِذَا
 وَابْتَزَّ عَقْلِي وَالضَّنَى كَسَانِي
 حَلَّ مَحَلَّ الرُّوحِ مِنْ جُثْمَانِي
 وَكَبِيدِي مِنْ تَغْرِهِ الْمُفْلَجِ
 أَذْهَبُ لِلنُّسْكَ وَلِلتَّحْرِجِ
 مَا بِي مِنَ الْوَحْشَةِ بَعْدَ الْأُنْسِ
 لَا تَقْتُلِ النَّفْسَ بغيرِ النَّفْسِ
 وَارَعَ كَمَا أَرَعَى قَدِيمَ الْعَهْدِ
 فَلَيْسَ وَجَدْتُكَ بِكَ مِثْلَ وَجْدِي
 سَكْرَانُ مِنْ حُبِّكَ لَا أَفِيقُ
 يَرِثُنِي لِي الْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ

(١) ياقوت: «من فقري».

(٢) كذا في ياقوت، وفي المصارع و: «ديني».

(٣) الجائليق: رئيس الأساقفة.

(٤) ما بين العلامتين زيادة من المصارع وياقوت.

مِنْ سَقَمٍ بِي وَضَنْى طَوِيلٍ^(١)
 لِعَاشِقٍ ذِي جَسَدٍ نَحِيلٍ
 وَمُثْقَلَةٍ تَبْكِي بَدْمَعٍ وَبَدَمٍ
 مِنْهُ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى إِذَا ظَلَمَ
 يَا عَمْرُو يَا عَامِرَ قَلْبِي بِالْكَمَدِ
 إِنَّ امْرَأً أَسْعَدْتَهُ^(٢) لَقَدْ سَعِدَ^(٣)
 إِلَّا سَمِعْتَ الْقَوْلَ مِنْ فَصِيحٍ
 بَاخٍ بِمَا يَلْقَى مِنَ التَّبْرِيحِ
 وَالرَّوْحِ رُوحَ الْقُدُسِ وَالتَّاسُوتِ
 غَوْضٍ بِالنُّطْقِ عَنِ السُّكُوتِ
 حَلَّ مَحَلِّ الرِّيقِ مِنْهَا فِي الْقَمِّ^(٤)
 فَكَلَّمَ النَّاسَ وَلَمَّا يُفْطَمِ
 ثُوباً عَلَى مِقْدَارِهِ مَا قُصِّصَا
 يَشْفِي وَيُبْرِئُ أَكْمَهَا وَأَبْرَصَا
 وَبَاعِثَ الْمَوْتَى مِنَ الْقُبُورِ
 يَغْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
 مِنْ سَاجِدٍ لِرَبِّهِ وَزَاكِعٍ
 خَوْفاً إِلَى اللَّهِ بَدْمَعٍ هَامِعٍ
 وَعَالِجُوا طُولَ الْحَيَاةِ بُوسَا
 مُشْتَمَعِلِينَ يَعْْبُدُونَ عَيْسَى
 بِحَقِّ شَمْعُونَ الصِّفَا وَيُطْرَسِ
 بِحَقِّ حَزْقِيلَ وَبَيْتَ الْمُقْدِسِ
 مُطَهَّرًا مِنْ كُلِّ سُوءٍ قَلْبَهُ
 وَنَالَ مِنْ مَوْلَاهُ مَا أَحَبَّهُ

قَلَيْتَ شِغْرِي فَيْكَ هَلْ تَرْتِي لِي
 أَمْ هَلْ إِلَى وَضْلِكَ مِنْ سَبِيلِ
 فِي كُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ سَقَمٌ وَالْمِ
 شَوْقاً إِلَى بَذْرِ وَشَمْسٍ وَصَنَمِ
 أَقُولُ إِذَا قَامَ بِقَلْبِي أَوْ قَعَدَ
 أَقْسِمُ بِاللَّهِ يَمِينِ الْمَجْتَهِدِ
 يَا عَمْرُو نَاشِذْتُكَ بِالْمَسِيحِ
 يُخْبِرُ عَنْ قَلْبٍ لَهُ جَرِيحِ
 يَا عَمْرُو بِالْحَقِّ مِنَ اللَّاهُوتِ
 ذَاكَ الَّذِي فِي مَهْدِهِ الْمُنْحَوْتِ
 بِحَقِّ تَاسُوتٍ بِبَطْنِ مَزْيَمِ
 ثُمَّ اسْتَحَالَ فِي الْقَنْوَمِ الْأَقْدَمِ
 بِحَقِّ مَنْ بَعْدَ الْمَمَاتِ قُمْصَا
 وَكَانَ لِلَّهِ تَقِيًّا مُخْلِصَا
 بِحَقِّ مُخْيِي صُورَةِ الطُّيُورِ
 وَمَنْ إِلَيْهِ مَرْجِعُ الْأُمُورِ
 بِحَقِّ مَنْ فِي شَامِخِ الصَّوَامِعِ
 يَبْكِي إِذَا مَا نَامَ كُلُّ هَاجِعِ
 بِحَقِّ قَوْمٍ خَلَقُوا الرُّؤُوسَا
 وَقَرَعُوا فِي الْبَيْعَةِ النَّاقُوسَا
 بِحَقِّ مَارِي مَزْيَمِ وَبُولَسِ
 بِحَقِّ دَانِيَالَ بِحَقِّ يُونُسِ
 وَنِيَّوَى إِذَا قَامَ يَدْعُو رَبَّهُ
 وَمُسْتَقِيلًا فَأَقِيلَ ذَنْبَهُ

(١) ياقوت: «من سقم ومن ضنى».

(٢) ياقوت: «واصلته».

(٣) ما بين العلامتين زيادة من المصارع وياقوت.

(٤) في د: «محل الروح منها والدم».

من نافع الأدواء للمجنون
 من بركات النخل والزيتون^(١)
 وعيد شمعون وعيد الفطر
 وعيد مرماري الرفيع الذكر^(٢)
 والدخن اللاتي بكف الحامل
 ومن دخیل السقم في المفصل
 قاموا بدين الله في البلاد
 حتى اهتدى من لم يكن بهاد
 ساروا إلى الأقطار يثلون الحكم
 صاروا إلى الله ففازوا بالنعم
 من منزل التحريم والتحليل
 يزويه جيل قد مضى عن جيل
 بحق لوقا ذي الفعال الصالح
 من كل غاد منهم ورائح
 والمذبح المشهور في النواحي
 من راهب بالك ومن نواح
 وشربك القهوة كالفرصاد
 بما بعينيك من السواد
 بالحمد لله وبالتثنية
 عن كل ناموس له فقيه
 وبعض أركان الثقي والحلم
 موتهما كان حياة الخضم
 والجائليق العالم الرئاني

بحق ما في قلة الميرون
 بحق ما يؤثّر عن شمعون
 بحق أعياد الصليب الزهر
 وبالشعانيين الجليل القدر
 وعيد أشعيا وبالهياكل^(٣)
 يشقى بها من خبل كل خابل
 بحق سبعين من العباد
 وأرشدوا الناس إلى الرشاد
 بحق ثنتي عشرة من الأئم
 حتى إذا صبح الهدى جلّى الظلم
 بحق ما في مخكم الإنجيل
 وخبر ذي نبأ جليل
 بحق مرعيد الثقي الصالح
 والشهداء بالقل الصالح
 بحق مغمودية الأزواج
 ومن به من لابس الأمساح
 بحق تقريبك في الأعياد^(٤)
 وطول تببيضك^(٥) للأكباد
 بحق ما قدس شعيا فيه
 بحق نسطور وما يزويه
 شيخان كانا من شيوخ العلم
 لم ينطقا قط بغير فهم
 بحرمة الأسقف والمطران

(١) ياقوت والمصارع: «بركات الخوص».

(٢) ياقوت: «وعيد ما ماري».

(٣) ياقوت: «وعيد شعيا».

(٤) المصارع: «بالآحاد».

(٥) ياقوت: «تفتيتك».

والبَطْرَك الأَكْبَر والرهبان
بحقّ لوقا حين صلّى وابتَهَل^(١)
وبالمسيح المرتضى وما فعل
وما حوى مَفْرِق رأس مريم
بحقّ كلّ كاهنٍ مقدّم
وليلة الميلاد والتّلاقى
والفضح يا مُهذَّب الأخلاق
قدّسه القسّ مع الشّمس
وقدّموا الكاس لكلّ حاس
باعده الحبّ عن الحبيب
أعلىّ مناه أيسر التّقريب
مُحتسباً فيّ عظيم الأجر
من نثر ألفاظٍ ونظمٍ شِعْرِ

والقسّ والشّمس والذّيّراني
بحرمة المحبوس في أعلىّ الجبل
وبالكُنيسات القديمة الأولى
بحرمة الأسقوفيا والبيرم
بحرمة الصّوم الكبير الأعظم
بحقّ يوم الذّبْح في الإشراق^(٢)
والذهب الإبريز لا الأوراق^(٣)
بكلّ قدّاسٍ على قدّاس
وقربوا يوم خميس التّناس
إلا رغبت في رضا أديب
فذاب من شوق إلى المذيب
فأنظر أميري في صلاح أميري
مكتسباً فيّ جميل الشّكر



قصيدة ابن منير الطرابلسي في تتر

قلت: والشّيء بالشّيء يُذكر: الشّيخ مُدْرِك أَلْجَأتِهِ الضّرورة الغراميّة أن يَتَجشّم المشاقّ، ويَتَقرب إلى محبوبه بأقسام لها عند أهل النّضرائيّة محلّ عَظِيمُ الموقِع، كما أَلْجأت الشّيخ مُهذَّب الدّين بن منير الطّرابلسيّ الشّاعر المشهور أن يترك التّشيع - وكان من كبار الشيعة - ويُرْجّح جانب السّنة، ويوهي أقوال الرّافضة؛ وموجب ذلك أنّ مُهذَّب الدّين المذكور هاجر إلى بغداد بسبب مدح الشّريف الموسويّ نقيب الأشراف بها، وكان الشّريف أيضاً من كبار الشيعة، فلمّا دخل بغداد جهّز إلى الشّريف هديّة مع مملوكه بل معشوقه تتر الذي سارت الرُّكبان بغيره فيه، فأخذ الهدية، وأعجبه المملوك فأخذه، فلمّا وصل الخبر إلى مُهذَّب الدّين بن منير أشرف على ذهاب روحه، وكتب إلى الشّريف وإلى تتر:

عَذَبَتْ طَرْفِي بالسَّهَرِ وَأَذَبَتْ قَلْبِي بِالْفِكْرِ^(٤)

(١) ياقوت: «ومارقولاً حين صلى وابتهل».

(٢) ياقوت: «ذي الإشراق».

(٣) ياقوت والمصارع: «والذهب المذهب للثفاق».

(٤) القصيدة في تزيين الأسواق ١٧٤، ١٧٥.

وَمَزَجْتَ صَفْوِ مَوْدَتِي
وَمَنَحْتَ جُثْمَانِي الضُّنَى
وَجَفَوْتَ صَبًّا مَالَهُ
يَا قَلْبُ وَيَحَاكَ كَمْ تُخَا
وَالَامَ تَكْلَفُ بِالْأَعْنُ
رِيْمٌ يَفُوقُ إِنْ رَمَا
تَرْكُثُكَ أَغَيْنَ تَرْكُهَا
وَرَمَتْ فَأَضْمَتَ عَنْ قَسِي
جَرَحَتِكَ جَرَحًا لَا يُخَيِّ
تَلْهُوً وَتَلْعَبُ بِالْعَقْوِ
فَكَأَنَّهِنَّ صَوَالِجُ
تَخْفِي الْهُوَى وَتُسِيرُهُ
أَفْهَلُ لَوْجَدِكَ مِنْ مَدَى
نَفْسِي الْفِدَاءَ لَشَادِنِ
رَشَاءً تَحَاوِلُهُ الْخَوَا
عَذَلُ الْعِذُولُ وَمَا رَأَى
قَمَرٌ يُزَيِّنُ ضَوْءُ ضَا
تُذْمِي اللَّوَاظِظَ خَدَّهُ
هُوَ كَالْهَلَالِ مُلْتَمَّا
وَيَلَاهُ مَا أَخْلَاهُ فِي
نَوْمِي الْمَحْرَمِ بَعْدَهُ
بِالْمَشْعَرَيْنِ وَبِالضُّفَا
وَبِمَنْ سَعَى فِيهِ وَطَا
لِئِنَّ الشَّرِيفُ الْمَوْسُو
أَبْدَى الْجَحْوَودَ وَلَمْ يَرُ
وَالِيْتُ آلَ أُمَيَّةِ الطُّهْ
وَجَحَدْتُ بَيْعَةَ حَنِيدِ

مَنْ بَعْدَ بُعْدِكَ بِالْكَدَرِ
وَكَحَلْتُ جَفْنِي بِالسَّهْرِ
عَنْ حُسْنِ وَجْهِكَ مُضْطَبَّرُ
دَعِ بِالْغُرُورِ وَكَمْ تُغَرُّ!
مَنْ الظُّبَاءِ وَبِالْأَعْرُ
كَ بِسَهْمٍ نَاطِرُهُ النَّظَرُ
مَنْ بِأَسْهَنَ عَلَى خَطَرِ
يُ لَا يُنَاطُ بِهَا وَتَرُ
طَ بِالْخِيوطِ وَلَا الْإِبْرُ
لَ عِيُونَ أَبْنَاءِ الْخَزَرِ
وَكَأَنَّهِنَّ لَهَا أَكْرُ
وَخَفِي سِرُّكَ قَدْ ظَهَرَ
يَفْضِي إِلَيْهِ فَيَنْتَظَرُ
أَنَا مِنْ هَوَاهُ عَلَى خَطَرِ
طَرُ إِنْ تَنَنَّى أَوْ خَطَرُ
هَ فَحِينَ عَايَنَهُ عَذَرَ
بُحْ جَبِينَهُ لَيْلَ الشَّعَرِ
فَيُرى لَهَا فِيهِ أَثَرُ
وَالْبَدْرُ حُسْنًا إِنْ سَفَرَ
قَلْبِي الشَّقِيَّ وَمَا أَمَرُ
وَرَبِيعَ لَذَاتِي صَفَرَ
وَالْبَيْتَ أَقْسِمَ وَالْحَجَرَ
فَ بِهِ وَلَبَّى وَاعْتَمَرَ
يُ ابْنُ الشَّرِيفِ أَبِي مُضَرَ
دَ إِلَيَّ مَمْلُوكِي تَنَزَرَ
مَرَّ الْمِيَامِينَ الْغُرَزُ
وَعَدَلْتُ عَنْهُ إِلَى عُمرَ

وإذا جرى ذكر الصّحاحا
قلت المقدّم شيخ تيّـ
ما سلّ قطّ ظبّي على
كلّا ولا صدّ البّتو
وأثابها الحسنی وما^(١)
وبكيت عثمان الشّـ
وشرح حُسن صلاته
وقرأت من أوراق مصـ
ورثيت طلحة والزّبيـ
وأزور قبرهم ما وأز
وأقول أمّ المؤمنـ
ركبت على جمل لتصد
وأنت لتصلح بين جيـ
فأتى أبو حسنٍ وسلّ
وأذاق إخوتاه الرّدى
ما ضرّه لو كان كفّ
وأقول إنّ إمامكم
وأقول إنّ أخطأ مُعَا
هذا ولم يغدر معا
بطلّ بسوأتة يقا
وجنيت من رطب النّوا
وأقول ذنب الخارجـ
لا ثائر لقتالهم
والأشعريّ بما يؤو
قال أنصّبوا لي منبّرا
فعلا وقال: خلعتُ صا

بة بين قوم واشتَهـ
ثمّ ثمّ صاحبه غمـ
آل النّبيّ ولا شَهـ
ل عن الثّـرات ولا زَجـ
شقّ الكتاب ولا بقـ
يد بكاء نسوان الحضـ
جُنح الظّلام المعتكـ
حفّيه البراءة والزّـ
رب كلّ شعـر مُبتكـ
جر من لحاني أو زَجـ^(٢)
ين عقوقها إخدَى الكُـ
بح من بنيها في زُـ
ش المسلمين على غـ
حسامه وسطا وكـ
وبعير أمهم عَقـ
وعفّ عنهم إذ قلـ
ولّى بصِفّين وفـ
وية فما أخطأ القـ
وية ولا غمرو مـ
تل لا بصارمه الذّـ
صب ما تتمم واختـ
ين على عليّ مُغتـ
في الثّـهروان ولا أثـ
ل إليه أمرهم ما شعـ
فأنّا البريء من الخطـ
حبكم وأوجز واختـ

(١) ج: «وأناها».

(٢) د: «غدر».

وأقول إنَّ يزيد ما
ولجيشه بالكف عن
والشُّمر ما قتل الحسيه
وحلقت في عَشْرِ المحرَّم
وَنَوَيْتُ صَوْمَ نَهَارِهِ
ولبستُ فيه أَجَلَ ثَوِي
وسَهَّزْتُ فِي طَبَخِ الحُبُو
وغدوت مَكْتَحِلًا أَصَا
ووقفت في وسط الطَّريقِ
وأكلت جرجير البقو
وجعلتها خير المآ
وَعَسَلْتُ رَجُلِي كُلَّهَا^(١)
وَأَمِينَ أَجْهَر فِي الصَّلَا
وَأَسَنَ تَسْنِيمِ القَبُو
وإذا جرى ذكر الغدي
[ولبستُ فيه من الملا
وسكنت جَلَقَ واقتدي
وأقول مِثْلَ مَقَالِهِمْ
مصطحيحتي مكسورة
بَقَرْتُ رِيَّ بَرِّئِيسِهِمْ
وَحَفِيفُهُمْ مَسْتَثْقَلُ
وطباعهم كجبالهم
مَا يُذِرُكَ التَّشْبِيبَ تَغْ

شرب الخُمُورَ وَلَا فَجَرَ
أَبْنَاءَ فَاطِمَةَ أَمْرٍ
نَ وَلَا ابْنَ سَعْدٍ مَا غَدَرَ
مَا اسْتَطَالَ مِنَ الشُّعْرِ
وَصِيَامَ أَيَّامَ أَخْرِ
بِ لِلْمَلَابِسِ يُدْخِرُ
بِ مِنَ الْعِشَاءِ إِلَى السَّحَرِ
فَحُ مِنْ لَقِيَتْ مِنَ الْبَشَرِ
قِي أَقْصَى شَارِبٍ مِنْ عَبَرِ
لِ بِلَحْمِ جُونِي الْجَفَرِ
كُلِّ وَالْفَوَاكِهَ وَالْخُضْرُ
وَمَسَحْتُ خُفِّي فِي السَّفَرِ
ة كَمَنْ بِهَا قَبْلِي جَهَرِ
ر لِكُلِّ قَبْرِ يُخْتَفَرُ^(٢)
ر أَقُولُ مَا صَحَّ الْخَبَرِ
بِسِ مَا اضْمَحَلَّ وَمَا انْدَثَرَ^(٣)
ت بِهِمْ وَإِنْ كَانُوا بَقَرُ
بِالْفَاشِرِيَّةِ قَدْ فَشَرُ
وَفَطِيرَتِي فِيهَا قَصَرُ^(٤)
طَيْشَ الظَّلِيمِ إِذَا نَفَرُ
وَصَوَابَ قَوْلِهِمْ هَذَرُ
خُبُثْتُ وَقُدَّتْ مِنْ حَجَرِ
رِيدَ الْبَلَابِلِ فِي السَّحَرِ

(١) ج: «ضلة».

(٢) د: «محتفر».

(٣) من تزيين الأسواق.

(٤) قال في تزيين الأسواق: «المصطحية: خشبة في الأصل تجعل تحت دود القز. وأهل دمشق يسمون الصولجان المنقوش مصطحية، ويكون معهم في المواسم».

أَقُولُ فِي يَوْمِ تَحَا
وَالصَّحَفُ يُنْشَرُ طَيْهَا
هَذَا الشَّرِيفُ أَضْلَى
مَا لِي مُضِلٌّ فِي الْوَرَى
فَيَقَالُ خُذْ بِيَدِ الشَّرِيفِ
لَوْاحَةٍ تَسْطُوقَمَا
وَاللَّهُ يَغْفِرُ لِلْمَسْ
فَاخْشَ إِلَهَ بِسُوءِ فَعْدِ
وَالْيَكْهَابِ دَوِيَّةُ
شَامِيَّةَ لَوْ شَامَهَا
وَرَوَى وَأَيَقْنُ أَنْنِي^(٣)
حَبَزْتُهَا فَعَدْتُ كَزْهَ
[وَبَدِيعَةَ كَبْدِيعَةِ عَذْرَا
وَالِى الشَّرِيفِ بَعَثْتُهَا
رَدَّ الْغَلَامَ وَمَا اسْتَمَّ
وَأَثَابَنِي وَجَزَيْتُهُ

رُلَهُ الْبَصَائِرُ وَالْبَصَرُ^(١)
وَالنَّارُ تَزْمِي بِالشَّرَزِ
بَعْدَ الْهَدَايَةِ وَالنَّظَرِ
إِلَّا الشَّرِيفُ أَبُو مُضَرِ
فَ فَمَسْتَقَرُّكُمْ مَا سَقَرُ
تُبْقِي عَلَيْهِ وَلَا تَذُرُ
يَا إِذَا تَنَصَّلَ وَاعْتَذَرَ
لَكَ وَاحْتَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ
رَقَّتْ لِرِقَّتِهَا الْحَضَرِ
قَسَّ الْفَصَاحَةَ لَأَفْتَحَرَ^(٢)
بِحَرِّ وَأَلْفَاظِي دُرُزِ
رِ الرُّوضِ بِاكَرَةِ الْمَطَرِ
ءَ تَرْفُلُ فِي الْحَبَرِ^(٤)
لَمَّا قَرَاهَا وَانْبَهَرَ
رَّ عَلَى الْجَحُودِ وَلَا أَصَرُ
شُكْرًا وَقَالَ: لَقَدْ صَبَرَ^(٥)



بديهة ابن الوردي

ومن لطائف المنقول ما نقله الشيخ الإمام العالم العلامة المحدث أبو الفداء إسماعيل بن كثير، قال: قدِمَ الشيخ الإمام العالم العلامة [الحَبَرُ]^(٦) زَيْنُ الدِّينِ أَبُو

(١) في تزيين الأسواق: «البصيرة».

(٢) ب: «قيس الفصاحة».

(٣) ب: «ودرى».

(٤) من تزيين الأسواق.

(٥) قال الأنطاكي: فلَمَّا وصلت القصيدة إلى الشريف ضحك وقال: قد أبطأنا عليه، فهو معذور، وجهاز المملوك مع هدايا حسنة، فمدحه مهذب الدين فقال:

إلى المرتضى حتَّ المطيِّ فإِنَّهُ
ترى النَّاسَ أَرْضَاءَ فِي الْفَضَائِلِ عِنْدَهُ
وَنَجَلَ الزَّكِّيَّ الْهَاشِمِيَّ هُوَ السَّيِّئُ
وَأَمَّا عَلَى كُلِّ الْبَرِّيةِ قَدْ سَمَا

(٦) تكملة من ط.

حَفْصُ عُمَرُ بْنُ الْوَزْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى دِمَشْقِ الْمَحْرُوسَةِ فِي أَيَّامِ قَاضِي الْقَضَاةِ نَجْمُ الدِّينِ بْنِ صَضْرَى الشَّافِعِيِّ تَعَمَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، فَأَجْلَسَهُ فِي صُفَّةِ الشُّهُودِ الْمَعْرُوفَةِ بِالشِّبَاكِ، وَكَانَ الشَّيْخُ زَيْنُ الدِّينِ يَلْبَسُ زِيَّ أَهْلِ الْمَعْرَةِ، فَاسْتَزَارَهُ الشُّهُودُ، فَحَضَرَ كِتَابَ مُشْتَرَى، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اعْطُوهُ لِلْمَعْرِيِّ يَكْتُبُهُ، فَقَالَ الشَّيْخُ زَيْنُ الدِّينِ الْمَذْكُورُ: تَرْسُمُونَ^(١) أَكْتُبُهُ نَظْمًا أَوْ نَثْرًا؟ فَرَادَ اسْتِهْزَاؤُهُمْ، فَقَالُوا: نَظْمًا، فَأَخَذَ الْقِرْطَاسَ وَكَتَبَ:

بِسْمِ إِلَهِ الْخَلْقِ هَذَا مَا اشْتَرَى
 مِنْ مَالِكِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْأَزْرَقِ
 قَبَاعَهُ قِطْعَةً أَرْضٍ وَاقِعَةً
 بِشَجَرٍ مُخْتَلِفِ الْأَجْنَاسِ
 وَذَرْعُ هَذِي الْأَرْضِ بِالذَّرَاعِ
 وَذَرْعُهَا فِي الْعَرَضِ أَيْضًا عَشْرَةٌ
 وَحَدُّهَا مِنْ قَبْلَةٍ مِلْكُ التَّقِي
 وَمِنْ شَمَالٍ مِلْكُ أَوْلَادِ عَلِيٍّ
 وَهَذِهِ تُعْرَفُ مِنْ قَدِيمٍ
 بَيْنَعًا صَحِيحًا لِأَزْمَا شَرْعِيًّا
 بِثَمَنِ مَبْلُغِهِ مِنْ فِضَّةٍ
 جَارِيَةٍ لِلنَّاسِ فِي الْمَعَامَلَةِ
 قَبَضَهَا الْبَائِعُ مِنْهُ وَافِيهِ
 وَسَلَّمُ الْأَرْضِ إِلَى مَنْ اشْتَرَى
 بَيْنَهُمَا بِالْبَدَنِ التَّفَرُّقُ
 ثُمَّ ضَمَانُ الدَّرَكِ الْمَشْهُورِ
 وَأَشْهَدَا عَلَيْهِمَا بِذَاكَ فِي
 مِنْ عَامِ سَبْعِمِائَةٍ وَعِشْرَةٍ
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَصَلَّى رَبِّي
 يَشْهَدُ بِالْمُضْمُونِ مِنْ هَذَا عُمَرُ

مَحْمَدُ بْنُ يُوْنُسَ بْنِ سُنْقَرَا
 كِلَاهُمَا قَدْ عُرِفَا مِنْ جِلْقِ
 بِكُورَةِ الْخُوطَةِ وَهِيَ جَامِعَةٌ
 وَالْأَرْضُ فِي الْبَيْعِ مَعَ الْغُرَاسِ
 عِشْرُونَ فِي الطُّولِ بِلَا نِزَاعٍ
 وَهُوَ ذِرَاعٌ بِالْيَدِ الْمُغْتَبَرَةِ
 وَحَائِزُ الرُّومِيِّ حَدَّ الْمَشْرِقِ
 وَالْعَرَبُ مِلْكُ عَامِرِ بْنِ جُهَبَلٍ
 بِأَنَّهَا قِطْعَةٌ بِئْتُ الرُّومِي
 ثُمَّ شِرَاءٌ قَاطِعًا مَرْعِيًّا
 وَازْنَةُ جَيِّدَةً^(٢) مُبَيَّضَةٌ
 أَلْفَانِ مِنْهَا النُّصْفُ أَلْفُ كَامِلَةٍ
 فَعَادَتِ الدُّمَّةُ مِنْهُ خَالِيَةً
 فَقَبِضُ الْقِطْعَةِ مِنْهُ وَجَرَى
 طَوْعًا فَمَا لِأَحَدٍ تَعَلُّقُ
 فِيهِ عَلَى بَائِعِهِ الْمَذْكُورِ
 رَابِعَ عَشَرَ رَمَضَانَ الْأَشْرَفِ
 مِنْ بَعْدِ خَمْسِ تَلَوِّهَا لِلْهَجْرَةِ
 عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ وَالصَّخْبِ
 ابْنِ الْمَظْفَرِ الْمَعْرِيِّ إِذْ حَضَرَ

فلما فرغ الشيخ زين الدين وتأمل الجماعة سرعة بديهته مع استيعاب الشروط الشرعية اعترفوا بفضله، واعتذروا إليه لما علموا أنه ابن الوزدي، وأجلسوه في الصدر، ولكنهم عجزوا عن رسم الشهادة نظماً، وسألوه ذلك فكتب عن شخص منهم إلى جانبه يدعى ابن رسول:

قَدْ حَضَرَ الْعَقْدَ لَذَاكَ أَحْمَدُ ابْنُ رَسُولٍ وَبِذَاكَ يَشْهَدُ



تحفة من فرائد كتاب الإنشاء

عبد الحميد الكاتب

قال عبد الحميد كاتب مَرَّوان آخر ملوك بني أمية: لو كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء لنزل على كتاب الإنشاء. وقال: البلاغة هي ما رَضِيَتْهُ الْخَاصَّةُ، وَفَهِمَتْهُ الْعَامَّةُ. ومن كلامه: خَيْرُ الْكَلَامِ مَا كَانَ فَحْلاً وَمَعْنَاهُ بِكْرًا.



إسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد

كتب إلى يحيى بن خالد: في شكرٍ ما تقدّم من إِيْسَانِكَ شَاغِلٌ عَنْ اسْتِئْطَاءِ مَا تَأَخَّرَ مِنْهُ.

جمع من الشكر والاستزادة بأبلغ عبارة، وأوجز.



عمرو بن مسعدة كاتب المأمون

كتب إليه: كتابي هذا وأجنادُ أمير المؤمنين على أَحْسَنِ ما تكون عليه طَاعَةٌ جُنْدٍ تَأَخَّرَتْ أَرْزَاقُهُمْ، وَاخْتَلَّتْ أَحْوَالُهُمْ. فقال المأمون لأحمد بن يوسف: لَئِلهُ دَرُّ عمرو، ما أَبْلَغَهُ! أَلَا تَرَى إِلَى إِدْمَاجِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي الْإِخْبَارِ، وَإِغْنَاءَهُ عَنِ الْإِكْثَارِ!



إبراهيم الصولي كاتب المعتصم والواثق والمتوكل

كان يقول: الْمَتَصَفِّحُ لِلْكِتَابِ أَبْصَرُ بِمَوَاقِعِ الْخَلَلِ مِنْ مُنْشِئِهِ. وكان يقول: الْخُبْرُ لِيَوْمِهِ، وَالطَّبِيخُ لِسَاعَتِهِ، وَالنَّبِيذُ لِسَنَتِهِ.

ومن بديع نثره، ما كتبه عن أمير المؤمنين إلى بعض الخارجين يتهدّدهم وَيَتَوَعَّدُهُمْ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَاةً، فَإِنْ لَمْ تُغْنِ عَقَبَ بَعْدَهَا وَعِيداً، فَإِنْ لَمْ يُغْنِ أَغْنَتْ عَزَائِمُهُ وَالسَّلَامُ.

وهذا الكلام مع وَجَازَتِهِ فِي غَايَةِ الْإِبْدَاعِ، وَيُنْشَأُ مِنْهُ بَيْتٌ شِعْرٍ، وَهُوَ:

أَنَاةٌ فَإِنْ لَمْ تُغْنِ عَقَبَ بَعْدَهَا وعيداً، فَإِنْ لَمْ يُغْنِ أَغْنَتْ عَزَائِمُهُ

وكان يقول: ما أَتَكَلْتُ في مُكَاتِبَتِي إِلَّا على ما يتخيله خاطري، ويجيش في صدري، إِلَّا قولي: «وصار ما يُخْرِزُهُمْ يُبْرِزُهُمْ، وما كان يَغْلُهُمْ يَغْتَلُهُمْ»؛ وقولي من أخرى: «فَأَنْزَلُوهُ من مَعْقِلٍ إلى عَقَالٍ، وبدلوه آجالاً من آمالٍ»، فإني أَلَمْتُ بقولي «آجالاً من آمالٍ» بقول مُسلم بن الوليد الأَنْصَارِيِّ المعروف بصريع العَوَانِي:

مُوفٍ على مُهَجٍ في يَوْمٍ ذِي رَهَجٍ كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ^(١)
وفي المَعْقِلِ وَالْعَقَالِ بِقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ^(٢):

فَإِنْ بَاشَرَ الإِصْحَارَ فَالْبَيْضُ وَالْقَنَا قِرَاهُ وَأَحْوَاضُ الْمَنَايَا مَنَاهِلُهُ
وإنْ يَبْنِ حِيطَاناً عَلَيْهِ فَإِنَّمَا أَوْلُئِكَ عُقَالَاتُهُ لَا مَعَاقِلُهُ^(٣)
وإِلَّا فَأَعْلِمُهُ بِأَنَّكَ سَاخِطٌ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْخَوْفَ لَا شَكَّ قَاتِلُهُ

ومن رقيق شعره حين أحضر لمناظرته أحمد بن المُدَبِّرِ، فقال له ارتجالاً:
صَدَّ عَنِّي، وَصَدَّقَ الْأَقْوَالَا وَأَطَاعَ الْوُشَاةَ وَالْعُذَالَا
أُتْرَاهُ يَكُونُ شَهْرُ صُدُودٍ وَعَلَى وَجْهِهِ رَأَيْتُ الْهَلَالَا!
فَطَرِبَ الْمُتَوَكَّلُ وَاهْتَزَّ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ.
ومن رقيق شعره أيضاً قوله:

دَنْتُ بِأَنَاسٍ عَنِ ثَنَاءِ زِيَارَةٍ وَشَطَّ بَلِيلِي عَنْ دُنُو مَزَارِهَا
وإنْ مُقِيمَاتٍ بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى لِأَقْرَبُ مِنْ لَيْلَى وَهَاتِيكَ دَارِهَا



الحسن بن وهب

سُئِلَ عن مَبِيتِهِ فقال: شَرِبْتُ الْبَارِحَةَ على عِقْدِ الثُّرَيَّا ونطاقِ الجوزاء، فلَمَّا تَنَبَّهَ الصُّبْحُ نَمْتُ فَلَمْ أَسْتَيْقِظْ إِلَّا بلبسي قميص الصُّبْحِ.



بدیع الزمان الهمداني

الحمد لله الذي بَيَّضَ القَارَ وَسَمَّاهُ الْوَقَارَ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْسِلَ الْفُؤَادَ كَمَا غَسَلَ السَّوَادَ.

(١) ديوانه: ٩.

(٢) ديوانه: ٢٨/٣.

(٣) العقالات: جمع عقال، وهو داء يعرض للخيل، يعقلها عن الجري، والمعازل: جمع معقل، وهو الحصن، وأصله في أعلى الجبل.

ومن إنشائه البديع: قد يوحشُ اللَّفْظُ كُلُّهُ وَدَّ، وَيُكْرَهُ الشَّيْءُ^(١) وليس منه بُدْ؛ هذه العرب تقول: لا أبا لك ولا يَقْصِدُونَ الدَّمَّ، وويل لأمِّه؛ لِأَمْرٍ إِذَا هُمْ^(٢)، وَسَبِيلُ دَوِي الْأَلْبَابِ فِي الدُّخُولِ مِنْ هَذَا الْبَابِ أَنْ يَنْظُرُوا فِي الْقَوْلِ إِلَى قَائِلِهِ، فَإِنْ كَانَ وَلِيًّا فَهُوَ لِلْوَلَاءِ وَإِنْ حَشَنَ، وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا فَهُوَ لِلْبَلَاءِ وَإِنْ حَسَنَ.



أبو القاسم المغربي

ومن إنشاء أبي القاسم علي بن الحسن المعروف بالمغربي: وَصَلَتْ الرُّقْعَةُ فَاسْتَجَفَيْتُ التَّسِيمَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى لَطَافَتِهَا، وَاسْتَقَلْتُ عَقُودَ اللُّوْلُؤِ بِالْقِيَاسِ إِلَى خِفَّةِ مَوْقِعِهَا. ومن بديع إنشائه: وَعَرَفْتُ فِي هَوَاجِسِ الْفِكْرِ، وَوَسَاوِسِ الذِّكْرِ حَتَّى نَسَيْتُكُمْ مِنْ شِدَّةِ التَّذَكُّرِ، أَوْ لَقَيْتُكُمْ مِنْ حِدَّةِ التَّصَوُّرِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى أَسْأَلُ أَنْ يَسْقُطَ بَيْنَنَا فِي تَشَاكِي أَلَمِ الْفِرَاقِ إِسْنَادُ الْقَلَمِ بِمُشَافَهَةِ الْفَمِ لِلْفَمِ.



أبو الحسن بن بسام

من إنشائه: عَارِضٌ إِذَا هَمَعَ اسْتَوْشَلَتْ الْبَحَارُ، وَنَجْمٌ إِذَا طَلَعَ تَضَاءَلَتْ الشَّمُوسُ وَالْأَقْمَارُ، وَسَابِقٌ لَا يَمْسَحُ وَجْهَهُ إِلَّا بِهَيَادِبِ الْغُيُومِ، وَصَارِمٌ لَا يَحُلِي غَمْدُهُ إِلَّا بِأَفْرَادِ التَّجُومِ.



ضياء الدين بن الأثير الجزري

ودولته هي الضاحكة وإن كان نَسَبُهَا إِلَى الْعَبَّاسِ، وَهِيَ خَيْرُ دَوْلَةٍ أُخْرِجَتْ لِلدَّهْرِ وَرَعَايَاهَا خَيْرُ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَلَمْ يَجْعَلْ شِعَارَهَا مِنْ لَوْنِ الشَّبَابِ إِلَّا تَفَاؤُلًا بِأَنَّهَا لَا تَهْرَمُ، وَأَنَّهَا لَا تَزَالُ مَحْبُوءَةً مِنْ أَبْكَارِ السَّعَادَةِ بِالْوَصْلِ الَّذِي لَا يُضْرَمُ. وله في القلم: فَهُوَ الْمَلَقَّبُ بِالْجَوَادِ الْمَضْمَرِّ، وَإِذَا أَخَذَتْ السَّوَابِقُ فِي إِحْضَارِهَا بَلَغَ الْغَايَةَ وَمَا أَحْضَرَ. وله لون تحقق فيه القول النبوي: «لَوْ جُمِعَتِ الْخَيْلُ فِي صَعِيدٍ لَسَبَقَهَا الْأَشْفَرُ».



تاج الدين بن الأثير

ومن إنشاء القاضي تاج الدين بن الأثير: وَالْمَنْجَنِيقاتُ تَفُوقُ إِلَيْهِمْ قَسِيَّهَا، وَتَخَيَّلُ لَهُمْ أَنَّهَا سَاعِيَةٌ بِحِبَالِهَا إِلَيْهِمْ وَعَصِيَّتُهَا، وَهِيَ لِلْحُصُونِ مِنْ آكَدِ الْخُصُومِ، وَإِذَا

(١ - ١) كَذَا فِي ط، ب، وَفِي «أ»: «وَيْلُ لَهُ لَا مِنْ أَذَاهُمْ».

أَمَّتْ جِصْنَأَ حَكَمَ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِإِمَامٍ مَعْصُومٍ، وَمَتَى امْتَرَى خَلَقَ فِي آلَاتِ الْفَتْوحِ لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْتَرِينَ، وَإِذَا نَزَلَتْ بِسَاحَةِ قَوْمِ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُتَذَرِينَ؛ تُذْعَى إِلَى الْوَعْيِ فَتَكَلَّمُ، وَمَا أُقِيمَتْ صَلَاةُ حَرْبٍ عِنْدَ حِصْنٍ إِلَّا كَانَ ذَلِكَ الْحِصْنُ مِمَّنْ يَسْجُدُ وَيُسَلِّمُ.



أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي

وَلَقَدْ سَهَوْتُ عَنِ الصَّابِيِّ وَكَانَ فِي هَذَا الْفَنِّ أَمَةً^(١)؛ وَهُوَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَلَالٍ صَاحِبِ الرِّسَالِ الْمَشْهُورَةِ، وَالنَّظْمِ الْبَدِيعِ، كَانَ كَاتِبَ الْإِنْشَاءِ بَيْغَدَادَ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ وَعِنْدَ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ بْنِ بُؤَيْهِ، وَكَانَ مُتَشَدِّدًا فِي دِينِهِ؛ وَاجْتَهَدَ مُعِزُّ الدَّوْلَةِ أَنْ يُسَلِّمَ فَلَمْ يَفْعَلْ، وَكَانَ يَصُومُ شَهْرَ رَمَضَانَ، وَيَحْفَظُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ أَحْسَنَ حِفْظٍ، وَاسْتَعْمَلَهُ فِي رِسَالَتِهِ. وَالصَّابِيُّ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ خَرَجٍ عَنْ دِينِ قَوْمِهِ. قِيلَ لِلصَّابِيِّ: إِنَّ الصَّاحِبَ بْنَ عَبَّادٍ قَالَ: مَا بَقِيَ مِنْ أَوْطَارِي وَأَعْرَاضِي إِلَّا أَنْ أَمْلُكَ الْعِرَاقَ، وَأَتَصَدَّرَ بَبَغْدَادَ، وَأَسْتَكْتَبَ الصَّابِيَّ، وَيَكْتُبَ عَنِّي وَأَغَيِّرَ عَلَيْهِ. فَقَالَ الصَّابِيُّ: وَيُغَيِّرُ عَلَيَّ وَإِنْ أَصَبْتُ!

وَمِنْ إِنْشَائِهِ مَا كَتَبَ بِهِ إِلَى أَبِي الْخَيْرِ عَنْ رُقْعَةٍ وَصَلَتْ تَتَضَمَّنُ أَنَّهُ أَهْدَى إِلَيْهِ جَمَلًا: وَصَلَتْ رُقْعَتُكَ فَفَضَضْتُهَا عَنْ بِلَاغَةٍ يَعْجُزُ عَنْهَا عَبْدُ الْحَمِيدِ فِي بِلَاغَتِهِ، وَسَخْبَانُ فِي خَطَابَتِهِ، وَتَصَرَّفَ بَيْنَ جِدِّ أَمْضَى مِنَ الْقَدَرِ، وَهَزَلِ أَرْقَ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ، إِلَّا أَنَّ الْفِعْلَ قَصَرَ عَنِ الْقَوْلِ؛ لِأَنَّكَ ذَكَرْتَ حَمَلًا جَعَلْتَهُ بِصَفَتِكَ جَمَلًا، وَكَانَ الْمُعِيدِي أَنْ تَسْمَعَ بِهِ لَا أَنْ تَرَاهُ، صَغَرَ عَنِ الْكِبَرِ وَكَبِرَ عَنِ الْقَدَمِ، يَعْجَبُ الْعَاقِلُ مِنْ حُلُولِ الْحَيَاةِ بِهِ، وَمِنْ تَأْتِيِ الْحَرَكَةِ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ عَظُمَ مُجَلَّدٌ قَدْ طَالَ لِلْكَأَلِ فَقْدُهُ، وَبَعْدَ بِالْمَرْعَى عَهْدُهُ، لَمْ يَرَ الْقَتَّ إِلَّا نَائِمًا، وَلَا عَرَفَ الشَّعِيرَ إِلَّا حَالِمًا. وَقَدْ كُنْتُ مِلْتُ^(٢) إِلَى اسْتِبْقَائِهِ، لِمَا تَعْرِفُهُ مِنْ مَحَبَّتِي لِلتَّوْفِيرِ^(٣)، وَرَغْبَتِي فِي التَّثْمِيرِ^(٤)، فَلَمْ أَجِدْ فِيهِ مُسْتَبَقَى لِبَقَاءِ، وَلَا مَدْفَعًا لِعِنَاءٍ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِأَنْثَى فَتَلِدَ، وَلَا بَقْتَى فَيَنْسِلَ، وَلَا بِصَحِيحٍ فَيَرْعَى، وَلَا بِسَلِيمٍ فَيَبْقَى، فَقُلْتُ: أَذْبَحْهُ لِيَكُونَ وَظِيفَةً^(٥) لِلْعِيَالِ، وَأَقِيمَهُ رَطْبًا مَقَامَ قَدِيدِ الْغَرَالِ، فَأَتَشَدَّنِي، وَقَدْ أَضْرَمْتُ النَّارَ، وَحَدَّدْتُ الشَّفَارَ:

أَعِيذُهَا نَظْرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ الشَّخْمَ فَيَمِنَ شَخْمُهُ وَرَمٌ^(٦)

(١) أ: «آية».

(٢) أ: «ألفت».

(٣) أ: «للتوفيق».

(٤) أ: «التثمين».

(٥) الوظيفة: ما يقدر للشخص في اليوم من طعام أو رزق ونحوه.

(٦) للمتنبي - ديوانه: ٢/ ٢٦٠.

وَلَسْتُ بِذِي لَحْمٍ فَأَصْلَحْ لِلأَكْلِ لَأَنَّ الدَّهْرَ قَدْ أَكَلَ لَحْمِي، وَلَا بِذِي جِلْدٍ يَصْلَحُ
لِلدَّبَاغَةِ^(١) لَأَنَّ الْأَيَّامَ قَدْ مَزَّقَتْ أَدْمِي، وَلَا بِذِي صُوفٍ يَصْلَحُ لِلْعَزْلِ لَأَنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ
حَصَّتْ^(٢) وَبَرِي، إِلَّا أَنْ تُطَالِبَنِي بِذَخْلِ أَوْ وَبِنِي وَبَيْنِكَ دَمٌ. فَوَجَدْتُهُ صَادِقًا فِي مَقَالَتِهِ،
نَاصِحًا فِي مَشُورَتِهِ، وَلَمْ أَعْلَمْ مِنْ أَيِّ أَمْرِهِ أَعْجَبٌ؛ أَمِنْ مُطَالَبَتِهِ الدَّهْرَ بِالْبَقَاءِ، أَمْ مِنْ
صَبْرِهِ عَلَى الضَّرِّ وَالْبَلَاءِ، أَمْ مِنْ قُدْرَتِكَ عَلَيْهِ مَعَ عَدَمِ مِثْلِهِ، أَمْ مِنْ هَدَيْتِكَ إِيَّاهُ لِلصَّدِيقِ مَعَ
خَسَاسَةِ قُدْرِهِ! وَبِأَنَّ لَيْتَ شِغْرِي؛ مَا كُنْتُ مُهْدِيًا لَوْ أَنِّي رَجُلٌ مِنْ عَرَضِ الْكِتَابِ كَأَبِي عَلِيٍّ
وَأَبِي الْخَطَّابِ! مَا كُنْتُ مُهْدِيًا إِلَّا كَلْبًا أَجْرَبَ، أَوْ قِرْدًا أَخْدَبَ. وَالسَّلَامُ.

وله من رسالة: هُوَ أَحْفَظُ قُدْرًا وَمَكَانَةً، وَأَظْهَرُ عَجْزًا وَمِهَانَةً، مِنْ أَنْ يَسْتَقِيلَ بِهِ
قَدَمٌ فِي مُطَاوَلَتِنَا، أَوْ تَطْمَنَّنَ لَهُ ضُلُوعٌ فِي مُنَابَذَتِنَا، وَهُوَ فِي نُشُوزِهِ عَنَّا، وَطَلَبِنَا إِيَّاهُ
كَالضَّالَّةِ الْمَنُشُودَةِ، وَالظَّلَامَةِ الْمَرْدُودَةِ.

وكان له عبد اسمه «يُمن»؛ وكان يهواه وله فيه المعاني البديعة، فمن ذلك قوله فيه:

قَدْ قَالَ يُمْنٌ وَهُوَ أَسْوَدُ لِلَّذِي بِيَاضِهِ اسْتَعْلَى عُلوُّ الْخَائِنِ
مَا فَخَرُ وَجْهِكَ بِالْبِيَاضِ وَهَلْ تَرَى أَنْ قَدْ أَفَدْتَ بِهِ فَرِيدَ مُحَاسِنِ^(٣)
وَلَوْ أَنَّ مَنِّي فِيهِ خَالًا زَائِهِ وَلَوْ أَنَّ مِنْهُ فِيَّ خَالًا شَانِنِي



الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ

من بلاغاته^(٤) المخترعة أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: مَا هُوَ أَحْسَنُ السَّجْعِ؟ قَالَ: مَا خَفَّ عَلَى
السَّمْعِ، قِيلَ: مِثْلُ مَاذَا؟ قَالَ: مِثْلُ هَذَا.

وسأله ابنُ العَمِيدِ عَنْ بَغْدَادٍ فَقَالَ: بَغْدَادُ فِي الْبِلَادِ كَالْأَسْتَاذِ فِي الْعِبَادِ. وَلَهُ
جَوَابُ كِتَابٍ: وَصَلَ كِتَابُ مَوْلَايَ فَكَانَتْ فَاتِحَتُهُ أَحْسَنَ مِنْ كِتَابِ الْفَتْحِ، وَوَاسِطَتُهُ
أَنْفَسَ مِنْ وَاسِطَةِ الْعِقْدِ، وَخَاتَمَتُهُ أَشْرَفَ مِنْ خَاتَمِ الْمَلِكِ.

وَمِنْ شِعْرِهِ يَزْثِي كَثِيرَ بْنِ أَحْمَدَ الْوَزِيرِ:

يَقُولُونَ قَدْ أَوْدَى كَثِيرُ بْنُ أَحْمَدٍ وَذَلِكَ رُزْءٌ فِي الْأَنَامِ جَلِيلٌ
فَقُلْتُ دَعُونِي وَالْعَلَا نُبْكُهُ مَعًا فَمِثْلُ كَثِيرٍ فِي الرُّجَالِ قَلِيلٌ



(١) أ: «للدباغ».

(٢) أ: «حصدت».

(٣) ب: «جميع محاسني».

(٤) أ، ب: «بلاغته».

القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم

عَلِمَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمَتَأَخِّرِينَ، وَوَزِيرُ السُّلْطَانِ صَلَاحُ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ الْمَلْقَبِ بِالْمَلِكِ النَّاصِرِ، تَمَكَّنَ مِنْهُ غَايَةُ التَّمَكُّنِ، وَبَرَزَ فِي صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ؛ قَالَ ابْنُ خَلِّكَانَ فِي تَارِيخِهِ: أَخْبَرَنِي أَحَدُ الْفُضَلَاءِ الثَّقَاتِ الْمُطْلَعِينَ عَلَى حَقِيقَةِ أَمْرِهِ أَنَّ مَسْودَاتَ رِسَالِهِ إِذَا جُمِعَتْ مَا تَقْصُرُ عَنْ مِائَةِ مُجَلَّدٍ، وَهُوَ مُجِيدٌ فِي أَكْثَرِهَا.

وَذَكَرَ ابْنُ خَلِّكَانَ فِي تَارِيخِهِ أَيْضاً أَنَّ الْعِمَادَ الْكَاتِبَ قَالَ فِي الْخَرِيدَةِ: هُوَ كَالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الَّتِي نَسَخَتْ الشَّرَائِعَ. وَكَانَتْ وَلادَتِهِ خَامِسَ عَشَرَ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ تِسْعٍ وَعَشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ هـ بِمَدِينَةِ عَسْقَلَانَ، وَوَلِيَ أَبُوهُ الْقَضَاءُ بَيْيَسَانَ، فَلِهَذَا نَسَبُوهُ إِلَيْهَا.

وَقَالَ الْفَقِيهَ عِمَارَةُ الِیْمَنِيِّ فِي كِتَابِ: الثَّنَاتِ الْعَصْرِيَّةِ فِي أَخْبَارِ الْوُزَرَاءِ الْمَصْرِيَّةِ، فِي تَرْجُمَةِ الْعَادِلِ بْنِ الصَّالِحِ بْنِ رُزَيْكٍ: وَمِنْ [مَحَاسِنِ] ^(١) [أَيَامِهِ،] [وَمَا يُؤَرِّخُ عَنْهَا،] بَلْ هِيَ ^(٢) الْحَسَنَةُ الَّتِي لَا تُوَازِي، بَلْ هِيَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي لَا تُجَازِي، خُرُوجُ أَمْرِهِ إِلَى وَالِي الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ بِإِحْضَارِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ إِلَى الْبَابِ، وَاسْتِخْدَامِهِ بِخَضْرَتِهِ فِي الدِّيَوَانِ، فَإِنَّهُ غَرَسَ ^(٣) الدَّوْلَةَ بَلْ لِلْمَلَّةِ، شَجَرَةً مُبَارَكَةً مُتَزَايِدَةَ النَّمَاءِ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ^(٤).

وَتُوفِيَ الْفَاضِلُ فِي لَيْلَةِ الْأَرْبَعَاءِ سَابِعِ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ هـ، وَدُفِنَ فِي ثُرْبَةٍ بِسَفْحِ الْمُقَطَّمِ فِي الْقَرَاةِ الصُّغْرَى.

قَالَ ابْنُ خَلِّكَانَ: كَانَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ مِنْ مَحَاسِنِ الدُّنْيَا، وَهَيْهَاتَ أَنْ يَخْلِفَ الزَّمَانَ مِثْلَهُ.

فَمِنْ إِنْشَائِهِ الْمُرْقُصِ الْمُطَرَّبِ قَوْلُهُ: وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: إِنَّ الدَّهَبَ الْإِبْرِيْزَ لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِ آفَةٌ، وَإِنَّ يَدَ الدَّهْرِ الْبَخِيلَةَ بِهِ كَافَّةً. وَأَنْتُمْ يَا بَنِي أَيُّوبَ أَيْدِيَكُمْ آفَةٌ نَفَائِسِ الْأَمْوَالِ، كَمَا أَنَّ سَيُوفَكُمْ آفَةٌ نَفُوسِ الْأَبْطَالِ، فَلَوْ مَلَكَتُمُ الدَّهْرَ لَأَمْتَطَيْتُمْ لِيَالِيهِ أَدَاهُمْ، وَقَلَّدْتُمْ أَيَامَهُ صَوَارِمَ وَوَهَبْتُمْ شُمُوسَهُ وَأَقْمَارَهُ دَنَانِيرَ وَدَرَاهِمَ، وَأَيَّامَ دَوْلَتِكُمْ أَغْرَاسَ وَمَاتَمَ، وَالْجُودُ فِي أَيْدِيكُمْ خَاتَمَ، وَنَفْسُ حَاتِمٍ فِي نَقْشِ ذَلِكَ الْخَاتَمِ.

وَمِنْ إِنْشَائِهِ فِي كَا حِلٍّ: كَأَنَّهُ غَاسِلٌ يَدْخُلُ إِلَى إِنْسَانٍ الْعَيْنِ بِخُطُوطٍ مِنْ كُحْلِهِ الْمَلْعُونِ [لِلْعَلَّةِ الْمُنُونِ] ^(٤) وَيُذَرِّجُهُ فِي كَفْنٍ مِنَ الْخِرْقَةِ السَّودَاءِ الَّتِي يُلْبَسُهَا سَوَادُ

(١ - ١) مِنْ ابْنِ خَلِّكَانَ.

(٢) أ: «عُرُوسُ الدَّوْلَةِ».

(٣) ابْنُ خَلِّكَانَ ٢/٢٣٦ (طَبْعُ النَّهْضَةِ).

(٤) تَكْمَلَةٌ مِنْ ط.

العيون، ينقل العين إلى بياض الثغور، ويسلبها سواد اللّمي، وما برحت عصيته مردودة ولديها عصا العمى، قد انتهى إلى فوق ما يضرّب به المثل، إذا قيل: يسرق الكحل من العين، فهذا يسرق العين من الكحل، وهو لصّ من أكابر اللصوص، وسُموا كحاليين وهم صاغة لما يركبون فوق العيون^(١) من الفصوص، قد أودع كحله حزن يعقوب فمن كحل منه ابضت عيناه، وجحد معجز القميص اليوسفي فلو مرؤا به على ناظر انفرحت جفناه، وهو من الذين إذا رفعوا أميالهم فإنما هي لشمس العيون مزولة، وإذا أولج أحدهم الميل في المكحلة فهو أولى بالرّجم ممّن أولج الميل في المكحلة.

ومن إنشائه سقى الله ثراه: والجو يتنفس عن صدر مسجور كصدر المهجور، والحرّ وصاليه في هذا التّخو^(٢) جارّ ومجرور، والمهامه قد نشرت فيها ملاء السراب، وزخر فيها^(٣) بحر ماء ولد لغير رشدة على غير فراش السحاب، وحرّ الرمل قد منع حتّ الرمل، ونحن في أكثر من جموع صفيين إلا أننا نخاف وقعة الجمل، ووردنا ماء هذه العيون وهو كماء^(٤) المحابر يغترف منه المجرم مثل عمله، ويُرسله^(٥) سهماً فلا يخطئ نقرة مقتله، وهو مع هذا قليل كأنه مما جادت به الآفاق في ساحات النفاق لا في ساعات الفراق، فيا لك من ماء لا تتميّز أوصافه من الثراب، ولا يرتفع به قرص التيمم كما لا يرتفع بالسراب، ولا يغدو ماء وصف به أهل الجحيم في قوله تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب﴾ [الكهف: ٢٩]، فنحن حوله كالعوائد حول المريض يعللون عيلاً لا يزد الجواب، بل يندبون ميتاً قد حال بينه وبينهم الثراب، يجهز للدفن ونعشه المراد، ويحفر عليه ليقوم من قبره وذلك خلاف المعتاد وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع، على أنه لو كان دمعاً لما بلّ الأجفان، ولو كان مالاً لما رفع كفة الميزان.

ومن إنشائه: إلى أن يرد كتب العسكر وأعلامها من مذات ألفتها، ورؤوس العدا قطعات همزاته.

ومنه: فبنت سنايك الخيل سماء من العجاج نجومها الأسنة، وطار إلىهم عقبان الخيول قوادمها القوائم ومخالبها الأعنة، وتصبّت^(٦) عيون السمر إلى قلوبهم كأنما تطلب سوادها، وقصدت أنهار السيوف صدورهم لتروي أكبادها.

(١) كذا في أ، ب، وفي ط: «العين».

(٢) أ: «الخد».

(٣) أ: «وزخرفها بيبخر وماء».

(٤) كذا في أ، وفي ط: «كالمحابر».

(٥) أ: «ويرسل».

(٦) «وتصدت».

ومنه: وما أَحَسَّبَ الأَقْلَامُ جُعِلَتْ ساجدةً إِلَّا لِأَنَّ طِرْزَهُ محراب، ولا أَنَّهَا سُمِّيتْ حُرْزاً إِلَّا قَبْلَ أَنْ يَنْفُثَ سِيدُنَا فِي رَوْعِهَا رَائِعَ هَذَا الصَّوَابِ، ولا أَنَّهَا اضْطَجَعَتْ إِلَّا لِتَبْعِثَهَا مَا يَنْفُخُ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ مِنْ مَرْقَدِهَا، ولا سُودَتْ رُؤُوسُهَا إِلَّا لِأَنَّهَا أَعْلَامٌ عَبَاسِيَّةٌ تَنَاولَتْهَا الْحَضْرَةُ بِيَدِهَا، لا جَرَمَ أَنَّهَا تَحْمِي الْجَمَى، وَتَسْفِكُ دَمًا وَتَحْقِنُ دَمًا، وَتَشْخِ بِهَا يَدَهُ عَنَا^(١)، وترسلها فتعلم الفرسان أن في الكتاب لفرساناً، وتقوم الخطباء بما كتبت تعلم الألسنة أن في الأيدي كما في الأفواه لساناً.

قلت: ومن مُخْتَرَعَاتِهِ قَوْلُهُ: وَإِنْ ادَّعَى سِحْرُ الْبَيَانِ أَنَّهُ يَقْضِي أَيْسَرَ حُقُوقِهِ، وَيُثْمِرُ مَا يَجِبُ مِنْ شُكْرِ فُرُوعِهِ وَعُرُوقِهِ؛ لَكُنْتُ أَفْضَحُ بَاطِلَ سِحْرِهِ، وَأَذِيْقُهُ وَبَالَ أَمْرِهِ، وَأَضْلِبُ الْخَوَاطِرَ السَّحَارَةَ عَلَى جُذُوعِ الْأَقْلَامِ، وَأَعْقِدُ أَلْسِنَتَهَا كَمَا يَعْقِدُ السَّحَرَةُ الْأَلْسِنَةَ عَنِ الْكَلَامِ.

ومن إنشائه في وفاء النيل المبارك عن الملك الناصر صلاح الدين نور الله ضريحه: نِعْمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ أَضْوَائِهَا بُزُوغًا، وَأَضْفَاها سُبُوغًا، وَأَضْفَاها يَنْبُوعًا، وَأَسْنَاهَا مَنْبُوعًا، وَأَمَدَهَا بَحْرُ مَوَاهِبٍ، وَأَضْمَنَهَا حُسْنَ عَوَاقِبٍ، النعمة بالنيل المصري الذي يَنْسُطُ الْأَمَالَ وَيَقْبِضُهَا مَدَّةً وَجَزْرَهُ، وَيَرْبِي الثِّبَاتَ حَجْرَهُ، وَيُحْيِي مَطْلَقَهُ الْحَيَوَانَ، وَتَجْنِي ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ صِنُونًا وَغَيْرَ صِنُونًا، وَيَنْشُرُ مَطْوِيَّ حَرِيرِهَا وَيَنْشُرُ مَوَاتِهَا، وَيُوضِّحُ مَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا فِيهَا فَتْرًا فِيهَا أَقْوَاتًا﴾ [فصلت: ١٠]. وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا فأسفر وجه الأرض وإن كان تَنَقَّبَ، وَأَمِنَ يَوْمَ بُشْرَاهُ مَنْ كَانَ خَائِفًا يَتَرَقَّبَ، وَرَأَيْنَا الْإِبَانَةَ عَنْ لَطَائِفِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي حَقَّقَتْ الطُّنُونَ، وَوَقَّتْ بِالرُّزْقِ الْمَضْمُونِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]. وقد أعلمناك لتُوفِّيَ حَقَّهُ مِنْ الْإِذَاعَةِ، وَتُبْعِدَهُ مِنَ الْإِضَاعَةِ، وَتَتَصَرَّفَ^(٢) عَلَى مَا نَصَرَفَكَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَتَشْهَرُ مَا أَوْرَدَهُ الْبَشِيرُ مِنَ الْبُشْرَى بِإِبَانَتِهِ، وَتَمَدَّهُ بِإِيصَالِ رَسْمِهِ مَهْنَتًا عَلَى عَادَتِهِ.



ابن حجة

ورسم لي في الأيام المؤيدية، وأنا مُنْشَى الدِيَوَانَ الشَّرِيفَ الْمُؤَيَّدِي سَنَةِ تِسْعِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ هـ أَنْ أُنْشِئَ رِسَالَةً بِوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ لَمْ أَسْبَقْ إِلَيْهَا مِمَّنْ تَقَدَّمَني مِنَ الْمُنْشِئِينَ بِالْديَارِ الْمِصْرِيَّةِ؛ حَتَّى إِنَّ الْمَقَرَّ الْأَشْرَفَ الْمَرْحُومِي الْقَاضِي النَّاصِرِي مُحَمَّدَ بْنَ الْبَارِزِي الْجُهَنِي الشَّافِعِي - سَقَى اللَّهُ ثَرَاهُ - قَرَأَ عَلَى الْمَسَامِعِ الشَّرِيفَةِ هَذِهِ

(٢) في ط «وتتعرف».

(١) «عينا».

الرَّسالة المسطَّرة، ورسالة من إنشاء الشَّيخ جمال الدين بن نباتة، وكان غَرَضُه في ذلك اختبار الألفاظ والمعاني من الرسالتين فانشأت بعد المستعان بالله:

وُبُدِّي لِعِلْمِه الكريم ظُهورَ آيةِ التَّيْلِ الَّذِي عَامَلْنَا فِيهِ بِالْحُسْنَى وَزِيادَةَ، وَأَجْرَاهُ لَنَا فِي طُرُقِ الْوَفَاءِ عَلَى أَجْمَلِ عَادَةٍ، وَخَلَقَ^(١) أَصَابِعَهُ لِيُزِيلَ الْإِبْهَامَ فَأَعْلَنَ الْمُسْلِمُونَ بِالشَّهَادَةِ. كَسَرَ جَسْرَهُ فَأَمْسَى^(٢) كُلُّ قَلْبٍ بِهَذَا الْكُسْرِ مَجْبُوراً، وَأَتْبَعْنَاهُ بَنُورُوزَ وَمَا بَرَحَ هَذَا الْاسْمَ بِالسَّعْدِ الْمُؤَيَّدِي مَكْسُوراً. دَقَّ قِفَا الْوُدَانَ فَالرَّايَةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ كُلِّ قَلْعٍ عَلَيْهِ، وَقَبْلَ ثَغُورِ الْإِسْلَامِ وَأَرْشَفَهَا رِيْقَهُ الْحُلُوِّ فَمَالَتْ أَعْطَافُ غُصُونِهَا إِلَيْهِ، وَشَبَّبَ خَرِيرُهُ فِي الصَّعِيدِ بِالْقَصَبِ، وَمَدَّ سَبَائِكَهُ الذَّهَبِيَّةَ إِلَى جَزِيرَةِ الذَّهَبِ. فَضْرَبَ النَّاصِرِيَّةَ وَاتَّصَلَ بِأَمِّ دِينَارٍ، وَقَلْنَا إِنَّهُ صَبَغَ بِقُوَّةٍ لَمَّا جَاءَ وَعَلَيْهِ ذَلِكَ الْإِحْمَرَارُ، وَأَطَالَ اللَّهُ زِيَادَتَهُ فَتَرَدَّدَ فِي الْآثَارِ، وَعَمَّتْهُ الْبَرَكَةُ فَأَجْرَى سَوَاقِي مُلْكِهِ إِلَى أَنْ عَدَّتْ جَنَّةُ^(٣) تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَحَضَنَ مَشْتَهَى الرُّوْضَةِ فِي صَدْرِهِ وَحَنَّا عَلَيْهَا حُنُوَ الْمُرْضِعَاتِ عَلَى الْفُطَيْمِ.

وَأَرْشَفَهُ عَلَى ظِمًا زُلَالًا أَلَذَّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
وراق مديدُ بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات، وسقى الأرض سلافتَه الخَمْرِيَّةَ فخدمته بحلو النبات، وأدخله إلى جنات التَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ فَالِقَ النَّوَى وَالْحَبَّ، فَأَرْضَعَ جِنِينَ النَّبْتِ وَأَحْيَا لَهُ أَمْهَاتِ الْعَصْفِ وَالْأَبِّ، وَصَافَحَتْهُ كُفُوفُ الْمَوْزِ فَخْتَمَهَا بِخَوَاتِمِ الْعَقِيقَةِ، وَلَبَسَ الْوَرْدَ تَشْرِيفَهُ وَقَالَ أَرْجُو أَنْ تَكُونَ شَوْكَتِي فِي أَيَّامِهِ قُوَّةً، وَنَسِيَ الزَّهْرَ بِحُلَاوَةِ لِقَائِهِ مَرَاةَ النَّوَى، وَهَامَتْ بِهِ مَخْدَرَاتُ الْأَشْجَارِ فَأَرْزَحَتْ ضَفَائِرَ فُرُوعِهَا عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الْهَوَى، وَاسْتَوْفَى النَّبَاتُ مَا كَانَ لَهُ فِي ذِمَّةِ الرِّيِّ مِنَ الدُّيُونِ، وَمَارَجَ الْحَوَامِضُ بِحُلَاوَتِهِ فَهَامَ النَّاسُ بِالشُّكْرِ وَاللَّيْمُونِ، وَانْجَذَبَ إِلَيْهِ الْكِبَادُ وَامْتَدَّ، وَلَكِنْ قَوِيَ قَوْسُهُ لَمَّا حَظِيَ مِنْهُ بِسَهْمٍ لَا يَرِدُ، وَلَبَسَ شُرْبُوشَ الْأَثْرَجِ وَتَرَفَّعَ إِلَى أَنْ لَبَسَ بَعْدَهُ التَّاجَ، وَفَتَحَ مَنْشُورَ الْأَرْضِ بَعْلَانِيَّةً^(٤) بِسَعَةِ الرِّزْقِ وَقَدْ نَفَذَ أَمْرَهُ وَرَاجَ، فَتَنَاوَلَ مَقَالِمَ الشَّنْبَرِ وَعَلَّمَ بِأَقْلَامِهَا وَرَسَمَ لِمَحْبُوسٍ كُلِّ سَدٍّ بِالْإِفْرَاجِ، وَسَرَّحَ بِطَائِقِ السُّفَنِ فَخَفَّفَتْ أَجْنَحَتُهَا بِمَخْلَقِ بَشَائِرِهِ، وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى قَتْلِ الْمَخْلُوفِ الْبَادِرِ الْخِضْبِ إِلَى امْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَحَظِيَ بِالْمَعْشُوقِ وَبَلَغَ مِنْ كُلِّ مُنِيَّةٍ مَنَاهُ، فَلَا سَكْنَ عَلَى الْبَحْرِ إِلَّا تَحَرُّكٌ سَاكِنُهُ بَعْدَمَا تَفَقَّهَ وَأَثَقَّنَ بَابَ الْمِيَاهِ، وَمَدَّ شِفَاءً أَمْوَاجَهُ إِلَى تَقْبِيلِ فَمِ الْجَسْرِ، وَزَادَ بِسْرَعَتِهِ فَاسْتَحْلَى الْمِضْرِبِيُّونَ زَائِدَهُ عَلَى الْفُورِ، وَنَزَلَ فِي بَرَكَةِ الْحَبَشِ فَدَخَلَ التَّكْرُورَ فِي طَاعَتِهِ، وَحَمَلَ عَلَى الْجِهَاتِ الْبَحْرِيَّةِ فَكَسَرَ الْمَنْصُورَةَ وَعَلَا عَلَى الطَّوِيلَةِ بِشَهَامَتِهِ، وَأَظْهَرَ فِي مَسْجِدِ الْخِضْرَعَيْنِ الْحَيَاةَ فَأَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ، وَصَارَ أَهْلُ دِمِيَاطَ فِي

(٣) أ، ج «جنات».

(٤) أ: «لعلامته».

(١) أ، ج «وخلع».

(٢) أ، ج «فأصبح».

بَزَخَ بَيْنَ الْمَالِحِ وَبَيْنَهُ، وَطَلَبَ الْمَالِحُ رَدَّهُ بِالْصَّدْرِ وَطَعَنَ فِي حُلَاوَةِ شِمَائِلِهِ، فَمَا شَعَرَ إِلَّا وَقَدْ رَكِبَ عَلَيْهِ وَنَزَلَ فِي سَاحِلِهِ^(١)، وَأَمْسَتْ وَاوَاثُ دَوَائِرِهِ عَلَى وَجَنَاتِ الدَّهْرِ عَاطِفَةً، وَثَقُلَتْ أُرْدَافُ أُمُوجِهِ عَلَى خُصُورِ الْجَوَارِي فَاضْطَرَبَتْ كَالْخَائِفَةِ، وَمَالَ شَيْقُ النَّخِيلِ إِلَيْهِ فَلَتَمَ تَغَرُّ طَلْعِهِ وَقَبَّلَ سَالِفَهُ، وَأَمْسَتْ سُودُ الْجَوَارِي كَالْحَسَنَاتِ فِي حُمْرَةِ وَجَنَاتِهِ، وَكَلَّمَا زَادَ زَادَ اللَّهُ فِي حَسَنَاتِهِ، فَلَا فَقِيرَ سَدٍّ إِلَّا حَصَلَ لَهُ مِنْ فَيْضِ نِعْمَاهُ فَتَوْحٌ، وَلَا مَيِّتَ خَلِيجٍ إِلَّا عَاشَ بِهِ وَدَبَّتْ فِيهِ الرُّوحُ، وَلَكِنَّهُ اخْمَرَّتْ عَيْنُهُ عَلَى النَّاسِ بَزِيَادَةٍ وَتَرْفَعٍ، فَقَالَ لَهُ الْمُقْيَاسُ [عِنْدَ إِقْبَالِهِ: عَلَى رِسْلِكَ]^(٢) قَبَالَةُ كُلِّ عَيْنٍ أَصْبَعٌ، فَنَشَرَ أَعْلَامَ قُلُوعِهِ وَحَمَلَ وَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْخَرِيرِ زُمُجْرَةٌ، وَرَامَ أَنْ يَهْجُمَ عَلَى غَيْرِ بِلَادِهِ فَبَادَرَ إِلَيْهِ عَزْمُ الْمُؤَيَّدِي وَكُسْرُهُ.

وَقَدْ آثَرْنَا الْمَقَرَّ بِهَذِهِ الْبُشْرَى الَّتِي عَمَّ فَضْلُهَا بَرًّا وَبَحْرًا، وَحَدَّثْنَا عَنْ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجٍ وَشَرَحْنَا لَهُ حَالًا وَصَدْرًا، لِيَأْخُذَ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْبِشَارَةِ الْبَحْرِيَّةِ بِالزِّيَادَةِ الْوَافِرَةِ، وَيَنْشَقَّ مِنْ طَيِّبِهَا نَشْرًا فَقَدْ حَمَلَتْ لَهُ مِنْ طَيِّبَاتِ ذَلِكَ النَّسِيمِ أَنْفَاسًا عَاطِرَةً، وَاللَّهُ تَعَالَى يُوَصِّلُ بِشَائِرِنَا الشَّرِيفَةَ بِسَمْعِهِ الْكَرِيمِ، لِيَصِيرَ بِهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ مُشْتَفَا، وَلَا بَرَحَ مِنْ نَيْلِهَا الْمُبَارِكِ وَإِنْعَامِنَا الشَّرِيفِ عَلَى كَلَا الْحَالِينَ فِي وَقَا.

قُلْتُ: تَقَدَّمَ قَوْلِي: إِنَّ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ يُذَكَّرُ، وَقَدْ ذَكَرْتُ بِوصفِ النِّيلِ الْمُبَارِكِ هُنَا رِسَالَتِي الْبَحْرِيَّةَ الَّتِي كَتَبْتُ بِهَا إِلَى عَلَامَةِ عَصْرِنَا الشَّيْخِ بَدْرِ الدِّينِ الدَّمَامِينِيِّ فَسَحَ اللَّهُ فِي أَجَلِهِ مِنَ الْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَةِ إِلَى ثَغْرِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ عِنْدَ دَخُولِي إِلَيْهَا مِنْ ثَغْرِ طَرَابِلُسِ الشَّامِ، وَقَدْ عَضَّتْ عَلَيَّ أَنْيَابُ الْحَرْبِ بِثَغْرِهَا، شَائِبًا مِنْ أَهْوَالِ بَرِّهَا وَبَحْرِهَا؛ وَذَلِكَ فِي مُنْتَصَفِ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَهِيَ:

يُقَبَّلُ الْأَرْضَ الَّتِي سَقَيْ دَوْحُهَا بِنَزُولِ الْغَيْثِ فَأَثْمَرَ الْفَوَاكِهَ الْبَدْرِيَّةَ، وَطَلَعَ بِدْرُ كَمَالِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَسَلَّمْنَا لِمُعْجَزَاتِهَا الْمَحْمَدِيَّةِ، وَجَرَى لِسَانُ الْبَلَاغَةِ فِي ثَغْرِهَا فَسَمَا عَلَى الْعِقْدِ بِنَظْمِهِ الْمُسْتَجَادِ، وَأَنْشَدَ وَقَدْ ابْتَسَمَ عَنْ مُحَاسِنِهِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ:

لَقَدْ حَسُنَتْ بِكَ الْآيَامُ حَتَّى كَأَنَّكَ فِي فَمِ الدَّهْرِ ابْتِسَامُ^(٣)

فَأَكْرِمَ بِهِ مَوْرِدَ فَضْلٍ مَا بَرَحَ مِنْهُلَهُ الْعَذْبُ كَثِيرُ الزُّحَامِ وَمَدِينَةُ عِلْمٍ تَشَرَّفَتْ بِالْجَنَابِ الْمَحْمَدِيِّ فَعَلَى سَاكِنِهَا السَّلَامِ، وَمَجْلَسِ حُكْمٍ مَا ثَبَتَ لِدَعْوِيٍّ لِلْبَاطِلِ بِهِ حُجَّةٌ، وَعَرَفَاتٍ أَذَبَ إِنْ وَقَفَتْ بِهَا وَقَفَةُ كُنْتُ عَلَى الْحَقِيقَةِ ابْنَ حُجَّةٍ، وَأَفْقُ مَعَالٍ بَالِغُ

(١) أ: «ساحله».

(٢) تكملة من «أ».

(٣) للمتنبى ديوانه: ٣٤٧/٢.

في سموّ بدره فلم يقنع بما دون النجوم، وميدان عرشه تجول به فرسان الفصاحة من بني مخزوم، وتالله ما لفرسان الشّقاء والأبلى في هذا الميدان مجال، وإذا اعترفوا بما حصل للفارس المخزوميّ عندهم من الفتح كفى الله المؤمنين القتال. ويُنهي بعد أدعية ما برح المملوك مُنتصباً لرفعها، وتغريد ثلاثية ما لسجع المطوّق في الأوراق الثبائية حلاوة سجعها، وأشواق برّحت بالمملوك، ولكن تمسك في مصر بالآثار:

وأبرح ما يكون الدّهر يوماً إذا دنت الدّيار من الدّيار

ووصول المملوك إلى مصر مُحتمياً بكنانتها وهو بسهام البين مُصاب، مدّعور لما شاهده من المصارع عند مُقاتلة الفرسان في منازل الأحياب؛ مكلّماً من ثغر طرابلس الشام بأسنة الرّماح، ومحمولاً على جناب غراب وقد حَكَم عليه البين ألا يبرح من سفره على جناح.

وكان في البين ما كفاني فكيف بالبين والغراب

يا مولانا؛ لقد قرعت سنّ هذا الثّغر بأصابع السّهام، وقُلع منه ضرُس الأمن ولم يبقَ له بعد ما شعر به البين نظام، وكشّرت الحرب في ثناياه عن أنياب، واقتلنا منه مع أنهم لم يتركوا لنا فيه ثنية ولا ناب، وأمست شُهْب الرّماح قافية على آثارنا والسّابق السّابق منا الجواد، ولزمت الرّويّ من دماننا لثلا يظهر لقافيتها عند نظم الحرب سِناد، وفسد انسجام تلك الأبيات المنظومة على ذلك البحر المديد، وبُذلت جنتها بنار الحرب التي كم تقول لها: هل امتلأت وتقول هل من مزيد. ونفذ حكم القضاء وكم جرح خصم السيف في ذلك اليوم شهوداً، واتّصل الحكم بقضاء القضاة فلم يسلم منهم إلا من كان مسعوداً، ووقع غالبنا في القُبْض من عروض حربهم الطويل، وتبدّلت محاسن طرابلس الشام بالوخشة فلم يفارقها على وجه جميل.

وتالله لم يَدْخلها المملوك في هذه الواقعة إلا مُكرهاً لا بطل، وكم قلت لسارية العزم لما كَشَف لي عن ضيق: سلها يا سارية الجبل، ولم يطلق المملوك عروس حماته إلا جبراً أظهروا به كسره، والعلوم الكريمة محيطة كيف يكون طلاق المكره! يا مولانا:

بِوادي حماة السّام من أيمن الشّطّ وَحَقَّكَ تَطوي شقّة الهَم بالبسط

بلاذ إذا ما دُقت كَوثر مائها أَهيمُ كأني قد ثِمِلْتُ بِإِسْفِنِط

وَمَنْ يَجْتَهِد في أنْ بالأرض بُقعة تُشاكلها قُلْ أَنتَ مُجْتَهِدٌ مُخْطِي

وَصَوَّبَ حَدِيثِي مائها وهوائها فَإِنَّ أَحَادِيثَ الصّٰحِحِّينَ ما تُخْطِي

بِمَغْصَمِها إِنَّ دَارَ مَلَوَى سِوَارِها فَمَا الشّامُ بِالْخَلْخالِ أوِ مِضِرُّ بِالْقُرْطِ

تنظم بالشطّين دُرّ ثمارها
وترخي علينا للغصون ذوائباً
ومُدّ مدّ ذاك النهر ساقاً مُدملجاً
لَوْننا خلاخيل التواعير فالتوت
سقى سفحها إن قلّ دَمعي سحابة
ويا أسطر التبت التي قد تسلسلت
ولا زال ذاك الخط بالطلّ مُعجماً
لَوْنت عِناني في حِماها عن اللوى
ولذّ عِناق الفقّر لي بفنائها
منازل أخابي ومَنبت شعبي
نعمت بها دَهراً ولكن سلبته
وقد جاء شُرطُ البين أتّي أغيب عن
وخطّ عليّ الدهرُ عمداً وشالني
وسُبْحهُ جَمع الشمل كانت لنا بها
أمثل شوقاً شكلها في ضمائري
وقد صار يمشي الهمّ نحوي بسرعة
وأصبح نظمي راجعاً بي إلى ورا

عقوداً لها العاصي رأيناه كالسّمطِ
يُسرحُها كَفّ التسيم بلا مُشطِ
وراح بنقش التبت يمشي على بُسطِ
وأبدت لنا دوراً على ساقه السبّطِ
مطنّبة بالدّمع مُنهلّة النّقطِ
بصفحتها لا زلت واضحة الخطِ
ومن شكل أنواع الأزاهر في ضبّطِ
وهمت بها لا بالمحصب والسقطِ
وفي غيرها لم أرض بالملك والرهِطِ
وأوطان أوطاري بها ورضا سُخطي
برغمي وهذا الدهر يسلب ما يعطي
حِماها لقد أوفى فؤادي بالشُرطِ
إلى غيرها صبراً على الشيل والخطِ
مُنظمة لكن قضى الدهر بالقرطِ
فتتبّع عيني ذلك الشكل بالنّقطِ
فيا ليتّه في مشيه يُبْطِي!
كأني في الديوان أكتب بالقبْطِي

يا مولانا، وأبئك ما لقيت من أهوال هذا البحر وأحدث عنه ولا حرج، فكُنم
وقع المملوك من أعاريضه في زحاف تقطع القلب لما دخل إلى دوائر اللجج.
وشاهدت منه سلطاناً جائراً يأخذ كلّ سفينة غصباً، ونظرت إلى الجوّاري الحسان وقد
رمت أزرّ قلوها وهي بين يديه لقلّة رجالها تُسبى، فتحققت أنّ رأي من جاء يسعى
في الفلك جالساً غير صائب، واستصوبت هنا رأي من جاء يمشي وهو راكب، وزاد
الظّمّ بالمملوك وقد اتخذ بالبحر سبيله، وكُنم قلت من شدّة الظّمّ: يا ترى قبل الحفرة
هل أطوي^(١) من البحر هذه الشقة الطويلة!

وهل أباكرُ بخر النيل منشرحاً وأشرب الحلو من أكواب ملاح
بحر تلاطمت علينا أمواجه حين مُتّنا من الخوف وحملنا على نعش الغراب،

وقامت واواث دوائره مقامع فنصبنا للغرق لما استوت المياه والأخشاب، وقارن العبد فيه سوداء استرقت موالينا وهي جارية، وغشيهم منها ما غشيهم فهل أتاك حديث الغاشية! واقعها الحرب فحملت بنا ودخلها الماء فجاءها المخاض، وانشق قلبها لفقد رجالها وجرى ما جرى على ذاك القلب وفاض، وتوشحت بالسواد في هذا الماء ثم سارت على البحر وهي مثل، وكم سمع^(١) للمغاربة على ذلك التوشيح زجل، برج مائي ولكن تعرب في رفعها وخفضها عن السر والحوث، وتتشامخ كالجبال وهي خُشب مستدة من تبطنها عد من المتصبرين في تابوت، تأنى بالطباق ولكن بالمقلوب لأن صغيرها كبير وبياضها سواد، وتمشي على الماء وتطير مع الهواء وصلاحتها عين الفساد، إن نقر الموج على دفوفها لعبت أنامل قلوبها بالعود، وترقصنا على آلتها الحذاء فتقوم قيامتنا من هذا الرقص الخارج ونحن قعود. نتشامم وهي كما قيل: أنف في السماء واست في الماء، وكم نطيل الشكوى إلى قامة صاريها عند الميل وهي الصعدة الصماء، فيها الهدى وليس لها عقل ولا دين، وتتصابي إذا هبت الصبا وهي بنت أربعمائة وثمانين. وتوقف أحوال القوم وهي تجري بهم في موج كالجبال، وتدعي براءة الذمة وكم استغرقت لهم من أموال؛ هذا وكم ضعف نحيل خضرها عن تشاقل أزدا في الأمواج، وكم وجلت للقلوب لما صار لأهداب مجاديفها في مقلّة البحر اختلاج، وكم أسبلت على وجنته طرة قلّعها فبالغ الريح في تشويشها، وكم مر على قريتها العامرة فتركها وهي خاوية على عروشها، تتعظم فتهزل إلى أن ترى ضلوعها من السقم تعد، ولقد رأيناها بعد ذلك قد تبّت وهي حمالة الحطب في جيدها جبل من مسد.

وخلص المملوك من كدر المالح إلى النيل المبارك فوجده من أهل الصفا، وإخوان الوفا، وتنصل من ذلك العدو الأزرق ذي الباطن الكدر، وجمع من عذوبة النيل ونضارة شطوطه بين عين الحياة والخضر؛ وتلا لسان الحال على المملوك وأصحابه «ادخلوا مصر إن شاء الله آمين»، «وقضي الأمر وقيل بعداً للقوم الظالمين».

وبعد؛ فإن المملوك يسأل الإقالة من عثرات هذه الرسالة، فقد علم الله أنها صدرت من فكر تركه البين مشتتاً، والأعضاء مع كثرة بردها قد خرجت من البحر عارية في فصل الشتاء، وليستر عوراتها بساتر الحلم وينظر إليها من الرحمة بعين، وليكن ضربها بسيف^(٢) النقد صفحاً فقد كفى ما جرح بسيف البين.

وتالله لم يسلك المملوك هذه الجادة إلا ليجد له سبيلاً إلى نهلة من عذب تلك الموارد، ويعود العبد الضعيف الذي قطعت صلاته من صفاء هذا المشرب عائد،

ويصير العبد مسعوداً إذا عُدَّ للأبواب العالية من جُملة الخدام، ويحصل لكِبده الحرّى من ذلك النسيم الغربيّ بردٌ وسلام، واللّه تعالى يَمَنّ بقرب المثل بين يديه ليحصل للمملوك بعد التخلّص من البين حسن الختام.



القاضي السعيد هبة الله بن سناء المُلْك

وإن الشوق بحرٌ وقلبه واللّه الغريق بأماوجه، وجمرٌ وصدره المظلمٌ بسراجِه.
ومن إنشائه:

فالإسلام من طُلُقاته، والكفر مجاهد ولكن باتّقاته، وسيوفُه تحسن في الأجسام البسط وفي الأرواح القبض، ورماحُه تكاد لطولها تُمسِك السماء أن تقع على الأرض.
ومن إنشائه:

وكيف لا يحمد المملوك تلك الأشواق وهي تقرُّبه من المولى بالتخييل^(١) إذا أبعثته الأيام، وتمثل المقام الكريم فيقابلُه كلُّ ساعةٍ بالسجود ويُشافهه بالسَّلام. ويرفع ناظره، فلولا نظره إليه؛ لكانت عينه مطرقة، وستور أهدابه مسبلةً وأبواب جفونه مغلقة؛ ولولا اشتغالها بمطالعة طلعتِه لالتهب من دُموعها بمياه محرقة، فهو منها في نار وجّة، مغلول بغلّة مطوّق بِمِثّة.

ومن إنشائه:

ولقد أنساه فراق مولاة حروف المعجم فما يعرفُ منها حرفاً، وعاقب خاطره الذي كفر بالبلاد فأسقط عليه من سمائها كسفاً. شوقٌ ما خطر مثله على قلب بشر، ودمعٌ ما مرَّ على بصرٍ إلّا ومرَّ كلّمح بالبصر، ولسانٌ لا ينفك من الدعاء على يوم الفراق ومنّ دعا على ظالمه فقد انتصر.



القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر

خليفة القاضي الفاضل

ومن إنشائه قوله:

نُعلِمه بفتوحات استطعم الإيمان حلاوتها من أطراف المُرّان، واستنطق الإسلام عبارتها من ألسنة الخُرّصان؛ وذلك بفتح حصن الأكراد، الذي كان في حلق البلاد الشامية غُصّة لم تسع بمياه السيوف المجردة، وشجّى في صدرها لم تقاومه أدوية العزائم المفردة.

(١) أ: «بالتبجيل».

ومن إنشائه بإبطال الحشيش بعد الخمر:

نُعلمه أن المنكرات أمرنا أن ثُملاً الصفاح^(١) بأجرها وتفرغ الصُحاف، وألا يخلو بيت من بيوتها من كسرٍ أو زحافٍ، وقد بلغنا الآن أنها اختصرت، وأن كلمة الشيطان بالتعريض عنها ما قصرت، وأن أم الخبائث ما عَقِمَتْ، وأن الجماعة التي كانت ترضع نُدِّي الكأس عن ثديها ما فُطِمَتْ، وأنها في النشوة ما خَيَبَ إبليسُ مسعاها، وأنها لَمَّا أخرج المنع عنها ماءها من الخمر أخرج لها من الحشيش مَرَعَاها، وأنها استراحت من الخُمَار، واستغنت بما تشتريه بدرهم عَمَّا كانت تبتاعه من الخمر بدينار، وأن ذلك فشا في كثير من الناس، وعرف في عيونهم ما يعرف من الاحمرار في الكأس، وصاروا كأنَّهُمْ خُشِبَ مَسْنَدٌ سَكراً، وإذا مَشَوْا يَدْمُونَ رِجْلاً وَيُؤْخَرُونَ أُخْرَى. ونحن نأمر بأن تُجَنَّتْ أَصُولُهَا وتُقْتَلَع، ويؤذَّب غارسها حتى يحصد النَّدَامَةُ مما زرع، وتطهَّر منها المساجد والجوامع، ويشهَّر مستعملها في المحافل والمجامع؛ حتَّى تنتبه العيون من هذا الوَسَن، وحتى لا تشتهى بعدها خضراء ولا خضراء الدمن.

ومن إنشائه عن لسان الشَّريف إلى الفرنج: وقد أخذت شَوَانِي السلطان:

وفرَّق بين من يَتَصَيَّد بالصُّقُور من الخيل العِراب، وبين من إذا افتخر قال: تَصَيَّدْتُ بغراب؛ فلئن أخذتم لنا قريةً مكسورة، فكم أخذنا لكم قريةً معمورة، وقد قال الملك فقلنا، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح، واتكل واتكلنا؛ وأين من اتكل على الله ممن اتكل على الريح!



عز الدين بن سينا

ومن إنشاء الصدر عز الدين بن سينا في بشارة بكسر عساكر الفرنج عن الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة اثنتين وأربعين وستمائة هـ:

فلا روضة إلا دِزَع ولا جذول إلا حُسام، ولا غمامة إلا نَقْع ولا وِئَل إلا سِهَام، ولا مدامة إلا دم، ولا نغم إلا صليل، ولا مُعْرَبَد إلا قاتل، ولا سكران إلا قتيل؛ حتَّى أثبت كافور الرِّمال شقيقاً، واستحال بلور الحصاء عقيقاً، وازدحمت الجناث في الفضاء فجعلته مضيقاً، وضرب النُّقْع في السَّمَاء طريقاً.

وضاقت الأرض حتَّى كاد هَارِبُهُمْ إذا رأى غير شيء ظنَّه رجُلاً

قلت: ذكرت بهذا التلاعب المطرب من إنشاء الصدر عز الدين تلاعب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في شفاعته ما نُسِجَ على منوالها، وهي: أدام الله نعمة

(١) أ: «الصفائح».

مولانا ولا زال عَلَّمْ عَلِمَه مرفوعاً أبداً، وبناء مجده منصوباً بخفض العِدا، ولا برحت أَقلامُه لأَفْعال الشَّك جازمة، ولأَعْدائه متعدية ولآرائه لازمة.

أما بعد؛ فَإِنَّ فلاناً حَضَرَ وادَّعى أَنه رَحِمَ في غير النَّداء، وجزم والجزم لا يدخل في الأسماء، واستثنى من غير موجب فخفض والخفض من أدوات الاستثناء. وذكر أن العامل الذي دخل عليه منعه من الصرف وَلَزِمَه لزوم البناء واجتمع معه في الشرط وأفرده بالجزاء، والمأثور من مكارم مولانا نُضِبَ محلّه على المدح لا على الإغراء، ورفع اسمه المعرّى من العوامل على الابتداء، ففيه من التَّمييز والظَّرْف ما يُوجب العطف، ومن المعرفة والعدل ما يمنعه من الصَّرْف، لا زال مولاناً باباً للعطف والصلة، ومآثر مكارمه متّصلة لا منفصلة.



حظيرة الأنس إلى حضرة القدس لابن نبأته

قلت: قد انتهت الغاية هنا إلى التحلي بالقَطَر الثباتي، وقد عَنَ لي أن أوردَ له هنا حظيرة الأنس، إلى حضرة القدس، فإنها من بديع إنشائه وهي في رحلته إلى القدس الشريف مع صاحب أمين الدين، وهي:

الحمد لله الحافظ سرّاً ملكه بأمينه، وحامي حماه بمن قسم الشكر والأجر بين دنياه ودينه، ومن إذا رُفعت راية مجدٍ تلقّاها عرابة براعته بيمينه، وإذا امتدّت إليه أجياد الممالك حَلّاها من عقدٍ التدبير بيمينه، وإذا نوى في السيادة فعلاً أمضى العزم السَّنيّ قبل دخول سِينِه، وإذا حمل بنائه القلم رويّا عن ابن بحر كتاب بيانه في الفضل وتبيينه، وصلى الله على سيدنا محمد الذي أُيِّدَ بالروح الأمين، وعُضِدَ بوزراء آله وصحبه الغرّ الميامين - وسلّم عليه وعليهم سلاماً باقياً إلى يوم الدين.

أمّا بعد؛ فإن الله سبحانه وتعالى لِمَا يُريد من صلاح عباده، وانتظام هذا العالم الأرضيّ في سِلْكٍ سداده، وتمام أمر هذا السواد الأعظم بمدبّرته تماماً يخطُ الطُّرس بسواده، جعل لكلّ دولة قائمة وزيراً قائماً بتدبيرها، مفرّغاً غصن العلم بثميرها^(١)، منقّذاً أمر سلطانها، ومبلّغاً أحكام عدلها وإحسانها، يبني ممالكها على الأصل من أقلامه، ويحوط أطرافها إحاطة الزَّهر^(٢) بِكِمَامِه، ويتحفها بأوصاف وزيريّة يعقد عليها العدلُ خنصره ويتّضِعُ بها وجه الاستحقاق من إبهامه.

وكان صاحب هذه الدولة التي خَضَعَتْ لها الدول، وفاض أمرها الجليل.

(١) ط: غصن القلم بتميزها.

(٢) ط: «الظهر».

وراسخ روحها الذي ما مال مع الهوى، وقديم صحائفها الذي تلا تسديده: ﴿مَا صَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢]، وضابط أمورها الذي طالما استشرفت إليه أسماع وأبصار، وانتصرت به بقديم هجرته فلا غزو أن صار من المهاجرين بها والأنصار، المقرّ الأشرف الصاحبيّ الوزيريّ الأمينيّ، أعلى الله تعالى أبدأ شأنه، ورفع على فزق الفرقدَيْن مكانه، وزان بأقلامه أقاليم مصر فهذه سهام وهذه كنانة، ممن استدعته رواة المحافل، وتردد في المناصب العلية تردّد الأقمار بين المنازل، وجمع الأوصاف الوزيرية جمع أبي جاد للحروف، وتنّب قلمه ونامت ملء أجفانها السيوف، وعُرف بالسيادة والزهد؛ فعلى كلا الحالين هو السريّ وقدره معروف.

وكنت أودّ لو نقلت الشهادة بصفاته عن الخبر إلى المعاينة، وجمعت بملازمة مقرّه الشريف لظاهر الوصف باطنه، ورويت الأخبار عن لسنه، وجنيت الورد من غصنه، بل الثبر من معدنه. هذا وأشغاله بتدبير الدّول شاغلة، وأيام البعد عن فراغه بيني وبين القصد حائلة.

فلما عَزَم بدمشق المحروسة سنة خمس وثلاثين على زيارة القدس الشريف، اطلع رأيّه الشريف على ما في خاطري، وأمرني بالمسير في ظل ركابه فسرّ على الحقيقة سائري، وكاشف ولا ينكر الكشف لمن كثرت زواياه في البلاد، ونظر لحالي ولا ينكر النظر في الأحوال لسيد الوزراء والزهاد، وكان له في اصطحابي^(١) مقصد تقبل الله عمله الصّالح، ومتجره الرّابح، وذلك أتّي كنت لابساً ثياب الحزن على ولدي، مقيماً بين المقابر إقامة تفت حبة قلبي على قطعة من كبدي، ساقياً رَوْض الحزن بغمام الجفون، باكياً على دنيا وجه عاجلته الأيام بصرف المنون، أطلب قلبي في التراب وأنشده، وأطارح صوت الصّدّي فينشدني وأنشده:

| | |
|----------------------------------|--|
| يا لهفَ قلبي على عبد الرّحيم ويا | شوقي إليه ويا نوحى ويا دائي ^(٢) |
| في شهرِ كانون وافاه الحمام لقد | أحرقّت بالنّار يا كائون أحشائي |
| أهلاً لعقد قد وهى سلّكه | وكان ذا دُرّ بعبد السّرحيم |
| فليتني لاقيت عنه الرّدى | وعاش ذاك الدّر درّاً يتيّم ^(٣) |

فاقتضى تدقيق النظر الصاحبيّ في إساءة العوارف، وإبداء عواطف الفضل وفضل العواطف، أن ينزع عني بصحبة ركابه الكريم لباس الباس، ويشغلني بمشاهدة الأنس القائل: ألا هكذا فليصنع الناس مع الناس، وينهضني بالإنعام من حوادث

(١) «استصحابي».

(٢) ديوانه: ٤٨٠.

(٣) ديوانه: ١٨.

الزمن، ويقرب مثلي قريباً لا يفطن لمثله إلا من ومن، فيا لها سفرة قابلها وجه الإقبال^(١) بالسفور، وتلا فضلها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤] ومدّ فيها للإنعام عليّ ظلاً ظليلاً، وملأ بيتي وعيني دقيماً وجليلاً.

وأمرني أن أصف له المنازل والطرق وصفاً كقصده الجميل جميلاً، فسرنا وأيدي السعد قد دلت الطرق بل طوتها، وقدمت وعود الرجاء لي بل أنجزتها، والأرض قد شرعت في لباس حليها وحلّليها، ومراعي الربيع قد وعدت من الشمس بتسمين حملها، والشتاء قد آن أن يقوّض الخيام، والأفق قد شمر للانصراف ذيل الغمام، ومبدأ الروض أحق بقول أبي الطيب:

لَقَدْ حَسُنَتْ بِكَ الْآيَامُ حَتَّى كَأَنَّكَ فِي فَمِ الدَّهْرِ ابْتِسَامُ^(٢)

فأتينا الكسوة فلبسنا منها للمسرة ثياباً سابغة الذبول، وطفنا منها بكعبة الفضل طوافاً واضح الإقبال والقبول، وقلنا للمقاصد: أبشري^(٣) بالخطوة، ولعيون الآمال: تأملي ما أحسن الكعبة في الكسوة، ومررنا والخيّل تجمر جمرأً، وجزنا بالصنمين، فهتمت أن تفخر بمواطئ خيلنا على اللات والعزى، وصعدنا منزلة رأس الماء فكاد الطرب يهزه هزاً، ورأينا بينها وبين منزله المعبر أرضاً قد اخضر جئابها، وطرز بآثار الطرف ثيابها، فأمرت بالقول، فقلت:

سقى الله أرضاً طرّقتها مثل طرّزها وسائرها بُرْد من الوشي أخضر

تذكرت أحبابي بمشوى يريدنا فعيني رأس الماء وجسمي المعبر

ووافينا الحصين وقد راغت الخيل روغان أبيه، وتلقّتنا بالبشر والبشرى وجوه أهليه. وسألونا أن نريح عندهم الركاب من الأئین، وعجلوا بالضيافة على الفتوح ولا ينكر تعجيل الفتوح للحصين. ووجدنا هناك فقيراً مغرباً حسن التلاوة وقد عجز عن المسير، وارتدّ طرف قصيده عن القدس خاسباً وهو حسير، فأمرت له الصدقات الصاحبة بمركوب ونفقة تُعينه على السفر والإقامة، وألحقه في ذلك^(٤) بفقر عجمي ينشد لسان حاله: بي مثل ما بك يا حمامة.

فلم أر مثلها صدقات تجود من الزاد والراحلة بالغيث والبرق، ولا مثله متصدقاً يجلس لحظة واحدة فيركض نداه في الغرب والشرق.

وعجلنا بعجلون، فحشّر الناس لدينا ضحى، وجاء أهل المدينة يستبشرون

(٣) د: «تبشري».

(٤) ط: «والحقه بفقر».

(١) ط: «القمول».

(٢) ديوانه: ٨٠/٤.

فرحاً، وارتفعت الأصوات بالأدعية الوافية، وأردنا أن نكتم دخولنا البلد وكيف تكتمننا وهي ذات عين صافية!

ثم نزلنا بالخيام في مَرَجَتِهَا الخضراء، تحت قلعتها الغراء، وهي في معارج السحب صاعدة، سائدة في الجوّ كأنها في البحر على عمود الصبح قاعدة، مضئّة بين عقود الأنجم كأنّ درّتها اليتيمة، جالسة على سرير الخيل تنادم الفرقدن كأنها جذيمة. فنظر في المصالح، وميّز بالعدل الصالح والطالح.

وعجّل من عجلون المسير فلم ينظر الغادي الذي هو رائج، وأشرفنا على بركات القصد المنجبة، واقتحمنا إلى الغور عقبة سهّلها السعد فلا تقل: ما أدراك ما العقبة!

واستفتحتنا المزارات التي نوبنا قصدها، وطوبنا غورها ونَجّدها، بمشهد صاحب رسول الله ﷺ، وهو أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فرامينا إليه بالعزم الفاخر، وزار أمين هذه الأمة الأول أمينها الآخر، وأجرى أمر مشهده على سنن الصلاح، ونظر في مرتبته بعين العدل وأعانه بيد السماح، وجعل والي الناحية عبيدة وما جعل لشهادة المعروف من جراح.

وسلكنا جانب الغور الممطور فأعجبنا رِيّاً ورُواء، وكنا نظن الماء فيه غوراً فوجدنا الغور ماء، وخضنا في حديثه وخاضت الخيل، وتركنا عقباته كالمعلّقة وملنا إلى السهل كلّ الميل، وتلقينا كلّ ذي قصد يُبشّر بالصباح ولم نقل أهلك والليل.

وما زلنا كذلك لا نمرّ بوادٍ إلا أثنت مع الابتهال بطول العمر رماله وأرامله، ولا بناذٍ إلا قامت للدعاء رجاله وأطفاله وحلائله، ولا بولاية إلا أرتج غَدْرُها، ولا ببلدة إلا زها على التي بين السماكين بدرها، ولا ماشٍ إلا حملة المعروف، ولا عابر سبيل إلا آتسه من التعماء صنوف، ولا جائزٍ إلا شملته جائزة، ولا منقطع بمفازة إلا وعقباه فائزة، ولا ظبية من ظبيات دمشق إلا والمكارم تواليها وتوليها، وتوجدتها في القفار كما توجدتها أولياء الله فيها.

إلى أن قَدِمْنَا القدس الشريف نحن والغمام، وسبقتنا إليه طُرّة الصُّبح تحت أذيال الظلام، وخفّ بنا جناح السوق والشوق حين دنت الخيام من الخيام، وألقينا بباب حرمة عصا السفر، وألقت هناك رحالها ركائب المطر، وزرّنا باب الرحمة من الأرض وزارنا باب الرحمة من السماء، وصرنا من الصالحين عند زيارة الأقصى فمشينا على الماء، وحمدنا الأوطان والأوطار، واستمرت السحب حتى عادت الصخرة كحجر موسى تتفجّر منها الأنهار، وأقمنا في بيوت أذن الله أن يرفع شأنها، ويسبّح فيها بالغدو والآصال سكانها.

وكان معنا شخص يلقب بالخلد سكن بيتاً حسناً، وغمض عينه على الرفاق

تغميضاً بيّنا، فقال مولانا الصاحب: ما تقول في بيته؟ فقلت: ما أقول في جنة الخلد: وشكا قوم عشرة هذا الرجل فكتبت على ورقتهم: اصبروا على ما يفعلون ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُتِبَ لَكُمْ﴾ [السجدة: ١٤].

ثم دخل الناس على الأبواب الصحابية أفواجا، وما ترك أحد منهم منهاجا ذا ناحية إلا منهاجا، ومكثنا في البيوت إلى أن صحا الأفق من مدامة غمامه، وحسر عن وجهه للأبصار فضل لثامه. وقمنا لبقية المشاهد قاصدين، ولتلك المباني المعظمة شاهدين ومشاهدين، فعاودنا الصخرة بقلوب قد لانت، ونثرنا على مواطئ القدم دموعاً عزّت بلمسها ولا نقول هانت، ونظرنا آثاراً قديمة تذهل عيون النظارة، وآثاراً متجددة في هذه الدولة القاهرة تقصر عنها العبارة، ومحاسن يقف في طريق الزيارة متأملها وقفة في الطريق يصف الزيارة، فمنها ما هو مخصوص بالحرّم الشريف نستلم كالْحُجَّاج أركانها، ونقلّب وجوهنا في سماء سقّف يكاد يمطر علينا لُجَيْنَه وعقيانه. ونشاهد رخاماً بلغ في الحُسْن والمحلّ الأقصى وتمّت به في بهجة المكان زيادة تخالف قول النحاة إن في الترخيم نقصاً.

فأما المياه التي تجري في الحرم على رأسها، وتطوف على مواضع المنافع بنفسها، فتلك نعمة مقيمة، يكافئ الله عنها في دار المقامة، وحسنة في المعنى والصورة جارية إلى يوم القيامة.

ومن المباني المذكورة ما هو خصيص بمولانا ملك الأمراء أعزّ الله أنصاره، وأبقاه سيفاً يقف كلّ ذي قَدَرٍ عند حده فلا يجاوز مقداره، من مدرسة علم يدرّس ولا يدرّس معهده، ودار حديث يُروى فيروي الأسماع الظامئة مورده، وخانقاه تضيء عليها أنوار البركات الكوامل، ورباط ومكتب هما كما قيل: ثمال اليتامى عصمة للأرامل.

وقلت فيهما:

بنيّت رباطاً للنساء ومكتباً يُدير على الأيتام سُحبَ الفواضِلِ
فلله من هذا وذاك كما ترى ثمال اليتامى عصمةً للأراملِ

فَجِئْنَا من تلك المحاسن بساتين دانية القطوف، ولحظنا من الظلال السّيفية جنة نشأت وكذلك الجنة تحت ظلال السيوف، وشرعت صدقات السرّ والجهر، وقوبل السؤال ببحر لا يسمع عنده نهر، وغصّ بفقرائهم المكان والطريق، وجاؤوا رجالاً ونساءً ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]؛ فوضع في مواضعه الثّوال، وقُدّرت الكساوي حتى على المستورين والأطفال.

هذا وكم ثياب صفوفٍ أعرض إشراقها عن مقال اللاحين، واتخذ الفقراء

والأغنياء من أصوافها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، وجاءت الدراهم بعد التفاصيل بالجمل، وقال جودها لحاتم: هذه التي لا ناقة لك فيها ولا جمل ومما قلت في ذلك:

لله كم حال امرئ مقتر
قضيت في القدس بتنفيسه
ودرهم ولّى ولكئنه
قد أخذ الأجر على كيسه

ثم تليت الختمات التي شرف الله تعالى ذكرها، ومواعيد التفاسير والرقائق التي أجرت الأوقاف الصحابية أجرها.

وشرع في بناء الرواق على سطح الزاوية الصحابية بباب الحرم الشريف، وأخذ راقم الرّخام في التّوشيع والتفويف؛ فيالها ألواحاً كتب فيها من الحسن كلّ شيء، واطرّد ماء رونقها فكأن العين منها في ماء وفيء، وبها له رواقاً شاق وصفه وراق، ورفع محله فقال لسان المتصوّف: حبّذا رفاعي الرواق.

ثم رتب للشيخ والفقراء ما يحتاجون إليه من كل نوع فريد، وأصبح كل أحد وهو للنزول عند ذلك الشيخ مريد.

وبرزنا في اليوم السابع من الإقامة، وقد قدّمنا نقصد الخليل صلوات الله عليه بالنية الجليلية، وطربنا لتلك المنازل، وكيف لا نطرب لها وهي الخليلية!

وزرنا قبر يونس عليه السلام في طريقنا ورفعنا لأنواره الجفون، وتملى عند الزيارة ذو العين بذي النون.

ثم نزلنا من محلّ الخليل على محلّ القرى، وحمدنا عند صباح ذلك الوجه السرى. واستقبلنا بمقام إبراهيم أماناً، واستلمنا من ضريح شائد الركن ومن ضرائح أهله أركاناً، وأكلنا من شهّي عدسه لوناً ووجدنا من الهناء ألواناً، وقلنا لأنفاس الشوق كوني بزداً وسلاماً على إبراهيم، ووردنا مورد اللقاء نشفي ظمأ إبراهيم، وفُرقت الهبات، وتليت الختمات، وجرت المواعيد على عوائدها المحكمات، فقلت:

قصدنا خليل الله في ظلّ صاحب
جليّ العلا والمكرمات جليل
فهذا لدنيانا وهذا لديننا
فيا حبذا من صاحب خليل

وسرنا في ظلّ صاحب من الخليل، وكادت دمشق تمدّ أيدي إعطاشها لمجاذبة ركابه، ومصر تتضرّع بأصابع نيلها طمعاً في اقترابه، وترفع ثدي هرمها داعية إلى الله بعوده إليها وإيابه، وهمّ شبك الوزارة أن يتلقّى صاحب فتحه، وصدر الخزائن أن يعانق ما اعتاده من رأى عطفه ومنحه، فإنه ما جلس فيه أبهر وأبهى من الطلعة الأمينية بإجماع الآملين المتأملين، والخزائن التي كم قال لها تدبيره: إني حفيظ عليم، فقال الملك: فإنك لدينا مكين أمين.

ثم عطفننا الأقدار إلى جهة الرملة وجاءت الوفود كالرمل، وخفت أكياس دراهم الصلات وثقلت أكياس دراهم الحمل، وأقمنا ثلاثة أيام نكاد ننشد:

خرجنا على أن المقام ثلاثة فطاب لنا حتى أقمنا بها عشرة

ورأينا مسجداً يُعرف بالركني قد غيّر الزمان محاسنه الأنيقة، وهدم الخراب والموت ركنيّه على الحقيقة، فأمر مولانا الصاحب بعمارة ما منه اندثر، ولحظت الآراء حجارته المنقضة فتبين أن السعادة تلحظ الحجر. ولقد صنع في هذه المنزلة من المعروف ما لم يصنع ذو الدهر الطويل مثله، وبنى من المكرمات ما ثبت ولولا إبداع سعادته ما ثبت البناء فوق الرملة.

ورحلنا عن الرملة بنية الزيارة لمشهد زكريا ويحيى عليهما السلام، فمررنا في طريقنا بجملة غير معترضة، ونبته في وجهة القبول مبيضة، تحتوي على قبر بنيامين أخي يوسف عليهما السلام، فألحقناه بزيارة أخيه، وتوكلنا على الله في القبول توكل أبيه، وتيممنا ببنيامين، وقرعنا أبواب السماء بأدعية فاتحة فقال النجح عقيب الفاتحة: آمين.

وسرنا والصدور منسرحة، والطريق إلى خير الدارين متوضحة؛ وجئنا المشهد وقد ظهرت عليه بضريحين كريمين بهجة الدين والدنيا، وتلا مزارها للقدام: إنا نبشرك بيحيى، وبثنا ليلة طيبة نحيتها ونميت النوم، ونعصي بالسهر أمره فما له سلطان على أعين القوم.

وأصبحنا وقد امتلأت القلوب سروراً، والأعين نوراً، وقوينا على قصد جنى الجنان، واستقبلنا محاسن بيسان.

وختمنا الزيارة بمشهد معاذ بن جبل رضي الله عنه، فأنقذت أنواره القلوب من الهم أي إنقاذ، وكدنا نفتن بالأنس حتى نقول: أفتان أنت يا معاذ؟ وأمسكنا عنده من الدعاء بعزوة لا تنفصم، وأوينا من طوفان الذنوب إلى جبل ينجو من به يعتصم. وأمر بما يحتاج إليه من تجديد عمارة، وإنشاء طهارة، وألحق بكل مزار وردنا عليه في هذه السيارة، فإننا لا نفارقه إلا عن إقامة صلاة وصلات، وتجديد آثار يزين به وجه القبول كاتب الحسنات.

ثم نهضنا عن الغور نهوض ليثه الملبّد، وجُزنا مبتسمين فما بكينا بكاء لبيد يوم فراقه أريد، وانتشقنا من تلقاء طيبة الاسم أطيب العرف، وسلكننا بحرف واديها مستبشرين فكانت طيبة الاسم والفعل والحرف.

ثم عاودنا المنازل التي قدّمنا ذكرها، ورجعنا كما تسترجع منازل الأفق زهرها، وتنسّمنا أرواح دمشق حتى كدنا ننشق من ذيل الكسوة عطرها. واستقبلنا الديار على

هذا السعي الجليل، وواصلنا السفر على كل وجه للفضل جميل، وقطعنا بالكسوة ليلاً طائلاً نداؤه: كلَّ ليل للعاشقين طويل.

وفي تلك الليلة كان دخولنا إلى دمشق المحروسة كدخولنا إلى القدس الشريف سائرين سُرَى النجوم في الليل، سابقين لَغْرَةَ الصباح بَغَرَرِ الخيل، موفرين لخواطر الملتقين، وهيهات وقد سال منهم السيل. نازلين من دمشق جَنَّةً قد تَبَسَّمت لِقْدومنا عن ثغور الأزهار، وأجرت أمام ركابنا الأنهار، وَلَبِسَتْ من وَشْيِ البديع حُللاً لها من أوائل ما انعقد من الثمار أزرار، فائزين من الثناء والثواب بِفَوْقِ الإرادة، داعين لمن فَضَّلَهُ لنا جامع مترقبين لرتبته باب الزيادة.

ونَمَّتْ هذه السفرة على أحسن ما يكون، واشتملت من وجوه المحاسن على عيون. قضيتُ المهمات بها بالنهار وقضيتُ في الليل المذاكرة، والتقطتُ من الفوائد الوزيرية ما كنت أرتقبُ جواهره وأزاهره، وأردت أن أذكرها في هذه الخطبة لأنها جواهر، وأضمنتها بعض العلم في هذه الأوراق فإنَّها أزاهر، فكثرت على هذا اللفظ المسجوع، واقتضى الحال أن أجمعها في سفرٍ يقال فيه: تلك رحلة وهذا تاريخ ومجموع.

وقد عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ هذه النبذة من القول، وَرَدَتْ عن قريحة مَسَّهَا فَقَدْ الولد بقرح وأَيَّ قرح، وقال بِفكرها الذي كان حائك الكلام: لستَ اليوم من ذلك الطرح، فليسط الواقف على هذه الرحلة عذري، ويعلم السبب في كونها ليست عادة نظمي ونثري؛ وإذا كانت القريحة في بقايا قرحها فليت شعري أينهض سَجْعِي وشِعْرِي!

واللَّهُ تعالى المسؤول أن يجعل في البقاء الصاحبي سُلوة عن كلِّ فقيد، ويصل أسبابنا أبداً بتحريره الوافر وظلِّه المديد، ويرزقنا في شُكْرِ نِعَمِهِ لساناً لفظه ذهب وذهناً بصره حديد.



رحلة المؤلف إلى البلاد الرومية

قلت: ذكرت برحلة الشيخ جمال الدين رحمه الله إلى القدس الشريف صحبة الركاب الصاحبي الأميني رحلتي صحبة الركاب الشريف السلطاني المؤيدي سقى الله ثراه - إلى البلاد الرومية، وبروز أمره الشريف بذكر الفتوحات بها، وتسمية البلاد، واستيعاب الرحلة الشريفة في البشارة المجهَّزة إلى الديار المصرية وألا يقرأها بالجوامع المطهَّرة غير مولانا شيخ الإسلام قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني الشافعي، عَظَّمَ اللَّهُ شأنه، فقرأها بالجامع المؤيدي والأزهر في شهر رجب الفرد سنة ست عشرة وثمانمائة هـ، وقد عَنَ لي أن أقرنها بالرحلة التَّبَاتِيَة فإنَّها رحلتان، وهي:

ضاعفَ اللَّهُ تعالى نعمة الجناب العالي، ولا زالت طُرَف أخبارها السَّارة تسرُّ

خاطرَه وتشتَف سمعه، وترنُّحُه بنسمات قُرْبنا وتجاور كريم سمعه ليأخذها بالشفعة. وإن حصل بينه وبين المسرة - لبعدنا - طلاق، فمائلنا الشريف يشُّره بالرجعة.

صدرت هذه المكاتبة تُهدي إليه من أوراقها ثمرات الفتح ليتفكَّه بالفواكه الفتحيَّة، وتُعرب عما أبدته عريباتنا من شواهد التسهيل في فتح البلاد الرومية، فإنها رحلة مؤيَّدة تُشدُّ إليها الرِّحال، وإن كانت دول الإسلام حُلَّةً على أعطاف الدهر فهي لها من أظهر الأذيال.

وُبيدي لكريم علمه تجلِّي مخدَّرات الحصون بكلِّ وجه حسن تحت عصابتها وفتح قلعتها، وقد حرَّك بابها مصراعِي شفتيَّه وأعلن بسورة الفتح جهراً، وتلت أقفالها بعد ما عسرت على الغير ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦] وصعدت أنفاس الأدعية من أفواه مراميها فرحاً بنا وسروراً، وبُذلت صوامعها وتلك البيع بمساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً. وأخلصت الطاعة لشيخ ملوك الأرض طائفها الأرمينية، وانقطعوا في زوايا الطاعة مريدين لهذه المشيخة الشريعية الصوفية.

ورغب ابن رمضان في طاعتنا الشريفة، فجعَّلنا له في ربيع حلاوة الرغائب، ورفعنا قواعد بيته الإبراهيمي وأدنيائه من أرمنة فدنا منها إلى أعلى المراتب.

وتلمظت سيوفنا بحلاوة الفتح ورشفت بألستها في كلِّ قطر قَطْرها، وفتحت إياس من بعيد لهذه الحلاوة ثغرها، وانسجمت أيباتها لما نظمت على بسيط الطاعة بحرَّها.

ومصَّ حصنُ مَصْيصَة من رحيق هذه الطاعة فأمسى ثغره بأفواه الشكر يقبل، وبسط جبين جسرهِ لمواطئ خيلنا فرحةً وتهلَّل.

وجانس الفتح بين إياس وبانياس، ولم ينتظم لبني كند بيت بمَلْطية يقام له وزن ويظهر منه اقتباس، وانعكس هذا الاسم بعد الاستحالة وإن كان مما لا يستحيل بالانعكاس، وتسجَّر كافرهم وقد أضرم به النار فخاطبته بلسان جمر لا يفحم.

وما هو إلا كافرٌ طال عمرُه فجاءته لما استبسطاته جهنم وفَرَّ إلى ملك ابن عثمان فحكمنا بقتله في تلك الأرض؛ علماً بأنَّ الجهاد في أعداء الدين عند العصاة المحمدية من الفرض.

وسمع العصاة بطرسُوس زئير آسادنا من بعيد، فادبر مُقبلهم وتخيل أنَّ الموت أقرب إليه من حبل الوريد. وأعربت أبوابها بعد كسرة عن الفتح وقال أهلها: ادخلوها بسلام آمنين. وآوى العصاة إلى جبل القلعة لما رأوا بعد القتال هذا الفتح المبين. وصفق مُقبلهم وجهه فَبَصقت فيه أفواه المدافع، وحكم عليه القضاء بالاعتقال ولم يأت عند ذلك الحكم بدافع.

وشاهد القرمانيون من سيوفنا شدة القرم، فخشى كل منهم أن يصير لحماً على وضم، ورأوا السن السهام في أفواه تلك المرامي برأينا الصائب ناطقة، وما أظهروا على سماء بُرج غيوم ستائر إلا لمعت فيها من بوارق نُفوطنا بارقة.

فمزقوا الأطواق من الحنق فطوقناهم بالحديد، وأحيينا الفتح المأموني برأينا الرشيد، وما خفي عن كريم علمه وقوع انتقامنا الشريف في الغادر ابن الغادر لما أدير وقطع الله دابرَه، وظهور السرّ الإبراهيمي لما ادّعى أنه مُرود تلك الفئة الغادرة. كلمه بسيوفنا فأخرسه وتخبّط شيطان الرعب بمسه، ورأى فيه تلك الهمة العالية فنجا من تلك الرقعة بفرسه ونفسه، وآوى من قبل إلى جبل ليعصمه فقال له: لا عاصم اليوم من أمر الله، ورماه من شاهقة في بحر عساكرنا بعد ما عضّ عليه بثناياه، وسمع الرعد من سيف إبراهيم ففرّ وقد شاهد من أصيب بصواعقه من عصاة التركمان، وصدقت فيه عزائم أتراكنا وما رئي أحد في ذلك اليوم من التركمان. وسقوا أوعار تلك الجبال من دمائهم فكادت أحجارها أن تورق وتُخصب بعد المحل. وجنوا بالعسال عسل النصر وغنموا من الأنعام ما زاد في عدد أجناسه على النخل. ونفرت عنهم أوانس تلك الأطباء، والمتميم ينشد:

* لَهْفِي لظبية أنسٍ منكمُ نفرت * *

وانفطرت كبده لما رأى كواكب الحي من أفلاك تلك الصدور قد انتشرت. وسنّ المقرّ الصارميّ فيهم عزمه فقطع بهذا الصارم من عواتقهم أوصالاً، وحميت نار حربه فسبكت أوانيهم من الذهب والفضة تحت حوافر خيله نعالاً. ورخصت أنواع الديباج فكم من معدني صار مع دني؛ لأن قبورهم بعثرت، وتلا لسان حال الكشب^(١) على السمور^(٢) وغيره من أصناف الوبر: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وانقادت ركائبهم إلينا وبدور مواطنها في بروج تلك الجبال قد أشرقت، والناظر يتلو متعجباً: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

وكانت نار حرب القوم على المقرّ الإبراهيمي بزدًا وسلاماً، فإنه رفع قواعد بيته في ذلك اليوم وعلمنا أنّ الله قد جعل لإبراهيم في هذا البيت الشريف مقاماً، ورقاه في عمر الأبدار إلى بروج الكمال، فأبدر فيها وسرى وأنشد لسان الحال بهذا المقال:

وقد ظهرت فلا تخفى على أحدٍ إلا على أكمه لا يعرف القمر
وإن كان شبلاً فهو في المخبر كأسيده، ومصارع ليوث الحرب قد جعلها الله من

(١) ج «الكشب».

(٢) السمور: دابة معروفة تسرى من جلودها فراء غالية الثمن.

صغره تحت يده، ورفع له في هذا المبتدأ وسيّره في الآفاق خبراً، وعلم الأعداء أن دمهم يجري عند لقائه دماً وكذا جرى. وهذه المقابلة تليق بابن الغادر على قبح سريره وغدره، فإنه أخرج أهل تلك البلاد من أرضهم بظلمه لا بسحره.

وسألنا قبل ذلك في ولده وقد كره العود إليه وألف أبوتنا الشريفة وتوطن، ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣]. فخالف نص الكتاب، ومشى في ظلم الطغيان، ولم يعمل بقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. فقابلته سطواتنا الشريفة على قوله وفعله، وما حاق المكر السيئ إلا بأهله.

وحلّ ركابنا الشريف بالأبلستين في العشرين من ربيع الآخر، فجمعنا بحصنها الزاهر بين ربيعين، وتمناها بعشر الإقامة لاستبقاء ما لنا في ذمة جيرانها من الدين، فرحبت بنا وبسطت بساطها الأخضر وقالت: على الرأس والعين.

وألقنا إلى درندة وما العيان من صنع الله في أخذها كالخبر، وقرّنا صَدْعَ صخورها باختلاف الآلات فجاء ما قرّناه نقشاً على حجر، وادّعت أن صخرها أصم فأسمعناه من آذان المرامي تنقيير المدافع وتحريك الوتر. وطلعت في ظهر الجبل كدمل فطار كل جارج من سهامنا بريشته إلى فتحها، وظنت صون من بها لعلو ذلك السفح فطالت سيوفنا إلى دماء القوم وسفّحها. وقرعنا جبلها بسبابات المدافع وكسرنا منه الثنية، وأمست حلق مراميها كالخواتم في أصابع سهامنا المستوية. وخرّ بحرُها طائعا فركبنا عليه سفن جسور على الزحف جاسرة، وأقلعنا إلى خشب سفينها المستدة فمزقنا قلوب سائرها وخرّبنا قريتها العامرة.

هذا مع أن الملك خطبها لنفسه وأراد أن يعرج إليها، فترفعت عليه ولم ترضه لنقص العرج أن يعلو عليها، فرحل عنها ولم يحظ من ديوان وصلها بمسموح، ولكن ساعة رؤيتها قالت بكارتها: مرحباً بأبي النصر وأبي الفتوح. وتعلّق سكانها بأذيال الأمان فأمتأهم، ولكن كانوا في صدرها غلاً ففزعناهم.

وجاءت مفاتيح جندروس قيل التخلّص منها براعة، فأحسنّا الختام بدرندة وألقينا إكسیر المدافع على حجرها الذي كان غير مكرم وأحسنّا التدبير في الصناعة.

وسمعت كرت برت بذلك، فألقت من بها من بشرٍ مُعَطَّلَة وزهت فرحةً بقصرها المشيد، ووصلت مفاتيحها يوم هذا الفتح مهتة بلسانها الحديد.

وغارت عروس بهتان من ذلك فخطبتنا لجمالها البارع، وجهازت كتابها يشهد لها بالخلو من الموانع. وهي أيضاً ممن خطبها الملك لنفسه فتمنعت، وأراد السموّ إلى أفقها العالي فاستسفلته وترفعت. وعوّث كلابه فلقمتمهم ما ثقل وزنه من أحجارها الثقال، خلافاً لمن أصبح الصخر عنده مثقالاً بمثقال.

وعلم طغرق أن سهامنا في كل عضو من أعضاء العصاة جارحة، وأفواه مدافعنا في أعراض الصخور من سائر القلاع قاذحة، فتبت يدها عن المنع وجنح إلى الإخلاص فسابقه باب القلعة ورفع صوته في الفاتحة. وضحك ناموس ملكنا الشريف على من ادعى بكختا وكركر، ولكن أبكتهم سهامنا دماً جرى من محاجر القلعتين ولم يتعثر.

وقال حصن كختا: إن كانت قلعة نجم عقاباً في عقاب، فالنسر الطائر يخفق تحت قادمتي بأجنحته، أو كان الهلال قلامة لأنملتها التي علاها من الأصيل خضاب، فكف الخضيب يتيم تربي ويمسح بياض جبهته، فانا الهيكل الذي ذاب قلب الأصيل على تذهيبه، وودّ دينار الشمس أن يكون من تعاويذه، والشجرة التي لولا سمو فرعها تفكّحت به حبات الثريا، وانتظمت في سلك عناقيده.

وتشامخ هذا الحصن ورفع أنف جبله وتشام، فأرمدنا عيون مراميه بدم القوم وأميل سهامنا على تكحيلها تتزاحم. ووصل النقب بتنقيبه عن مقاتلهم إلى الصواب، وأيقنوا أن بعده لم يضرب بيننا بسور له باب. وكان منهل مائهم عذباً فأكثرنا على منبعه الزحام، وتطفّلوا على رضاع ثدي دلو فلم ترض أم المنع بغير الفطام، وأمسى دلوهم كدلو أبي زيد السروجي لا يرجع بيّلة، ولا يجلب نفع غلة.

وحكم المدفع الكبير على سور القلعة فقال له السور دائم النفوذ والأحكام، وانقلبوا صاغرين إلى الطاعة وقد قابلنا أنف جبلهم بالإرغام.

ورجعوا عن خليلهم الكردي لما قام لهم على جهله الدليل، وقالوا طاعة السلطنة الشريفة ما يراعى فيها من العصاة خليل. وسألونا الصفح عن حديث جهلهم القديم، وسلموا القلعة لرضا خواطرننا الشريفة فجمعوا بذلك بين الرضا والتسليم.

وتنكرت أكراد كركر بسور القلعة فعرفناهم بلامات القسي وألقات السهام، وعطست أنوف مراميههم بأصوات مدافعنا كأن بها زكام. وتبرموا من خليلهم الكردي لما شاهدوا الخطب جليلاً، وقال كل منهم: ﴿يَوَيْلَ لِيَتَنَّى لَوْ أَتَخَذَ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٨].

وأورت عاديّات المدافع بالقلعة قذحاً فأمست بالزلزلة مهددة، وفروا من سطواتنا الشريفة إلى البروج فأدركهم الموت في بروجهم المشيدة.

وسألنا كرديهم في جزيل ماله ليغدو بنفسه الخبيثة ويروح، فلم نرض منه على كفره إلا بالمال والروح. وسجنّاه في قلعته، وقد أيقن بالموت وارتفع النزاع، وجهز المفتاح لتخليص دينه فحصل على سجنه الإجماع وأمسى بها: كريشة في ممر الرياح ساقطة. وتمام البيت معروف عند من له عليه اطلاع.

وجاءت مفاتيح ديار بكر وقد أزهت باسمنا الشريف أغصان منابرنا، وسألت

قلعتها الشريف برسولٍ يدوس بنعله محاجرها، فأجبنها إلى ذلك وأمست بنا بعد التنكير معرفة، وصارت أبراجها بالنسبة المؤيدية مشرفة.

وجّهز قرا عثمان مفاتيح الرّها وآمد، وسأل تشريفه بتشريفهما بتقليدين يرفعان لهما في الشرف محلاً، فحلّيناه بذلك وكان من العواطل، فحلت المطابقة بالعاطل المحلّي.

والتهب ابن الغادر بحرارة المعصية ففرّ إلى برد الطاعة من غير فترة، وهزّ جزع مراحمن الشريفة واعترف أنه جهل الفرق بين الثمرة والجمرة. وأقرّ بذنوبه وقال: التوبة تجب ما قبلها، ودوحة المراحم الشريفة قد مدّ الله على الخافقين ظلّها. وعلم أنه ما أحسن البيان عن درندة في تخليص ذلك المفتاح، وسأل أن يحظى من بيان عفونا الشريف باستجلاء عروس الأفراح، فأذقناه حلاوة قُربنا بعد ما ذاق مرارة بينه، وألبسناه تشريفه بناية أبلستين فباس الأرض وهو لا يصدّق أنه يرى محاجر تلك العين بعينه، وجهزنا ولده داود بدروع من الأمن ليأمن بها من يد داود، ويتفياً بظلال جبرنا ويصير بعد حرّ المعصية في ظلّ ممدود.

وقد تقدّم سؤال قيسارية أن يقام بها سوق الأمان فأجبنها، وسُعرت بها نار الخوف بعدما علّت فجّهزنا إليها بضائع الأمن وأرخصناها، وأيقن أهلها أنهم إن مشوا في حدائق عدلنا على غير هذه الطريقة، صار على سوسنة كل سنان من دمائم شقيقة. فأزلنا عنهم بإيناس عدلنا الوحشة، وأمست قيساريّتهم في أيامنا الزاهرة هشّة، وسجعت خطباء منابرها باسمنا الشريف والدهر يهتزّ فرحةً ويترّم.

ولم يخلُ من أسمائنا عودٌ منبرٍ ولم يخلُ دينارٌ ولم يخلُ درهمٌ

وتقارب الاشتقاق بين سيواس وسيس فتجانسا للطاعة، ومات العصيان بتلك البلاد فقالت أرزيكان: الصلاة جامعة، وصلّت طائعةً مع الجماعة فلا قلعة إلا افتضضنا بكارتها بالفتح وابتذلنا من ستائرنا الحجاب، ولا كأس بُرج أترعوه بالتحصين إلا توجنا رأسه من مدافعنا بالحجاب حتى فصلت في الروم لعساكرنا التي هي عدد النمل قصص وعُدنا فكان العودُ أحمد؛ إذ لم يبق بتلك البلاد ما تعدّه القدرة على الفتح من الفرص.

وجاءت رسل ملوك الشرق بالإذعان لطاعتنا التي اتخذوها لشرفها قبلة، وودّ كلّ منهم أن يحظى من جبهات أعتابنا بقبلة. وتنوّعوا من الهدايا بأجناس صدقت من كل نوع مقبول، وبالعوا في الرقة وأهدوا من الرقيق ما قام له عندنا سوق القبول.

وأسفر قرا يوسف من الجمال اليوسفيّ ونور الطاعة عن بهجتين، وأظهر كتاب الطهارة بتطهير الأرض ممن ندبنا إليه من أعداء الدولتين، ودنت الديار من الديار،

فكانت سيوفنا في القرب له حصناً وملاذاً، ولم يباشر في إخلاص الطاعة مما يقال له بسببه: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩].

وجاءت هداياه التي هبت نسمات القبول على إقبالها وجنينا منها ثمار المحبة، وجمل التفاصيل التي وشعها سناء الملك ببهجة ولم يترك لابنه في دار الطراز رُتبة. والنمورة التي يحجم ابن فهد عن وصفها إذا قابل منها السواد والبياض بالمقلتين، فإنها جمعت لنا من ليلها الحالك ونهارها الساطع بين الآيتين. والجواد الذي تميّز بأوصاف ما صاحب مجرى السوابق من الفحول التي تجاريتها، فإنه غرة في جباه الخيل التي قال قائد الغر المحجلين: «إن الخير معقود بنواصيها». والسروج التي سمّت عندنا على السروجي بمقاماتها العالية، ورأيناها أهلة تغني عن الفجر فحضبنا كل سرج منها بالغاشية. والجوارح التي خشي النسر الطائر أن يصير منها واقعاً وصدق فيما تفرّس، وخافت الشمس لما تسمّت بالغزالة ولفّ سرحان الأفق ذنبه على خيشومه ولم يتنفس.

والقوس الذي أصاب به أغراض المحبة ونال منها أوفر سهم ونصيب، وجاء عبارة عن رأي مهديه وكلّ عندنا بحمد الله مصيب. وهو من الأشياء التي وقعت في محلّها ونحن نقيم دلائل ذلك وبرهانه، فإن القوس إذا عانق سهامه بمصر علم أنه وصل إلى الكنانة.

وبالغ المقرّ الجمالي في نظم بديع الهدايا ونسخ الجفاء بكثرة رقيقه، وأدار من أواني الصيني كؤوساً أترعها الودّ بسلاف رحيقه.

ودخلنا حلب المحروسة وأوصلناها ما استحقّ لها من ديوان الفتح علينا، وردّذنا ما اغتصب منها فقالت: هذه بضاعتنا رُدّت إلينا، وقد أثّرنا الجنب بكرامة هذه الإشارة التي استبشر بها وجه الزمان بعد قطوبه وتبسّم، فإنه ركن من هذا البيت الشريف ونسيب مدحه المقدّم، فياخذ منها حظه ويثلج صدر البرايا، ففيها لهم بردّ وسلام، ويرعاهم بعين الرعاية ليزوع فيهم عَرَف العدل ويصير مسكاً لهذا الختام.

والله تعالى يمتعته في ليله ونهاره من أخبارنا السارة بالأعياد والمواسم، ويجعل له من صياغة أعماله إن شاء الله حسن الخواتم.



رحلة المؤلف من مصر إلى دمشق

قلت: ذكرت بهذه الرحلة أيضاً رحلتي من الديار المصرية إلى دمشق المحروسة المحمية سنة إحدى وتسعين وسبعمائة هـ، والملك الناصر قد خرج من الكرك، ونزل عليها، وتصدّى لحصارها وقد اجتمعت عليه العساكر المصرية والشامية، وحدث بدمشق المحروسة ما حدث من القتال والحصار والحريق، فكتبت إلى المقرّ

المرحوميّ الفخريّ القاضي ابن مكانس في شرح ذلك رسالة لم يُنسخ على منوالها، ولم تسمح على غلبة الظن قريحةً بمثالها، وهي:

يقبل المملوك أرضاً من يَمَمها أو يَتَمَم بِثَرها حصل له الفخر والمجد، فلا برح هيام الوفود إلى أبوابها أكثر من هيام العرب إلى رِيّا نجد، ولا زالت فحول الشعراء تطلق أعتة لفظها فتركض في ذلك المضمار، وتهيم بواديهما الذي يجب أن ترفع فيه على أعمدة المدائح بيوت الأشعار. ويُنهى - بعد أشواق أمست الدموع بها في محاجر العين معثرة، ولو لم يقر إنسانها بمرسلات الدمع لقلت: قتل الإنسان ما أكفره - وصول المملوك إلى دمشق المحروسة، فيا ليتَه قُبِضَ قبل ما كتب عليه ذلك الوصول، ودخوله إليها ولقد والله تمتى خروج الروح عند ذلك الدخول. فنظر المملوك إلى قبة يلغا وقد طار بها طير الحمام، وجثت حولها تلك الأسود الضارية، فتطيرت في ذلك الوقت من القبة والطير وتعوذت بالغاشية. ودخلت بعد ذلك إلى القببات التي صُغِرَ اسمها لأجل التحبيب، فوجدتها وقد خلا منها كلّ منزل كان أنساً بحبيبه فأنشد به لسان الحال: قفا نَبَك من ذكرى حبيب.

ونظرت بعد القباب إلى المصلّى وما فعلت به سكان تلك الخيام، والتفت إلى بديع بيوته التي حُسِنَ بناء تأسيسها وقد فسد منها النظام:

فسال وقد وقفْتُ عقيق دَمْعِي على أرض المصلّى والقباب
ونظرتُ إلى ذلك الوادي الفسيح وقد ضاق من الحريق بسكانه الفضا، فتوهّمت
أن وادي المصلّى قد تبدّل بوادي الغُضا.

فسقى الغضا والساكنيه وإن هُم شَبُّوه بين جوانحي وضلوعي
واصطَلَبَت النار، وقد أَرادَتْ سَبْيَ ذلك النادي، فشَبَّت عليه من فوارس لهيبها
الغارة، وركضت في ميدان الحصى فوجدت أركانها كما قال تعالى: ﴿وَقُودَهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

ودخلتُ قصر الحجاج، وقد مُدَّت النار به من غير ضرورة في موضع القصر،
وأصبح أهله في حُسْرِ، وكيف لا وقد صاروا عبرة لأهل العصر!
وتأملتُ تلك الألسن الجمرية، وقد انطلقت في ثغور تلك الربوع تكلم السكان،
وتناولتُ بألسنة الأستة الأتراك فانذهل أهل دمشق وقد كلّموا بكلّ لسان ووصل المملوك
بعد الفجر إلى البلد، وقد تلا بعد زخرفه في سورة الدخان. فوجب أن أجري الدموع على
وجيب كل ربع، وأنشد: وقد دخل صبري بعد أن كان في خبر كان:

* دَمْعٌ جَرَى فَقَضَى فِي الرَّبْعِ مَا وَجَبَا *

ووقفتُ أندب عرصاتِها التي قمحتْ بالبين فخابتْ من أهلها الظنون، وكم داروا بقمحها خيفة من طاحون النار فلم يسلم، فصدقتُ المثل بأن القمح يدور ويجيء إلى الطاحون.

وتطَرَّقْتُ بعد ذلك إلى الحدادين وقد نادتهم النار بلسانها من مكان بعيد، ﴿أَتَوْقِي زُبَيْرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]. ولقد كان يوم حريقها يوماً عبوساً قمطيرياً، أصبح المسلمون فيه من الخيفة وقد رأوا سلاسل وأغلالاً وسعيراً.

هذا وكلما أَضْلَيْتْ نار الحريق وشبَّتْ نار الحرب ذكرْتُ ما أشار به مولانا على المملوك من الإقامة بمصر، فأنشدت من شدة الكرب:

أهأ لمصر، وأبن مصر، وكيف لي بديار مصر مراتعاً وملاعِباً^(١)
والدهر سلَّم كيفما حَاوَلْتُهُ لا مثل دهري في دمشق مُحارباً

يا مولانا، لقد لبستُ دمشق في هذا المأتم السواد، وطبختُ قلوب أهلها كما تقدَّم على نارين وسَلِقُوا من الأسنة بالسنة حداد. ولقد نَشَفْتُ عيونهم من الحريق واستسقوا فلم يَنْشَقُوا رائحة الغادية، وكم رئي في ذلك اليوم ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصَلَّى نَارًا حَاقِيَةً﴾ [الغاشية: ٢ - ٤].

وكم رجل تلا عند لهيب بيته ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، وخرج هارباً وامراته حمالة الحطب. وشكا الناس من شدة الوهج وهم في الشتاء، وصاروا من هذا الأمر يتعجبون، فقال لهم لسان النار: أتعجبون من الوهج والحريق وأنتم في كانون! ولعمري لو عاش ابن نباتة ورأى هذه الحال، وما تَمَّ على أهل دمشق في كانون، لترك رثاء ولده عبد الرحيم وقال:

يا لهف قلبي على وادي دمشق ويا حُزني عليه ويا شجوي ويا دائي
في شهر كانون وافاه الحريق لقد أحرقتْ بالنار يا كانونُ أحشائي

ونظرتُ بعد ذلك إلى القلعة المحروسة، وقد قامت قيامة حربها حتى قلنا: أَرَفَتِ الآزفة، وسترُوا بروجها من الطارق بتلك الستائر وهم يتلون: ﴿لَيْسَ لَهُمَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨].

واستجليت عروس الطارقة عند زَفْها وقد تجهَّزَت للحرب وما لها غير الأرواح مهر، وعقدت على رأسها تلك العصائب وتوشَّحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الأبيض سوار النهر، وغازلت بحواجب قسيها فرميت القلوب من عيون

مراميها بالنبال، وأهدت إلى العيون من مكاحل نارها أكمالاً كانت السهام لها أميال.
 وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وسمح وهو على فرسه
 بنفسه الغالية، وراموا كشفها وهم في رقعة الأرض كأنهم لم يعلموا بأن الطارقة
 عالية. وتالله لقد حزنت لقوم لم يتدرعوا بغير آية الحرص في الأسحار، وقد
 استيقظوا لحمل قسيهم ولم تنم أعينهم عن الأوتار، فأعيد رواسيها التي هي
 كالجبال الشامخة بمن أسس رواسي المحجوج، وأحصنها قلعة بالسما ذات
 البروج. وتناولت إلى السور المشرف وقد فضل في علم الحرب وحفظ أبوابه
 المقفلات، فما وقفنا على باب إلا وجدناه لم يترك خلفه لصاحب المفتاح تلخيصاً
 لما أبداه من المشكلات، وما أحقه بقول القائل:

فضائله سور على المجد حائط وبالعلم هذا السور أضحي مُشْرِفاً

ثم حملوا عليه وظنوا في طريق حملتهم نصراً، ونصبوا دَسْت الحرب ولم
 يعلموا بأنه قد طبخ لهم على كل باب قِدرًا، فلا وأبيك لو نظرته يوم الحرب وقد
 تصاعدت فيه أنفاس الرجال، لقلت: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ﴾ [ق: ٢٠] وإلى
 المحاصرين وقد جاؤوا راجلاً وفارساً ليشهدوا القتال، لقلت: ﴿وَحَمَّاتٌ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ
 وَشِدِيدٌ﴾ [ق: ٢١]. وإلى كواكب الأسنة وقد انتشرت، وإلى قبور الشهداء وهي من
 تحت أرجل الخيل قد بُعِثَتْ، وإلى كَرِّ الفوارس وفرها لقلت: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
 وَأَخَّرَتْ﴾ [الإنفطار: ٥]. وإلى نار النقط وقد نفطت من غيضاها، وإلى ذكور السيوف
 وقد وُضِعَتْ المنايا السود وتعذرت من شدة الدماء لكثرة حيضاها:

ومن العجائب أن بيض سيوفهم تَلِد المنايا السود وهي ذكور

وإلى فارس الغبار وقد ركب صهوات الجوّ ولحق بعنان السماء، وإلى أهداب
 السهام وقد بكث لَمَّا تخَضَّبَتْ بالدماء. وإلى كل هارب سُلِبَ عقله، وكيف لا
 وخصمه له تابع، وإلى كل مُدافع وما له عند حكم القضاء دافع، وإلى قامات أقلام
 الخط وقد صار لها في طروس الأجسام مَشَق، فاستصوبت عند ذلك رأي من قال:
 عَرَّجَ رِكَابَكَ عَنْ دَمَشَق.

ونظرْتُ بعد ذلك إلى العشير وقد استحلَّ في ذي الحجة المحرَّم، وحمل كل
 قيسي يمانياً وتقدَّم، فخرج النساء وقد أنكرن منهم هذا الأمر العسير، فقلت:

وغير بدع للنِّسَاء إذا تنكَّرت العشيْر

وتصفَّحتُ بعد ذلك فاتحة باب النصر فعوذته بالإخلاص وزدتُ لله شكراً
 وحمداً، وتأمَّلتُ أهل البلد وهم يتلون لأهل البلد في سورة الفتح وللمحاصرين

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكْناً﴾ [يس: ٩]. كم طلبوا فتحه فلم يجدوا لهم طاقة وضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

ونظرتُ إلى ما تحت القلعة من أسواق التجار، فوجدتُ كلاً قد مَحَتِ النار آثاره، وأهله يتلون: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ الْيَجْرِ﴾ [الجمعة: ١١].

فمنهم من شأنه على صاحبه وبنيه، وآخر قد استغنى بشأن نفسه فهم كما قال الله: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ يُنْهَى عَنْهُ يَوْمٌ شَدِيدٌ تَغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، فوقفْتُ أنشد في تلك الأسواق وقد سَعَرْتُ. ألا موت يباع فاشتره.

ونظرتُ إلى المؤمنين الرُكَّع السُّجود وهم يتلون على من ترك في بيوتهم أخذوداً من وقود النار وقعد لحربهم في ذلك اليوم المشهود: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُورَ عَلَيْهِمْ قُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٤ - ٧].

هذا وكم مؤمن قد خرج من دياره حذر الموت، وهو يقول النجاة وطلب القرار، وكلما دعاه قومه لمساعدتهم على الحريق ناداهم وقد عدم الاضطبار، ﴿وَيَقْوِمُوا مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: ٤١].

ونظرتُ إلى ضواحي البلد وقد استَدَّتْ في وجوههم المذاهب، وما لهم من الضيق مخرج، وضائق عليهم الأرض بما رحبتُ لما أغلق في وجوههم باب الفرج، فقلتُ: اللهم اجعل لهم من كلِّ همٍّ فرجاً ومن كلِّ ضيقٍ مخرجاً، ولعدم أموالهم من كلِّ عسر يسراً، ولانتهاكٍ مخدراتهم من كلِّ فاحشة سترأ، ولقطع الماء عنهم إلى كلِّ خير سبيل، فأنت حسبنا ونعم الوكيل.

هذا وكم نظرتُ إلى سماء رُبِع غربت شمسها بعد الإشراق فأشدتُ وقد ازدادت كرباً من شدة الاحتراق:

فدينناك من رُبِع وإن زِدْتَنَا كَرْباً فإنك كنت الشرق للشمس والغرباً^(١)

وانتهيتُ إلى الطوافين، وقد أسبل عليهم الحريق شدته فكشفوا الرؤوس لعالم السرائر. وكم ذات سترٍ خرجت بفرق مكشوف ورمت العصائب وبعلمها بعينيه دائر.

هذا وكم ناهدات:

أَسْبَلْنَ من فوق النهود ذوائبا فتركن حَبَاتِ القلوب ذوائبا

ووصلتُ إلى ظاهر الفراديس، وقد قام كلُّ إلى فردوس بيته، فاطلع فرآه في

سواء الجحيم، واندھشتُ لتلك الأنفس التي ماتت من شدة الخوف، وهي تستغيث بالذي ﴿أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

ونظرتُ إلى ظاهر باب السلامة، وقد أخفتِ النار أعلامه، ولقد كان أهله من صحة أجسامهم ومن اسمه كما يقال بالصحة والسلامة.

وإلى الشلاحة؛ وقد لبستُ ثياب الحزن وذابتُ من أجلها الكبود، وقعدوا بعد تلك الربوع على أديم الأرض ونضجتُ منهم الجلود، ولقد واللّه عدمتُ لذة الحواس الخمس، وضائق عليّ الجهات الست فلم ترقأ لي دمعاً، وأكلتُ الأنامل من الأسف لما سمعت بحريق أطراف السبعة، فأعيد ما بقي من السبعة بالسبع المثاني والقرآن العظيم؛ فكم رأينا بها يعقوب حزن رأيي سواد بيته فاصفر لونه ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

وتغزيتُ إلى ظاهر الباب الشرقي فتشرقت بالدمع من شدة الالتهاب، فلقد كان أهله من دار عنبه وكرومه الكريمة في جنتين من نخيل وأعناب.

وتوصلتُ إلى ظاهر باب كيسان، فأنفقتُ كيس الصبر لما افتقرت من دنائير تلك الأزهار والدراهم رباها، وسمحتُ بعد ذلك بالعين واستخدمتُ فقلت. بسم الله مجراها.

وكابرتُ إلى أطراف الباب الصغير، فوجدتُ فاضل النار لم يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فيا لهفي على عروس دمشق التي لم تذكر مع محاسنها أسماء ولا الجيذاء، لقد كانت ست الشام فاستعبدها ملك النار حتى صارت جارية سوداء. ولقد وقفْتُ بين ربوعها وقد التهبّت أحشاؤها بالاضطرام، وفطم جنين نبتها عن رضاع ثدي الغمام، فاستسقيتُ لها بقول ابن أسعد حيث قال:

| | |
|----------------------------|--------------------------------|
| سقى دمشق وأياماً مضت فيها | مواطر السحب ساريها وغاديها |
| ولا يزال جنين النبت تُرضعه | حواملُ المزن في أحشا أراضيها |
| فما نضا حبها قلبي لئير بها | ولا قضى نَحْبَه وُدِّي لواديها |
| ولا تسليتُ عن سلسال ربوتها | ولا نسيتُ مبיתי جار جاريها |

هذا وكم خائف قبل اليوم آويناه بها إلى ربوة ذات قرار، وكم كان بها مطرب طير خرج بعد ما كان يطرب على عُود وطار. وبطل الجنك لما انقطعت أوتار أنهاره فلم يبقَ له مغنى، وكسر الدف لما خرج نهر المغنية عن المعنى، واستسمع الناس من قال:

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| انهض إلى الربوة مستمتعاً | تجد من اللذات ما يكفي |
| فالطير قد غنى على عوده | في الروض بين الجنك والدف |

وأصبحت أوقات الرِّبوة بعد ذلك العيش الخضل واليسر عسيرة، ولقد كان أهلها في ظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة، فعبس بعد ذلك ثغر روضها الباسم، وضاع من غير تورية عطره النَّاسم، ولم ينتظم لزهرة المنثور على ذلك الوشي المرقوم رسالة من النسيم سحرية، وكيف لا وقد محا سجع المطوق من طروس تلك الأوراق النباتية.

هذا وكم عروس روض سور معصمها النقش فلما انقطع نهرها صح أنها كسرت السوار، وكم دولاب نهر بطل غناؤه على تشبيب النسيم بالقصب وعطلت نوبته من تلك الأدوار، فوقفْتُ أُنَدب ذلك العيش الذي كان بذلك التشبيب موصولا، وأنشد ولم أجد بعد تلك النوبة المطربة إلى معنى الربوة دخولا.

لِمَ لَا أَشْبَبُ بِالْعَيْشِ الَّذِي انْقَرَضَتْ أَوْقَاتُهُ وَهُوَ بِاللَّذَاتِ مَوْصُولٌ
ونقص يزيد فاحترق ولا ينكر ليزيد الحريق على صنعه، وانقطع ظهر ثور فأهلك الحرث والنسل بقطعه، وذاب بَرْدَى وَحَمِيٍّ مزاجه لَمَّا شَعَرَ بالحريق، ولم يبقَ في ثغره الأشنب بُدْر حصبائه ما يبلى الريق. وانقطع وقد اعتلَّ من غيظه بانياس، ولم يظهر عند قطعه خلافاً ولا بان آس. وجرى الدَّم من شدة الطعن بالقنوات، وكسرت قناة المَرْجَة فذاقت مرَّ العيش بعد حلاوة تلك القطوف الدانيات. وكسر الخلخال لَمَّا قام الحرب على ساقه، وسقط رأس كلِّ غصن على الجبهة فهاجتِ البلابل على أوراقه.

وخرَّ نهر حمص خاضعاً وتكدر بعد ما كان يُصفي لنا قلبه، واقتقر أغنياء غصونه من حبات تلك الثمار فصاروا لا يملكون حبة. طالما كان أهله فاكهين، ولكنهم اعترفوا بذنوبهم فقالوا: ﴿وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدرثر: ٤٥].

وذُبلت عوارض تلك الجزيرة التي كانت على وجنات شطوطه مستديرة، فقلنا بعد عروس دمشق وحماتها لا حاجة لنا بحمص والجزيرة. فيا لهفي على منازل الشرف وذلك الوادي الذي نَعَق به غراب البين، ويا شوقي إلى رأس تلك المَرْجَة التي كانت تجلسنا قبل اليوم على الرأس والعين.

هذا وقد اسودَّت الشقراء فأمست كابية لَمَّا حصل على ظهرها من الجولان، وجانبها العكس فأضحت باكية على فراق الأبلق واخضرَّ ذلك الميدان.

يا مولانا، لقد بكى المملوك من الأسف بدمعة حمراء على ما جرى من أهل الشهباء في الميدان على الشقراء حتى كَذَب الناس من قال:

قُلْ لِلَّذِي قَايَسَ بَيْنَ حَلَبٍ وَجَلَّتْ بِمَقْتَضَى أَعْيَانِهَا
مَا تَلَحَّقَ الشَّهْبَاءُ فِي حَلْبَتِهَا تَعَثَّرَ الشَّقْرَاءُ فِي مِيدَانِهَا

فقال لسان الحال: واللّه ما كذب، ولكنه قد يخبو الزناد، وقد يكبو الجواد، وقد يصاب الفارس بالعين التي تغمز قناته غمزاً.

ومن ظن أن سيلاقى الحروب وألا يصاب فقد ظن عجزاً ودخلت بعد ذلك إلى البلد؛ فوجدت على أهله من دروع الصبر سكينه، فقلت: يا رب مكة والحرم انظر إلى أحوال أهل المدينة. ولكن ما دخلت بها إلى حمام إلا وجدته قد ذاق لقطع الماء عنه جِماماً، وعلم القوام والقاعدون بأرضه أنها ساءت مستقرّاً ومقاماً، وتلا على بيت ناره: ﴿قُلْنَا يَنَّاؤُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فحسن أن أنشده قول ابن الجوزي:

والحارّ عندك بارد والنّهر أمسى منقطِعٌ^(١)
والعين لا ماء فيها ما حيلة القوام
وأتيْتُ بعد ذلك إلى الجامع الأمويّ، فإذا هو لأشتات المحاسن جامع،
وأتيته طالباً لبديع حسنه فظفرتُ بالاستضاءة والاقتباس من ذلك النور الساطع.
وتمسكتُ بأذيال حُسْنِهِ لَمَّا نشقتُ تلك النفحات السحرية، وتشوّقت إلى النّظْم
والنثر لَمَّا نظرتُ إلى تلك الشذور الذهبية، وأنستُ من جانب طوره ناراً فرجع لي
ضياء حسيّ، وانددهشتُ لذلك الملك السليمانى وقد زُهيّ بالبساط والكرسيّ،
وقلت: هذا ملك سعيد من وقف في خدمته خاشعاً، وشقي من لم يدس بساطه
ويأته طائعاً، ولقد صدق من قال:

أرى الحسن مجموعاً بجامع جَلِّق وفي صدره معنى الملاحه مشروخ
فإن يتعالى بالجوامع معشرٌ فقل لهم باب الزيارة مفتوخ
معبد له قصبات السبق ولكن كُسرَتْ عند قطع الماء قناته، ورأيتُه في القبلة من
شدة الظمأ وقد قويْتُ من ضجيج المسلمين أناته، وخفض النسر جناح الذلّ ووَدَّ بأن
يكون النسر الطائر، وطُمِسَتْ مقل تلك المصابيح فانداهش لذلك الناظر.

هذا.. وكم نظرتُ إلى حجر مكرم ليس له بعد إكسير الماء جابر، واختفت
نجوم تلك الأطباق التي كانت كالقلائد في جيد الغسق، ومَرّت حلاوة نارها بعد ما
ركبتُ طبقاً عن طبق. وأصبح دُوحه وهو بعد تلك النضارة والنعيم ذابل، وكادت
قناديله وقد سُلِبَتْ لفقد الماء أن تقطع السلاسل. ولم تُشِرِ الناس بأصابعها إلى
فصوص تلك الخواتم المذهبة، ولم يبقَ على ذلك الصحن طلاوة بعد الماء وحلاوة

سَكْبِهِ الطَّيِّبَةِ. وتذكر المنبر عند قَطْعِ الماء أوقاته بالروضة، وتكدرت أفراحه لما ذكر أيامه بتلك الغيضة، وأنشد لسان حاله:

ولو أنَّ مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر^(١)

وودت العروس أن تكون مجاورة لحماها لتبلى ريقها برحيق الأمن إذا نظرت إلى عاصي المحمدية، وقد دخل جناتها ونظرت إلى فوار أبي نواس وقد انقطع قلبه بعد ما كان يثب ويتحرى، وكاد أن ينشد من شِعْرِهِ لعدم الماء: ألا فاسقني خمراً.

ودخلت إلى الكُناسة وقد علا بها غبار الحزن فتنهدت من الأسف على كل ناهدة، ورثيت للنساء وقد فقدن بعد تلك الأنعام المائدة.

واستطردت إلى باب البريد، فوجدت خيول الماء الجارية قد انقطعَتْ عن تلك المراكز، ونظرت إلى السراج الأكبر وقد انعقد لسانه لما شَعَرَ من ممدوح الماء بعدم تلك الجوائز.

ونظرت إلى أهل الصلاة وعليهم في هذه الواقعة من الصبر دروع، وقد استعدوا بسهام من الأدعية أطلقوها عن قسي الركوع.

مريشة بالهدب من جفن ساهر منصلة أطرافها بدموع
ونظرت إلى الربان من العلم وقد اشتد لفقد الماء ظماه، وتبلد ذهنه حتى صار ما يعرف من أين الطريق إلى باب المياه.

ومشيت بحكم القضاء إلى الشهود فوجدت كلاً منهم قد راجع سهاده وطلقَ وَسَنَهُ، وتأملت أهل الساعات وقد صار عليهم كل يوم بسنة. ونزلت في ذلك الوقت من الساعات إلى الدرج في دقيقة، فانتهيت إلى مجاز طريق الفوار فوجدته كأن لم يكن له حقيقة.

كم وردته وهو كأنه سنان يطعن في صدر الظما، أو شجرة كدنا نقول إنها طوبى لما ظهرت وأصلها ثابت وفرعها في السما. أو مغترف بيده الماء وقد أفاض عليه عطايه فيضا، فرفع له لأجل ذلك فوق قناته راية بيضا. أو عمود وفاء أشارت الناس إليه بالأصابع، أو ملك طالب السماء بودائع، حتى كأن إكليل الجوزاء له من جملة الودائع، أو أبيض طائر علا حتى قلنا إنه يلتقط حبات النجوم الثواقب، أو شجاع ذو همة عالية يحاول ثاراً عند بعض الكواكب، فخفض لفقد الماء مناره وخفي بعد ما كان به أشهر من علم، وجدع أنفه وطالما ظهر وفي عرنيه شمم، فقلت:

لست أنسى الفوار وهو ينادي غيض مائي وعطل الدهر حالي

فتمنيت من لهيبي بأني أشتري غيضة بروحي ومالي
فلا والله ما كانت إلا أيسر مدة حتى رجع الماء إلى مجاريه، وابتسم ثغر دمشق
عن شنب الري بعد ما نشف ريقه في فيه .

هذا وقد خمدت نار الحرب وقعدت بعد ما قامت على ساق وقدم، وبطلت
آلتها التي كان لها على تحريك الأوتار وجس العيدان نغم . واعتقل الرمح بسجن
السلم وعلى رأسه لواء الحرب معقود، وهجعت مقل السيوف في أجفانها لما علمت
أن الزيادة في الحد نقص في المحدود .

وفاضت غدران الرحمة على رياض الأمن فظهر لها من المسرة نبات حسن،
فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن .

وبعد، فالمعذرة من فهاة هذه الرسالة التي هي في رياض الأدب باقلية،
والصفح عن طولها وقصر بلاغتها بين يدَي تلك المواقف السجانية، وليكن محمولاً
على متن الحلم كلامها الموضوع، فقد علم الله أنها صدرت من قلب مكسور وفؤاد
مصدوع، وذهن ضعيف وليس لكثير ضعفه عاصم ولا نافع، وراحلة فكر أمست وهي
عند سيرها إلى غايات المعاني ظالع :

فسيروا على سيري فإني ضعيفكم وراحلتي بين الزواحل ظالع
هذا وكم تولد للمملوك في طريق الرمل من عقله، وكم ذاق من قطاع الطريق
أنكاداً حتى ظن أنه لعدم النصرة ليس له إلى الاجتماع وصلة . وكلما زعق عليه غراب
البين تألم لسهام البين وفقد مصر التي هي نعم الكنانة، وأنشد وقد تحير في الرمل
لفراق ذلك التخت الذي أعز الله سلطانه :

من زعقة الغراب بعد الملتقى فارقت مصرأ وبها أحبابي
وفي طريق الرمل صرث حائراً مروعاً من زعقة الغراب
واستقبل المملوك بعد ذلك بلاد الشام فبش الحال وبش الاستقبال، فوالرحمن
ما وصل بها إلى مكانٍ إلا وجده قد وقعت فيه الواقعة واشتد القتال . وحصدوا سنبل
الرشاد فدرست فلا أعيد لمعيد حربهم دروس، وأداروا رحى الحرب بقلوب
كالأحجار فطحنت عند ذلك الرؤوس، وأنشد لسان الحال :

من كل عادٍ كعادٍ في تجبره من فوق ذات عماد شادها إزم
لا يُجمعون على غير الحرام إذا تجمّعوا كحباب الراح وانتظموا

وانتهت الغاية بالمملوك إلى أنه شلح بقرب الكسوة في الشتاء، وانتظرت ملك الموت وقد أمسيت:

لي مهجة في النازعات وعبرة في المرسلات وفكرة في هل أتى هذا، والليل قد انطفأت مصابيح أنواره وعسعس، حتى أيقنت بموت الصبح وقلت لو كان في قيد الحياة تنفس، فذهب المملوك وقد تزود عند قسم الغنيمة بسهم فجرح ولم يجد له تعديلاً، ولكنه صبر على الألم بعد ما كاد يدمى من الوهم ولم يلق له مجيراً، لمّا قوي ألمه وضعف منه الحيل، إلا أنه دخل تحت ذيل الليل، فوصل إلى البلد وقد وّد يومه لو تبدل بالأمس، ولم يسلم له في رقعة الحرب غير الفرس والنفس، ولكنه أنشد:

ما تفعل الأعداء في جاهل ما يفعل الجاهل في نفسه
فأعاذ الله مولانا وبلاده من هذه القيامة القائمة، وبدأ به في الدنيا ببراعة الأمان وفي الآخرة بحسن الخاتمة.



أدوات المنشي

قلت: قد استوعبت هنا تراجم كتاب الإنشاء وتبذة من فوائدهم، وتبذة مما تخيرته من إنشائهم، وقد تعين أن أذكر بعد ذلك ما يحتاج إليه المنشي الكامل الأدوات من المحاسن الثلاثة به وبالله المستعان.

قال أبو حيان التوحيدى: يجب على المنشي أن يكون حافظاً لكتاب الله لينتزع من آياته الشريفة، وأن يعرف كثيراً من السنة والأخبار والتواريخ والسير، ويحفظ كثيراً من الرسائل والكتب، ويكون متناسب الألفاظ متشاكل المعاني، عارفاً بما يحتاج إليه، ماهراً في نظم بديع الشعر. نظيف الثوب، لطيف المركب، ظريف الغلام، ليق الدواة حاذى السكين، متودداً للناس، مخالطهم، غير متكبر عليهم، ديمت الأخلاق، رقيق الحواشي، ترف الأطراف، عذب السجایا، حسن المحاضرة، مليح التادرة، غير قنف ولا متعجرف ولا متكلف الألفاظ الغريبة، ولا متعسف اللغة العويصة.



آداب الكتابة

روى الشعبي أنه قال: كتب رسول الله ﷺ أربعة كتب، أولها: باسمك اللهم، فنزلت سورة هود وفيها: ﴿يَسْمِ اللَّهَ بِجَبْرِيَّتِهَا وَمُرْسَلِهَا﴾ [هود: ٤١] فكتب: بسم الله، ثم نزلت سورة بني إسرائيل وفيها: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]

فكتب باسم الله الرحمن، ثم نزلت سورة النمل وفيها: ﴿إِنَّمِنْ سُلَيْمَنْ وَإِنَّمِنْ يَسِرَ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [النمل: ٣٠] فكتبها.

وروى أَنَّ فَضْلَ الخطاب الذي أُعْطِيَ داود عليه السلام أَمَّا بَعْدُ.

وروى أَنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَهَا كَعْبُ بْنُ لُؤَيٍّ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَمَّى يَوْمَ الْجُمُعَةِ. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا كُتِبَ أَحَدُكُمْ كِتَابًا فَلْيَتَرَبَّهْ فَإِنَّ التُّرَابَ مُبَارَكٌ وَهُوَ أَنْجَحٌ».

وَرُوي عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ كُتِبَ كِتَابَيْنِ إِلَى قَرِيَتَيْنِ، فَأَتَرَبَّ أَحَدُهُمَا وَلَمْ يَتَرَبَّ الْآخَرُ، فَاسْلَمَتِ الْقَرْيَةُ الَّتِي أَتَرَبَّ كِتَابُهَا.

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ وَهَبٍ: كَاتِبُ رَئِيسِكَ بِمَا يَسْتَحِقُّ، وَمَنْ دُونَكَ بِمَا يَسْتَوْجِبُ، وَكَاتِبُ صَدِيقِكَ بِمَا تُكَاتِبُ بِهِ حَبِيبُكَ، فَإِنَّ غَزَلَ الْمَوَدَّةَ أَرْقُ مِنْ غَزَلَ الصَّبَابَةِ.

وَرَأَيْتُ فِي تَذَكُّرَةِ الْوِدَاعِيِّ أَنَّ الْقَاضِي تَاجَ الدِّينِ ابْنَ بَنْتِ الْأَعَزِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، كَانَ إِذَا كُتِبَ كِتَابًا بَدَأَ فِي تَرْسَلِهِ بِالْبَسْمَلَةِ لِتَعْمَ بَرَكَتِهَا سَائِرَ الْكِتَابِ، وَرَمَلَهُ وَيَخْزَنَ ذَلِكَ الرَّمْلَ، وَيَحْتَرِزُ عَلَيْهِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَنزَلْتُ إِلَيْكَ كِتَابًا كَرِيمًا﴾ [النمل: ٢٩]، قَالَ: مَخْتُومٌ. وَفَضَّ الْكِتَابَ إِذَا كَسَرَ خَتْمَهُ.

وَالْعُنْوَانُ: فِيهِ خَمْسُ لُغَاتٍ أَفْصَحُهَا عُنْوَانُ، وَجَمَعَهُ عَنَاوِينَ، وَعُلُوانٌ وَعَلَاوِينَ، وَالْعُنْوَانُ: الْأَثَرُ، وَهُوَ أَثَرُ الْكِتَابِ مِمَّنْ وَآلِي مَنْ هُوَ، كَمَا قِيلَ:

* ضَحَّوْا بِأَسْمَاطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ ^(١) *



في وصف القلم

وَالْقَلَمُ: لَا يَقَالُ لَهُ قَلَمٌ إِلَّا إِذَا بُرِّيَ، وَإِلَّا فَهُوَ أَثْبُوبَةٌ. وَمَنْ بَدِيعَ مَا سَمِعْتَهُ فِي وَصْفِ الْقَلَمِ مِنَ التَّنْظِيمِ قَوْلُ الْفَاضِلِ شَمْسِ الدِّينِ بْنِ الصَّاحِبِ مُوَفَّقِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ الْأَمَدِيِّ مَقُولٌ مِنْ خَطِّ الْوِدَاعِيِّ:

| | |
|--|---|
| تَمْشِي الْيَرَاعَةُ وَالْمِدَادُ وَرَاءَهَا | ظِلٌّ عَلَى شَمْسِ الطُّرُوسِ يَنْوُغُ |
| لَوْلَمْ تَكُنْ أَلْفَاظُهُ خَطِيئَةً | مَا رَاحَ سَرْبُ الْأَفْظِ وَهُوَ مَنِيعُ |
| أَلْفَاظُهُ رَقَّتْ بِوَجْنَةِ طَرْسِهِ | فَكَأَنَّهِنَّ وَقَدْ جَرَيْنَ دُمُوعُ |

(١) البيت لحسان بن ثابت، وعجزه:

يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقِرَاءًا

في المهد من يُمنَاهُ وهو رَضِيعُ
فَغْدَا يروق بفعله وَيَرُوعُ
حَاكته في حَلَكِ المِدَادِ شُمُوعُ
والصَّلَّ يَهْوَى الرُّوضُ وهو مَرِيعُ
هذا يَضِيءُ به وَذَاكَ يَضُوعُ

قَلَمٌ مَسِيحِيّ الخُطَابِ لِنُطْقِهِ
وَعْدَا كَلِيمِيًّا وَقَدْ ضَاهَى الْعَصَا
بِالنَّقْطِ حَاكته الشُّمُوعُ وبِالضِّيَا
قَدْ لَازَمَ القِرْطَاسَ وهو مُنَوَّرُ
نُورٍ وَنُورٌ خَطُّهُ وَكَلَامُهُ
وَقَالَ فِيهِ وَأَجَادَ إِلَى الْغَايَةِ:

تَبَسَّمَ ثَغْرَ الخَطِّ مِنْ دَمْعِهِ عُجْبًا
بَثْغَرِ الدَّوَى المَعْسُولِ أَبْدَى اللَّمَى الْعَذْبَا

لَيْمَنَاهُ ذُو طَرْفٍ كَحِيلٍ إِذَا بَكَى
وَقَدْ رَاحَ مَشْقُوقُ اللِّسَانِ مَتَى جَرَى
وَقُلْتُ مِنْ قَصِيدَةِ رَائِيَةِ:

إِنْ خَطَّ خَطًّا أَطَاعَتْهُ المَقَادِيرُ
جَرَى يُرَى مِنْهُ تَحْرِيرُ وَتَحْبِيرُ
وَجَالَسَ النَّوْرَ مِنْ أَوْرَاقِهِ النَّوْرُ
لَهُ إِلَى الرِّزْقِ فَوْقَ الطَّرْسِ تَيْسِيرُ
وَهَذَبُ أَجْفَانِهَا تِلْكَ التَّشَاعِيرُ
مُرِيَّشًا وَلَهُ فِي الضَّدِّ تَأْثِيرُ
دَانَتْ أَيَْادِيهِ فَهِيَ الْأَغْنَيْنِ الْخُورُ

لَهُ يَرَاغٌ سَعِيدٌ فِي تَقْلُبِهِ
مُحِبَّرٌ وَبِتَحْرِيرِ الْعُلُومِ إِذَا
غُضِنَ عَلَيْهِ طُيُورُ الْعِلْمِ عَاكِفَةٌ
وَأَشْقَرِ يَدَهُ الْبَيْضَاءُ غَرَّتْهُ
بَلْ أَسْمَرُ عَيْنُهُ السَّوْدَاءُ تَلَحَّظْنَا
أَوْ سَهْمٌ عِلْمٌ بِأَطْرَافِ السُّطُورِ غَدَا
كَذَا مُحَابِرُهُ سَوْدُ الْعَيُونِ فَإِنْ



في وصف الدواة

وَيَعْجِبُنِي قَوْلُ الشَّيْخِ شَمْسِ الدِّينِ بْنِ الْمَزْنِيِّ فِي الدَّوَاةِ:

بُكَاءُ يَرَاعِي جَلَّ مَنْ قَدْ بَرَاهُ
دَاءٌ مِنَ الْفَقْرِ فَإِنِّي دَوَاهُ

أَنَا دَوَاةٌ يَضْحَكُ الْجُودُ مِنْ
دَلَّوْا عَلَيَّ مِثْلِي مِنْ شَقَّةِ
وَقُلْتُ فِيمَا يَكْتُبُ عَلَى دَوَاةٍ فُلُودًا:

سَهْمٌ يَرَاغُ نَضْلُهُ نَقَادُ
لَأَنَّهَا عَلَى الْجَمَى فُلُودُ

كِنَانَةُ الْفَضْلِ دَوَاتِي وَلَهَا
وَأَسْمَرُ الْخَطِّ لَدِيهَا قَاصِرُ



في وصف السَّكِينِ

قُلْتُ: وَيَتَعَيَّنُ بَعْدَ وَصْفِ أَقْلَامِ الْمُنْشِئِينَ وَالدَّوَاةِ وَصْفُ السَّكِينِ، فَإِنَّهُمْ أَنْشَأُوا
فِي وَصْفِ السِّيفِ وَالْقَلَمِ، وَمَا أَلَمَّوْا بِهَا، وَهِيَ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهَا، لِقُرْبِهَا مِنْ

القلم. وقد تقدّم أن أبا طاهر كمال الدين إسماعيل بن عبد الرازق الأصفهاني انفرد برسالة القوس، والشيخ جمال الدين بن ثباته انفرد برسالة السيف والقلم، وقد انفردتُ برسالة السكين، وهي:

يقبّل الأرض التي قامت حدود مكارمها، وقطعت عنا مكروه الفقر بمسنون عزائمها، ويُنهي وُصول السكين التي قطع بها أوصال الجفا، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفاء، وتالله ما غابت إلا بلغت الأقاليم من تعرّثها إلى الحفا.

ومن العجائب أن لها لساناً لكلّ عنوان ما شاهدها موسى إلا سجّد في مخراب النّصاب، ودلّ بعد ما خضعت له الرؤوس والرقاب. كم أيقّظت طرف القلم بعد ما خطّ، وعلى الحقيقة ما رُئيّ مثلها قط. وكم وجدّ بها الصاحب في المضايق نفعاً، وحكم بصدق محبتها قطعاً. ماضية العزم، قاطعة السنّ، فيها جدّة الشباب من وجهين، لأنها بالنّاب والنّصاب معلّمة من الطرفين، أئمة صبح تقمّصت بسواد الدّجى ولسان يرقّ امتدّت في لهوات اللّيل، فتكرّرت أشيعة الأنجم حتى ما عُرف منها سهيل. هذا وتقطيعها موزون إذ لم يتجاوز في عروض ضربيها الحدّ، ومعلوم أنّ السيف والرّمح لم يعرفا غير الجزر والمدّ.

من أجّلنا تدخّل في مضايق ليس لسيف قطّ فيها مدخل إن هجعت بجفنها كانت أمضى من الطّيف، وكم لها من خاصّة جازت بها الحدّ على السيف، تُنسى حلاوة العسال فلا يظهر لظوله طائل، وتُغني عن آلة الحرب بإيقاع ضربها الداخل. إن مرّت بشكلها المحلّي تركت المعادن عاطلة، ولم يُسمع للحديد في هذه الواقعة مُجادلة.

شهد الرمح بعدالته أنها أقرب للصّواب، وحكم بصحة ذلك قبل أن يتكامل لها النّصاب.

ما طال في رأس القلم شعرة إلا سرّختها بإحسان، ولا طالعت كتاباً إلا أزالته غلظه بالكشط من رأس اللسان، تُعقد عليها الخناصر لأنها عدة وغدّه، وتالله ما وقعت في قبضة إلا أطالت لسانها وكلمت بحده. إن أدخلت إلى القرب كانت قد سكبت على الدخول، أو أبرزت من غيمه كان على طلعتها الهلالية قبول، تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس، وإقامتها الحدّ حافظت الأقاليم على مواظبة الخمس.

وكم لها من عجائب تركت جدول السيف وهو في بحر غمده غريق، ولو سمع بها من قبل ضربه ما حمل التطريق، فلو عاصرها الكمال لعرك من قوسه الأذنين، وقال له جحدت رسالتك يا ذا القرنين، فإن جذبت إلى مقاومتها كانت لك يد تمتدّ، وصلت السكين منك العظم وصار عليك قطع وانتهى أمرك إلى ذي الحدّ. وهل تعاند

السكين صورة ليس لها من تركيب النظم، إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظَمٍ. ولو لمحها الفاضل تحقق قوله: إن خاطر سكينه كل، أو أدركها ابن نباتة ما أَقَرَّ برسالة السِّيف وفلَّ. وقال لقلم رسالته: أطلق لسانك بشكر مواليك. وأخلص الطاعة لباريك. ولم يقصد المملوك الإيجاز في رسالة السِّكين ونظمها إلا لتكون مختصرة لحجمها، لا زالت صدقات مُهديها تتحف بما يذبح نحرَ فقري، وتأتي في كل وقت بما يُبرئ من داء الاحتياج ويبري.



في وصف السيف

قلت: وعلى ما وقع من الغريب في رسالة السكين يتعين أن تُوردَ ما وَقَعَ من غريب النظم في السِّيف، فإن الشيخ جمال الدين بن نباتة ذكر من نثره في رسالة السِّيف بدائع، ولكنها مشهورة لتنقيب الناس عنها والاقتباس منها.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمر بن معدي كرب: كيف تقول في الرُّمَح؟ قال: أخوك وربما خائنك فانقص، قال: فما تقول في الثُّرس؟ قال: هو المَجَنّ وعليه تدورُ الدَّوائر، قال: فالتُّبل، قال: منه ما يُخْطِئُ وما يُصِيب، قال: فما تقول في الدَّرْع؟ قال: مثقلة للراجل، مشغلة للفراس، وإنها حِصْن حصين. قال: فما تقول في السِّيف؟ قال: هنالك لا أَمُّ لك يا أمير المؤمنين، فَعَلَاهُ عُمَرُ بِالذَّرَّةِ، وقال: لِمَ تَقُولُ لا أَمُّ لك؟ قال: الحُمَى أَضْرَعَتْنِي يا أمير المؤمنين.

الشريف البياضي:

وإِنَّا إِذَا الْأَرْوَاحَ ذَابَتْ مَخَافَةً
مَتَى مَا أَرَدْنَا أَنْ يَذَاقَ حَدِيدُنَا
وقال أبو العلاء المعري:

غَرَارَاهُ لِسَانًا مَشْرِفِي
وَدَبَّتْ فَوْقَهُ حُمُرُ الْمَنَايَا
يُذِيبُ الرُّغْبَ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ
وقال التامي:

ذُو مَذْمَعٍ مِنْ غَيْرِ مَا مُسْتَعْبِرٍ
يُورِيكَ مَنْ لَأَلَّاهُ مُتَوَقِّدًا
وتبسّم من تُغْرِه مُتَوَالِي
حَنَقَ الْمَنُونِ بِهِ عَلَى الْأَجَالِ

وقال الغنوي:

كان على إفرئديه موجٌ لجةٍ
حُسامٌ غذاه الرُّوح حتى كأنه

وقال وحيد الدين بن الذروي:

فَتَفَّتْ بِأَجْسَادِ الْأَسودِ لَوَاحِظاً
وَأَنْطَقَتْ أَفْوَاهاً عَلَى قِمَمِ الْعِدا
بِحَيْثِ الْوَعْيِ رَوْضَ تَغْنَى ذُبَابِهِ
وَقَدْ رَشِفَتْ وَرْدَ الْكَلُومِ صِغَارِهِ
وله:

سكران من شربه خمر الدماء فإن
لسان الدين بن الخطيب:

وخليلٌ هَنِدٌ رَاقٍ حُسْنُ صَفَائِهِ
غَرِقَتْ بِصَفْحَتِهِ النُّمَالُ فَأَوْشَكَتْ
فَالصَّرْحُ مِنْهُ مُمَرَّدٌ وَالصَّفْحُ مِنْهُ
القاضي الفاضل:

تمدُّ إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْهَا مَعَاصِمًا
وله من أخرى:

وَلَرُبَّ هَاتِفَةٍ دَعَتْهُمْ لِلْوَعْيِ
هِيَ فِي بَحَارِ يَدَيْهِ أَمْوَاجٌ تُرَى
وقال ابن قلاقس وأجاد:

أَسْهَرَتْهُمْ وَشَهَرَتْهَا فَجُمُوعُهُمْ
وَكِلَاهُمَا جَفْنٌ مَنَعَتْ قَرَارَهُ
وقال ابن سناء الملك:

لَهُ مُنْصَلٌّ لَا يَنْقُضِي فَرْضَ حَجِّهِ
تَنَسَّكَ بِالْإِسْلَامِ لَكِنْ رَأَيْتَهُ
فَكَمْ سَلَّ لَمَّا سَلَّ مِنْ بَطْنِ غَمْدِهِ

تَقَاطَرُ فِي حَافَاتِهِ وَتَجُولُ
مِنَ اللَّهِ فِي قَبْضِ الثُّفُوسِ رَسُولُ

رَنَتْ لِلْمَنَايَا عَنْ عُيُونِ الثُّعَالِبِ
بِأَلْسِنَةِ الْبَيْضِ الرِّقَاقِ الْمَضَارِبِ
وَسَالَ عَلَى نُورِ الطُّلَا كَالْمَذَانِبِ
وَمَا شَرِبْتُ إِلَّا دِمَاءَ التَّرَائِبِ

حَيَّاهُ نَوْرُ الطُّلَا غَنَى لَهَا هَزَجًا

حَتَّى يَكَادُ يَقُومُ فِيهِ الضَّيْقُ
تَبْغِي النَّجَاةَ فَأَوْثَقَتْهَا الْأَرْجُلُ
هُ مُورَّدٌ وَالشَّطُّ مِنْهُ مُهْدَلٌ

فَتَرَجَعَ مِنْ مَاءِ الْكُلَى بِأَسَاوِرِ

جَعَلُوا صَلِيلَ الْمَرْهَفَاتِ صَدَاهَا
وَنُفُوسُ مَنْ قَتَلَتْهُ مِنْ عَرْقَاهَا

مُنْذُ أَحْرَمْتَ فِي رَاحَتِيكَ حَرَامُ
لَكِنْ ذَا عَضْبٍ وَذَاكَ مَنَامُ

فَبِالضَّرْبِ لَبَّى وَهُوَ بِالسَّلِّ أَحْرَمًا^(١)
يَجِلُّ لَهُ فِي الشَّرْعِ أَنْ يَشْرَبَ الدِّمَاءَ
لِسَانَ دَمٍ مِنْ ضَرْبَةِ خَنْقَتِ فَمَا

مجير الدين بن تميم:

لَمَّا قَنِيتُ مِنَ الصَّوَارِمِ أَغْوَجَا
جُبْتُ الْقِفَارَ وَمَا حَمَلْتُ أَوَانِيَا
وقال الغزي:

وَقَدْ سَلَبَ الطَّعْنُ الْأَسِنَّةَ لَوْنَهَا
وَأَسْيَأَفْنَا فِي السَّابِغَاتِ كَأَنَّهَا
ابن خفاجه:

مُوسِدٌ تَحْتَ ظِلِّ السَّيْفِ تَحْسِبُهُ
جَمَالَ الدِّينِ بِنَبَاتِهِ
مُوسِدٌ تَحْتَ ظِلِّ السَّيْفِ تَحْسِبُهُ
جمال الدين بن نباتة:

وَصَارِمٌ كَعُبابِ الْمَوْجِ مُلْتَطِمٌ
لَمَّا غَدَا جَدُولًا يَسْقِي الْمُنُونُ بِهِ
برهان الدين القيراطي:

قَوْمٌ مَنَادِيلُهُمْ بَيضٌ فَكَمْ مَسَحَتْ
وَقَلْتُ:

وَسَيْفٌ لَهُ فِي الْحَرْبِ حُسْنٌ تَعَزَّلِ
فَكَمْ خَدَّ خَدًا فَوْقَ صَدْرٍ مُدَرَّعٍ
وَكَمْ مَالٌ قَدْ فِي الْوَعَى مِيلٌ مُعْجَبٍ
وَكَمْ أَعْجَمُوا أَلْفَاظَهُمْ سَاعَةَ اللَّقَا



في وصف الرماح

قلتُ: وقد وجب أن نذكر ما وقع بعد السيف من غريب النظم في الرمح.
ذكر القاضي الرشدي ابن الزبير في كتابه العجائب والطرف، أنه كان في خزانة
السلاح أيام السفاح خمسون ألف سيف، وثلاثون ألف جوشن^(٣)، ومائتا ألف رمح.
وقال الفضل بن الربيع: لما ولي الأمين الخلافة سنة ثلاث وتسعين ومائة،
أمرني أن أحصر ما في خزانة السلاح، فكان فيها من السيوف المحلاة بالذهب عشرة
آلاف، وخمسون ألف سيف للشاكرية^(٤) والغلمان، ومائة وخمسون ألف رمح، ومائة

(٣) الجوشن: الدرع.

(٤) الشاكرية: الأجراء.

(١) ديوانه: ٢٠٩.

(٢) ديوانه: ٣٥٢.

ألف قَوْس، وألفُ دِرْع مُحَلَّاة، وألفُ درع عامة، وعشرون ألف بيضة، وعشرون ألف جَوْشَن، ومائة وخمسون ألف تُرْس، وأربعة آلاف سَرْج مُحَلَّاة بالذهب. وثلاثون ألف سرج عامة.

قلتُ: ويعجبني قول القاضي الفاضل في بيت من قصيدة:

أُمنصلُ الرِّمَح الطويل بكوكبٍ مَنْ ذا يطاعن والسماك سِنَان
ومثله في الحسن قول ابن سناء المُلْك^(١).

مُلوك يحوزون الغنائم عنوة بُسُمر العوالي أو ببيض القَواضِبِ
رِمَاحُ بأيديهم طَوال كأنما أرادوا بها تثقيب دُرِّ الكواكبِ
ابن قلاقس وأجاد:

وقَدْ كَحَلتْ بأُميَّال الغواني أَساءَةُ الحرب أحداقَ الدروعِ
وَشَبَّ البأس نيران المواضي وأسبلَ غَيْثُ أمواه النجيعِ
فللفرسانِ من مَحَل وَوَحَل حديث عن مَصيف أو ربيعِ
ويعجبني أيضاً قول القاضي الفاضل من قصيدة:

فيا عَجَباً للملِك قَرَّ قرارُهُ بمختلفات من قتال الشواجرِ
طواعن أسرار القلوب نواظِرُ كأنك قد نَصَلتَها بنواظِرِ
ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب وأجاد.

وبكُلِّ أَرْزَقٍ إن شَكَتَ الحاظُهُ مَرَّةَ العيون فبالعجاجة تُكْحَلُ
مُتَأَوِّد أعطافه في نَشْوَةِ مما يَعلُّ من الدِّماء وينهلُ
عَجَباً لَهُ إن النجيع بطرفه رَمَدٌ ولا يخفى عليه مقتلُ

السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين الآمدي:

غُصُونُ بها طير النفوس تناقَرَت وعَهْدِي أن الطير للغصن يَأْلَفُ
فلا ورق إلا ما من الثَّبر حولها ولا زهر إلا ما من النصر يُقْطَفُ
ابن نباتة السعدي:

وَوَلَّوْا عليها يقدمون رماحنا وتقدمها أعناقهم والمناكبُ
خلقنا بأطراف القَنَا لظهورهم عُيُوناً لها وَقَع السيوف حواجبُ

قلتُ: رسم كافل المملكة الشريفة الشامية وهو المقر المرحومي العلائي

– تغمّده الله برحمته ورضوانه – للفضلاء بدمشق المحروسة وغيرهم من الفضلاء بالبلاد الشامية أن ينظموا أبياتاً تكتب على أسنة الرماح، وتكون عدة الأبيات أربعة.

فنظم المقر المرحومي الفتح بن الشهيد نور الله ضريحه:

إذا الغبار علا في الجو عثيره
هَذَا سِنَانِي نَجْمٌ يَسْتَضَاءُ بِهِ
والسيف إن نام مِلءَ الجفن في عَلَيَّ
إن الرِّمَاحَ لَأَغْصَانٌ وَلَيْسَ لَهَا
ونظم الرئيس شمس الدين بن المزين:

أنا أَسْمَرٌ وَالرَّايَةَ الْبَيْضَاءُ لِي
لَمْ يَحُلْ بِي عَيْشُ الْعُدَاةِ لِأَنِّي
وَإِذَا تَفَاهَمَتِ الْكُفَاةُ بِجَحْفَلٍ
فَتَخَالَهُمْ غَنَمًا تَسَاقُ إِلَى الرَّدَى
ونظم المقر المرحومي وهو إذ ذاك كاتب السرّ بحمص المحروسة:

عروس سِنَانِي حِينَ تُجْلَى عَلَى الْعِدَا
وَقَدْ صَيَغَ مِنْهُمْ فَبَيْنَ صُدُورِهِمْ
سِيلِقُونَ يَوْمَ الْجَمْعِ غَبْنًا لِمَوْتِهِمْ
وَإِنْ شَهِدُوا بِالْجَوْرِ فِي وَعْدَلُوا
ونظم قاضي القضاة صدر الدين بن الأمدّي سامحه الله:

النَّضْرُ مَقْرُونٌ بِضَرْبِ أَسْنَةٍ
سُبَكَّتْ لَتَسْبِكَ كُلَّ خَصْمٍ مَارِدٍ
زُرُقٌ تَفُوقُ الْبَيْضَ فِي الْهَيْجَاءِ إِذْ
يَنْسَخُنَ يَوْمَ الْحَرْبِ كُلَّ كَتِيبَةٍ
وَقُلْتُ:

أنا زُمُحٌ وَرَامِحُ الْأَفْقِ يَخْشَى
وَإِذَا أَنْكَرُوا عَدَالَةَ قَسْدِي
وَسِنَانِي كَالْبَرْقِ بَلْ صَارَ مِنْهُ
زُمُحُهُ لِلرُّدَيْنِ يُنْسَبُ لَكِنْ
من سموي إليه يومَ الطَّعَانِ
يَوْمَ حَكَمَ جَرَحَتَهُمْ بِلِسَانِي
قَلْبَ سَيْفِ الْبُرُوقِ فِي خَفَقَانٍ
صَاحَ لَمَّا عَلَاهُ: يَا لِسِنَانِ!

مجير الدين بن تميم:

لو كُنْتُ تشهديني وقد حَمِيَ الوَغَى في مَوْقِفٍ ما الموتُ فيه بمعزِل
لترى أنابيب القناة على يدي تجري دَمًا من تحت ظِلِّ القَسْطَل
ابن شرف القيرواني.

وقد وَخِطت أرماحُهم مَفْرِقَ الدجى فبان بأطرافِ الأستة شائبًا

ذكر الثعالبي: في لطائف المعارف أن أولَ من عملِ السُّنان من حديد دُوَ يَزَن
الحميري وإليه تُنسب الرِّماح اليزنية، وإنما كانت أَسِنَّة العرب من صياصي البقر.



في وصف القوس

قلتُ: لم يبقَ بعد السَّيف والرَّمح غير القوس، ولو أَنَّ رسالة القوس مُشتملة
بكمالها على إصابة الغرض لأثبتها هنا، ولكن جمع في نظم عقدها بين الجوهر
والعرض، وبراعة استهلالها غاية لا تُدرَك، وهي:

﴿وَسْتَلُونَا عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأْتَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
سَبِيلاً﴾ [الكهف: ٨٣، ٨٤].

ومن غاياتها بعد ذلك قوله: منها صورة مُرَكَّبَةٌ لَيْسَ لها من تَرْكِيبِ النُّظْم، إلا ما
حَمَلَتْ ظُهورُها أو الحوايا أو ما اخْتَلَطَ بعَظْم.

وممَّن أصاب الغرض بِالغازه في القوس الشَّهاب الإعزازي بقوله:

ما عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ بَلَغَتْ عُمْرَ رَأً طَوِيلًا وَتَثَقَّيْهَا الرُّجَالُ
قد علا جَسَمُها صَفَارٌ وَلَمْ تَشْ كُ سَقَامًا وَلَا عَراها هُزَالُ
ولها في البنين سَهْمٌ وَقَسَم وَبَنُوها كَبَارٌ قَدَرِ زَبَالُ
صَفِيّ الدين الحلبِيّ ملغزاً فيه:

وما اسْمُ تَراهُ في البُروج وإنما يَحُلُّ به المَرِيخُ دُونَ الكَوَاكِبِ
إذا قَدَّرَ الباري عليه مُصِيبَةً عَدَّتُهُ وَحَلَّتْ في صُدُورِ الكَتَائِبِ
الشيخ بدر الدين بن الصاحب:

لِلَّهِ مَمْلُوكٌ إِذَا ما قَامَ في الشُّؤْلِ اغْتَرَضَ
لِكَيْئُهُ في سَاعَةٍ مُحْصَلٌ لَكَ العَرَضُ

ومن الغايات التي لا تدرك لغز قاضي القضاة صدر الدين بن الآمدي رحمه الله
تعالى في الكشتوان:

ما رَفِيقٌ وصاحبٌ لك تَلَقَّا هُ مَعِينًا على بُلُوغِ المَرَامِ

هو العَيْن واضح وجَلِيّ وتَراه في غَاية الإِبهام
قلتُ: ومن نظمي في القوس:

قُوسي إذا جَذَبْتُه يطربني ونجم ذاك السهم إن فَوَّقته
بجسّ عُوده وتحريك الوتر يرى له في طارة البدر أُنز
الشيخ جمال الدين بن نباتة:

فَدَيْتُكَ أَيُّهَا الرامي بقوس ولحظ يا ضنى قلبي عليه
لِقُوسك نحو حاجبك انجذاب وشبه الشيء منجذب إليه

قلتُ: لم يبقَ بعد وصف آلة الحرب، وصف غير الخيول المسومة التي لا بدّ
لفحول كُتّاب الإنشاء من الجولان في ميدان وصفها، ومجرى السَّوابق الذي جمعته
في هذا الباب قد تقدّم في الجزء الأوّل.

ولكن إذ كنتُ منشئ دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة
يتعيّن عليّ أن أوردَ هنا لكتّاب الإنشاء من فقه هذا الفنّ ما يحتاجون إلى معرفته.



السجع

قلتُ: السَّجْعُ مأخوذ من سَجَعَ الحمام، واختلَفَ فيه، هل يُقالُ في فَوَاصل
القرآن أسجاع أم لا؟ فمنهم من منعه، ومنهم من أجازَه. والذي منع تَمَسَّك بقوله
تعالى: ﴿كَتَبْتُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ [فصلت: ٣]، فقال: قد سَمَاهُ فَوَاصل، فليس لنا أنْ
نَتَجَاوَزَ ذَلِكَ.

والسجع ينقسم أربعة أقسام: المرصع، والمطرّف، والمتوازي، والمشطّر.
فالمرصع:

عبارة عن مقابلة كلِّ لفظة من صدر البيت أو فقرة النثر بلفظة على وزنها
ورويّها، وهو مأخوذ من مُقابلة العقد في ترصيعه، ومن أمثلته الشريفة في الكتاب
العزیز: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

ومنه قول الحريري في المقامات: يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع
بزواجر وعظه.

والمطرّف:

هو أن يأتي المتكلم في آخر كلامه أو في بعضه بأسجاع غير متزنة بزنة
عروضية، ولا محصورة في عدد معيّن، بشرط أن يكون رَوِيّ الأسجاع رَوِيّ

القافية، كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

وكقولهم: جنباه محط الرُحال، ومخيّم الآمال.

ومن أمثلته الشعرية قول أبي تمام:

تَجَلَّى بِهِ رُشْدِي، وَأَثَرَتْ بِهِ يَدِي وَقَاضَ بِهِ ثَمْدِي وَأُورَى بِهِ رَنْدِي

الثالث المتوازي:

وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظيرتها في الوزن والروي، كقوله

تعالى: ﴿فِيهَا سُرٌّ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣، ١٤].

ومنه قول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا».

ومنه قول الحريري في المقامات: وَأَوْدَى بِي النَاطِقُ وَالصَامِتُ، وَرَثَى لِي

الحاسِدُ وَالشَّامِتُ.

القسم الرابع السجع المشطر:

وهو أن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مُغايرتان لقافيتي النصف الآخر،

ولكن هذا القسم مختصّ بالنظم، كقول أبي تمام يمدح أمير المؤمنين المعتصم

رحمهما الله تعالى:

تَذْبِيرُ مُعْتَصِمٍ، بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ، فِي اللَّهِ مُرْتَغِبٍ^(١)



فصل في الكلام على الفقرات

قلت: وقال علماء هذا الفن: إِنَّ قِصَرَ الْفِقَرَاتِ فِي الْإِنْشَاءِ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ

المنشئ، وأقل ما يكون من كلمتين كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبِّكَ فَكَثِيرٌ وَبِالْبَاطِلِ

فَطْفَرٌ﴾ [المدثر: ١ - ٤].

وأمثال ذلك كثير في الكتاب العزيز، لكن الزائد على ذلك هو الأكثر.

وكان بديع الزمان يكثر منه كقوله: كَمِيتَ نَهْدٌ، كَأَنَّ رَاكِبَهُ فِي مَهْدٍ، يَلْطُمُ

الْأَرْضَ بَزْبَرٍ، وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِخَبَرٍ. لكن قالوا: التِّدَاذُ السَّامِعُ بِمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ

أَكْثَرَ لَتَشْوُوقِهِ إِلَى مَا يَرِدُ مِنْهُ مُتَزَايِدًا عَلَى سَمْعِهِ.

وأما الفقر المختلفة، فالأحسن أن تكون الثانية أزيد من الأولى بقدر غير كثيف،

لثلاثي يبعد على السامع وجود القافية فتذهب اللذة، فإن زادت القرائن على اثنتين فلا

يضرّ لتساوي القرينتين الأوليين، وزيادة الثالثة عليهما. وإن زادت الثانية على الأولى

يسيراً، والثالثة على الثانية فلا بأس، لكن لا يكون أكثر من المثل، مثاله في القريتين قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَاذُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٠]. فالثانية أطول من الأولى.

ومثاله في الثالثة، قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَعَوْهُمَا تَعْيطًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أَلْقَاوْا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَوْا هُنَا لِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١١ - ١٣].



عود إلى السجع

ومن فوائد الإنشاء أن تكون كل فاصلة مخالفة لنظيرتها في المعنى؛ لأن اللفظ إذا كان من القرينة بمعنى نظيره من الأخرى لم يحسن، كقول الصاحب بن عباد في وصف منهزمين: طاروا واقين بظهورهم صدورهم، وبأصلايهم نُحورهم. فالظهور بمعنى الأصلاب، والصدور بمعنى النحور.

ومنه قول الصابي: يسافر رأيه وهو دانٍ لا يَبْرَحَ، ويسير وهو باقٍ لا يَنْزَحَ، فلا يَبْرَحَ ولا يَنْزَحَ بمعنى واحد، ويسافر ويسير كذلك.

ومن فوائد الإنشاء التي يتسع فيها المجال على المنشئ: أن السجع مبني على الوقف، وكلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفاً عليها، لأن الغرض أن يجانس المنشئ بين القرائن ويُزَوجَ، ولا يتم له ذلك إلا بالوقف، إذ لو ظهر الإعراب لفات ذلك الغرض، وضاق المجال على قاصده، فإن قافية السجعة إذا كانت في محل نَصْبٍ وأختها في محل رفع ساوى بينهما السكون، وصار الإعراب مستتراً، فلو أثبتوا الإعراب في قول من قال: ما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو آت، لَلَزِمَ أن تكون التاء الأولى مفتوحة، والثانية مكسورة مُنَوَّنة، فيفوت غرض المنشئ.

ومن ذلك أن السجع مبني على التَّغْيِيرِ، فيجوز أن يُغَيَّرَ لفظ القافية الفاصلة لِتُوافِقَ أختها، فيجوز فيها حالة الازدواج ما لا يجوز فيها حالة الانفراد.

فمن ذلك الإمالة، فقد تكون في الفواصل ما هو من ذوات الياء، وما هو من ذوات الواو، فثُمَالُ التي هي من ذوات الواو، وتُكْتَبُ بالياء حَمَلًا على ما هو من ذوات الياء لأجل الموافقة كقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى: ١] فالضحي أُمِيلَتْ وَكُتِبَتْ بالياء حَمَلًا على ما في السورة الشريفة من ذوات الياء لأجل الموافقة. وكذلك سورة: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] أُمِيلَتْ فيها ذوات الواو وَكُتِبَتْ بالياء حَمَلًا على ما فيها من ذوات الياء.

ومن ذلك حذف المفعول نحو قوله تعالى: ﴿وَدَعَا رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣] الأصل: وما قَلَكَ، ولكن حُذِفَت الكاف لتوافق الفواصل.

ومن ذلك صَرَفُ ما لا يَنْصَرَفُ، كقوله تعالى: ﴿فَوَارِيرٌ﴾ [النمل: ٤٤] صَرَفَهُ بعض القراء السبعة ليوافق فواصل السورة الشريفة. ولو تَبَعَ المتأمل ذلك في الكتاب العزيز لوجده كثيراً.

ومما جاء من ذلك في الحديث قوله ﷺ: «أُعِيْذُكَ مِنَ الْهَامَةِ وَالسَّامَةِ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَةٍ» الأصل: عين مُلِمَّة.

ومنه قوله ﷺ: «مَأْزُورَاتٌ غَيْرُ مَأْجُورَاتٍ» الأصل مَوْزُورَاتٌ بالواو، لأنه من الوِزْرِ، ولكن هُمَزَ ليوافق مَأْجُورَاتٍ.

ومنه قوله ﷺ: «دَعُوا الْحِشَّةَ مَا وَدَعُوكُمْ، وَاتْرَكُوا الشَّرْكَ مَا تَرَكَوْكُمْ». الأصل «ما وادعوكم»، ولكن حُذِفَت الألف لِتَخْصُلَ الموافقة.

قلت: وهذا النوع من المشاكلة؛ لأنَّ المشاكلة في اللغة هي المماثلة، وهي في المصطلح ذكر الشيء بغير لفظه لموافقة القرائن ومشاكلتها، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة، والأصل: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ عُقُوبَةٌ. ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] والأصل تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما عندك، لأن الحق تعالى وتَقَدَّسَ لا تُسْتَعْمَلُ لفظة النفس في حقه، إلا أنها استعملت هنا للمماثلة والمشاكلة كما تقدّم. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤٌ وَّمَكْرٌ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٤] والأصل: وَأَخَذَهُمُ اللَّهُ.

وفي الحديث قوله ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا» الأصل: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْطَعُ عَنْكُمْ فَضْلَهُ حَتَّى تَمَلُّوا من مسألته، فوضع «لا يَمَلُّ» موضع «لا يقطع» لأجل المشاكلة، وهو ممّا وقع فيه لفظ المشاكلة أولاً، ومنه قول الشاعر:

قالوا افتَرَحَ شَيْئاً نُجِدُ لَكَ طَبْخَهُ قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصاً
أراد: خِيطُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصاً. وذكر بلفظ اطْبُخُوا لوقوعه في صُخْبَةِ طَبْخِهِ.



البلاغة والفصاحة

قلت: ومن غايات الإنشاء البلاغة في المقاصد، والبلاغة هي أن يَبْلُغَ المتكلم بعبارة كنه مراده مع إيجاز بلا إخلال، وإطالة من غير إملال. والفصاحة خلوص الكلام من التعقيد.

وقيل: البلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ، يقال: معنى بليغ، ولَفْظ فصيح، والفصاحة خاصة تقع في المفرد، يقال: كلمة فصيحة، ولا يُقال: كلمة بليغة؛ ففصاحة المفرد خلوصه من التعقيد وتناثر الحروف، والفصاحة أعظم من البلاغة؛ لأنَّ الفصاحة تكون صفة للكلمة والكلام يقال: كلمة فصيحة، وكلام فصيح. والبلاغة لا يوصف بها إلا الكلام؛ فيقال: كلام بليغ، وكلمة بليغة، واشتركا في وصف المتكلم بهما فيقال: متكلّم فصيح بليغ.

فمن الإنشاء البليغ الفصيح قول عبد الحميد عند ظهور الخراسانية بشعار السّواد: فاثبتوا ريشما تنجلي هذه العُمرّة ونصحو من هذه السّكرة، فسَيْنُضِبُ السَّيل، وتُمَحَّى آيَةُ اللَّيْلِ.

ومثله قول أبي نصر العتبي: دَبَّ الْفَشْلُ فِي تَضَاعِيفِ أَحْشَائِهِمْ، وَسَرَى الْوَهْنُ فِي تَفَارِيقِ أَعْضَائِهِمْ، فجيوب الأقطار عنهم مزرورة، وذبول الخذلان عليهم مجرورة. ومثله قول الصّابي: نزغ به شيطانه، وامتدّت في الغي أشطانه.

ومثله قوله بديع الزمان: كتابي إلى البحر وإن لم أره، فقد سمعتُ خبره، والليث وإن لم ألقه فقد تصوّرتُ خلقه، ومن رأى من السيف أثره، فقد رأى أكثره.

ومثله قول القاضي الفاضل: ووافينا قلعة نجم وهي نجم في سحاب، وعقاب في عقاب، وهامة لها العمام عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة. قلتُ: ويُعجّبي في هذا الباب من إنشاء الشّهاب محمود قوله في وصف مقدّم سرية:

كشف الإزار في مقاصده أخفّ من وطأة ضيف، وفي مطالبه أخفى من زورة طيف، وفي تنقله أسرع من سحابة ضيف، وأروع للعدا من سلّة سيف.

ومثله في الحسن قوله صدر مثال شريف سلطاني:

أصدرناها والسيوف قد أنفتحت من العمود، ونفّرت من قربها، والأسنة قد ظمئت إلى موارد القلوب، وتشتّقت إلى الارتواء من قلبها، والحماة ما منهم إلا من استظّهر بإمكان قوّته وقوة إمكانه، والأبطال ليس فيهم من يسأل عن عدد عدوّه بل عن مكانه.

ومثله في الحسن ما كتبتُ به جواباً عن مولانا السلطان الملك المؤيد - سقى الله ثراه - إلى قرا يوسف ملك العراق، يتضمّن خطاب الإيناس نظير ما خاطب في مكاتبته، فمن الجواب قولي:

وهذه ألفةٌ خولتُنا في نعم الله وزمام الأخوة مُنقاداً إلينا، وقد تعيّن على المقرّ أن يقول: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩٠]. وقد سرّتنا الإشارة الكريمة بالتمكين من أرض العدا ومطابقة الطول بالعرض، وهذا الاسم قد شملته

العناية قديماً بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١]. وأما قرا عثمان فقال سيوفنا ما غَمَضَتْ عنه في أجفانها، وأناملُ أسنَّتْنا ما ذُكِرَتْ نوبته إلا شرعت في جسِّ عيدانها، وجوارح سهامنا ما برحت تنفضُ ريشَ أجنحتها للطيران إليه، وإن كان معنًى سافلاً فلا بدَّ لأجل المقر أن نخيِّم عليه، وينزل سلطان قَهْرنا بأرضه، ويغرس فيها عيدان المَرَّان، وإن كانت من الأسماء التي ما أنزلَ الله بها من سلطان. ولم يهمل إلا لاشتغال الدولتين بالدخول في تطهير الأرض من الخوارج، وإيقاع الضرب الداخل من جسِّ العيدان في كل خارج، ويدهمه من أين أتى النَّصْر أبناءَ حرب شرف في أنساب الوقائع جدهم، ورَدَّ الجموع الصحيحة إلى التكسير فردهم، وإذا كثرت الخدود وتَوَرَّدت بالدماء عذرت بورق الحديد الأخضر مُردهم. وإذا امتدوا إلى أمد تلالهم حصنها في سورة الفتح قبل القتال فإنهم يريدون، ولهم شيخ منحه الله كثرة الفتوح والإقبال، وإذا صرفوا الهمم المؤبدية لم تكن حصونهم عند ذلك الصَّرف مانعة، ولم يُسمع لسكانها مُجادلة إذا صُدموا بالحديد وتلت حصونهم في الواقعة وما خَفِيَ عن كريمِ علمه ما جَمعه النَّاصر من الجموع التي فرَّقها الله أيدي سبا، وكم سأل سائل وقد رآهم في النَّازعات عن ذلك العصر بالنبا.

وقد أشار مُنشئ دولتنا الشريفة إلى ذلك في قصيد كامل بحره مديد، والقصد هنا من أبيات ذلك القصيد قوله:

| | |
|------------------------------------|-------------------------------------|
| يا حاميَ الحرمين والأقصى ومن | لولاهُ لم يَسْمُرْ بمكة سامِرُ |
| والله إنَّ اللهَ نَحْوُكَ ناظِرُ | هذا وما في العالمين مُناظِرُ |
| رَخَفَ على المخبون نَظْمَ عَسْكَرا | وأطاعهُ في النُّظْمِ بَحْرُ وإِفِرُ |
| فأنبتَ منه رَخْفَهُ في وَقْعَةٍ | يا مَنْ بأحوالِ الوقائع شاعِرُ |
| وجَميعَ هاتيكِ البُغاة بأسرهم | ذارتَ عليهم من سَطاكِ دَوائِرُ |
| وعلى ظُهورِ الخيلِ ماثوا خيفةً | فكأنَّ هاتيكِ السُّرُوجَ مَقابِرُ |

وما خَفِيَ عن علمه الكريم أمرُ الذين نَقَضُوا بَيْعَتَنَا، واشْتَرَوْا الضلالةَ بالهدى، ودَعَوْا سُيُوفَهُم الصَّقيلةَ لما حاقَ بهم المكرُ السيِّئُ فأجابهم الصَّدى، ولم يكن في حرارة عزمنا الشَّريف عند عصيانهم البارد فِتْرة، حتى أظهرنا بألوان الشَّام من دِمَائِهِم على تدبيج الدُّروع ألوان البَصْرة، وأخذوا سريعاً بشَبان حربٍ ما شابت عوارضهم إلا بغبار الوقائع، وحَكِمَ برشدِهم ولم يَخْرُجوا من تحت حجر المَعامع. وقد أَسْبَغَ الله ظلال الملك وخيِّمَ به على الدولتين، ولم يَظْهَر لمحرابٍ بهجَةً إلا بهاتين القبلتين. ولو سَلَّت السُّيُوفُ لغيرهما ما قبلت، أو صُرِفَتِ العواملُ إلى غير نحوهما ما عَمِلت.

وقد فهمنا كريم الالتفات إلى أن تدارَ كؤوسُ الإنشاء بيننا ممزوجة بصافي المودة، وعلمنا أنها أحكامٌ صحيحة في شرع الأخوة ولهذه الأحكام عندنا عمدة. وقد سبق القصد اليوسفي بسهام مُرادِه إلى الغرض، وقضى حاجةً في نفس يعقوب المحبة ليس عنها عَوَض. ولم يبقَ إلا اتصال شمل الأوصال بكل رسالة سطورها في رِقاع الأخوة محققة، وتصديق ما يقصّه في كريم جوابه فإنّ القصة اليوسفية ما برحت مُصدّقة. واللّه تعالى يمتّع الأبصار والأسماع بمشاهدة أمثلته وطيب أخباره، ويفكّهُنا من بين أوراقها بشهيّ ثماره. إن شاء الله تعالى.

انتهى ما دنت قطوفه من ثمرات الأوراق، وحلا في الأذواق السليمة وراق.

ذيل ثمرات
الأوراق لابن حجة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله .

الرشيد وغادر جارية الهادي

يُحكى أن هارون الرشيد حجّ ماشياً، وأن سبب ذلك أن أخاه موسى الهادي كانت له جارية تسمّى غادر، وكانت أحظى الناس عنده، وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناءً، فغنت يوماً وهو مع جلسائه على الشراب، إذ عرض له سهو وفكر، وتغير لونه وقطع الشراب، فقال الجلساء: ما شأنك يا أمير المؤمنين؟ قال: قد وقع في قلبي أنّ جاريتي غادر يتزوّجها أخي هارون بعدي؛ فقالوا: يطيل الله بقاء أمير المؤمنين، وكلّنا فداؤه، فقال: ما يزيل هذا ما في نفسي .

وأمر بإحضار هارون وعرفه ما خطر بباله، فاستعطفه، وتكلّم بما ينبغي أن يتكلّم به في تطيب نفسه، فلم يقنع بذلك، وقال: لا بدّ أن تحلف لي . قال: أفعل، وحلف له بكلّ يمين يحلف بها الناس من طلاق وعتاق وحجّ وصدقة وأشياء مؤكدة . فسكن؛ ثم قام فدخل على الجارية، فأحلفها بمثل ذلك، ولم يلبث إلا شهراً ثم مات .

فلما أفضت الخلافة إلى هارون أرسل إلى الجارية يخطبها، فقالت: يا سيدي كيف بأيمانك وأيماني! فقال: أحلف بكلّ شيء حلفت به من الصدقة والعتق وغيرهما إلا تزوّجتك؛ فتزوّجها وحجّ ماشياً ليمينه، وشغف بها أكثر من أخيه؛ حتى كانت تنام، فيضجع رأسها في حجره ولا يتحرك حتى تنبته .

فبينما هي ذات ليلة نائمة؛ إذ انتبهت فزعة، فقال لها: مالك؟ قالت: رأيت أحاك في المنام الساعة وهو يقول:

| | |
|----------------------|------------------------|
| أخلفت وعقدك بعد ما | جاوزت سگان المقابز |
| ونسيتني وحنثت في | أيمانك الكذب الفواجز |
| فظللت في أهل البلى | وغدوت في الحور الغرائز |
| ونكحت غادرة أخي | صدق الذي سمّاك غادر |
| لا يهنك الإلف الجديد | ولا تدّر عنك الدوائر |

والله يا أمير المؤمنين فكأنها مكتوبة في قلبي ما نسيث منها كلمة. فقال الرشيد: هذه أضغاث أحلام، فقالت: كلاً والله ما أملك نفسي، وما زالت ترتعد حتى ماتت بعد ساعة.



رؤيا

وحكى ابن أبي حجلة في كتابه «سلوك السُّنن إلى وصف السكن»: أخبرني شمس الدين محمد بن فراج الحسيني، أخبرنا شيخنا أثير الدين أبو حيان، أنبأنا فتح الدين بن الدمياطية، قال:

رأيت في المنام شيخاً حسن الصورة والمشي، وعليه مزدوجة، وكأنا نمشي في طريق، وأنا راكب دابة، فقلت له: رافقني، فقال: ليس الماشي برفيق الراكب، فقلت: اركب أنت وأمشي أنا، فقال: المسألة بحالها؛ ثم أفضينا في الحديث؛ فسألني: ما صنعتك؟ فقلت: كاتب. فقال: كاتب إحسان أو كاتب إنشاء؟ فقلت: شيء من هذا، وشيء من هذا، فقال: ما يدعي دعواك عبد الرحيم ولا عبد الحميد^(١). ثم قال: هل تنظم الشعر؟ قلت: نعم، قال: أنشدني، وكنت قد علمت قصيداً حجازياً، وكنت أستجيده، فأنشدته، إلى أن بلغت قولي:

تركوا بماء النيل ماء سلسلاً وترشّفوا ماء الثمادِ مكدّرا

فقال لي: لا شيء. فقلت: لم قلت ذلك وما عيب هذا البيت؟ فقال: لو قلت «صافياً» لكان حسناً وكان طباقاً، لأن الكدر يقابله الصافي، قلت له: هذا حسن، فمن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو مرة. قلت: لا خير ولا مير، قال: بك.

ثم بعد ذلك بشهر رأيته في المنام على الهيئة المتقدمة، فسلم عليّ سلام من يعرفني ثم قال: هل تعرف من الشعر المشؤوم شيئاً؟ قلت: نعم. قال: فأنشدني - وكنت قد عملت قطعة شعرٍ حال ضعفي بالنزلة، فأنشدته إياها:

لله ما أشكوه من نزلة قد ضرّ منها ضيق أنفاسي

ومن صداع ضقت ذرعاً به باتت يدي منه على رأسي

فقال: هذا والله الشعر، ثم قال: أضف إليهما:

فاعجب إلى داءين قد عُرّزا بثالث من داء إفلاسي



(١) عبد الرحيم بن علي البيسانى، المعروف بالقاضي الفاضل، وعبد الحميد بن يحيى المعروف بالكاتب.

يجود بكفنه

وَحُكِّيَ فِي مَرَاةِ الزَّمانِ وَغَيْرِهَا فِي تَرْجَمَةِ شَمْسِ الدِّينِ توران شاه بن أيوب أخي السُّلطان صلاح الدين، قال محمد بن علي الحكيم الأديب:

رَأَيْتُ شَمْسَ الدَّوْلَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ فَمَدَحْتَهُ بِأَيَّاتٍ، فَلَفَّ كَفَنُهُ وَرَمَى بِهِ إِلَيَّ وَقَالَ:
لَا تَسْتَقْلِنَ مَعْرُوفاً سَمَحْتُ بِهِ مَيِّتاً فَأَمْسَيْتُ مِنْهُ عَارِيَ الْبَدَنِ
وَلَا تَظُنَّنْ جُوداً شَانَهُ بَخَلٌ مِنْ بَعْدِ بَذْلِي مُلْكَ الشَّامِ وَالْيَمَنِ
إِنِّي خَرَجْتُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَيْسَ مَعِيَ مِنْ كُلِّ مَا مَلَكَتْ كَفِّي سِوَى الْكَفَنِ



مداس أبي القاسم

حُكِّيَ أَنَّهُ كَانَ بِبَغْدَادِ شَخْصٌ يَعْرِفُ بِأَبِي الْقَاسِمِ الطَّنْبُورِيِّ صَاحِبَ نَوَادِرٍ وَحِكَايَاتٍ، وَلَهُ مَدَاسٌ^(١) لَهُ مَدَّةُ سَنَيْنٍ، كُلَّمَا انْقَطَعَ مِنْهُ مَوْضِعٌ جَعَلَ عَلَيْهِ رَقْعَةً، إِلَى أَنْ صَارَ فِي غَايَةِ الثَّقَلِ، وَصَارَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ، فَيَقَالُ: أَثْقَلَ مِنْ مَدَاسِ أَبِي الْقَاسِمِ الطَّنْبُورِيِّ.

وَاتَّفَقَ أَنَّهُ دَخَلَ سَوْقَ الزَّجَاجِ، فَقَالَ لَهُ سَمْسَارٌ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَدْ وَصَلَ تَاجِرٌ مِنْ حَلَبٍ، وَمَعَهُ زَجَاجٌ مَذْهَبٌ قَدْ كَسَدَ، فَابْتَعَهُ مِنْهُ وَأَنَا أَبِيعُهُ لَكَ بَعْدَ مَدَّةٍ بِمَكْسَبِ الْمَثَلِ مِثْلِينَ. فَابْتَاغَهُ بِسِتِينَ دِينَاراً.

ثُمَّ دَخَلَ سَوْقَ الْعِطَارِينَ، فَقَالَ سَمْسَارٌ آخَرٌ: قَدْ وَرَدَ تَاجِرٌ آخَرٌ مِنْ نَصِيبِينَ بِمَاءٍ وَرَدَّ فِي غَايَةِ الْحَسَنِ وَالرُّخْصِ، ابْتَعُهُ مِنْهُ، وَأَنَا أَبِيعُهُ لَكَ بِفَائِدَةٍ كَثِيرَةٍ. فَابْتَاغَهُ بِسِتِينَ دِينَاراً آخَرَى، ثُمَّ جَعَلَهُ فِي الزَّجَاجِ الْمَذْهَبِ، وَوَضَعَهُ عَلَى رَفٍّ فِي صَدْرِ الْبَيْتِ. ثُمَّ دَخَلَ الْحَمَّامَ بِفُلْسٍ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْدِقَائِهِ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَشْتَهِي أَنْ تَغَيِّرَ مَدَاسَكَ فَإِنَّهُ فِي غَايَةِ الْوَحَاشَةِ، وَأَنْتَ ذُو مَالٍ؛ فَقَالَ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ.

وَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَمَّامِ وَلَبَسَ ثِيَابَهُ، وَجَدَ إِلَى جَانِبِ مَدَاسِهِ مَدَاساً جَدِيداً، فَلَبَسَهُ وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ. وَكَانَ الْقَاضِي دَخَلَ الْحَمَّامَ يَغْتَسِلُ فَفَقَدَ مَدَاسَهُ، فَقَالَ: الَّذِي لَبَسَ مَدَاسِي، مَا تَرَكَ عَوْضَهُ شَيْئاً؟ فَوَجَدُوا مَدَاسَ أَبِي الْقَاسِمِ فَإِنَّهُ مَعْرُوفٌ، فَكَبَسُوا بَيْتَهُ فَوَجَدُوا مَدَاسَ الْقَاضِي عِنْدَهُ، فَأَخَذَ مِنْهُ وَضُرِبَ أَبُو الْقَاسِمِ وَحُبِسَ وَغَرِمَ جُمْلَةُ مَالٍ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْحَبْسِ؛ فَأَخَذَ الْمَدَاسَ وَأَلْقَاهُ فِي الدُّجْلَةِ فغَاصَ فِي الْمَاءِ. فَرَمَى بَعْضُ الصَّيَادِينَ شَبِكَتَهُ، فَطُلِعَ فِيهَا الْمَدَاسُ، فَقَالَ: هَذَا مَدَاسُ أَبِي الْقَاسِمِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ سَقَطَ مِنْهُ، فَحَمَلَهُ إِلَى بَيْتِ أَبِي الْقَاسِمِ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَرَمَاهُ مِنَ الطَّاقِ إِلَى بَيْتِهِ، فَسَقَطَ عَلَى الرَّفِّ الَّذِي عَلَيْهِ الزَّجَاجُ، فَتَبَدَّدَ مَاءُ الْوَرْدِ وَانْكَسَرَ الزَّجَاجُ.

(١) فِي الْقَامُوسِ: الْمَدَاسُ كَسَحَابٍ: مَا يَلْبَسُ فِي الرَّجْلِ.

فلَمَّا رأى أبو القاسم ذلك لطم على وجهه وصاح: وافقراه! أفقرني هذا المداس. ثم قام يحفر له في الليل حفرة، فسمع الجيران حَسَّ الحفرة فظنوا أنه نقب، فشكوه إلى الوالي فأرسل إليه من اعتقله، وقال له: تَنْقُب على الناس حائطهم! اسجنوه. ففعلوا، فلم يخرج من السجن إلى أن غُرِّمَ جملة مال. فأخذ المداس ورماه في مستراح الخان، فسَدَّ قصبَة المستراح وفاض، فكشف الصنّاع ذلك حتى وقفوا على موضع السدّ فوجدوه مداس أبي القاسم، فحملوه إلى الوالي وحكّوا له ما وقع، فقال: غرّموه المصروف جملة، فقال: ما بقيت أفارق هذا المداس! وغسله وجعله على السطح حتى يجف، فراه كلب ظنه رمة، فحمّله وعبر به إلى سطح آخر فسقط على امرأة حامل فارتجفت وأسقطت ولداً ذكراً. فنظروا ما السبب، فإذا مداس أبي القاسم. فرفع إلى الحاكم فقال يجب عليه غُرّة^(١)، فابتاع لهم غلاماً وخرج وقد افتقر ولم يبقَ معه شيء. فأخذ المداس وجاء به إلى القاضي وحكى له جميع ما اتفق له فيه، وقال: أشتهي أن يكتب مولانا القاضي بيني وبين هذا المداس مبارأة بأنه ليس مني ولست منه، وإني بريء منه، ومهما فعله يؤاخذ به ويلزمه، فقد أفقرني.

فضحك القاضي ووصله بشيء، ومضى.



قصيدة ليزيد بن معاوية

هذه قصيدة ليزيد بن معاوية، وهي عزيزة الوجود:

| | |
|------------------------------------|--|
| وسِرْبُ كعين الديك ميل إلى الصبا | رواعف بالجادي سود المدامع ^(٢) |
| سمعن غناء بعدما نُمِنَ نومة | من الليل فاقْلُولَيْنَ فوق المضاجع |
| أيا دهرُ هل شرخُ الشبيبة راجع | مع الخفرات البيض أم غير راجع! |
| قنعتُ بزورٍ من خيال بعثته | وكنْتُ بوصل منهم غير قانع |
| إذا رُمْتُ من ليلَى على البعد نظرة | لتطفي جوى بين الحشا والأضالع |
| يقولُ رجال الحيّ تطمع أن ترى | ليلَى وصالا، مت بداء المطامع |
| وكيف ترى ليلَى بعينٍ ترى بها | سواها وما طهَّزَتْها بالمدامع |
| أجلِك يا ليلَى عن العين إنَّما | أراكِ بقلب خاضع لك خاشع |
| وما سرّ ليلَى ما حييتُ بذائع | وما عهد ليلَى إن تناءت بضائع |



عاتكة بنت يزيد

ومن غريب ما يُحكى، أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان والدة يزيد بن عبد الملك بن مروان حرمت على اثني عشر من الخلفاء من بني أمية: معاوية جدها، ويزيد أبوها، ومروان ابن زوجها، والوليد وسليمان وهشام بنو عبد الملك أولاد زوجها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد ابن زوجها، وإبراهيم بن مروان بن الوليد ابن زوجها أيضاً، ويزيد بن عبد الملك ابنها، ومعاوية بن يزيد بن معاوية أخوها، وزوجها عبد الملك بن مروان. ولم يتفق ذلك لامرأة غيرها.



وصف الأهرام

وجد بخط قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر حافظ العصر. قال: وجد بخط شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمساني قال. أنشدني القاضي فخر الدين عبد الوهاب المصري لنفسه في الأهرام سنة خمس وخمسين وسبعمائة هـ وأجاد:

| | |
|--------------------------------|--|
| أَمْبَانِي الأهرام كم من واعظٍ | صَدَعَ القلوب ولم يَفْه بلسانِه |
| أذكرتني قولاً تقادّم عهدُه: | «أين الذي الهرمان من بنيانِه» ^(١) |
| هَنَ الجبال الشامخات تكاد أن | تمتدّ فوق الأفق عن كَيوانِه |
| ولو أنّ كسرى جالسٌ في سفحها | لأَجَلَ مجلسه على إيوانِه |
| ثبتت على حرّ الزمان وبزده | مُدّداً ولم تأسف على حَدَثانِه |
| والشمس في إحراقها والريح عند | هبوبها والسَّيْل في جَرَيانِه |
| هل عابدٌ خَصَّها بعبادةٍ | فمباني الأهرام من أوثانِه |
| أو قائلٌ يقضي برجعة نفسه | من بعد فرقته إلى جُثمَانِه |
| فاختارها لكنوزه ولجسمه | قبراً ليأمن من أذى طُوفَانِه |
| أو أنها للسائراتِ مراصدٌ | يختار راصدُها أعزّ مكانِه |
| أو أنها وضعت بيوت كواكب | أحكام فُرس الدهر أو يونانِه |
| أو أنهم نَقَشُوا على حيطانها | عَلَمًا يحارُ الفكرُ في تبيانِه |
| في قلب رائيها ليعلم نقشها | فكرٌ يَعِضُّ عليه طَرْفَ بَنَانِه |



(١) شطر بيت للمتنبي، وبقية: ما قومه ما يومه ما المصرع.

قصيدة علي بن عبد العزيز الجرجاني

يُحكى أن القاضي أبا الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني كان يمرّ على الناس يسلم عليهم، فلامه بعض أصحابه في ذلك فقال:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما
أرى الناس من داناها هان عندهم
وإنني إذا ما فاتني الأمر لم أكن
ولم أقض حق العلم إن كان كلما
وما كل برقي لاح لي يستفزني
إذا قيل هذا منهلّ قلت قد أرى
أنهذهها عن بعض مالا يشينها
ولمن أبتذل في خدمة العلم مُهجتي
أشقى به غرساً وأجنيه ذلّة
ولو أن أهل العلم صانوه صائهم
ولكن أهانوه فهان ودنسوا

رأوا رجلا عن موقف الذل أخجما
ومن أكرمه عزّة النفس أكرما
أقلب كفي إثره متندما
بدا مطمع صيرته لي سلما
ولا كل من في الأرض أرضاه مُنعما
ولكن نفس الحرّ تحتمل الظما
مخافة أقوال العدا فيم أو لما
لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
إذا فاتتباغ الجهل قد كان أحزما
ولو عظموه في النفوس لعظما
محيّاه بالأطماع حتى تجهما

قال شيخ الإسلام تاج الدين عبد الوهاب ابن شيخ الإسلام تقي الدين السبكي الشافعي سقى الله عهده: لقد صدق هذا القائل لو عظموا العلم عظمهم. قال: وأنا أقرأ قوله: «لعظم» بفتح العين فإن العلم إذا عظم تعظم وهو في نفسه عظيم، ولكن أهانوه فهانوا. ولكن الرواية فهان وعظم بضم العين، والأحسن ما أشرت إليه.



أبو نواس يحكي أقوال الفقهاء في الشراب

قال الشيخ الإمام العالم العلامة تاج الدين عبد الوهاب بن السبكي في أجوبته عن الاعتراضات التي على جمع الجوامع، ومن ظريف ما يستفاد قول أبي نواس:

أباح العراقيّ النبيذَ وشربهُ
وقال حرامان: المُدّامة والسُّكرُ
وقال الحجازيّ الشرابان واحد
فحلّت لنا من بين قوليهما الخمرُ
سأخذ من قوليهما طرفيهما
وأشربُها لا فارق الوازرَ الوزرُ

وقد سألتني الأديب صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي رحمه الله عن معنى هذه الأبيات. ومعناها أن العراقي - وهو أبو حنيفة رَجَمَهُ الله - أباح التَّبِيدَ وحرّم المدامة، وهي الخمر أسكرت أم لم تسكر، وحرّم أيضاً المسكر من كل شيء. وأن

الحجازي - وهو الشافعي رحمه الله - قال: الشرابان واحد: فأخذ أبو نواس بالموجب، فكأنه قال إنهما واحد، ولكن في الجَلّ لا في الحرمة، وإليه الإشارة بقوله «فحلّ لنا من بين قوليهما الخمر». ثم هذا إنما ذكره أبو نواس على عادة الشعراء في الكَيْس والظرافة، ولا يقصد حقيقته فإنه لا يقول به أحد، ولعله أشار بقوله: سأخذ من قوليهما طرفيهما... إلى آخره أنه لا يعتقد، بل هو شاعر كما يقول ولا يفعل، كذلك لا يعتقد، فهو على ما زعم يَشربها وإن لم يعتقد الحلّ، إذ كيف يعتقد ما لم يقله مسلم، وكيف يمكن أن يقال إنه يعتقد الحلّ، وقد قال: «لا فارق الوازر الوزر»، فهذا إن شاء الله معنى هذه الأبيات. وهي على كلّ حال من كلمات الشعراء التي لا يُحتجُّ بها في دين الله.



من كلام للفضل بن سهل وقد أبلّ من مرضه

اعتلّ ذو الرياستين الفضل بن سهل بخراسان مدة طويلة ثم أبلّ واستقبل وجلس للناس، فدخلوا إليه وهنّأوه بالعافية، فأنصت لهم حتى انقضى كلامهم، ثم اندفع فقال: إن في العلل لنعماً لا ينبغي للعقلاء أن يجهلوه. منها: تمحيص الذنوب، وثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وإذكاء بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء التوبة، وحض على الصداقة، ورضا بقضاء الله وقدره. فانصرف الناس بكلامه ونسّوا ما قاله غيره.



رؤيا عبد الله بن المبارك

حكى عن ابن المبارك أنه قال:

حجبت إلى بيت الله الحرام، فبينما أنا في الطواف إذ عيّيت، فجلست أستريح، ووضعت رأسي على ركبتي، فغلبنى النوم، فرأيت النبي ﷺ وهو يقول: «يا بن المبارك، إذا أنت قضيت حجتك، وحللت عقدك، ورجعت إلى أرض العراق، ودخلت دار السلام، فاقصد الحلة التي بها بهرام المجوسي، فإذا لقيته، فأخبره أن النبي العربي محمداً يسلم عليك وهو يقول لك: أبشر فإنّ قصرك في الجنة عدا من أقرب القصور إلى قصري».

قال عبد الله: فانتبهت لذلك فرعاً مرعوباً، وتفكرت ساعة، فغلبنى النوم ثانياً، فرأيت النبي ﷺ أيضاً يقول: «يا بن المبارك، لا تشك في منامك فهو حق، والشيطان لا يتمثل بصورتي قط، فإذا قضيت حاجتك، وحللت عقدك، وانصرفت إلى العراق، فاطلب هذا المجوسي بهرام، وبشره بما قلت لك».

فانتبهت أيضاً فزعاً مرعوباً، واستعذت بالله واستغفرت، وتفكرت ساعة، فغلبنى النوم فنمت، فرأيت النبي ﷺ ثالث مرة وهو يقول: «يا بن المبارك: أنا محمد رسول الله، فلا ترتبك»^(١) في ذلك، وامثل أمرى فهو حق». فقلت: يا رسول الله، أريد بذلك علامة ألقاه بها، فأخذ رسول الله ﷺ بيمينه ثم قال: «يا بن المبارك، هذا المجوسي شيخ زمن»^(٢)، قد أتى عليه مائة وأربعون سنة، وقد ضعف بصره، وثقل سمعه، وابيض شعره، ورق عظمه، وبس عصبه وجلده؛ فإذا أتيتَه وسلمت عليه وبشّرتَه بما قلت لك، وطلب منك علامة، فامسح بيدك هذه التي أخذتها بيمينى على رأسه، ومر بها على وجهه وسائر جسده ويدنه، فإنه يعود شاباً، ويرجع إليه بصره وسمعه، ويسود شعره، ويطرى جسده، ويقوى عصبه، وتعود إليه قوته».

فانتبهت وأنا كالولهان، فلما أن قضيت حجّى، وحللت عقدي، وانصرفت إلى العراق، ودخلت بغداد، سألت عن المجوسي فقلت: يا غلام استأذن لي على مولاك، فقال الغلام: أغريب أنت؟ قلت: أجل، قال: ادخل ليس هنا من يحجبك، قال: فدخلت إلى دارٍ لم أرَ مثلها، وإذا بكتبة ومجوسي وصيارف قعود وهم يقتضون الرهون، ويعطون الدنانير والدراهم، فقلت: يا قوم، أفيكم بهرام؟ فقبل: ادخل الدار الثانية. فدخلتها، فإذا ليس بينها وبين الدار الأولى نسبة، بل تفاوت، وإذا بشيخ قاعد على دست ومرتبة، على الصفة التي وصفها رسول الله ﷺ، وحوله جماعة من الكتاب والحساب، وبين أيديهم الدنانير والدراهم كالبيادر للصغار، وهم في الحساب. فسلمت كما أمرني النبي ﷺ، فردّ عليّ السلام، وكان قد شدّ حاجبيه بعصابة، فرفعها عن عينيه، ثم قال: من الرجل؟ قلت: عبد الله بن المبارك، فقال: مرحباً بك، لقد شممت بك رائحة زال بها الهم عن قلبي، اذنُ مني. فجلست إلى جانبه، فقال: هل لك من حاجة؟ قلت: نعم، قال: وما هي؟ قلت: أرى أن أخلو بك ساعة، فقال: نعم، وأمر من هناك بالخروج، فتَهَيَّؤا ثم خرجوا، فبقيت أنا وهو وثلاثة شبان، قلت: هؤلاء اصرفهم يا بهرام، كم تعدّ من السنين؟ قال: أعدّ مائة وأربعين سنة، قلت: فهل تعرف أنك عملت شيئاً استوجب به من الله الجنة؟ قال: لا أرى إلا أنني رزقت ثلاثة بنين وثلاث بنات فزوجت بعضهم من بعض، وأعطيتُ مهورهن من عندي، وأفردت لكل واحد منهم مالاً وداراً وعقاراً، قلت: لا تستوجب الجنة، بل تستوجب النار، فهل عملت شيئاً صالحاً لآخرتك؟ قال: قسمت ليلي ثلاثة أجزاء. أما الجزء الأول فإني أقعد للمسامرة، وتقرأ عليّ سيرُ الأول، فأتفرج بذلك. والجزء

(١) ارتبك: اختلط عليه الأمر.

(٢) زمن: أتى عليه زمان. وفي ط: «مسن».

الثاني أعبد فيه النار، وأسجد لها من دون الله الواحد القهار. والجزء الثالث: أتفكر فيه في أمر معاشي ومعادي، وأمنع نفسي عن النوم في ذلك الجزء، فإن النوم جهل وخمول إلا للضرورة.

فقلت: هل لك فعلٌ غير هذا؟ قال: لا، قلت: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، فيم استحققت يا بهرام الجنة؟ قال: ويحك يابن المبارك! أتقطع لي بالجنة وأنت عالم المسلمين؟ مَنْ أخبرك بذلك؟ قلت: أخبرني الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى، قال: فما القصة؟ فحدثته بالمنام الذي رأيته وبما قاله النبي ﷺ مراراً، فقال: يابن المبارك، وهل لذلك علامة ظاهرة؟ قلت: نعم. ادنُ مني، فدنا، فمسحت بيدي رأسه ووجهه وصدره وبدنه، وأولاده ينظرون، فصار شاباً حسناً طرياً سمياً بصيراً، واسودَّ شعره، وابيضت بشرته. فلما عاين ذلك قال: امدد يدك يا شيخ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ثم قال: يا شيخ، أخبرك السبب الذي أوجب الله لي به هذه المنزلة؟ قلت: نعم، قال: كنت من مدة قد أولمت وليمة عامة للمسلمين والنصارى واليهود، والمجوس خاصة، فأكلوا وانصرفوا وانقضت الوليمة، فلما كان في بعض الليل، طرق طارق الباب وقد هدأ الناس، ونام الخدام لما أصابهم من التعب بسبب الوليمة وأنا جالس منتبه، فقلت: من بالباب؟ فقال: يا بهرام، أنا امرأة من جيرانك، فأوقد لي هذا السراج - قال بهرام: والمجوس لا ترى إخراج النار من بيوتهم ليلاً - فتحيرت في أمري وقمت ولم أنبه أحداً فأسرجت لها السراج، فانصرفت وأطفأت السراج. وعادت وقالت: يا بهرام قد انطفأ فأسرجه لي، فلما أسرجت، قالت: يا بهرام والله ما جئتك لأجل سراج، لكن جئتك من أجل ثلاث بنات شمن روائح طعامك، فهن ملقيات على وجوههن، يتضاوون كالمرأة الثكلى، أو كالحبة في المقلَى! فإن كان قد بقي في دارك فضل طعام فأعطني، فإنك إن شاء الله تملك بذلك الجنة، فقلت: حباً وكرامة. فأخذت مندبلاً كبيراً، فجعلت فيه من كل شيء كان في البيت من الحلو والحامض، وأخرجت كيساً فيه ألف دينار، وكيساً فيه ستة آلاف درهم، وستة أثواب من ديباج، وستة أثواب مروزية، وشدت الجميع وقلت: احملني هذا إلى عيالك واقسمي عليهم. فمدت يدها فلم تطق حمله لضعفها فقالت: يا بهرام أعني أعانك الله على الوقوف بين يديه، وخفف عليك الحساب في ذلك اليوم الشديد.

فقلت: يا هذه، كيف أفعل وأنا شيخ كبير، وقد مضى عليّ مائة ونيّف وثلاثون سنة، ثم تفكرت لحظة وطاب لذلك قلبي، فقلت لها: شيلي عليّ رأسي. فشالته واستقلّ عليّ رأسي، فسال لذلك عرقِي، حتى صرت في منزلها، فحططت الطعام،

ووضعت الرزمة، وجعلت ألقم البنات إلى أن شبعن ونشطن، ثم قسّمت عليهنّ الثياب والدراهم والدنانير، ففرحن وتبسمن. فلما أردت القيام قلن بأجمعهن: يا بهرام أصلح الله لك أمورك، وأدام سرورك، كما أصلحت أمورنا، وأدمت سرورنا، وفرّحك يوم القيامة كما فرّحتنا، وختم لك بخير، وأنزلك أقرب قصر من قصر نبينا محمد ﷺ في دار الجنان، وأنا أقول: آمين، وما زلت أرجو استجابة دعائهنّ.

قلت: يا بهرام، أبشر فإن الله حقق لك ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: لا تحقر من المعروف شيئاً ولو أنك تفرغ من دلوك في إناء أخيك ماء.

قال عبد الله بن المبارك: فتصدّق بهرام في ذلك بمائة ألف درهم، وبمائة ألف دينار، وبمائة ألف ثوب مروزيّات، وبألفي ثوب ديباج، وفرّق سائر أمواله على أولاده وبناته، وأسلموا جميعاً، وتفرّق الإخوة عن الأخوات، وزوّج أولاده بالمسلمات وبناته بالمسلمين، وأسلم في ذلك اليوم خلق كثير من المجوس. ثم انفرد عن أهله ولزم المحراب يعبد الله، فلم يلبث إلا قليلاً حتى توفّي رحمة الله عليه. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.



قصة معروف الكرخي مع مجوسي

رُوِيَ عن سعد بن سعيد أنه قال:

كان في جوار معروف الكرخي رجل مجوسي من أبناء الأغنياء، وجَد الخليفة عليه، فصادره وأخذ منه ألف ألف دينار، فافتقر بعد الغنى، وذَلَّ بعد العزّ، وكان له أعداء وحساد، فقالوا للخليفة: إنه قد بقي له مال جسيم، فلا تظنّ أنه عديم. فأمر بمصادرته ثانياً. فلما علم المجوسي ذلك دخل بيت النار وقصد ما كان يعبد من دون الجبار وقال: إن لم تخلصني آمنت بربّ معروف، فلم يجبه أحد، ولم ينتفع بسجوده للنار ولا للنور.

فلما جنّ عليه الليل، اغتسل وأتى مسجد معروف الكرخي فلم يجده في المسجد. فرفع رأسه وقال: يا إله إبراهيم وعيسى ومحمد وإله معروف ويا من لا إله إلا هو، تحققت أن ما عبدته من دونك باطل، لا يضرّ ولا ينفع، وإنني جئتكم تائباً ممّا فعلت، متبرئاً ممّا عبدت، منفصلاً عما اعتقدت، موقناً بك، شاهداً بأن لا إله إلا أنت، إله الأولين والآخرين، وأنت المعبود الحقّ تفعل ما تشاء، ولا يكون إلّا ما تريد، إنك على كل شيء قدير. فاغفر لي ما تقدّم من ذنبي وجهلي وإسرافي، ولا تنظر إلى سوء عملي ومعصيتي، واصرف شرّ الخليفة وأعوانه عني، فقد وجهت وجهي إليك، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً

رسول الله . يا محمد، تشفعت بك إلى الله فاقبلني . ثم سجد، وأطال سجوده وهو يناجي ربه ويبكي .

فأتى معروف المحراب فرآه كذلك، فبقي متفكراً في أمره لا يتحقق من هو، وإذا هو بسلام من خواص الخليفة قد دخل المسجد يسأل عن المجوسي باسمه ونسبه، فقال معروف: بيته في موضع كذا وكذا، فقال: من هناك جئت، وقيل لي إنه في مسجد معروف، فوالله لا بأس عليه، فإن الخليفة قد بعثني إليه برسالة لطيفة تسر قلبه، وهو منتظره على أن يؤمنه ويرد عليه ما أخذ منه وكفى بالله شهيداً .

فقال معروف: لست أرى في المسجد أحداً يشبه من تذكره، إلا هذا الساجد لله، المناجي لربه، فاصبر له حتى يرفع رأسه .

فوقف صاحب الخليفة على رأسه ساعة ثم قال: يا هذا، ارفع رأسك ولا تبك، أمير المؤمنين قد قضى حاجتك، وبعثني برسالة لطيفة لتصير إليه حتى يرد عليك ما أخذه منك .

فرفع رأسه وإذا معروف واقف فقال: يا معروف، ما أكرم هذا الباب، وما أحلم صاحبه، وما أقربه إلى من دعاه، ثم قال: يا معروف، امدد يدك إنني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . وأني رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وأن القرآن كلام الله جاء به محمد بن عبد الله وأنا مؤمن بذلك كله .

ثم تبع الرسول، وذهب معروف الكرخي معه . فلما وصلوا إلى دار الخليفة وإذا به واقف على الباب، فاستقبلهما، وسلم عليهما، وصافح كلا منهما، ومشى معهما، وأقعدهما إلى جانبه، وأقبل يعتذر إليهما مما وقع منه، وأمر بالأموال التي أخذت من المجوسي فأحضرت بين يديه عن آخرها . ثم قال له: تأمل هذه الأموال، أليست هي التي أخذت منك؟ قال: نعم، قال: فخذها بارك الله لك فيها واجعلني في حل مما وقع مني، واستغفر الله لي . فقال: يغفر الله لك، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أما الأموال فهي لك حلال بعد أن هداني الله إلى دين الإسلام، ولكن أعلمني ما الذي دعاك إلى طلبي في هذا الوقت ورد هذا المال علي؟ قال: نعم . كنت نائماً وإذا أنا برسول الله ﷺ قد دخل عليّ ومعه صف من الملائكة، وصف من الصحابة . فسلم عليّ وقال: إن الله تبارك وتعالى يقرئك السلام ويقول لك إن عبدنا فلان المجوسي كنا قد دعوناه في الدّر، فأجابنا، وكان في المجوسية مستتراً ولنا معه عناية، وقد جاء الآن إلينا نائباً، وعما كان منه تائباً، وهو في مسجد معروف الكرخي مستجير بجنابنا منك، فابعث في طلبه، ورد عليه ما أخذ منه، ولا تقطع المعاملة بيننا . فانتبهت مرعوباً، فأرسلت في طلبك، وها هو مالك قد ردّذناه عليك، ودفعناه إليك .

فخرَ الرجل ساجداً لله تعالى، ثم رفع رأسه وبكى وقال: وا ندماء! وا أسفاه، وا لهفاه! وكيف تركت عبادة الرحمن الرحيم، واشتغلت بعبادة النيران، وضيعت العمر والزمان! ثم قال: يا أمير المؤمنين، لا حاجة لي في هذا المال، خذه فهو حلال لك. فقال يا أمير المؤمنين: لا أرجع بشيء أمرني ربي بإخراجه.

فقال: يا أمير المؤمنين: لا حاجة لي في المال، أشهدك أنني قد جعلته صدقة في فقراء المسلمين لا حظَّ لي فيه ولا لأحد من أهلي.

فقال الخليفة: يا معروف، بقي الأمر إليك، فاحمل المال وتصدق به على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والأيتام والأرامل.

فدعا له معروف، وأخذ بيد الرجل، وحمل المال على البغال، وصافحهما أمير المؤمنين، وسأل الرجل أن يُحالِّله عمّا وقع منه. ولازم الرجل معروفاً الكرخي إلى أن مات. تغمّده الله برحمته!



معن بن زائدة وبعض الشعراء

وحُكيَ عن معن بن زائدة الشيباني أن شاعراً قصده، فأقام مدة يريد الدخول إليه، فلم يتهياً له ذلك. فلما أعياه ذلك قال لبعض خدمه: إذا دخل الأمير البستان، فعرفني. فلما دخل معن البستان عرّفه الخادم عنه، فكتب الشاعر بيتاً من الشعر على خشبة وألقاها على الماء الداخل إلى البستان. فاتفق أن معناً كان جالساً في ذلك الوقت على رأس الماء، فمرت به، فأخذها فإذا فيها كتابة، فقرأها، وهي:

أيا جود معنٍ ناجٍ مَعْناً بحاجتي فمالي إلى معنٍ سواك شفيح
فقال: من صاحب هذه؟ فدُعِيَ بالرجل، فقال له: كيف قلت؟ فأنشد البيت، فأمر له بمائة ألف درهم، فأخذها وأخذ الأمير الخشبة فوضعها تحت بساطه.

فلما كان اليوم الثاني، قرأها ودعا بالرجل، فدفع له مائة ألف درهم على العادة؛ ثم دعاه ثالث مرّة، فقرأ البيت ودفع له مائة ألف درهم. فلما أخذ الجائزة الثالثة، خشي الشاعر أن يندم فيأخذ منه ما دفع إليه، فسافر. فلما كان في اليوم الرابع طلبه معن فلم يجده، فقال معن: حقّ عليّ لو مكث لأعطينه حتى لا يبقى في بيتي درهم ولا دينار.



معن بن زائدة وضيوفه من الأسرى

وحُكيَ عنه أيضاً أنه أتى بجُملة من الأسرى، فعرضهم على السيف. فقال له

بعضهم: أصلح الله الأمير! نحن أسراك، وبنا جوع وعطش، فلا تجمع علينا الجوع والعطش والقتل؛ فأمر لهم بطعام وشراب، فأكلوا وشربوا، ومعن ينظر إليهم؛ فلمّا فرغوا قال الرجل: أصلح الله الأمير! كنا أسراك ونحن الآن أضيافك، قال: قد عَفَوْتُ عنكم، فقال الرجل: أيها الأمير، ما ندرى أيّ يوم أشرف؟ يوم ظفرك بنا، أو يوم عَفَوَكَ عنا!.

فأمر لهم بمال وكسوة.



معن بن زائدة ومستجير به

وحَكِيّ أن المنصور أهدر دم رجل كان يسعى في فساد دولته مع الخوارج من أهل الكوفة، وجعل لمن دلّ عليه وجاء به مائة ألف درهم. ثم إنه ظهر ببغداد؛ فبينما هو يمشي مختفياً في بعض نواحيها إذ بَصُرَ به رجل من أهل الكوفة، فعرفه، فأخذ بمجامع ثيابه وقال: هذا بغية أمير المؤمنين.

فبينما الرجل على تلك الحالة، إذ سمع وقع حوافر الخيل، فالتفت فإذا معن بن زائدة، فقال: يا أبا الوليد، أجزني أبارك الله! فوقف وقال الرجل المتعلق به: ما شأنك؟ قال: بغية أمير المؤمنين الذي أهدر دمه، وجعل لمن دلّ عليه وأتى به مائة ألف درهم، فقال: دَعَهُ يا غلام، انزل عن دابّتك واحمل الرجل عليها.

فصاح الرجل بالناس وقال: أيحال بيني وبين مَنْ طلبه أمير المؤمنين؟ فقال له معن: اذهب إليه وأخبره أنه عندي، فانطلق إلى باب المنصور فأخبره، فأمر المنصور بإحضار معن. فلمّا أتى الرسول إلى معن دعا أهل بيته ومواليه وقال: أعزم عليكم، لا يصل إلى هذا الرجل مكروه وفيكم عين تطرف؛ ثم سار إلى المنصور فدخل عليه وسلّم عليه فلم يردّ عليه السلام، وقال: يا معن: أتتجراً عليّ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ قال: ونعم أيضاً! واشتدّ غضبه. فقال: يا أمير المؤمنين، مضت أيام كثيرة قد عرفتم فيها حسن بلائي في خدمتكم، فما رأيتُموني أهلاً أن يهرب إليّ رجل واحد استجار بي بين الناس وتوسّم أني عند أمير المؤمنين من بعض عبيده؟ وكذلك أنا، فمُرّ بما شئت ها أنا بين يديك.

فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقد سكن ما به من الغضب وقال: قد أجرنا من أجرت يا معن، قال: فإن رأى أمير المؤمنين أن يجمع بين الأجرين، فيأمر له بصدقة فيكون قد أحياه وأغناه، قال: قد أمرنا له بخمسين ألف درهم، قال: يا أمير المؤمنين، إن صلّات الخلفاء على قدر خيانات الرعية، وإنّ ذنب الرجل عظيم، فأجزل له الصلة. قال: قد أمرنا له بمائة ألف درهم؛ قال: فعجلها يا أمير المؤمنين،

فإن خير البرّ تعجيله . فانصرف معن بالمال للرجل وقال له : خذ صلتك والحق بأهلك ، وإياك ومخالفة خلفاء الله في أمورهم .



نادرة يرويهما الجاحظ

حكى الجاحظ قال : أخبرني فتى من أصحاب الحديث ، قال : دخلت ديراً في بعض المنازل لما ذكر لي أن به راهباً حسن المعرفة بأخبار الناس وأيامهم ، فصرت له لأسمع كلامه ، فوجدته في حجرة معتزلة بالدير ، وهو على أحسن هيئة في زي المسلمين ، فكلمته فوجدت عنده من المعرفة أكثر ممّا وصّفوا . فسألت عن سبب إسلامه ، فحدّثني أن جارية من بنات الروم كانت في هذا الدير ، نصرانية كثيرة المال ، بارعة الجمال ، عديمة الشكل والمثال ، فأحبّت غلاماً مسلماً خياطاً ، وكانت تبذل له مالها ونفسها ، والغلام يُعرض عن ذلك ، ولا يلتفت إليها ، وامتنع عن المرور بالدير .

فلما أعيّتها الحيلة فيه ، طلبت رجلاً ماهراً في التصوير ، وأعطته مائة دينار ، على أن يصوّر لها صورة الغلام في دائرة على شكله وهيئته . ففعل المصوّر ، فلم تخطيء الصورة شيئاً منه غير النطق ، وأتى بها إلى الجارية ، فلما أبصرتها أغمى عليها . فلما أفاقت أعطت المصور مائة دينار أخرى ، وأخرج الراهب لي الصورة فرأيتها ، فكاد أن يزلّ عقلي .

فلما خلت الجارية بالصورة ، رفعتها إلى حائط حجرتها ، وما زالت كل يوم تأتي الصورة وتقبلها وتلمس ما تحب منها ، ثم تجلس بين يديها وتبكي ، فإذا أمست قبلتها وانصرفت . فما زالت على تلك الحال شهراً ، فمرض الغلام ومات ، فعملت الجارية مأتماً وعزاء سار ذكره في الآفاق وصارت مثلاً بين الناس . ثم رجعت إلى الصورة وصارت تلمسها وتقبلها إلى أن أمست فماتت إلى جانبها .

فلما أصبحنا ، دخلنا عليها لناخذ من خاطرها ، فوجدناها ميتة ويدها ممدودة إلى الحائط نحو الصورة وقد كتب عليه هذه الأبيات :

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| يا موتُ حسبك نفسي بعد سيّدها | خذاها إليك فقد أودت بما فيها |
| أسلمت وجهي إلى الرحمن مُسلمة | ومتّ موت حبيب كان يعصيهـا |
| لعلها في جنان الخلد يجمعها | بمن تحب غدا في البعث باريها |
| مات الحبيب وماتت بعده كمدا | محبّة لم تزل تشقي محبّيها |

قال الراهب : فشاع الخبر وحملها المسلمون ودفنت إلى جانب قبر الغلام . فلما أصبحنا دخلنا حجرتها فرأينا تحت شعرها مكتوباً :

أصبحت في راحة ممّا جنّته يدي وصرت جارة ربّ واحد صمّد

محا الإله ذنوبي كلَّها وغدا قلبي خلياً من الأحزان والكمدي
لَمَّا قدمتُ إلى الرحمن مسلمةً وقلت إنك لم تُولد ولم تَلِدِ
أثابني رحمةً مِنْه ومغفرةً وأنعماً باقياتِ آخرِ الأبدِ



من كلام أبي القاسم الجنيد

قيل: اجتمع الصوفية إلى أبي القاسم الجنيد، وقالوا: يا أستاذ، أنخرج ونسعى في طلب الرزق؟ قال لهم: إن علمتم أين هو اطلبوه، قالوا: فنسأل الله أن يرزقنا؟ قال: إن علمتم أنه يناسكم فذكروه. قالوا: فنجلس إذا وتوكل، قال: التجربة شك. قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة.



الأئمة الفقهاء على مائدة ابن حنبل

قيل: اجتمع أربعة من الأئمة: الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو ثور ومحمد بن الحكم رضي الله عنهم، عند أحمد بن حنبل يتذاكرون، فصلَّوا صلاة المغرب، وقَدَّموا الشافعي، ثم ما زالوا يصلُّون في المسجد إلى أن صلَّوا العَتَمَةَ ثم دخلوا بيت أحمد بن حنبل. ودخل أحمد على امرأته، ثم خرج على أصحابه وهو يضحك، فقال الشافعي: ممَّ تضحك يا أبا عبد الله؟

قال: خرجت إلى الصلاة ولم يكن في البيت لقمة من الطعام. والآن فقد وسَّع الله علينا.

قال الشافعي: فما سببه؟ قال أحمد: قالت لي أم عبد الله، إنكم لَمَّا خرجتم إلى الصلاة، جاء رجل عليه ثياب بيض، حسن الوجه، عظيم الهيئة، ذكي الرائحة، فقال: يا أحمد بن حنبل، فقلنا: لبيك، فقال: هاكم خذوا هذا، فسَلَّم لنا زَنبِيلاً^(١) أبيض، وعليه منديل طيب الرائحة وطبق مغطى بمنديل آخر، وقال: كلوا من رزق ربكم واشكروا له.

فقال الشافعي: يا أبا عبد الله، فما في الزنبيل والطَّبَق؟ فقال: عشرون رغيفاً قد عجن باللبن واللوز المقشور، أبيض من الثلج، وأذكي من المسك، ما رأى الراؤون مثله، وخروف مشويّ مزعفر حارّ، وملح في سُكَّرَجَةٍ^(٢)، وخل في قارورة على الطبق، وبقل وحلواء متخذة من سكر طبرزد^(٣)، ثم أخرج الكل ووضع بين أيديهم،

(١) الزنبيل: القفة أو الجراب.

(٢) السكرجة: إناء يوضع فيه الخل أو الملح فارسي معرب.

(٣) نوع من السكر، والكلمة فارسية.

فتعجبوا من شأنه وأكلوا ما شاء الله، قال: فلم تذهب حلاوة ذلك الطعام والحلواء مدة طويلة، وكلُّ مَنْ أكل ذلك الطعام، ما احتاج إلى طعام غيره مدة شهر. فلَمَّا أن فرغوا من الأكل حمل أحمد ما بقي منه وأدخله إلى أهله، فأكلوا وشبعوا وبقي منه شيء، فأجمع رأيهم على أن الطعام كان من غيب الله، وأن الرسول كان ملكاً من الملائكة.

قال صالح بن أحمد بن محمد بن حنبل: ما أصابتنا مجاعة قط ما دام ذلك الزَّنبيل في بيتنا، وكان يأتي الرزق من حيث لا نحتسب.
رضي الله عنهم وأعاد علينا من بركاتهم.



حكاية عبد الله بن معمر مع عتبة بن الحباب الأنصاري

قيل: إن عبد الله بن المعمر القيسي كان أميراً من أمراء العرب، وكان بطلاً، شجاعاً جواداً، ذا مروءة وافرة، قال:

حججت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام وصحبت مالا كثيراً، ومتجراً عزيزاً، فلَمَّا قضيت حجتني عدتُ لزيارة قبر النبي ﷺ، فبينما أنا ذات ليلة بين القبر والمنبر في الروضة إذ سمعت أنيناً عالياً، وحساً بادياً، فأنصت إليه فإذا هو يقول:

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| أشجأك نوحُ حمائم السُّدُرِ | فأهجن منك بلا بل الصُّدُرِ |
| أم ذاد نومك ذكرُ غانيةٍ | أهدت إليك وساوسَ الفُكْرِ |
| في ليلةٍ نام الخلي بها | وخلفت بالأحزان والذُكْرِ |
| يا ليلة طالت على دنفٍ | يشكو الغرام وقلّة الصبرِ |
| أسلمت من يهوى لحرّ جوى | متوقِّد كتوقِّدِ الجمرِ |
| فالبدر يشهد أنني كُلفُ | بجمال شيء مشبه البدرِ |

قال: ثم انقطع الصوت، ولم أرَ من أين جاء، فبهت حائراً، وإذا به قد أعاد البكاء والنحيب وهو يقول:

| | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| أشجأك من رِيَا خيال زائرُ | والليل مسوّد الذوائب عاكرُ |
| واعتاد مهجتك الهوى فأبادهَا | واهتاج مقلتك المنام الباكرُ |
| ناديتُ ليلي والظلام كأنه | يَمُّ تلاطم فيه موج زاهرُ |
| والبدر يسري في السماء كأنه | ملك تبدى والنجوم عساكرُ |
| وإذا تعرّضت الشرىا خلّتها | كأساً بها حث السُلالة دائرُ |
| ونرى يد الجوزاء ترقص في الدجى | رقص الحبيب علاه سكر ظاهرُ |
| يا ليل طلت على حبيب ماله | إلا الصبّاح موازر ومُسامِرُ |

فأجابني: مت حتف أنفك واعلمن أن الهوى لهو الهوان الحاضر
قال عبد الله: فنهضت عند ابتدائه بالأبيات أوَم الصوت، فما انتهى إلى
آخرها إلا وأنا عنده، فرأيتُ غلاماً جميلاً قد نزل عذاره، لكن قد علا محاسنه
الأصفرار، والدموع تجري على خذه كالأمطار، فقال: نعمت ظلاماً، من
الرجل؟ قلت: عبد الله بن معمر القيسي، فقال: ألك حاجة. يا فتى؟ قلتُ:
إني كنت جالساً في الروضة فما راعني في هذه الليلة إلا صوتك، فبنفسي
أقيك، وبروحي أفديك، وبمالي أواسيك، ما الذي تجد؟ قال: إن كان ولا بد
فاجلس.

فجلست، فقال: أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري،
غدوتُ إلى مسجد الأحزاب، ولم أزل فيه راکعاً ساجداً، ثم اعتزلت غير بعيد،
فإذا نسوة يتهادين كأنهن القطا، وفي وسطهن جارية بديعة الجمال في نشرها،
بارعة الكمال في عصرها، نورها ساطع يتشعشع، وطبيها عاطر يتضوّع، فوقفت
عليّ وقالت: يا عتبة، ما تقول في وصل من طلب واصلك؟ ثم تركتني وذهبت،
فلم أسمع لها خبراً، ولا قفوت لها أثراً، فأنا حيران انتقل من مكان إلى مكان. ثم
صرخ صرخة عظيمة وأكب على الأرض مغشياً عليه، ثم أفاق بعد ساعة، وكأنما
صبغت ديباجة خذه بوزس، وأنشد يقول:

أراك بقلبي من بلاد بعيدة ترى كم تروني بالقلوب على بُعد
فؤادي وطرفي يأسفان عليكُم وعندكُم روحي وذكركُم عندي
ولست ألدّ العيش حتى أراكُم ولو كنتُ في الفردوس أو جنة الخلد

قال: فقلت: يا أخي، تب إلى ربك، واستقل من ذنبك، وأتقِ هول المطلع،
وسوء المضجع، فقال: هيهات! ما أنا مُبالٍ حتى يكون ما يكون. ولم أزل به إلى
طلوع الصباح، فقلت له: قم بنا إلى مسجد الأحزاب فلعلّ الله أن يكشف عنك ما
بك، قال: أرجو ذلك ببركة طلعتك إن شاء الله. فنزلنا إلى أن وردنا مسجد الأحزاب
فسمعتَه يقول:

يا لرجال ليوم الأربعاء أما ينفك يُحدث لي بعد الشهي طربا
ما إن يزال غزال فيه يظلمني يهوى إلى مسجد الأحزاب منتقبا
يخمنُ الناس أن الأجر همته وما أنا طالباً للأجر مكتسباً
ولو كان ينبغي ثواباً ما أتى ظهراً مضمخاً بفتيت المسك مختضباً

فجلسنا ثُمَّ حتى صليْنَا به الظهر، فإذا النسوة أقبلْنَ وما الجارية بينهنَّ فلمَّا بصرنَّ به قلن: يا عتبة، وما ظَنك ب طالبة وصالك، وكاسفة بالك؟ قال: وما لها؟ قلن: قد أخذها أبوها وارتحل بها إلى السماوة. فسألتهنَّ عن الجارية فقلن: هي: ريتا ابنة الغطريف السلمي.

فرفع الشاب رأسه إليهنَّ، وأنشد يقول:

خليلي ريتا قد أجدَّ بكورُها وسار إلى أرض السماوة عيرُها
خليلي ما تقضي به أم مالك عليّ فما يعدو عليّ أميرُها
خليلي إني قد خشيت من البكا فهل عند غيري مقلّة أستعيرُها؟

فقلت: يا عتبة، طُب قلباً، وقرّ عيناً، فقد وردتُ الحجاز بمال جزيل وطُرف وتحف وقماش ومتاع أريد به أهل السفر، ووالله لأبذلته أمامك وبين يديك وفيك و عليك، حتى أوصلك إلى المنى، وأعطيك الرضا وفوق الرضا. فقم بنا إلى مجلس الأنصار.

فقمنا حتى أشرفنا على ناديتهم، فسلمت فأحسنوا الردَّ، ثم قلت: أيها الملأ الكرام، ما تقولون في عتبة وأبيه؟ قالوا: خيران من سادات العرب. قلت: فإنه قد رمى بفؤاده الجوى وما أريد منكم إلا المعونة.

فركبنا وركب القوم حتى أشرفنا على منازل بني سليم من السماوة، فقلنا: أين منزل الغطريف؟ فخرج بنفسه مبادراً، فاستقبلنا استقبال الكرام، وقال: حُيِّتُم بالإكرام والرحب والإنعام، قلنا: وأنت حيَّيت ثم حيَّيت. أتيناك أضيافاً، قال: نزلتم أفضل مَعقل، ثم نادى: يا معشر العبيد، أنزلوا القوم وسارعوا إلى الإكرام.

ففرشت في الحال الأنطاع والنمارق والزرابي. فنزلنا وأرحنا، ثم دُبِحت الذبائح، ونُحِرت النحائر، وقُدِّمت الموائد: فقلنا: يا سيّد القوم، لسنا بذائقين لك طعاماً أو تقضي حاجتنا، وتَرَدُّنا بمسرتنا. قال: وما حاجتكم أيها السادة؟ قلنا: نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر، الطيّب العنصر، العالي المفخر.

فأطرق وقال: يا إخوتاه، إن التي تخطبونها، أمرُها إلى نفسها، وها أنا داخل إليها أخبرُها. ثم نهض مغضباً، فدخل على ريتا - وكانت كاسمها - فقالت: يا أبتاه، إني أرى الغضب بيناً عليك، فما الخبر؟ قال لها: ورد الأنصار يخطبونك مني، قالت: سادات كرام، وأبطال عظام، استغفر لهم النبي ﷺ؛ فلمن الخطبة منهم؟ قال: لفتى يعرف بعتبة بن الحباب قالت: بالله لقد سمعت عن عتبة هذا؛ أنه يفي بما وعد، ويُدرك إذا قصد، ويأكل ما وجد، ولا يأسف على ما فقد، قال الغطريف: أقسم بالله لا أزوجه به أبداً؛ فقد نُميّ إليّ بعض حديثك معه. فقالت: ما كان ذلك، ولكن إذ أقسمت فإن

الأنصار لا يُردُّون مردّاً قبيحاً، فأحسن لهم الردّ، وادفع بالتي هي أحسن، قال: يا ربّنا، فأتي شيء أقول؟ قالت: أغلِظْ لهم المهر ما استطعت فإنهم يرجعون ولا يجيبون، وقد أبررت قسمك، وبلغت مأربك، وراعت أضيافك. قال: ما أحسن ما قلت.

ثم خرج مبادراً فقال: يا إخوتاه، إن فتاة الحي قد أجابت، ولكن أريد لها مهرأً مثلها، فمن القائم؟ قال عبد الله: فقلت: أنا القائم بما تريد. فقال: أريد ألف مثقال من الذهب الأحمر، قلت: لك ذلك، قال: وخمسة آلاف درهم من صُرْب حَجَر، قلت: لك ذلك، قال: ومائة ثوب من الأبراد والجِبر، قلت: لك ذلك. قال: وعشرين ثوباً من الوشي المطرّز. قلت: ولك ذلك. قال: وأريد خمسة أكرشة من العنبر. قلت: لك ذلك؛ قال: وأريد مائة نافجة^(١) من المسك الأذفر، قلت: لك ذلك. قال: فهل أجبت؟ قلت: أجل ثم أجل.

قال عبد الله: فأنفذت نفرأً من الأنصار أتوا بجميع ما ضمنتها، وذبحوا النعم والغنم، واجتمع الناس لأكل الطعام. فأقمنا هناك نحو أربعين يوماً على هذا الحال، ثم قال الغطريف: يا قوم، خذوا فتاكم وانصرفوا مصاحبين السلامة. ثم حملها في هودج، وجhez معها ثلاثين راحلة عليها التحف والطُرف، ثم ودّعنا ورجع: فسيرنا حتى إذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة، خرجت علينا خيل تريد الغارة، وأحسب أنها من بني سليم، فحمل عليها عتبة بن الحباب، فقتل منها عدّة من رجالها وردّها وانحرف راجعاً وبه طعنة تفور دماً، حتى سقط إلى الأرض، فلم يلبث عتبة أن قضى نحبّه. فقلنا: يا عتبا! فسمعت الجارية، فألقت نفسها عليه وجعلت تقبله وتصيح بحرقة وتقول:

تصَبَّرْتُ لا أني صبرتُ وإنّما أعلَّلُ نفسي أنها بك لاحقّة
ولو أنصفتُ نفسي لكان إلى الردى أمامك من دون البريّة سابقّة
فما واحد بعدي وبعذك منصفٌ خليلاً ولا نفس لنفس مصادقّة

ثم شهقت شهقة واحدة قضت فيها نحبّها. فاخرنا لهما مكاناً وجدنا وواريتاهما فيه. ورجعت إلى ديار قومي وأقمت سبع سنين بعدها، ثم عدت إلى الحجاز، ووردت إلى زيارة قبر النبي ﷺ، فقلت: واللّه لأعودنّ إلى قبر عتبة فأزوره. فأتيت إلى القبر فإذا عليه شجرة نابتة، عليها أوراق حمرة وصفرة وخضر وببيض. فقلت لأرباب الجهة: ما يقال لهذه الشجرة؟ فقالوا: شجرة العروسين.

فأقمت عند القبر يوماً وليلة وانصرفت.

(١) النافجة: وعاء المسك.

نادرة للعز بن عبد السلام

حُكي أن شخصاً جاء إلى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي سلطان العلماء، فقال: رأيتك في المنام تنشد:

وكنْتُ كذبي رجلين رجلٍ صحيحة ورجلٍ رمى فيها الزمان فسلَّتِ
قال: فسكت ثم قال: أعيش ثلاثاً وثمانين سنة، فإن هذا الشعر لكثير عزة، وقد نظرت فلم أجد بيني وبينه نسبة فإنني سُنِّي وهو شيعي، وأنا طويل وهو قصير، وشاعر ولست بشاعر، وأنا سُلمي، وهو خزاعي، وشامي وهو حجازي. فلم يبقَ إلا السن فأعيش مثله.
فكان كذلك.



نادرة للجاحظ مع معلم كتاب

ومن ظريف ما يُحكى، أن الجاحظ قال: عبرت يوماً على معلم كتاب فوجدته في هيئة حسنة، وقماش ملبح. فقام إليّ وأجلسني معه، ففاتحته في القرآن فإذا هو ماهر، ففاتحته في شيء من النحو فوجدته ماهراً، ثم أشعار العرب واللغة فإذا به كامل في جميع ما يراد منه، فقلت: قد وجب عليّ تقطيع دفتر المعلمين، فكنت كل قليل أنفقده وأزوره.

قال: فأتيت بعض الأيام إلى زيارته، فوجدت الكتاب مغلقاً، فسألت جيرانه فقالوا: مات عنده ميت، فقلت أروح أعزيه. فجئت إلى بابه، فطرقتُه فخرجت إليّ جارية وقالت: ما تريد؟ قلت: مولاك، فقالت: مولاي جالس وحده في العزاء، ما يعطي لأحد الطريق، قلت: قولي له: صديقك فلان يطلب يعزيك، فدخلتُ وخرجتُ وقالت: باسم الله. فعبرتُ إليه فإذا هو جالس وحده. فقلت: أعظم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة؛ وهذا سبيل لا بد منه، فعليك بالصبر. ثم قلت: أهذا الذي تُؤفّي ولدك؟ قال: لا، قلت: فوالدك؟ قال: لا، قلت: فأخوك؟ قال: لا، قلت: فمن؟ قال: حبيتي، فقلت في نفسي: هذا أول المناحس، وقلت له: سبحان الله تجد غيرها، وتقع عينك على أحسن منها. فقال: وكأني بك وقد ظننت أنني رأيتها؟ فقلت في نفسي: هذه منحسة ثانية، ثم قلت: وكيف عشقت من لا رأيتَه؟ فقال: اعلم أنني كنتُ جالساً وإذا رجل عابر يغني وهو يقول:

يأُمِّ عمرو جزاك الله مكرمةً رُدِّي عليّ فؤادي أينما كانا
فقلت في نفسي: لولا أن هذه أم عمرو، ما في الدنيا مثلها ما كان الشعراء يتغزلون فيها.

فلما كان بعد يومين عبر عليّ ذلك الرجل وهو يغني ويقول:
إذا ذهب الحمارُ بأمِّ عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمارُ
فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها، وقعدت في العزاء منذ ثلاثة أيام.
قال الجاحظ: فعادت عزيمتي وقويت على كتابة الدفتر لحكاية أم عمرو.



الرشيذ ورجل من بقايا أمراء بني أمية

ومن غريب ما يُحكى، ما حكاه القاضي أبو عليّ الحسن بن عليّ التنوخي في كتاب «الفرج بعد الشدة»: أن منارة صاحب الخلفاء قال: رُفِعَ إلى هارون الرشيد أن رجلاً بدمشق من بقايا بني أمية، عظيم المال، كثير الجاه، مطاع، له في البلدان جماعة، وأولاده ممالك وموالٍ يركبون الخيول، ويحملون السلاح، ويغزون الروم، وأنه سمح جواد، كثير البذل والضيافة، وأنه لا يؤمن من فتق يبعد رتقه. فعظم ذلك على الرشيد.

قال منارة: وكان وقوف الرشيد على هذا وهو بالكوفة في بعض حجّه في سنة ست وثمانين ومائة هـ، وقد عاد من الموسم وباع للأمين والمأمون والمؤمنين أولاده، فدعاني وهو خالٍ وقال: إني دعوتك لأمر يهمني وقد منعني النوم، فانظر كيف تعمل، ثم قصّ عليّ خبر الأمويّ، وقال:

أخرج الساعة، فقد أعددت لك الجائزة والنفقة والآلة، ويضمّ إليك مائة غلام، واسلك البرية، وهذا كتابي إلى أمير دمشق، وهذه قيود، فادخل فابدأ بالرجل، فإن سمع وأطاع فقيده وجثني به، وإن عصى فتوكل به أنت ومن معك، وأنفذ هذا الكتاب إلى نائب الشام ليركب في جيشه، ويقبضوا عليه وجثني به. وقد أجلتك لذهابك ستاً، ولمجيئك ستاً، وهذا محمل تجعله في شقه إذا قيدته، وتقعّد أنت في الشق الآخر، ولا تكِلْ حفظه إلى غيرك حتى تأتيني به اليوم الثالث عشر من خروجك؛ فإذا دخلت داره فتفقدها وجميع ما فيها وأهله وولده وحشمه وغلمانها، وقدّر النعمة والحال والمحل، واحفظ ما يقوله الرجل حرفاً بحرف من ألفاظه، من حين وقوع طرفك عليه إلى أن تأتيني به، وإياك أن يشدّ عنك شيء من أمره، انطلق.

قال منارة: فودّعته وخرجت وركبت الإبل، وسرت أطوي المنازل، أسير الليل والنهار ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين والبول وتنفيس الناس قليلاً. إلى أن وصلت دمشق في أول الليلة السابعة، وأبواب المدينة مغلقة؛ فكرهت الدخول ليلاً، فنمت بظاهر البلد إلى أن فتح الباب، فدخلت على هيتي حتى أتيت دار الرجل وعليه صفّ عظيم، وحاشية كثيرة، فلم أستأذن، ودخلت بغير إذن. فلما رأى القوم ذلك سألوا

بعض غلماني. فقالوا: هذا منارة، رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم، فلما صرت في صحن الدار نزلت ودخلت مجلساً رأيت فيه قوماً جلوساً، فظننت أن الرجل فيهم، فقاموا ورحبوا بي، فقلت: أفيكم فلان؟ قالوا: لا، نحن أولاده وهو في الحمام، فقلت: استعجلوه؛ فمضى بعضهم يستعجله، وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية، فوجدتها قد ماجت بأهلها موجاً شديداً، فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال واستربت به، واشتد قلقي وخوفي من أن يتوازي. إلى أن رأيت شيخاً بزي الحمام يمشي في الصحن وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان، وهم أولاده وغلمانه، فعلمت أنه الرجل. فجاء حتى جلس، فسلم عليّ سلاماً خفياً، وسألني عن أمير المؤمنين واستقامة أمر حضرته، فأخبرته كما وجب؛ وما قضى كلامه حتى جاؤوا بأطباق فاكهة، فقال: تقدّم يا منارة فكلّ معنا. فقلت: ما لي إلى ذلك من حاجة، فلم يعاودني؛ وأقبل يأكل هو ومن عنده، ثم غسل يديه ودعا بالطعام، فجاءوا بمائدة عظيمة لم أرَ مثلها إلا للخليفة، فقال: تقدّم يا منارة ساعدنا على الأكل، لا يزيدني على أن يدعوني باسمي كما يدعوني الخليفة. فامتنعت عليه، فما عاودني، وأكل هو ومن عنده، وكانوا تسعة من أولاده، فتأملت أكله في نفسه فوجدته أكل المملوك، ووجدت جأشه رابطاً، وذلك الاضطراب الذي في داره قد سكن؛ ووجدتهم لا يرفعون من بين يديه شيئاً قد وضع على المائدة إلا نهياً. وقد كان غلمانه أخذوا لما نزلت الدار جمالي وجميع غلماني بالمنع من الدخول، فما أطاقوا ممانعتهم، وبقيت وحدي ليس بين يديّ إلا خمسة أو ستة غلمان وقوف على رأسي.

فقلت في نفسي: هذا جبار عنيد، وإن امتنع عليّ من الشخوص لم أطق إشخاصه بنفسي ولا بمن معي، ولا أطيع حفظه إلى أن يلحقني أمير البلد. فجزعت جزعاً شديداً ورابني منه استخفافه بي في الأكل، ولا يسألني عما جئت به، ويأكل مطمئناً وأنا مفكر في ذلك.

فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا ببخور فتبخّر، وقام إلى الصلاة فصلى الظهر وأكثر من الدعاء والابتهاال، فرأيت صلاته حسنة.

فلما انفتل من المحراب أقبل عليّ وقال: ما أقدمك يا منارة؟ فقلت: أمر لك من أمير المؤمنين، وأخرجت الكتاب ودفعته إليه فقراه. فلما استتمّ قراءته دعا أولاده وحاشيته، فاجتمع منهم خلق كثير، فلم أشك أنه يريد أن يوقع بي.

فلما تكاملوا ابتداءً، فحلف أيماً غليظة فيها الطلاق والعاق والحج، وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم، ولا يجتمع منهم اثنان في مكان واحد، ولا يظهروا إلى أن يظهر لهم أمر يعملون عليه، وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالتوجه إليه،

ولست أقيم بعد نظري فيه لحظة واحدة، فاستوصوا بمن ورائي من الحرّم خيراً، وما بي حاجة من أن يصحّبني غلام. هات أقيادك يا منارة، فدعوت بها: وكانت في سَفَط، وأحضرت حدّاداً، فمدّ ساقيه فقيدته وأمرت غلماني بحمله في المحمل، وركبت في الشق الآخر. وسرت من وقتي ولم ألقَ أمير البلد ولا غيره، فسرت بالرجل ليس معه أحد؛ إلى أن صرنا بظاهر دمشق، فابتدأ يحدثني بانبساط حتى انتهيتُ إلى بستان حسن في العُوطَة فقال لي: ترى هذا؟ قلت: نعم. قال: إنه لي، وقال إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت. ثم انتهى إلى آخر فقال لي مثل ذلك، ثم انتهى إلى مزارع حسان وقرى سنية وقال: هذه لي. فاشتدّ غيظي منه، فقلت له: اعلم أنني شديد التعجب منك، قال: ولمَ تعجب؟ قلت: أليس تعلم أن أمير المؤمنين قد أهّمه أمرُك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلِكَ ومالك وولّدك، وأخرجك عن جميع ما لك فريداً وحيداً مقيداً إلى ما يصير إليه أمرُك، ولم تدّر كيف يكون؟ وأنت فارغ القلب من هذا، تصف ضياعك وبساتينك! هذا وقد رأيتك وقد جئت وأنت لا تعلم فيمَ جئت وأنت ساكن القلب، قليل الفكر. لقد كنت عندي شيخاً فاضلاً.

فقال لي مجيباً: إنا لله وإنا إليه الراجعون. أخطأتُ فِرَاسَتي فيك، ظننتُك رجلاً كامل العقل، وأنك ما حللت من الخلفاء هذا المحلّ إلا بعد أن عرفوك بذلك، فأنا والله رأيت عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقلهم والله المستعان. أما قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتي هذه فأنا على ثقة من الله عزّ وجلّ الذي بيده ناصيتي، ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً إلا بإذن الله ومشيئته، ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه. وبعد، فإذا عرف أمري وعلم سلامتي وصلاحي وبُعد ناحيتي، وأنّ الحسدة والأعداء رموني عنده بما ليس فيّ، وتقوّلوا عليّ الأباطيل الكاذبة، لم يستحلّ دمي، وتحلّل من أذاي وإزعاجي، وردّني مكرّماً، أو أقامني ببابه معظماً. وإن كان سبق في علم الله عزّ وجلّ أنه يبدر إليّ منه بادرة سوء، وقد حضر أجلي، وكان سفك دمي على يده، فلو اجتمعت الإنس والجنّ والملائكة وأهل الأرض وأهل السماء على صرف ذلك عني ما استطاعوه. فلمْ أتعجل الغمّ وأتسلّف الفكر فيما قد فرغ الله منه! وأني حسن الظن بالله عزّ وجلّ الذي خلق ورزق وأحيا وأمات وأحسن وأجمل، وأنّ الصبر والرضا والتفويض والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة أولى، وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا، فإذا قد عرفت مبلغ فهمك، فإني لا أكلمك بكلمة واحدة حتى تفرّق حضرة أمير المؤمنين بيننا إن شاء الله تعالى.

قال: ثم أعرض عني، فما سمعت منه لفظة غير القرآن والتسبيح، أو حاجة أو ما يجري مجراها. حتى شارفنا الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر، والتجّب قد

استقبلتني على فراسخ من الكوفة يتجسسون خبري. فحين رأوني رجعوا عني بالخبر إلى أمير المؤمنين، فانتبهنا إلى الباب في آخر النهار، فحططت ودخلت على الرشيد، فقُبلت الأرض بين يديه ووقفت. فقال: هاتِ يا منارة وإياك أن تغفل عنه لحظة واحدة.

فسقْتُ الحديث من أوله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور والصلاة وما حدثت به نفسي من امتناعه - والغضب يظهر على وجه الرشيد ويتزايد - حتى انتهيت إلى فراغ الأموي من الصلاة والتفاته، ومسألته عن سبب قدومي، ودفعي الكتاب إليه، ومبادرته إلى إحضار ولده وأهله، وحلفه عليهم ألا يتبعه أحد منهم، وصرفه إياهم، ومدّ رجله حتى قيّده. فما زال وجه الرشيد يسفر حتى انتهيت إلى ما خاطبني به عند توبيخي إياه لما ركبنا المحمل. قال: صدق واللّه، ما هذا إلا رجل محسود على النعمة، كذوب عليه، ولعمري قد أزعجناه وأذينا ورؤّعنا أهله. فبادر بنزع قيوده عنه وأتتني به.

قال: فخرجت فنزعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد، فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يجول في وجه الرشيد. فسأله عن حاله ثم قال: بلغنا عنك فضل هيئة وأمور أحببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك. فاذكر حاجتك. فأجاب الأموي جواباً جميلاً وشكر ودعا فقال: ما لي إلا حاجة واحدة. قال: مقضية، ما هي؟ قال: يا أمير المؤمنين تردني إلى بلدي وأهلي وولدي. قال: نحن نفعل ذلك إن شاء الله تعالى، ولكن سل ما تحتاج إليه في مصالح جاهك ومعاشك، فإن مثلك لا يخلو أن يحتاج إلى شيء من هذا، فقال: عمال أمير المؤمنين منصفون وقد استغنيت بعدلهم عن مسألته، فأموري منتظمة، وأحوالي مستقيمة، وكذلك أمور أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين.

فقال الرشيد: انصرف محفوظاً إلى ولدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك. فودّعه، فلما ولّى خارجاً قال الرشيد: يا منارة، احمله من وقتك وسر به راجعاً إلى أهله كما جئت به، حتى إذا أوصلته إلى محله الذي أخذته منه، فدعه وانصرف. ففعلت: واللّه أعلم.



نادرة

وحكي في الكتاب المذكور: قال حدثني أبو الربيع بن داود قال: كان في جوار أبي عمر [القاضي] قديماً رجلاً انتشرت عنه حكاية، وظهر في يده مال جليل بعد فقر طويل، وكنتُ أسمع أن أبا عمر حماه من السلطان، فسألته عن الحكاية فأطرق طويلاً ثم حدثني قال:

ورثتُ مالاَ جزيلاً فأسرعت في إتلافه، وأتلفتهُ حتى أفضيت إلى بيع أبواب داري وسقوفها، ولم يبقَ لي حيلة، وبقيت مدة لا قوت لي إلا من بيع والدتي لما تغزله وتطعمني وتأكل منه؛ فتمنيت الموت. فرأيت ليلة في منامي كأن قائلاً يقول لي: غِنَاكَ بمصر فاخرج إليها؛ فبكرت إلى دار أبي عمر القاضي وتوسلت إليه بالجوار وبالخدمة، وكان أبي قد خدمه أياماً، وسألته أن يزودني كتاباً إلى مصر لأتصرف فيها، ففعل. وخرجت.

فلما حصلتُ بمصر أوصلت الكتب وسألت التصرف، فسَدَّ الله عليَّ باب الرزق حتى لم أظفر بتصرف، ولا لاح لي شغل، ونفدت نفقتي؛ فبقيتُ متفكراً في أن أسأل الناس، فلم أستبح المسألة، ولم يحملني الجوع عليها، وأنا ممتنع، إلى أن مضى من الليل صدر صالح؛ فلقيني الطائف فقبض عليّ، ووجدني غريباً فأنكر حالي، فسألني فقلت: رجلٌ ضعيف، فلم يصدّقني وبطحنني وضربني مقارع، فصحت وقلت: أنا أصدقك. فقال: هات. فقصصت عليه قصّتي من أولها إلى آخرها وحديث المنام. فقال: ما رأيتُ أحق منك، والله لقد رأيت منذ كذا وكذا سنة في النوم كأن رجلاً يقول لي: ببغداد في الشارع الفلاني في المحلة الفلانية - قال فذكر شارعِي ومحلتي - وأصغيت فأتم الشرطي الحديث، فقال: دار يقال لها دار فلان - فذكر داري واسمي - وفيها بستان وفيها سدرَة تحتها ثلاثون ألف دينار، فامضِ وخذها؛ فما فكرت في هذا الحديث ولا التفت إليه؛ وأنت يا أحق، فارقت وطنك، وجئت إلى مصر لسبب منام!

قال: فقويّ قلبي، وأطلقني الطائف، فبت في مسجد، وخرجت من الغد من مصر، وقدمت بغداد، فقلعت السدرَة، وأنرتُ مكانها، فوجدت جراباً فيه ثلاثون ألف دينار.

فأخذتها وأمسكت يدي، ودبرت أمري، وأنا أعيش من تلك الدنانير، ومن فضل ما ابتعته منها من ضيع وعقار إلى الآن.



من أخبار هولاء في بغداد

وحكى أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري في كتابه المسمّى «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» في ترجمة صفى الدين عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر المويسقي قال: ذكر العم حسن الأربلي في تاريخه قال:

جلست مع صفى الدين عبد المؤمن بالمدرسة المستنصرية، وجرى ذكر واقعة بغداد، فأخبرني أن هولاء طلب رؤساء البلد وعُرفاءها، وطلب منهم أن يَقْسِمُوا دروبَ بغداد ومحالها وبيوت ذوي يسارها على أمراء دولته، فقسموها، وجعلوا كل

مَحَلَّة أو محلّتين أو سوقين باسم أمير كبير، فوق الدرب الذي أسكنه في حصّة أمير مقدم على عشرة آلاف فارس اسمه «نانونوبن».

وكان هولاء قد رسم لبعض الأمراء أن يقتل ويأسر وينهب مدة ثلاثة أيام، ولبعضهم يومين، ولبعضهم يوماً واحداً، على حسب طبقتهم. فلما دخل الأمراء إلى بغداد كان أولُ درب جاء إليه الأمير الدرب الذي أنا ساكنه، وقد اجتمع فيه خلق كثير من ذوي اليسار، واجتمع عندي نحو خمسين جارية من أرباب المغاني وذوات الحسن والجمال، فوقف نانونوبن على باب الدرب وهو متّرس بالأخشاب والتراب، وطوّقوا الباب وقالوا: افتحوا لنا وادخلوا في الطاعة ولكم الأمان، وإلا أحرقنا الباب وقتلناكم. ومعه التجارون وخلافهم وأصحابه بالسلاح.

قال صفي الدين عبد المؤمن: فقلت السمع والطاعة، أنا أخرج إليه. ففتحت الباب وخرجت إليه وحدي، وعليّ أثواب وسخة وأنا أنتظر الموت، فقبّلت الأرض بين يديه، فقال الترجمان: قلْ له: أنت كبير هذا الدرب؟ فقلت: نعم، فقال: إن أردتم السلامة من الموت فاحملوا لنا كذا وكذا، وطلب شيئاً كثيراً. فقبّلت الأرض مرة ثانية وقلت: كلّ ما طلبه الأمير يحضر، وصار كل ما في هذا الدرب بحكمك ومن تريد من خواصك، فانزل لأجمع لك كلّ ما طلبت.

فشاور أصحابه، ونزل في نحو ثلاثين رجلاً من خواصه فأتيت به داري، وفرشت له الفرش الخلفية الفاخرة، والسرر المطرّزة بالزركش، وأحضرت له في الحال أطعمة فاخرة وشواء وحلواء وجعلتها بين يديه، فلما فرغ من الأكل عملت له مجلساً ملوكياً، وأحضرت الأواني الذهبية من الزجاج الحلبي وأواني فضة فيها شراب مروق، فلما دارت الأقداح وسكر قليلاً، أحضرت عشر مغنيات كل واحدة تغني بملهاة غير ملهاة الأخرى، فغنين كلّهن. فارتجّ المجلس، وطرب، وانبسطت نفسه، فلما كان وقت العصر، وحضر أصحابه بالنهب والسبايا، قدمت له ولأصحابه الذين كانوا معه تحفاً جلييلة من أواني الذهب والفضة ومن الثّقَد ومن الأقمشة الفاخرة شيئاً كثيراً، سوى العليق، ووهبت له الغواني اللاتي كنّ بين يديه، واعتذرت من التقصير، وقلت: جاء الأمير على غفلة، لكن غداً إن شاء الله تعالى أعمل للأمير دعوة أحسن من هذه.

فركب وقبّلت ركابه ورجعت، فجمعت أهل الدرب من ذوي النعمة واليسار، وقلت لهم: انظروا لأنفسكم، هذا الرجل غداً عندي وكذا بعد غد، وكل يوم أزيد أضعاف اليوم المتقدم، فجمعوا إليّ من بينهم ما يساوي خمسين ألف دينار من أنواع الذهب والأقمشة الفاخرة والسلاح، فما طلعت الشمس إلا وقد وافاني، فرأى ما أذهله؛ وجاء في هذا اليوم ومعه نساؤه، فقَدّمت له ولنسائه من الذخائر والذهب النقد

ما قيمته عشرون ألف دينار، وقدمت له في اليوم الثالث لآلىء نفيسة وجواهر ثمينة، وبغلة جلييلة بآلات خليفية، وقلت: هذه من مراكب الخليفة. وقدمت لجميع من معه وقلت: هذا الدرب صار بحكمك، وإن تصدقت على أهله بأرواحهم فسيكون لك وجه أبيض عند الله وعند الناس، فما بقي عندهم سوى أرواحهم، فقال: قد عرفت ذلك، من أول يوم وهبتهم أرواحهم، وما حدثني نفسي بقتلهم ولا سلبهم، لكن أنت تجهز معي إلى حضرة الأمير، فقد ذكرت لك وقدمت له شيئاً من المستظرفات التي قدّمتها إليّ، فأعجبته، ورسم بحضورك.

فخفت على نفسي وعلى أهل الدرب، وقلت: هذا يخرجني إلى خارج بغداد، ويقتلني وينهب الدرب، فظهر عليّ الخوف وقلت: ياخوند^(١) هولاكو ملك كبير، وأنا رجل حقير، مغنّ، أخشى منه ومن هيئته. فقال: لا تخف، ما يصيبك إلا الخير، فإنه رجل يحب أهل الفضائل. فقلت: في ضمانك أنه لا يصيبني مكروه؟ قال: نعم. فقلت لأهل الدرب: ما عندكم من النفائس فأتوني بكل ما تقدرون عليه. فأخذت معي من الذهب والفضة، وهيات مأكلاً كثيرة طيبة، وشراباً كثيراً عتيقاً فائقاً، وأواني فاخرة كلها من الفضة المنقوشة والذهب، وأخذت معي ثلاث جوارٍ مغنيات من أجل ما كان عندي وأنفسهنّ للضرب، ولبست بدلة من القماش الخلفي، وركبت بغلة جلييلة كنت أركبها إذا رحّلت إلى الخليفة.

فلما رأيته نانونوبن بهذه الحالة، قال لي: أنت وزير؟ قلت: لا، أنا مغني الخليفة ونديمه، ولكني لما خفت منك لبست القماش الوسخ، ولما صرّحت من رعيتك أظهرت نعمتي وأمنت، وهذا الملك هولاكو ملك عظيم، وهو أعظم من الخليفة، فما ينبغي أن أدخل عليه إلا بالحشمة والوقار، فأعجبه مني هذا وخرجت معه إلى مخيم هولاكو، فدخل عليه وأدخلني معه، وقال لهولاكو: هذا الرجل الذي ذكرته لك - وأشار إليّ.

فلما وقعت عين هولاكو عليّ قبّلت الأرض وجلست على ركبتيّ كما هو في عادة التتار. فقال نانونوبن: هذا كان مغني الخليفة وقد فعل معي كذا وكذا وقد أتاك بهدية. فقال: قد قبّلتها؛ فقبّلت الأرض مرة ثانية، ودعوت له، وقدمت له ولخواصه الهدايا التي كانت معي، فكلما قدّمت شيئاً منها يفرّقه، ثم فعل بالمأكول كذلك، ثم قال لي: أنت مغني الخليفة؟ فقلت: نعم، فقال: أي شيء أجود ما تعرف؟ قلت: أحسن أن أغني غناء إذا سمعه الإنسان ينام، فقال: غنّ لي الساعة حتى أنام، فندمت وقلت: إن غنيت له ولم ينم قال: هذا كذاب، وربّما قتلني، ولا بدّ من الخلاص منه

(١) خوند لفظ تركي، معناه السيد أو الأمير.

بحيلة. فقلت: يا خوند، الطرب بأوتار العود لا يطيب إلا بشرب الخمر، ولا بأس بأن يشرب الأمير قدحين أو ثلاثة حتى يقع الطرب في موقعه، فقال: أنا ما لي في الخمر رغبة، لأنه يشغلني عن مصالح ملكي، وقد أعجبني من نبيكم تحريره، ثم شرب ثلاثة أقداح كبار، فلما أحمر وجهه أخذتُ عوداً وغنّيته. وكان معي غنية اسمها ضياء، لم يكن في بغداد أحسن منها صورة ولا أطيّب منها صوتاً، فأصلحت أنغام العود، وضربت ضروباً جالبة للنوم، مع زمرٍ رخم الصوت، وغنّيت، فلم أتم النوبة حتى رأيته قد نعس، فقطعت الغناء بغتة، وقويت ضرب الأوتار، فانتبه، فقَبِلَت الأرض وقلت: نام الملك. فقال: صدقت، نمت، تمنّ عليّ، فقلت: أتمنى على الملك أن يطلق لي على السمكية، قال: وأي شيء هي السمكية؟ قلت: بستان الخليفة. فتبسم وقال لأصحابه: هذا مسكين، مغنّ قصير الهمّة. وقال للترجمان: قلّ له: لِمَ لا تمثّيت قلعة أو مدينة؟ أي شيء هذا البستان! فقَبِلَت الأرض وقلت: يا ملك العالم، هذا البستان يكفيني، وأنا ما يجيء مني صاحب قلعة ولا صاحب مدينة. فرسم لي بالبستان وبجميع ما كان لي من الرتب في أيام الخليفة، وزادني علوفة تشتمل على خبز ولحم وعليق دوابّ تساوي دينارين، وكتب بذلك فرماناً مكمل العلائم، وخرجت من بين يديه، وأخذ لي نانونين أمراً بخمسين فارساً، ومعهم علم أسود. وهو كان علم هولاء الخاص به، برسم حماية داري؛ فجلس الأمير على باب الدرب، ونصب العلم الأسود على أعلى باب الدرب، فبقي الأمر كذلك إلى أن رحل هولاء عن بغداد.

قال الأربلي: فقلت له: كم نابك من المغارم في الثانية؟ قال: أكثر من ستين ألف دينار وذهب أكثرها ممن كان انزوى إلى دربي من ذوي اليسار، والباقي من نعم موفرة كانت عندي من صدقات الخليفة. فسألته عن المرتب والبستان. فقال: البستان أخذه مني أولاد الخليفة وقالوا هذا من إرث أبينا، والعلوفة قطعها عني الصاحب شمس الدين الجويني، وعوّضني عنها وعن البستان في السنة مائة ألف درهم.



المغني الغيور

وقال: كان بمدينة السلام مغنّ يعرف بالغيور، وكان عنده من الجوّاري عدد كثير ذوات حسن، وكان خبره فاشياً، يقصده المتصوّف وغيره؛ فبلغ رجلاً من الكتّاب المشهورين خبره، فتشوّقت نفسه إلى قصده، ثم تجنّبه لما شهر به، فحمل نفسه على أن جعل بينه وبين الرجل حلاً، بأن دعاه وبّره ووصله. وكان قصدُ الناس منزله أثرَ عندهم من دعاء مَنْ يدعونه من جواريه لما يجتمع لهم فيه.

قال الكاتب: فكان يسألني المصير إليه، وأقشعر لشناعة لقبه، إلى أن لقيني بالقرب من منزله، فحلف عليّ ألا أفارقه، فكأنّ ذلك صادف مني موافقة؛ فمضيت معه، فرأيت أحسن منزل وآلة؛ فلما استقرّ بنا الجلوس، قال لغلماني: إذا كان في غد بكَروا فجيئوا بالدواب؛ فاستوحشت وقلت: بلى يقيم بعضهم عندي، ويعود الباقيون ليلاً للانصراف إلى منزلي. فأبى وحلف، فاتّبعْتُ ما أراد. فأحضر أحسن طعام وألطفه، فأكلنا، وأتى بأنواع الأشربة والفواكه والرياحين، وأخذنا في أمرنا، وخرجت وجوه كالشموس، وكنت عند دخولي إلى الدار قد رأيت على بعض الأبواب طبلاً معلقاً، فظننته لبعض الجوّاري، فلم أسأل عنه؛ فلما صرنا على حالنا وأخذ النبيذ منا، أحضر عموداً فجعله بين يديه، فأوحشني جدّاً، وقلت: رجل غيور كما لقّب، وجوار حسان، ونبيذ شديد، ولست آمن أن أعبث بهنّ فيضربني بالعمود، قال: أخبرك يا أخي، إنني رجل غيور كما قد بلغك، ويحضر منزلي قوم معهم سوء أدب، فما هو أن تغني الجارية، حتى أرى الواحد منهم قد لاحظها وضحك في وجهها، وضحكت في وجهه، فأقول: أقوم بهذا العمود، فإنما هي ضربة له وضربة لها فأقتلها وأستريح، إلا أنني على ما ترى، رجل معي تأنّ شديد، فأقول: شرب الرجل فسرّ وضحك، ولعله بعد يعرفها وتعرفه، فضحكت إليه وضحك إليها. قال: فلما ذكر هذا الحديث طابت نفسي، وأصغيت إلى حديثه فقلت: ثم ماذا؟ قال: ثم إن الأمر يزيد حتى أراه قد دنا فسارّها وسارّته، فتقوم عليّ القيامة وأقول: ضحك إليها وضحكت إليه للمعرفة، فما وضع السرّ! ثم أهرأ بالعمود، والثاني الذي في يقول: لعله طالبها بصوت تغنيه، فأمسك، فيطول الأمر حتى أرى الواحدة قد قامت، وقام الرجل في أثرها فيدخلان ذلك البيت، وبابه وثيق جدّاً، فأسعى خلفهما بهذا العمود لأقتلها البتة، فيسبقاني فيغلقان الباب وأبقى أنا خارجه، وأنا غيور كما قد علمت، فأقول: متى علمت حركتهما مت أو قتلت نفسي، فلا يكون واللّه يا أخي لي اعتصام إلا بذلك الطبل المعلق، فأتناوله وأضعه في عنقي، فلا أزال أضرب أبداً حتى يخرجوا.

قال: فما قمت واللّه وأنا ما أرى أوفى منه قولاً وفعلًا.



جميلة الموصلية في حبّها

قال صلاح الدين الصفدي في الجزء الخامس والثلاثين من التذكرة، ومن خطة نقلت:

حبّت جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان أخت أبي ثعلب سنة ست وثمانين وثلاثمائة هـ، فسقت أهل الموسم كلّهم السويق بالطبرزد والثلج،

واستصحبت البقول المزروعة في المراكب وعلى الجمال، وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار. ولم تستصبح عندها أو فيها إلا بشموع العنبر، وأعتقت ثلثمائة عبد ومائتي جارية، وأغنت الفقراء والمجاورين.



عبد الله بن جعفر في موسم الحج

وحجَّ عبد الله بن جعفر ومعه ثلاثون راحلة، وهو يمشي على رجليه حتى وقف بعرفات، فأعتق ثلاثين مملوكاً، وحملهم على ثلاثين راحلة، وأمر لهم بثلاثين ألفاً وقال: أعتقهم لله تعالى لعلَّ الله أن يعتقني من النار.

وكان حكيم بن حزام رضي الله عنه يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة، فيعتق الرقاب عشية عرفة، وينحر البدن يوم النحر. وكان يطوف بالبيت ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نعم الرب، ونعم الإله، أحبه وأخشاه.



دعاء عمرو بن زر في الكعبة

عمرو بن زر الهمداني: لما قضى مناسكه أسند ظهره إلى الكعبة الشريفة ثم قال مودعاً للبيت: ما زلنا نحلّ لك عروة ونشدّ أخرى، ونصعد أكمة ونهبط وادياً، وتخفّضنا أرض وترفعنا أخرى، حتى أتيناك غير محجوبين. فليت شعري بما يكون منصرفنا! أبذنب مغفور، فأعظم بها من نعمة! أم بعمل مردود، فأعظم بها من مصيبة! فيا من إليه خرجنا، وإليه قصدنا، وبحرمه أنخنا، ارحم إملاق الوفد لغناك، فقد أتيناك بعيسنا معزاة جلودها، ذابلة أسنمتها، نقيّة^(١) أخفافها، وإن أعظم الرزية أن نرجع وقد اكفينا الغيبة.

اللهم وإن للزائرين حقاً، فاجعل حقنا غفران ذنوبنا، فإنك جواد ماجد لا ينقصك نائل، ولا يخصبك سائل.



عجائب المخلوقات

ونقلت من خط الشيخ صلاح الدين الصفدي من الجزء الثامن والثلاثين من تذكروته ما صورته:

نقلت من خط شيخنا الشيخ الإمام الحافظ علم الدين البرزالي رحمه الله تعالى ما صورته:

(١) نقبت الأخفاف: رقت.

قرأت في بعض الكتب الواردة من القاهرة المحروسة، أنه لما كان بتاريخ يوم الخميس رابع جمادى الآخرة في سنة اثنتين وسبعمئة هـ، ظهرت دابة عجيبة من بحر النيل إلى أرض المنوفية، صفة لونها لون الجاموس، بلا شعر، وأذنانها كأذان الجمال، وعيناها وفرجها مثل الناقة، يغطي فرجها ذنب طوله شبر ونصف، طرفه كذنب السمكة، ورقبتها مثل غلظ التيس المحشو تبناً، وفمها وشفاهها مثل الكربال. ولها أربعة أنياب: اثنان من فوق واثنان من أسفل، طولهن دون الشبر وعرض إصبعين. وفي فمها ثمانية وأربعون ضرساً وسناً مثل بيادق الشطرنج، وطول يدها من باطنها إلى الأرض شبران ونصف، ومن ركبتها إلى حافرها مثل بعض الثعبان أصفر مجعد، ودور حافرها مثل السكرجة بأربعة أظافر مثل أظافر الجمل، وعرض ظاهرها مقدار ذراعين ونصف، وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدماً. وفي بطنها ثلاث كروش، ولحمها أحمر، وزفرته مثل السمك وطعمه كطعم الجمل. وغلظ جلدها أربعة أصابع ما تعمل فيه السيوف. وحمل جلدها على خمسة جمال في مقدار ساعة من ثقله على جمل بعد جمل، وأحضروه إلى القلعة المعمورة بحضرة السلطان وحشوه تبناً وأقاموه بين يديه.

ونقلت منه أيضاً: كتب إلى زين الدين الرحبي، أنه وجد بالقاهرة بالقرب من المشهد كلبة ميتة ولها جروان يرضعان مقدار عشرين يوماً بعد موتها، ويلعبان حولها، واللبن يخرج من أبزازها من الجانب الأعلى، وأما الجانب الأسفل فإنه ييس، وكان الناس يمزون بها ويتعجبون.

فسبحان من لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير.

وذكر الشيخ في حوادث سنة ست وثلاثين وسبعمئة هـ قال: قال شيخنا علم الدين رحمه الله تعالى: نقلت من خط الصدر بدر الدين الفزاري قال: في السابع من ذي الحجة سنة إحدى وعشرين وسبعمئة هـ، أخبرني شخص أن كلبته ولدت بالقاهرة ثلاثين جرواً، وأنها أحضرت بين يدي السلطان. فلما رآها أعجب من أمرها، وسأل المنجمين عن ذلك، فاعترفوا أنهم ليس لهم علم بذلك.



من أخبار معن بن زائدة

يُحكى أن المهدي خرج يتصيد، فلقِيَ الحسين بن مطير الأسدي فأنشده:
أضحت يميثك من جود مصورة لا بل يميثك منها صورة الجود
من حسن وجهك تُضحّي الأرض مشرقة ومن بنانك يجري الماء في العود

فقال المهدي: كذبت يا فاسق، وهل تركت في شِعرك موضعاً لأحد بعد قولك في معن بن زائدة:

أَلِمَّا بِمَعْنٍ ثُمَّ قَوْلًا لِقَبْرِهِ سَقَتْكَ الْغَوَادِي مَرْبَعاً ثُمَّ مَرْبَعاً^(١)
فِيَا قَبْرٍ مَعْنٍ كُنْتَ أَوَّلَ حَفْرَةٍ مِنْ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْمَكَارِمِ مَضْجَعَا
وَيَا قَبْرٍ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جَوْدَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهَا الْبَرْ وَالْبَحْرُ مَتْرَعَا
وَلَكِنْ حَوَيْتَ الْجُودَ وَالْجُودَ مَيِّتٌ وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضَقَّتْ حَتَّى تَصْدَعَا
وَمَا كَانَ إِلَّا الْجُودَ صُورَةً وَجْهَهُ فَعَاشَ رِبِيعاً ثُمَّ وَلَّى فَوْدَعَا
فَلَمَّا مَضَى مَعْنٌ مَضَى الْجُودُ وَالنَّدَى وَأَصْبَحَ عِرْنَيْنُ الْمَكَارِمِ أَجْدَعَا
فَاطْرُقَ الْحُسَيْنُ وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَلْ مَعْنٌ إِلَّا حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِكَ!
فَرَضِي عَنْهُ وَأَمْرٌ لَهُ بِالْفِي دِينَارٍ.

قال سعيد بن مسلم: لَمَّا وَلَّى المنصور معن بن زائدة أذربيجان، قصده قوم من أهل الكوفة. فلَمَّا صاروا ببابه أَسْتَأْذَنُوا عَلَيْهِ، فَدَخَلَ الْأَذْنَ فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرُ! وَفَدَّ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، قَالَ: مَنْ أَيُّ أَهْلِ الْعِرَاقِ؟ قَالَ: مِنَ الْكُوفَةِ. قَالَ: ائْذَنْ لِهِمْ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ مَعْنٌ فِي هَيْئَةٍ مُزَوِيَةٍ وَوُثِبَ عَلَى أَرِيكَتِهِ وَأَنْشَدَ يَقُولُ:

إِذَا نَوْبَةٌ نَابَتْ صَدِيقَكَ فَاغْتَنَمْ تَرْقُبُهَا فَالذَّهْرُ بِالنَّاسِ قَلْبُ
فَأَحْسَنْ ثَوْبِيكَ الَّذِي هُوَ لَابَسٌ وَأَفْرَهُ مَهْرِيكَ الَّذِي هُوَ رَاكِبُ
وَبَادِرْ بِمَعْرُوفٍ إِذَا كُنْتَ قَادِرًا زَوَالَ اقْتِدَارٍ فَهُوَ عَنْكَ يَعْقِبُ
قَالَ: فَوُثِبَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرُ! أَلَا أَنْشُدُكَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: لِمَنْ؟ قَالَ: لِابْنِ عَمِّكَ هَرْمَةَ، قَالَ: هَاتِ، فَأَنْشَدَ يَقُولُ:

وَلِلنَّفْسِ تَارَاتٌ تَحَلَّى بِهَا الْعُرَى وَتَسْخُو عَنِ الْمَالِ النُّفُوسُ الشَّحَائِحُ
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَنْفَعَكَ حَيًّا فَنَفْعُهُ أَقْلٌ إِذَا ضُمَّتْ عَلَيْكَ الصَّفَائِحُ
لَأَيَّةِ حَالٍ يَمْنَعُ الْمَرْءَ مَالَهُ غَدًا فَعَدَا وَالْمَوْتُ غَادٍ وَرَائِحُ!

فقال معن: أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ، وَإِنْ كَانَ الشَّعْرُ لَغَيْرِكَ، يَا غَلَامَ: أَعْطِهِمْ أَرْبَعَةَ آلَافٍ، يَسْتَعِينُونَ بِهَا عَلَى أُمُورِهِمْ إِلَى أَنْ يَتَهَيَّأَ لَنَا فِيهِمْ مَا نَرِيدُ، فَقَالَ الْغَلَامُ: أَجْعَلُهَا دَنَانِيرَ أَمْ دَرَاهِمَ؟ فَقَالَ مَعْنٌ: وَاللَّهِ لَا تَكُونُ هَمَّتُكَ أَرْفَعُ مِنْ هَمَّتِي.

مدح مطيع بن أياس معن بن زائدة، فقال له معن: إن شئت مدحتك وإن شئت أثبتك، فاستحي من اختيار الثوب وكره اختيار المدح فقال:

ثناء من أمير خير كسب لصاحب مغنم وأخي ثراء
ولكن الزمان يرى عظامي وما مثل الدراهم من دواء!
فأمر له بألف دينار.

ولما قدم معن بن زائدة أتاه الناس، فأتاه ابن أبي حفصة، فإذا المجلس غاص بأهله، فدق بعصاه الباب ثم قال:

وما أحجم الأعداء عنك تقيّة عليك، ولكن لم يروا فيك مطمعا
له راحتان: الجود والحتف فيهما أبى الله إلا أن يضّر وينفعا
فقال معن: تحكّم يا أبا السمط، فقال: عشرة آلاف، فقال معن: ونزيد لك ألفاً.

أتى أعرابي إلى معن بن زائدة ومعه نطع فيه صبي حين ولد، فاستأذن عليه، فلما دخل جعل الصبي بين يديه وقال:

سميت معناً بمعن ثم قلت له هذا سمّي فتى في الناس محمود
أنت الجواد ومنك الجود نعرفه ومثل جودك فينا غير معهود
أمسّت يمينك من جود مصورة لا بل يمينك منها صورة الجود
قال: كم الأبيات؟ قال: ثلاثة، قال: أعطوه ثلثمائة دينار، ولو كنت زدتنا لزدناك، قال: حسبك ما سمعت وحسبي ما أخذت.



قصيدة ابن زريق

أخبرنا الشيخ الجليل، العدل الأصيل، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن غانم بن وافد المهدي: قال أخبرنا المشايخ الثلاثة: الإمام فخر الدين أبو الحسن علي بن عبد الواحد البخاري، وأبو العباس أحمد بن شيبان بن ثعلب الشيباني، وأم حميد زينب بنت مكي بن علي بن كامل الحراني، قال أخبرنا أبو حفص عمر بن عمر بن محمد بن أبي نصر الحميدي، قال: أنشدني أبو غالب محمد بن سهل النحوي الواسطي المعروف بابن بشران بواسط قال: أنشدني الأمير أبو الهيجاء محمد بن عمران بن شاهين قال: أنشدني علي بن زريق الكاتب البغدادي لنفسه هذه القصيدة إلى آخرها، وقد أنشدنيها جماعة بالمغرب. وقال لي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد وغيره: يقال من تختم

بالعقيق وقرأ لأبي عمرو، وحفظ قصيدة ابن زريق، فقد استكمل الظرف، وهي:

لا تَعْذِلِيهِ فَإِنَّ الْعَذْلَ يَوْجَعُهُ قد قَلَّتْ حَقًّا وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ
جَاوَزْتَ فِي لَوْمَةٍ حَدًّا أَضَرَّ بِهِ مِنْ حَيْثُ قَدَّرْتَ أَنْ اللَّوْمُ يَنْفَعُهُ
فَاسْتَعْمَلِي الرِّفْقَ فِي تَأْنِيهِهِ بَدَلًا مِنْ عُنْفِهِ فَهُوَ مُضَيِّقُ الْقَلْبِ مُوجَعُهُ
قَدْ كَانَ مُضْطَلَعًا بِالْبَيْنِ يَحْمِلُهُ فَضْلَعْتُ بِخَطُوبِ الْبَيْنِ أَضْلَعُهُ
يَكْفِيهِ مِنْ لَوْعَةِ التَّفْنِيدِ أَنَّ لَهُ مِنَ النَّوَى كُلِّ يَوْمٍ مَا يُرْوَعُهُ
مَا أَبَ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا وَأَزْعَجَهُ رَأَيْتُ إِلَى سَفَرٍ بِالرَّغْمِ يَتَّبَعُهُ
كَأَنَّمَا هُوَ فِي حَلٍّ وَمَرْتَحِلٍ مُوَكَّلٌ بِفَضَاءِ الْأَرْضِ يَذْرَعُهُ
إِذَا الزَّمَاعُ أَرَادَ فِي الرَّحِيلِ غَنًى وَلَوْ إِلَى السُّنْدِ أَضْحَى وَهُوَ يَزْمَعُهُ
تَأْبَى الْمَطَامِعُ إِلَّا أَنْ تَجَشَّمَهُ لِلرِّزْقِ كَدًّا، وَكَمْ مِمَّنْ يَوَدُّعُهُ
وَمَا مَجَاهِدَةُ الْإِنْسَانِ وَاصِلَةٌ رَزَقًا وَلَا دَعَا الْإِنْسَانَ تَقْطَعُهُ
وَاللَّهُ قَسَمَ بَيْنَ النَّاسِ رِزْقَهُمْ لَمْ يَخْلُقِ اللَّهَ مَخْلُوقًا يُضَيِّعُهُ
لَكِنَّهُمْ مَلَأُوا حِرْصًا فَلَسْتُ تَرَى مُسْتَرْزِقًا وَسِوَى الْغَايَاتِ تَقْنِعُهُ
وَالْحِرْصُ فِي الْمَرْءِ - وَالْأَرْزَاقُ قَدْ قَسِمَتْ بَغْيِي، أَلَا إِنَّ بَغْيِي الْمَرْءَ يَصْرَعُهُ
وَالدَّهْرُ يُعْطِي الْفَتَى مَا لَيْسَ يَطْلُبُهُ حَقًّا وَيَطْمِعُهُ مِنْ حَيْثُ يَمْنَعُهُ
اسْتَوْدَعَ اللَّهَ فِي بَغْدَادٍ لِي قَمْرًا بِالْكَرْخِ مِنْ فَلَكِ الْأَزْوَارِ مَطْلَعُهُ
وَدَّعْتَهُ وَبَوْدِي لَوْ يَوَدُّعُنِي طَيْبُ الْحَيَاةِ وَأَنْي لَا أُوَدِّعُهُ
كَمْ قَدْ تَشَفَّعَ بِي إِلَّا أَفَارَقُهُ وَلِلضَّرُورَاتِ حَالٌ لَا تُشَفِّعُهُ
وَكَمْ تَشَبَّثَ يَوْمَ بِي الرَّحِيلِ ضَحَى وَأُدْمَعِي مُسْتَهْلَاتٍ وَأُدْمَعُهُ
لَا أَكْذِبُ اللَّهَ ثَوْبَ الْعَذْرِ مَنْخَرَقٍ عَنِّي بِفَرْقَتِهِ لَكِنِّي أَرْقَعُهُ
إِنِّي أَوْسَعُ عَذْرِي فِي جَنَائِتِهِ بِالْبَيْنِ عَنْهُ، وَقَلْبِي لَا يُوسِّعُهُ
أَعْطَيْتُ مُلْكًَا فَلَمْ أَحْسَنْ سِيَاسَتَهُ كَذَاكَ مِنْ لَايَسُوسِ الْمَلِكِ يُخْلَعُهُ
وَمَنْ غَدَا لَا بِسَاءِ ثَوْبِ النِّعِيمِ بَلَا شُكْرٍ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْزَعُهُ
إِعْتَفْتُ مِنْ وَجْهِ خَلِّي بَعْدَ فَرْقَتِهِ كَأَسَاءَ أَجْرَعُ مِنْهَا مَا أَجْرَعُهُ
كَمْ قَائِلٌ لِي ذَنْبُ الْبَيْنِ قَلَّتْ لَهُ الذُّنْبُ وَاللَّهُ ذَنْبِي لَسْتُ أَدْفَعُهُ
أَلَا أَقَمْتُ فَكَانَ الرَّشْدُ أَجْمَعُهُ لَوْ أُنْشِئُ يَوْمَ بَانَ الرَّشْدُ أَتَّبَعُهُ
إِنِّي لَأَقْطَعُ أَيَّامِي وَأَنْفُدُهَا بِحَسْرَةٍ مِنْهُ فِي قَلْبِي تَقْطَعُهُ

بَمَنْ إِذَا هَجَعَ النُّوَامُ بَتَّ لَهُ
 لَا يَطْمئنُّ لَجَنِبِي مَضْجَعُ وَكَذَا
 مَا كُنْتُ أَحْسِبُ رِيبَ الدَّهْرِ يَفْجَعُنِي
 حَتَّى جَرَى الْبَيْنُ فِيمَا بَيْنَنَا بِيَدٍ
 وَلَوْ كُنْتُ مِنْ رِيبٍ دَهْرِي جَازِعاً فِرْقاً
 بِاللَّهِ يَا مَنْزِلَ الْأَنْسِ الَّذِي دَرَسَتْ
 هَلْ الزَّمَانُ مَعِيدٌ فَيْكَ لَذَنَّا
 فِي ذِمَّةِ اللَّهِ مِنْ أَصْبَحَتْ مَنْزِلُهُ
 مِنْ عِنْدِهِ لِيْ عَهْدٌ لَا يَضِيعُ كَمَا
 وَمَنْ يَصْدَعُ قَلْبِي ذِكْرُهُ وَإِذَا
 لِأَصْبَرْنَ لِدَهْرِ لَا يَمْتَنِعُنِي
 عِلْماً بِأَنْ أَصْطَبَارِي مَعْقِبَ فِرْجاً
 عَسَى اللَّيَالِي الَّتِي أَضْنَتْ بِفِرْقَتِنَا
 وَإِنْ تَنَلَّ أَحَدًا مِنَّْا مَنِيَّتُهُ

بلوعة منه ليلى لست أهجعه
 لا يطمئن له مذيئت مضجعه
 به ولا أن بي الأيام تفجعه
 عسراء تمنعني حظي وتمنعه
 فلم أوق الذي قد كنت أجزعه
 آثاره وعفت مذيئت أربعه
 أم الليالي التي أمضت ترجعه
 وجاد غيث على مغناك يمرعه
 عندي له عهد ولا أضيعه
 جرى على قلبه ذكرى يصدعه
 به ولا بي في حال يمتعه
 فأضيقت الأمر أن فكرت أوسع
 جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه
 فما الذي بقضاء الله يمنعه!



إمام يصلي العشاء ركعتين

يُحْكِي أَنَّهُ وَقَعَ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ خَامِسَ عَشَرَ الْمَحْرَمِ سَنَةِ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَثَمَانِمِائَةَ هـ، أَنَّ حَضْرَتَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ بِالْجَامِعِ النُّورِيِّ بِحِمَاةَ، فَتَقَدَّمَ إِمَامُهُ لِلصَّلَاةِ بَعْدَ الْإِقَامَةِ، وَكَبَّرَ تَكْبِيرَةَ الْإِفْتِتَاحِ وَالْفَاتِحَةِ، ثُمَّ قَرَأَ أَلَمَ السَّجْدَةِ. وَلَمَّا أَتَى عَلَى آيَةِ السَّجْدَةِ سَجَدَ، ثُمَّ أَتَمَّهَا إِلَى آخِرِهَا، وَرَكَعَ وَسَجَدَ السَّجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ وَقَرَأَ الْفَاتِحَةَ، ثُمَّ قَرَأَ سُورَةَ النَّحْلِ وَبَنِي إِسْرَآئِيلَ وَالْكَهْفَ وَمَرْيَمَ وَجَانِباً مِنْ طَه، فَأَرْتَجَ عَلَيْهِ، فَرَكَعَ ثُمَّ اعْتَدَلَ وَاقْفَاً، ثُمَّ سَجَدَ السَّجْدَتَيْنِ وَتَشَهَّدَ عَلَى رَأْسِ الرُّكْعَتَيْنِ.



انتقام من حاسد

حكى الدينوري في «المجالسة»، في ترجمة أبي عبد الله سعيد بن يزيد البناجي قال: سمعت أبي يقول: قال خالي أحمد بن محمد بن يوسف: سمعت محمد بن يوسف يقول:

كان أبو عبد البناجي مجاب الدعوة، وله آيات وكرامات، بينما هو في أسفاره،

إِمَّا حَاجًّا وَإِمَّا غَازِيًّا عَلَى نَاقَةٍ، وَكَانَ فِي الطَّرِيقِ رَجُلٌ عَائِنٌ، قَلَمًا يَنْظُرُ إِلَى شَيْءٍ إِلَّا أَتْلَفَهُ وَأَسْقَطَهُ. وَكَانَتْ نَاقَةُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ نَاقَةً فَارِهَةً، فَقِيلَ لَهُ: اخْفَظْهَا مِنَ الْعَائِنِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: لَيْسَ لَهُ إِلَى نَاقَتِي سَبِيلٌ، فَأَخْبَرَ الْعَائِنُ بِقَوْلِهِ، فَتَخَيَّرَ غَيْبَةَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَجَاءَ إِلَى رَحْلِهِ وَعَانَ نَاقَتَهُ، فَاضْطَرَبَتْ وَسَقَطَتْ تَضْطَرِبُ، فَأَتَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فَقِيلَ لَهُ: قَدْ عَانَ نَاقَتَكَ، وَهِيَ تَرَاهَا تَضْطَرِبُ، قَالَ: دَلُّونِي عَلَى الْعَائِنِ؛ فَذَلَّلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، حَبَسَ حَابِسٌ، وَحَجَرَ يَابِسٌ، وَشَهَابَ قَابَسٌ، رَدَدَتْ عَيْنُ الْعَائِنِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، فِي كَلْبَتَيْهِ رَشِيقٌ، وَفِي مَالِهِ يَلِيقٌ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فَطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِتًا وَهُوَ حَسِيرٌ. فَخَرَجَتْ حَدَقَةُ الْعَائِنِ، وَقَامَتِ النَّاقَةُ لَا بَأْسَ بِهَا.



ترتيب أسماء الولايم

وله في أسماء الولايم

وَلَيْمَةٌ أَعْرَاسٌ وَخَرْسٌ وَلِدَادَةٌ عَقِيْقَةٌ مُوْلُودٌ نَقِيْعَةٌ قَادِمٌ
وَضِيْمَةٌ حُزْنٌ وَالْبِنَاءُ وَكِيْرَةٌ عَزِيْرَةٌ خَثْنٌ مَأْدُبَاتُ الْمَكَارِمِ



أسماء أيام العجوز على الترتيب

بِصْنٌ وَصِنٌّ وَوَبْرٌ مَعْلَلٌ بِمُطْفِئٍ جَمْرٍ أَمْرٍ نَعَمٍ مُؤْتَمِرٌ
تَوَلَّتْ عَجُوزٌ ثُمَّ أَعْقَبَ بَعْدَهَا شَبَابٌ رَبِيعٌ زَهْرُهُ يَانِعٌ نَضِرٌ



ترتيب أسماء خيل الحلبة

ولغيره من أسماء خيل الحلبة:

سَبَقَ الْمَجَلِّيُّ وَالْمَصْلِيُّ وَالْمَسْلِيُّ بَعْدَ تَالِيهِ تَرَى الْمُزْتَاحَا
وَبِعَاطِفٍ وَبِفَسْكِلٍ خَطِيْهِ حَلَبُ اللَّطِيْمِ عَلَى السُّكْنِيتِ صَبَاحَا



لأبي العلاء المعري

سَأَلَنْ فَقُلْتُ مَقْصِدُنَا سَعِيدٌ فَكَانَ اسْمُ الْأَمِيرِ لَهُنَّ قَالَا^(١)
إِذَا مَا الْغَيْمُ لَمْ يَمْطُرْ بِلَادًا فَإِنْ لَهُ عَلَى يَدِكَ أَتْكَالَا

ولو أن الرِّيحَ تهبُّ غرباً وقلت لها هَلَا هبَّتْ شمالاً
وأقسم لو غَضِبْتَ على بُيُورٍ لأزعم عن محلّته ازْتِحَالاً



نبذة لغوية يفتقر كل متأذب إليها

البَلَج: هو أن ينقطع الحاجبان فلا يكون بينهما تضام الشعر، وكانت العرب تمدح البَلَج، ويقال: رجل أبلج وامرأة بلجاء.

ثم العين، فجملة العين المقلة، وهي الشحمة التي تجمع البياض والحدقة. والناظر، وهو موضع البصر وفيه الإنسان، والإنسان ليس يخلق له حجم، والحجم ما وجدت مسّه.

والعين كالمرأة إذا استقبلتها بشيء رأيت شخصه فيها، وفيها الناظران، وهما عِرْقَان على حرف الأنف يسيلان من المؤمنين إلى الوجه.

وفيها الأجفان، وهي غطاء المقلة من أعلى وأسفل.

وفيها الأشفار، وهي حروف الأجفان التي تلتقي عند الغمض، الواحد شُفْر.

والشُفْر الذي يَنْبِت فيه الهُذْب، الواحد هَذْبَة، فإذا طالت الأهداب قيل: رجل أهدب وامرأة هدباء، ورجل أوطف وامرأة وطفاء. وكذلك أذن هدباء إذا كانت كثيرة الشعر ووطفاء، والكلّ دليل على الطول.

والمحجّر ما خرج من النقاب من الرجل والمرأة من الجفن الأسفل.

وفي العين الحماليق والواحد حِمْلَاق، والحماليق النواحي.

وفيها اللحاظ، وهي مؤخرها الذي يلي الصُدْغ.

والمُوق طرفها الذي يلي الأنف وهو مخرج الدمع.

وفي العين الحَوَص وهو ضيق في مؤخرها، يقال: رجل أخوص وامرأة حوصاء.

وفيها التَّجَل؛ وهو سعة العين وعظم المقلة وكثرة البياض.

وفيها الخَنَس، وهو ضعف في النظر.

وفيها الكَحَل، وهو سواد العين بين الحمرة والسواد.

والشَّهْل أن يشوب سوادها زرقة، يقال: رجل أشهل وامرأة شهلاء ويقال: نظر إليّ شَزْراً وذلك إذا نظر عن يمينه أو عن شماله ولم يستقبله بنظره وفي النظر الإغضاء، وهو أن يطبق جفنه على حدقته فيقال: رأيتُه مُغْضِياً.

ثم الفم: وفي الفم الثنايا والزبائعات والضواحك والأزحاء والنواجذ. فالضواحك أربعة أضراس تلي الأنياب إلى جنب كل ناب من أسفل الفم وأعلاه ضاحك.

وأما الأرحاء فهي ثمانية أضراس من أسفل الفم وأعلاه.

وفي الأسنان الظلم، ساكن، وهو ماء الأسنان.

وفي الأسنان الشنب وهو يزدد وعذوبة في المذاق.

والفلج: تباعد ما بين الأسنان.

ثم اللثة، وهو اللحم ينبت فيه الأسنان؛ وفي اللثة اللّمي وهو سمرة تضرب إلى سواد، وكذلك الحوة.

واللهة اللحمية الحمراء المعلقة على الحنك.



كتابة المصحف على خوصة

نقلت من الجزء الثالث والعشرين من التذكرة للصفدي أن شهاب الدين أحمد الحموي النقاش ورد إلى القاهرة سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة هـ. وكتب الختمة الشريفة على خوصة من أولها إلى آخرها، مفضلة الأجزاء والسور، أخبرني بذلك الموالي السادة الموقعون بالباب الشريف، وقدمها لمولانا السلطان الملك الصالح، وسألته عن مولده فقال: في سنة تسع وتسعين وستمائة هـ. وله نظم رائع.



من مآثور حكم الإمام

عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: عشر تورث النسيان: كثرة الهم، والحجامة في النقرة، والبول في الماء الراكد، وأكل التفاح الحامض، وأكل الكسفرة، وأكل سور الفأرة، وقراءة ألواح القبور، والنظر إلى المصلوب، والمشي بين العطارين، وإلقاء القملة حية. والله أعلم. هذا آخر التذييل.

فهرس المصادر

- الأذكفاء لابن الجوزي ١٢٧ ، ١١٤
- الأعيان والأماثل للصابي ٧٥
- الإعلام للقرطبي ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩١ ، ١٩٠
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٢٠٩ ، ٩٣ ، ٥٢
- تاريخ أبي الفدا ٢١٩ ، ٩٠
- تاريخ الواقدي ١٧٨
- تذكرة ابن حمدون ٨٠
- تذكرة الصفدي ٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٩٧
- توشيح البيان للحريري ٣٦
- حظيرة الأنس إلى حضرة القدس ٢٣٧
- كتاب الحمقى والمغفلين لابن الجوزي ١٢٧
- الخريدة للعماد الأصفهاني ٢٢٧ ، ٩٩ ، ٩٦
- الدر المصون في سر الهوى المكنون للحصري ٧٦
- درة الغواص للحريري ٦٨ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٤ ، ١٣
- الروض الأنف للسهيلى ١٩٥
- روض الجليس ونزهة الأنيس ٣٣
- الريحان والريحان لأبي القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة الأشيلي ٢٧
- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ٨٦ ، ٨٣
- سلوك السنن إلى وصف السكن لابن أبي حجلة ٢٨٠
- سلوان المطاع لابن ظفر ١٤٣ ، ١٣٩
- شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ١٥٧
- العقد لابن عبدربه ٢٠٢ ، ١١١ ، ١٠٨
- العمدة لابن رشيق ٣١

- الفرج بعد الشدة ٢٩٩
- مثالب أهل البصرة لأبي عبيدة ٩٣
- المجالسة لأبي عبد الله سعيد بن يزيد ٣١٣
- المجتنى لابن أبي حجلة ١٨
- مرآة الزمان: لابن الجوزي ٢٨١
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ٣٠٣
- المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي ٢٣١، ٢٠٥، ٢٠٠، ١٦٩، ١٦٦، ١٦٠
- الوشي المرقوم في حل المنظوم ٩٩
- مصارع العشاق لأبي جعفر السراج ٢١١، ٧٦
- وفيات الأعيان لابن خلكان ٩٥، ٨٢، ٨٠، ٦٦، ٦٥، ٥٤، ٥٣

مراجع التصحيح

- أخبار القضاة: لوكيع
الأذكياء: لابن الجوزي
الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني
أمالى المرتضى: عيسى الحلبي ١٩٥٠ م
إنباء الرواة على أنباء النحاة: للقفطي
تزيين الأسواق
التمثيل والمحاضرة: للثعالبي
تهذيب التهذيب: لابن حجر
حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة: للسيوطي
كتاب الحمقى والمغفلين: لابن الجوزي
خريدة القصر وجريدة العصر: قسم مصر
خزانة الأدب: للبغدادي
ابن خلكان
درة الغواص في أوهام الخواص: للحريري
ديوان الأخطل
ديوان امرئ القيس
ديوان البحري
ديوان أبي تمام
ديوان جرير
ديوان الحماسة: بشرح المرزوقي
ديوان الخنساء
ديوان السموأل
ديوان عمر بن أبي ربيعة
ديوان ابن عنين
ديوان علي بن الجهم
- مطبعة الاستقامة، ١٩٤٧ م
المطبعة الميمنية ١٣٠٦ هـ
طبع الساسي وبيروت ودار الكتب
طبع دار الكتب
المطبعة الميمنية ١٣٠٥ هـ
عيسى الحلبي ١٩٦٧ م
حيدر آباد ١٣٢٥ هـ
عيسى الحلبي ١٩٦٥ م
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ م
بولاق ١٢٩٩ هـ
المطبعة الميمنية
بيروت ١٨٩١ م
دار المعارف ١٩٥٨ م
مطبعة هندية بمصر ١٩١١ م
بيروت ١٣٢٣ هـ
نشرة الصاوي ١٣٦٣ هـ
لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦١ م
مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٥٥ م
مطبعة السعادة ١٩٦٩ م
دمشق ١٣٦٥ هـ
دمشق ١٩٤٩ م

- ديوان الفرزدق
 ديوان لبید
 ديوان المتنبي : بشرح العكبري
 ديوان مجنون ليلى
 ديوان مسلم بن الوليد
 ديوان النابغة الذبياني
 ديوان أبي نواس
 شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون
 سقط الزند
 سلوان المطاع : لابن ظفر
 السلوك : للمقريري
 شرح قصيدة ابن عبدون : لابن بدرون
 الشعر والشعراء : لابن قتيبة
 صبح الأعشى : للقلقشندي
 العقد : لابن عبد ربه
 عيون الأخبار : لابن قتيبة
 الفرج بعد الشدة : للتونخي
 فوات الوفيات : لابن شاعر الكتبي
 كشف الظنون : لحاجي خليفة
 لسان العرب : لابن منظور
 مختارات البارودي
 المستجاد من فعلات الأجواد : للتونخي
 مصارع العشاق : لأبي جعفر السراج
 المعارف : لابن قتيبة
 معجم الأدباء : لياقوت
 مفرج الكروب : لابن واصل
 النجوم الزاهرة : لابن تغري بردي
 الورقة : لأبي عبد الله بن الجراح
 يتيمة الدهر في شعراء العصر : للثعالبي
- الصاوي ١٣٥٤ هـ
 الكويت ١٩٦٢ م
 مصطفى الحلبي ١٩٣٦ م
 دار مصر للطباعة
 طبع دار المعارف بمصر
 ضمن مجموعة خمسة دواوين - المطبعة الرهية ١٢٩٣ هـ
 العمومية سنة ١٨٩٨ م
 نشرة دار الفكر العربي ١٩٦٤ م
 طبع دار الكتب
 تونس ١٢٧٩ هـ
 لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩ م
 مطبعة السعادة سنة ١٣٤٠ هـ
 عيسى الحلبي ١٣٦٤ هـ
 دار الكتب المصرية
 لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٣٧٠ هـ
 طبع دار الكتب
 نشرة مكتبة النهضة المصرية
 الآستانة ١٩٤١ م
 بولاق ١٣٠٠ هـ
 مطبعة الجريدة ١٣٢٧ هـ
 دمشق ١٣٦٥ هـ
 مطبعة الجوائب ١٣٠١ هـ
 طبع دار الكتب
 مطبعة عيسى الحلبي ١٣٥٥ هـ
 مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ م
 طبع دار الكتب
 دار المعارف ١٩٥٣ م
 نشرة الصاوي ١٣٥٤ هـ

فهرس المحتويات

| | |
|----|--|
| ٥ | تصدير |
| ٦ | من الكتب المخطوطة |
| ٩ | ثمرات الأوراق |
| ١٣ | أبو عثمان المازني والرواق |
| ١٤ | دواء الخمار |
| ١٥ | إسماع عبيد الله بن الحسن القاضي |
| ١٦ | وفود عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك |
| ١٧ | هذبة بن خالد على مائدة المأمون |
| ١٧ | واو عمرو |
| ١٨ | لطائف |
| ٢٢ | ترجمة المعتزلة |
| ٢٣ | جاريتا جعفر البرمكي |
| ٢٤ | في مجلس أمير |
| ٢٤ | حرفة الأدب |
| ٢٧ | من طرائف التصحيف |
| ٢٧ | عمارة اليمني |
| ٢٩ | نكتة أدبية |
| ٣١ | مجد الدين بن دقيق العيد وأحد تلاميذه |
| ٣٤ | لطائف |
| ٤٣ | بديهة أبي العلاء |
| ٤٤ | نادرة |
| ٤٥ | نادرة لطيفة |
| ٤٥ | نادرة لطيفة |

| | |
|----|--------------------------------------|
| ٤٦ | نادرة لطيفة |
| ٤٦ | أبو حنيفة في عيادة مريض |
| ٤٦ | ومن غرائب المنقول |
| ٤٧ | نادرة لطيفة |
| ٤٨ | عيادة شهاب الدين بن محمود لابن خلكان |
| ٤٩ | نكتة لطيفة |
| ٤٩ | ابن المطرزي والشريف الرضي |
| ٤٩ | الأجوبة الهاشمية |
| ٥١ | ومن غريب النقل |
| ٥٢ | نكتة لطيفة |
| ٥٢ | ومن غريب المنقول |
| ٥٣ | طرائف عن ابن خلكان |
| ٥٥ | نادرة لطيفة |
| ٥٦ | ابن الدقاق البلسي |
| ٥٧ | أحمد بن عمر بن سريج ورفيقاه |
| ٥٧ | أبو العباس سريج والأعجمي |
| ٥٧ | ومن لطائف المنقول |
| ٥٩ | الزعفراني والصاحب بن عباد |
| ٦٠ | بيوت الشعر |
| ٦٠ | خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء |
| ٦٣ | ومن لطائف الطُرف |
| ٦٥ | ومن لطائف المنقول |
| ٦٦ | نادرة لطيفة |
| ٦٧ | أبو عليّ الفارسي |
| ٦٧ | ومن لطائف المنقول |
| ٦٨ | حمّاد الراوية |
| ٧٠ | خالد الكاتب |
| ٧٢ | نادرة لطيفة |
| ٧٢ | واعظ هشام بن عبد الملك |

| | |
|-----|---|
| ٧٣ | نادرة لطيفة |
| ٧٤ | نادرة بديعة غربية منقولة عن سديد الملك أبي الحسن علي بن منقذ صاحب قلعة شيزر |
| ٧٥ | نبل ابن الفرات |
| ٧٦ | مصارع العشاق |
| ٧٨ | بديع الجناس |
| ٧٨ | نادرة لطيفة |
| ٨٠ | ومن النوارد اللطيفة |
| ٨١ | ومن المنقول من خط القاضي الفاضل |
| ٨٢ | ومن غريب الطُرف |
| ٨٣ | حاتم الطائي |
| ٨٤ | أجواد العرب في الإسلام |
| ٨٥ | نادرة غربية |
| ٨٦ | أوتار العود |
| ٨٧ | فائدة غربية |
| ٨٧ | نادرة لطيفة |
| ٨٧ | نادرة لطيفة |
| ٨٨ | نادرة لطيفة |
| ٨٨ | نادرة أدبية بديعة |
| ٨٩ | ملوك حماة |
| ٩١ | أبو دلف العجلي |
| ٩٣ | التضر بن شميل |
| ٩٥ | خير المدائح |
| ٩٦ | ترسل القاضي الفاضل |
| ٩٧ | ومن غريب المنقول |
| ٩٩ | موفق الدين بن الخلال |
| ١٠٠ | نادرة |
| ١٠٠ | نادرة لطيفة |
| ١٠١ | استنجاز المواعيد |
| ١٠٢ | لطيف الاستمتاع |

| | |
|-----|---|
| ١٠٢ | نادرة لطيفة |
| ١٠٣ | أجواد العرب في الجاهلية |
| ١٠٤ | أجواد العرب في الإسلام |
| ١٠٨ | وفود أروى بنت الحارث على معاوية |
| ١٠٩ | عقيل بن أبي طالب ومعاوية |
| ١٠٩ | بنو هاشم ومعاوية |
| ١٠٩ | عبد الله بن الزبير وابن عباس |
| ١١٠ | عبد الله بن الزبير وزوجه |
| ١١١ | معاوية والأحنف بن قيس وعقيل بن أبي طالب |
| ١١٢ | ومن غريب المنقول |
| ١١٤ | نوادير الأذكاء |
| ١٢٦ | ذكاء الحيوان |
| ١٢٧ | نوادير الحمقى |
| ١٣٩ | سمير الوليد بن يزيد |
| ١٤٣ | خبر سابور بن هرمز وقيصر |
| ١٥٣ | قصة أرينب بنت إسحاق |
| ١٥٧ | عفاف ومُروءة |
| ١٦٠ | إبراهيم بن المهدي والمأمون |
| ١٦٥ | أكرم رجل بعد أمير المؤمنين |
| ١٦٦ | خزيمة بن بشر وعكرمة الفياض |
| ١٦٩ | مزنة بنت مروان والخيزران |
| ١٧١ | حديث في التطقل |
| ١٧٣ | مشيئة ابن معمر |
| ١٧٤ | الحجاج وإبراهيم بن طلحة |
| ١٧٦ | الإسكندر وملك الصين |
| ١٧٧ | زيد الخيل |
| ١٧٨ | يواصي بعضهم بعضاً |
| ١٧٩ | من نوادر الكرام |
| ١٨٠ | أوارث أنت بني أمية؟ |

| | |
|-----|--|
| ١٨١ | رحلة الإمام الشافعي |
| ١٩٠ | من أخبار أبي طالب |
| ١٩١ | تبع الأول |
| ١٩٣ | أول من جحد الدين |
| ١٩٤ | جائزة المديح |
| ١٩٤ | من غريب التفسير |
| ١٩٤ | وصية أبي طالب عند وفاته |
| ١٩٥ | حنان أبي بكر |
| ١٩٦ | عمر بن الخطاب في بيت المقدس |
| ٢٠٠ | إيثار علي بن أبي طالب |
| ٢٠٠ | الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر والعجوز |
| ٢٠١ | بين الحسين وأخيه محمد بن الحنفية |
| ٢٠١ | هذا الذي تعرف البطحاء وطأته |
| ٢٠٢ | قدوم عمر بن الخطاب على معاوية بالشام |
| ٢٠٣ | دهاء معاوية |
| ٢٠٣ | نادرة لطيفة |
| ٢٠٤ | المعتصم وتميم بن جميل |
| ٢٠٥ | سماحة غسان بن عباده |
| ٢٠٦ | الخلف الصالح |
| ٢٠٦ | عبيد بن شربة عند معاوية بن أبي سفيان |
| ٢٠٧ | وفود عبد الله بن جعفر على أحد خلفاء بني أمية |
| ٢٠٨ | ومن لطائف المنقول |
| ٢٠٨ | جوار سعيد بن العاص |
| ٢٠٨ | أسخى من عبد الله بن جعفر |
| ٢٠٨ | ومن لطائف المنقول |
| ٢٠٩ | رفائق تقي الدين السروجي |
| ٢١٠ | من أخبار العشاق |
| ٢١٥ | قصيدة ابن منير الطرابلسي في تتر |
| ٢١٩ | بديهة ابن الوردي |

| | |
|-----|---|
| ٢٢٢ | تحفة من فرائد كتاب الإنشاء |
| ٢٢٢ | عبد الحميد الكاتب |
| ٢٢٢ | إسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد |
| ٢٢٢ | عمرو بن مسعدة كاتب المأمون |
| ٢٢٢ | إبراهيم الصولي كاتب المعتصم والواثق والمتوكل |
| ٢٢٣ | الحسن بن وهب |
| ٢٢٣ | بديع الزمان الهمداني |
| ٢٢٤ | أبو القاسم المغربي |
| ٢٢٤ | أبو الحسن بن بسام |
| ٢٢٤ | ضياء الدين بن الأثير الجزي |
| ٢٢٤ | تاج الدين بن الأثير |
| ٢٢٥ | أبو إسحاق الصابي |
| ٢٢٦ | الصاحب بن عباد |
| ٢٢٧ | القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم |
| ٢٢٩ | ابن حجة |
| ٢٣٥ | القاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك |
| ٢٣٥ | القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر خليفة القاضي الفاضل |
| ٢٣٦ | عز الدين بن سينا |
| ٢٣٧ | حظيرة الأنس إلى حضرة القدس لابن نباتة |
| ٢٤٤ | رحلة المؤلف إلى البلاد الرومية |
| ٢٥٠ | رحلة المؤلف من مصر إلى دمشق |
| ٢٦٠ | أدوات المنشي |
| ٢٦٠ | آداب الكتابة |
| ٢٦١ | في وصف القلم |
| ٢٦٢ | في وصف الدواة |
| ٢٦٢ | في وصف السكين |
| ٢٦٤ | في وصف السيف |
| ٢٦٦ | في وصف الرماح |
| ٢٦٩ | في وصف القوس |

| | |
|-----|---------------------------|
| ٢٧٠ | السجع |
| ٢٧١ | فصل في الكلام على الفقرات |
| ٢٧٢ | عود إلى السجع |
| ٢٧٣ | البلاغة والفصاحة |

ذيل ثمرات الأوراق لابن حجة

| | |
|-----|---|
| ٢٧٩ | الرشيد وغادر جارية الهادي |
| ٢٨٠ | رؤيا |
| ٢٨١ | يجود بكفنه |
| ٢٨١ | مداس أبي القاسم |
| ٢٨٢ | قصيدة ليزيد بن معاوية |
| ٢٨٣ | عاتكة بنت يزيد |
| ٢٨٣ | وصف الأهرام |
| ٢٨٤ | قصيدة علي بن عبد العزيز الجرجاني |
| ٢٨٤ | أبو نواس يحكي أقوال الفقهاء في الشراب |
| ٢٨٥ | من كلام للفضل بن سهل وقد أبل من مرضه |
| ٢٨٥ | رؤيا عبد الله بن المبارك |
| ٢٨٨ | قصة معروف الكرخي مع مجوسي |
| ٢٩٠ | معن بن زائدة وبعض الشعراء |
| ٢٩٠ | معن بن زائدة وضيوفه من الأسرى |
| ٢٩١ | معن بن زائدة ومستجير به |
| ٢٩٢ | نادرة يرويها الجاحظ |
| ٢٩٣ | من كلام أبي القاسم الجنيد |
| ٢٩٣ | الأئمة الفقهاء على مائدة ابن حنبل |
| ٢٩٤ | حكاية عبد الله بن معمر مع عتبة بن الحباب الأنصاري |
| ٢٩٨ | نادرة للعز بن عبد السلام |
| ٢٩٨ | نادرة للجاحظ مع معلم كتاب |
| ٢٩٩ | الرشيد ورجل من بقايا أمراء بني أمية |
| ٣٠٢ | نادرة |

| | |
|-----|--------------------------------|
| ٣٠٣ | من أخبار هولاءكو في بغداد |
| ٣٠٦ | المغني الغيور |
| ٣٠٧ | جميلة الموصلية في حجها |
| ٣٠٨ | عبد الله بن جعفر في موسم الحج |
| ٣٠٨ | دعاء عمرو بن زر في الكعبة |
| ٣٠٨ | عجائب المخلوقات |
| ٣٠٩ | من أخبار معن بن زائدة |
| ٣١١ | قصيدة ابن زريق |
| ٣١٣ | إمام يصلي العشاء ركعتين |
| ٣١٣ | انتقام من حاسد |
| ٣١٤ | ترتيب أسماء الولايم |
| ٣١٤ | أسماء أيام العجوز على الترتيب |
| ٣١٤ | ترتيب أسماء خيل الحلبة |
| ٣١٤ | لأبي العلاء المعري |
| ٣١٥ | نبذة لغوية يفقر كل متأذب إليها |
| ٣١٦ | كتابة المصحف على خوصة |
| ٣١٦ | من مآثور حكم الإمام |